علينا ان نركز على تاريخنا العربي الاسلامي ، ونوليه اهتماماً
بارزاً واضحاً ، لان التاريخ الاسلامي هو تاريخ العرب في
اساسه ، بالاضافة الى دور الرسالة واتجاهاتها .....
وهو تاريخ مشرق في الحضارة العربية . فعلينا ان نهتم به ....
وان نكتبه بما ينسجم مع هذا الفهم لا ان نحرفه ونكتبه حسب الهوى الشخصي

صدام حسين

تقديم :

لم تقتصر المعرفة الانسانية على لون معين من العلوم، ولا جمدت على جانب واحد من سبل البحث، بل هي واسعة سعة افق تفكير الانسان، ومتنوعة تنوع آماله وأمانيه، وخسر من ظن غير ذلك وسار في الطريق الضد في الحياة، وهكذا كانت كلية الاداب في قطرنا العراقي، كانت مصانع لصياغة الانسان المفكر، الانسان التقدمي الذى لايريد من الحياة الا بأن تتطور، تبعا لتطور الانسان في العالم اليوم ولصياغة الانسان الانساني الذى يحمل الخير لكل الناس .

ولهذا ازداد اهتمام الثورة بها، وبتطوير مناهجها لتستجيب لمتطلبات الحياة في المستقبل، ومن اجل ان توصل افكارها، للناس، وان تستمر في متابعة التقدم العلمي اصدرت مجلتها العلمية «آداب الرافدين» لتوثق الصلة بين المجتمع والجامعة، وبين الانسان المفكر فيها وبين المفكرين في العالم .

وهي لاتقتصر فيما ينشر فيها على ما ينتجه تدريسيوها، وانما تفتح صفحاتها لكل باحث، ولكن ينبغي ان يبرأ ما يردها قبل نشره وتتوثق هي منه، وذلك عن طريقين :

اولهما : هو ان يشترك اعضاء كل قسم في مناقشة مايقدمه منتسبوها فاذا ما تأكدت من ان البحث قد استكمل الجوانب التي تنقصه، واخذ صاحبه بالملاحظات التي لحظها المناقشون اجازت نشره .

وثانيهما : وهو فيما يردها من خارج الكلية فقد شرطت بان يبرئه اعلام مشهود لهم بالتقدم العلمي وذلك بتقرير موقع من اثنين منهما .

لتحافظ بذلك على خط سيرها العلمي الرصين الذى فرضته منذ اعدادها الأولى، ولتتأكد من فائدةما تقدمه للمعرفة الانسانية.

والمجلة بعد تعد الباحثين والقراء، بأنها ستكون على الطريق وانها ستساهم في ابراز خطط التنمية وحملات التقدم العلمي التي وضعتها قيادتنا السياسية، وتجعلها من اهم ماتسعى اليها.

هيئة التحرير

لمحات من تاريخ الحركة الطلابية في العراق

١٩٢٦ ـ ١٩٣٠

الدكتور
ياسر عباس الزيدي



تمهيد :ـ

يتميز القطاع الطلابي في العالم الثالث وفي جميع البلدان المتخلفة عن باقي القطاعات الشعبية في كونه يلعب دوراً قيادياً ورائداً في عملية تغيير المجتمع ونقله من حالة التخلف الى واقع الحضارة والتقدم الانساني .

ولقد اسقطت الحركة الطلابية بالفعل تلك النظرات التقليدية التي كانت تتحكم بطبيعة عملها والتي تقف في طريق مساهمتها القيادية لخدمة الشعب فاتخذت طابعاً آخر من العمل احدثت من خلاله تغيرات كبيرة في بنية المجتمع نفسه . فلم تعد الحركة تعتمد الدفع المهني كوازع للعمل وكمحدد لمسيرتها بل تعدت حدود ذلك العمل لتشارك مشاركة جدية في عمليات البناء حيث وضعت جميع دوافعها الذاتية في سبيل الشعب والوطن .

والحركة الطلابية في العراق لعبت أدواراً مشرفة في جميع المعارك التي خاضها الشعب ضد الاحتلال ، فقدمت التضحيات العظيمة وساهمت في توعية الجماهير ورص صفوفها في تلك المعارك الوطنية وهيأت الارضية الشعبية لها : ففي الوقت الذي كنا نجد فيه قوى معينة كانت تتحرك حركة ميكانيكية بحكم وعيها نجد الطلبة يشاركون بالرغم من الضغوط المسلطة ويقودون المظاهرات والاضرابات في كل مناسبة تعبيراً عن سخط الجماهير على السلطة الديكتاتورية العسكرية وكانوا باستمرار يشخصون التناقضات المميتة في واقع تلك السلطة ، وكانت حركتهم تشكل امتداداً حيوياً وطبيعياً بين قوى الثوره وكان من نتيجتها ان سقط الشهيد تلو الشهيد . لقد تلاحمت الحركة الطلابية مع قطاعات الشعب المناضلة الاخرى وخاضت معها جنباً الى جنب الكفاح من أجل التحرر والديمقراطية والتقدم . فمرت تلك الحركة بمراحل عديدة وخاضت تجارب مختلفة اكسبتها وعياً ونضجاً ثوريين واعطتها نظرة قومية تسمو بها عن الاقليمية الضيقة ومن هنا كان شعار وحدة الحركة الطلابية يجد صدى واسعاً لدى جميع الطلبة في العراق . وما الحركات الطلابية التي سنستعرضها من ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ الا مثال حي لتلك الوحدة الطلابية المتينة

التي تميزت بوعي سياسي واندفاع في العمل فكانت من أنشط فئات المجتمع، وفي غياب الاحزاب الموجهة لنشاطاتهم كانوا يقومون على طريقتهم الخاصة، بالمشاركة في التظاهرات والاضرابات الوطنية، كانوا يساهمون في مجال النشر المحدود وفي الجرائد والمجلات واصدار المنشورات والكراسات



« حركة سنة ١٩٢٦ احتجاجاً على ابرام المعاهدة العراقية البريطانية »

تعتبر المعاهدة العراقية–البريطانية الاولى التي ارغم المجلس التأسيسي العراقي على تصديقها سنة ١٩٢٤ (١) مجحفة بحق السيادة العراقية وكانت ملاحقها الاربعة المتعلقة بالموظفين البريطانيين والشؤون المالية، والسياسية، والعدلية، قد قيدت العراق بقيود شديدة . وقد وفق « السيد برسي كوكس » المندوب السامي البريطاني حينذاك، على حمل حكومته على تقصير مدة المعاهدة لغرضين: اولهما للتخفيف من شدة الانتقادات التي وجهت في البرلمان البريطاني إلى الحكومة البريطانية، نظراً لجسامة المبالغ التي كانت تصرفها بريطانيا على جيش الاحتلال في العراق، وثانيهما هو التخفيف من شدة المعارضة العراقية ضد المعاهدة . ولكن سرعان ماتغير موقف بريطانيا فصممت على اتخاذ قرار عصبة الامم(٢) . وسيلة للطلب إلى العراق بان يصدق المعاهدة العراقية البريطانية الثانية (٣) . فبدأت المحادثات التمهيدية لعقد المعاهدة الجديدة في اواخر عام ١٩٢٥ وكانت بريطانيا تعتبر عقد المعاهدة على جانب من الاهمية اذ انها الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها تأمين حدود العراق(٤). وكان قبول المعاهدة العراقية البريطانية بشرطين، الاول ضمان منطقة الموصل للعراق، خلافاً لما كانت تريده تركيا من

---

(١) انظر، محمد مظفر الأدهمي، المجلس التأسيسي العراقي، دراسة تأريخية سياسية ص٥٦٩.

(٢) اتخذت عصبة الامم في ١٦ كانون الاول سنة ١٩٢٥ قراراً يدعو حكومة بريطانيا إلى ان تعرض معاهدة جديدة مع حكومة العراق تضمن تحديد نظام الانتداب لمدة ٢٥ سنة كما هو مبين في معاهدة التحالف بين بريطانيا والعراق التي صدقها في ٢٧ ايلول سنة ١٩٢٤ .

(٣) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الأستقلال، ص١٧٨. كذلك انظر سجلات البلاط الملكي، المعاهدة العراقية– البريطانية لسنة ١٩٢٥–١٩٢٦، كتاب دار الاعتماد إلى الملك رقم س، و، ن، في ١٩٢٦/٢/٩ ، ص ٨٢–٨٥.

(٤) رجاء حسين حسني الخطاب، العراق بين ١٩٢١– ١٩٢٧، ص١٨٤،

ضم المنطقة اليها، والثاني تحوير المعاهدة نفسها على شاكلة تكون اقرب لتحقيق الآمال الوطنية(٥).

واستغلت بريطانيا النزاع الدولي حول ولاية الموصل (٦) لتحقيق مآربها وتتلخص في

(١) مد اجل المعاهدة العراقية- البريطانية إلى (٢٥) سنة بعد ان كانت اربع سنوات.

(٢) الحصول على امتيازات النفط.

وقد تم لبريطانيا ماارادت فقد هدد المعتمد السامي (السير هنري دوبس) صراحة بقوله « اما ترك الموصل للترك أو توقيع المعاهدة حسب الشروط البريطانية» (٧).

لقد ادى هذا إلى هياج شعبي، وحاول عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء الاستقالة ولكنه باصرار من الملك سحب استقالته، وقام حزب التقدم بامرار المعاهدة في مجلس النواب وازاء ذلك انسحب المعارضون وعددهم ١٨ نائباً من المجلس ونتيجة لهذه الملابسات ازداد النقد لهذه المعاهدة واصبحت محل نقمة العناصر الوطنية(٨). فقد استنكر الرأي العام العراقي المعاهدة ولاسيما الشرط الملحق بها الذي قضى بتحديد الانتداب على العراق لمدة (٢٥) سنة (٩). وكان الطلاب في مقدمة المستنكرين فقد احدثت

---

(٥) د. زكي صالح، مقدمة في تاريخ العراق المعاصر، ص٧٣.

(٦) للاطلاع على هذا النزاع انظر، د. فاضل حسين، مشكلة الموصل(رسالة دكتوراه) ارنولد توينبي، العالم الاسلامي، ص٤٧١- ٥٣٠(وهو الجزء الاول في سلسلة موجز العلاقات الدولية لعام ١٩٢٥). هنري فوستر، تكوين العراق الحديث، ص١٤٢-١٧٧.

(٧) عبد الرزاق الحسني، العراق في ظل المعاهدات، ص ١٠٧. انظر كذلك د. زاهية قدوره، تاريخ العرب الحديث، ص١٤١.

(٨) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص٢٨.

(٩) جريدة المفيد، العدد الصادر في ١٣ كانون الثان ١٩٢٦. كذلك، سامي القيسي ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية بين عامين ١٩٢٢- ١٩٣٦، ج٢ ص١٦

انباء المعاهدة والتوقيع عليها وامرارها بهذه السرعة في المجلس النيابي وقعاً سيئاً بين طلاب المدرسة الثانوية وكان من بين المدرسين في المدرسة الثانوية مدرس انكليزي اسمه «كوديل» (GOODALL) وكأي مستعمر، لم يرق له مالمسه من ردود الفعل في الصحافة والاوساط الشعبية وبين الطلبة من نقد لبريطانيا وللمعاهدة، فتفوه بالفاظ نابية ضد العراقيين والعرب عامة مبدياً استنكاره للنقد الذي يوجه إلى بريطانيا وهي تقوم حسب رأيه «بتعليمهم» و«تحضيرهم» واتهمهم «بنكران الجميل» واشتط في السباب والشتائم ضد الحركة الوطنية خاصة والعراقيين بصفة عامة بقوله «حمير» لانهم لايقبلون معاهدة ١٩٢٦.

وازاء هذا الاستفزاز والتهجم، قام الطلبة بالاضراب ورفضوا حضور دروسه وقدموا العرائض إلى مدير المدرسة ووزارة المعارف مطالبين باخراجه من العراق، وكان كل من حسين جميل، وعبد القادر اسماعيل من طلاب الصف الثالث ثانوي في المدرسة المذكورة آنذاك فقاما بدور بارز في الاضراب، وفي تحريض الطلاب على الاستمرار فيه إلى ان قبلت مطاليبهم ولما رأت وزارة المعارف اصرار الطلبة على موقفهم ولخشيتها من اتساع نطاق الاضراب قامت الوزارة باستبداله بمدرس آخر اسمه «Prayer» (١٠) وبذلك انتصرت ارادة الطلبة ورضخت السلطة لارادتهم.

«حركة سنة ١٩٢٧ بسبب فصل النصولي»

في سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ تم استقدام اربعة مدرسين من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت، لتدريس التاريخ والتربية، والعلوم الرياضية في المدارس الثانوية ودار المعلمين وهم انيس النصولي، عبد الله المشنوق، من بيروت، درويش المقدادي من طولكرم، وجلال زريق من اللاذقية (١١).

---

(١٠) محمد يوسف خليل، الاهالي والحركة الوطنية في العراق، ص٨٨.

(١١) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، ج١، سنة ١٩٢١— ١٩٢٧، ص ٥٥٧.

قرر أنيس(١٢) النصولي في سنة ١٩٢٦ ان يطبع ابحاثه ودروسه المتعلقة بالدولة الاموية في الشام في ملازم بلغ عددصفحاتها٣٦٠ صفحة وتم توزيعها (١٣) على الطلبة ومن ثم قام بطبعها بكتاب عنوانه«الدولة الاموية في الشام» وما كاد يطلع عليه الرأي العام حتى هبت حملة شديدة من الاستنكار تستهجن ما توصل اليه المؤلف من استنتاجات تؤدي الى تشجيع النعرات الطائفية فارتفعت اصوات الاستنكار ترمي النصولي بتفريق الجامعة الاسلامية (١٤).

وفي ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٧ اصدرت وزارة المعارف العراقية امراً بطرد النصولي من وظيفته ومنع الكتاب من التداول، فقام المدرسون السوريون المستخدمون في المدارس العراقية بالثار لزميلهم فحرضوا الطلبة على التظاهر ضد ما أسموه ب«خنق الحركة الفكرية»(١٥). وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٧ خرجت جموع من طلبة المدرسة الثانوية ودار المعلمين وأجتمعوا في حديقة الصالحية حيث عقدوا مؤتمراً طلابياً يعتبر أول مؤتمر لطلبة العراق بحثوا خلاله فصل استاذهم وأكدوا شعار حرية الفكر في جو من الحماسة (١٦)، وتعاقب الخطباء يؤكدون العزم على هذه المعاني واستقر رايهم بعد المداولة على تقديم عريضة الى وزير المعارف يحتجون فيها على فصل النصولي وقد وقعها الطلبة (١٧) ونصت على ما يلي: —

(١٢) انيس زكريا النصولي: لبناني الاصل، تخرج في الجامعة الامريكية عام ١٩٢٤ وانصرف إلى العناية بدراسة التاريخ العربي فكتب في (الهلال) و(المقتطف) و(الزهراء) فصولا في التاريخ واشترك في مسابقة نظمتها الجامعة الامريكية في تأليف احسن كتاب عن النهضة العربية في القرن التاسع عشر ففاز في الأولوية، وانتدبته حكومة العراق للتدريس في مدارسها فعمل في الموصل اولا ثم انتقل إلى بغداد. انظر خيري العمري حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٤٦.

(١٣) ساطع الحصري، المصدر السابق، ص ٥٥٧.

(١٤) د. عبد الامير هادي العكام، الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١ — ١٩٣٣، ص ٢٢١.

(١٥) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص ٨٤.

(١٦) جريدة الاستقلال، العدد الصادر في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧.

(١٧) المصدر نفسه.

«نحن الموقعين أدناه طلاب المدرستين الثانوية ودار المعلمين نحتج على قراركم القاضي بفصل الاستاذ انيس زكريا النصولي وذلك قتلا للحركة الفكرية فنطلب اعادة النظر في قضية الاستاذ ولكم مزيد من الشكر » (١٨) واتجه الطلبة في مظاهرة قاصدة الوصول الى وزارة المعارف لتسليم تلك العريضة الى وزير المعارف فسارت في شارع الرشيد وهي تهتف بحياة الحرية الفكرية وتردد الاناشيد الحماسية ، وواصلت المظاهرة سيرها يتقدم صفوفها الطلبة حسين جميل وفائق السامرائي وعبد الرزاق الظاهر حتى وصلت الى شارع المأمون حيث مقر وزارة المعارف ، وحاول وفد يمثل الطلبة ان يدخل على الوزير ليقابله غير ان سكرتير الوزارة أخبرهم بأن الوزير غائب وطلب اليهم الانصراف فلم ينصرفوا مما اضطر قوات الشرطة ان تهجم على الطلبة فدارت معركة بين الشرطة والطلبة استخدمت فيها الشرطة العصي الغليظة واستخدم فيها الطلبة الحجارة والحصى وعندما فشلت الشرطة في تفريق الطلبة اضطرت الاستعانة بسيارات فرقة اطفاء الحريق (٢٠) وخراطيم مياهها لتفريق شمل المتظاهرين وسرعان ما وصلت تلك السيارات يسبقها بوق الانذار وهبط منها رجال الاطفاء بخوذهم الفولاذية ووقف المستر (فيشر) مدير الاطفاء يلقي عليهم تعليماته بالقرب من مدير شرطة بغداد (حسام الدين جمعة) وبدأ رجال الاطفاء بتوجيه خراطيم المياه على الطلبة فتدفقت المياه بسرعة وقوة فأضطرب الطلبة وتفرقوا في بادىء الامر — ثم تجمعوا بعد قليل وهجموا على رجال الشرطة ورجال الاطفاء يرمونهم بالحجارة وبعد ذلك قرروا الرجوع الى مدارسهم للاعتصام حتى تنفذ مطاليبهم (٢١) والفت وزارة المعارف

---

(١٨) خيري العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٥٤.

(١٩) كان التفكير بالاستعانة برجال الاطفاء من اقتراح ساطع الحصري، اذ رأى بان اسلوب الضرب الذي تمارسه الشرطة ضد الطلبة سيزيدهم هيجاناً وعناداً، انظر ساطع الحصري، مذكراته في العراق، ج١ ص ٥٦٤.

(٢٠) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص ٨٨.

(٢١) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، ج١، ص٥٦٣.

لجنة برئاسة «سمرقيل» المستشار الانكليزي وعضويه بعض موظفي الديوان للتحقيق، وأنصرف «سمرقيل» يتجه بالتحقيق اتجاهاً يتمشى مع سياسة تفريق الصفوف وأثارت النعرات الطائفية وقد ادرك الطلبة ذلك فعملوا على احباطها وقرروا انهاء الاضراب واصدروا بياناً في الاول من شباط ١٩٢٧ جاء فيه : —

«... لقد اشاع البعض ان المظاهرة التي قمنا بها نحن طلاب المدرسة الثانوية ودار المعلمين كانت ناشئة عن دافع خارجي كما انهم اشاعوا ان تلك المظاهرات صدرت من طائفة من الطوائف فنحن ازاء هذه الاشاعات الكاذبة نصرح إلى آبنائنا وامهاتنا واخواننا من ابناء العراق بأننا لم نعمل بأي وحي خارجي سوى ارضاء ضمائرنا ووجداننا وحرصاً منا على الحرية الفكرية من ان ينهدم كيانها فضلا عن اننا سعينا يداً واحدة لافرق بين طائفة من الطوائف الاسلامية بل تكاتفنا وتعاضدنا والوحدة المقدسة رايتنا وارضاء الضمير رائدنا». (٢٢)

وانهت لجنة التحقيق اعمالها فاصدرت وزارة المعارف قراراً تضمن:

(١) فصل الاستاذ عبد الله مشنوق وجلال زريق ودرويش المقدادي وتسفيرهم .

(٢) فصل الاستاذ يوسف زينل باعتباره محرضاً وتخفيض درجة يوسف عز الدين من مدير المدرسة الثانوية إلى معلم في دار المعلمين باعتباره مهملا في واجبات وظيفته .

(٣) يطرد الطلاب محمد خالد ابراهيم وعبد القادر اسماعيل وعبد الرحمن الجوربجي وعبد اللطيف عطا وكامل ابراهيم وفؤاد درويش وعبد الستار عبد الجبار لمدة شهر .

(٤) ويطرد الطلاب حسين جميل وفائق السامرائي وعبد اللطيف محي الدين وانور نجيب طردا مؤبدا.

(٢٢) د. عبد الامير هادي العكام : الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١- ١٩٣٣، ص ٢٢٤، ٢٢٥

(٥) ويطرد الطلاب ادهم مشتاق ومحمود عبد الكريم وعزيز علي وانيس وزير وجلال عبد الرزاق وصبحي كمال وعبد الله شريف واحمد فوزي ومحمد الحاج علي وخليل جميل وحسام الدين العبيدي لمدة اسبوعين .
(٦) انذار الطلاب قاسم وجواد حسين وعبد الرزاق الظاهر ويوسف عبود وشاكر محمود وظافر صالح(٢٣).

واصدرت وزارة المعارف امراً آخر منعت بموجبه الطلبة من الانتساب للمدرسة الثانوية ودار المعلمين والى اي جمعية او ناد أو من الكتابة في الصحف واذاعة البيانات باسم الطلبة. وبعث انيس النصولي عندما بلغه هذا الخبر برسالة من بيروت إلى بعض طلابه الذين فصلوا نهائياً يواسيهم ويشد من ازرهم(٢٤).

وحاول الطلبة اثارة قضيتهم في المجلس النيابي وكانوا يطالبون باعادتهم إلى مدارسهم كما بحثت هذه القضية في اجتماع طلابي عقد في سينما (رويال) في بغداد (٢٥). واخذ الطلاب المطرودون وذووهم يستعطفون المراجع العليا ورجال الحكومة لارجاعهم إلى مدارسهم وتمكينهم من مواصلة دروسهم، بدون أن يجدوا عطفاً على قضيتهم، فحاول زملاء لهم الاضراب عن الدرس احتجاجاً على عدم تلبية طلبات اخوانهم ، وقاموا بمظاهرة في السادس من آذار سنة ١٩٢٧ ولم تسفر تلك المظاهرات عن نتيجة (٢٦). فلم ير الطلبة المفصولون بداً من تقديم التماس إلى الملك فيصل بينوا فيه ان وزارة المعارف قد عاقبتهم بالطرد النهائي والمؤقت لقيامهم بالمظاهرة الاحتجاجية ضد فصل استاذهم النصولي وقد اختصتهم الوزارة

(٢٣) خيري العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٥٨.
(٢٤) نفس المصدر، ص ١٦٢. انظر كذلك خيري العمري مقالته في مجلة الهلال العدد ١٤٦ يناير سنة ١٩٦٧، ص ٥٥٧.
(٢٥) د. عبد الامير هادي العكام، المصدر السابق ص ٢٢٧.
(٢٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص ٨٨.

بالعقاب الصارم من مجموع ثمانمائة طالب من مدرستي الثانوية ودار المعلمين ولم تستمع الوزارة لدفاعهم ضد التهم الموجهة اليهم وقد أدت إلى عقابهم وطلبوا اخيراً ببراءتهم (٢٧). ونتيجة لهذا الالتماس امر الملك فيصل الاول ارجاع الطلبة المفصولين إلى مدارسهم(٢٨) الا ان اعادة الطلبة المفصولين لم تكن النهاية لهذه القضية بل أنها كانت المشكلة وبداية لاخرى لعلها اشد خطورة، فهي بالنسبة للطلاب رغم ان اعادة المطرودين منهم، قد يكون تراجعاً بسيطاً من السلطة حمل في طياته اعترافاً- ولو ضمنياً- بصرامة الاجراءات التي سبق اتخاذها بحق الطلبة، الا أنه مع هذا نجح في تهدئة الطلبة، ولو بصورة مؤقتة على الاقل (٢٩).

ومن الامور الهامة التي تمخضت عنها حركة الطلاب مايلي : -

(١) طرحت على الرأي العام لاول مرة وبشكل صاخب شعار « حرية الفكر » في بلد تتنوع فيه المعتقدات والمذاهب ويشتد التمسك بها وقد يتعرض للمس والانتقاد في حالة تطبيق الحرية الفكرية.

(٢) كان الطلاب مع « الحرية الفكرية » بكل ابعادها، متاثرين بسحر هذا المبدأ الذي نادت به الثورة الفرنسية غير مبالين بالخلافات المذهبية والدينية على حين لم يجرؤ كبار المفكرين والاحرار في العراق آنذاك من الجهر بآرائهم فلاذوا بالصمت وتركوا الطلبة وحدهم في الميدان.

(٣) تصرف الطلبة بأسلوب يدل على نضج سياسي، وحس وطني عميق حين لم يسمحوا لانفسهم بان ينزلقوا في متاهات المشاكل التي دأبت على تمزيق وحدة الشعب العراقي منذ عهد بعيد كما فوتوا الفرصة على الاستعماريين الانكليز حينما اخذوا يوجهون التحقيق نحو هذا المنعطف الخطير وتكاتف

---

(٢٧) جريدة العراق: العدد ٢٠٨٦ الصادر عام ١٩٢٧.
(٢٨) عبد الامير هادي العكام، المصدر السابق ١٩٢٧.
(٢٩) محمد يوسف خليل، الاهالي والحركة الوطنية في العراق ص ١٠٣ رسالة ماجستير غير منشور

الطلاب بمختلف مذاهبهم للعمل معاً فنجحوا لذلك في توجيه الاحداث في الوجهة التي ارادوها عندما فكروا في القيام بحركتهم.

(٤) يقابل النجاح الطلابي في عدم السماح للخلافات الطائفية بالتسرب إلى صفوفهم فشل خطير لدى الشارع العراقي، حيث نجح تجار السياسة والمغرضون، والمتصيدون في الماء العكر الذين حذر منهم الطلبة في بياناتهم، في التسلل إلى صفوف من يدعون بقادة « الرأي العام».

حركة ١٩٢٨ لزيارة « الفرد موند » لبغداد

منذ تكوين الحكم الاهلي(٣٠)في العراق والصراع في فلسطين بين العرب والصهاينة يشغل (٣١) أذهان الرأي العام العراقي ولاسيما الطلبة ، ويثير اهتمامه وقد عنيت الصحافة (٣٢) المحلية بهذا الصراع عناية بالغة فكتبت المقالات في شجب الحركة الصهيونية (٣٣) واستنكار وعد بلفور (٣٤) وكانت حوادث

---

(٣٠) يطلق مصطلح الحكم الاهلي على الفترة التي تلت يوم (٥ تشرين الاول ١٩٢٠) حين تم تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني.

(٣١) للاطلاع على تاريخ الصراع العربي الصهيوني في هذه الفترة انظر د. عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٢. محمود زايد، تاريخ فلسطين ١٩١٤– ١٩٤٨ ص ٤٥. محمد عزة دروزه، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج١، ص ٢٣.

(٣٢) صحف. العراق، النهضة، الزمان، السياسة الاسبوعية، العالم العربي.

(٣٣) الصهيونية: حركة عنصرية ذات طبيعة استعمارية تهدف إلى تهجير يهود العالم من مجتمعاتهم التي يقيمون فيها واحلالهم محل سكان فلسطين وذلك بتأييد الدول الاستعمارية الصهيونية الحديثة إلى القرن التاسع عشر وتقترن بلفظ « صهيون » وهو جبل يقع شرق القدس، انظر محمد عبد الرؤوف سليم، تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة، ص١٥.

(٣٤) آثر بلفور وزير خارجية بريطانيا في عهد حكومة لويد جورج وهو من الصهاينة البارزين سعى إلى ان تلتزم بريطانيا بتحقيق حلم الصهيونية في اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ولقد جاء هذا الالتزام على شكل رسالة بعث بها في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ إلى اللورد روتشيلد الثري الصهيوني. انظر عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث ص ٣٤.

فلسطين الدامية تترك صداها العميق في نفوس الطلبة وقد سارع الطلبة الى عقد الاجتماعات الاحتجاجية وجمع الاعانات المالية لمساعدة عرب فلسطين العربية .

وفي اوائل عام ١٩٢٨ تناقلت وكالات الانباء العالمية ان السير (الفرد موند)(٣٥) سيقوم بجولة في اقطار الشرق الاوسط ، وقد يزور العراق لاغراض أقتصادية منها ما يتعلق بدراسة مشروع مد أنابيب النفط من كركوك الى حيفا على البحر المتوسط ومنها ما يتصل بدراسة امكانية تحسين الاراضي الزراعية في العراق بأختيار السماد الكيمياوي الملائم للتربة (٣٦) .

وقد أثارت هذه الزيارات ارتياب الطلبة وشكوكهم ، وسرعان ما تحولت تلك الشكوك الى مشاعر عميقة من السخط والغضب عندما سرت في بغداد شائعة مفادها ان السير «الفرد موند» سيصل العاصمة في ٨ شباط وان الطائفة اليهودية تستعد للترحيب به واقامة الاحتفالات ابتهاجاً بمقدمه ، وقد استفزت هذه الشائعة الطلبة لما تنطوي عليه من تحد لمشاعرهم الوطنية ولما تضمنته من استهانة بعواطفهم القومية ،وقد حفزت تلك الاشاعة طلبة دار المعلمين والثانوية المركزية والحقوق وغيرهم الى عقد اجتماع في (نادي التضامن) تداولوا فيه الامر مع بعضهم فاستقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للقيام بمظاهرات تعبر عن سخطهم على الحركة الصهيونية وتفصح عن مشاعرهم القومية ، وقد شجعهم على ذلك نجاح المظاهرات التي قامت في العام الماضي عن «النصولي» وانتصاراً لحرية الرأي وما حققته تلك الحركة من « بطولات» وما اثارته من صدى بعيد في مختلف الاوساط (٣٧) .

وتسلل الطلبة بعد هذا الاجتماع فمضى بعضهم بعد الشعارات وراح بعضهم الآخر يحضر الاعلام العراقية والفلسطينية وانصرف آخرون الى حث الطلبة

---

(٣٥) انكليزي يهودي صهيوني احد اقطاب الحركة الصهيونية ومن كبار رجال المال وقد كانت لزيارته اهداف صهيونية بعيدة المدى، انظر ، طالب مشتاق، اوراق من ايامي، ص ١٨٨.

(٣٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ج٢، ص ١٥٨.

(٣٧) خيري العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٧٣.

على الاشتراك في هذه الانتفاضة وفي ظهر يوم ٨ شباط أجتاحت شارع الرشيد مظاهرة طلابية ترفع لافتات كتب على بعضها (ليسقط وعد بلفور) (لتسقط الصهيونية) (تحيا الامة العربية) (٣٨) ويرددون هتافاً (ليسقط بلفور ووعده) وطوراً (بيت المقدس عربية) وحينا آخر (فليرجع الزعيم الصهيوني الفرد موند) (٣٩) .

وبعد ان سارت المظاهرات في شارع الرشيد عبرت الى جانب الكرخ حيث انضمت اليها جموع شتى من الجماهير ، واتجهت نحو جسر الخر بعد ان اتسعت وتعاظمت حتّى بلغت ثلاثة آلاف طالب .

وقد تصدى رجال الشرطة لهذه المظاهرة في محاولة لمنعها من مواصلة سيرها نحو جسر الخر فاشتبكوا معها في معركة عنيفة استعان فيها الطلبة بالحجارة والحصى والقناني واستخدم فيها الشرطة هراواتهم وخيولهم فداسوا بسنابكها عدداً من الطلبة فواصل الطلبة سيرهم نحو جسر الخر في جو من الحماسة ونشوة الظفر (٤٠) .

وعند جسر الخر رابط الطلبة وعيونهم ترقب بحذر وهم يفتشون السيارات القادمة بغية العثور على سيارة «الفرد موند »حتّى اذا خيم الظلام ولم يجدوا اثراً لسيارة (موند) عادوا الى شارع الرشيد في الليل وهم يهزجون بحماسة اشد«رَدينا السير موند وجينا » والمارة في الشارع تصفق لهم والنساء من الشرفات يزغردن .

لقد فوجئت حكومة «عبد المحسن السعدون » (٤١) بهذه المظاهرة العنيفة وخشيت ان يتعرض «الفرد موند » الى اعتداء فسارعت الى حمايته من غضب

---

(٣٨) انظر ملحق جريدة العراق العدد الصادر بتأريخ ٩ شباط ١٩٢٨.

(٣٩) كذلك انظر ملحق جريدة العالم العربي العدد انصادر بتاريخ ٩ شباط ١٩٢٨

(٤٠) خيري العمري، المصدر السابق ، ص ١٧٩

(٤١) وهي الحكومة السعدونية الثالثة التي تم تشكيلها في تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ واستمرت في الحكم حتى ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ عندما استقالت فالفت الوزارة السويدية الاولى. انظر، عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية،ج٢، ص ١٥٣، ص ٢٤١.

الطلبة ، فارسلت بعد أن فشلت الشرطة في منع المظاهرات من الوصول الى جسر الخر بسرعة مدير شرطة بغداد (٤٢) مع قوة من الشرطة الى منطقة «ابي منيصير» حيث استقبل من هناك (السير الفرد موند) ووضعته تحت حراسة مشددة فنقلته تحت ستار الظلام الى الكاظمية ومنها الى الاعظمية والى (دار الاعتماد البريطاني) حيث حل ضيفاً هناك مع زوجته وأبنته الليدى (ايرليا) اما حاشيته فقد نزلت في دار اليازر خضوري احد اثرياء اليهود العراقيين المقيمين في لندن (٤٣) .

وبادرت الحكومة في مساء اليوم نفسه الى اتخاذ اجراءات سريعة فكبست الشرطة (نادي التضامن) وابعدت رئيسه (يوسف زينل) الى البصرة وفق أحكام المادة (٤٠) من قانون دعاوي العشائر .. وذلك باعتباره الشخص الذي يختفي وراء المظاهرات (٤٤) . كما القت الحكومة على ستة من الاهلين وعلى خمسة وثلاثين طالباً . (٤٥)

وبدأ التدخل البريطاني سريعاً وفعالا في هذه الازمة فارسلت دائرة المندوب السامي البريطاني فور وقوع الحادث في ١٠ شباط سنة ١٩٢٨ كتاباً سرياً(٤٦) الى وزارة الداخلية انتقدت فيه تصرفات الشرطة لمواجهة هذه الحادثة ولعدم اتخاذها الاحتياطات لتفريق المتظاهرين ولمنعهم من عبور الجسور من الرصافة الى الكرخ وعدم حماية المندوب السامي واقترح ان تشدد الحراسة

(٤٢) حسام الدين جمعة.

(٤٣) خيري العمري، المصدر السابق نفسه، ص ١٧٧.

(٤٤) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص ١٥٩. انظر كذلك جريدة العراق العدد (٢٣٧٣) الصادر بتاريخ ١٠ شباط ١٩٢٨.

(٤٥) المصدر السابق نفسه.

(٤٦) للاطلاع على تفاصيل الرسالة راجع ملفات البلاط الملكي في مركز الوثائق ببغداد ملف رقم د / ٦ / ٣ لسنة ١٩٢٧، ١٩٢٨، ١٩٢٩، ص ١٨- ٢١.

وان يكون احدضباط الشرطة مسؤولا عنها (٤٧) وفي ١٠ شباط ١٩٢٨ اجتمع لفيف كبير من الاهلين في جامع «الحيدر خانة» للاحتجاج على سياسة الحكومة ازاء المتظاهرين في حادثة الثامن من شباط ، ولاعلان السخط على وعد بلفور، القاضي باتخاذ فلسطين العربية وطناً قومياً لليهود، خلافاً لمبادىء العدل والقانون وقد تعالت الهتافات المدوية بسقوط الصهيونية ، وبحياة الامة العربية فأتخذت الشرطة التدابير الصارمة لمنع توسع هذه الحركة فقبضت على عدد من الخطباء وفرقت المتجمعين بعنف (٤٨) .

وفي ٩ شباط صدر مرسوم رقم ١٩ لسنة ١٩٢٨ هذا نصه :

المادة الاولى : اذا تحقق ان أحد طلاب المدارس ممن لم يكمل الثامنة من عمره قد اشترك في اي أجتماع غير قانوني او أقلق او حاول ان يقلق السلم العام بصورة اخرى يسوغ عقابه بالجلد بعد المعاينة الطبية على ان لايزيد ذلك على (٢٥) جلدة .

المادة الثانية : على وزير المعارف تنفيذ هذا المرسوم الذي يعتبر نافذاً من يوم نشره في الجريدة الرسمية وله ان يصدر تعليمات لتسهيل تطبيقه . اما الطلاب الذين تجاوزوا سن الثامنة عشرة فقد صدر بحقهم القرار التالي :

١ ــ ان يطردوا طرداً مؤقتاً او مؤبداً الطلاب الذين لم تشملهم احكام المرسوم لكبر سنهم والذين يثبت بانهم اشتركوا في المظاهرات التي وقعت في ٨ شباط .

٢ ــ أن لايستخدم في دوائر الدولة في المستقبل من تقرر طرده من هؤلاء طرداً مؤبداً بسبب الحادث المذكور.عندما انعقد مجلس الوزراء فقد باغت

---

(٤٧) عبد الامير هادي العكام، الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١– ١٩٣٣، ص ٢٩٠ وللاطلاع على تفاصيل الرسالة راجع ملفات البلاط الملكي في مركز الوثائق ببغداد ملف رقم/د/٦/٣ لسنة ١٩٢٧ ١٩٢٨، ص ١٨ص ٢١.

(٤٨) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص ١٥٩، انظر كذلك العكام ص ٢٩١.

المستشار القانوني لوزارة العدل المستر (درأور) الوزراء باقتراح يتضمن اصدار مرسوم رقم (٤) يخول وزير الداخلية سلطة وضع الاشخاص تحت الرقابة على ان يتضمن اثراً رجعياً يشمل الوقائع السابقة لصدورة « واستدعت السلطة عدداً من مديري المدارس لاستجوابهم والتحقيق معهم وسارعت وزارة المعارف إلى اتخاذ قرارات سريعة يقضي بعضها بالطرد المؤبد فمن كلية الحقوق طرد . حسين جميل وعبد القادر اسماعيل ومن دار المعلمين مزاحم ماهر، سعيد عباس، صالح عبد الوهاب، عبد الوهاب الخطيب، عبد الحميد الخالدي،عبد الرزاق قاسم، محمود الحمودي، حسن مرهون،عزيز علي، اسماعيل علي، عبد الحافظ ابراهيم ومن الثانوية المركزية: سعيد عبد الله، احمد قاسم راجي، ادهم مشتاق عزيز شريف، عبد اللطيف محيي الدين، وطرد مؤقتاً لمدة شهر كل من جواد حسين وديع فتح الله، محمود عبد الجبار ، ، عبد الهادي عبد الخالق، ومن الثانوية المركزية ولمدة اسبوع: عبد الجليل علي، حسين راجي، خضير الحاج طالب، وطرد لمدة شهرين من مدرسة الكرخ: عبد العزيز علي الخليل وسعيد حميد .

وعقد وزير المعارف اجتماعاً مع مديري المدارس واساتذتها هدد فيه برمي المتظاهرين بالرصاص.... وقد بادرت السلطات إلى احالة عدد من الطلاب إلى محاكم الجزاء بتهمة القيام بمظاهرات مخالفة لاحكام المادة ٨٤، ٨٥ من قانون العقوبات البغدادي متطوع كل من كمال السنوي وعبد العزيز جميل ومحمد سالم الكيلاني بالدفاع عنهم» (٥٠).

يلاحظ ان القرارات التي اتخذتها الحكومة بسبب حوادث ٨ شباط كانت مستعجلة وصارمة واسباب ذلك تعود إلى ظروف الزمان فان المظاهرات المذكورة حدثت بعد اقل من سنة من قيام المظاهرات العنيفة التي اشتركت فيها جميع طبقات الشعب وفي مقدمتهم الطلبة بمناسبة فصل انيس زكريا النصولي ومن ناحية اخرى كانت الحكومة قد حلت مجلس النواب فكان

(٤٩) محمد يوسف خليل، الاهالي والحركة الوطنية في العراق، رسالة ماجستير غير مطبوعةص١٢٣.

(٥٠) خيري العمري حكايات سياسته من تاريخ العراق الحديث، ص ١٧٨- ١٧٩.

عليها ان تجري انتخابات جديدة خلال المدة التي ينص عليها الدستور فخشيت من وقوع مظاهرات مماثلة لها عند الانتخابات الجديدة فيختل النظام العام اختلالا تصعب معالجته.

غير ان هذه الاحكام الجائرة بحق الطلبة صارت هدفاً لانتقادات شديدة من الصحافة والاحزاب (٥١) ولا سيما المفعول الرجعي الذي نص عليه المرسوم رقم (١٤) فقد أثر تأثيراً سيئاً جداً على رجال الحقوق (٥٢).

وفي صلابة وعناد رفع الطلبة الى (عبد المحسن السعدون) رئيس الوزراء أحتجاجاً نص على «... تبلغنا بتاريخ ٤ شباط بقرار وزارة المعارف الجليل القاضي بطردنا من المدرسة طرداً مؤبداً بناء على أدعائها بان لنا صلة بالمظاهرة التي اقيمت ضد الصهيونية يوم ٨ شباط وبما ان القرار الوزاري المشار اليه مجحف بحقوقنا فنحن نطلب من فخامتكم ان تصدروا امركم الى هذه الوزارة باعادة النظر في قرارها المذكور نظراً للاسباب التالية :

(١) ان وزارة المعارف الجليلة لم تجر تحقيقاتها في قضيتنا وفق القواعد القانونية فانها لم تحضرنا امام المحققين ولم تسمع منا دفاعاً يبرىء ساحتنا او شهداء ينفون عنا التهم التي الصقت بنا بالاقوال المجردة وانما أخذتنا بالشبهات خلافاً للقاعدة الشرعية القائلة بان الحدود تدرأ الشبهات. وانه لشيء كبير ياصاحب الفخامة ان يعاقب بهذا العقاب الصارم عدد غير قليل من الشباب بمجرد الاقوال والشبهات.

(٢) ان الحادثة التي عوقبنا من أجل الاشتراك بها وقعت في اصيل ٨ شباط اي في وقت غير وقت الدوام في المدارس وان طلاب المدارس انما يعاقبون أذا ارتكبوا افعالا مخلة بالنظام المدرسي ولم يكونوا بوجه من الوجوه معرضين للعقاب عن امور لم تقع في بناية المدرسة اللهم الا أذا تصرفوا بأخلاق مشينة

(٥١) حزب الامة الذي انشىء في ١٩ آب ١٩٢٤ برئاسة جعفر الشبيبي، وحزب الاستقلال الذي انشىء، في الاول من ايلول ١٩٢٤ برئاسة عبد الله رأفت، والحزب الوطني الذي انشىء في نيسان ١٩٢٥ برئاسة عبد الله آل سليمان. انظر عبد الامير هادي العكام الحركة الوطنية في العراق، ١٩٢١ – ١٩٣٣، ص ٤٦٢. ص ٤٧٠.

(٥٢) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، ج٢، ص١١ – ١٤.

لايقبلها نظام المدارس وان المظاهرة ضد الصهيونية لم تكن من هذا القبيل بل كانت حركة شريفة سامية .

(٣) ان القواعد القانونية لاتجيز العقاب بدون نص وليس باستطاعة الوزارة الجليلة ان تبين لنا المادة التي استندت اليها في طردنا ومعاقبتها ايانا هذا العقاب الصارم .

(٤) ان مظاهرة ٨ شباط ليست من الحوادث المخلة بالنظام العام وسلامة الدولة لان المظاهرة المذكورة اقيمت احتجاجاً ضد الصهيونية التي تعاني منها فلسطين العربية الشهيدة ، وان الصهيونية يا صاحب الفخامة ليست من المبادىء المعترف بمشروعيتها في العراق حتى يكون الاحتجاج عليها مخالفة للنظام العام او يهدد سلامة الدولة . وانها بالضد من ذلك فان السماح بالدعوة اليها وتثبيت اصولها وجعل هذه البلاد مسرحاً يرتع فيه زعماؤها ودعاتها مما يستوجب الاخلال بالنظام العام وسلامة الدولة لان الرأي العام العراقي مجمع على مقاتلتها ومقاومتها ونحن على يقين من ان قلب كل عربي يخفق عطفاً على فلسطين العربية كما خفقت قلوب المتظاهرين بالامس .

وان قولنا بمشروعية المظاهرة يوم ٨ شباط لايستفاد منه أننا كنا من المتصلين بها ، وان اردنا ان نصارح فخامتكم بان الاشتراك في مثل هذه المظاهرة السلمية لايستلزم هذه الضحايا .

(٥) ان العقوبات التي فرضتها الوزارة لم تفرض من مقام ذي اختصاص بفرضها لان هيئة التحقيق في هذه الحادثة لم تؤلف من مدرسي المدارس التي طرد طلابها وان القواعد المتبعة تستلزم اشتراك المدرسين لانهم أدرى بطلابهم واهدى من غيرهم الى سبيل التحقيق المنتج .

(٦) نحن لاندري ما هو الاصلاح المنشود من طرد عدد غير قليل من الشبان من المدارس وحرمانهم من ارتياد مناهل العلم مع ان الغاية المتوخاة من العقوبة هي الاصلاح فنحن نعرض اليكم ياصاحب الفخامة طلبنا هذا منتظرين اصدار

امركم الى الوزارة الجليلة باعادة النظر في قرارها المنوه عنه وارجاعنا الى مدارسنا ولكم الشكر» (٥٣) .

لم يستطع (الفرد موند) بسبب تلك الضجة التي أثارها الطلبة ضده ان يبقى في بغداد اكثر من اسبوع ، زار خلالها في تكتم شديد المدارس (٥٤) والنوادي اليهودية وحضر مأدبة اقامها له الملك فيصل الاول وصرح انه جاء الى العراق لمشاهدة اطلال بابل . ودراسة بعض المشروعات الاقتصادية وفي ١٥ شباط سنة ١٩٢٨ غادر بغداد مع حاشيته على متن طائرة نقلته الى الرطبة حيث كانت سيارة نبرن بانتظارة (٥٥) .

وبعد سفر «موند» تكررت الانتقادات بشدة خلال اجتماعات مجلس النواب الجديد عندما عرضت عليه الحكومة المرسومين عملا بأحكام الدستور وفي آخر الامر رأت الحكومة ان تلغي المرسومين (٥٦) .

«حركة ١٩٢٨ عند تشييع جثمان الشيخ ضاري»

كان الشيخ ضاري المحمود رئيس عشيرة (زوبع) على رأس الثائرين في منطقة الرمادي سنة ١٩٢٠ وفي شهر آب ١٩٢٠(٥٧) دعاه الكولونيل (لجمان) حاكم الرمادي العسكري لمقابلته في «خان النقطة»(٥٨) فجرت اثناء المقابلة مناقشات

(٥٣) خيري العمري. حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٨٥.

(٥٤) مدرسة البيرساسون الابتدائية والمتوسطة للبنين، مدرسة لوبه خضوري الابتدائية والمتوسطة مدرسة راحيل شمعون الابتدائية للبنين المدرسة الوطنية، مدرسة شماش الاعدادية للبنين، مدرسة مسعود سلمان، مدرسة منشي صالح الابتدائية للبنين، الثانوية الأهلية ، مدرسة فرنك عيني المتوسطة انظر خلدون ناجي معروف ، الاقلية اليهودية في العراق ١٩٢١-١٩٥٢. ج١ ص ١٥٠- ١٥٤.

(٥٥) خيري العمري، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٥٦) ساطع الحصري، المصدر السابق، ص ١١ - ١٤.

(٥٧) عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية ص ١٧٠- ١٧١.

(٥٨) خان بناه الشيخ ضاري على طريق الفلوجة، يبعد عن بغداد ثمانية كيلومترات في هذا الخان مثوى الشيخ ضاري.

حادة بين لجمان وضاري مما حدا بالشيخ ضاري ان يطلق النار على لجمان فقتله(٥٩). كما اسر ثلاثين من افراد الشبانة من الذين كانوا بمعية لجمان(٦٠). وبعد مقتل لجمان اتجه الشيخ ضاري نحو عشيرة «المحامدة» وحل ضيفاً على رئيسها الشيخ حبيب الشلال ومن هناك اخذ يراسل(٦١) بعض رؤساء الرمادي للانضواء تحت لواء ثورة العشرين ، ولم يلبث طويلا حتى اتجه نحو مدينة كربلاء وقد استقبل بحفاوة بالغة وحل ضيفاً في دار السيد«حسين الددة»(٦٢) ثم استقر الشيخ ضاري في قرية « كفرتوثا » بالجزيرة مع ولده خميس

وقد وضعت السلطات البريطانية جائزة مالية لمن يأتي بالشيخ ضاري حياً او ميتاً (٦٣) وقد غالت الحكومة في عقاب الشيخ ضاري وعشيرته فقد احرقت مزارعه ونهبت بيوته، ثم سدت قنوات المياه عن مزارعه(٦٤) كما البت ضد عشيرة زوبع كافة العشائر المحيطة بها كعشائر الدليم وعنزة (٦٥) ولم تكتف السلطات البريطانية بهذه الوسائل القمعية بل الفت جيشاً لملاحقة الشيخ ضاري . ولكنها اخفقت وخسرت كثيراً من الاموال والرجال(٦٦) «وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٨ القى القبض على الشيخ ضاري وحوكم امام محكمة جزاء بغداد الكبرى واصدرت عليه الحكم بالاعدام شنقاً حتى الموت في ٣٠ كانون الثاني بالرغم من مطالبة الادعاء العام ببراءته ثم أبدل قرار الاعدام بالسجن المؤبد وقد تطوع بالدفاع عنه عدد من المحامين الوطنيين (٦٧)وفي الاول من شباط ١٩٢٨ توفي الشيخ

---

(٥٩) نفس المصدر، ص ١٧٠- ١٧١.
(٦٠) محمد علي كمال الدين، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين ص ٢٩٥.
(٦١) كان يقوم بتحرير تلك الكتب السيد داود العجيل احد ملاكي الصقلاوية.
(٦٢) عبد الجبار الجسام، ثلاثون سنة في الوظيفة، ص ٣٥.
(٦٣) عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الاحتلال والانتداب ج٢ ص ١٤٨ انظر كذلك د. زكي صالح مقدمة في دراسة العراق المعاصر، ص ٣١، المس بيل فصول، من تاريخ العراق الحديث، ص ٤٥٣.
(٦٤) د. عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى، ص ٣٠٠.
(٦٥) فريق آل مزهر فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ص ٥٧٨.
(٦٦) محمد علي كمال الدين، المصدر السابق ص ٣٨٢.
(٦٧) عبد الحميد العلوجي، وعزيز جاسم الحجية، الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لجمان في خان النقطة، ص ٧٧.

ضاري وهو في السجن وسرى نعيه في نفوس الوطنيين . وعند سماع الطلبة بنبأ الوفاة اتجهت جموعهم الغفيرة إلى المستشفى وطالبوا بتسليم الجثة إلى زوجته ولكن السلطة البريطانية رفضت طلبهم وقررت دفنها في مقبرة الشيخ معروف بصورة خفية خشية من قيام المظاهرات وبينما كانت الشرطة تحمل الجثة وتضعها في السيارة اقتحم الطلبة بناية المستشفى الملكي(٦٨) واخذوا الجثمان عنوة وساروا به في شوارع بغداد وهم يهتفون باستقلال العراق وبسقوط بريطانيا وكان الموكب مؤلفاً من مائة الف نسمة فساروا بالنعش بين «الهوسات» وزغردة النسوة وتصفيق الجماهير وهتافاتهم من باب المعظم إلى جسر الاحرار(٦٩) مارا امام دار الاعتمـــاد البريطاني (٧٠) فطريق الشواكـة المؤدى إلى ترام الكاظمية(٧١) ثم إلى بيت زوجة الفقيد (٧٢) ولما كان الطلبة متلهفين على فقيدهم، لم يمهلوا اهل الفقيد النظر إلى جثته الا قليلا ، وبعد ذلك اخرج الطلبة النعش من البيت وساروا به إلى مرقد الشيخ معروف(٧٣). « ولما اتم الناس صلاة الجنازة للمرة الثانية استقبل طلاب المدارس النعش الكريم ، واصروا على ان يحملوه دون سواهم إلى مقره الاخير . وقد انصف الخلق شبيبتهم المهذبة ، وقدروا الروح السامية التي ظهروا بها . وهكذا فاز التلاميذ بشرف حملوا جثمان الفقيد (٧٤)» .

---

(٦٨) المستشفى الجمهوري حالياً.

(٦٩) جسر الاحرار: الذي كان يسمى جسر مود حينذاك.

(٧٠) عبد الجبار العمر مقتل الكولونيل لجمان، مقالة بمجلة آفاق عربية ، العدد ١١ تموز ١٩٧٧.

(٧١) كانت الكاظمية مرتبطة بالكرخ بسكة حديد(ترامواي) انشأه مدحت باشا وقد ازيل هذا الخط عام ١٩٤٩ بصورة نهائية.

(٧٢) عبد الحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجية، المصدر السابق، ص ١٢٠– ١٢٤.

(٧٣) (٧٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٥– ١٢٨.

« حركة ١٩٣٠ احتجاجاً على ابرام المعاهدة العراقية – البريطانية »

في ٣٠ حزيران وقع المندوب السامي البريطاني ونوري السعيد وزير الخارجية معاهدة انكليزية – عراقية جديدة ، كانت آخر معاهدة في تاريخ العراق السياسي الحديث ، وكانت هذه المعاهدة تنص على عقد حلف امده خمس وعشرون سنة بين بريطانيا والعراق ، تؤيد عزم بريطانيا على انهاء مسؤوليات الانتداب البريطاني فيه ابتداء من تاريخ دخوله العصبة (٧٥) وبذلك كبلت هذه المعاهدة العراق بقيود اثقل من قيود الانتداب وربطته بعجلة الاستعمار البريطاني سياسياً وعسكرياً واقتصادياً (٧٦).وقد اختار الانكليز نوري السعيد، ليقوم بخداع الشعب في تصريحاته المستمرة من ان المعاهدة تضمن تحقيق المطاليب التي ينشدها المواطنون ، وذلك بعد ان بلغ الهياج الشعبي ذروته سخطاً على سياسة المماطلة والتسويف سياسة اهمال رغبات الشعب وكبح حرياته . وقد توالت الاضرابات في العاصمة وسائر المدن وتدفقت التظاهرات الجماهيرية في الشوارع (٧٧) وما ان اذيعت محتويات هذه المعاهدة حتى تناولها ساسة العراق (٧٨) وصحافته (٧٩) بالنقد اللاذع ، اما على النطاق الشعبي فقد رأت الحركة الوطنية هذه المعاهدة صكا انتدابيا مغلقاً بتغلغل النفوذ البريطاني في مطاوى فقراتها

(٧٥) Helen M . Davis, ed . ,constitutions, Electoral laws, Treaties of ststes in the Near and Middle East (Durham, N · C . 1947) P·148 ·

(٧٦) جلال الطالباني، كردستان والحركة القومية الكردية، ص ١١٦.

(٧٧) حسين مروة، ثورة العراق، ص٢١.

(٧٨) نقد المعاهدة بشدة كل من ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، وحكمت سليمان وتوفيق السويدي، وعبد العزيز القصاب، وكامل الجادرجي والسيد عبد المهدي ، ويوسف غنيمة ومزاحم الباجه جي، وناجي السويدي، انظر د. زكي صالح، مقدمة في تاريخ العراق المعاصر ص٨٥.

وكذلك انظر : Ireland, philipw., Iraq : Astudy in politicaɪ pevelopment (N.w York, 1938), P416—417 ·

(٧٩) جريدة العالم العربي، العدد الصادر في ١٧، ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٠.
جريدة البلاد، العدد الصادر في ١٩٣٠/٧/٧.
جريدة صوت العراق، العدد الصادر في ١٩٣٠/٧/٢٠.

وموادها . وماهي الا وسيلة لتنفيذ مآرب الحكومة البريطانية على اراضي الرافدين وعلى حساب الحكومة العراقية لذلك عارضتها وحملت الشعب على رفضها وقد عبرت عن آرائها في نشر المقالات الواسعة في الصحف والقيام بالتظاهرات وتقديم المذكرات الى الملك فيصل الاول ورؤساء الدول الاجنبية. (٨٠)

وعلى الرغم من التصديق على المعاهدة في المجلس النيابي من قبل أكثرية ساحقة فان الرأي العام العراقي كان قد تلقاها بعدم ارتياح ، بلغ حد السخط في البيئات المثقفة المدركة (٨١) فلم يتخلف الطلبة من اظهار شعورهم الوطني تجاه صك الانتداب الذي فرضته بريطانيا على العراق في عهد الحكومة السعيدية فارسل الطلبة برقيات استنكار للحكومة يطالبون فيها باعطاء الاستقلال للعراق وبالتخلص من التبعية البريطانية ونتيجة لوجود اسماء وعناوين هؤلاء الطلبة على صفحات تلك البرقيات قامت الحكومة بفصلهم من مدارسهم ولكن ذلك لم يفت في عضد الحركة الطلابية فما ان اذيعت نصوص المعاهدة حتى قام كل من عبدالقادر اسماعيل وحسين جميل بالتعاون مع مجموعة الطلاب بكتابة منشور طبع في مطبعة الآداب وقد نص على دعوة الشعب العراقي للاجتماع والقيام بالتظاهر استنكارا للمعاهدة فتم القاء القبض على هؤلاء الطلبة وتم تقديمهم الى محكمة جزاء بغداد (٨٢) . وبعد هذه الانتفاضة كون الطلبة الاكراد في معاهد بغداد رابطة ثقافية واجتماعية وسياسية تجمعهم تحت اسم (كومه لي لاوان) ومع ان هذه الرابطة لم تكن منظمة ذات اهداف وبرامج سياسية اونظام داخلي مدون ،الا انها كانت جامعة لنشاط وفعاليات الطلبة الاكراد وانماء روح التعاون والتعاضد بينهم وخدمة الثقافة الكردية (٨٣) .

(٨٠) د. عبد الامير هادي العكام، الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١– ١٩٣٣، ص ٢٤٤.
(٨١) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ص٢٠٢.
(٨٢) محمد يوسف خليل، الاهالي والحركة الوطنية في العراق، ص١٢٠.
(٨٣) جلال الطالباني، كردستان والحركة القومية الكردية، ص١١٩.

الخاتمـــة :-

مما سبق يتضح لنا جهود الطلبةالهام والمشرف في قيادة الجماهير ضد المعاهدات الاستعمارية الجائرة ورفضهم للاغلال والقيود التي حاول الاستعمارتكبيل الشعب بها فكان اولئك الشباب الرجال الذين يقهرون بوضوح رؤياهم وارادتهم تحديات الذات وينطلقون بصدور عامرة بالنضال فيعلنون الثورة تلو الثورة ويكتبون حروفها بدمائهم ويرسمون طريقها بعرقهم . وقد عرفوا كيف يتعاملون مع العلم في خدمة الانسان العربي ذلك الانسان المغلوب على امره كما عرفوا كيف يوفقون بين طلب العلم وممارسة النضال ويوجهونهما في قناة الاهداف الستراتيجية والمرحلية . كل هذا بدافع الايمان بالهدف وكانت لغة الايمان بالهدف والتصميم عليه هي الانتصار الحقيقي ، فالحركة الطلابية حقيقة واقعة تجلت باعظم صورها في تنظيمها الواعي المنظم ونضالها الدؤوب المتلازم مع نضال الجماهير الكادحة. فكانت الحركـة الطلابية تدافع عن اماني الجماهير وطموحاتها المشروعة من خلال تصدرها للنضالات الجماهيرية كفصيلة واعية ومثقفة قدمت الكثير من الشهداء فاحتلت مواقع متقدمة في مراحل النضال ضد الملكية والدكتاتورية والرجعية .

المصادر التي اعتمد عليها في كتابة البحث

١ ــ الكتب

١ ــ البزاز ، عبد الرحمن،العراق من الاحتلال حتى الاستقلال (بغداد ــ مطبعه العاني ١٩٦٧) .

٢ ــ بيل ، المس ، فصول من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، (بيروت ، مطبعة دار الكتب ١٩٤٧) .

٣ ــ الجسام ، عبد الجبار عباس ، ثلاثون سنة في الوظيفة ، (بغداد ، مطبعة دار السلام ، ١٩٥٠)

٤ ــ حسين ، فاضل ، مشكلة الموصل ، دراسة في الدبلوماسية العراقية الانكليزية التركية وفي الرأي العام (بغداد مطبعة الرابطة ١٩٥٥).

٥ ــ الحسني ، عبد الرزاق ، تاريخ الوزارات العراقية ج ٢ (بيروت مطبعة دار الكتب ١٩٧٤) .

٦ ــ الحسني ، عبد الرزاق ، الثورة العراقية الكبرى (صيدا ــ مطبعة العرفان ١٩٦٥).

٧ ــ الحسني ،عبد الرزاق،العراق في دوري الاحتلال والانتداب (صيدا ــ مطبعة العرفان ١٩٣٥) .

٨ ــ الحسني ،عبد الرزاق،العراق في ظل المعاهدات (صيدا ــ مطبعة العرفان ١٩٥٧) .

٩ ــ الحصرى ، ساطع ، مذكراتي في العراق ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ ، ج١ ، (بيروت دار الطليعة ١٩٦٨) .

١٠ ــ الخطاب ، رجاء حسين حسني ، العراق بين ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ بغداد ــ مطبعة دار الحرية ١٩٧٧) .

١١ ــ خليل ، محمد يوسف ، الاهالي والحركة الوطنية في العراق ، (رسالة ماجستير غير منشوره) مطبوعة بالرونيو ١٩٧٢ .

١٢ ــ سليم ، محمد عبد الرؤوف ، تاريخ الحركة الصهيونية ، الحديثة (القاهرة ــ المطبعة السلفية ١٩٥٠) .

١٣ ــ الطالباني ، جلال ،كردستان والحركة القومية الكردية (بيروت ــ مطبعة دار الطليعة ١٩٧١) ط٢ .

١٤ ــ صالح ، زكي ، مقدمة في دراسة العراق المعاصر (بغداد ــ مطبعة الرابطة ١٩٥٣) .

١٥ ــ العمري ، خيري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث (بغداد مطبعة العاني ١٩٦٥) .

١٦ ــ العكام ، عبد الامير هادى ، الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١ ــ ١٩٣٣ (النجف ــ مطبعة الاداب ١٩٧٥) .

١٧ ــ العلوجي، عبد الحميد واخرون، الشيخ ضارى قاتل الكولونيل لجمان في خان النقطة (بغداد ــ مطبعة اسعد ١٩٦٨) .

١٨ ــ فوستر ،هنري ، تكوين العراق الحديث ، ترجمة عبد المسيح جويدة (بغداد ١٩٣٤) .

١٩ ــ الفياض ، عبدالله ، الثورة العراقية الكبرى (بغداد ،مطبعة الارشاد ١٩٦٢) .

٢٠ ــ الفرعون ، فريق المزهر ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية (بغداد مطبعة النجاح ١٩٥٢) .

٢١ ــ القيسي ،سامي عبد الحافظ ، ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية ١٩٢٢ ــ ١٩٤٦ ج٢ (بغداد ــ مطبعة العاني ١٩٧٥) .

٢٢ ــ قدوره ، زاهية ، تاريخ العرب الحديث (بيروت ــ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٥) .

٢٣ – معروف ، خلدون ناجي ، الاقلية اليهودية في العراق بين١٩٢١ – ١٩٥٢ (بغداد – مطبعة دار الساعة ١٩٧٥) .

٢٤ – مشتاق ، طالب،اوراق ايامي ١٩٠٠ – ١٩٥٨ ج١ (بيروت – دار الطليعة ١٩٦٨) .

٢٥ – كمال الدين ، محمد علي ، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين (بغداد – مطبعة التضامن ١٩٧١) .

٢٦ – الكيالي ، عبد الوهاب ، موجز تاريخ فلسطين الحديث (بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧١) .

٢٧ – زايد ، محمود زايد ، تاريخ فلسطين ١٩١٤ – ١٩٤٨ (القاهرة مطبعة المتوسط ١٩٧٤) .

٢٨ – دروزة ، محمد عزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، ج١ (بيروت – المطبعة العصرية ١٩٦٠) .

٢ – الصحف

١ – جريدة الاستقلال ، العدد الصادر في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧.

٢ – مجلة الهلال ، العدد ١٤٦ ، يناير سنة ١٩٦٧ .

٣ – جريدة العراق ، العدد ٢٠٨٦ سنة ١٩٢٧ .

٤ – ملحق جريدة العراق ، العدد الصادر بتاريخ ٩ شباط ١٩٢٨ .

٥ – ملحق جريدة العالم العربي ، العدد الصادر بتاريخ ١٠ شباط ١٩٢٨.

٦ – جريدة العراق ، العدد (٣٧٣) الصادر بتاريخ ١٠ شباط ١٩٢٨.

٧ – مجلة آفاق عربية ، العدد ١١ تموز ١٩٧٧ ، مقالة لعبد الجبار العمر بعنوان مقتل الكولونيل لجمان.

٨ – جريدة المفيد ، العدد الصادر في ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦ .

٩ – جريدة العالم العربي ، العدد الصادر في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٠ .

١٠ – جريدة البلاد ، العدد الصادر في ٧ تموز سنة ١٩٣٠ .

١١ – جريدة صوت العراق ، العدد الصادر في ٢٠ تموز سنة ١٩٣٠

٣ – الوثائق

١ – ملفات البلاط الملكي في مركز الوثائق، ببغداد رقم د/٦/ ٣ لسنة ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ ص١٨ – ٢٢ .

٢ – سجلات البلاط الملكي المعاهدة العراقية – البريطانية لسنة ١٩٢٥ – ١٩٢٦ ، كتاب دار الاعتماد إلى الملك فيصل الاول رقم س ، و ن ، في ١٩٢٦/٢/٩ ص٨٢ – ٨٥ .

٤ – المصادر الاجنبية

Helon M. Davis, ed. , ·constitutions Eelctoeal Laws, Treaties of States in the Near & Middle East (Durham, N· C· 1947) P· 148

Ireland , Philip W· , Iarq : A study in Political development (New York, 1938) P 416) -- 417·

سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام

د. بريد عبد القادر نوري
قسم التاريخ / كلية الآداب



تقديم

نتيجة للغزو الصليبي لبلاد الشام، ظهر حكام مسلمون تمكنوا – بما يتمتعون به من مقدرة وكفاءة – ان يحتلوا مركز القيادة لمنطقة الشام او لبعض مدنه وان يتزعموا الجبهة الموحدة التي يكونونها مما يمكنهم توحيده من بلاد مصر والشام وبلاد الجزيرة ، نظرا لضعف السلطة المركزية في بغداد من ناحية وامكانية اولئك الزعماء في اكتشاف امنيات امتهم في الوحدة والتحرير من ناحية ثانية. ولذلك فلم يكن من الغريب ان يصل إلى القيادة من سائر المماليك من يستطيع اكتشاف اهداف شعبه ويعمل على تحقيقها .

وماسيف الدين قلاوون الا واحد من اولئك الزعماء الذين تطلعوا بعمق إلى اهداف امتهم في التصدي للصليبيين وتحرير بلاد الشام من سيطرتهم وعمل على تحقيقها كما حققها من قبله نور الدين محمود زنكي (ت ٥٦٩ ﻫ / ١١٧٤ م) وصلاح الدين الايوبي (٥٨٩ﻫ / ١١٩٣م) اللذين نالا بفضل تصديهم للصليبيين اعجاب الامة الاسلامية .

ولما كانت محاربة الصليبيين لاتتأتى بالعمل البطولي الارتجالي وحده ، بل بالوحدة وبناء الجبهة الداخلية اولا ، وباعداد العدة ثانيا . لذلك فقد شمل موضوع البحث فقرتين ، كانت الاولى في ماهية السياسة التي اتبعها قلاوون في سبيل بناء الجبهة الداخلية ، على حين شملت الفقرة الثانية موقفه من الصليبيين والخطوات التي اتبعها في وقف هجماتهم على بلاد الشام وخططه العسكرية والدبلوماسية في صد ذلك الهجوم .

وقد عمدت إلى بحث هذا الموضوع نظرا لان ماوجدته في المكتبه العربية من بحوث في هذا الباب لم يف بالغرض المطلوب خاصة وان البحث في موضوع الحروب الصليبية يعتبر من المواضيع الهامة ، لان الامة العربية اليوم لاتزال تغزى من الغرب الاستعماري ، كما كانت تغزى من قبل الغرب الصليبي . ولذلك فدراسة اسباب الغزوات التي واجهتها امتنا سابقاً والاطلاع على مواقفهم

وحلولهم لها ، ربما يفيد في القاء الضوء على مشاكلنا المعاصرة ويدفع بنا إلى التعرف على العوامل التي مكنت اولئك القادة ومنهم سيف الدين قلاوون من الانتصار على اولئك الغزاة الذين كانوا يستهدفون القضاء على الوجود الاسلامي في منطقة الشام ، لان من اهم نتائج دراستنا للتاريخ ، كسب العبرة والافادة منها في تصحيح خطوات الحاضر.

ظهرت فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد الخليفة العباسي المأمون ثم استعان بهم المعتصم بشكل اكثر اذ جلب فرقا كبيرة من التركمان لتدعيم سطانه . ولما تأسست الدولة الاخشيدية في مصر جعل محمد بن طغج جيشه من الاتراك ومن الديلم ، ولما آلت السلطة الى الايوبيين أكثروا من شراء المماليك الترك حتى اصبحوا اعدادا كبيرة داخل مصر وكانت لهم مميزاتهم الخاصة وارستقراطيتهم المتميزة في المجتمع.

وقد انتقلت اليهم السلطة بعد وفاة نجم الدين الايوبي حيث جاءتهم ظروف مواتية سيطروا من خلالها على مقاليد الحكم في مصر بعد سنة ٦٥٠هـ /١٢٥٢م . وكان من اولئك الامراء المماليك الظاهر بيبرس (١) مؤسس دولة المماليك البحرية — والسلطان قلاوون ، موضوع البحث ، وقد تمكن اولئك المماليك من القيام بدورهم التاريخي في صد الهجوم المغولي على بلاد الشام ، كما تصدوا بحزم للصليبيين.

امتازت حروب السلطان بيبرس مع الصليبيين بعنفها وطولها كما امتازت برجحان كفته وانتصاره المستمر ، فلم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ — ٦٦٩هـ / ١٢٦١ — ١٢٧١م دون ان يوجه بيبرس حملة صغيرة اوكبيرة ضد الصليبيين بالشام . فقد هاجم عكا واستولى على يافا

---

(١) الظاهر بيبرس : هو السلطان ركن الدين البندقداري الصالحي ، قفجاقي الجنس . كان رجلا مملوكاً قوياً من مماليك نجم الدين ايوب في مصر . وقد تقلبت به الاحوال إلى ان صار سلطان الشام ومصر ما بين سنتين (٦٥٨— ٦٧٦هـ / ١٢٦٠— ١٢٧٧م) لما كان يتمتع به من مقدرة وصلاح. انظر : تاريخ ابن الفرات : ٨١/٧—٨٦ .

وقيسارية وارسوف والرملة وصفد ومدينة انطاكية(٢).

وقد سار على سياسة الظاهر بيبرس السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله التركي(٣) الذي يعتبر السابع من ملوك المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام «لما قام به من فتوح واعمال جليلة لانه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا وحكمو ماوحدهم قرابة مائة عام .» (٤) .

وقد جاءت قلاوون هذا ظروف مواتية جعلته يحتل مركز القيادة في حكم اسرة الظاهر بيبرس ، نظرا لشجاعته ومساندته الفعلية للظاهر بيبرس ، وقد ال الامراليه فعلا سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م بعد وفاة السلطان بيبرس الذي لم يخلف من بعده الاولدا في الثامنة عشرة من عمره اسمه السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ومن دون ان يعين له اتابكا(٥)فاضطربت الاحوال السياسية في البلاد واخذ الحاكم الصبي في ملاحقة كبار الامراء والتضييق عليهم ، ومنهم قلاوون مما دفع الى الاجماع على عزلة فتقدموا في اوائل شهر ربيع الاول سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م الى قلعة الجبل التي كان فيها

(٢) انظر بخصوص حروب الظاهر بيبرس مع الصليبيين: تاريخ ابن الفرات: ٧/٨٣-٨٦ . سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر المماليك : ص ١٨٠-١٨٣، احمد مختار العبادي قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام : ص ٢٢١-٢٢٩.

(٣) ينتمي السلطان قلاوون إلى قبيلة برج اغلي الساكنة بحوض نهر الفولكا، فهو تركي الاصل ولمعرفة المزيد عن أصله ومولده وموضه وبعض اعماله انظر : المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك : ق٣ ج١/٦٦٣ ابن الفرات،تاريخ ابن الفرات /٧/٩٤-٩٥ ابن اياس بدائع الزهور:١/١١٤ ، محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٣/٢٠٣-٢٠٤ .

(٤) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك: ٢٩.

(٥) تعني كلمة (اتابك) في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار والكلمة تتألف من لفظين هما: (اتا بمعنى أب و(بك) بمعنى امير او سيد. واول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٦٥هـ.انظر : القلقشندي، صبح الاعشى: ٤/١٨ ،

Ency. of Islam, vol, 1, Art, Atabak p. p· 731 —732·

مقر الحكم وحاصروها وانتهى الامر بخلع الامير الصغير نفسه عن الحكم(٦) والتعويض له عنها بحكم حصن الكرك (٧) .

وبعد خلع السلطان سعيد انتخب السلطان قلاوون اتابكا للملك سلامش بن الظاهر بيبرس الذي كان صبيا ايضا في السابعة من عمره وعلى اثرها انتقلت السلطة الفعلية للسلطان قلاوون واصبح هو الوحيد المتصرف في السلطنة(٨) ومن ثم اخذ يعمل جاهداً في تثبيت حكمه والقبض على مقاليد الامور عن طريق تعيين الموالين له في المراكز الحساسة من البلاد. ومن جهة ثانية فقد القي القبض على القادة والامراء الموالين للسلطان (ناصر الدين) والعادل (سلامش) واودعهم السجن من دون الاعتداء عليهم والسيطرة على اموالهم بقصد تخويفهم واجبارهم على تقديم فروض الطاعة له.(٩)

وهكذا نجح قلاوون بتلك السياسة السلمية في السيطرة على مقاليد الامور واوضح للجميع من الامراء والقادة ان لافائدة من بقاء ذلك الصبي ملكا عليهم . وان الرأي في عزله وانتخاب قلاوون بدلا منه (١٠) وبذلك تم له مااراد وعزل سلامش من السلطة في رجب من سنة ٦٧٨هـ وبذلك انتهى حكم اسرة الظاهر بيبرس البند قد اري وظهرت اسرة قلاوون التي كونت العمود الفقري لدولة المماليك البحرية .

ففي مجال السياسة الداخلية عمد إلى القضاء على تمردات العشائر وقطاع الطرق امثال جاموس والمحوجب اللذين كانا يعيثان في ارض مصر فساداً

(٦) لمعرفة المزيد عن ظروف العزل وسياسة الصغير انظر : ابن اياس بدائع الزهور : ١/١١٤ ، المقريزي، السلوك: ق٣جـ١/٦٥٤ .

(٧) الكرك: حصن منيع يقع إلى الجنوب الغربي من طبرية، استولى عليه الصليبيون بعد مجيئهم إلى الشام بعد سنة ٤٩١هـ وبقي بايديهم يشنون منه الغارات على المواقع الاسلامية المجاورة ويقطعون بواسطته الطريق التجاري بين مصر والشام إلى ان فتحه صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ وانتقل بعده إلى سلطة المماليك. انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة : ق٣جـ٢/٦٩-٧٣ .

(٨) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٢٣٢.

(٩) انظر : ابن خلدون، تاريخ العبر : ق٤جـ٥/٨٥٠ .

(١٠) ابن اياس، بدائع الزهور: ١/١١٤ .

بالسلب مرة اخرى بالقتل حيث قبض عليهم وامر بقتلهما (١١) وفي شوال من سنة ٦٧٨ هـ امر بطرد كتاب الجيوش من النصارى وامر استخدام الكتاب من المسلمين عوضا عنهم . فقد عين مثلا القاضي امين الدين (شاهد صندوق النفقات) كاتبا في ديوان الجيش بدلا من الاسعد ابراهيم النصراني(١٢) وفي هذه الاجراءات مايدل على رغبته في ضبط الشؤون العسكرية ومنع تسرب المعلومات العسكرية للجانب الصليبي .

ولما كان الجيش هو الدعامة الاولى التي يستطيع بها تحقيق اهدافه القاضية بضرب الصيبيين وارجاع ماكانوا قد استولوا عليه من بلاد المسلمين في الشام لذلك اولاه قلاوون عناية كثيرة وعمد لتقويته والاكثار من شراء المماليك (١٤) الذين اخذ يعدهم اعدادا حسنا بتربيتهم والاشراف على شؤونهم الخاصة حتى قدر عدد مماليكه باثنى عشر الف مملوك اختار منهم ثلاثة الاف واسكنهم ابراج القلعة وعرفوا فيما بعد باسم المماليك البرجية (١٥) .

والحقيقة ان اولئك المماليك كانوا قد قاموا بدورمهم في عملية بناء الجيش المملوكي انذاك والوقوف بوجه الخطر المغولي والصليبي الذي كان يهدد منطقة الشام نظرا لحسن تدريبهم وتربيتهم اذ كان جيشا مدربا على فنون القتال المختلفة التي كان يشرف عليها قلاوون بنفسه بالاضافة إلى التربية الدينية المعروفة في ذلك الوقت (١٦).

وبعد ان وثق قلاوون من مقدرته توجه صوب توحيد القوى والطاقات وكان اول عمل بدأ به هو التخلص من منافسيه الذين كانوا يسعون للوصول إلى السلطة داخل مصر وعمل على ابعادهم إلى خارج البلاد ليتسنى له الانفراد

(١١) انظر ابن الفرات ، التاريخ : ١٩٢/٧.

(١٢) نفس المصدر السابق: ٧ / ١٩٣.

(١٤) راجع بخصوص الجيش المملوكي في عهد قلاوون السيد الباز العريني، المماليك:٥٣-٨٣ .

(١٥) انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور: ١ / ١٢٠،حسن ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية:٤٧.

(١٦) انظر : حكيم امين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية: ١٣

بالحكم وبالتالي التفرغ للسياسة الخارجية . وكان من اهم الامراء المشكوك في امرهم (سنقر الاشقر) فقد ابعده قلاوون إلى مدينة دمشق بعيدا عن مصر ليكون نائباً عنه فيها غير انه استغل وجوده في دمشق وعمل على الاستقلال بحكمها واخذ يستقطب الاتباع حوله حتى تمكن من مد سلطانه إلى بعض المدن والقلاع الشامية (١٧).

والحقيقة ان قلاوون كان مخطئا في سياسته السابقة فقد كان عليه ان يحاصر الامراء الذين يشك في نواياهم تجاه الدولة ويعمل على تجريدهم من مناصبهم لا أن يمنحهم امارة مدن بعيدة عن مركز الحكم .

وهكذا تحتم على قلاوون مقارعة الاشقر والتخطيط للقضاء عليه واعادة حكم بلاد الشام تابعاً لمصر فبعث اليه جيشا مصريا كبيرا فيه عدد من المماليك الاشداء بقيادة عز الدين ايبك وما ان وصل الجيش إلى مشارف غزة سنة ٦٧٨هـ حتى حدثت عدة معارك كان نتيجتها اندحار الاشقر وهروبه نحو مشارف دمشق وهناك عمل على استجماع قواته من جديد وتقدم لخوض المعركة الجديدة التي عرفت باسم (الجسورة) والتي انتهت في ١٩ صفر سنة ٦٧٩هـ بهزيمته من جديد وانضمام عدد كبير من جنده إلى الامير عز الدين ايبك الذي تعقب فلول المنهزمين ودخل دمشق (مركز حكم الاشقر) منتصراً (١٨) .

ولما كان قلاوون ينوي في حروبه ضد الامراء المماليك المناوئين له اجبارهم على الدخول في الوحدة لتتوحد الطاقات لذلك فان سياسته اقتضت الوقوف امام جمهور الامه موقفاً ايجابياً، يختلف عن موقفه الذي يقفه امام الامراء الذين كانوا يقفون بوجه محاولات توحيد الامة لذلك اصدر اوامره بالعفو العام عن اهالي دمشق كما امر باكرام الاسرى واطلاق سراحهم (١٩).

والحقيقة ان سنقر الاشقر كان قوياً وله كثير من الاتباع في الشام لذلك

---

(١٧) ابن الفرات، التاريخ: ١٦٣/٧.

(١٨) راجع بخصوص موقف قلاوون من الاشقر وهزيمة الامير العام القوات المصرية المصادر التالية: ابن الفرات: ٦٣/٧، ١٦٩، الذهبي، تاريخ الاسلام: ٣٢/٩.

(١٩) انظر تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق (بيروت : ١٩٤٣) : ١٧٠/٧-١٧١ .

فان قوته لم تنته رغم ماحصل من نتائج في معركة الجسورة فقد تمكن من اعادة سلطانه على حصن صهيون وشيزر (٢٠) وبكاس(٢١) وهدد الوحدة التي كادت ان تقام بين مصر ومعظم بلاد الشام بالفشل، لذلك خطط قلاوون للقضاء عليهم نهائياً، غير ان تقدم المغول نحو الشام دفع بكلا الطرفين إلى التهادن والاتفاق على مقارعة الخطر الخارجي وقد تمكنا فعلا من الانتصار على التتار قرب مدينة حمص ومنعوا تقدمهم نحو داخل بلاد الشام ثم انتهت المعارك مع التتار وعاد الاشقر إلى حصونه من دون ان يحصل على موافقة قلاوون (٢٢).

ولما كان هدف قلاوون توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، لذلك فانه في كل الاحوال لم يرض باستقلال الاشقر ببعض الحصون في بلاد الشام وكان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة فتقدم بقواته نحو الحصون التي كانت تابعة للاشقر واخذ يفتحها ويجبرها على الدخول في الوحدة واحدة بعد الاخرى فقد استرجع حصن بلاطنس (٢٣) ، في صفر سنة ٦٨٤ هـ ، كما استرجع المرقب وبرزية والشغر وبكاس في ربيع الاول من نفس السنة ، ثم انتهت العلاقات السلبية مع الاشقر بفتح حصن صهيون واستسلام الاشقر في ٢٢ صفر سنة ٦٨٦ هـ واعادته إلى القاهرة مكرما (٢٤).

وبعد الانتهاء من فتح ماكان بيد الاشقر من المدن توجه للسيطرة على املاك اولاد السلطان بيبرس في منطقة الشام فاسترجع حصن الشوبك (٢٥) في ١٨

(٢٠) شيزر : قلعة بالشام قرب المعرة، بينهما وبين مدينة حماة يوم يجري من وسطها نهر الاردن وهي تابعة لمدينة حمص وقد افتتحها صلحاً ابو عبيدة بن الجراح سنة ١٧هـ ويقترن اسمها بين منقذ الكنانيين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان(بيروت: ١٩٥٧)): ٣٨٣-٣٨٤.

(٢١) بكاس: قلعة من نواحي حلب على شاطئ العاصي(ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٧٤).

(٢٢) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٧ /١٨٦-١٩٠.

(٢٣) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية كانت تابعة لمدينة حلب : ياقوت الحموي معجم البلدان : ١ /٤٧٨.

(٢٤) انظر: ابن الفرات: التاريخ: ٨/٤٩-٥٠، ابن اياس بدائع الزهور: ١١٧/١.

(٢٥) المقريزي السلوك: جـ١ق٣/ ٦٦٦.

ذى الحجة من سنة ٦٧٨ هـ كما استرجع الصلت في نفس العام ايضا (٢٦) وفي سنة ٦٨٠ هـ تمكن قلاوون من ضم بلاد تونس إلى حكمه وفي سنة ٦٨٥ هـ ضايق حصن الكرك (٢٧) كثيرا الذي كان بيد مسعود الظاهر بيبرس حتى تمكن من استرجاعه (٢٨)

وهكذا تمت الوحدة بين مصر ومعظم بلاد الشام وثبت مركز سيف الدين قلاوون واصبح بفضلها سلطانا لاينافسه احد من الامراء المسلمين القيادة البتة في كل من الشام ومصر وبلاد الجزيرة والحجاز كما اصبح اعداؤه من الصليبيين – بفضل تلك الوحدة – تحت قبضة يده محاصرين من الشمال والشرق ومن الجنوب وقد اصبحت تلك المناطق جميعاً بعد ان سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها مادة لجيوش قلاوون وكان من نتائج تلك الوحدة ان هزم الصليبيون امام قلاوون في عده معارك واستعبدت كل من مدينتي عكا وطرابلس كما سيتبين ذلك في الصفحات القادمة .

ولم يبق لقلاوون بعد اتمام سيطرته على معظم بلاد الشام ومصر الا كسب المسلمين في منطقة الحجاز فعمد إلى اصلاح موقفه من امرائهم والزيادة في أعطياتهم التي بلغت عشرين الف درهم سنوياً مع تقديم الكسوة السنوية للكعبة مما دفع بشريف مكة إلى الاعتراف به والخطبة باسمه والحلف له على ذلك بقسم غليظ (٢٩).

اما بلاد النوبة واليمن فان السلطان قلاوون تمكن من كسب جانب اهلهما عن طريق اخذ الولاء له والموافقة على بقاء البلاد تابعة لحكامها الاصليين بعد ان اتفق الطرفان على استمرار العلاقات طيبة وسليمة (٣٠) وذلك وفقاً للمخاطر التي يتعرض لها حكمه في حالة قيام الاضطرابات هناك .

---

(٢٦) ابن الفرات، التاريخ: ١٦١/٧ .

(٢٧) الكرك: انظر هامش رقم (٧) صفحة رقم (٤٦) .

(٢٨) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب: ٣٩٠/٥.

(٢٩) انظر القسم الذي حلف به شريف مكة وعلاقته بقلاوون: تاريخ ابن الفرات: ٢٤٧/٧.

(٣٠) لمعرفة المزيد عن العلاقات بين قلاوون وامراء اليمن انظر: المقريزي: السلوك: ج١ق/٩٥ ٧٠٢،٦٢١ اما عن العلاقات بين قلاوون وبلاد النوبة انظر: السلوك: ج١ق٣-/٧٤٣- ٧٤٩ ابن الفرات: ٩٢/٨ .

بعد ان سيطر قلاوون على الاوضاع الداخلية وقضى على منافسيه تقدم لمحاربة الصليبين بعد ان امن خطوط رجعته وكسب ثقة المسلمين به وكان اول عمل بدا به هو ارسال الوحدات العسكرية المنظمة لحفظ الساحل الشامي من غدر الهجمات الصليبية التي اخذت تتحول في تلك الظروف مستغلة الوضع الداخلي المتأزم في بلاد الشام (٣١) . لان الصليبيين لم يتمكنوا من اقامة اماراتهم والاستمرار في حكمها الا لضعف المسلمين وتفرقهم في منطقة الشام والجزيرة ومصر مع وجود تناقضات بين مصالح اولئك الامراء . وكمثال على ذلك فقد استغل جماعة الاسبتارية(٣٢) سنة ٦٧٩ هـ فرصة اغارة المغول على حلب وحاولوا الاستيلاء على حصن الاكراد (٣٣) ونكلوا باهله (٣٤) الا أن تلك الاحوال لم تدم بفضل يقظة العالم الاسلامي انذاك وما تمخضت عنه المنطقة من ظهور قادة مخلصين اكفاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة وتمكنوا من الاطاحة باعمال الصليبيين العدوانية في منطقة الشام .

ويكفي ان اقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعياً استجابة للتحدي الذي اصاب المشرق الاسلامي بفعل الغزو الصليبي حتى إنه كان من المألوف

---

(٣١) انظر المقريزي: السلوك ٦٨٣/٤.

(٣٢) الاسبتارية : الكلمة تحريف ظاهر للفظ الافرنجي Hospitallers وتطلق على احدى جمعيات الاخوان الرهبانيين التي شكلت في عهد الحروب الصليبية بالشرق وهي معروفة كذلك باسم فرسان القديس يوحنا وقد خرجت من الشام مع الصليبيين بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م واستقرت بجزيرة رودس بعد ان كانت قد اقسمت القيام بالحرب المقدسة ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات ولمعرفة المزيد عن هذه الطائفة انظر :

King (E. J.) The Knights Hospitallers P. P. I – 33

توفيق اليوزبكي تجارة مصر في العصر المماليكي هامش رقم (٦) صفحة رقم(٢٨) هربرت فيشر تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص ٤٤٤.

(٣٣) حصن الاكراد: حصن منيع على جبل مقابل مدينة حمص من جهة الغرب وكان قد سكنه الاكراد ليكون طليعة بوجه الغزو الصليبي ولهذا سمي باسمهم(ياقوت الحموي معجم البلدان: ٢٦٤/٢).

ان يصل إلى القيادة والامارة رجال من المماليك ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه السائدة وافادوا منها وما سيف الدين قلاوون الا دليل على صحة ذلك الافتراض .

وقد سار سيف الدين قلاوون على سياسة صلاح الدين الايوبي والظاهر بيبرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على مابقي في ايديهم سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٩م عدا مدينة عكا التي استولى عليها من بعده ابنه السلطان خليل سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٤م . وقد كان قوياً بحيث فتح الكثير من القلاع التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها لحصانتها وكثرة الامدادات الصليبية التي كانت تصلها من الغرب كمدينة طرابلس وحصن المرقب (٣٥) .

وكانت سياسة قلاوون تجاه الصليبيين في فترة الاعداد لبناء الجبهة الداخلية تتمثل بالموافقة على عقد مهادنات موقتة مع الصليبيين نظرا للانشغال بصد الهجوم المغولي و التفرغ للقضاء على منافسيه من الامراء المسلمين ومن جهة ثانية فان قلاوون قصد من تلك المهادنات «فصل الصليبيين بالشام عن المغول في العراق وفارس »(٣٦) .

وقد وقع اول تقرير للهدنة بين الاسبتارية بطرابلس وقلاوون وحلف عليه سنة ٦٨٠هـ ١٢٨١م«لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات اولها يوم السبت ثاني عشرى المحرم ... وتقررت [الهدنة ايضا] مع تملك طرابلس والشام ... لمدة عشر سنين » (٣٧) وكان جوهر الاتفاقيه ينص على الشروط التالية .

(١) يقيم نواب السلطان قلاوون وصاحب طرابلس الصليبي بمدينة اللاذقية

---

(٣٤) انظر : The Knights Hospitallers – P . 282

(٣٥) انظر علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية: ٥٨؛٥٩.

(٣٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: ١١٦٦/٢.

(٣٧) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ق٣،ج١/٦٨٥، انظر تاريخ ابن الفرات: ٢٠٤/٧.

(٣٨) انظر : تاريخ ابن الفرات: ٢٠٥/٧-٢٠٦ محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوغ ن ٢٣٣.

للاشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .

(٢) على الطرفين المتهادنين الا يبنيا او ينشئا قلعة او مدينة تجاور البلاد خارج مناطقهما .

(٣) لايجوز نقضا لهدنه بوفاة احد الطرفين او بانتقال الحكم إلى غيره(٣٨)

و الحقيقة ان قلاوون كان مضطرا لعقد مثل تلك المهادنات لانه كان واقعاً تحت تاثير الخوف من الهجوم المغولي ومن احتمال استغلال الصليبيين لتلك الظروف والهجوم على المسلمين (٣٩) كما كان منهمكاً في القضاء على المشاكل الداخلية فاراد ان يموه على الصليبيين بمثل تلك الاتفاقيات.ولكي يبرهن على ظاهر صدقة ويمرر طريقته عليهم عمد إلى الموافقة على قبول مهادنات ذات امد طويل يستغل بعض وقتها للاعداد لهم ، والهجوم عليهم بعدما يرى منهم ايه محاولة ولو كانت غير جادة في نقض شروط الهدنه .

وفعلا بعد اربع سنوات هاجم حصن المرقب العائد للطائفة الاسبتارية سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥ م وتمكن من فتحه بعد ان امن مخاوف المغول وراى من الاسبتارية مايهدد قوافل التجار المسلمين (٤٠) وكان حصن المرقب هذا من أعظم الحصون الصليبية خطورة عليه نظرا لمناعته وحصانته (٤١) ومن ناحية ثانية فان الصليبيين ايضا قبلوا تلك المهادنة للمشاكل الداخلية التي كانوا يعانون منها ، وتخل بعض المدن الصليبية في اوربا عنهم (٤٢) نظرا لان قلاوون حافظ على العلاقات

---

(٣٩) من الادلة التي تثبت ان الصليبيين كانوا يستغلون الفرص في الهجوم على المسلمين في الاوقات الحرجة ماذكره ابن الفرات انه سنة ٦٧٩هـ كتب امير الشام إلى قلاوون يستأذنه في غزو الصليبيين بالمرقب لانهم لما بلغهم قدوم المغول قويت نفوسهم وامتد طمعهم فاذن السلطان قلاوون في ذلك.(تاريخ ابن الفرات: ١٩٥/٧).

(٤٠) Lane Pool, AHistory of Egypt in the middle ages ,P · 281
stevenson ,The Crusader in East ,P.349

(٤١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة: ٣١٧/٧.

(٤٢) انظر : عاشور، الحركة الصليبية: ١١٦٨/٢.

الودية التي احكم اواصرها السلطان بيبرس مع امبراطور القسطنطنية كما ابرم معاهدة دفاعية بينه وبين جيمس ملك صقليا والفونسو صاحب قشتالة مما اضعف قوى الصليبيين في الشرق وجعلهم يخسرون بعض حلفائهم (٤٣) .

ويتبين من دراسة الفترة الاولى لعلاقة قلاوون بالصليبيين ان سياسته تجاههم كانت مقتصرة على غارات خاطفة ومركزة على بعض المعاقل والحصون الصليبية المهمة و الموافقة على عقد مهادنات مؤقتة لغرض التفرغ الكامل لبناء الجبهة الداخلية ، كما تبين من قبل ، وبعد ان حقق هدفه السابق تقدم لتصفية حسابه الكامل مع الصليبيين فاسقط طرابلس معقل تجمعهم الاول . وقبل التطرق إلى شرح تلك الخطوات اشير إلى مسألتين هامتين اولاهما : ان قلاوون ماكان له ان يحقق اهدافه لولا نجاح سياسته في تثبيت الجبهة الداخلية والسيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . وثانيهما : ان قلاوون لم يتمكن من انجاح سياسته تجاه الصليبيين لولا ان خدمته بعض الظروف المواتية التي تمثلت بمساندة امراء المسلمين له واضطراب احوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

الا أنه يجب الا نبالغ كثيراً في تعظيم مساندة الامراء المسلمين له ولا في التفكك الداخلي والاضطراب الذي ساد بين الصليبيين في منطقة الشام لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين اولاهما : انه يبرر خسارة الصليبيين امام قلاوون . وثانيهما انه يقلل من اهمية تلك الانتصارات .

وكثيرا ماذكرت بعض المصادر الغربية والعربية المقلدة لها وصفاً لايخلو من مبالغة كبيرة في تبيان مدى الضعف الذي كانت عليه الامارات الصليبية قبل ان يغزوها قلاوون وكمثال على ذلك جاء في احدى المراجع مايلي :— « لعل الغريب في قصة الدور الاخير من ادوار المعركة الصليبية بالشام هو أن الصليبيين ظلوا حتى اللحظة الاخيرة لايشعرون بالخطر الذي يهددهم جانب المماليك فاستمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية ... وفي ذلك الوقت

---

٤٣) انظر : توفيق اليوزبكي ، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي : ٥٧ .

نشبت الحرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا فامتدت بعد قليل إلى بلاد الشام...» (٤٤)

وفي النص السابق مبالغة واضحة في تبيان الضعف الذي كان عليه الصليبيون في الشام ويتبين منه وكأن الصليبيين كانوا غافلين عن الحرب ضد المسلمين فهجم عليهم قلاوون بقواته وانتصر عليهم وبذلك فان انتصاره عليهم لم يكن له اهمية تاريخية لان الظرف الثاني لم يكن مستعدا للحرب .

ولو تفحصنا المصادر العربية لوجدنا مايدل على ان الصليبيين كانوا مستعدين للحرب وانه كانت تصلهم امدادات قوية من الصليبيين في اوربا يقول المقريزي : « في اول ربيع الاخر [من سنة ٦٨٣ هـ] ورد الخبر بحركة الفرنج لاخذ الشام [دمشق] فتجهز السلطان للسفر ... » (٤٥) اى ان الصليبيين كانوا هم البادئون في التحرك ضد المسلمين . وفي سنة ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ نقض الصليبيون في طرابلس الهدنة واسروا جماعة من التجار وغيرهم (٤٦) مما يدل على شعورهم بقوتهم العسكرية وتخطيطهم للهجوم على المسلمين وفي سنة ٦٨٨هـ ١٢٨٩ م قدمت مساعدات من الصليبيين في اوربا إلى مدينة طرابلس قبل فتحها وهي اربع شوان (٤٧) محملة بالعدد والعدة لتقوية الحامية الصليبية في المدينة (٤٨) كل هذه الادلة تثبت قوة الصليبيين في منطقة الشام، وامكانياتهم العسكرية وقدرتهم على التحرك ضد المسلمين .

على اية حال فان الهدنة بين الصليبيين في طرابلس والسلطان قلاوون وقعت تحت تأثير مصلحة الطرفين المتبادلة غير ان بعض الامراء من المماليك

---

(٤٤) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ١١٦٩/٢.

(٤٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ق٣جـ٧٢٢/١.

(٤٦) نفس المصدر السابق: ٧٤٦/١.

(٤٧) الشيني او الشواني او الشوانه : وهي السفن الحربية الكبيرة وتعتبر من اهم القطع العسكرية البحرية وهي من اصل مصري وكانت تسير بمائة واربعين مجدافاً وتقدر حمولتها بمائة وخمسين جندياً وكان يقام فيها الابراج والقلاع كما كانت ترمي منها النار على العدو .
انظر : ابن شداد، النوادر السلطانية : ص٤٨ هامش رقم(٤) ابن واصل مفرج الكروب: ١٣/٢ هامش رقم (١)

(٤٨) نفس المصدر السابق: ٦٨٦/١.

رفضوا الصلح مع الصليبيين واعتبروا السلطان خائناً يجب قتله وبالتالي نقض الهدنة مع الصليبيين. ففي سنة ٦٨٠هـ علم السلطان ان جماعة من امرائه قد اتفقوا مع الامير سيف الدين كوندك الظاهر السعيدي على قتله « وكاتبوا الفرنج بانهم لايصالحون» (٤٩)

وقد تمكن قلاوون من السيطرة على الموقف وقتل مناوئيه بعد ان بين لعامة الناس حسن نواياه فقد تلطف في الامر وتحفظ على نفسه حتى اجتمع الامراء عنده« فوبخ كوندك ومن معه وذكر لهم مااعتمدوه من مكاتبة الفرنج فلم ينكروا وسألوا العفو فامر السلطان بهم فقبض عليهم وهم كوندك وايدغمش ... مع ثلاث وثلاثين من الامراء ... وفر عشرة امراء ومائتا فارس...» (٥٠)

وقد انتهت المؤامرة التي احيكت ضد قلاوون بالفشل وثبت مركزه ولم يتبين من دراسة المصادر التأريخية مايدل على تأييد شعبي لاولئك الامراء وربما كان لسياسة استخدام القوة واعدام الامراء المناوئين اثر في ذلك، غير ان النص السابق يظهر منه ان الذين وقفوا ضد سياسة قلاوون كانوا كثرة من الامراء والجند يقدر عددهم بنحو ثلاثمائة رجل.

وبعد نجاح الصليبيين بطرابلس في الوصول إلى اهدافهم السابقة مع قلاوون تشجع الصليبيون في منطقة عكا (٥١) على مراسلة السلطان قلاوون

---

(٤٩) نفس المصدر السابق: ٦٨٦/١.

(٥٠) المقريزي السلوك: ق٣ج١/٦٨٦.

(٥١) من الجدير بالذكر ان مدينة عكا كانت من اهم معاقل الصليبيين انذاك، نظراً لمناعتها اذ كانت قد استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م واستعادها منهم صلاح الدين الايوبي ١١٨٧م ثم سقطت بأيديهم مرة ثانية سنة ١١٩١م بعد مجيء الحملة الصليبية الثالثة حيث نكل الصليبيون باهلها من المسلمين وذبحوهم خارج اسوار المدينة انظر: دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الايوبي: ص ٢٩٧-٢٩٨ وص ٣٢٨-٣٣٥، هارولد لامب، شعلة الاسلام: ص ٢١٧.

في محاولة للوصول إلى هدنة للسلام معه كالتي وقعت، مع الاسبتارية في طرابلس فوافق عليها قلاوون لمصلحة بدت له معهم .

ففي خامس شهر ربيع الاول من سنة ٦٨٢هـ / ٣ يونية سنة ١٢٨٣م عقدت الهدنة بين السلطان قلاوون وبين حكام الصليبيين بمملكة عكا وصيدا وبلادها وهم اودو بولشيان نائب ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٢) . وقد حضر معه كل من مقدم الداوية (٥٣) والاسبتارية وبعض كبار الامراء الصليبيين وأتفقوا على ان تكون الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . وقد ورد نص الاتفاقية في كتاب تاريخ الدول والملوك لابن الفرات (٥٤) . ويمكن أجمال اهم شروطها بما يلي :

١ ـ ان تكون جميع بلاد المسلمين وما يملكون في مأمن من غدر الصليبيين المتواجدين في الشام او الذين يأتون اليهم من اوربا وقد جاء في نص المعاهدة ما يلي :

« ان جميع ما هو للسلطان ولولده من البلاد ... وجميع العساكر والرعايا ... وجميع التجار والسفار والمترددين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون آمنين في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم واموالهم واولادهم وحريمهم وبضائعهم ... وعلى جميع ما يتعلق بهم ... وانه لاينال بلاد السلطان وولده وحصونهما ولاقلا عهما ولابلا دهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهما ولا تركما نهماولا أكرادهما على اختلاف الاجناس والانفار ولا على ما تحويه ايديهم من المواشي والاموال

---

(٥٢) King , The Knights Hospitallers in the Holy land , P.284.

(٥٣) الداوية: Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد. وقد اسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصاري بين يافا والقدس ثم تحولت بعد ذلك إلى هيئة حربية، كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في الشام. اما اعداد هذه الطائفة فغير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ في معركة حطين ضد صلاح الدين ولمعرفة المزيد عنها انظر: K · nd · op . Cit , p.p . 1 – 5 , 7 – 33

(٥٤) انظر نص المعاهدة في تاريخ ابن الفرات: ٢٦٢/٧–٢٧٠.

والغلال وسائر الاشياء منهم [اي من الصليبيين] بغدر ولا بسوء ولا يخشون من جهتهم امراً مكروها ولا اغارة ولا تعرضاً ولا أذية ... » . (٥٥)

٢ — وبالمقابل تعهد قلاون ان تكون جميع البلاد العكاوية الداخلة تحت نفوذ الصليبيين آمنة منه ومن ولده ومن عساكرهما » وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة الخاصة منها وما هو مناصفة مطمينة هي ورعاياها وساير اجناس الناس فيها والقاطنين بها والمترددين اليها على أختلاف اجناسهم وأديانهم والمترددين اليها من جميع بلاد الفرنجية والتجار والسفار ... منها واليها في بر وبحر وليل ونهار ... » (٥٦) .

٣ — على الصليبيين ان لايجددو في غير عكا وعثليت وصيدا [المناطق الداخلة في الهدنة] قلعة او برجا ولا يجددوا حصناً قديماً ولا مستجداً (٥٧) .

٤ — أذا هرب احد من المسلمين الى الاراضي الصليبية الداخلة في الهدنة وتنصر بارادته ترد جميع ممتلكاته الى السلطان . وان كان لايقصد الدخول في دين النصرانية يرد الى السلطان قلاوون بما معه بعد ان يعطى الامان وتؤخذ له الشفاعة . وكذلك اذا حضر احد من عكا والمدن الواقعة تحت النفوذ الصليبي بقصد الدخول في دين الاسلام بارادته يرد الى الصليبيين كل ما معه . وان كان لايقصد الدخول في دين الإسلام ، يرد الى الحكام بعكا بشفاعة بعد ان يعطي له الامان .

---

(٥٥) ابن الفرات، التاريخ(بيروت: ١٩٤٢): ٧/٢٦٣–٢٦٤.

(٥٦) نفس المصدر السابق: ٧/٢٦٤–٢٦٥.

(٥٧) جاء خطأً في كتاب دولة بني قلاوون في مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٤ ان على الفرنجة ان لايجددوا في عكا وعثليت وصيدا حصناً او سورا. وقد اعتمد د. سرور على مخطوط لتاريخ ابن الفرات. والصحيح ماورد اعلاه. لان النسخة المحققة لتاريخ ابن الفرات اوضحت انه يحق لكلا الطرفين التصرف بما يملكون بحرية. وان على الصليبيين ان لا يتجاوزوا حدودهم ويبنون أو يجددوا قلعة او حصنا فيما عدا عكا وعثليت وصيدا التي هي ممتلكاتهم الداخلة في الهدنة. انظر: تاريخ ابن الفرات: ٧/٢٦٥.

٥ – أذا وجد في صحبة أحد تجار المسلمين في عكا والبلاد العائدة للصليبيين والداخلة في الهدنة شيء من الممنوعات مثل السلاح ، تعاد الى صاحبها الذي اشتراه منه ويعاد اليه ثمنه ولا تصادر امواله ولا يؤذي بشيء . يعامل التجار الصليبيون بمثل ذلك في البلاد الاسلامية .

٦ – «متى اخذت اخيذه من الجانبين او قتل قتيل على اي وجه كان ، ردت الاخيذة بعينها ان كانت موجودة او قيمتها ان كانت مفقودة . والقتل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه ... وان لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدعي عليه . وثلث نفر يقع أختيار المدعي عليهم من تلك الولاية ». (٥٨)

٧ – ان على الصليبيين بعكا ان يحافظوا على اموال ومتاع المسلمين أذا حدث عطب في سفنهم او أذا انكسرت . وأذا لم يجدوا اصحاب تلك السفن فان عليهم ان يسلموا ما يعثرون عليه لنواب السلطان قلاوون في بلاد الشام . ويجري للصليبيين مثل ذلك في بلاد المسلمين . وكذلك الحال بالنسبة لتجار الطرفين أذا توفي احدهم في غير بلاده فان الطرف الثاني يحافظ على امواله ومتاعه وتسلم بامانة الى الجهة ذات العلاقة .

٨ – أذا حاول الصليبيون الموجودون في الغرب الهجوم على بلاد المسلمين من البحر فان على الصليبيين الموجودين بعكا والبلاد الواقعة في الهدنة ان لاينصروهم وان يخبروا السلطان قلاوون بخبرهم قبل وصولهم بمدة شهرين . أما أذا كان العدو من جهة البر كالمغول مثلاً ، فان على من يسبق اليه خبر تحركهم الى الشام ان يخبر الطرف الثاني .

٩ – على الصليبيين الذين توقع الهدنة معهم ان لايساعدوا لصوص البحر بشيء ، وان لا يسهلوا لهم مهمة بيع المواد المسروقة ، وان ظفروا باحد منهم فيجب القاء القبض عليه وكذلك الحال بالنسبة لامراء المسلمين .

(٥٨) تاريخ ابن الفرات: ٢٦٦/٧ .

١٠ -لايجوز وضع عراقيل امام حركة تجار الطرفين. ويجب ان يجروا على عوايدهم المستمرة وان لايوضع عليهم رسوم جديدة، ويكونون آمنين مطمئنين في حالة سفرهم واقامتهم بما معهم من اموال ومتاع ما عدا المواد الممنوعة .

١١ - من كان من فلاحي البلاد العائدة للسلطان مسلماً كان ام نصرانياً العودة الى ارضه ومن كان من فلاحي الارض التابعة للصليبيين ان يعود الى أرضه مسلماً كان ام نصرانياً . ومن لم يرجع بعد هذا الاعلان يطرد من الجهتين بحيث لايبقى فلاحو بلاد المسلمين في البلاد الصليبية ولا فلاحو البلاد الصليبية في الاراضي الاسلامية . ويكون رجوع الفلاح من الجهة الى الجهة الاخرى بامان .

١٢ - يسمح السلطان قلاوون لكل الحجاج من النصارى بمختلف اجناسهم بزيارة كنيسة الناصرة ويحافظ عليهم وعلى اموالهم ، كما يحافظ على بلادهم من كل اعتداء من جنوده او المفسدين كذلك يحافظ الطرف الثاني على ممتلكات المسلمين في بلادهم ويمنعون اي اعتداء يقع على اراضي المسلمين .

١٣ - كل طرف مسؤول عن الشروط السابقة بعينها شرطاً شرطاً وفصلا فصلا ، وأذا اخل ببعضها ، فقد نقض الهدنة وهو مسؤول عن نقضها ومهلته في ذلك اربعون يوماً من الجهتين وينادى برجوع كل جماعة الى وطنها مطمئنة .

وقد تعهد السلطان قلاوون بالحفاظ على المعاهدة السابقة وتنفيذ نصوصها واقسم على ذلك امام الشهود بقسم طويل جاء في بعضه مايلي: « والله... وبالله... وحق القرآن ومن انزله ... انني أفي بحفظ هذه الهدنة ... من اولها إلى اخرها... ولا اتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استفتي فيها طلباً لنقضها مادام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت... وافين باليمين... عاملين بشروطها... وان نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام ... حاسرا ثلاثين حجة ويلزمني صوم الدهر كله... » (٥٩).

(٥٩) نفس المصدر السابق: ٢٧٠/٧-٢٧١.

كذلك تعهد الامير الصليبي اودوبولشيان – نائب الملك شارل بالبلاد الشامية– ان يحافظ على الهدنة وان لايخل بشروطها وقد جاء في بعض قسمه مايلي :–« والله... وبالله... وحق المسيح... وحق الصليب... وحق الاناجيل الاربعه ... وحق الست مارية ام النور ... وما تلقيته من الاباء والاقساء المعمودية، انني قد اخلصت نيتي في الوفاء للسلطان المنصور... بجميع ماتضمنته هذه الهدنة ...(وان لااتعرض لكافة المسلمين ولبلادهم) باذية ولاضرر ... ماداً الملك المنصور وافياً باليمين.. ومتى خالفتها او نقضتها فاكون بريئاً من ديني... واكون مخالفاً للكنيسة ...» (٦٠).

ويتبين من دراسة نصوص المعاهدة السابقة والحلف عليها ان كلا الطرفين المتهادنين كانا صادقين في مسعاهما وانهما رغبا بكل جدية ان يحل في بلاد الشام فترة من السلام والاطمئنان لتنعم المنطقة برفاهيةاقتصادية وبتقدم مادي يكسب كلا الطرفين الوقت في اعداد العدة للنهوض بالواجب المحتم، طالما لم يتمكنا من الاستمرار به في الفترة التي وقعت فيها الهدنة.

وقد دل التأكيد على التجار والفلاحين في المعاهدة السابقة وورود اكثر من نص بحق التجار مايدل على اهميتهم مادياً وعسكرياً وبالتالي على رغبة كلا الطرفين بتطوير العمليات التجارية والاستفادة منها في مجال كشف احوال الطرف الثاني ومعرفة امكانياته.

كما دل النص الخامس في الاتفاقية السابقة على انه كانت تقوم بين الطرفين– لاعلى المستوى الرسمي– عملية بيع الاسلحة. ومما يدل على ذلك انه في سنة ٦٨٧هـ ورد الخبر إلى السلطان قلاوون ان الامير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الديار المصرية باع جملة من الرماح والسلاح للصليبيين .
فاعترف الامير الشجاعي بما فعل وقال:« انا بعته بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة فالغبطة انني بعتهم من الرماح والسلاح ماعتق وفسد وقل الانتفاع

(٦٠) نفس المصدر السابق: ٧/٢٧٠ – ٢٧١.

به وبعته بأضعاف قيمته والمصلحة ليعلم الفرنج انا نبيعهم السلاح هواناً بهم واستحقاراً لامرهم وعدم مبالاة بهم» (٦١).

غير ان دفاعه لم يؤخذ به واتهم بانه يحاول اساءة سمعة السلطان قلاوون وعسكره وقيل له « ان الاعداء لايحملون بيع السلاح لهم على ماظننت انت، وانما الذي يشيعونه بينهم وتنقله الاعداء إلى امثالهم ان يقولوا قد احتاج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية حتى باع سلاحه لاعدائه»(٦٢) لذلك امر السلطان باحتجازه ومصادرة امواله.

وعملية بيع الاسلحة هذه تدل من وجه ثان إلى ان الصليبيين كانوا فعلا قد استغلوا فترة انعقاد الهدنة في عملية تجميع قواهم واعداد عدتهم. وانهم اضطروا إلى شراء الاسلحة المستعملة من المسلمين لان تموين الصليبيين الغربي انخفض بسبب المشاكل الدائرية في اوربا آنذاك(٦٣). او لانهم كانوا يخافون ان يفتضح امرهم اما السلطان قلاوون بان الغرب الصليبي يمدهم بالسلاح فتنتقض الهدنة لان قلاوون كان قد فصل بالمعاهدة السابقة بحكمته في الفقرة الثانية من المعاهدة السابقة بين الصليبيين المتواجدين في الشرق وبين الصليبيين الموجودين في اوربا.

على ايةحال فان الهدنة بين الصليبيين والسلطان قلاوون لم تستمر بسبب المشاكل التي آثارها الصليبيون وقبل التطرق اليها ارى من الضروري الكلام على بعض المؤرخين الذين أساؤا عن غير قصد. ان يظهروا السلطان قلاوون بمظهر الرجل الخداع الماكر الناقض للعهود والمواثيق من دون مبرر انتهازا للفرص من دون الاستناد في ذلك إلى ادلة تأريخية. علماً بان قلاوون كان قد حلف الايمان المغلظة في الحفاظ على المعاهدة السابقة ان حافظ الصليبيون عليها.

(٦١) تاريخ ابن الفرات: ٦٣/٨.

(٦٢) نفس المصدر والمكان السابق، السلوك، ق٣، ج١/٧٤٠.

(٦٣) للاطلاع على ماذكر من ظهور مشاكل في داخل بعض المدن الاوربية في هذه الفترة واثره على ضعف الصليبيين في منطقة الشام: انظر: عاشور، الحركة الصليبية: ١١٧٠/٢-١١٧١.

وقد جاء في بعض تلك المراجع ما يدل على ان قلاوون كان البادىء في نقض الهدنة مع الصليبيين بعد ان تحجج عليهم وعلم فيهم ضعفاً (٦٤).

وعلى الرغم من أن نكث العهود كان في تلك الفترة يعتبر جزء من الاعمال الدبلوماسية والسياسية التي يموه بها ضد الاعداء ، غير انه من دراسة بعض النصوص القديمة تبين ان قلاوون لم يكن هو البادىء في نقضها ؛ بل ان الذين نقضوا الهدنة هم الصليبيون بطرابلس فقد هاجموا قافلة تجارية وقطعوا طرق المواصلات واسروا التجار المسلمين ففي سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م ورد الى السلطان قلاوون في مصر كتاب من نائبه في الشام يقول فيه «ان الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنه واخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصار بايديهم عدة اسرى وكانوا لما ملك السلطان قلعة المرقب قد بعثوا اليه هدية وصالحوه على الا يتركوا عندهم اسيراً ولا يتعرضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر ... » (٦٥) . وهذا النص لايستنتج منه مطلقاً ما يدل على ان قلاوون تحجج على الصليبيين بل الذي يبدو منه ان الصليبيين هم الذين نقضوا العهد. فهل يفسر رد الاعتبار واخذ الثار بأنه تحجج !؟.

وهكذا نقض الصليبيون في طرابلس العهد فتجهز قلاوون للحرب ولبس شعار السلطنة وسار بقواته من مصر متوجهاً الى بلاد الشام في عاشر محرم سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م بعد ان كاتب الامراء في الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس وفي ٢٠ من شهر صفر نزل على طرابلس وحاصرها حصاراً شديداً وامر بضربها بالمجانيق ثم توالى الزحف عليها حتى تمكن الحجازين من احداث عدة ثقوب في اسوارها حتى سقطت بايديهم ونكل بمن فيها من الصليبيين لان البلد فتح عنوة واسر عدد كبير منهم رغم ان متملك جزيرة قبرص الصليبي

---

(٦٤) جاء في كتاب الحركة الصليبية مانصه : « بعد أن اضطربت احوال طرابلس وانقسم اهلها شيعاً... تحجج قلاوون بان اهل طرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين ... » عاشور. ١١٧٣/٢، انظر كذلك: سرور، دولة ابن قلاوون ٢٣٧ .

(٦٥) المقريزي: السلوك: ق٣ج١ : ٧٤٦، وانظر: تاريخ ابن الفرات: ٨٠/٨.

كان قد امدهم باربع سفن حربية محملة بالكثير من العدد والعدة . (٦٦)

وبعد دخول قلاوون لمدينة طرابلس منتصراً امر بهدمها لكي لاتكون ملجئاً للصليبيين في المستقبل يحاولون العودة اليها من جديد أذا ما سنحت لهم فرصة مواتية او اذا وصلهم امداد من الصليبيين في الغرب لانها قريبة من البحر ، ولذلك فان هدمها كان اولى بالنسبة لقلاوون فهدمها ، ثم عمر مدينة مجاورة لها في الداخل بني فيها العديد من الحمامات والمساجد والمدارس كما اجري المياه في دورها بقساطل واحتفل ببنائها (٦٧) .

اما الصليبيون فقد امر بأخراجهم من المدينة وتوزيع ما بقي منهم على القرى المجاورة التابعة لطرابلس والخالية من التحصينات العسكرية ليسلم من أذاهم بعد أن أبقى بيد الاميرة لوكانت اخت الامير بوهمند السابع – الاميرة الشرعية التي كانت سوف تحكم طرابلس – قريتين من قرى المدينة (٦٨) كذلك نصب اميرا صليبياً على منطقة جبيل اكراماً لابيه المقتول حاكم مدينة طرابلس والذي كان قد حضر الى السلطان قلاوون متشفعاً مستسلماً (٦٩) .

وعلى الرغم من ان التنازل للصليبيين ، بعد ذلك الانتصار ، لم يحدث له مثيل في الفترة التاريخية السابقة غير انه يبدو ان السلطان قلاوون قصد من وراءه ترضية خواطر الدول الاوربية المساندة للصليبيين . والحفاظ على مصالحه التجارية التي كانت مرتبطة مع بعض الدول الاوربية (٧٠) . وقد كان لهذه السياسة التي اتبعها قلاوون مع الصليبيين اثر فيما جرى من تطورات في عالم السياسة والدبلوماسية بينه وبين بعض الممالك النصرانية .

---

(٦٦) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣٢١/٧، المقريزي، السلوك: ق٣ج١/٧٤٧.
King: OP. cit., P288

(٦٧) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٨١/٨، السلوك لمعرفة دول الملوك: ق٣ج١/٧٤٧–٧٤٨.

(٦٨) Stevenson, The crusader in the East, P. 350.

(٦٩) تاريخ ابن الفرات: ٨١/٨، السلوك: ق٣ج١/٧٤٨.

(٧٠) انظر: توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية: ص ٥٧.

فقد اتفق ملك ارغونة وصقلية على مهادنة قلاوون ومساعدته ضد الصليبيين بالشام اذا مااخلوا بالهدنة الجديدة وحاولوا الاعتداء على المسلمين (٧١).

ولم يكد قلاوون ينتهي من تصفية حسابه مع الصليبيين في منطقة طرابلس ويعود مطمئناً إلى مصر حتى جاءته الاخبار من الشام في شعبان سنة ٦٨٩هـ ان الصليبيين بعكا نقضوا العهد وهجموا على التجار المسلمين وقتلوهم فغضب قلاوون غضباً شديداً وحلف ان ينتقم للتجار المسلمين. وقد حاول عبثاً الصليبيون تهدئة خواطره بأن إدعوا ان الذي قتل التجار المسلمين كانوا من« الفرنج الغرب وانه ليس برضاهم» (٧٢) غير ان السلطان لم يلتفت اليهم وامر بالتجهز للحرب وكتب إلى الامراء في الشام بعمل المجانيق وتجهيز العدد والعدة لحصار عكا. غير انه لم يكمل مهامه ويصل إلى الشام، لان المرض داهمه قبل مغادرته مدينة القاهرة فتوفي في ليلة ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ نوفمبر سنة ١٢٩٠م فخلفه ابنه السلطان اشرف خليل الذي تمكن من اتمام مشروع ابيه في مقاتلة الصليبيين في الشام فتوجه إلى عكا وحاصرها حصاراً شديداً وتمكن من فتحها نظراً لكفاية جيشه ومعداته العسكرية وبخاصة المجانيق الضخمة التي اشتركت في القتال والتي دكت اسوار المدينة (٧٣).

(٧١) Stevenson, op. cit, p. 351,

(٧٢) تاريخ ابن الفرات: ٩٣/٨.

(٧٣) انظر: ابن الفرات: ٩٣/٨، السلوك: ق٣ج١/٧٥٣–٧٥٥.
Stevenson, op. cit, p. 352,

قائمة المصادر والمراجع

آ – المصادر القديمة

١ – ابن اياس ، محمد بن احمد (ت : ٩٣ هـ) .
بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق : ١٣١١هـ) .

٢ – ابن تغرى بردى، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة : ١٩٢٩م و ١٩٣٥) .

٣ – ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت : ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر المسمى تاريخ ابن خلدون (بولاق : ١٢٨٤هـ)

٤ – ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن عبد الرحمن (ت : ٦٦٥هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧هـ)

٥ – ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت: ٦٣٢هـ)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .

٦ – ابن شداد ، عزالدين ابو عبد الله محمد بن علي (ت : ٦٨٤هـ)
الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة تحقيق سامي الدهان (دمشق : ١٩٥٦)

٧ – ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية تحقيق د. قسطنطين زريق وزميله (بيروت : ١٩٣٩)

٨ – ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت : ٨٠٧ هـ)
تاريخ ابن الفرات (جـ٧ تحقيق د. قسطنطين زريق) بيروت: ١٩٤٢.

٩ – ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (القاهرة : ١٩٥٧)

١٠ – الحنبلي ، ابن العماد عبد الحي (ت: ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من اذهب.

١١ – الذهبي ، الحافظ ابو عبد الله محمد (ت : ٧٤٨)
تأريخ دول الاسلام (القاهرة : ١٩٤٩).

١٢ – الكتبي ، محمد بن شاكر
فوات الوفيات والذيل عليها عليها (بيروت : ت)

١٣ – المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ)
أ – السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق **محمد مصطفى زيادة** (القاهرة: ١٩٣٩).
ب – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (**بولاق: ١٢٧٠هـ**).

١٤ – السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت: ٩١١هـ).
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين (القاهرة: ١٣٥١هـ) .

١٥ – ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله(ت: ٦٢٦هـ)
معجم البلدان (القاهرة: ١٣٢٣هـ). وطبعة(بيروت: ١٩٥٧)

١٦ – القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت: ٨٢١هـ)
صبح الاعشى في صناعة الانشا(القاهرة: ١٩٦٣) .

ب - المراجع الحديثة

١٧ - امين السيد، حكيم
قيام دولة المماليك الثانية(القاهرة: ١٩٦٧).
١٨ - حسن ، علي ابراهيم
تاريخ المماليك البحرية(القاهرة: ١٩٦٧) .
١٩ - لامب، هارولد ،
شعلة الاسلام، ترجمة محمد عبدالله (بغداد: ١٩٦٧).
٢٠ - نوري، دريد عبد القادر،
سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد: ١٩٧٦).
٢١ - سليم، محمد زرق.
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي(القاهرة: ١٩٦٢).
٢٢ - سرور، محمد جمال الدين،
دولة بني قلاوون (القاهرة: د ت)
٢٣ - عاشور، سعيد عبد الفتاح،
الحركة الصليبية(القاهرة: ١٩٧١) .
٢٤ - العريني، السيد الباز
المماليك(بيروت : ١٩٦٧).
٢٥ - رانسيمان ستيفن ،
المدينة البيرنطية، ترجمة د. صالح احمد العلي بغداد: ١٩٥٦).
٢٦ - حسن، ابراهيم حسن،
دراسات في تاريخ الممماليك البحرية (القاهرة: ١٩٤٨).

٢٧ – فيشر، هربرت
تاريخ اوربا في العصور الوسطى(القاهرة: ١٩٦٩).
٢٨ – اليوزبكي، توفيق
تاريخ تجارة مصر البحرية في عهد المماليك(الموصل: ١٩٧٥).

29 – Encylopaedia of Islam .Vol.1,2, (London. 1960) .
30– King (E.J.) :
The kinghts Hospitallers in the Holy Land .London , 1931.
31 – Lane pool (S.) .
A–A History of of Egypt in the middle ages, London .1963.
B– Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem . London, 1898.
33– Stevenson (W.R.) :
The crusaders in the East , canbridge , 1907 .

حول الموقف العثماني من الأطماع الصهيونية الاستيطانية في فلسطين ١٨٧٦ ١٩٠٨

عماد احمد الجواهري


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطور المصالح الاستعمارية والاطماع الصهيونية في البلاد العثمانية :

شهدت البلاد العثمانية عموماً ومنها بلاد الشام تطورات مهمة خلال القرن التاسع عشر وذلك في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، وقد كان هذا التطور واضحا في اتساع حجم التجارة وتطور وسائل المواصلات(١) ونمو طبقة الملاكين في المدن وزيادة فعالياتها الاقتصادية والسياسية (٢) . وفي موجة المد الاستعماري الغربي الحديث للسيطرة على العالم اعتبرت الدولة العثمانية التي كانت تعاني من اضطراب عام في مؤسساتها كافة مجالا حيويا للنشاط الاستعماري. وهكذا يمكن تعقب الخطوات الاستعمارية خطوة خطوة وذلك من خلال ابراز اوجه التدخل المختلفة التي رسمتها القوى الاستعمارية والتي كانت في مجملها مشاريع استعمارية متعددة الاوجه واحدة الاهداف ولئن كان استغلال الدول الاستعمارية للاقليات والطوائف الدينية اسلوبا من اساليب نفوذ عجلة الاستعمار وسحقها للشعوب ، فلقد شهدت ولاية سورية العثمانية منذ فترة مبكرة من تاريخها الحديث محاولات القوى الاستعمارية لاستخدام الطائفة اليهودية (٣) ضمن خططها ومشاريعها الاستعمارية فقد

---

(١) ز.ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني ص٦٥-٧٠، عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤- ١٩١٤ ، (القاهرة ١٩٦٩) ص ٢٧٨-٢٨٦.

(٢) يقول جوستورك :«ان التطورات العامة في القرن التاسع عشر في البلاد العثمانية ادت إلى نشوء طبقة برجوازية مرصوصة البنيان « كذا» وكانت ثروتها تقوم في الغالب على تملك الاراضي ولدرجة اقل على التجارة الخارجية وقد اصبحت تمثل العمود الفقري للنظام السياسي كما قادت فيما بعد النضال السياسي ضد الصهيونية وانصارها ولكن مصلحتها الذاتية املت عليها التصرف بشكل لايمس امتيازاتها» الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية» مجلة مركز الدراسات الفلسطينية عدد ايلول- تشرين اول ١٩٧٧، ص ٥-٣٢. ولغرض البحث انظر ص١١.

(٣) حول نفوس الطائفة اليهودية ينسب د. عبد الوهاب الكيالي ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث((بيروت ١٩٧٣) ص١٧ ، إلى نائب القنصل البريطاني في القدس ان عدد اليهود في فلسطين(-والي منتصف القرن التاسع عشر) كان(٩٧٠٠) نسمة. ويذكر فلاديمير لوتسكي ، في ص ١٥٨ ، من كتابه، تاريخ الاقطار العربية الحديث ان عدد اليهود كان (١١) الف نسمة وذلك حوالي منتصف القرن التاسع عشر ايضاً وان الكثير منهم اقاموا لاغراض دينية. اما يوسف الحكيم فيقول في ص ١٩٩ من كتابه سورية في العهد العثماني بان عدد اليهود كان (٢٠) الف نسمة منهم خمسة او ستة الاف في مدينة القدس وذلك في حوالي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر .

ارتبطت فكرة نابليون لانشاء دولة يهودية في فلسطين (١) بخططه لاقامة امبراطورية استعمارية فرنسية في الشرق اواخر القرن الثامن عشر .
كما ارتبطت فكرة انشاء ارسالية دينية في القدس عام ١٨٤٩ (٢) من لدن الروس بمحاولات روسيا الاستعمارية في البلقان على حين اتضحت الاطماع الاستعمارية البريطانية في المشرق العربي عن طريق تشجيعها لخطط الاستعمار اليهودي في فلسطين(٣)ويذكر ان عددا من رجالات الاستعمار البريطاني كانوا قد وضعوا عام ١٨٣٨ جملة مشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دوله يهودية تحت الحماية البريطانية فحظيت تلك الخطط بتأييد بالمرستون (٤) رئيس الحكومة البريطانية بعد ان راى فيها ضمانا لامن المواصلات الامبراطورية . (٥) ومن جهة اخرى فقد كتب بالمرستون الى قناصل بريطانية كافة فيغرب آسيا طالبا منهم تأييد حماية اليهود (٦) الذين زعم ان انكلترا ستسعى من اجل تحقيق

---

(١) يروى بأن نابليون اصدر عام ١٧٩٩ بياناً رسمياً دعا فيه يهود وآسيا وافريقيا ان يهرعوا تحت رايته إلى دخول القدس واعادة بناء الهيكل: انظر عمر عبد العزيز عمر ، بريطانيا وتصريح بلفور، دراسة في نشأة القضية الفلسطينية، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣ ص ٢٣٦ – ٢٨٨ ولغرض البحث انظر ص ٢٥٩، يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص ٨٤–٨٥.

(٢) في عام ١٨٤٣ عينت روسيا بازيلي قنصلا عاما في سورية بما فيها فلسطين ومنح صلاحيات جميع الوكلاء القنصليين في البلاد وكانت التعليمات التي لديه تقضي بانشاء علاقات وطيدة مع السلطات الكنسية كافة في جميع انحاء سورية وفلسطين، كما زود بتعليمات من اجل خدمة الحجاج الروس . ويقول القنصل البريطاني في القدس ان هولاء الحجاج الذين معظمهم من المحاربين القدماء كانوا يتحدثون عن اليوم الذي متصبح فيه فلسطين تحت السيطرة الروسية. انظر:
Derek Hopwood,the Rassian Presence In Syria and Palestine 1843—1914. Church and Politics In The Near East, Claredon press, Oxford 1969,pp.15-16.

(٣) لوتسكي: المصدر السابق، ص ٤٤، ١٥٨.

(٤) Viscount palmerstone راس الحكومة البريطانية عام ١٨٥٥ وكذلك عام ١٨٥٩. توفي في ١٨ اكتوبر عام ١٨٦٥.

(٥) لوتسكي، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٦) انظر المكاتبات بين السفارة البريطانية في الاستانة والباب العالي حول رعاية بريطانيا اليهود في فلسطين: د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣) ص٢٥.

عودتهم الى فلسطين ليكونوا عونا للانكليز على محمد علي باشا الذى بات خطره يهدد المصالح الامبراطورية. (١)

وبالرغم من استجابة بعض كبار المتمولين اليهود وتأيدهم لخطط بالمرستون الا ان انقسامات خطيرة نشبت من اليهود الغربيين والصهيونيين السياسيين وذلك حول الافاق والابعاد النهائية لعملية الاستيطان اليهودي في فلسطين .

ويفهم ان اولئك اليهود الغربيين من اللاصهيونيين او المعادين للصهيونية اعاقوا الى حدما تطور الفكر الصهيوني وذلك خلال القرن التاسع عشر ففي هذا المجال يقول بن هالبرن Ben Halpern

> ان تاثير اليهود اللاصهيونيين واليهود المعادين للصهيونية واتجاهاتهم يجب ان تكون مفهومة في التحليل التاريخي الاجتماعي للفكرة الصهيونية السياسية (٢).

ويقال ان مونتفيورى(٣)وروتشيد(٤) كانا يحبذان الاستيطان اليهودى في فلسطين والبلاد الاخرى التي لاتوجد فيها روح معاداة السامية بينما كان الصهاينة

---

(١) د. عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٢٦٢ ويقول ابراهيم ابو لغد، تهويد فلسطين ص٥٤ بأن بالمرستون تاثر بنفوذ شافتزبري Shaftesbury (١٨٠١-١٨٨٥) وهو رجل مال يهودي شغل منصب مندوب هيئة الرقابة ورئيس اللجنة الصحية في القرم. ساند الاصلاح الاجتماعي واسهم في النشاط الخيري والديني.

(٢) The Idea of the Jewish State , London , Oxord University Press , 1961 p . 55 ,

(٣) مونتفيوري، كلود جوزف جولد سمث(١٨٥٨-١٩٣٨) وهو زعيم طائفة من يهود بريطانياه اليهود المتحررين» ومؤلف عدد من الكتب. اسس المجلة اليهودية عام ١٨٨٨ وترأس تحريرها ومولها حتى عام ١٩٠٨. رئيس الجمعية اليهودية الانكليزية ١٨٩٥-١٩٢٠ عارض الصهيونية وهاجم وعد بلفور. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٤٢.

(٤) البارون ادمون دي روتشيلد(١٨٤٥-١٩٣٤). رئيس القسم المصرفي الفرنسي في عائلة روتشيلد. تبنى اوائل المستعمرات اليهودية في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنازل عام ١٩٠٠ عن ادارة المستعمرات إلى جمعية الاستعمار اليهودي. وفي عام ١٩٢٥ اسس « جمعية الاستعمار الفلسطيني اليهودي» لتشرف عل المستعمرات. انتخب عام ١٩٢٩ رئيساً فخرياً للوكالة اليهودية. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٥١

يعتبرون فلسفة الاستيطان التي لاتودى إلى قيام دولة صهيونية امرا غير مقبول (١) يمكن القول ان ذلك الخلاف يعود في الواقع إلى ان الصهاينة السياسيين من البرجوازية الصناعية التي ساهمت في تقديم الخطط الاستعمارية المذكورة آنفاً . لم تكن قد استطاعت بعد صياغة وبلورة الصهيونية لتكون ايديولوجية قادرة على استقطاب اليهود كافة باعتبارهم الوسيلة التي تكون الصهيونية بدونها مشروعاً لاقيمة له في الواقع (٢) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان صيغة الترابط العضوى بين الايديولوجية الصهيونية والايديولوجية الاستعمارية الحديثة لم تتكامل حتى وقت مبكر من القرن العشرين (٣) بعد احتضان دعوة هرتزل من الصهيونيين العمليين (٤) وما اعقب ذلك من انحسار دور المدرسة الصهيونية الروحية التي كانت تطالب بمركز روحي لليهود في فلسطين (٥) ان النتيجة المنطقية لهذا التطور تعني ان المدرسة الصهيونية العملية ستلتزم بدفع الهجرة اليهودية ذات الافق الايديولوجي المحدد باتجاه صهيوني يرتبط (٦) بمقاصد

(١) ابراهيم ابولغد ، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) ويقال انه حتى عام ١٩١٤ كان من بين الثلاثة عشر مليون يهودي في العالم (١٣٠,٠٠٠) صهيوني فقط. انظر ألن تايلر، تاريخ الحركة الصهيونية، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧-١٩٤٧، ترجمة بسام ابو غزالة، ص٢٠.

(٣) انظر في هذا الموضوع شفيق الرشيدات، فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً، ص٣٥-٤٤،٤٥.

(٤) كانت وجهة نظر الصهيونيين العمليين تتلخص بضرورة المضي في المشاريع الاستعمارية الصهيونية اعتماداً على اساس سياسة الواقع ان خلاص اسرائيل لن يتم عن طريق الدبلوماسية، وانما عن طريق الانجازات العملية. تاج السر احمد حران، فلسطين والتحديات الصهيونية، وسائل العمل الصهيوني ١٨٩٧- ١٩١٧، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، المصدر السابق، ص ٤٥٣- ٤٨٤. ولغرض البحث انظر: ص ٤٧٢- ٤٧٤.

(٥) د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٦) على الرغم من الادلة القاطعة نفى وايزمان، ان تكون هناك علاقة بين مقاصد دول اوربا الاستعمارية وبين مسألة انشاء الوطن القومي الصهيوني وقال في هذا المعنى: «كثيراً مانسمع القول يتردد بأن وعد بلفور انما تم... لاسباب استعمارية او لما يشبهها من اسباب مبتذلة وكل ذلك كذب محض... ويرى جورج انطونيوس بأن قول وايزمان لايتفق والحقائق بل ولاحتى مع الرواية الموجزة الواردة في التقرير الذي نشرته سنة ١٩٢١ الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، فقد جاء في ذلك التقرير ان تقدير القيمة الستراتيجية لفلسطين في نظر الامبراطورية البريطانية هو الذي كان له الوزن الراجح لدى من سعوا لاستصدار وعد بلفور. للمعلومات الاضافية انظر: كتابه الموسوم: يقظه العرب، ترجمة د. ناصر الدين اسد ود. احسان عباس، دار العلم للملايين، ط٤(بيروت ١٩٧٤)، ص ٣٧٠-٣٧٤

الاستعمار واهدافه التوسعية جاعلا من اسرائيل في النهاية ظاهرة استعمارية خطيرة (١) .

تعثر المساعي الصهيونية

كان المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) قد تبنى دعوة هرتزل في برنامج محدد أطلق عليه برنامج بال وقد جاء في البرنامج بان هدف الصهيونيين هو انشاء وطن لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام. ولتحقيق هذا الهدف يرى المؤتمر تطوير الاستيطان في فلسطين وتنظيم ودمج اليهودية على اسس مناسبة وتعزيز الشعور والوعي القوميين لدى اليهود واتخاذ خطوات تمهيدية من اجل الحصول على موافقة حكومية عند الضرورة لتحقيق اهداف الصهيونية(٢).

ورغم نجاح العناصر الصهيونية في تذليل العقبات الناجمة عن معارضة اليهود غير المؤيدين للصهيونية فقد واجهتهم جملة عقبات ومصاعب عاقت برامجهم بشأن الاستيطان والهجرة الصهيونية وتشكيل الدولة اليهودية .

١ — ان ظروف ونتائج التطور الرأسمالي في البلاد العثمانية ومنها بلاد الشام رغم بطئها النسبي ساهمت في خلق طبقة برجوازية ذات فكر واهداف قومية تقف على وجه التأكيد ضد الاطماع والمساعي الصهيونية في فلسطين (٣) .

٢ — لم يكن بوسع الصهاينة ضمان موافقة دولية جماعية لمشروع الدولة الصهيونية بسبب صعوبة التوفيق بين مصالح الدول الاستعمارية يومذاك (٤).

٣ — ان القوانين العثمانية مازالت تقف حجر عثرة بوجه العملتين الرئيسيتين اللازمتين لتنفيذ اي مخطط صهيوني وهما :

(١) انظر من اجل ذلك:—

The Palestine Question, Seminar of Arab Jurists on Palestine Algiens, 22 — 27 July, 1967 Translated from French by Edward Rizk, The Institute for Palestine Studies, Beirut 1968, PP. 35 — 36.

(٢) انظر حران، المصدر السابق، ص ٤٥٨

(٣) انظر الهامش رقم (٢) ص (٧٣).

(٤) انظر: يوميات هرتزل، اعداد انيس صايغ ترجمة هلدا شعبان صايغ، سلسلة كتب فلسطينية — ١٠ مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية(بيروت ١٩٦٨)— الفصل الاول الموسوم هرتزل والاستعمار ص ١٧—٣٣٢.

آ ــ انتقال الاراضي إلى الاجانب في البلاد العثمانية .
ب ــ اقامة الاجانب في الدولة العثمانية .

والواقع ان الدولة العثمانية لم تقر اجراءات قانونية تخص قبول انتقال الاراضي إلى الاجانب حتى صدور نظام عام ١٨٦٧ الذي سمح لهم بتملك الاراضي في معظم أنحاء الدولة العثمانية (١) وفي الوقت نفسه حظرت القوانين العثمانية ١٨٥٦ و ١٨٨٢ و ١٨٩٣ و ١٨٩٩ انتقال الاراضي إلى اليهود بشكل خاص (٢) ، اما فيما يتعلق باقامه الاجانب في البلاد العثمانية فان السلطات العثمانية فرضت قيودا مهمة على دخول اليهود إلى فلسطين عام ١٨٨٨ كما انها قصرت دخولهم إلى فلسطين على اغراض الحج وحددت اقامتهم بثلاثة اشهر . واصدرت الدولة العثمانية قانون الجواز الاحمر خاصاً باليهود الذين يدخلون فلسطين لغرض السياحة او الزيارة . (٣)

لقد وقفت الدولة العثمانية ضد المحاولات والجهود الصهيونية الرامية إلى استعمار فلسطين وان هذا الموقف يتجلى بشكل واضح في الجانب التشريعي الذي سبقت الاشارة اليه وفي الموقف الشخصي للسلطان عبد الحميد الذي انعكس بالضرورة على الموقف الرسمي للدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ايضا

نمط الحكم العثماني في فلسطين :ــ

كان السلطان والجهاز الاداري المؤلف من طبقة الموظفين الاداريين المدنيين والعسكريين يمثلون الطبقة المستغلة في المجتمع العثماني : وفي فلسطين كان الشعب العربي ينوء تحت وطأة الاستغلال الذي مارسته ضده تلك الطبقة ممثلة بملتزمي الضرائب والفرسان الاقطاعيين .

(١) عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص ٢٣٤. وجدير بالذكر ان القانون منع الاجانب من تملك الاراضي في الحجاز فقط.

(٢) د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٢٤-٢٥، ناجي علوش، الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢-١٩٤٨، ص٧٧.

(٣) جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي، اطروحة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٧٥ ص٦٧.

ف « في ظل النظام العثماني ساد فلسطين النظام الاقطاعي فاحتكرت حفنه من عائلات فلسطين ملكية مساحات واسعة من الاراضي واستغلت طبقة الفلاحين المتخلفين . ومن الناحية السياسية كانت هذه العائلات متحالفة مع الطبقة العثمانية الحاكمة عبر علاقة المنافع المتبادلة والمصالح المشتركة وبالتالي فقد سيطرت تلك العائلات — طبقة الوجهاء — على المناصب الحكومية والدينية الهامة » (١) .

واذا كان لهذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية مظاهرها السياسية حينما ضعف النظام الاقطاعي العثماني — فقد تجلت في ضعف سلطة الدولة على الولايات وانتشار الامارات الاقطاعية على امتداد الرقعة الجغرافية للدولة العثمانية، على ان النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد محاولات الدولة العثمانية لاستعادة هيمنتها وتعزيز سلطتها على الولايات التابعة لها وتصفية الامارات الاقطاعية كما عمدت إلى الغاء اساليب الجباية القديمة (٢) وهي الاساليب التي تمكن الاشخاص القائمين بعملية الجباية من تكريس وضع يتيح لهم السيطرة على الارض والانسان على حساب ايرادات الدولة. (٣) وعلى الرغم من ان الفضل في ذلك يرجع إلى تشريع الدولة لقوانين الاراضي والطابو ١٨٥٨، ١٨٥٩ ونظام الولايات ١٨٦٤ فان الابعاد الاجتماعية للقوانين الاخيرة بشكل خاص ارادت من ناحية اخرى اقرار صيغة التصرف بالارض على اساس الواقع القائم فعلا مما يجعلها ذات اثار اجتماعية بعيدة المدى، غير ان اخفاق الدولة العثمانية الذريع في تطبيق قوانين الاراضي لمصلحة المتصرفين الفعليين بالاراضي

(١) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، (بيروت ١٩٧٠) ص ٤٤—٤٥.

(٢) وهي الاساليب القائمة على طريقة الالتزام.

(٣) هرشلاغ، المصدر السابق، ص ٥٤.

ادى إلى تكريس ظاهرة الاستغلال والسيطرة على الارض والانسان من جديد ، مما كان له اسوأ الاثر على قدرات وامكانات الشعب العربي بعد ما زادت اهمية القوى الاجتماعية المستغلة وتعززت بدخول السلطان وكبار رجال الدولة في صفوف تلك الطبقة. وهكذا مثلما كانت اراضي الملاكين الاقطاعيين تشمل مساحات واسعة جداً من الاراضي في البلاد العثمانية فان مساحات واسعة من الاراضي واعدادا من القرى وهي الاملاك المعروفة في العراق وسورية وفلسطين بالاراضي السنية سجلت باسم السلطان عبد الحميد واستغلت لمصلحته الخاصة (١). هذا من ناحيةومن ناحية اخرى يمكن القول ان ذلك الاستغلال الذي كانت تمارسه تلك الطبقة كان في اطاره العام يدخل ضمن ما سمي بعملية اعتصار موارد وخيرات البلاد التابعة للدولة العثمانية لتصب في «المتروبول التركي»(٢)

يمكن للباحث ان ينظر إلى مسألة وراثة السلطان عبد الحميد للاراضي السلطانية وتسجيل مساحات كبيرة منها باسمه بالطابو من زاويتين مختلفتين الاولى ان سيطرته على الارض تعبر عن ظروف سيطرة القوى الاجتماعية المستغلة التي كانت الشعوب العثمانية تنوء تحتها . والثانية انها تعبر عن ادراك السلطان للاهمية الاستثنائية التي يمكن اعتبارها في حالة وجود املاك سنية في البلاد العثمانية بحيث يبرز دور اكبر للوجود العثماني . على انه قد يبدو امرا غريباً في بابه ان يحمل وجود السلطان ممثلا باملاكه السنية في فلسطين دورا يفوق الدور الطبيعي الذي يقتضيه المنطق والواقع على السواء.

والحقيقة انه مادامت السنية تمثل املاك الطابو المسجلة باسم السلطان عبد الحميد فان الدور الاقتصادى والاجتماعي لهذه الاملاك — ممثلا بطبيعة العلاقات الانتاجية الاقطاعية التي عملت على تعميقها نتائج تطبيق قوانين الاراضي والطابو في سورية وفلسطين — ينبغي ان يشابه بالضرورة الدور الاقتصادى والاجتماعي للاملاك المسجلة باسماء ملاكي المدن الذين

(١) عن الاملاك الهمايونية او السنية في سورية وفلسطين انظر:
عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) د. جمال حمدان، ستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال(القاهرة ١٩٦٨) ص٥٣.

استحوذوا على الاراضي وسيطروا على الفلاحين خاصة ان اراضي السنية استخدمت الاساليب عينها التي اتبعت في اراضي املاك الطابو .

> ان الحالات غير المرضية والمؤثرات المتعددة التي عملتها الحكومة والتي حملت كثيرا من اصحاب الاملاك على تسليم اراضيهم بسهولة إلى السلطان عبد الحميد لقاء ماكانوا يؤدونه اليه من خمس المحصول هي نفسها التي دفعت اصحاب هذه القرى لتسجيل اراضيهم على بعض ال سرسق راجين انها ستبقى في تصرفهم مقابل مايسلمون لهم من خمس المحصول» (١)

وهكذا يجد الباحث ان السلطان عبد الحميد الذي وجد في السلطة اداة مكنته من انتزاع حقوق الفلاحين (٢) اضطر إلى التخلي عنها بعدما افلت زمام الامور من يده وهو موقف كان يتكرر باستمرار في تلك الحقبة من الزمن بسبب اضطرار — ملاكي الطابو إلى بيع حقوق الاراضي بأي ثمن حين وجدوا انفسهم عاجزين عن حماية الارض التي لم يعودوا ضامنين لمصلحتهم فيها في ظل موقف السلطة العاجزة عن عمل شي ما وهذه النتيجة قد تكون امرا مستحيلا عندما تجد تلك الحقوق من يريق الدماء من اجل الحفاظ عليها .(٣)

---

(١) انظر احتجاج اللجنة التنفيذية العربية على بيوع اراضي قضاء الناصرة (من قبل آل سرسق)، للصهيونيين وموقف الحكومة من حقوق المزارعين العرب فيها(١٩٢٤/٨/٢٥) يافا١٩٢٤/٩/٩ وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨–١٩٣٩، (بيروت ١٩٦٨)ص٨٥ .

(٢) يقول عبد العزيز عوض، المصدر السابق ص ٢٣٨: « انه كان للسلطان(عبد الحميد) مزارع خاصه به في بيسان بفلسطين يشرف على ادارتها ضباط عسكريون، وكان السلطان يوجه اليهم الرتب والاوسمة بين الحين والاخر» وقد قال الكاتب عن هذه الظاهرة بأنها « تبدو غريبة ومتناقضة مع تسجيل الاراضي» وذلك لانها تقوم على اساس انتزاع حقوق الفلاحين ومع ذلك يرى البعض ان السلطان العثماني عبد الحميد كان ارحم ملاك في فلسطين، انظر عن ذلك شهادة عوني عبد الهادي امام اللجنة الملكية البريطانية(لجنة بيل) وثائق المقاومة الفلسطينية، المصدر السابق، ص٥٢١ .

(٣) وفي ذلك يقول جمال الحسيني في شهادته امام اللجنة الملكية البريطانية « يجوز (يمكن) تقسيم اراضي فلسطين إلى قسمين الاراضي التي يفلحها اصحابها والاراضي التي يفلحها مستأجرون ويملكها ملاكون اكثرهم من خارج البلاد، اما فيما يتعلق بالقسم الاول.فان الفلاح المالك في فلسطين شديد المحافظة على ارضه والتعلق بها ولهذا نرى ان الخوف من تسرب تلك الارض قليل جداً وعند العرب مثل يقول: الفلاح يموت بين اتلام ارضه». وثائق المقاومة المصدر السابق، ص٤٨٥ .

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من النشاط الصهيوني في فلسطين

كان السلطان عبد الحميد الثاني رجل الساعة الذي انجبته مؤسسة السلطنة العثمانية فقد تمكن ان ينزل ضربة عنيفة بدعاة الدستور وعلى راسهم مدحت باشا واعوانه كما انه نجح في تعميق الصراع بين القوى الاستعمارية الاوربية خاصة بعد توطيد عرى الصداقة مع المانيا .

ومع كل تلك الجهود فان السلطان عبد الحميد لم يكن قادرا على ايقاف الزحف الاستعماري الذي كانت الدولة العثمانية تتعرض له .

واذا كان في ذلك ميزة ايجابية فان ذلك يبدو إلى حد ما في ان الدولة العثمانية اصبحت اكثر قدرة على فرض سلطتها المركزية على الولايات العثمانية ناهيك عن وعي السلطان العثماني للاطماع الاستعمارية وادراكه لبعض المشاريع والخطط الموضوعة في هذا المجال . ومن جهة اخرى فقد كانت للسلطان عبد الحميد مطامحه حول بناء الدولة العثمانية والايفاء بتعهداتها.غير ان المخاطر الناجمة عن زيادة الديون الاجنبية (١) على الدولة العثمانية كانت تعرقل امال السلطان وتطلعاته. وفي هذه الاثناء بالذات كانت مظاهر النشاط الصهيوني في فلسطين ملحوظة كما حمل هرتزل إلى السلطان عبد الحميد استعداد الراسمال الصهيوني للمساهمة في حل المصاعب التي تعاني منها الدولة العثمانية .

ويعتبر موقف السلطان عبد الحميد من النشاط الصهيوني في فلسطين القضية الاكثر اهمية في هذه الدراسة لقد تعددت الاشارة إلى موقف السلطان عبد الحميد من الاطماع الصهيونية في فلسطين وتناقلت المصادر المختلفة(٢)رفض(٣) السلطان

---

(١) حول الديون الاجنبية على الدولة العثمانية انظر : هرشلاغ ، المصدر السابق ص٧٢-١٠٤.

(٢) انظر على سبيل المثال جاسم محمد حسن، المصدر السابق، ص ٦٧، الرشيدات، المصدر السابق ص٣٥، يوسف هيكل،المصدر السابق،ص٩٧،اكرم زعيتر،القضية الفلسطينية،ص ٤٣ .

(٣) يقدم د. تاج السر احمد حران حول هذه المسألة التحفظات الاتية:-

أ- ان السلطان عبد الحميد كان يخشى ان يؤدي انشاء كيان يهودي في فلسطين إلى تشجيع للعناصر الاخرى في الدولة العثمانية على الانفصال في وقت كانت الدولة مهددة بانتشار المبادئ القومية بين مختلف عناصرها .

لعروض مالية كبيرة مقابل موافقته على مشروع يهدف إلى تمكين الحركة الصيونية الفتية من استعمار — فلسطين . لقد اعتمدت اغلب (٣) تلك المصادر على مارواه هرتزل حول نتائج اتصالاته الاولى بالسلطان «١٩حزيران ١٨٩٦».

(... لاأقدر ان ابيع ولو قدما واحدا من البلاد لانها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل ان نسمح لاحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين وقتل رجالنا الواحد تلو الاخر في بلفنة لان احدا منهم لم يرض بالتسليم ، وفضلوا ان يموتوا في ساحة القتال .

ب — ان هرتزل كان يعتمد في عروضه المالية التي وعد السلطان بها على المولين اليهوديين هيرش وروتشيلد وان الاخرين لم يوافقا الاهداف السياسية لدعوة هرتزل وهكذا تكون عروض وانجازات هرتزل المالية وعوداً مهزوزة .

ج — على الرغم من محاولات هرتزل ابداء فروض الاحترام المقرونة بتأييد اليهود كرعايا مخلصين » للدولة العلية الا انه كان واضحاً ان هرتزل كان ينظر الى السلطان نظرة احتقار ولنظامه الازدراء ولم يكن خافياً عن السلطان مثلما لم تكن محاولات هرتزل لانشاء دولة يهودية تحت حماية احدى دول اوربا الطامعة بالدولة العثمانية خافية ايضاً، المصدر السابق ص ٤٦٤–٤٦٥ .

(٣) نقلت د. خيرية قاسمية، المصدر السابق ص٤٠١–٤٠٣ صورة رسالة قالت عنها انها : « رسالة يقال ان السلطان عبد الحميد قد بعثها بعد خلعه من منفاه في سالونيك إلى الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق(وهو استاذ السلطان عبد الحميد في الطريقة الشاذلية) ويذكر فيها عبد الحميد انه لم يتخل عن الخلافة الا لان الاتحاديين قد الحوا عليه بأن يصادق على تاسيس وطن قومي لليهود في الا راضي المقدسة(فلسطين) مع انهم وعدوه بتقديم (١٥٠) مليون ليرة انكليزية ذهباً». ومن المرجح ان تكون الوثائق العثمانية حول هذا الموضوع مصدراً مهماً في تقويم الموقف العثماني. ويحدد الدكتور عبد الكريم غرايبة الوثائق العثمانية (وثائق يلدز) حول هذا الموضوع بالملفات ١٢٧،١٧٧،٢٦٩،٣٣٤،٧٧٠(من القسم الاداري) والملفات ٩٣،٣٣٢ ٣٣٣،(من القسم السياسي) وتحتوي هذه الملفات على معلومات مهمة حول المستعمرات في البلاد العربية وهجرة اليهود من روسيا عام ١٨٨٩ وهجرة عام ١٨٩١ وهجرة اليهود والمسلمين من بولونيا وتضم الاضبارة ٣٣٢ وثائق تتحدث عن(مشروع اقامة مستعمرة يهودية والمؤتمر الصهيوني عام ١٨٩٨» «كذا» ويقول غرايبة بأن السلطات المسؤولة عن دار الوثائق لاتسمح بالاطلاع عليها. انظر وثائق يلدز كمصدر لتاريخ البصرة وخليجها والنشاط الاوربي في تلك المناطق، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ، ص ٦٩٢– ٦٩٣

الامبرطوارية التركية ليست لي وانما للشعب التركي (١)
لاستطيع ابدا ان اعطي احداً اي جزء منها . ليحتفظ اليهود بلايينهم
فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. »
على انه مهما كانت حقيقة هذا الموقف اوتحفظات السلطان عبد الحميد في هذه المسألة فان من الصعب الجزم بان السلطان العثماني وقف ضد هجرة يهودية محددة في البلاد العثمانية (٢) كما انه لم يقف من مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين موقفا حاسما وفي ذلك يقول بن هالبرن «لقد كان السلطان متحفظا في مساومة هرتزل لقد قرر انه عندما يجهز الصهاينة القرض اولا فانه سينظر بروح ودية الى مشروع الامتيازات الصهيونية Jewesh Octoman Land Company المقترحة»(٣) عليه يمكن ان يرجح في هذه المسألة ان السلطان العثماني الذي استطاع ان يكتشف الافق الايديولوجي الصهيوني المرتبط بحركة الاستعمار الحديث(٤)، قد اخفق في ادراك ابعاد العلاقة بين الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية (٥) وهما حركتان سارتا في بداية الامر في خطين متوازيين غير ان الدلائل اثبتت فيما بعد بان الايديولوجية الصهيونية المرتبطة بالاستعمار قد تمكنت من استثمار الهجرات اليهودية لمصلحتها مستغلة ظروف اليهود السيئة ونفسية المهاجرين المتعبة .

(١) انظر، يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) نسب إلى هرتزل قوله بان السلطان وعده بالسماح باقامة مستعمرات يهودية في العراق وفي سنجق عكا عن طريق فتح باب الهجرة اليهودية إلى تلك الاقاليم . انظر :
د. تاج السر احمد حران المصدر السابق، ص٤٦٦ – ٤٦٧.

(٣) وجدير بالذكر ان الحدود العليا لقيمة القرض الذي زعمت الدوائر الصهيونية انها ستقدمه للسلطان العثماني بلغت (٢٦) مليون ليرة عثمانية .

(٤) د. عمر عبد العزيز عمر ، المصدر السابق، ص ٢٦٩، فقرقج هامش رقم (٣)ص٨٢ (تحفظات د. تاج السر احمد حران) المصدر السابق، ص ٤٦٤ – ٤٦٥.

(٥) انظر الهامش رقم ٢ ص٨٧ . ويذكر ان السبب الرئيس لخروج تلك الهجرات اليهودية يعود إلى اضطهاد اليهود في روسيا ونزعة المعادات للسامية في عموم اوربا تقريباً .

وفي مقابل ذلك ادى اعتماد الباحثين لموقف السلطان عبد الحميد الثاني المشار اليه سابقاً والموقف الرسمي المتمثل بالقوانين العثمانية التي قيدت دخول اليهود إلى فلسطين إلى :

١ – ان السلطان عبد الحميد الثاني اعتبر مناهضاً للصهيونية رغم وجود ملاحظات صهيونية تشير إلى تعاطفه .

٢ – تزكية الدولة العثمانية من المسؤولية التي تتحمل ادارتها في فلسطين جانباً منها في قضية الاستيطان اليهودي – والصهيوني في فلسطين .

ففي المسألة الاولى ادانت ملاحظات صهيونية – توازى في اهميتها الملاحظات التي نسبت إلى السلطان العثماني حول موقفه من الاستيطان الصهيوني في فلسطين – السلطان العثماني عبد الحميد الثاني والدولة العثمانية لتعاطفها مع الصهيونية فقد اشار «٢٥ ، ٢٧ حزيران ١٨٩٦ » هرتزل إلى ان عزت(١)او السلطان مستعد أن يسمح بفلسطين شرط ان توجد الصيغة المناسبة (٢) ونقل ايضا « وذلك بواسطة» نيولنسكي (٣) قولا مبتذلا جاء فيه :

«ان الاتراك (كذا) راغبون في اعطائنا فلسطين ... وان وضع الاتراك في هذه المسألة هو عين مايحصل للرجل عندما يحس ان المرأة مستعدة ان تستسلم له »(٤) .

---

(١) عزت باشا العابد، سياسي عربي من دمشق لمع نجمة ايام السلطان عبد الحميد. كان(عزت بك) سكرتيراً للسلطان إلى ان نال الباشوية عام ١٩٠٢ واصبح وزيراً. كان قوى النفوذ وصاحب سطوة على السلطان، عرف بالفساد والرشوة هرب من تركية عام ١٩٠٨. انظر : الملحق بالاشخاص والمؤسسات في: يوميات هرتزل، ص ٥٢٩.

(٢) يوميات هرتزل المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣) فليب مايكل دي نيولنسكي (١٨٤١–١٨٤٦). صحافي وعميل سياسي نمساوي من اصل بولوني عمل مسؤولا عن الادارة السياسية في السفارة النمساوية في الاستانة واصبح صديقاً للسلطان عبد الحميد ترك العمل الديلوماسي عام ١٨٧٩ واقام في باريس كصحافي في ١٨٨٧. اسس وكالة انباء في فينا واصدر نشرة(بريد الشرق) اليومية. الملحق بالاشخاص ، يوميات هرتزل ص ٥٤٥.

(٤) يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٦.

ويقول هرتزل ايضا «٢٦تموز ١٨٩٦» «كنت في القسطنطينية حيث حصلت على نتائج اذهلتني انا ايضا . اخذ السلطان علما بمشروعي « فلسطين لليهود» ومع انه يعارض فكرة البيع عاملني بامتياز منعدة نواح وجعلتني افهم انه ، يمكن عقد الصفقة اذا وجدنا الصيغة المناسبة ... وقد قدم العرض التالي من حاشية السلطان : يدعو السلطان اليهود بحفاوة للعودة إلى وطنهم التاريخي . وليستقروا هناك بحكم ذاتي مستقلين اداريا وتابعين للامبراطورية التركية ، ومقابل ذلك يدفعون ضريبة »(١) ويذكر ايضا ان هرتزل كتب إلى السلطان عبد الحميد «٢٢ تشرين الاول ١٨٩٦» بمناسبة تسلمه براءة الوسام الذي منحه السلطان اليه فقال :—

« حينما يسر جلالتكم ان تقبلوا خدمات اليهود
سيسعدهم ان يضعوا قواهم تحت تصرف
ملك عظيم مثلكم . »(٢) .

ومن ناحية اخرى ثبت بالدليل التاريخي ان القوانين والتشريعات الخاصة بمنع انتقال الاراضي إلى الاجانب (اليهود) اواقامتهم في فلسطين والتي سبقت الاشارة اليها لم تؤد مفعولها بشكل دقيق فقد سارت عملية بناء المستعمرات في فلسطين على قدم وساق ونجحت الجماعات اليهودية اولا ثم الحركة الصهيونية بعدها في تشييد عدد ليس بالقليل من المستعمرات خلال عهد السلطان عبد الحميد وبضع سنوات تلت خلعه (٣) وقد بلغ مجموع تلك المستعمرات (٤٧) مستعمرة كما بلغت مجموع مساحة الاراضي التي تملكها اليهود منظمات وافراد

(١) المصدر السابق، ص ٤٣—٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) اظهرت الدوائر الصهيونية ابتهاجها لعملية اقصاء السلطان عبد الحميد التي جرت في العام التالي للانقلاب العثماني ١٩٠٨. واذا كان من الثابت تاريخياً نفوذ اليهود وبعض المتعاطفين مع الحركة الصهيونية على اعضاء جماعة الاتحاد والترقي يمكن القول او حتى التسليم بان قضية الوطن الصهيوني ستجد اذنا اكثر اصغاء مادام الامر اصبح لايتعلق بعاتق شخص واحد كما كان في السابق. انظر حول ابتهاج الدولة الصهيونية وتغلغل اليهود والصهاينة في جماعة الاتحاد والترقي: د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٣١ وما بعدها.

حوالي (٦٥٠) الف دونم من اجود الاراضي اما عدد المهاجرين فقد زاد على (٦٠) الف مهاجر (١) ويشير إلى ظاهرة تفاقم الهجرة اليهودية إلى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد احد المعنيين فيقول :

« ورغم تنبه عبد الحميد ووعيه لاخطار الصهيونية
شهد عهده تتابع موجتين من موجات التهجير
اليهودي إلى فلسطين . بدأت اولاهما عام ١٨٨٢
واستمرت حتى عام ١٩٠٤ ، وحملت معها مابين
عشرين وخمسةوعشرين الف مهاجر ، غالبيتهم .
من اليهود الروس ، سكنوا القدس والخليل وصفد
وطبرية وبدأت الثانية عام ١٩٠٤ (٢) واستمرت حتى عام
١٩١٣ اي بعد نهاية حكم عبد الحميد باربع سنوات
وحملت من يهود روسيا مابين ثلاثين واربعين الفاً (٣) »

وهكذا لم ينقطع التسلل الصهيوني الى فلسطين طوال عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى برصيد صهيوني جيد على صعيد بناء الوطن القومي الصهيوني ، وبانية اساساً يمكن ان يعتمد عليه حين صدور وعد بلفور المشؤوم ١٩١٧/١١/٢ ، من الجدير بالذكر ان يشار هنا الى الخطأ الذي يقع فيه بعض المؤرخين

(١) انظر د. يوسف عبد الله صايغ ، الاقتصاد الاسرائيلي ، ط٢ (القاهرة ١٩٦٦) الاحصائية رقم (١) ص ٤٤ ، عادل احمد الجادر ، اثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، (بغداد ١٩٧٦) ص ١٨٥ .

(٢) يذكر Nadav safran ان معظم المهاجرين اليهود في الموجتين الاولى والثانية البالغ عددهم (٢,٥) مليون مهاجر غادروا من روسيا خلال الفترة ١٨٨٢–١٩١٤ وقد هاجر معظمهم إلى الولايات المتحدة الامريكية اما الباقون فقد توزعوا على الاقطار الاخرى غير الاوربية ويؤلف الذين استوطنوا منهم في فلسطين نسبة قدرها ٣٪ من مجموع المهاجرين وان نصف هؤلاء وصلوا بعد عام ١٩٠٤ .

The United States and Israel , Harvard University press Cambridge Massachusetts , 1963 ' P. 67.

(٣) د. عمر عبد العزيز عمر ، المصدر السابق ، ص ٢٦٩–٢٧٠ .

وهو خطأ يقوم على التقليل من اهمية ماتم من عمل صهيوني خلال العهد العثماني (١) . ومما يقال في هذا الصدد ايضاً ان (٦٥٠) الف دونم التي حازها اليهود لاتشكل غير ٢ ٪ من مجموع مساحة فلسطين كما ان (٦٠) الف مهاجر لايمثلون غير ٧٪ من مجموع سكان فلسطين (٢) . اما الـ (٤٧) مستعمرة صهيونية فلا قيمة لها امام العمران العربي في فلسطين .

في اعتقادي ان هذه القضية محتاجة الى اعادة نظر وذلك بناء على الاسس الآتية

١ — ان مجموع مساحة الاراضي التي استولى عليها المهاجرون حتى قيام الحرب العالمية الاولى لاتقاس نسبتها الى مجموع مساحة فلسطين وانما مجموع مساحة الاراضي المعمورة فيها وقيمتها قياساً على قيمة الاراضي المعمورة عموماً (٣) .

٢ — ان مجموع اعداد المهاجرين اليهود والصهاينة الى فلسطين لاتقاس نسبتهم الى مجموع السكان العرب الفلسطينيين وانما على اساس نسبة المستوطنين اليهود كأشخاص اجانب الى المجموع الكلي للمقيمين من غير الفلسطينيين الذين دخلوا فلسطين في الفترة نفسها والذين يدينون بديانات اخرى غير اليهودية .

٣ — ان تقويم العمران الصهيوني لايقاس الى العمران العربي الذي يمتد عمره

---

(١) انظر على سبيل المثال: لوتسكي ، المصدر السابق ص ٤٦٧، الرشيدات المصدر السابق ص٥٤.

(٢) يخطئ شفيق الرشيدات ، المصدر السابق ص٥٤ في قوله« ولم يكن فيها انذاك اكثر من (٥٠) الف مواطن يدينون بالديانة اليهودية..» لقد كان معظم هؤلاء اليهود اجانب ولايمتلكون صفة المواطنة ابداً، ويؤيد هذه الحقيقة مادلى به طلعت باشا عام ١٩١٨ تعقيباً على وعد بلفور اذ قال : « ان اية قيود ادارية فرضتها الحكومة العثمانية على الاستيطان اليهودي يعود إلى سياسة روسية القيصرية التي اجبرت اليهود المهاجرين من روسية على الاحتفاظ بجنسيتهم الروسية مما ادى بموجب نظام الامتيازات إلى بقائهم تحت السلطة القضائية للسلطات القنصلية الروسية. للتوسع في ذلك انظر:
د. خيرية قاسمية ، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) يشير يوسف صايغ بوضوح إلى ارتفاع قيمة الاملاك الاقتصادية لليهود والصهاينة في فلسطين انظر: كتابه السابق الذكر ص ٧٥-٧٦.

آلاف السنين وانما بالظروف المادية المكانية والزمانية المتيسرة امام هؤلاء المهاجرين المستوطنين للحصول على العمران المذكور.

ان تصور هذه الافتراضات يمكن ان يعطي صورة اكثر دقة للموقف العثماني- ممثلا بالسلطان عبدالحميد او السلطات العثمانية-من الاستعمار الصهيوني والهجرة الصهيونية الى فلسطين . اذن ان نسبة الاراضي التي استولى عليها اليهود والصهاينة خلال الفترة المشار اليها سابقاً ستزداد أذا ما قورنت بمساحة الاراضي المعمورة.

ان الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين تقل عن (٣٠٪) من جملة مساحة فلسطين ، او بحدود ستة ملايين ونصف المليون دونم (١) وان معظم - حوالي ٨٧٪ من الاراضي التي يملكها اليهود والصهاينة يقع في البقاع الصالحة جداً للزراعة(٢)وهكذا يمكن تقدير نسبة ما حصل عليه اليهود والصهاينة الى مجموع الاراضي الصالحة للزراعة حتى الحرب العالمية الاولى ب١:١٠ مع الملاحظة بان اولئك المتملكين لتلك الاراضي اجانب .

وتتضح خطورة ما انجز من عمل يهودي وصهيوني للاستحواذ على الاراضي خلال الفترة المشار اليها ايضاً عند مقارنة مجموع مساحة ما استحوذ عليه اليهود والصهاينة بمجموع مساحة الاراضي التي استحوذوا عليها حتى عام ١٨٨٢ والبالغة (٢٥) الف دونم فقط (٣) حيث قفز هذا الرقم خلال حكم السلطان عبد الحميد والسنوات التي اعقبت خلعه وفقاً للصورة التالية : (٤)

---

(١) جاء ذلك في تقرير الخبير البريطاني في شؤون الاراضي السرجون هوب سمبسون الذي نشر عام ١٩٣٠ واكد بأن الاراضي القابلة للزراعة في فلسطين لم تكن تزيد على (٦,٥) مليون وليس (١٦) مليون ودنم لما يشيع الصهاينة وهذا يعني عدم كفاية الارض للعرب.
كما انه ليس هناك متسع من الاراضي للمهاجرين الصهايية. انظر :
الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) صايغ، المصدر السابق، ٣٩.

(٣) A Handbook To The Palestine Question, Questions And Answers By Ibrahim Al Abid, Books – No.17, Palestine Liberatine Organization Research center, Beirut, 1969. P 25.

(٤) Ibid. P. 25.

السنة	مساحة الاراضي المستولى عليها
حتى عام ١٨٨٢	(٢٥) الف دونم
١٨٩٠	(١٠٧) الف دونم
١٩٠٠	(٢٢٠) الف دونم
١٩١٤	(٤٢٠) الف دونم

وهذا يعني ان مساحة الاراضي التي تملكها اليهود والصهاينة قد تضاعفت بنسبة مئوية قدرها ٤٢٨٪ و٢٠٥٪ و١٩٠٪ على التوالي ، وذلك خلال الفترة المعنية وتبرز خطورة تلك الزيادات عندما تقارن مع مجموع مساحة الاراضي المعمورة والصالحة للزراعة البالغة (٦،٥) مليون دونم أذا أنها ستكون ٠،٣٨٪، ١،٦٤٦٪ ، ٣،٥٣٨٪ ، ٦،٤٦١٪ وأخيراً ١٠٪ عند الحرب العالمية الاولى كما سبقت الاشارة .

ومن ناحية أخرى فان تدفق المهاجرين اليهود والصهاينة الى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد وست سنوات من حكم الاتحاديين قد أدى الى مضاعفة عدد اليهود الى حوالي عشرة امثال ما كانوا عليه قبل عام ١٨٨٢ اي بنسبة قدرها ١٠٠٠٪ خلال (٤٢) عاماً . ففي الوقت الذي قدر فيه القنصل البريطاني في القدس عدد افراد الجالية اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بـ(٩٧٠٠) نسمة (١) ، اشارات احصائيات اخرى الى تقديرات مرتفعة نسبياً لعدد اليهود عشية الحرب العالمية الاولى فقد قدر لوتسكي عددهم بـ(٩٠) الف نسمة (٢) . ونسب ابراهيم العابد الى تقرير رسمي صادر عن حكومة فلسطين « Asurvey of Palestine 1945 - 1946 » بان عدد اليهود في فلسطين انخفض في زمن الحرب (عام ١٩١٨)الى(٥٦) الف بعد أن كان (٨٥) الف

(١) الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين، ص ١٧.
(٢) لوتسكي، المصدر السابق، ص ٤٦٧.

نسمة قبل بدء الحرب(١). اما عبد الرؤوف سليم فينسب الى William Polk قوله بان عدد اليهود كان يتراوح بين (٩٠) الف الى (١٠٠) الف نسمة (٢).
ولتقويم العمران الصهيوني في فلسطين في اواخر العهد العثماني يمكن القول ان ذلك العمران يمثل دون شك اقصى مايمكن ان تقدمه الجهود الصهيونية لاولئك المستوطنين قياسا الى الطاقات والامكانات البشرية المتوفرة لليهود والصهاينة في فلسطين . فقد نقل عن بعض المراجع ان مجموع الاموال التي انفقها البارون روتشيلد وحده في اعمال بناء فلسطين كانت تقدر بـ(١٥) مليون جنية فلسطيني وفي مرجع آخر (٢٠) مليون دولار وفي مرجع ثالث انها تتراوح بين (٦٠) مليون فرنك فرنسي (٣) .
وقد انعكس هذا الاتفاق السخي على اعمال بناء المستعمرات بطبيعة الحال، وتقدم العمران الصهيوني في فلسطين بشكل لافت للنظر، لقد ارتفع عدد المستعمرات خلال السنوات ١٨٨٢ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ ، ١٩١٤ من [٥] مستعمرات فقط الى ١٤، ٢٢، ٤٧، على التوالي (٤) اي بنسبة مئوية قدرها ٢٨٠٪ و ١٦٠٪ و ٢٢٠٪ وعلى التوالي ايضا .
لقد استفادت الصهيونية من الانحلال العام الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية وذلك في ممارسة شتى الضغوط على السلطان والحكومة العثمانية كما كان الجهاز الاداري العثماني في احايين عديدة اداة طيعة بيد الصهاينة . فقد كثرت الاشارة إلى النشاط الصهيوني ايام ولاية متصرف القدس أحمد رشيد بك ١٩٠٤–١٩٠٦ الذي يقال عنه بأنه« ابد الهجرة اليهودية » علانية كما انه ضرب القوانين التي اصدرتها الدولة العثمانية بشأن منع الهجرة

(١) Ibrahim Al -- Abid. op. Cit. pp. 48,53
(٢) محمد عبد الرؤوف سليم، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٣، انظر ايضاً يوميات هرتزل، الملحق بالاشخاص، ص ٥٢١.
(٤) د. يوسف صايغ، المصدر السابق، الاحصائية المشار اليها سابقاً، ص ٤٤.

اليهودية والاستيطان الصهيوني في فلسطين عرض الحائط (٥) فكان لتلك الظروف نتائجها الخطيرة على مستقبل فلسطين وعروبتها .



(٥) الياس سعد، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، ص ١٧-٤١٨ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص٢٧٠.

الخاتمة :

في ضوء النتائج التي امكن الوصول اليها يمكن القول ان عهد السلطان عبدالحميد ١٨٧٦ – ١٩٠٨ شهد تطوراً ملحوظاً للاستعمار الاستيطاني الصهيوني حيث يمكن تصوره كما يأتي :

١ – زيادة مساحة الاراضي التي استحوذ عليها اليهود والصهاينة .

٢ – سجلت احصائيات الهجرة ونمو العمران المادي زيادة ملحوظة .

وقد حاول الباحث تقويم تلك الزيادات في ضوء معايير جديدة وذلك من اجل الوصول الى نتائج جديدة . ومن ناحية اخرى فقد اشار البحث الى تأثر عدد من رجال حكومة السلطان وحاشيته بالضغوط الصهيونية (١) كما اوضحت بعض المصادر مدى ماكانت تعانيه الادارة العثمانية في فلسطين من فساد مما كان لذلك تأثيره الخاص على شل القوانين العثمانية اذ اصبحت حبراً على ورق .

ان الباحث وهو ينظر باعجاب الى صمود شعبنا العربي في فلسطين منذ بدء المؤامراة (٢) . بامكاناته المحدودة التي اضعفتها ظروف الاستغلال والقهر يرى : ان للاراء والوقائع التاريخية المذكورة اهمية ملحوظة في تقويم الموقف العثماني من الاطماع الصهيونية الاستيطانية في فلسطين .

(١) انظر على سبيل المثال مانقله هرتزل حول هذا الموضوع ص ٣٥–٣٦، ٤٣–٤٤.

(٢) انظر من اجل ذلك ناجي علوش، المصدر السابق، الفصل الاول الموسوم « خلفية الصراع العربي الصهيوني ١٨٨٢–١٩٤٨ ص ١١–٧٢، الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ص٤٨–٤٩، ٥٠ خيرية قاسمية، المصدر السابق ص ٣١ وما يلي ذلك في مواضع متعددة من كتابها سابق الذكر ، يوسف الحكيم المصدر السابق، ص ٢٤٩– ٢٥٠.

ABSTRACT

The relation between Imperialism and Zionism has been the object of research and study by scholers and authors. The present study treat of that relation, for it is the important basis for the understanding of the political stand point of the ottoman Empire (as respresented in the person of the Sultan and in the Government) towards the attempts to colonized Palestine and to establish a ((Jewish homeland)) therin.

As for the s ate of affairs in the Arab Palestine community, which gravely declined and betrayed its inability to confront effectively the nasoent Zionist activety, the reader is able to conclude the responsibility of the Ottomans for the consolidation of Zionism in Palestine on to score of their policy of oppression and the deliberate impoverishment of the Arab people.

المصادر

١ – ابو الغد ابراهيم (اعداد)، تهويد فلسطين، ترجمة د. اسعد زوق (بيروت ١٩٦١).

٢ – انطونيوس ، جورج يقظة العرب ترجمة د. ناصر الدين اسدد. احسان عباس (بيروت ١٩٧٤).

٣ – تايلر ، الن ، تاريخ الحركة الصهيونية ، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧ – ١٩٤٧ ترجمة بسام او غزالة (بيروت ١٩٦٦).

٤ – الجادر ، عادل احمد اثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (بغداد ١٩٧٦).

٥ – جوستورك الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد (٢٤) ايلول = تشرين الاول ١٩٧٧.

٦ – حران ، تاج السر احمد د. فلسطين والتحديات الصهيونية وسائل العمل الصهيوني ١٨٩٧ – ١٩١٧ من بحوث المؤتمر الدولي للتا يخ – بغداد ١٩٧٣ ، وطبعت وزارة الاعلام العراقية بحوث المؤتمر في كتاب واحد (بغداد ١٩٧٤) لاغراض البحث انظر ص ٤٥٣ – ٤٨٤.

٧ – حسن ، جاسم محمد ، العراق في العصر الحميدي ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، (بغداد ١٩٧٥).

٨ – الحكيم ، يوسف ، سورية في العهد العثماني، (بيروت ١٩٦٦).

٩ – حمدان ، جمال د.، ستراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الهلال (القاهره ١٩٦٨).

١٠ – الرشيدات ، شفيق ، فلسطين ، تاريخاً وعبرة ومصيراً ، (بيروت ١٩٦١).

١١ – سعد، الياس، الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة (بيروت ١٩٦٩)

١٢ – سليم ، محمد عبدالرؤوف ، تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧ – ١٩١٨ معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٧٤) جزءان.

١٣ – صايغ ، انيس ، (اعداد) ، وهلدا شعبان . ،(المترجمة) يوميات هرتزل ، سلسلة كتب فلسطينية – ١٠. مركز الابحاث منظمة التحرير الفلسطينية (بيروت ١٩٦٨) .

١٤ – صايغ ، د. يوسف عبدالله ، الاقتصاد الاسرائيلي ، ط٢. (القاهرة ١٩٦٦) .

١٥ – علوش ، ناجي ، الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود ١٨٨٢ – ١٩٤٨ (بيروت ١٩٧٤)

١٦ – عمر ، د.عمر عبدالعزيز ، بريطانيا وتصريح بلفور ، دراسة في نشأة القضية الفلسطينية من بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣ طبع وزارة الاعلام ١٩٧٤ ص ٢٣٦ – ٢٨٨ .

١٧ – عوض عبدالعزيز محمد ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤ .
(القاهرة ١٩٦٩) .

١٨– غرايبة ، عبدالكريم،وثائق يلدز كمصدر لتأريخ البصرة وخليجها والنشاط الاوربي في تلك المناطق بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣ وزارة الاعلام ١٩٧٤ ص ٦٨٨ – ٧٠٥ .

١٩ – قاسمية ، د. خيرية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣) .

٢٠ – الكيالي د. عبدالوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، ط١ ، (بيروت ١٩٧٠) .

٢١ – الكيالي ، د. عبدالوهاب ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث (بيروت ١٩٧٣) .

٢٢ – الكيالي د. عبدالوهاب ، (جمع وتصنيف) ، وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ – ١٩٣٩ ، (بيروت ١٩٦٨) .

٢٣ – لوتسكي ، فلادمير، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، موسكو ،

٢٤ – هرشلاغ ، ز.ي. مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني (بيروت ١٩٧٣) .

٢٥ – هيكل يوسف، فلسطين قبل وبعد ، (بيروت ١٩٧١)

26- Al Abid, Ibrahim, A Handbook to the Palestine Question, Questions and Answers, Palestine Books No ' 17 Palestine Liberation Organization Research Center, (Beirut, 1969).

27-- Pen Halbpern, The Idea of the Jewish state (London, Oxford University press 1961).

28- Hopwood, Derek, The Russian Presence In Syria and Palestine 1843-1914, Church and politics in the Near East, Claredon press (Oxford, 1969).

29- Rizk, Edward, (Tran. from French), The Palestine Question, Seminar of Arab Jurists an Palestine Algiers, 22-27 July, 1967, The Institute for Palestine Stydies, (Beirut, 1968).

30- Safran, Nadav, The United States and Israel, Harvard University press Cambrigdge (Massachusetts, 1963).

ملامح في الفكر العراقي القديم

كيورك مرزينا كرومي
مدرس مساعد / قسم التاريخ
كلية الآداب / جامعة الموصل


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة :

١ — يدور هذا البحث حول الاجابة عن السؤال الآتي: ماذا نعني بالفكر، العراقي القديم؟ وأرى الاجابة عن هذا التساؤل تتحدد في الكشف عن النقاط الاساسية في الفكر العراقي القديم ، واسميه الفكر لانه لايخلو من نفحات عقليه ، على الرغم من كونه فكراً اسطورياً (١) أذ أن الاساطير قد دخلت في تقييم بعض الحقائق وأبداء الآراء ، من حيث ان الفكر العراقي الممترج بالاسطورة ، لايعني بكونه فكر خيالي لاعلاقه له بالواقع ، بل على العكس من هذا نجده خلافاً ، وفيه اصالة لانه عبر عن الواقع الانساني والطبيعي في تلك الحقبة التاريخية ، واستعمل المنطق — اي المنطق الاسطوري (٢) — الذي ليس باقل منزلة من المنطق الذي استعمله فلاسفة اليونان — وخاصة المعلم الاول «ارسطو » — في تفسيره للظواهر الكونية وتنسيقها .

المقصود بالفكر العراقي القديم :

٢ — نعني بالفكر العراقي القديم ، جملة الاسئلة التي حددها المفكر العراقي والاجابات التي طرحها امام الاسئلة التي واجهته ومن هذه الاسئلة : ما أصل

---

١ — الاسطورة ضرب من الشعور يسمو الشعر، باعلانه عن حقيقة ما، ضرب من التعليل، يسمو على التعليل بانه يبغي احداث الحقيقة التي يعلن عنها : أنها ضرب من الفعل، انظر فرانكفورت: ماقبل الفلسفة ص١٩

٢ — هو المنطق الذي ينظر إلى الكون نظرة شاملة لايميز بين الطبيعة والانسان والمجتمع والالهة ويعتمد على العاطفة، ولايرتفع إلى تحكيم العقل في التميز بين الصادق والكاذب بين الحقيقي والزائف، اما المنطق الفلسفي هو المنطق القائم على التحكيم والحجة البينة الواضحة على العقل في التمييز بين الصائب والخاطئ بين الحقيقة والمظهر، بين الحق والباطل.
ياسين خليل: نظرة الانسان الشاملة إلى الكون آفاق عربية ٥/٤٦—٤٧

العالم ؟ وما الانسان ؟ لماذا وجد هذا العالم ؟ من اوجده ؟ أنهاية هذا الانسان تنتهي بمجرد خروج النفس منه ؟ وما هي النفس ؟ وهل هناك خلود ؟ (١) وقادته مثل هذه الاسئلة الى ان يجد حلولا شافية ومقنعة .. وعالج المفكر العراقي بالاضافة الى ذلك مشاكل عديدة كالجمالية والاخلاقية والفيزيقية — الطبيعة — والميتافيزيقية — ما وراء الطبيعة — والميثولوجية والسياسية ، والقانونية ، والعلمية الرياضية والفلكية ، ولا يمكن اعتبار هذه الفترة فترة مظلمة مرت بها البشرية ، بل كانت فترة ازدهار حضاري ، وسوف نبين مقدرة الانسان ودوره الفكري في الحضارة الانسانية ، كي نوضح للقارىء بان الفكر في معظم مراحله مدين بالشيء الكثير لفكر ما بين النهرين .

وعلى هذا الاساس سيكون موضوعنا مركزاً على ابراز البذور الفلسفية في الفكر العراقي القديم مع الاخذ بنظر الاعتبار الفارق الزمني . واذا كان الفكر في الفترة اليونانية قد عني بدراسة هذا الكون والانسان وعلوم ما بعد الطبيعة، فهل من الصعب ان نصف آراء المفكر العراقي الذي بحث في المشاكل ذاتها ، التي بحث بها اليونان فكر ؟ تتحدد الاجابة على هذا التساؤل ، في رأي احد المفكرين المعاصرين، نعم لانهم أدركوا بعض المشاكل الذهنية وتساؤوا لماذا حدثت الظاهرة الفلانية ، وكيف نشأ الشيء الفلاني ومن اين جاءت النتائج الفلانية ... اضافة الى ذلك نجدهم قد استعملوا اسلوب التجريد (٢) ولسنا مغالين لو قلنا بان معظم جذور النظريات التي عالجها المفكر اليوناني، والتي اعتبرها الباحثون آية من آيات الابداع والاصالة تعود الى نظريات شرقية (٣) . التي سبقتها نظريات شرقية مشابهة لها .. وخاصة في الفكر الطبيعي،

---

١ — للمزيد من هذا المجال انظر رسالتنا الموسومة « النفس عند ابن العبري» ص٢

٢ — انظر فراتكفورت: ماقبل الفلسفة، ص ١٧

٣ — المصدر السابق ، ص ٢٧٥، وانظر كذلك طه باقر ، بابل وبورسبا ص ٢١ ، وتوفيق الطويل ،الفلسفة الخلقية ص ٦٩

ذلك الفكر الذي رد كل ما هو متغير ومتبدل من ظواهر واشياء العالم ، أما الى مبدأ اول ـــ الماء ، الهواء اللامحدود ، النار والى عدة مبادىء ، اعتبارها أساسية واولية وهي (النار ، الهواء ، الماء ، التراب (١) ولا بد من كلمة تقال بان المفكر العراقي لم يقف عند هذا الحد ، بل استطاع ان يتسامى من المحسوس الى المعقول ، لذا نجده وقد ابتكر فكراً أدبياً عريقاً عالج فيه المشاكل الانسانية حيث خصص وقتاً كبيراً لدراسة عالم الواقع وعالم ما بعد الموت ، وكان هدفه من هذه الدراسة ايجاد الاسباب والمسببات للحوادث الطبيعية البشرية .

٣ ـــ لقد بدأ الانسان منذ ظهوره على الطبيعة ، يسأل نفسه عن بعض غوامض الكون ، والبحث عن حلول لعدة مشاكل واجهته في حياته (٢) ، وكانت

---

(١) ـبرز في الفلسفة اليونانية اتجاهان طبيعيان :
الا تجاه الطبيعي الأول : الذي أكد على موقف احادي التفسير ، راداً كل الأشياء والظواهر إلى مبدأ أول ،فهو«الماء» عند "طاليس" ام الهواء عند "انكسيمانس"ام "النار" عند "قليطس" ام اللا محدود" عند " انكسيمندر "الا تجاه الطبيعي الثاني : وهو اتجاه فكري أكد على موقف تعددي في التفسير ،وهو موقف كل من " الباذوقليس " " وانكساغوراس " و " ديمقريطس" وهذا الموقف يؤكد على : ان ليس هناك مبدأ اول واحد للعالم . بل هناك مبادىءاولى واساسية اكثر من مبدأ واحد ، هي " النار ، والهواء ،الماء ، التراب "
See:
Barnet . J.Early Greek Philosophy, PP. 25 — 39

(٢) ـ ومن الجدير بالذكر ان هناك محاولة بدأت في القرن العشرين ،من قبل عدد من المفكرين لا رجاع الفكر اليوناني ، او لا يجاد البذور الفكرية له في الفكر الشرقي اي المصري والعراقي القديم والهندي. واعتمد انصار هذا المذهب على الاكتشافات الا ثارية في الحضارات الشرقية وخاصة في الا مور المتعلقة بالخلق والمبدأ الأول الذي وجدت منه العناصر ،وكذلك الاكتشافات على اوراق البردي حيث حدوث معالم الفكر المصري فيها، واكتشاف الرقم الفخارية في الا مور المتعلقة بالفلك والهندسة عند البابليين ،وكذلك وجدوا من خلال الا تصال الذي قام به بعض فلاسفة اليونان للمدارس الشرقية. كطاليس ، وفيثاغورس وافلاطون ، دفع بعض المفكرين في هذا القرن .

اجاباته مقنعة ، وبعملة هذا استطاع ان يتسامى على المادة الجامدة ونسب اليها صفات حياتية (١) تشابه صفات الكائن الحي من حس وأدراك وتفكير حتى اصبح الانسان جزءاً من الطبيعة (٢) يخضع لقوانينها ، يشاركها وتشاركه في السراء والضراء لذا نجده وقد نظر الى الكون نظرة شمولية . وان هذه النظرة هي من المشاكل الفلسفية الكبرى في الفكر اليوناني (٣) .

وجسد المفكر العراقي الظواهر الطبيعية التي فاق أدراكه تفسيرها ، حيث اعطاها صفات الهية ، وذهب الى القول بان هناك قوى عديدة فوق العالم المحسوس لها صفات تفوق صفات العالم المحسوس، وتلك القوى هي : قوى عناصر الطبيعة كقوة الماء ، وقوة الهواء والشمس (النار) والتراب .. ثم استمر في حواره النفسي ، فحدد الاجابة عن السؤال الذي طرحه ، الا وهو : ما اصل هذا العالم ؟ وقد انحصرت اجابته بان « اياً » قام بخلق جزء مهم من الكون وهو مياه العمق من جسد (آبسو) ، وان «مردوخ» قام ايضاً بخلق جزء آخر من الكون من جسد (تيامه) أذ انه شطر جسدها الى شطرين

تابع هامش (٢) =

" كبرنيت" إلى التأكيد على أن الفكر الشرقي كان سباقاً للفكر اليوناني .. واستنتج هؤلاء بان الفكر الذي قيل في الفترة اليونانية الاولى اي عصر ماقبل سقراط ، كلام تكتنفه الأساطير الشرقية هنا وهناك ، كالافكار المتعلقة بالقضاء والقدر ، والعدالة ، وذهب هذا الفريق إلى القول بان الافكار هذه لعبت دوراً كبيراً في الكفكر الفلسفي والاسطوري في آن واحد.

See

A. James, B, Ancient near eastern text, PP--3--4

ب - بدوي ،عبد الرحمن : ربيع الفكر اليوناني ص ٨ - ٩.

١ - انظر فرانكفورت : ماقبل الفلسفة ، ص ١٦٢

٢ - انظر فرانكفورت ماقبل الفلسفة ص ١٤ - ١٥ وكذلك ملحمة كلكامش تأليف : أ.م. ديكيانوف وب . س . ترافيوس ترجمة عزيز حداد ص ١٦٦ - ١٦٧

٣ - انظر اولف جيمين : المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية ص ٢٧٩

جعل من اعلاه السماء.. (١) ويمكننا الافتراض بناء على ذلك بان المغزى الرئيسي لذكر مقتل (آبسو) و(تياماة) لم يكن مجرد اظهار حدة الصراع بين الالهة الجديدة والآلهة العتيقة وانما كان القصد منه التوضيح بان الكون اي السماء والارض (AN — KI) ومعهما حياة العمق «(APSU) قد تم خلقهما من مياه الهية (٢)

وعلى هذا الاساس نجد المفكر العراقي القديم لأول مرة في تاريخ الفكر الانساني قد بحث عن المبدأ الاول الذي نشأت، منه المادة المحسوسة ، فكانت اجابته تقترب لما توصل اليه مفكري اليونان الطبيعيين بقرون عديدة .. اذ بات من البديهي في الفكر الفلسفي اليوناني بان عظمة طاليس تعود الى انه قال بان العنصر او المبدأ الاول للموجودات هو الماء ، لانه يغذي الموجودات ، وتخرج جميع الاشياء منه وتعود اليه ، ولهذا السبب سمي طاليس اباً للفلسفة اليونانية (٣) . في حين يرى بعض المفكرين «بان عظمة طاليس التي انحصرت في « حيوية » المادة ، هي فكرة شرقية ، وان طاليس الذي ارجع صدور الحياة الى الماء (البحر) ، ربما اخذها من الشرقيين (٤) . ويؤيد ماذهب اليه، الرأي القائل ؛ « من الخطأ الاعتقاد بأن الفكر الفلسفي والعلمي في البحث عن العلاقات الثابتة قد بدأ باليونان ، لان مثل هذا الاعتقاد ينطوي على تحيز من جهة ، وعلى تعمد غايته الغاء ماتقدمت به الشعوب — شعوب الشرق الادنى من انجازات علمية من جهة أخرى . ففي مجال التفسير الطبيعي للكون نجد ان الحضارة البابلية قد ساهمت مساهمة فعالة في تقدم علمي الفلك والطبيعة ، اذ لم تكن ملاحظات البابلي للطبيعة مجرد اشارات عابرة .. » (٥) .

---

١ — نائل حنون،عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة (رسالة ماجستير غير منشورة) ص ٢٩ — ٣٠

٢ — مجلة سومر ج ٣ — م ٣١ سنة ١٩٧٥ ، مفهوم الزمان والمكان في وادي الرافدين القديم بقلم د. وليد الجادر . ص ٣٣٣ .

3 — Taylor. M· E Greeky Philosophy., p12

٤ — فرانكفورت : ماقبل الفلسفة ص ٢٨٠

٥ — ياسين خليل : منطق البحث العلمي ، ص ٣٣ .

وثمة نقطة اخرى منحت طاليس قيمة في الفكر ، قوله بان المادة حية ، وان حركة المادة ديناميكية اي ان المادة تتحرك في الداخل – وفي هذه الحركة ابطل طاليس المحرك الخارجي واعتقد بان العالم كله حي وتابعه في هذا الصدد فلاسفة آخرون .. وسمي هؤلاء باصحاب المادة الحية « الهيلوزويرت» وان حياتية الكون كانت من المشاكل الفلسفية الكبرى في الفكر اليوناني (١) . ونجد مايقابل هذه الفكرة اليونانية فكرة شرقية عراقية بحتة قديمة تذهب الى القول بان الكون بمادته عضو هرمي حي (٢) .

ورب سائل يتساءل : من اين جاءت فكرة حياتية العالم في الفكر العراقي القديم ؟ ان الجواب على هذا التساؤل يمكن ان نتلمسه في اسطورة الخليقة، تلك الاسطورة التي حددت الموقف بالصورة الآتية : ان العالم قد خلق من جسم تيامت ، وتيامت الهة الحياة المالحة . وبما ان الاله حي بجسمه وروحه فيكون العالم المتأتي من جسم حي كذلك ، وان فكرة خلود الالهة في الفكر العراقي القديم جازمة . لذا فالحركة الموجودة في العناصر تكون ازلية ابدية كذلك لانها من جسم الالهة (٣) . ومن الضروري ان نشير الى ان هذه الفكرة التي جاء بها المفكر العراقي : اي خلق العالم من جسم الاله كانت لها صدى في الفكر الفلسفي اليوناني عن طريق النحلة الاورفية (٤) .

٤ – ومن الافكار الاخرى التي تلفت الانتباه والدراسة ، تلك الفكرة التي حددت الاجابة عن التساؤل القائم : من اين جاءت فكرة الماء في الفكر العراقي القديم بأنه اصل الموجودات او العنصر الاول الذي يمكن ان يكون اساساً للعناصر الاخرى ثم الموجودات ؟ نقول ان التأملات والظنون التي تلقاها هنا ؛ هي التي هيأت للعراقيين القدامى ان يخترقوا بها الغموض الذي

---

١ – انظر اولف جيجين : المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية ، ص ٢٦١

٢ – ياسين خليل : منطق البحث العلمي ص ١٠٥ – ١٠٨

٣ – نائل حنون : : عقائد مابعد الموت ، ص ٢٩

٤ – كريم متى : الفلسفة اليونانية ، ص ١٧

يكتنف اصل الكون تلك التأملات المبينة على معرفتهم بالطريقة التي تتكون بها مساحات جديدة من الارض في البلاد. فالعراق بلد نشأت ارضه على آلاف السنين من الطمى الذي يجيء به النهران دجلة والفرات ويرسبانه في المصب (١) وأذا قارنا هذه الفكرة العراقية بفكرة مشابهة لها في الطرح عند اليونان ، وهي الفكرة التي تؤكد على ظهور اليابس من الماء ، والتي أشار اليها طاليس حيث اعتقد بان عناصر الموجودات قد خرجت من الماء (٢) فاننا ننتهي الى ان مفكري العراق القدامى قد سبقوا طاليس في هذا المجال قروناً عديدة ، ويؤيد ذلك الرأي الذي يذهب الى « ان تصور فلاسفة ايونية للطبيعة على اساس انها حية هو تصور بابلي ولا شك ، وان تصور طاليس للمادة الاولى او المبدأ الاول هو الماء باعتباره اصل الاشياء يمكن فهمه على ضوء الاسطورة البابلية بعد ان تنتزع منها الرداء الاسطوري .. ،، (٣) .

نستنتج مما سبق بان الماء في تصور العراقيين الاوائل كان موجوداً أزلياً ، وان الاشياء قد خرجت منه ، وان المبدأ الاول وهو ميتافيزيقية — او صدأ تفسيري — ان صح التعبير . وهي في حالة «هيولى » قابلة للتموضع او ان تكون شيأً ما ، وان خروجها من القوة الى الفعل بلغة ارسطية ، نتج منها العالم المحسوس ، واول العوالم كان (الماء) . ثم نشأت منه العناصر الاخرى التراب ، الهواء ، النار . وان نشوء العوالم من الماء عند العراقيين القدامى يمثل تفسيراً عقلياً وان غلفته في بعض الاحيان اغلفة اسطورية ،وبذلك يمكن القول بان هذا التفسير « يمثل مدارك المفكر (العراقي) ونضوج آرائه وتأملاته في قوى الطبيعة وفي خصائص وجوده في هذا الكون » (٤) لان هدفه بيان العلل التي أنشأت الموجودات .

١ — نائل حنون : عقائد مابعد الموت ، ص ٢٧— ٣٢
٢ — يوسف كرم — تأريخ الفلسفة اليونانية ص ١٣
٣ — ياسين خليل ، منطق البحث العلمي ، ص ٣٥ — ٣٦
٤ — صموئيل نوح كريمر : الأساطير السومرية — ترجمة يوسف داود ص ١١٨

وبالاضافة الى كل ذلك فان العراقيين القدامى اعتقدوا بان الاشياء تعود الى العنصر الذي خرجت منه ، حيث جاء في احدى الرقم نص صريح في هذا المجال : قال صاحب النص : « عسى ان يعود اجرك الطيني الى حالته الاولى في الماء . » (١) . ومن اللازم ان نشير الى ان فكرة خروج العناصر من العنصر الاول والعودة اليها ثانية هو المنهج الذي اتبعه مفكرو اليونان في الفترة التي عرفت بسيادة الفلسفة الطبيعية في عصر ما قبل سقراط (٢).

يعني هذا ان المفكر العراقي قد ادرك بان الاشياء الطبيعية تنشأ من العناصر الاربعة بعد خروجها من البحر الاول بواسطة اتحاد العناصر والصراع فيما بينها . فالعالم عندهم في حركة مستمرة ومزيج غير متعادل (٣) . . ولما كانت الطبيعة في حركة مستمرة ، لذا فقد تصورها المفكر العراقي موضوعاً غير جامد حياً متحرك ، وان ظواهر الطبيعة ليست منفصلة عن الكائن الانساني . ولذلك ذهب الى الاعتقاد بان ظواهر الطبيعة ليست الا تجارب أنسانية وبتفكيره هذا استطاع ان يميز النظام في الطبيعة الذي تقابله الفوضى وأدرك القوى التي تؤثر على الطبيعة والانسان .

واستكمالا لهذه المسألة لابد ان نشير الى ان الماء الاول الذي اعتبره المفكر العراقي اساساً للعناصر الطبيعية ، كان في حالة مضطربة مشوشة لاشكل له ، وكان يحتوي على متضادين الموجب والسالب ، ونتيجة الصراع اتحد احدهما مع الآخر فانبثقت العناصر الاخرى (٤) . وتنسجم هذه الفكرة في اسمى صورها عند العراقيين القدامى في مفهوم يمر أعادة الحق او

١ – صموئيل كريمر : السومريون تأريخهم ، ترجمة فيصل الوائلي ص ٨٦

٢ – انظر أحمد امين وزكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ، ص ١٤

٣ – انظر صموئيل كريمر : المصدر السابق ص ١١٩
ويذهب مترجم الكتاب في ص ١٢٠ إلى أن هذه النظرية قد سبقت نظرية " الباذوقليس"

٤ – طه باقر : المقدمة في تأريخ الحضارات .ج١ ، ص ٢٣٦ .

العدالة(١) ويبرز هذا الموقف في النص الآتي: «في تتابع الزمن الدوري في الخلق والعودة الى الماء والشيء بعد، وفي الحالة الاخيرة فقط نجد ان الذي يلعب دوره هو مفهوم او حالة الرجوع الى الفوضى...» (٢) ونجد صدى لهذه الفكرة عندفلاسفة اليونان كأكسمندر على سبيل المثال ، أذ ان العناصر عنده : عندما تكون في «الابيرون» تكون غير مرئية وتصبح مرئية بعد عملية الصراع ، وفي «الابيرون» أو اللامحدود قوتين الموجبة والسالبة ، ولا يمكن ان تخرج الاشياء الا نتيجة للصراع بين الاضداد . (٣) وكذلك نجد هذه الفكرة عند «انباذوقليس» فيطلق عليها فكرة غلبة احدى القوى قوة الحب والكره — او تعادلها . ففي التعادل تحدث المحسوسات ، وفي غلبة احدى القوى على العناصر تفنى الموجودات الحسية وفي هذه الحالة لايمكن الحصول على العالم الحسي .. ومن هذا نلخص الى ان العراقيين القدامى قد سبقوا ايضاً المفكر هيراقليطس » الذي يعتبر أباً لفلسفة الصراع والذي ذهب الى القول بان عملية الخلق والعودة الى النار والشيء غير المخلوق (٤) ربما قد يكون وضعها بتأثير الفكر العراقي القديم الذي انتقل عن طريق الاتصال الحضاري .

٥ — وعالج المفكر العراقي مقولة فكرية مهمة، لعبت دوراً مؤثراً في مجمل طروحات التفكير الانساني . وكانت مناقشته لهذه المقولة . تقوم على اعتقاده بانه جزء من الطبيعة يتأثر بها ، كما تتأثر باقي الموجودات الاخرى ، لكن هذا لايعني بانه لم يعرف بين ما هو مادي وما هو غير مادي ، بل بالعكس نجده يفرق بكل وضوح بين ماهو مادي وماهو روحي وادرك كذلك ان النفس الانسانية تتالف من قوى كالعاقلة والعاطفة والحياتية ، وحدد مكان كل قوة منها في البدن كالكبد والقلب حيث جعل الكبد مركزاً للحياة

١ — نعني بالعدالة بمعناها الفلسفي : اجتماع العناصر المتشابهة بعضها مع البعض الآخر وتكون تلك العناصر بعيدة عن الصراع والتناقض.

٢ — مجلة سومر ج ٢ ،مجلد ٣١ سنة ١٩٧٥ ص ٣٣٩

٣ — انظر كريم متى : الفلسفة اليونانية ص ٣١ — ٣٦

٤ — انظر يوسف كرم : تأريخ الفلسفة اليونانية ص ٢١

والعاطفة والقلب مركزاً للعقل (١). وعلى هذا الاساس نجد ان ادراك المفكر العراقي لقوى النفس ، يقترب من فهم افلاطون ، للنفس وقواها واماكنها في البدن (٢). وكذلك فانه اعتقد بان المادة قد يطرأ عليها الفساد وتتحول من شكل الى آخر ، أما الروح فلا تطرأ عليها ظاهرة الكون والفساد ، وانها هبطت من العالم العلوي الى العالم السفلي وقادته هذه الفكرة الى الايمان ببقاء النفوس الانسانية بعد انسلاخها من ابدانها ، فقد جاء في احد الادعية مانصه : « ياارواح عائلتي ، ياارواح ابي وامي واجدادي واخي واختي واقربائي طالما انت مستقرة في العالم الاسفل كنت اقدم اليك القرابين الجنائزية ، واسكب لك الماء وكنت ابذل العناية لك واجلك ، ففي الآن امام شمس كلكامش واعرضي قضيتي واحصلي على قرار رأفة بحقي ، ليتسلم نمتاروزير العالم الاسفل الروح الشريرة التي في جسدي واعصابي وليحرسها نبمهتزيدا. منادى العالم الاسفل حراسة قوية وليمنعها « نيدو » رئيس وابو العالم الاسفل من العودة ثانية خذي هذه الروح الى ارض اللاعودة ودعيني انا خادمك ، حياً ... » (٣).

وعلى الرغم من ايمان فريق من مفكري العراق القدامى ببقاء النفوس البشرية بعد مفارقتها للابدان الا اننا نجد فريقاً آخر ، آمن بفكرة معاكسة اي انهم اعتمدوا بأن النفوس لايمكن ان تبقى بعد فناء ابدانها وقادتهم هذه الفكرة الى الاخذ أو السير في اتجاه وجودي صرف حيث استعانوا باسلوب التحدي للطبيعة والالهة، واستطاع المفكر العراقي ــ وخاصة السومري ان يحرر عقله ؛ فادرك ولاول مرة في تاريخ الفكر البشري من ان قدرته تفوق قدرة الآلهة ، أذ جاء في احد الرقم: يقول كلكامش لصديقه انكيدوا : (نحن الذين بغضبنا انتصرنا على الثور

١ ــ انظر حكمت نجيب : دراسات في تأريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٣
٢ ــ انظر افلاطون ، الطيماوس واكريتس ، ترجمة بربارة ، ص ١٣٢
٣ ــ نائل حنون : عقائد مابعد الموت ، ص ١١٠

السماوي فلم تستطع الالهة تحقيق رغبتها ، ورغبتنا فقط هي تحققت . " (١)

٦- ومن الامور الفكرية الاخرى التي تطرق اليها المفكر العراقي هي الفضائل بمعنى أدق انه اقترب من صياغة مذهب أخلاقي أذبين بان الانسان حين يموت فانه يمثل امام شمس ، حيث يجب عليه ان يبرر سلوكه الارضي ، وانه لن يحصل على الغفران الا بعد حصوله على حكم في صالحه (٢) ، وكذلك فان الالهة وضعت امام الانسان التزامات اخلاقية منها : الامتناع عن غش الناس او غش الالهة في القرابين، الامتناع عن الكذب، عدم اضطهاد الكادحين والعبيد والضعفاء والاطفال ، العمل على اطاعة القواعد الاجتماعية (٣) .

غير ان المكان الاول يظل الى الامل في الخلود ، تلك الصورة التي اتخذها الفكر العراقي فأثر بها على التأمل الاخلاقي اللاحق . لان فكرة اعترافه بالخلود تتضمن نواة الفكرة الاخلاقية القائمة على المسؤولية الشخصية (٤) .

٧- وتوصل المفكر العراقي الى فكرتين جديرتين بالاهتمام الا وهما فكرة التقمص والحلول ، والتقمص فكرة فلسفية تعني في جملة ما تعني ان نفس الانسان تستطيع ان تتقمص في ابدان كثيرة سواء اكانت تلك الابدان حيوانية او جمادية أو أنسانية وبهذا الاسلوب يستطيع ان يصبح الهاً ، وتتقمص شخصيته القوى الكونية الكبرى التي تحيط به ،وهكذا يستطيع التأثر عليها بالفعل والحركة لابمجرد الرجاء والضراعة »(٥)

اما الفكرة الثانية وهي فكرة الحلول فهي تعني ان الاله يحل في ابدان البشر لاداء مهمة ما ويعبر النص الاسطوري في الفكر العراقي القديم عن هذه الحالة عندما كانت «ننليل» تبحث عن «انليل» فحل «انليل» في حارس الباب لكي

---

١ - انظر فاضل عبد الواحد على : مأساة تموز ص ٦٥
٢ - نائل حنون : عقائد مابعد الموت ص ١٠٩
٣ - آ. م. دياكونوف ،ملحمة كلكامش ص ١٦٥
٤ - انظر فرانكفورت ، ماقبل الفلسفة ص ٣٣٩
٥ - المصدر السابق ص ٢٣٧

يختفي عنها ، وجاءت «ننليل» تسأل الحارس دون ان تعرف ذلك «ياحارس نهر العالم الاسفل ، النهر الذي يفترس البشر (انليل) صكك الى اين هو ذاهب؟

« انليل » يجيب بلسان حارس نهر العالم الاسفل ، النهر الذي يفترس البشر « انليل» ملك جميع البلاد قد امرني ... ، » (١)

وآمن المفكر العراقي كذلك بفكرة القضاء والقدر ، ولهذا السبب اعتقد بان الانسان مسير في تصرفاته من قبل الالهة في كل شيء وواضح بان الانسان مسلوب الحرية ، حيث يقول ، الآن قد قرر «قدر» الكون واعطى الشاطيء والقناة اتجاهها الصحيح وأقيمت ضفتا دجلة والفرات فماذا نحن غير ذلك فاعلون » . (٢)

ونجد عند المفكر العراقي كذلك فكرتين جديرتين بالاهتمام اخذ بهما بعض المفكرين فيما بعد الاولى تخص الناحية الاجتماعية ، حيث نجده وقد قسم المجتمع الى طبقات ووضع لكل طبقة قوانين خاصة (٣) ، والثانية تخص الناحية السياسية أذ نجده قد آمن بنظرية التفويض الالهي في الحكم (٤).

٨ ــ وحاول المفكر العراقي القديم طرح تفسير رياضي للكون ،وهذا يعني بانه أراد أن يفهم العالم الخارجي فهماً عقلياً ،لايمانه بان العالم يسوده النظام والانسجام .وان الاساس الرياضي الذي اعتمده نعثر على صداه

١ ــ صموئيل كريمر : الاساطير السومرية ، ص ٧٣–ص٧٤
٢ ــ صموئيل كريمر ، السومريون تأريخهم وحضارتهم ص ١٦٤
٣ ــ انظر عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ص ٤٦
٤ ــ المصدر السابق ص ١٣٨

صداه في الرقم الطينية التي خلفها وراءه هذا المفكر ، فتكشف لنا ذلك الرقم محاولة المفكر العراقي لوضع اسس ومفاهيم العلم الرياضي وصياغة بعض القضايا .وما يؤكد ماتذهب اليه « كلاين Kline »في كتابة «الرياضيات في الحضارة الغربية» (١) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجده قد اهتم بعلم الهندسة ،وكان اهتمامه بالهندسة قد استدعته حاجته اليها في بناء معبد أو تعبيد طريق .. وعبر تطور تاريخي طويل وممارسات عديدة قام بها المفكر العراقي ،انتقلت فيها الهندسة من الجانب العملي الحسي إلى الجانب النظري التجريدي (٢) ،اذ نجده قد استطاع اقامة البرهان على المبرهنة التي عرفت في تاريخ الرياضيات باسم فيثاغورس .حيث اكتشف لوح طيني يدل بوضوح على معرفة بنظرية المثلث القائم الزاوية (٣) .

٩ — وختاماً أستطيع أن أقول بكل تواضع بان البذور الفكرية التي ناقشها العراقي قد أثرت ودخلت في بناء افكار جديدة لاحقة مع اضافات جديدة تلائم العصر الذي وجد فيه المفكرون فيما بعد ،لان التقدم لم يبتدىء من الصغر ، وان أي حضارة تنشأ على أنقاض الحضارات السابقة .فالفكر ليس ملكاً لشخص .بل ملك للانسانية جمعاء ،والفكر له خصيصه الانتشار ولهذا السبب يصعب فهم وتحديد القنوات التي يمر منها أو طرق انتقال تراث إلى أمة أخرى .

---

١ — محمد جلوب فرحان : تحليل ارسطو للعلم البرهاني ، ص ١٣

٢ — المصدر السابق ص ١٤—١٥

٣ — انظر طه باقر ،لوح رياضي على نظرية لا قليدس في تل حرمل ، مجلة سومر سنة ١٩٥٠ ج ١ — المجلد ٦ .

مصادر البحث

أ — المصادر العربية :

١ — احمد امين ، زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ م

٢ — أم . دياكونوف ،بس ترافيوف ، ملحمة كلكامش ، ترجمة عزيز حداد ، منشورات مكتبة الصياد ط١ ١٩٧٣م

٣ — افلاطون : الطيماوس وأكرتيس تحقيق البير ريفو ترجمة فؤاد جرجي بربارة منشورات وزارة الثقافة والسياسة والارشاد القومي ١٩٦٨ م .

٤ — اولف جيمن : المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية ، ترجمة عن الالمانية وعلق عليه د . عزت فرني مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٦

٥ — توفيق الطويل الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ، الاسكندرية ١٩٦٠ م .

٦ — جورج هاوك وهاوزه معجم في الاساطير اليونانية ، ترجمة امين سلام ط١ سنة ١٩٥٥ م

٧ — حكمت نجيب دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ،

٨ — طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات ،ج١ط٢ ١٩٥٥م : بابل وبورسيا ، مطبعة الحكومة بغداد ١٩٥٩.

٩ — صموئيل نوح كريمر الاساطير السومرية ، ترجمة يوسف داود وعبد القادر ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٧١.

: السومريون تاريخهم ترجمة فيصل الوائلي دار غريب للطباعة ، بغداد ١٩٧٣ م .

١٠ — عامر سليمان ، القانون في العراق القديم الموصل ١٩٧٧ م

١١ — عبد الرحمن بدوي ، ربيع الفكر اليوناني ، القاهرة ١٩٤٣ م

١٤ – فاضل عبد الواحد علي ، عشتار ومأساة تموز ، بغداد ١٩٦٣ .
١٥ – فرانكفورت ، هـ، ماقبل الفلسفة، الانسان في مغامراته الفكرية الاولى الاولى – ترجمة جبرا ابراهيم جبرا بغداد ١٩٦٠ م
١٦ – كريم متّى : الفلسفة اليونانية ، بغداد ١٩٧١ .
١٧ – كيورك مرزينا ، النفس عند ابن العبري ، رسالة ماجستير في الفلسفة (غير منشورة) ١٩٧٥ م .
١٨ – محمد حلوب فرحان : تحليل ارسطو للعلم البرهاني رسالة ماجستير (غير منشورة) ١٩٧٦ .
١٩ – نائل حنون ، عقائد مابعد الموت في حضارة وادى الرافدين ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ١٩٧٥ م
٢٠ – ياسين خليل : منطق البحث العلمي ، بغداد ١٩٧٤ .
٢١ – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ .

ب– المصادر الاجنبية :

22- Barnet·J·, Early Greek Philosphy, London, 1958
23- James·R·, Ancient near eastern, New Jersy, 1955
24- Taylor'M·E·J·, Greek Philosophy·, London, 1953

جـ – المجلات

٢٥ – افاق عربية ، مقالة نشرها الدكتور ياسين خليل تحت عنوان ، «نظرة الانسان الشاملة إلى الكون ».
العدد الخامس سنة ١٩٧٦ م.
٢٦ – مجلة سومر ، مقالة بقلم مدام ايليا كاسان ترجمها ونشرها الدكتور وليد الجادر تحت عنوان « مفهوم الزمان والمكان في الفكر العراقي القديم» . ٢٩ مجلد ٣١ سنة ١٩٧٥) .
٢٧ – مجلة سومر ،مقالة بقلم طه باقر تحت عنوان لوح رياضي على نظرية الاقليدس في كل حرص ، ج ١ مجلد ٦ سنة ١٩٥٠ م.

الأثر المنطقي لأرسطو

على هندسة إقليدس

محمد جلوب فرحان
مدرس مساعد
كلية الاداب / قسم التاريخ


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة :

١ — تستهدف هذه الدراسة الاجابة عن السؤالين الآتيين : ماالمقصود بالاثر المنطقي ؟ وما المقصود بهندسة اقليدس (١) وقبل الاجابة عن هذين السؤالين اجد لزاماً عليّ ان احدد ابعاد الموضوع الذي تتناوله هذه الدراسة ، والطريقة المستخدمة فيها .

تنحصر ابعاد الموضوع في ناحيتين : يفهم الباحث في الناحية الاولى ان هندسة«اقليدس»نظام لغوي يتألف من مجموعة من المفاهيم الاولية التي تمثل الف باء النظام،ومن مجموعة من القضايا التي هي ابنية اعقد من المفاهيم السابقة، ويفهم في الناحية الثانية ان هندسة«اقليدس»نظرية استدلالية تسود فيها مجموعة من البراهين المنطقية لاشتقاق قضايا جديدة من قضايا اولية موضوعة في بداية النظام . اما الطريقة المستخدمة في هذه الدراسة فتقوم على تحليل النظام الهندسي إلى مفاهيمه الاولية،بمحاولة كشف طبيعة هذه المفاهيم ، قصد التمييز بين ماهو اولي منها وما هو ثانوي ، وتحليل القضايا في سبيل ابراز القواعد المنطقية ، التي يخضع لها بناء القضية ،والتمييز بين القضايا الاولية والقضايا الثانوية، والكشف عن البراهين المنطقية السائدة في ذلك البناء من اجل الوقوف عند طبيعة هذه البراهين ومكوناتها ، وابراز الاختلاف بين البرهان المباشر والبرهان غير المباشر ودور الالزام المنطقي بين مقدمات البرهان والنتائج المشتقة منها . ومن الضروري ان اشير إلى انني في التحليل الذي قمت به لمنطق ارسطو ، قد اقتفيت اثر الطريقة التي طرحها الدكتور ياسين خليل في كتابه«نظرية ارسطو المنطقية » ، تلك الطريقة التي نظرت إلى منطق « ارسطو » من وجهة نظر رياضية معاصرة .

المقصود بالاثر المنطقي :

٢ — نقصد بالاثر المنطقي جملة من الاسس والقواعد المنطقية التي حددها «ارسطو» والتي لعبت دورا مؤثرا في بناء هندسة «اقليدس»، ونرى بان هذا الاثر ينحصر في ناحيتين : «تتحدد الناحية الاولى في نظرية التعريف وتتعين الناحية الثانية في نظرية البرهان» . (٣)

التعريف : Definition

يحدد ارسطو ، التعريف بكونه «صيغة تحدد الطبيعة الجوهرية للشيء (٤) ويشترط في هذه الصيغة ان تتألف من حدود اولية بسيطة وواضحة ، وان «تكون من طبيعة او جنس ذلك الحقل العلمي »(٥) ويعني هذا ان التعريف عملية تركيب او بناء تتألف من جنس genus وفصل differentia الموضوع المراد تعريفه ، واستنادا إلى ذلك وضع «ارسطو»امام المعرف شروطا تحدد عمله، ومن هذه الشروط ان يضع في البداية «جنس الشيء والذي يتحدد بكونه مشتركا مع اشياء اخرى ثم يضيف اليه فصله الخاص به والذي يميزه عن الاشياء الاخرى »(٦) .

ونحاول ان نقف لنكشف عن كيفية بناء التعريف من المبادىء التي تؤلف جوهر الشيء فاذا نشدنا على سبيل المثال، تعريف المثلث ، فاءننا نجد ان المثلث يتحدد بانه « سطح مستو » وسبب ذلك يعود الى ان الحد « سطح مستو » هو جنس يشترك فيه المثلث مع السطوح المستوية الاخرى من مربع ومستطيل ،والسؤال القائم: كيف نميز بين المثلث والمربع الذي يتصف ايضا بكونه سطحا مستويا ؟ في الحقيقة ان الذي يميز المثلث عن المربع هو « فصلة الخاص به والذي يتمثل بكونه محاط بثلاثة خطوط مستقيمة » (٧) .

ورب سائل يتسائل: هل ان الحد العكسي يظهر في التعريف ؟ اوبمعنى اخر اذا حاولنا تعريف الخط المستقيم فهل يشمل اويتضمن هذا التعريف

على الانحناء (الحد العكسي للاستقامة) ؟ وتتحدد الاجابة عن هذا التساؤل في ان تعريف الخط المستقيم لايتضمن الحد العكسي وذلك يعود الى ان الطبيعة الجوهرية للأستقامة لاتشمل غير الاستقامة فقط ، وبهذا فقد ادرك ارسطو ذلك واشترط في التعريف الدقيق الجامع المانع ان «لايشير الى شيء خارج الطبيعة الجوهرية للموضوع المراد تعريفه» (٨) وان التعريف من حيث كونه تحديدا يشترط ان تتوفر فيه جملة من الشروط ، تجعل منه نظرية دقيقة محكمة وذلك يرجع الى ان التعريف عند ارسطو عبارة تدل على طبيعة الشيء ،ومن الضروري ان تتوفر في هذه العبارة جملة من الشروط التي يستوفيها كل تعريف:

١ ـ يجب ان يتألف التعريف من حدود اولية primitive terms تتميز بكونها «اولية غير قابلة للتعريف ويستلزم هذا ان يتكون التعريف من حدود غير معرفة » (٩) ويشير هذا ان نميز في التعريف :

١ ـ الحدود اللامعرّفة او اللامعرّفات Indefinables

٢ ـ الحدود المعرّفة او المعرّفات Definables

وعلى هذا الاساس فان كل معرفة علمية تبدأ في رأى «ارسطو» باختيار مجموعة من الحدود الاولية،وان عملية اختيار هذه الحدود تخضع لشروط منطقية معينة ، وعن طريق الاستعانة بتلك الحدود نستطيع بناء الحدود الباقية ولاجل ذلك فان «ارسطو » لم يسلم في بنائه المنطقي بأي حد بصورة عشوائية «ما لم حد أوليا في هذا الحقل من المعرفة العلمية اوحدا معرفا عن طريق ذلك الحد الاولى أو الحد اللامعرف » (١٠) وهـذا يبرز الدور الذي تلعبه اللامعرفات في بناء اسس العلوم اذا ان كل تعريف يشيد بنائه المعرفي بالاعتماد على اللامعرفات ،« التي تتميز بكونها حدودا واضحة ودقيقة وبينه بذاتها »(١١) وبذلك فان عملية تعريف الحدود الاخرى يتم بواسطة اللامعرفات ،فالنقاط على سبيل المثال،تدخل حدود أولية في تعريف الخط

وكذلك الحال بالنسبة للمستوى اذ ان «الخط» يدخل حدا اوليا في بنائه وقد ادرك ارسطو ذلك فحدد الخط المستقيم بكونه «اقرب مسافة بين نقطتين» والمثلث بكونه «سطحا مستويا محاطا بثلاثة خطوط مستقيمة» (١٣) .

يظهر من هذا ان الحدود خط مستقيم «ومثلث» تمثل حدودا ثانوية او حدودا معرفة ولاجل هذا اعتقد «ارسطو» في ان كل علم يجب ان تكون له حدود اولية دقيقة وعن طريقها نستطيع تحديد الحدود الباقية وتكون الحدود الاخيرة حدودا معرفة عن طريق الحدود الاولى (١٤) .

ب ـ ويشترط في التعريف ان يكون مساواة بين حدين وهذا يعني ان نستبدل الحد الذي يراد تعريفه بالحد المعرف فاذا اردنا تعريف المثلث على سبيل المثال فان تعريفه يجب ان يتألف من مجموعة من الحدود التي تكون بعدد المبادىء التي تؤلف جوهر المثلث (١٥) .

جـ ـ ويستلزم في التعريف ان يكون دقيقاً وبمعنى اخر ان لايكون غامضا او يثير الالتباس ويشترط هذا ان يتوفر في التعريف وفي لغته الدقة والوضوح (١٦) .

د ـ يجب ان يكون التعريف جامعا مانعا ويشترط هذا ان ينحصر التعريف في حدود مايراد تعريفه وان لايتضمن اى حدود زائدة اذا اريد به ان يكون مانعاً (١٧) .

هـ ـ ينبغي ان يتألف التعريف من جنس مايراد تعريفه وكذلك من فصله الخاص به وهذه هي الميزة الاساسية التي تميز شيئا ما من الاشياء وقد اشار ارسطو إلى ذلك فذهب إلى ان المعرف اذا حاول تحديد شيء ما فمن الضروري ان يحدده في البداية في جنسه فاذا قصد تعريف «المثلث» فانه يحاول تحديده اولا «كسطح مستو» باعتبار ان السطح المستو جنس يشترك فيه المثلث مع اشكال هندسية اخرى وعلى هذا الاساس فان المثلث من حيث هو سطح مستوي لم يكن تعريفاً تاما شاملا ، ولاستكمال ذلك يشترط ان يضاف اليه فصله الخاص به والذي يتحدد «بانه سطح مستو ، محاط بثلاثة خطوط مستقيمة (١٨) » .

و ـ ويشترط في التعريف ان لايكون دائريا Circular اى لايمكن ان نعرف ماهو اولي من الحدود من خلال ماهو ثانوي بعد ان عرفنا ماهو

ثانوي في حدود ماهو اولي (١٩) ولاجل ذلك فقد رفض ارسطو التعريف الدائري من حيث لانستطيع ان نحدد « النقطة » في حدود الخط المستقيم وسبب ذلك يعود إلى ان النقطة تدخل حدا في تعريف الخط المستقيم في حين لانجد ان الخط المستقيم يظهر حدا في تعريف النقطة (٢٠) .

البرهان Demonstration :

٣ — يمثل البرهان طريقة منطقية توسل بها ارسطو لتشييد بنائه البديهي في المنطق وقد افرد لذلك كتابيه التحليلات الاولى والتحليلات الثانية وان دراسته لهذا الموضوع تشكل دراسة منهجية ونقصد بالدراسة المنهجية ان ارسطو قد حدد قبل كل شيء موضوع البحث والعلم الذي يهتم به فذهب إلى «ان موضوعه البرهان وان العلم الذي يهتم به هو العلم البرهاني » (٢١) .

وان البرهان في رأية قياس Syllogism لذلك هدف إلى تحديد القياس ، فحدده بانه قول اذا وضعت فيه اشياء اكثر من واحد لزم شيئا ما اخر من الاضطرار لوجود تلك الاشياء الموضوعة بذاتها (٢٢) وهذا يعني ان القياس طريقه علمية تتألف من ثلاث قضايا مقدمتان ونتيجة واحدة تلزم عنهما بالضرورة ، ويعد القياس بهذا المعنى «نظرية الزامية Implicational بين مقدمتين ونتيجة (٢٣)

توجه بعد ذلك إلى تحديد المقصود بالمقدمة فذهب إلى انها «قول يوجب شيئا لشيء او يسلب شيئا عن شيء » (٢٤) ثم حدد النتيجة بانها : شيء مقول على شيء (٢٥) بالاضافة إلى ذلك وجد بان كل مقدمة في القياس تتألف من حدين — اما موضوع او محمول — (٢٦) كذلك نشد إلى تعريف الحد فعرفه بكون «ما اليه تنحل المقدمة» (٢٧) .

يبدو من كل ماسبق ان نظرية ارسطو القياسية ، وكذلك الحال في كل معرفة علمية تبدا بحثها باختيار مجموعة من الحدود التي تمثل اللبنات الاساسية تتخطى بعد ذلك إلى بناء المقدمات عن طريق الاستعانة بالحدود لذلك انحصر هدف ارسطو في تأسيس المعرفة العلمية عن طريق ترتيب هذه المقدمات او القضايا في نظام متين تام نتمكن عن طريقة البرهنة على جميع القضايا التي تنتمي الى

هذا العلم (٢٨) غير ان ارسطو لم يقف عند هذا الحد بل استهدف في نظريته التمييز بين :

ا — بديهيات Axioms النظرية الاستدلالية وما يسمى بالاقيسة الكاملة Perfect لذلك حدد القياس الكامل — او البديهية — بانه «القياس الذي لايحتاج في بيان مايجب عن مقدماته إلى استعمال شي غيرها » (٢٩) .

ب — مبرهنات Theorems النظرية الاستدلالية او مايسمى بالاقيسة الناقصة Imprefect فذهب إلى تحديد القياس الناقص — او — المبرهنة — بانه القياس الذي يحتاج في بيان مايجب عن مقدماته إلى استعمال شيء واحد او اشياء مما هو واجب عن المقدمات التي الف منها ، غير انها لم تكن استعملت في المقدمة (٣٠) .

ان هدف ارسطو من تمييزه بين الاقيسة اختيار بديهيات لنظريته القياسية وعلى هذا اختار ضروب الشكل الاول First Figure بديهيات لنظريته باعتبار ان هذا الشكل هو القياس الكامل الوحيد (٣١) وان هذا الاختيار للشكل الاول ، لم يأت بشكل عشوائي بل نتيجة لاعتقاد ارسطو بان الارتباط بين المقدمات والنتيجة في القياس الكامل يكون واضحا بذاته ولايحتاج إلى قضايا اخرى تحدد معناه اذ ان الاقيسة الكاملة قضايا بينة بذاتها لاتحتاج إلى برهان(٣٢) كما ان حصر ارسطو للاقيسة الكاملة في ضروب الشكل الاول وهي : Barbara (٣٣) ، Celarent(٣٤) ، Ferio (٣٥) ، Darii(٣٦) يدل على انه قد سلم بالاقيسة الكاملة بديهيات لنظريته من حيث انها قضايا صادقة وبينة بذاتها ولاتحتاج إلى برهان لذلك نشد إلى اقامة البرهان على الاقيسة الناقصة (المبرهنات) عن طريق الاستعانة بالاقيسة الكاملة (البديهيات) .

وان ارسطو لم يقف عند هذا بل ذهب إلى رد الضربين الثالث والرابع إلى الضربين الاولين وبذلك اتخذ الضربين Barbara ، Celarent بديهتين في بنائه المنطقي لانهما اكثر الاقيسة وضوحاً .. وعلى هذا الاساس رد مبرهنات المنطق الكثيرة إلى بديهيات قليلة العدد (٣٧) ويتضمن هذا بالاضافة إلى ماسبق في ان صحة Validity الاشكال الاخرى (الاقيسة الناقصة) تتكشف

عن طريق ردها إلى الشكل الاول (الاقية الكاملة) (٣٨) .

٤ — نشد ارسطو من رد الاقيسة الناقصة إلى الاقيسة الكاملة ، تقليص عدد الاقيسة لوضع بديهيات قليلة تخص نظريته القياسية ، وقد ادرك ان عملية اقامة البرهان على المبرهنات المنطقية ، لا يمكن ان تتم من دون طريقة لذلك وضع طريقة الرد Reduction ونقصد بالرد عملية منطقية «نقوم بها على عمل الاقيسة الناقصة اقيسة كاملة ،وذلك باتباع خطوات منطقية استدلالية إلى ان نصل إلى البديهيات الموضوعة في بداية النظام المنطقي» (٣٩)

ان استعانة ارسطو بطريقة الرد لاقامة البرهان على مبرهنات النظرية الاستدلالية ، عن طريق اللجوء إلى البديهيات تشير بوضوح إلى الدور الذي تلعبه هذه الطريقة في البناء المنطقي وان هذا الدور ينحصر في ان طريقة الرد ماهي الا برهان ردى،ورب سائل يتسائل : ماالمقصود بالبرهان الردى ؟ ونعني بالبرهان الردى عملية ارجاع المبرهنات إلى البديهيات كما وان دور هذه الطريقة لايقف عند هذا الحد بل يتسع ليشمل الرياضيات كذلك ويعود هذا إلى ان عالم الرياضيات يستعين بها في الانتقال من المبرهنات الى قضايا اكثر صدقا وقد «اشار ارسطو إلى هذا المعنى مؤكدا على ان طريقة الرد هي الطريقة النموذجية للاكتشاف الرياضي » (٤٠) وتقوم طريقة الرد المنطقية على نوعين من البراهين .

١ — البرهان بالجزم Ostensive demonstration

ويتحدد هذا البرهان بكونه طريقة رد مباشرة Direct reduction وهي محاولة الانتقال من المبرهنات إلى البديهيات بواسطة قوانين العكس Conversion وذلك يعود إلى ان هذه القوانين تؤدى إلى الشكل الاول (٤١) وقد استخدم ارسطو في هذا البرهان قوانين العكس الثلاثة الاتية .

١ — قانون عكس الكلية الموجبة :

أ A ب ← ب I أ

٢ — قانون عكس الكلية السالبة :

أ E ب ← ب E أ

٣ — قانون عكس الجزئية الموجبة : — (٤٢)

أ I ب ← ب I أ

ب — البرهان بالخلف : Reductio ad impossible

ويتحدد هذا البرهان بكونه طريقة رد غير مباشر Indirect reduction ويعتمد هذا البرهان على قوانين «نفي النقيض» (٤٣) وتتحدد هذه القوانين بالشكل الآتي .

١ — قانون نفي الجزئية الموجبة :

~(أ I ب) ← أ E ب

٢ — قانون نفي الجزئية السالبة :

~(أ O ب) ← أ A ب

وفي خاتمة هذا العرض ارى لزاماً عليَّ ان اشير الى ان هناك اختلافاً بين البرهان بالجزم وبين البرهان بالخلف من حيث ان «مقدمات البرهان بالجزم هي قضايا نسلم بانها قضايا صادقة ، بينما يتميز البرهان بالخلف بان أحدى مقدماته تتحدد بكونها كاذبة» (٤٥) ومن الضروري ان أشير ايضاً الى ان براهين النظرية الاستدلالية هي براهين الزامية Implicatinal ونعني بالالزام ان المبرهنة تتبع البديهيات بالضرورة وعلى هذا الاساس فان الالزام ضروري من جهة «اننا لانستطيع ان نحصل على نتيجة كاذبة من مقدمات صادقة (٤٦) » .

المقصود بهندسة اقليدس :

٥ — نعني بهندسة «اقليدس» نظاماً يتألف من مجموعة من التعريفات ومن مجموعة من القضايا التي تمثل ابنية اعقد من التعريفات وان هذا النظام يتألف بالاضافة الى ذلك من مجموعة من الاستدلالات الالزامية ونقصد بالاستدلال الالزامي ، أن المبرهنات الهندسية تتبع البديهيات بالضرورة وان صدق المبرهنات يعتمد على صدق المقدمات ، فاذا صدقت المقدمات ، فمن الضروري ان تصدق النتائج :

وهذا يعني ان نميز في مكونات الاستدلال الهندسي بين القضايا الا ولية والقضايا الثانوية وبمعنى اخر بين البديهيات والمصادرات وبين المبرهنات المشتقة منها منطقياً (٤٧)

تبدأ هندسة أقليدس بمجموعة من التعريفات ومن هذه التعريفات :
آ – النقطة : – وضع لاسمك ولاطول ولا عرض له (٤٨)
ب – الخط المستقيم : – طول لاسمك ولا عرض له (٤٩)

غير ان «اقليدس» سرعان ما طرح تعريف للخط المستقيم في نهاية البرهان على المبرهنة القائلة« مجموع اي ضلعين في المثلث اكبر من الضلع الثالث» أنه : اقصر مسافة بين نقطتين (٥٠)

ج – المثلث : – سطح مستو محاط بثلاثة خطوط مستقيمة (٥١)

ومن الضروري ان أشير في البداية الى ان اقليدس قد وقع في خطأ عندما طرح تعريفاً للنقطة لان هذا التعريف لايحدد طبيعة النقطة وكذلك الحال بالنسبة للخط المستقيم – لان هذا التعريف لايشير الى شيء وكان من المفروض به أن يسلم بالنقطة حداً اولياً لايحتاج الى تعريف (٥٢) ، ولاجل هذا وجه عدد من الرياضيين المتأخرين نقداً لمحاولة « اقليدس» بخصوص التعريفات ، ذاهبين الى تثبيت قواعد محددة لبناء التعريفات . وهذه القواعد تنحصر في ناحيتين :

١ – التسليم بمجموعة من الحدود الاولية الواضحة التي لا يمكن تعريفها لأنها بينة بذاتها ، وكان من المفروض على اقليدس في هذا المجال التسليم بان النقطة والخط هي الحدود الاولية .

٢ –عملية تعريف الحدود الباقية عن طريق الاستعانة بالحدود الاولية ومثال ذلك تعريف المستوى سواءا أكان مثلثاً او مربعاً او مستطيلا ، أم جسماً عند أقليدس (٥٣) .

ومن اللازم ان اشير ايضاً الى ان اقليدس قد أدرك بان البناء الهندسي لايمكن ان يقوم من دون أيجاد تعريفات ، لان التعريفات تمثل اللبنات الاساس لهذا الموضوع وان النظام الذي يبدأ بهذه المكونات يتميز بكونه نظاماً منطقياً تاماً بذاته Logical self sufficient system (٥٤)وعلى هذا الاساس اتخذ «اقليدس» النقطة ركيزة اساسية في تشييد بنائه الهندسي ، أذ اعتمد عليها في بناء الخط

المستقيم لانها تدخل حدا أولياً في بنائه وكذلك فان الخط المستقيم يدخل اولياً في بناء المثلث .

وان هذا التحديد يجعلنا ان نميز بين النقطة والخط من ناحية وبين الخط والمستوى من ناحية اخرى والى التأكيد على ان «اقليدس» قد أدرك بان علم الهندسة يجب ومن الضروري ان يبدأ بحثه بجملة من الحدود الاولية الواضحة والبسيطة والتي تتميز بكونها حدوداً غير معروفة من حيث انها لا تحتاج الى بيان معناها الى حدود اخرى في حين تستعين بها وتعتمد عليها حدوداً اخرى لتحديد معناها ولاجل ذلك استهدف «اقليدس» تحديد بعض المفاهيم الهندسية من خلال ايجاد تعريفات لها عن طريق الحدود الاولية التي ثبتها في بداية النظام، ، وهذا لم يأت اعتباطاً بل أدراكاً منه لدور التعريف في بناء المبادىء وأختيار المفاهيم في علم الهندسة (٥٥) .

نلخص من كل هذا الى ان اقليدس قد ميز في بنائه :

أ ــ الحدود غير المعرفة Undefined terms وهي «النقطة» في هندسة الخطوط ــ والخط في هندسة المستويات ــ وسبب ذلك يعود الى ان النقطة» مفهوم اولي يدخل في تحديد الحدود الاخرى ولهذا فقد منحها «اقليدس» دوراً مهماً في بناء المفاهيم الهندسية الاخرى لكونها حداً غير معرف تحتاجه الحدود الاخرى .

ب ــ الحدود المعرفة Defined terms : وهي « الخط المستقيم » في هندسة الخطوط ــ والمثلث والمستوى في هندسة المستويات ــ وهي مفاهيم ثانوية تحتاج الى المفهوم الاولي ــ النقطة ــ في بنائها المعرفي .. واستناداً الى ما سبق يظهر لنا بشكل جلي ان «اقليدس» أدرك في بنائه ، أن المستوى اقل جوهرية من الخط والخط من النقطة وهذا واضح من أن المستوى يعتمد في تحديده على الخط ــ والخط على النقطه ــ بينما تظل المفاهيم الاخرى لاتحتاجه ولا تعتمد عليه وهذا يعني ان اقليدس قد رد المفاهيم الثانوية الى المفاهيم الاولية (٥٦)

وان العودة الى كتاب «الاصول» تكشف لنا بشكل واضح : ان «اقليدس» في تعريفه للحدود مثل المثلث والمربع والمستطيل والدائرة .. قد التزم بجملة شروط سبق ان حددها «ارسطو» في محاولته المنطقية ـ منها : انه حصر التعريف في جنس ما يراد تعريفه ، ثم اضاف اليه فصله الخاص به ، فنرى ان تعريف المثلث كما ورد في «الاصول»: كسطح مستوى محاط بثلاثة خطوط مستقيمة يتألف من الحد «سطح مستو» وهو جنس المثلث الذي يشترك فيه مع سطوح مستوية اخرى . في حين نجد ان الحد «محاط بثلاثة خطوط مستقيمة» يمثل فصل المثلث الخاص به والذي يميزه عن السطوح المستوية الباقية . وقد اشترط في لغة التعريف ايضاً ان تكون دقيقة من حيث ان الحدود التي أختارها في بناء التعريفات تتميز بكونها واضحة ودقيقة وبينة بذاتها وكذلك نجد في محاولته بان التعريف لايحتوي على اى حدود زائدة ـ أذا استثنينا تعريفه للنقطة والخط ـ ويعني هذا أنه اشترط في التعريف ان يكون جامعاً مانعاً . وان التعريف عنده بالاضافة الى ذلك مساواة بين حدين ونقصد بذلك ان مجموعة الحدود التي يتألف منها التعريف يجب ان تكون بعدد المبادىء التي تؤلف جوهر المثلث على سبيل المثال كما أن «اقليدس» قد أبعد عن محاولته التعريف الدائري وهو التعريف الذي يقوم على تعريف «الخط المستقيم مثلا بحد «المثلث»ومن الضروري ان أشير الى أننا لانجد أثراً لهذا النوع من التعريفات في كتابه الاصول وننتهي من هذا الى أن «اقليدس» قد طرح محاولتة في التعريفات الهندسية بوحي وأثراً ارسطو . (٥٧) .

٦ - يتميز البرهان بكونه معرفة علمية ذات درجة عالية نحاول فيه الانتقال من بعض القضايا المحددة في هذا الحقل من المعرفة العلمية الى نتائج تستلزمها تلك القضايا بالضرورة وهذا يعني ان البرهان عملية اشتقاق قضايا صادقة من مقدمات او قضايا صادقة لاتحتاج الى برهان (٥٨)

والبرهان في منطق ارسطو يتحدد بكونه قياساً علمياً Scientific Syllogism يسلم بالمعرفة الصادقة (٥٩) .

وان البرهان — وفقاً لما سبق — قد تحدد بكونه عملية استدلالية تعتمد على مقدمات صادقة وان هندسة «اقليدس» هي الاخرى تتميز بكونها علماً أستدلالياً Deductive Science او ان استطعت فقل ان البراهين السائدة في هذا البناء هي براهين استدلالية (٦٠) ويشترط في كل علم استدلالي ، ان تتوفر فيه عدة امور منها : —

١ — افتراض مجموعة من القضايا التي تخص هذا العلم ويشترط في هذه القضايا ان تكون صادقة true وغير قابلة للبرهان Indemonstrable .

٢ — ان قضايا العلم الاخرى تشتق derived من القضايا الاولى .

٣ — ان عملية الاشتقاق يجب ان تكون صورية formal (٦١) .

ويعني هذا أن «اقليدس» ثبت في بداية نظامه مجموعة من القضايا الهندسية الصادقة استهدف بعد ذلك التثبت من صدق القضايا الاخرى ، عن طريق اشتقاقها من القضايا الاولى وبمعنى آخر أن أدراك «اقليدس» ان الهندسة علم استدلالي قاده الى وضع القضايا الهندسية وفق نظام منطقي Logical system كما هو الحال عند «ارسطو» (٦٢) ويظهر من هذا أن «اقليدس» قد تنبه الى ان العملية البرهانية لاتقوم من دون وضع مقدمات صادقة يتم الانتقال منها الى النتائج ، وهذه النتائج هي المبرهنات الهندسية وان التثبت من صدق هذه المبرهنات مرتبط بصدق المقدمات الموضوعة وهذا يدل دلالة واضحة على ان هنالك علاقة الزام منطقي Logical implication بين البديهيات والمبرهنات (٦٣)

ويبرز من خلال تحليل المقدمات الاولية في بناء «اقليدس» بانه اشترط في بناء القضايا ان لايشير الى اي تناقض . وهذا يدل على ان بناء القضية الهندسية يخضع الى مبداء منطقي هو مبدأ عدم التناقض الذي ينص على انه : من المستحيل ان تكون «آ» هي «آ» ولا «آ» في آن واحد (٦٤) . ويشير هذا الى ان القضية الهندسية اذا أريد لها ان تكون متينة ودقيقة فانه يشترط فيها ان تكون خالية من التناقض وبالتالي ان تخضع لهذا المبدأ المنطقي . ويظهر هذا ايضاً الدور الذي يلعبه

هذا المبدأ في الكشف عن طبيعة بناء المقدمات وفروض علم الهندسة . وهذه حقيقة لاتزال ذات اثر في بناء النظريات العلمية ومن أجل ذلك ذهب رايخنباخ الى ان كل علم يستعين بمبدأ عدم التناقض عند بناء او افتراض مبادئه ، لكي يصل الى أتساق هذه المبادىء بعضها ببعض وكذلك اتساق المفاهيم بعضها ببعض في المبدأ الواحد (٦٥).

٧ – لقد هدف اقليدس من بناء الهندسة وتأسيسها على مبادىء اولية صادقة وضرورية الى بيان موقفه من المعرفة الهندسية ويبدو انه أدرك بانه من غير الممكن ان تكون جميع قضايا الهندسة قضايا برهانية وانه من الضروري ان تبدأ بمقدمات لاتحتاج الى برهان في النظام الذي تنتمي اليه وقد كشف عن موقفه بشكل واضح عندما منح مقدمات البرهان الضرورة والصدق وعدم اقامة البرهان عليها (٦٦) . كما يتأكد ذلك ايضاً من خلال رفضه للبرهان الدائري Circular Demo nstartion وعدم استخدامه في بنائه . أذ لم نجد في ذلك البناء ولانعثر على ملامح تؤكد بانه اقام البرهان على البديهيات بواسطة بديهيات اخرى ، او عن طريق مبرهنات سبق البرهان عليها (٦٧) .

وان المنطق يشترط في البديهيات جملة من الشروط التي يستلزم ان تستوفيها ، وهذه الشروط تتحدد في : ان تكون المقدمة صادقة ، ومباشرة ، واولية ، ومعروفة افضل واسبق من النتيجة ، وان تكون سبباً للنتيجة ومناسبة (٦٨) . ونحاول في ضوء هذا التحديد لشروط البديهيات تحليل مقدمات البرهان في هندسة «اقليدس» ولاجل ذلك نحاول طرح السؤال الآتي : كيف تكون المقدمات الاولية في الهندسة صادقة ؟ ان الاجابة تتحدد في ان «اقليدس» اختار هذه القضايا من بين جميع القضايا الهندسية الاخرى وافترض صدقها وان افتراض «اقليدس» لصدق البديهيات كان من أجل سلامة المبرهنات المشتقة منها هذا من جهة وأننا لانعثر من جهة أخرى في هندسته على مبرهنات كاذبة قد أشتقت من بديهيات صادقة . وذلك يعود الى ان صدق البديهيات يتكشف من خلال اتساق هذه المقدمات بعضها مع البعض الآخر وكذلك في ضوء الألزام المنطقي بين المقدمات والنتائج (٦٩) .

ورب سائل يتسائل : كيف تكون مقدمات البرهان الهندسي اولية ؟ تكمن الاجابة في ان «اقليدس» لم يقم البرهان عليها من حيث انها غير محتاجة اليه ويعني هذا ان القضايا الاولية قضايا بينة بذاتها ولا تفتقر الى البرهان في النظام الذي تنتمي اليه (٧٠) . غير ان هذا الشرط غير كاف لاعتبار البديهية الهندسية قضية اولية ولذلك نستطيع القول ان البديهية تكون اولية من حيث انها مباشرة اي لاتوجد قضية اسبق منها وانها معروفة افضل من النتيجة (٧١) .

اما كيف تكون المقدمة مباشرة ؟ فان قصده يتحدد في كون المقدمة مباشرة من حيث لاتوجد مقدمة اقدم منها (٧٢) ، واما كيف تكون المقدمة سبباً للنتيجة واعرف منها ؟ فان هذا يتحدد في ان «اقليدس» قصد من ذلك بان مقدمات البرهان يجب ان تكون سبباً في ايجاد المبرهنة من حيث ان المبرهنة قد اشتقت من بديهية موضوعية في بداية النظام الهندسي (٧٣) . اما كيف تكون المقدمة مناسبة ؟ فان ذلك يعني ان نستخدم في البرهان مقدمات تخص كل حقل خاص من حقول المعرفة العلمية ، وهذا يعني ان نستخدم مقدمات هندسية في البرهان الهندسي ونجد ذلك بشكل واضح في كتابه «الاصول» أذ لم نعثر في محاولة «اقليدس» البرهان على مبرهنات هندسية عن طريق الاستعانة بقضايا علوم أخرى (٧٤) .

٨ — تقوم هندسة «اقليدس» على نوعين من القضايا : —

١ — الفروض hypotheses : وهي قضايا نفترض صدقها ، من حيث انها قضايا ضرورية لايمكن البرهان عليها ، وانها ضرورية تحقيقاً لمبدأ عدم امكانية قيام معرفة علمية من دون مقدمات او فروض ومعنى هذا وجوب التسليم بصدق مجموعة من القضايا باعتبارها لاتحتاج الى برهان (٧٥) . وان أختيار هذه الفروض يجب ان يخضع لجملة من الشروط منها الدقة والوضوح والمتانة (٧٦) . وقد طرح «اقليدس» في بنائه الهندسي عشرة فروض استند اليها في رد او اشتقاق جميع القضايا الهندسية الاخرى . وهذه الفروض تنقسم

الى مجموعتين : —

المجموعة الاولى : وتضم المفاهيم العامة Common notions (٧٧) او البديهيات axioms وقد حصر «اقليدس» عددها في خمس قضايا وهي :

أ — الاشياء المساوية لشيء واحد متساوية .
ب — أذا أضيفت كميات متساوية الى اخرى متساوية تكون النتائج متساوية .
ج — أذا طرحت كيات متساوية من أخرى متساوية تبقى النتائج متساوية .
د — الاشياء المتطابقة متساوية .
هـ — الكل اكبر من الجزء (٧٨) .

وتشكل القضايا السابقة مقدمات البرهان الهندسي وان هذه القضايا تتميز بكونها واحدة في اكثر من علم واحد ، من حيث انها تدور حول الكمية (٨٠). ونقصد بانها تستخدم في اكثر من علم واحد وذلك لان علم الحساب يستخدم البديهيات السابقة في حقله وكأنها مبادىء حسابية وان علم الهندسة يستخدمها أيضاً وكأنها مبادىء هندسية ويعود سبب ذلك الى الطبيعة المشتركة لهذه العلوم وان هذه البديهيات تعبر عن تلك الطبيعة المشتركة (٨١) .

وان الافكار العامة عند «اقليدس» في رأي اكثر من باحث هي في اي معنى من المعاني تشبه بديهيات ارسطو (٨٢) . ومهما يكن المعنى الذي قصده «اقليدس» بالبديهيات فان العلم الذي يراد به ان يكون ضرورياً لابد ان يكون بناؤه يعتمد على البديهيات لان البديهية قضية صادقة مسلم بها لاتحتاج الى برهان في النظام الذي تنتمي اليه .

ومن الضروري ان أشير ايضاً الى ان اهتمام «اقليدس» في هندسته انصب على ايجاد استدلال متين او بمعنى آخر : هل ان هندسة اقليدس جميعها هندسة استدلالية او برهانية ولاجل ذلك يمكن طرح السؤال الآتي :
لماذا لم يبرهن « اقليدس » على صحة البديهيات ؟ او بمعنى آخر : أذا كانت الرياضيات بشكل عام والهندسة بشكل خاص ، تقوم بكل اعمالها عن طريق المنطق الصرف فلم لا تبرهن على صحة البديهيات ؟ تتحدد الاجابة بانه ليس

بامكاننا ان نبرهن على شيء ما من لاشيء وانه يجب ان يكون لدينا ما نستند اليه في اقامة برهاننا الاول هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد عمد « اقليدس» ردا منه على وجوب تقبل هذه البديهيات دون برهان الى محاولة انتقائها بشكل تكون صحتها معه امرا مسلماً به(٨٣) ، وذلك فان هندسة اقليدس لم تكن جميعها معرفة برهانية ، لان هناك حقائق لم يقم عليها البرهان ومنها الفروض الهندسية (بديهيات مصادرات) .

المجموعة الثانية :ـ وتضم المصادرات postulates او المسلّمات وهي مبادىء تخص علم الهندسة فقط وقد حصر « اقليدس» هذه المبادىء في خمس قضايا وهي :

أ ـ من الممكن رسم خط مستقيم بين نقطتين .

ب ـ يجوز مد قطعة المستقيم من جهتها الى غير حد .

ج ـ يمكن رسم دائرة ، أذا علم مركزها ونصف قطرها .

د ـ جميع الزوايا القوائم متساوية .

هـ ـ أذا قطع مستقيمان بمستقيم ثالث ، بحيث كان مجموع الزاويتين الداخليتين الواقعتين على جهة واحدة من القاطع ، أقل من قائمتين فان المستقيمين يتلاقيان في تلك الجهة من القاطع أذا مد الى غير حد (٨٤) .

وتشير هذه القضايا الى ان المصادرات عند «اقليدس» تدل على عمليات بناء للقضايا في المفاهيم او الحدود الهندسية وان المصادرات هي على هذا الاساس قضايا تختلف من حقل الى حقل آخر من حقول المعرفة العلمية فهي تمثل قضايا هندسية في علم الهندسة وقضايا حسابية في علم الحساب وقد أشار «هيت» الى هذا المعنى مؤكداً ان لكل علم خاص مصادراته الخاصة به (٨٥) .

ومن الجدير بالذكر ان «أقليدس» قد ميز في نظامه الهندسي بين البديهية والمصادرة على اساس ان البديهية مقدمة اولية ضرورية لاتحتاج الى برهان وقد تشترك في اكثر من علم واحد بينما المصادرة مقدمة خاصة بموضوع البحث وذات

صلة بموضوع واحد بعينه(٨٦)ويشير هذا إلى الاختلاف بين البديهيات والمصادرات من حيث ان البديهيات بالنسبة لاقليدس قضايا مشتركة تدور حول الكمية مثال ذلك: الاشياء المساوية لشي واحد متساوية اما المصادرات فقد اعتقد «اقليدس» بأنها تقول شيئاً حول امكانية البناء Construction ومثال ذلك: من الممكن رسم مستقيم بين نقطتين ومثل هذا النوع من العبارات تشكل اسساً اقام عليها اقليدس بناؤه الهندسي (٨٧).

٢ – المبرهنات Theorems: وتضم مجموعة من القضايا الهندسية المشتقة من المقدمات الاولية وقد حصر اقليدس هذه القضايا في ثمان واربعين مبرهنة تمكن من اقامة البرهان عليها عن طريق اشتقاقها من المصادرات (٨٨). ومن الامثلة على هذه المبرهنات مايأتي.

أ – اذا تلاقى مستقيمان فان مجموع الزاويتين المتجاورتين يساوي زاويتين قائمتين (٨٩).

ب – اذا قطع مستقيمان بقاطع واحدث معهما زاويتين متبادلتين متساويتين كان المستقيمان متوازيين (٩٠).

ج – اذا تباينت زاويتان في مثلث فالضلعان المقابلان لهما يتباينان ايضاً ويكون اكبرهما هو الذي يقابل الزاوية الكبرى (٩١).

تشكل المبرهنات السابقة قضايا مشتقة من المقدمات ويعني هذا أن البرهان هو الوسيلة في اثبات كونها مشتقة من البديهيات والقضايا المفروضة وفي عملية البرهان او الاشتقاق يظهر عامل الاستدلال المنطقي باجلى صوره حيث يتم الانتقال من قضية إلى اخرى لازمة عنها بالضرورة حتى ينتهي الاستدلال إلى القضية التي اردنا البرهان عليها (٩٢).

٩ – لقد توسل(اقليدس) في بنائه الهندسي، بطريقة البرهان المنطقية لاشتقاق ورد المبرهنات الكثيرة إلى المقدمات الاولية القليلة العدد ولكشف طبيعة هذا البرهان واستخدامه في هندسة اقليدس ارى من الضروري ان اخذ قواعد

البرهان بالشكل الاتي :

١ ـ يسلم البرهان في البداية التمييز بين نوعين من القضايا :

أ ـ قضايا واضحة وبينه بذاتها، لاتحتاج إلى قضايا اخرى يطلق عليها البديهيات والمصادرات.

ب ـ قضايا غير واضحة بذاتها وتحتاج إلى القضايا الاولى في البرهان ويطلق عليها المبرهنات.

٢ ـ يعتمد البرهان في سبيل البرهنة على جميع المبرهنات اما على البديهيات او على المصادرات او على مبرهنات سبق البرهان عليها (٩٣) .

وان المبرهنة،كما سبق ان اشرنا،هي القضية التي تنتهي عندها العلمية البرهانية وهذا يعني ان البرهان هو عملية اشتقاق ، وان عملية الاشتقاق تشترط ان يتوفر بين المقدمات الاولية والمبرهنةعلاقة منطقية،وهذه العلاقةهي رابطة الالزام المنطقي Logical implication ومن دون توفر هذه الرابطة يستحيل ان يتم البرهان عمله وقد تحددت هذه الرابطة في البداية في المنطق باالشكل الاتي :

اذا صدقت المقدمات فمن الضروري ان تصدق النتائج (٩٤) وانتقلت بعد ذلك الى مجال اوسع فلعبت دوراً مهماً في العلوم بشكل عام وفي هندسة « اقليدس » بشكل خاص . اذ نلحظ في بناء « اقليدس » ان افتراض صدق المقدمات يؤدي بالضرورة الى صدق النتائج المشتقة منها باستدلال منطقي (٩٥) ويعني هذا في جملة ما يعينة ، ان البراهين هي الاسمنت الذي يمسك البناء الهندسي بعضه بالبعض الآخر ، فبالبرهان ترتبط كل مبرهنة بما سبقها من بديهيات وتعريفات ومبرهنات سبق البرهان عليها (٩٦) .

ونصل من كل هذا الى ان المبرهنات الهندسية قضايا نبرهن على صدقها عن طريق صدق البديهيات او المصادرات يتوفر علاقة الالزام المنطقي وتشترط هذه العلاقة ان تتألف كل مقدمة من مقدمات البرهان من موضوع subject ومحمول predicate(٩٧)ويعتمد الالزام المنطقي كذلك على الحد الاوسط(٩٨).

والذي يكـــون مستغرقــا في كلتــا المقدمتين واذا اردنـــا ان نبين ذلك بشكل اوضح، فمن الضروري انرمز لموضوع المقدمة بالرمز «آ»، ولمحمولها بالرمز «ب»، ولمحمول المقدمة الثانية بالرمز «جـ» فاننا نحصل على الشكل المنطقي التالي مع مايشبهة من تطبيق له في بناء « اقليدس » الهندسي :

المنطق :	هندسة اقليدس :
كل آ هي ب	B ⊳ = A ⊳
وكل ب هي جـ	C ⊳ = B ⊳
اذن كل آ هي جـ	C ⊳ = A ⊳ ∴

نخلص من هذا الى ان البراهين السائـدة في هندسة « اقليدس» «هي» براهين الزاميـة اوقوانين قياسيـــة syllogistic laws (٩٩) ونعني بذلك ان البرهــان الهندسي هو عملية اشتقاق قضايا صادقة عن طريق وضع مقدمات صادقة في بداية النظام، وان هذه المقدمات صغيت وفق نظام منطقي يتحدد فيها موضوع القضية ومحمولها . وان هناك حدا اوسط مستغرقــا في مقدمتي البرهان . وان صح التعبير فان الحد الاوسط يمثل قنطرة للأنتقال من المقدمات الى النتيجة . وعلى هذا يتحـدد الدور الذي يلعبه هذا الحد في اتمام العملية البرهانية من حيث ان صدق القضايا التي حصلنا عليها يرتبط بصدق المقدمات ويعني هذا بلغة منطقية ان هناك علاقة بين المقدمات والنتيجة المشتقة منها وهذه العلاقة هي رابطة الالزام المنطقي وان الالزام المنطقي يبرز لنا حقيقة منطقية لعبت دورا مؤثرا في هندسة « اقليدس » وهذه الحقيقة ترتبط بمعيار الصدق المنطقي والذي يتحدد بالشكل الاتي :— اما من مقدمات صادقة ؛ فلايمكن الحصول على نتيجة كاذبة (١٠٠) . ويبدو من خلال استقراء محاولة اقليدس الهندسية انه قد ادرك قيمة هذا المعيار المنطقي في بنائه اذ لم يستطيع « اقليدس» حيث لم نستطيع العثور على شيء من ذلك اشتقاق قضايا كاذبة من مقدمات صادقة في برهان صحيح، وقد استخدم «اقليدس» في هندسته نوعين من البراهين

آ – البرهان المباشر Direct Demonstration

يبدأ هذا البرهان بالبديهيات او المصادرات ثم ينتهي عندما هو مطلوب اثباته ،اي ان المبرهنة المطروحة امام هذا البرهان تعتمد على ماسبقها من بديهيات ومصادرات او مبرهنات سبق البرهان عليها(١٠١). وقد اشرنا سابقا الى ان هذا البرهان يتميز بجملة من الشروط منها تثبيت قضايا صادقة في بداية النظام وتوفرعلاقة الالزام المنطقي .. ونجد هذا البرهان سائدافي اغلب براهين «اقليدس» (١٠٢) وقد استخدم اقليدس في هذا البرهان قوانين العكس كما هو المحال عند ارسطو ونقصد بهذا عملية رد المبرهنات الى البديهيات او الى المصادرات .

ب – البرهان غير المباشر Indirect Demonstration او برهان الخلق Reductio ad absurdum كما اطلق عليه اكثر من باحث . (١٠٣) وهي طريقة تثبت صحة المبرهنة باثبات ان عكسها باطل وهي تبدأ من فرض خاطيء ،نستخلص منه نتائج خطؤها كخطئه (١٠٤). وقد برز دور هذا البرهان عندما عجز البرهان المباشر في الوصول الى الحل (١٠٥) لذلك استعان اقليدس بهذا البرهان المنطقي ومن اللازم ان نذكر بان هذا البرهان قد لعب دورا مهما في الكشف عن طبيعة المقدمات الأولية لان هذا البرهان يكشف عن حقيقة مهمة وهذه الحقيقة تتمثل في ان صدق المقدمات يقود الى نتائج صادقة، بينما كذب المقدمات يؤدي الى نتائج تتاقض مع تؤكده المقدمات . وان هذا البرهان بالاضافة الى ماسبق يتميز باختيار مقدمات ماللموضوع قيدالبحث ينشد بعد ذلك البرهنة على ما هو مطلوب اثباته، واذا انتهت العملية البرهانية الى نتائج متناقضة فمن اللازم التأكيدعلى ان العكس هو الصحيح اذ ان النتيجة المتناقضة تضعنا امام الاحتمال الذي يذهب الى ان بعض خطوات او فروض البرهان كاذبة ولذلك فان هذا البرهان يرتبط بمبدأ عدم التناقض المنطقي (١٠٦).

وان «اقليدس» استخدم هذا البرهان في نظامه الهندسي (١٠٧) وطبقه بالفعل على عده مبرهنات ومن هذه المبرهنات على سبيل المثال وليس الحصر

المبرهنة السابعة والعشرون والتي تنص على انه : «اذا قطع مستقيم مستقيمين واحدث معهما زاويتين متبادلتين متساويتين ، كان المستقيمان متوازيين. (١٠٨)
وخلاصة الحل لهذه المبرهنة يتحدد بان «اقليدس» افترض عكس ماهو مطلوب اى ان المستقيمين يتلاقيان ومن التلاقي تكون لدى اقليدس مثلث وعلى هذا الاساس تصبح الزاوية الخارجية اكبر من الزاوية الداخلية التي افترض انها تساويها ويعني هذا ان افتراض التلاقي اوصل «اقليدس» إلى تناقض انتهى من ذلك إلى ان العكس هو الصحيح ، اى ان التوازى هو الصحيح (١٠٩) ويدل هذا دلالة واضحة على ان هذا البرهان يعتمد على قوانين نفي النقيض كما هو الحال عند ارسطو . فطرح الفرضية الخاطئة يقودنا إلى نتيجة خاطئة وان نفي هذه النتيجة يؤكد لنا صدق المبرهنة .
ننتهي في ضوء ماسبق إلى ان «اقليدس» قد ادرك الامور المنطقية الاتية : ـ
آ ــ مبدأ الاتساق المنطقي وهو المبدأ الذي يؤكد على ان صدق المقدمة يتحدد عن طريق اتساقها مع المقدمات الاخرى (١١٠).
ب ــ ان كذب القضية يتحدد في عدم اتساقها مع القضايا الاخرى في النظام الذي تنتمي اليه (١١١) .
ج ــ قيمة الالزام المنطقي بين المقدمات والنتائج ويبرز هذا الالزام متانة البرهان الهندسي من حيث ان هذه المتانة تتحدد بان صدق المقدمات يقود بالضرورة إلى نتائج صادقة (١١٢).

الخلاصــة : ــ

١٠ ــ استهدفت هذه الدراسة ابراز محاولة « اقليدس » التي طرحت اول بناء استدلالي غير مفتقر للواقع الحسي وابرزت ايضا من خلال تحليل البناء الهندسي وتحديد مقدماته الاولية والشروط التي تستوفيها كل مقدمة اولية ، وكذلك من خلال تمييز «اقليدس» بين مكونات بنائه إلى فروض (بديهيات ومصادرات) ومبرهنات إلى ان هناك علامات تشابه بين البرهان الارسطي والطريقة الرياضية التي اعتمدها «اقليدس» (١٣٣) وكشفت كذلك الى ان «كتاب الاصول لاقليدس ظل محتفظاً بتلك الروح الواضحة في المنطق الارسطي (١١٤).

ولعل ابرز ماأشارت اليه هذه الدراسة انها كشفت عن الطريقة البديهية Axiomatic method المستخدمة في هندسة «اقليدس» تلك الطريقة التي استعارتها من المنطق والتي تقوم على تثبيت مجموعة من البديهيات في البداية باعتبارها قضايا اولية تامة وبينة بذاتها تشتق منها قضايا اخرى. وان «اقليدس» قد طبق ذلك فثبت مجموعة من البديهيات والمصادرات ثم استعان بالاستدلال للحصول على قضايا جديدة من القضايا الموضوعة كما هو الحال عند «ارسطو» (١١٥)

ويعني هذا في راي الرياضيين المحدثين ، اول عمل خضعت فيه قضايا الهندسة لنظام منطقي Logical System (١١٦) وهذا يدل ايضا على ان الهندسة كما وضعها «اقليدس» ليست مجرد حشد للحقائق ولكنها نظام منطقي تسود فيه التعريفات والبديهيات والمصادرات والمبرهنات وان هذه الابنية لم ترد بشكل عشوائي بلا ترتيب بل انها بترتيب رائع فكل مبرهنة وضعت بحيث تعتمد على ماسبقها من بديهيات ومصادرات او مبرهنات سبق البرهان عليها وان ميزة هذه الهندسة هو النظام المنطقي الذي ينتظمها (١١٧).

هوامش البحث :-

١ - هو أحد علماء الرياضيات في مدرسة الاسكندرية ولا تذكر المصادر التأريخية سواء كانت تأريخية ام التي اهتمت بالرياضيات شيئاً عن ولادته او وفاته ، بل كل ماتذكر أن اسمه يرتبط بكتاب " الاصول Elements " وانه علم في الاسكندرية ولبعض الأسباب تذهب المصادر إلى انه درس في أثينا " وتذهب اغلب المصادر إلى أن " اقليدس" لم يكن واضعاً ومبتكراً لتلك المبادىء الهندسية في كتاب " الاصول " وتشير إلى أن أهميته تكمن في انه اعاد تنظيم وكتابة هذه المبادىء سنة ٣٠٠ ق. م. تلك المبادىء التي كانت سائدة في عصره في حين تذهب مصادر أخرى إلى أن عمل " اقليدس " لا ينحصر عند ترتيب واعادة تنظيم القضايا الهندسية في عصره بل ابتكر واضاف قضايا اخرى إلى القضايا الهندسية السابقة . وترى مصادر اخرى ان كتاب " الاصول " يتألف من ثلاثة عشر جزءاً وان المطالع لهذه الأجزاء يستنتج بان كتابة هذه الأجزاء قد اتمها أكثر من مؤلف واحد . وتعالج هذه الأجزاء موضوعات متعددة فالكتاب الاول يحتوي على ثلاثة وعشرين تعريفاً . وخمس بديهيات وخمس مصادرات ويبحث الكتاب الثاني في الجبر الهندسي ويدور الكتاب الثالث حول الدوائر والكتاب الرابع حول المضلعـات ويبحث الكتاب الخامس نظرية عامة في النسبة بين المقادير ، ويهتم الكتاب السادس بتطبيق نظرية على الأشكال الهندسية ، ويعالج الكتاب (٧، ٨، ٩) الحساب وخواص الأعداد ويهتم الكتاب العاشر بالخطوط اللانسبية والجذور الصماء ،ويعالج الكتاب الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الهندسة المجسمة .

See : A -Meschkowski .H., Evolution of Mathematical thought., Holden-Day , Inc : London , 1965 , p. 5.

B- Heath. T. L., A history of Greek Mathematics., Oxford .. 1921, 1., PP. 354 - 357 .

C - Caurruccio . E., Mathematics and logic in history and in contemporary thought., London, 1964 , P. 80

D - Smith. D. E., History of Mathematics., New York, 1951 ., PP. 103-106

٢ - فيلسوف يوناني وعالم في المنطق وباحث في مختلف الحقول العلمية ولد في " اسطاغيرا " سنة ٣٨٤ ق.م. وكان احد اعضاء اكاديمية " افلاطون " في الفترة بين ٦٦ / ٣٦٧- ٣٤٨/٤٧ ، قام بعد موت " افلاطون " برحلات عديدة منها إلى " اسوس " وإلى

" ليبوس" في الفترة بين ٣٤٨/٤٧- ٣٤٣/٤٢ ؛ وكان في الفترة بين ٣٤٤/٤٣- ٣٣٦/٣٥ ،أستاداً للاسكندر . غادر إلى "أثينا " سنة ٣٣٥/٣٤ ،واسس مدرسة جديدة، اصبحت تعرف فيما بعد " اللوقيـون " او " برېپاتوس " وتعني المشى غادر " اثينا" بعد موت الاسكندر سنة ٣٢٣ إلى " شالس" ومات بعد سنة من ذلك أي سنة ٣٢٢/٢١ وله عدة مؤلفات منها : المقولات ، التحليلا ت الا ولى ، التحليلا ت الثانية ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، الأخلا ق النقوماخية ...

See., A- Ross. W. D., Aristotle ., London, 1946. PP. 1-4 .

B- Bochenski . M., Ancient Formal logic., Amsterdam ., 1968 . P. 20,

3 - Aristotle., Analyt ica posteriora ., In the works of Aristotle (Trans. in to English ,Oxford , 1950)., 90b18 .

4 - Aristotle., Topica., In the Works of Aristotle., lolb 21-22 ,

5 - Aristotle., Aalytica posteriora ., 87b 36 - 37, 76b37 - 38,

6 - Aristotle ., Topica ., 1o3 b13 - 16 ,

7 - Aristotle., Analytica poseriora ., 86a 1-2 ,

8 - Aristotle ., Topica ., 154 a 26 - 30 .

9 - Ibid ., 141 a28 - 29 .

10- Robinson. R., Definition., oxford , 1962 . P. 153 .

11- Traski . A., Introduction to Logic ., Trans . O. Helmer , New York 1956 ., P. 188 .

12 – Apostle H.C., Aristole' philosophy of Mathematics., chicago,1959 P. 92.

13- Aristotle ., Analytica posteriora ., 86 a 12-

14- Barker ., S.F., philosohy of Mathematics ., ohio., 1965, P. 24.

15- Aristotle ., Topica'., 148b33 -38 .

16- Ibid ., IoI bi9 -22, 139bI0 - 14.

17- Ibid ., 139bI5 -18 , 139 b33 - 36

18- see Aristotle : A- Topica ., 155a 20

B- Ibid ., 143a 19 - 22

C- De Anima ., In the Works of Aristotle., 4I4b28 -30.

19- Aristotle ., Topica ., 14Ib15 - 20.

20- Blanche . R., Axiomatics., London , 1962 , P. 8,

21- Aristotle Analytica priora., In the Works of Aristotle., 24a10 -11.

22- Ibid., 24b1 .

23- Nidditch., P. H. The Development of Mathematical logic., London, 1974, P. 6,

24- Aristotle., OP. Cit., 24a16 -18 .

25- Ibid .. 24b17.

ومن الأمثلة على المقدمات الموجبة : كل عراقي اسيوي .
ومن الأمثلة على المقدمات السالبة : لا واحد من العراقيين افريقي .

27- Ibid ., 24b17 .

ومن الأمثلة التي تكشف لنا النتيجة : كل انسان فان (مقدمة اولى)
سقراط انسان (مقدمة ثانية)
سقراط فان (النتيجة)

٢٦ - " الموضوع " هو الشيء الذي تحمل عليه الصفات اما " المحمول " فيمثل مجموعة الصفات التي تحمل على الشيء : مثال ذلك : " سقراط انسان " فالموضوع هو "سقراط " والمحمول هو " انسان "

٢٨ - انظر محمد جلوب فرحان : تحليل ارسطو للعلم البرهاني ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ص ٢٠١ .

29- Aristotle ., op. Cit., 24b25 - 26 .

30- Ibid .,

31- Bird . O., Syllogistic and Its Extensions., New Jersey , 1964. P. 27.

32- Lukasiewicz . J., Aristotles syllogistic., oxford, 1958, P. 43.

33- Bochenski . M., OP. Cit ., P. 45,

ويتحدد هذا الضرب بان كلتا المقدمتين فيه كليتان موجبتان وبالتالي يستلزم هذا الضرب نتيجة كلية موجبة ، مثال ذلك.

كل ب هو آ
وكل جـ هو ب
―――――――
كل جـ هو آ

انظر : ياسين خليل : نظرية ارسطو المنطقية ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص ١٠١

٣٤ – ويتحدد هذا الضرب بان تكون المقدمة الاولى كلية سالبة والمقدمة الثانية كلية موجبة ويستلزم هذا الضرب أن تكون النتيجة كلية سالبة وبالضرورة مثال ذلك :–

لا واحد من ب هو آ

وكل جـ هو ب

لا واحد من جـ هو آ

انظر : المصدر السابق ص ١٠١

٣٥ – ويتحدد هذا الضرب بان تكون المقدمة الاولى فيه كلية سالبة والمقدمة الثانية جزئية موجبة، فالنتيجة تكون بالضرورة جزئية سالبة مثال ذلك :–

إذا لا واحد من ب هو آ

وبعض جـ هو ب

فان بعض جـ ليس آ

انظر المصدر السابق ص ١٠٣

٣٦ – يتحدد هذا الضرب بان تكون فيه المقدمة الاولى كلية موجبة والمقدمة الثانية جزئية موجبة فالنتيجة تكون جزئية موجبة مثال ذلك :–

إذا كل ب هو آ

و بعض جـ هو ب

فان بعض جـ هو آ

انظر المصدر السابق ص ١٠٢

37– Bochenski . M., OP. Cit ., P. 46 .

38– carruccio. E , OP. Cit ., P. 69

٣٩ – ياسين خليل ، نظرية ارسطو المنطقية ، ص ٢٨.

40– Ross. W. D., OP Cit ., P. 43.

41– Strawson.P.E.,Introduction to logical theory.,London,1964,P.161

٤٢ – ياسين خليل : المصدر السابق، ص ١١٩ .

١ – نعني بالعكس ان نجعل (المحمول) من القضية (موضوعها) و (الموضوع) (محمولا) مع حفظ الكيفية وبقاء الصدق بحاله . وتنعكس الكلية الموجبة (حيث ان الرمز A يشير

الى الكلي الموجب) الى الجزئية الموجبة (حيث ان الرمز I يشير الى الجزئي الموجب) و (ان الرمز ← يعني الزام القضية الثانية من القضية الاولى بالضرورة) مثال على ذلك . « كل انسان حيوان » تنعكس الى ان « بعض الحيوان انسان » .

٢ – تنعكس القضية الكلية السالبة (حيث ان الرمز E يشير الى الكلية السالب) الى كلية سالبة بالضرورة مثال ذلك :

« لا واحد من العراقيين افريقي » تنعكس الى « لا واحد من الافريقيين عراقي » .

٣ – تنعكس الجزئية الموجبة الى جزئية موجبة مثال ذلك .

« بعض العرب افريقيون » تنعكس الى « بعض الافريقيين عرب »

43- see . A- Aristotle ., OP. Cit., 29a34- 35 .

B- strawson .P. E., OP., Cit., 162 - 163 .

٤٤ – ياسين خليل : المصدر السابق، ص١١٩ .

و – ونعني بنفي النقيض محاولة نفي الكم مع الحفاظ على مواقع الموضوع والمحمول بشكل ثابت . وان نفي القضية الجزئية الموجبة (الرمز ~ يشير الى النفي) يؤدي الى قضية كلية سالبة ، ومثال ذلك :

« بعض الناس حجر » نفي هذه القضية يؤدي الى « لا واحد من الناس حجر » .

٢ – ان نفي القضية الجزئية السالبة يؤدي الى قضية كلية موجبة مثال ذلك :

« ليس بعض الناس بحيوان » نفي هذه القضية (النقيضة) يؤدي الى « كل انسان حيوان » .

45- Aristotle ., op. Cit., 45b7 -10.

46- Ibid ., 53 b14 - 15.

47- See : A- Kline .M., Mathematics in western culture ., Oxford, 1964 P 42 .

B- smith. D.E., OP. Cit., I., P. 106 .

48- Euclid., Elements, In "The great Books ,13 Books, Trans. by L. T. Heath., Chicago 1952, Book. 1. P. 1.

49- Ibid.,

50- Ibid., P. 25

51- Ibid ., P. 2.

52- See :A carrcuccio . E., OP .Cit ., P. 81.

B- Meschkowski .H., Noneuclidean Geometry., Amsterdam. 1971., P. 5.

53- See- A: Meschkowski .H. ,OP. Cit ., p.6.

ب — ج. بوليا، البحث عن الحل، ترجمة سليم سعيدان، ص ١٢٤ – ١٢٥.

C– Meschkowski H. ways of thought of great mathematicians Amsterdam, 1964, P. 43.

54– Kline . M., OP. Cit ., P. 42

55– See: A Heath. T. L., OP. Cit ., I., P. 371.

B– Meschkowski. H., Noneuclidean Geometry '., PP. 5-6.

56– B– See: A- stoll .R., Sets, logic and Axiomatice theories, California, 1964, P. 138 .

B- kline .M., OP. Cit ., P. 42 .

57– See: A-Burtt. E. A., Metaphysical Founditions of Modern Physical science., London, 1964. P. 31.

B– Meschkowski .H., ways of thought of great Mathematicians., P. 43.

٥٨ – محمد جلوب فرحان : المصدر السابق ص ٧٣ .

59– Randall. T., A., Aristotle ., New York , 1965. P. 33.

60– Kline .M., OP. Cit., P. 44, P. 45.

61– See: A- Kneale .W. and M., The Development of logic ., Oxford, 1971, PP. 3-4.

Mesckowski .H., Noneuclidean Geometry., P. 4.

ونعني بالصوري ان ليس لقضايا البرهان علاقة بالوقائع الحسية .

62– kline.M., OP. Cit., P. 43 .

63– strawson., op. Cit ., PP. 60- 61

64– Read .c. Logic deductive and inductive., London 1898, P. 62.

65– Reichenbach .H., philosophic Foundations of quantum machanics., London, 1965 , p. 15.

66– Kline. M., OP. Cit., P. 43.

67– See Euclid ., OP. Cit ., Book. I, PP. 6 – 7.

ويتحدد هذا البرهان بالكشف عن صدق البديهيات عن طريق مبرهنات سبق ان اقام البرهان عليها

68- See: A- Aristotle ., Analytica posteriora., 71b 20 - 22.

B- carruccio. E., OP. Cit ., PP. 70 - 71

69- See: A- strawson. P. E. OP. Cit ., PP. 60 - 61.

B- Meschkowski. H., OP. Cit ., P. 4.

70- See : A- Kline . M., OP. Cit ., 34

طرحنا امام بديهيات اقليدس الشروط المنطقية التي طرحها ارسطو امام القضايا الاولية للبرهان .

ب – جون كيمني : الفيلسوف والعلم ، ترجمة د. امين الشريف ، بيروت ١٩٦٥؛ ص٤٦.

71- Meschkowski . H., ways of thought of great mathematicians., P.44.

72- See : Euclid., OP Cit ., Book . 1, P. 6.

73- Meschkowski .H., OP. Cit., P. 44.

74- Euclid ., OP. Cit Book. I, P. 12.

٧٥ – ياسين خليل ، منطق البحث العلمي ، بيروت ١٩٧٤؛ ص ٢٤٠.

76- See Meschkowski . H., Noneuclidean Geometry. P. 4.

77- Euclid ., OP .Cit., Book . I, P. 6.

78- Ibid.,

79- See Heath. T. L., OP. cit., I. P. 374.

80- Meschkowski .H., OP. Cit ., P. 6.

81- Kline ., OP. Cit. P. 43.

82- See- A- Newsom . C. V., Mathematical discourses. London , 1964, P. 24.

B- Heath .T. L., OP. Cit ., I., P. 345.

C- Coolidge . J., A history of Geometrical Methods, New York, 1940, P. 29.

٨٣ – انظر جون كيمني ؛ المصدر السابق ص ٤٦ .

84- Euclid., OP. Cit., Book. I, P. 5.

85- See Heath . T. L., OP. Cit. I. P. 336 .

٨٦ – انظر ياسين خليل ، الطريقة البديهية في المنطق والرياضيات والفيزياء النظرية بحث منشور في مجلة الرياضيات والفيزياء ، العدد ٣، تموز ١٩٧٥؛ ص ١٥

87- See: A- Meschkowski ., H., Evolution of of Mathematical thought., P. 6..

B- Carruccio. E., OP. Cit ., P. 83.

88- See: A- stoll. R., OP. Cit , P. 138.

B- Meschkowski. H., ways of thouhgt of great Mathematicians P. 44.

89- Enclid, OP. Cit., Book I. P. 7.

90- Ibid., P. 13 .

91- Ibid., P. 21.

٩٢ - انظر ياسين خليل : منطق البحث العلمي، ص ٢٤٠

93- See: A -Meschkowski. H., Noneuclidean Geometry., P. 4.

B- Nowsom., OP. Cit ., P. 18 .

94- Aristotle., Analytica posteriora., 72931 - 32.

٩٥ - ياسين خليل : المصدر السابق، ص ٢٤١ .

٩٦ - ج. بوليا: المصدر السابق، ص ١٨٠ .

٩٧ - يتحدد المقصود بالموضوع والمحمول في المثال التالي : « الكل اكبر من الجزء » تتألف هذه القضية من موضوع هو « الكل » وهو الشيء الذي تحمل عليه الصفات ، والمحمول وهو « اكبر من الجزء » وهو الصفة التي تحمل عليه

٩٨ - وهو الحد الذي يظهر في كلتا المقدمتين ، فنجد في المثال المذكور ان الرمز ب هو الحد الاوسط والذي ظهر محمولا في المقدمة الاولى وموضوعاً في المقدمة الثانية وان الالزام المنطقي يعتمد على هذا الحد في الانتقال من المقدمات الى النتائج .

99- See Kline .M., OP. Cit., P. 54.

100- Aristotle., Analytica priora., 53b8

١٠١ - ج. بوليا: المصدر السابق، ص ١٥٠ .

102- See : A Euclid., OP . Cit., I., P. 17.

B- Sanford. V., A short history of Mathematics., U. S. A. 1958, P.69

103- See: A- Heath. T. L., OP. Cit., I., P. 372.

B- Sanford . V., OP. Cit., P. 270.

١٠٤ - انظر ج. بوليا : المصدر السابق ص ١٦٠ .

١٠٥ - المصدر السابق ص ١٦١ .

106- See Kline. M., OP. Cit., P. 54 .

107- Heath. T.L. OP. Cit.I. P. 372 .

108- Euclid., OP. Cit., I., PP. 17-18 .

109- I bid.,

110- Heyting .A, Logic and Foundations of Mathematics., printed in the Netherlands . 1968, PP. 191- 192.

111- Meschkowsi. H., Noneuclidean Geometry., P. 4.

112- See: A- Smith. D. E., OP. Cit., I., P. 16 .
B- Meschkowski. H. ,OP. Cit., P. 7

113- Boyer. C.B., The history of the calculas and Its conceptual devlopment., Dover Publications, Inc., 1959 ., P. 1,

114- Burtt .E.A., OP. Cit., P. 31.

وفي الا مكان ان نزيد على ذلك فنشير إلى ان اهمية اقليدس تكمن في انه طرح في هندسة تمارين منطقية Logical exercises ونماذج للاستدلال "Model of reasoning
Kline .M., OP., Cit., P. 55.

ويكشف كتاب الاصول بالاضافة إلى ذلك محاولة اقليدس لبناء الهندسة على اسس منطقية "Logical basis.
Sanford. V., OP., Cit., P. 268 .

وان البراهين السائدة في الاصول تتصف بالمتانة او الصرامة المنطقية Logical rigor
See: A- Meschkowski .H., Evolution of Mathematical thought ., P. 107.
B- Smith. D.E., OP. Cit., I., P. 106.

ونستطيع القول بان جميع البراهين التي ضمنها اقليدس كتابة مبنية بالطبع على مبادى اساسية متفق عليها وكانت استنتاجاته صحيحة ماظلت المبادى متفقاً عليها ، اما اذا كانت بعض المبادى التي استخدمها في مناقشاته غير متفق عليها اضطربت بالتالي بعض الا ستنتاجات .
الفريد هوبر : رواد الرياضيات ، ترجمة لبيب جورجي القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧٥ .

115– See : A- Heyting .A., OP. Cit PP. 191- 192 .

B- Meschkowski. H., Ways of thought of great mathematicians. P. 44.

116– Meschowski. H., Noneuclidean Geometry ., P. 7.

– ج. بوليا: المصدر السابق ص ١٧٩



تغلب ... ودورها في التاريخ

الدكتورة رمزية الاطرقجي
كلية الاداب/جامعة بغداد


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اصلها :

كانت تغلب من قبائل ربيعة ذات الشأن في الجاهلية بحيث آل اليها لواؤها فوليه منهم وائل بن ربيعة وهو كليب . وتعد قبيلة تغلب من القبائل الحربية التي لايهدأ لها بال، الا بالقتال والغزوات ، فقد اشتبكت بالقتال مع كثير من القبائل وخاضت مع بكر عدة حروب كما ظهر فيها خلق كثير من العمال والشعراء والفرسان(١)وتغلب من القبائل التي يحشرها اهل الاخبار في جملة(العرب المتنصرة)مثل غسان وتنوخ ولخم وجذام وسليخ(٢)

وهي حي من وائل ، من ربيعة ، من عدنان ، ووائل بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمي بن جديلة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن (٣) عدنان كان لوائل من الولد بكر بن وائل ، وتغلب بن وائل،وعنز ، والشنحيص دخل في بني تغلب ، والحارث دخل في تيم الله بن ثعلبة (٤).

وتغلب وبكر اعظم قبائل ربيعة شأناً في بلاد العرب ، وابناء بكر بن حبيب سته وتسمى بالارقام (٥)، اما ابناء تغلب فهم عمران والاوس وغنم،والعرب يعدون الاوس من أشأم الاحياء،بسبب رجل منهم وقعت حرب البسوس . (٦)

وقيل تغلب اسم لجداه جاهلية ينسب اليها التغالبة ، وربما قالوا تغلب بنت وائل بالتأنيث ذهاباً إلى القبيلة ، قال الفرزدق (٧).

---

(١) الهمداني : عجالة المبتدي ، وفضالة المنتهي في النسب ص ٣١

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب جـ٦ ص٢١٦

(٣) القلقشندي: نهاية الا رب ص١٨٦طبعة القاهرة ١٩٥٩ ، وابن حزم جمهرة انساب العرب ص٢٨٦ وابن عبد ربه والعقد الفريد جـ٣ص ٣٥٩، جرجي زيدان التمدن الاسلامي جـ٣ ص١٣

(٤) القلقشندي : ص ٤٤٦، العقد الفريد جـ٢ ص ٤٥

(٥) وهم جسم ، مالك ، عمرو ، ثعلبه ، الحارث، ومعاوية سموا بالارقام لان عيونهم شبهت بعيون الارقام وهي نوع من الحيات (ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٣٦، والازدي تاريخ الموصل . واحمد عطية الله ، القاموس الاسلامي المجلد الاول ص ٤٨ ومنهم الشاعر الاخطل

(٦) كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ص ٤٨، ٥٣٥

(٧) القلقشندي ، نهاية الارب ص ١٨٦، الدينوري، الاخبار الطوال ص ٥٥

لولا فوارس تغلب بنه وائل ورد العدو عليك كل مكان
ويقول الاخنس بن شهاب :

فوارسها من تغلب إبنـه وائل حماة كماه ليس فيهم اشايب (١)
فالشعر القديم يجعل تغلب ابنة وائل لاابنه ، فتغلب اذن ابن وائل بن قاسط او بنت وائل بن قاسط .

وان جد هذه القبيلة اسمه وثار(٢) وان اباه تمنى له ان يغلب فلحق به هذا الاسم وكانت تغلب تسمى (الغلباء ، والنسبة اليها الغلباوي (٣)) وهونعت يدل على فخر القبيلة بنفسها وعن تباهيها على غيرها من القبائل .

ويجب عدم الخلط بين تغلب وائل وتغلب بن حلوان بن عمران الحافي بن قضاعة والتي تسمى تغلب العلياء ، ومن اعقابها قبائل اسد والنمر وكلب (٤) والبرك والثعلب .

وكان من تغلب في الاسلام ثلاث بيوتات آل عمر بن الخطاب العدوي. وآل هارون المغمر ،وآل حمدان بن حمدون(٥)بن الحرث بن لقمان بن اسد وبنو حمدان حسب اغلب الروايات وارجحها – بطن من بني تغلب(٦)بن وائل وشذ عن هذا الراى الهمداني فاعتبر بني حمدان، موالي لبني تغلب (٧) ، غير اننا نجد الحمدانيين شديدي الفخر بنسبهم إلى تغلب بن وائل ، والذي يقرا شعر ابي فراس الحمداني يجده يغالي في التغني بامجاد تغلب . ومكانتها في الجاهلية والاسلام ، ويؤكد السامر (٨) نسب الحمدانيين إلى قبيلة تغلب

(١) شيخو : شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ١٨٦ الطبعة الثانية
(٢) ابن حزم : جمهرة الانساب ص ٢٨٥
(٣) القلقشندي : نهاية الارب ص ١٨٦
(٤) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٢٢
(٥) ابن خلدون العبر ح٤ ص ٢٢٧ ، والازدي ، تاريخ الموصل ص ٣٢٦
(٦) القلقشندي : نهاية الارب ج١ ص ٢٣٨
(٧) الهمداني صفه جزيرة العرب ص١٣٣ ، والسامر ، الدولة الحمدانية ج١ ص ١٧٥
(٨) السامر الدولة الحمدانية في الموصل وحلب: ح١ ص ٣٩

وتسمية انفسهم باسمها ، اذ نجد اثنين من افراد هذه الاسرة يسميان بتغلب هما ابو وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وابو تغلب ابن ناصر الدولة.

موطنها : اما مساكن ربيعة بالجزيرة العربية فهي على وجه التحديد في مهبط الجبل من غمرة ذى كندة وبطن ذات عرق وما حولها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة (تهامة الحجاز وتهامة اليمن) كما اننا نستطيع من وقائع حرب البسوس ان نحدد منازل بكر وتغلب قبل وصولها إلى ديار ربيعة ، وهي ارض يحدها من الجنوب البحرين وجبال العارض ويحدها من الشمال خط العرض. الذي انشيئت عليه مدينة البصرة فيما بعد (١) فمثلا «النهى» (٢) وهي احدى مواقع حرب البسوس تقع بين البحرين واليمامة ، وكباث (٣) وتقع بالجزيرة كانت تقام بها سوق في الجاهلية وهي لبني تغلب وقد غزاه المسلمون في اول ايام عمر وامارة المثنى بن الحارثة على العراق ، وبعد ان ضاقت مواطن ربيعة الاصليه في شبة جزيرة العرب لاسباب كثيرة ومنها حرب البسوس وما تبعها من حروب ثار ثائرها بعد مقتل كليب انقسمت قبيلة ربيعة إلى قسمين عظيمين ذهبوا إلى انحاء الجزيرة ، واحتل بنو بكر شمالها وهبط بنو تغلب جنوبها ومن الاسباب التي دعت إلى هجرتهم ايضا ، العصبية القبلية ، وزيادة السكان مع شحة بالموارد والارزاق يقول السامر (٤) اخذت هذه القبائل توطد اقدامها شيئاً فشيئاً على المجرى الادنى لنهر الفرات في ديار ربيعة وسميت بديار ربيعة بعد ان سكنتها قبائل ربيعية ، ويقول سليمان صائغ ربما جمعت ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ربيعة (٥) .

وان هجرة بكر وتغلب كانت ايام ذى نواس حوالي ٣٨٠ م (٦) واستغرقت

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تغلب جـ ٥ ص ٣٢٤

(٢) صفي الدين البغدادي : مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٤٠٩

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص ٢٣٢، وفي دائرة المعارف ، مادة تغلب ، كباث تقع شمال الانبار

(٤) السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ١ ص ١٦٨ - ١٦٩

(٥) سليمان صايغ : نصارى العرب في التاريخ ص ٢ :

(٦) دائرة المعارف : مادة تغلب جـ٥ ص٣٢٤

هجرتهم إلى الجزيرة قروناً ، ولم تنته الا في العهد الاسلامي وكانت تغلب حتى القرن السادس الميلادى ، ماتزال شاغلة بعض اجزاء من البقاع في مواطنها الاصلية والتي ذكرتها آنفاً (١) .

وفي بداية القرن الاول الهجري (السابع الميلادى) كانت منازل تغلب وسط الجزيرة بين قرقيسيا (٢) وسنجار ونصيبين والموصل شمالا وعانة وتكريت جنوباً (٣) وقيل انتشرت بطون تغلب في الثرثار بين سنجار وتكريت (٤) وكان هذا الاقليم يقرب ان يكون شبه جزيرة ، اذ يحده نهر الخابور ودجلة والفرات (٥) وعاشت جماعة من تغلب في مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند منبج والرصافة ، وصعدوا فيما بعد إلى جوار قنسرين ودمشق ، وفي الجنوب حتى عين النمر وجبل (لاهة) وعبرت جماعة اخرى في الوقت نفسه دجلة إلى اذربيجان (٦) وان سابور ذى الاكتاف اسكن من بني تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والأهواز (٧) (وقيل اسكنهم بلاد السوس) .

ونزلت جماعة من بني تغلب اطراف الموصل ، ثم انتقلت اليها وسكنوا فيها ومحلتهم اليوم تعرف بمحلة التغالبة وتسمى ايضا محلة البارودجية بجوار

---

(١) أحمد عطيه الله : القاموس الاسلامي : المجلد الأول ص ٤٨٠

(٢) الهمداني : صفةجزيرة العرب ص ١٣٣ ويقول ان رحبه مالك بن طوق وقرقيسيا ثراة بني تغلب وهي ديار عبيد بن تغلب ، وقرقيسيا مدينة على الخابور « ابن حوقل صورة الأرض ، ص ٢٠٤

(٣) دائرة المعارف ١ مادة تغلب

(٤) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٩٢١

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ٣١٠ ،شعر الأخطل ص ٣٦٣ ، رواية ابي عبدالله محمد بن العباس

(٦) دائرة المعارف : مادة تغلب ،وشعر الأخطل ص ٣٠٨ ، روايات أخرى تذكر انهم هاجروا إلى أذربيجان والشام ، والبحرين بعد اسلامهم ،ومن احتفظ بمسيحته هاجر بعضهم إلى بلاد الروم ، احمد عطيه الله : القاموس ألاسلامي المجلد الأول ص٤٨٠

(٧) الازدي تأريخ الموصل ص ٣٨١ والمسعودي مروج ص ٢٨٤ .

باب الجديد في جنوب الموصل (١) كما نزحت قبائل بعد الفتح الاسلامي مع تغلب قبائل اخرى مثل الازد والخزرج وتميم وتغلب وشيبان وسلى(٢) يقول البلاذري: « لما فتحت الموصل اختطها هرثمة بن عرفجة البارقي واسكنهـا قومـا من العرب تغلب وايـاد والنمر ، حيث اتت الموصـل مع القائـد ربعـي بن الافكـل (٣) ويروى اهل الاخبار ان اول من نزل بطون تغلب في الجزيرة الفراتية هو « علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر وقد قاتل اهل الجزيرة حتّى غلبهم وانزل قومه بها ويؤيد هذا الرأي ماجاء في معلقة عمرو بن كلثوم (٤)

ورثنا مجـد علقمة بن سيف   اباح لنا حصون المجد دينا

كما زحفت قبائل ربيعة إلى البحرين وهجر ، وكان بالبحرين بنو عقيل بن عامر بن صعصعة وبنو سليم ، واجتمعت بنو عقيل، وبنو تغلب على بني سليم واخرجوهم من البحرين (٥) ويذكر محمد ابو الفضل ابراهيم (٦) ان من كان بالبحرين من قبائل ربيعة (بكر وتغلب) وفدوا على الرسول (ص) واسلموا وامر عليهم الرسول المنذر بن ساوى ، ومن قبيلة تغلب من سكنى الكوفة ويذكر ابن الاثير (٧) ان سبب مجيئهم للكوفة فيقول : (ولما ارسل سعد بن ابي وقاص وفدا إلى عمر بن الخطاب يعلموه بالفتوحات التي تمت كان مع الوفد جماعة من بني تغلب ليعاقدوا عمر على قومهم فقال لهم: « اعاقدهـم على ان من اسلم منكم كان له ماللمسلمين وعليه ماعليهم فهاجر هؤلاء التغلبيون ومن اطاعهم من النمر واياد إلى سعد بالمدائن ، ثم نزلوا معه بعد الكوفة ويؤيد ذلك الاصفهاني بوجود قبائل

(١) سليمان صائغ : ص ٥٢ وقدم للموصل قبائل أخرى وهي فروع من تغلب منهم قبيلة ابو نجمة ، والخواتنة ، والشهوان ، المصدر السابق ص ٥٢ – ٥٣
(٢) السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ج ١ ص ٤٦
(٣) البلاذري :فتوح البلدان ص ٣٢٧
(٤) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ١٢٤
(٥) القلقشندي نهاية الارب ج١ ص ٣٤٢
(٦) محمد ابو الفضل ابراهيم ،وعلي محمد البجاوي ،ايام العرب في الاسلام ص ١٧٦
(٧) ابن الأثير : الكامل ص ٥٢٧

عربية نصرانية في بادية الكوفة (١) اما البكري فيحدد منازل تغلب بين خفان والعذيب، بالقرب من حدود الشام، ولم يستق هذه المنازل الا من الشواهد الشعرية.

ليهن تراثى تغلب بنة وائل ‏ اذا نزلوا بين العذيب وخفان (٢)

اما المحتسب فينفى نزول تغلب او بعض منها في الكوفة (٣)

حروب تغلب مع القبائل الاخرى :

كانت قبيلة تغلب كثيرة الميل إلى الحروب ليس فقط مع اختها بكر بل خاضت كذلك حروباً دامية مع بني يربوع التميمية (٤) ومع بني شيبان ومع بني سليم في دير لبى (لنبى) على جانب الفرات الشرقي (٥) ومع سعد بن تميم (٦) .

وقد كانت تغلب مثل سائر قبائل « معد » خاضعة لنفوذ حكام اليمن . وقد سئمت من جور الحكام الذين ينصبهم (التبابعة) عليها فظهر رجال منها عزموا على التخلص من ذلك النفوذ . وتكوين حلف قوي يكبح جماح اليمن يتألف من قبائل معد وكان بين اولئك الرجال (ربيعة بن الحارث بن زهير) والد (كليب) وكانت خطته ضرب اليمن للتخلص من حكم (زهير بن جناب) الذي كان حكام اليمن قد اقاموه على قبائل معد ، وجمع قبائل مضر وربيعة تحت زعامة واحدة وبذلك تتخلص القبائل من تحكم اليمن في شؤونها ، ومن دفع الاتاوة ، ولما كان زهير قد قسا في جمع الاتاوه فضجر الناس منه فجمع قومه ومن كان معهم من قبائل قحطان وغزا بكرا وتغلب فانهزمت بكر وتغلب واسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وجماعة من اشراف تغلب فتأثرت قبائل ربيعة وعينت (ربيعة بن مرة بن الحارث التغلبي) رئيسا فاسترجع الاسرى ، ولكن زهير لم يلبث ان عاد إلى ماكان عليه من جمع

---

(١) الاصفهاني : الأغاني ج ١٢ص ١٢٧ طبعة بيروت

(٢) البكري : معجم ما استعجم ج ٣ ص ٥٠٥ ، الخفان موضع قرب الكوفة فوق القادسية والعذيب : ماء عن يمين القادسية لبنى تميم بينها وبين القادسية أربعة اميال.

(٣) نقائض جرير والأخطل ، منشورات مكتبة المحتسب ، دار الفكر ص ١٥٩

(٤) كحالة : معجم قبائل العرب ص ١٢١

(٥) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٦٩

(٦) لا يزال اسم هذه القبيلة محفوظا في (ديار بكر) فيليب حتى : تأريخ العرب ص ١٢٠

الاتاوة من قبائل معد ومنها تغلب (١).

وكما مر آنفاً ان تغلب من القبائل العربية التي لايهدأ لها بال الا بالغزوات والغارات والقتال ، ففي اول الامر يحتدم النزاع بين بضعة رجال على اثر خلاف اما على حدود او ماء او اهانة لحقت باحد افراد القبيلة ، فما تلبث خصومة الافراد حتّى تستحيل إلى نزاع عام يشترك فيه عدة قبائل ويذهب ضحيتها اعداد كثيرة من القتلى وتسبى النساء وتفتدى الاشخاص بكذا من المواشي وغيرها.

وكانت الحروب مستمرة بينها وبين اختها بكر ، فبكر وتغلب هما اعظم قبائل ربيعة شأناً وظلت الايام الدامية تتوالى ، بين بكر وتغلب ، على اثر حرب البسوس فقد دامت اربعين سنة – نشبت في العشر سنين الاخيرة من القرن الخامس الميلادى إلى ان انسحب عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل (٢) فيما يقرب من ٥٢٥م فكليب بن ربيعة(٣)وهو الذي يقال فيه اعز من كليب وائل(٤) وهو رجل صلب قوي لقب كليباً لانه اذا سار اخذ معه جرو كليب فاذا مر بروضة او موضع يعجبه ضربه ثم القاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي فلا يسمع عواه احد الا تجنبه ولم يقربه وكان يقال له كليب وائل (ثم اختصروا فقالوا كليب) وكان لواء ربيعة بن نزار يتحول للاكبر فالاكبر من ولده فوليه وائل بن ربيعة (٥) وارتفع نجمه بعد يوم (فزارى) (خزار) (٦) وانتخب رئيساً على هذه القبائل وبقي على ذلك دهراً حتّى دخله زهو شديد فاخذ يشدد في اخذ الاتاوة ، وفي

---

(١) بن عبدربه العقد الفريد جـ ٦ ص ٩٧ ، والقلقشندي نهاية الارب جـ ١٥ ص ٤٢٠ ، وجواد علي المفصل في تاريخ العرب جـ ٤ ص٤٩٣

(٢) القلقشندي : نهاية الارب ص ٤٥٧ طبعة القاهرة ،والبكري ،معجم مااستعجم ص ٨٤٢–٨٤٣ وسالم عبد العزيز : تأريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٤٣٠ ،الأغاني جـ٤ ص ١٤٣

(٣) واسمه وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب الكامل لابن الاثير جـ١ ص ٥٢٣ والقلقشندي نهاية الارب ص ٩٥ .

(٤) ابن دريد الاشتقاق ص ٢٠٤ وابن الأثير الكامل جـ١ ص ٢١٤ ، بكاريوس . نهاية الارب في اخبار العرب ص ٩٥

(٥) ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ١ ص ٦٥ ومابعدها

(٦) خزار ،جبل مابين البصرة ومكة ، معجم البلدان لياقوت ص ٤٣٣ .

اتخاذ (١) خيرة الارض المخصبة ذات المياة الغزيرة مناطق حمى لايجوز لابل غيره على الرعي فيها وبلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته، ولاتورد أبل احد مع ابله ولاتوقد نار مع ناره وكان يحمي الصيد فيقول: « ناحية كذا وكذا في جواري» فلا يصيد احد منه شيئا .

وقد أدت غطرسة كليب الى مقتله ، فقد كانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة وكان كليب قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان واخوها جساس بن مرة ،وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة سيد بكر ، جاءت ونزلت على ابن اخيها (٢) وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكانت لها ناقة يقال لها سراب ولها تقول العرب: أشام من سراب وأشام من البسوس: فمرت ابل كليب بسراب ناقة البسوس (٣) وهي معقولة بفناء بيتها في جوار جساس بن مرة ، فلما رأت سراب الابل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الابل ، وأختلطت بها حتى أنتهت الى كليب وهو على الحوض ، فلما رآها انكرها ، فانتزع لها سهما فخرم خرعها ، فنفرت وهي ترغو (٤) .

وفي رواية أخرى، حدث ان كليب دخل على امرأته جليلة يوماً (٥)، وكان لمرة عشرة بنين اصغرهم جساس ، وكان يلقب بحامي الجار فقال لها : هل تعلمين على الارض اضع مني ذمة، ثم اعاد عليها الثانية فسكتت، ثم اعاد عليها الثالثة فقالت : نعم أخي جساس وندمائه ابن عمه عمرو بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، فسكت كليب ومضت مدة وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم أذ قال لها : من اعز وائل ، قالت : اخواي جساس وهمام ، فزع رأسه من يدها وخرج غاضباً من قول زوجته جليلة ورأى ناقة البسوس

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ٤٩٤ . والنقائض ص ٩٠٥ ومابعدها
(٢) محمد أحمد جاد المولى : ايام العرب في الجاهلية ص ١٤٤
(٣) في بعض الروايات : ان هذه الناقة كانت لرجل من بني جرم اسمه سعد بن شمس ، وانه نزل بناقته على جساس (محمد احمد جاد المولى : ايام العرب في الجاهلية ص ١٤٤
(٤) بن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ٢١٣ وما بعدها
(٥) جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان

فرماها بقوسه فقتلها (١) بسهم خرم ضرعها فنفرت وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها من رأسها وصاحت : وأذلاه ، واجاراه ، وخرجت فركب جساساً فرسا له وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرس ومعه رمحه حتى دخلا على كليب فطعنه جساس وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه فقال لجساس:«اغثني بشربة من ماء فقال هيهات تجاوزت شبيثاً والاحصى (٢) وبحوث كليب وقعت معارك في اوقات متقطعة بين بكر وتغلب،وارتحلوا بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النهى، وتشمر المهلهل أخو كليب، فاستعد لحرب بكر،وترك النساء والغزل وحرم القمار والشرب وقال :

وادى الاحصى لقد سقاك العدى فيضي الدموع باهله الدعسُ (٣)

وذكر اهل الاخبار اهم معاركهم وهي (يوم النهى) . وهو اول يوم من أيام حرب البسوس ، وقد توسط رؤساء بكر عند (مهلهل) (٤) (اخو كليب) بان يوقف القتال بعد ان سقط القاتل وهو (جساس) قتيلاً في معركة من هذه المعارك يقال انها معركة (يوم واردات) لكنه لم يقبل وابى الا الاستمرار في القتال حتى تسقى نفسه من بني بكر (٥)

والاخبار حول نهاية حياة ، مهلهل ، أختلفت وكان قد كبر وتقدم في السن وضف حالة فجاءة بعد مدة غير طويلة ، ويقال ان عبدين من عبيده اشتراهما ليغزوان معه . فلما كانا بموضع قفزا جميعاً على قتله، فقتلاه، وبذلك انتهت حياته وحياة حرب البسوس (٦) .

---

(١) جاد المولى : ايام العرب في الجاهلية ص ١٤٤

(٢) السويدي ، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ١٠٦ وشبيب الاحصن غديران في منازل ربيعة بنجد (العقد الفريد جـ ٥ ص ٢١٣ ومابعدها .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ٥٢٣ ، والدعس من منازل بكر

(٤) واسمه عدي بن ربيعة ، انما قيل له المهلهل لأنه اول من هلهل الشعر – أي ارقه ، كما انه اول من كذب في شعره (المصدر السابق جـ ١ ص ٥٢٣

(٥) ابن عبد ربه العقد الفريد : جـ٥ (حرب البسوس)ص٢١٣ والأيام التي جرت بعدها، وجواد علي ، المفصل في تأريخ العرب جـ ٤ ص ٤٩٦ ، وشيخر ص ١٧١

(٦) ابن عبد ربه:العقد الفريد جـ٥ مادة حرب البسوس ص ٢١٣ ،والنويري نهاية الارب ص٣٩٦، وابن الأثير الكامل جـ١ ص ٣١٢

ولقد تركت حرب البسوس اثراً في الاداب العربية لاتمحوه الايام بما حاكه الشعراء من القصائد والاغاني في وصفها (وأشأم من البسوس) اصبح من الامثال السائرة ، يقول حتّى : لو ان أقدم شعراء العربية ممن اتصلت بنا أثارهم الادبية كانوا من معاصري تلك الحروب (١) ومن ايامهم التي قاتلوا فيها بسبب حرب البسوس هي :

١ – النهي لبكر على تغلب ٢ – الذنائب ظفرت تغلب ٣ – إراب لتغلب على بني يربوع ٤ – الحنو لبكر على تغلب ٥ – التحالف بين بكر وتغلب حلق احد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم ٦ – واردات (٢) بين بكر وتغلب

اما أخبار وقائع تغلب بينها وبين قيس (وخاصة سليم) يقول السامر كلها اخبار متشابهة وحمله وتحتل صفحات من الصراع القبلي مليئة بالدمار والثأر المتبادل الذي وصل الى حدود غاية في القسوة تعدت قتل الاعداد العديدة من الرجال والى بقربطون النساء(٣)ومن هذه الايام بين تغلب وقيس يوم لبنى وقعت بين تكريت والموصل ،ويوم ماكسين (٤) . ويوم الثرثار الاول وفي هذا اليوم استعدت تغلب لتثأر ليوم ماكسين . وفي هذا اليوم بقر التغلبيون بطون ثلاثين امرأة من بني سليم (٥) ويوم الثرثار الثاني كانت حرب وحامية أبلت فيها سليم وبنو عامر بلاء حسناً وانهزمت تغلب وقتل بني عبد يسوع بن حرب وعبد الحارث من بني الاوس بن تغلب (٦) ويوم الفدين : غارة قام بها عمير على القرية فقتل عامة اهلها (٧)

---

(١) حتّى : تأريخ العرب جـ ١ ص ١٢١
(٢) واردات : يسار مكة ، العقد الفريد : جـ٥ حرب البسوس ص٢١٣ ، ودائرة المعارف مادة تغلب .
(٣) السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ١ ص ٥٧ ، وشعر الأخطل ص ٣٦٢
(٤) قرية قرب الخابور ، البلاذري : انساب بالاشراف جـ ٥ ص ٣١٨ .
(٥) البلاذري : انساب الاشراف جـ٥ ص ٣١٨ ، وشعر الأخطل ص ٣٦٤
(٦) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٩٢١ والبلاذري انساب الاشراف : جـ٥ ص ٣٢٠
(٧) البلاذري انساب الاشراف جـ ٥ ص ٣٢١

وهناك امثلة عديدة متنوعة عن اسباب حدوث الوقائع والحروب بين تغلب وغيرها من القبائل استعانت النساء بقبائلهن . وقتل فيها العديد من كلا الطرفين فبسبب اهانة لحقت ام عمرو بن كلثوم التغلبي يروى ان صاحب الحيرة (عمرو بن المنذر) كان قوياً شديداً وامه هند بنت الحارث بن عمرو المقصور التغلبي وكان سبب قتله له ان عمرو بن المنذر قال : هل تعلمون ان احد من العرب من اهل مملكتي يأنف ان تخدم امه امي ؟ قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان امه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو ، فسكت عمرو بن المنذر على ما في نفسه وبعث الى عمرو بن كلثوم ليزوده ويأمر ان تزور امه ليلى ام نفسه (هند بنت الحارث) فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه امه ليلى ، فنزل على شاطئ الفرات وبلغ عمرو بن هند قدومه فامر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات وارسل الى وجوه اهل مملكته فصنع طعاماً ثم دعا الناس فقرب اليهم الطعام على باب السرادق وجلس هو وعمر بن كلثوم وخواص اصحابه في السرادق . ولأمه هند قبة في جانب السرادق وليلى ام عمرو بن كلثوم معها في القبة ، وقد قال عمرو بن المنذر لامه : اذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق الا الطرف فنحن خدمك عنك ، فاذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء .

ففعلت هند ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق فقالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى وأذلاه ياأل تغلب فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه ، وثار ابن كلثوم الى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره ، فاخذه ، ثم ضرب به رأس عمرو بن المنذر فقتله وخرج فنادى يا آل تغلب فأنتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة (١)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٥٤٧

ولكننا نرى تغلب في صراعها ضد النفوذ الخارجي كانت تتحالف وتجتمع فتتفق مع اختها بكر ويحتشدون على العدو حتى يرفعوا وطأته ويبددوا الشمل حتى اذا كسروا شوكته وفتوا في عضده ارتدوا بعضاً إلى بعض ليستكملوا سلسلة الثارات فيما بينهم متناسين حلفهم وقرابتهم وفي هذا التقاتل القبلي كان الباعث يتباين عما كان عليه في حروبهم الخارجية ، لقد كان يدفعهم إلى التغازي، والتناحر حافز الشرف والثأر والفروسية الخالصة الهادفة إلى الانتصار والشعور بالتفوق اماما كان يحفزهم إلى التحالف على الاعداء الخارجين الخطر المشترك المداهم.

تغلب النصرانية والاسلام : دخلت تغلب العراق قبل الاسلام، وسكنت في الاقسام العليا منه كما جاء ذكره واتصلت بالفرس والروم وقد ادى اتصالها بالروم وبالنصارى الساكنين في الجزيرة إلى دخول منهم في النصرانيه(١)، ولم يتغلغل الاسلام في تغلب في السنين الاولى لذلك نجدها عند بدء حركة الفتوحات، والوفد الذي قدم من تغلب على الرسول في المدينة عام (٩) للهجرة فمن قدم من الوفود الكثيرة خلال هذا العام والعام الذي تلاه وذلك بعد ان ثبت الاسلام اقدامه في شبه الجزيرة(٢) وعقدت هذه الوفود صلحاً مع محمد ابقوا فيه على دينهم على ان لاينصروا اولادهم ومع ذلك فقد يكون هؤلاء التغالبه هم انفسهم الذين اقترحوا هذا الحل تخلصاً من الجزية في الاسلام.

وقد كان لتغلب جملة رؤساء منهم رئيس يقال له الجرار ادرك النبي وابى الاسلام، فبعث رسول‌الله اليه زيد الخيل الشاعر المشهور، واحد الشجعان المشهورين ليطلب منه الدخول في الاسلام او القتال ، فابى الاسلام وقاتل حتى قتل (٣) وكانت تغلب ايام الفتوحات الاسلامية تحارب إلى جانب

(١) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج ٦ ص ٢١٩

(٢) وقدمت ايضاً وفود بهراء ووفود بني فزار وبني تميم وعامر، وبني سعد بن بكر وطي (الطبري : ج ٢ ص ٣٦٣ — ٣٨٤ ؛

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج٦ ص ٢٢٠ ، وابن هشام السيرة ج ٤ ص ٢٠٥

الفرس والروم، وترتبط معهم في عدة مواقف قبل الاسلام، ففي عهد ابي بكر نجد بني تغلب تعيش قرب عين القمر على ماء سمى باسمها حيث ارسل القائد خالد بن الوليد سريه طرقتهم ليلا، وان اسيرا من بني تغلب دل المسلمين على حي لربيعه دهمه المسلمون (١) .

وفي عام ١٢ للهجره كانت تغلب واياد والنمر مع جيش الفرس في عين التمر، وكان هؤلاء العرب بقيادة عقه بن ابي عقه(عقبه بن ابي عقه)(٢) الذي هزم على يد خالد بن الوليد (٣) شر هزيمة ، وعوقب بالقتل لانه اصر على حرب المسلمين وكمن للجيش الاسلامي بقيادة خالد، وفي المصيخ (٤)، والحصيد، استطاع خالد ان يشتت فلول بني تغلب وحلفائها بقيادة الهذيل بن عمران(٥). وارادت تغلب ان تثأر لمقتل عقه فتحالفت بقيادة ربيعه بن بجير التغلبي مع القائد الفارسي روزبه وتجمعت في الثنى (في سنة ١٢هـ) ولكنها لقيت هزيمة جديدة على يد خالد، وقد اساءت تغلب للمسلمين إلى حد كبير مما دفع خالد إلى ان يقسم (ليبغتن تغلب في دارها) (٦). فقاتلهم وقاتلوه فهزمهم وسبى وبعث بالسبي الى ابي بكر، فكانت منهم ام حبيب الصهباء بنت حبيب بن بجير التغلبي وهي ام عمر بن علي ابي طالب (٧) (رض) ورقيه، وعمر عمر بن على حتى بلغ خمساً وثمانين سنة، وحاز نصف ميراثه ومات بينبع.

ثم سار خالد بن الوليد بعد ذلك إلى الغراض (٨)، ولما احتشد الجيش الاسلامي الفاتح في هذه المنطقة التي تعتبر حدوداً للروم والفرس معاً، تحالف

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٧
(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٦٣١-٦٣٢
(٣) الطبري: جـ٣ القاهرة ١٩٣٩
(٤) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٥٥٦. والطبري جـ٢ ص ٥٨٠-٥٨١
(٥) الطبري: جـ٢ ص ٥٨٠-٥٨١
(٦) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٨١
(٧) البلاذري انساب الاشراف ص ١١٠، والطبري جـ٥ ص ١٥٤
(٨) الغراض تخوم الشام والعراق والجزيرة، الطبري جـ٢ ص ٥٨٣

الجيشان الفارسي والبيزنطي لصد خطر المسلمين ، مستعينين بتغلب، واياد والنمر، الذين امدوهم بنجدات(١) كبيرة، غير ان جيش المسلمين حقق على يد خالد بن الوليد نصراً عظيماً في معركة(الغراض) سنه ١٢ هـ حتى بلغ عدد القتلى على حد قول الطبري مائة الف (٢). فلما علم سعد بانصراف فلول من الفرس إلى تكريت وتحصنهم بها ومعهم الاحلاف من اياد وتغلب والنمر وارسل اليهم عبد الله بن المعتم، وسار إلى تكريت. فوجد الفرس قد خندقوا بها فحاصرهم اربعين يوماً. ووكل عبد الله بن المعتم من يدعو العرب لتعرفه، فاستجابوا له واقبلت العيون من تغلب واياد والنمر إلى عبد الله بن المعتم بالخبر، وسألوه للعرب السلم واخبروه انهم قد استجابوا له . فارسل اليهم ان كنتم صادقين بذلك فاشهدوا ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله واقروا بما جاء به من عند الله . أعلمونا رايكم فرجعوا اليه بقبول ذلك، ولم يفلت منهم الا من اسلم تغلب وأياد او النمر(٣)

وفي اوائل خلافه عمر بن الخطاب هزمت تغلب هزيمة أخرى على يد المثنى بن حارثه في الكبات سنة ١٣هـ لما رجع المثنى من بغداد إلى الانبار(٤) ولكننا نراها تقاتل في نفس العام إلى جانب العرب لما قدم ابنه مردي الفهر التغلبي في اناس من بني تغلب فقالوا حين راوا نزلوا العرب بالعجم نقاتل مع قومنا فيقول الطبري: «وقتل غلام التغلبي نصراني(مهران) واستولى على فرسه وقال «انا الغلام التغلبي ، انا قتلت المرزبان في حين يقول ابن قتيبه (ان المثنى قتله) (٥) ، وكان ذلك في معركة البويب ، ويضيف (ابن الاثير) إلى هذا فيقول وساعد التغلبيون المسلمين في فتح تكريت والموصل (الحصن الشرقي نينوى– والحصن الغربي الموصل) (٦).

---

(١) المصدر السابق حـ٢ ص ٥٨٣
(٢) المصدر السابق حـ٢ ص ٥٨٣
(٣) محمد ابو الفضل ابراهيم : ايام العرب في الاسلام ص٣٠٠–٣٠١
(٤) كحالة : معجم القبائل حـ١ ص١٢٢
(٥) ابن قتيبة : الاخبار الطوال ص١٢٠. ومحمد ابو الفضل، ايام العرب ص ٢٣٦
(٦) ابن الاثير : حـ٢ ص٤٤٣

وفي مقال لسليمان صايغ يقول: ان خالد بن الوليد كاتب اعراب العراق دعاهم إلى نصرته فلبى دعوته بنو بكر وبنو عجل وبنو تغلب وجميع القبائل التي كانت تشغل اراضي الحيره والموصل، واستماتوا في القتال مع اخوانهم الفاتحين (١).

وقد انحاز قسم من التغلبين إلى علي (رض) لانهم طلبوا من معاوية اطلاق سراح اصحابهم فلم يفعل فاعتزلوا معاوية، وانحازوا إلى علي وكان عليهم قريع بن الحارث التغلبي علماً بأنهم كانوا قد حاربوا معه في صفين ثم حاربوا مع معاوية ضد علي بسبب موقف علي منها لانها نقضت العهد ونصرت اولادها وبعد ذلك حاربوا مع يزيد في وقعه الحره. ومع مروان بن الحكم في مرج راهط(٢)سنة ٦٥ عندما تحارب مروان بن الحكم والضحاك وصار اهل الشام قسمين وكانت تغلب مع ابن الحكم، حتى ان الاخطل يذكر هذه الحروب في اشعاره، ويفتخر بقبيلته(٣) وحاربت تغلب سنه ٧٧هـ مع الحجاج بن يوسف ضد شبيب بن قحطبه(٤). وفي خلافه عبد الملك بن مروان تدخل لحسم النزاع بين تغلب وقيس سلميا بينهما حيث انتهى النزاع خلال فترة خلافته كنتيجة لسياسته الحكيمة تجاه القبائل يقول الاصفهاني وأجتمع الناس على عبد الملك بن مروان، فكانت قيس وتغلب من المغازي بالشام والجزيرة، وظن كل واحد من الفريقين ان عنده فضلا لصاحبه (٥).

وقد استغل الخلفاء تكتل القبائل نتيجة كثرة الحروب والوقائع بدافع العصبية لتحقيق مصالحهم السياسية وهذه التكتلات القبلية احزت باستقرار الجزيرة، وأخرت تقدمها وتحضرها، وقد بقيت العصبية القبلية امداً طويلا

---

(١) سليمان صائغ: نصاري العرب في التاريخ، مجلة النجم المجلد٨ العدد العاشر ص٣٧٩

(٢) البلاذري انساب الاشراف ص ١٩١، والطبري حـ١ ص ٤٩٥

(٣) شفر الاخطل ص٢٣

(٤) كحالة معجم القبائل حـ١ ص ١٢٢

(٥) الاصفهاني: الاغاني جـ١٢ ص ٢٠

وكانت تعود للاشتعال بين الحين والحين لتعبر القبائل عن عدم ارتباطها وعدم خضوعها للسلطة المركزية .

اما الحوادث الهامة في تاريخ تغلب المتأخرة فسنذكر منها حوادث سنة ١٧١هـ حين خرج روح بن صالح (١) في اربعة آلاف يغير على بني تغلب ففزعت تغلب الى حرقل بن محجن ابي مطر المالكي ، فأتوا ليلا روحاً وجماعته وقتلوه ، وأخذ حاتم بن صالح بثأر اخيه فقتل من تغلب خلقاً واسر خلقاً ، ودخل مدينة بني أسيد وكانت هذه البلدة فيها بنو تغلب وهي مدينتهم (٢) ، فقتل منهم خلقاً كثيراً .

ومن قبيلة تغلب الوليد بن طريف الخارجي الذي خرج بالجزيرة على ابراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين وقتل ابراهيم وارسل اليه الرشيد يزيد بن مزيد فقتله وجماعته وكان ذلك سنة ١٧٨ هـ وقالت اخته ليلى بوفاته (٣)

أياشجر الخابور مالك مـــورقاً   كانك لم تجزع على ابن طريف

وتعتبر ليلى بنت طريف فارسة من نساء بني تغلب ، كانت تركب الخيل ، وتقاتل وعليها الدروع .

وكأن المأمون قد عين والياً على الموصل مالك بن طوق التغلبي صاحب الرحبة القيسية ، فأخضع الذين كانوا بجوار الرحبة وتزوج مالك بابنه الحسن بن عمر التغلبي (٤)الذي كان والياً على الموصل في خلافة الامين سنة ١٩٧هـ(٥) وحملها الى رحبة مالك (٦) وعمر الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي جزيرة ابن عمر ، وقد ساعد بنو تغلب الخوارج (هارون الشاري) خلال صراعه

(١) الازدي تاريخ الموصل. احداث سنة ١٧١هـ ص ٢٦٨ ، وكان هارون قد قلد روحا صدقات بني تغلب

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ وابن الاثير ، الكامل. حـ٦ حوادث سنة ١٧١هـ ص ١١٣

(٣) الطبري حـ٨ ص ٢٥٦ ، وانساب العرب لابن حزم ص ٢٨٩ ، اما الازدي فيذكر ابن الحارث كان سنة ١٧٩هـ وليس ١٧٨هـ

(٤) الازدي تاريخ الموصل ص ٣٩٦ و ص ٣٢٦ ، ودائرة المعارف ص ٣٣٢ مادة تغلب حـ٥ ص ٣٢٤

(٥) الاردي تاريخ الموصل ص ٣٢٦

(٦) رحبة مالك على شاطئ الفرات بين الرقه وبغداد(معجم البلدان حـ٤ ص ٢٣٦)

على زعامة الخوارج سنة ٢٦٣هـ ، وفي القرن الرابع الهجري نسمع بعشائر تغلب الكبيرة في البحرين حيث نازلو سليما وعقيلا بن عامر بن صعصعة وسرعان ما اشتركوا في فتنة القرامطة ، ولما هزم القرامطة عام ٣٧٨هـ طرد امير تغلب ابو الحسن الاصفر سليما بمساعدة عقيل ثم اجبر عقيلا على الهجرة، ثم طرد السلاجقة هؤلاء الى البحرين حيث استطاعوا ان يزيلوا سلطان تغلب الذي كان قد تراخا آنئذ كما ان جماعة من تغلب كانوا قد ذهبوا في تاريخ مبكر الى جزر فرسان (١)

ولعل معظم التغالبة قد تفرقوا في بادية الشام ، ولما دخل المغول الشام سنة ٦٨١هـ في خمسين الف التقى بجند الشام بين حماة وحمص فقوي جانب المغول على جانب الشاميين ، خرج على المغول كمين العرب من بني تغلب من مسيرتهم فتوهم المغول ، ان جنوداً كثيرة ، قد احاطت بهم من امامهم ومن خلفهم فانهزموا (٢) ، وقاتل كمين بني تغلب قتال الظافر ، ولم يعد اسم هذه القبيلة العظيمة الشأن يذكر في التاريخ منذ القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي) ولم نجد قبيلة محدثة في الوقت الحاضر تربط نسبها بتغلب (٣) ولكن بعض من دواسر ، وشمر يقال انها خليط من تغلب وعبس وهوازن(٤)ولاعتزاز تغلب بنفسها ، ولشعورها بعزتها كما جاء على لسان كثير من شعرائها(٥)وقد امتنعت عن دفع الجزية ، المفروض أداؤها على اهل الكتاب(٦)فمنذ الفتوحات الاسلامية الاولى للجزيرة اعتبر المسلمون ، النصارى اهل كتاب او اهل ذمة ، وقد اشار ابن قيم الجوزية الى نصارى الجزيرة بقوله : «انتم اهل الكتاب الذي لغتهم غير لغة العرب

---

(١) ياقوت : ج٣ ص ٤٩٧ و ص ٨٧٤، ودائرة المعارف، مادة تغلب ج٥ ص ٣٢٤
(٢) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٤
(٣) دائرة المعارف: مادة تغلب ج٥ ص ٣٢٤
(٤) فؤاد حمزه: قلب جزيرة العرب ص ١٥٠
(٥) الشيريزي: شرح القصائد العشر، معلقة عمرو بن كلثوم ص ١٠٨ ومابعدها
(٦) جواد علي مفصل تاريخ العرب قبل الاسلام: ج٦ ص ٢٢٠

كنصارى الشام والجزيرة اذ ذاك وغيرها من البلاد ودون نصارى العرب الذين لم تكن لغتهم غير العربية» فمنعهم الخليفة عمر من التكلم بكلام العرب لئلا يشتبه بهم في كلامهم ، كما صنعوا من التشبيه بهم في زيهم ولباسهم، ومراكبهم، وهيئة شعورهم(١)، وبقوا ينازعون الوليد بن عقبه، فهم بهم الوليد(وكان على عرب الجزيرة)(٢) وقال في ذلك : —

اذا ماعصبت الراس مني بمسود فضيك بني تغلب ابنة وائل

وبلغت عنه عمر بن الخطاب فخاف ان يخرجوه،وان يضعف صبره فيسطو عليهم فعزله ، وأمر عليهم (فرات بن حيان) وهند بن عمرو الجملي .

وقد ادت انفة تغلب، وعدم رضاها عن فعال الوليد بن عقبه إلى قبولها الصدقه المضاعفه(٣).

وعن ابي سيف التغلبي قال: كان رسول الله (ص) قد عاهد وفد تغلب على الاينصروا وليداً فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من وفدهم ولم يكن على غيرهم(٤).

وخرج وفد إلى عمر بن الخطاب ولما قال لهم: أدوا الجزيه قالوا: « ابلغنا مأمننا والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن ارض الروم، والله لتفضحنا من بين العرب». فقال لهم:« انتم فضحتم انفسكم، وخالفتم امتكم، وتالله لتودنه وانتم صفره قماة(٥)، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لاسبينكم قالوا فخد منا شيئاً ولاتسمه جزاء، فقال « اما نحن فنسميه جزاء، وسموه انتم ماشئتم: فقال له على بن ابي طالب: « يأأمير

---

(١) ابن قيم الجوزيه: شرح شروط العمريه ص ٣٦٣-٣٨٢

(٢) البلاذري أنساب الاشراف ص ١٨٢

(٣)الزبيدي : تاج العروس حـ١ ص ٤١٤، والمسعودي التنبيه والاشراف ص ١٧٦

(٤) الطبري : حـ٤ ص ٥٦

(٥) القمي: الحقير، الطبري حـ٤ ص ٥٦

المؤمنين ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال بلى ، واصغى اليه فرضي به منهم جزاء فرجعوا على ذلك(١) .

وفي رواية اخرى ان تغلب امتنعت عن دفع الجزية المفروض اداؤها على اهل الكتاب ، ورضيت بدفع ضعف مايدفعه المسلمون صدقة أنفة من كلمة الجزية ، واقتدت قبائل اخرى مثل تنوخ وبهراء بتغلب ، فرضيت بدفع الصدقة التي يدفعها المسلمون مضاعفة مفضلين اياها على دفع (الجزية) اي الضريبة التي يدفعها اهل الكتاب لكي لا تكون في مصاف النبط ومن لف لفهم من غير العرب . والمساواة فيها تعد اهانة لهم في نظرهم ، وان كان دافعوها نصارى مثلهم . وهم اخوانهم في الدين (٢) . للبلاذرى قول اخر في معاملة عمر (رض) لبني تغلب فيقول : . لما آتى عمير بن سعد شق الفرات الشامي ، وكان هناك من بني تغلب وطلب منهم الدخول في الاسلام ولكنهم ابوه وهموا باللحاق بأرض الروم . وكذلك وقف التغلبون في الشق الشرقي من الفرات لنفس الموقف فكتب اليه عمر (رض) يامره ان يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في المواشي والارض وان ابو ذلك حاربهم حتى يبيدهم او يسلموا فقبلوا ان يؤخذ منهم ضعف الصدقة (٣) فرضى التغالبة بهذا الحل قائلين :« اما اذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا (٤) ويقول عمر فروخ « اخذ عمر منهم الزكاة مضاعفة (خمسة بالمائة) شرط ان لايعمدوا اولادهم » (٥) . وان عمر اثاب بني تغلب لانهم حاربوا الفرس يوم القادسية في صفوف المسلمين هذا يفسر لنا ترفق عمر بهذه القبيلة القوية الابية والتي حسدها ناس بعد ذلك

---

(١) المصدر السابق : الطبري ج٤ ص ٥٦

(٢) جواد علي مفصل تاريخ العرب : ص ٢٢٠-٢٢١

(٣) البلاذري ص ١٩٢ وقال ان عمر صالح بنى تغلب بعدما قطعوا الفرات وارادوا اللحاق بأرض الروم

(٤) المصدر السابق على ان لا ينصروا صبيا ولايكرهوه على دينهم على ان تكون الصدقة مضعفة

(٥) عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدوله الامويه ص ١٠٤

على هذا المكان الملحوظ .

واما الخليفة عثمان فاراد ان يعيد النظر في وضع بنو تغلب فامر أن تؤخذ الجزية من بني تغلب ذهبا وفضة ، الا انه تراجع بعد ان تثبت له ان عمرا اخذ منهم الصدقة مضاعفة (١) .

ولكن هناك روايات وضعت في الخط من شأنها ومنها رواية نسبت إلى علي (رض) تذكر إلى انه رغب في القضاء على تغلب لانها دأبت على تنصير اولادها على الرغم من عهدها لعمر (٢)

وقد اتفق معظم الفقهاء ومنهم سفيان الثورى والاوزاعي، ومالك بن انس وابو حنيفة ، وابو يوسف على ان يؤخذ من التغلبي ضعف مايؤخذ من المسلم في ارضه وماشيته وماله ، وقالوا جميعاً ان سبيل مايؤخذ من اموال بني تغلب سبيل مال الخراج لانه بدل من الجزية (٣) .

وهناك روايات كثيرة ومختلفة التواريخ تحاول تعليل ماكان لتغلب من شأن خاص من صلاتها بغيرها من الجماعة الاسلامية ، فيقول البلاذري لاتؤكل ذبائح نصارى بني تغلب، ولاتنكح نساؤهم ،ليسوا منا ولامن اهل الكتاب (٤) وهناك قول ينسب إلى علي بن ابي طالب (رض) يقال انه قال ، حينما سئل عن ذبائح نصارى تغلب ، ايجوز للمسلم ان يأكلها فقال: لا تأكلوها فانهم لم يتعلقوا من دينهم بشيء الا بشرب الخمر (٥) .

وممن ارتد عن الاسلام من مسيحي تغلب سجاح (٦) متنبئة وعرافة وهي واحدة من طائفة من المتنبئين وشيوخ القبائل الذين ظهروا في بلاد العرب

---

(١) البلاذري: ص ١٨٣

(٢) العقد الفريد: ج٣ ص ٥٦، والبلاذري ص ١٨٣

(٣) البلاذري انساب الاشراف: ص ١٨٣

(٤) المصدر السابق ص١٨١ –٢٨٢

(٥) جواد علي: ج٦ القسم الديني من تاريخ العرب قبل الاسلام عن السنن الكبرى ج٩ ص٢١٧

(٦) ام صادر بنت اوس بن حق بن اسامه . وكان لها علم بالكتاب اخذته عن نصاري تغلب. وكان لها مؤذن يؤذن ، واشهد ان سجاح نبية الله(الفتوح لابن اعتم الكوفي ج١ص ٢٥)

قبيل الردة، أو ابانها ، ويستدل من نسبها[١]، الذي اتضح من تاريخها انه صحيح ان سجاح كانت من بني تميم ، وكانت امها من بني تغلب وكانت نصرانية وتقدمت سجاح الصفوف في سنة ١١ هـ بعد ان توفي النبي (ص) وتقول الروايات ، انها برزت في تغلب وانها وفدت من بلاد الجزيرة على رأس شرذمة من اتباعها من ربيعة ، تغلب وبني النمر وبني شيبان ، وانضمت إلى المتنبيء مسليمة الكذاب وكان مسيطراً على معظم قبيلة يمامة ، واعترف كل منها برسالة الاخر ، وتزوجا وقيل انها ماتت بعد ان عادت إلى قبيلتها التي ولدت بينها . وفي رواية اخرى انها دخلت الاسلام عندما انتهى رأي اسرتها إلى الاستقرار في البصرة التي كانت قد غدت المركز الاكبر لبني تميم في عهد بني امية وعاشت مسلمة وماتت مسلمة ودفنت بعد الصلاة عليها (١) من قبل سمرة بن جندب وهو على البصرة لمعاوية (٢) .

حياتها الاجتماعية : ان اكثر اخبار تغلب الاجتماعية استقيناها من شعرائهم ونقائض خصومهم من شعراء القبائل الاخرى ، وتذكر بعض الروايات ، ومنها المسعودي فيقول انهم ليسوا عربا (بدوا) وانما هم نبط مستعربه (اي مزارعون تخلقوا باخلاق البدو) (٣) ، ويؤكد البلاذري هذا القول بقوله ، انهم اصحاب حروث ومواشي (٤) ، ويتغزل الاخطل في شعره باحراج النخيل ، وحقول القمح ، والعجيب انهم كانوا ملاحين ، وكانت تجارة السفن تدر عليهم المال ، وتجلب لهم السلطان ، ومن الاشارات الى الملاحة في الشعر العربي القديم (٥) فالبيت رقم (١٠٢) من معلقه عمرو بن كلثوم هي اشارة هامة يقول :

---

(١) دائرة المعارف: حـ١١ ص ٢٧٣ — ٢٧٤
(٢) ابن الاثير : الكامل حـ٢ ص ٣٥٧
(٣) المسعودي ، مروج الذهب حـ١ ص ٢٤٩
(٤) البلاذري ص ١٨٢
(٥) الاخطل ص ٢٢٢

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملأه سفينا

فهو يفتخر بقومه ، بني تغلب قائلا ان سفنهم تغطي وجه البحر (١) .

وتعليقاً على قول المسعودي بانهم نبط مستعربه فهذا مالايرضيه بنو تغلب ، فانهم رفضوا ان يدفعوا الضريبة التي يدفعها اهل الكتاب كي لايكونوا في مصاف النبط ومن لف لفهم من غير العرب وقالوا ان المساواة فيها تعد اهانه لهم في نظرهم ، وان كانوا دافعوها نصارى مثلهم ، وهم اخوانهم في الدين(٢) ، كما سماهم جواد على بالاعراب او العرب المستعربه (٣) .

اما ملاحظة التبريزي في شرحه لمعلقه عمرو بن كلثوم « لو ابطأ الاسلام لاكلت بنو تغلب الناس » ، انما هو تعبير على قوة وسعة انتشار تغلب ويضيف الى هذا تعليلا اخراً وهو ان طريق الهند كان يمر بأرضهم ، وان الجزيرة تمر بها بصفة عامة الطرق من جميع الاتجاهات (٤) .

كانت تغلب تعبد الاوثان عندما كانت في شبه جزيرة العرب شأنها في ذلك شأن سائر القبائل العربية ، وكانت تعبد في اول امرها الصنم « أوال » (٥) ثم اعتنقت المسيحية ، وذلك قبل مجيء الاسلام اي في الجاهلية بتأثير اتصالها بالروم ونصارى العراق والجزيرة وبلاد الشام ويحشرها المؤرخون بأنها من قبائل العرب المتنصرة ومن سكنة الخيام (٦) تمييزا لها عن العرب الاخرين الذين لم يدخلوا في هذه الديانه بل بقيت على اخلاصها ووفائها لديانة ابائها واجدادها ، وهي عبادة الاوثان .

---

(١) دائرة المعارف : مادة السفينة ج١١ ص ٤٦٣
والحقيقة ان العرب قبل الاسلام بما فيهم تغلب لم يتوغلوا في تجارتهم إلى ابعد من سواحل البحر الاحمر والخليج العربي

(٢) راجع ماسبق عن جواد على ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، جاء ذكره في ص ١٦ من هذا البحث

(٣) جواد على ص ٨١-٨٢ : عن تاريخ العرب قبل الاسلام

(٤) التبريزي : شرح القصائد العشر ص ١٠٨

(٥) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٣٩٥ . وهذا الصنم كان لبكر بن وائل واختها تغلب

(٦) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج٦ ص ٢١٦

وباعتناق تغلب المسيحية اصبحت اكثر القبائل تمسكا بنصرانيتها ، فلم تفلح جميع المحاولات التي بذلها المسلمون في القرون الاولى للاسلام لاداخلهم في دينهم، ويستثنى من جميع ذلك جماعة صغيرة منهم لعلها تغلب التي كانت جوار طي (١) وبقيت تغلب متمسكة بدينها بضعة قرون ولم يتغلغل الاسلام في قلوبها شأن البدو عامة (٢) ولئن كانت الاحوال السياسية قد اضطرت الدولة الاموية إلى اخذ التغلبين باللين في دينهم ، وخطب ودهم عليه ، فانهم كانوا يشعرون بالغربة والانتباذ من قبل العرب عامة لاقامتهم على دينهم من دونهم ، وقد كان هذا موضع نزاع دائم بينهم وبين السلطة القائمة وكانت تغلب تجمع عليه الا أقلها، وكانه إطار لاستغلالها وحفاظها على كيانها، وخير مثال على عناد تغلب على البقاء على دينها وتمسكها به شاعرها النصراني الاخطل .

ومن خصال تغلب شرب الخمر، وجاء في رواية شائعة عن لسان علي (رض) قال: ان تغلب اخذت شرب الخمر من النصارى (٣) وكان شربهم للخمر (٤) من الخلال التي طالما عابهم عليها خصومهم، وقيل ان شاعرهم عمر بن كلثوم شرب الخمر صرفا حتى مات (٥) .

---

(١) الطبري ج٤ ص ٥٦: تغلب التي كانت تعيش في جوار طي قد تكون دخلت الاسلام مبكراً حباً في السلام

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٢٥١٠. والبلاذري ص ١٨١ وما بعدها

(٣) الزمخشري في تفسير سورة المائده الايه (٧)

(٤) وكانت تؤخذ ضرائب على الخمور بديار ربيعه، ففي عهد المقتدر كانت تجبى من قبل علي بن عيس(محمد بن عبد الملك الهمداني) تكمله تاريخ الطبري ج١ ص ١٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل ص ٥٠٦

ولقد حسدها (تغلب) جيرانها لانهم كانوا دونهم شمائل ووصفوها بأخلال رديئة منها الطمع والبخل (١) وان هذا الوصف استهدفوا له لمجرد السخرية التي لذعهم بها جرير ، ولكن هذا لاينقص من مجدهم وأنفتهم المعهودة وان كثير من هذه الفضائل اجتمعت بزعيمهم كليب .

وقد وصفت لغة تغلب بعدم النقاء، فقد اختصت بالكشكشة كما اختصت بكر بالكسكسة وقيل ان الكشكشة اختصت بها بكر اما الغشغشة فاختصت بها تغلب(٢) ذكرت ان تغلب اعتنقت المسيحية بعد تركها الاوثان ،فان جزيرة العرب لم تكن منعزلة تماماً بل تعرضت إلى كثير من المؤثرات الخارجية ، فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وسوريا والحبشة ، وانشأت لها في القطر مطرنة ،كما انشأت لها عدة كنائس ، وعند ظهور الاسلام كانت المسيحية منتشرة بين الغساسنة والمناذرة ، وبكر وتغلب (٣) .

ومن اهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشام ، مثل الغساسنة وتغلب هو مشهد القديس (سرجيوس) في الرصافة ، وقد عدّ التغلبيون هذا القديس شفيعهم ، وجعلوا له راية حملوها معهم في الحروب ، وكانوا يحملونها مع الصليب تبركا وتيمنا بالنصر ، وظل هذا المزار مقدسا مقصودا مدة في الاسلام ، وإلى هذا القديس اشار الشاعر (٤) الاخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وسماً ناقعاً
وابصروا راياتنا لوامعاً خلوا لنا راذان والمزارعا

فأجابه جرير :

فبالصليب ومار سرجيس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا

وقد ذهب احد تلاميذ يعقوب البرداعي ويسمى : (جيمس) مولود سنة

---

(١) ديوان العظامي ص٩ الاصفهاني الاغاني حـ٧ص١٨٦. المسعودي: مروج الذهب حـ٦ص١٥١

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء: حـ١ ص ١٠٩ وما بعدها، ولسان العرب حـ٨ ص ٢٣٢

(٣) صالح احمد العلى، محاضرات في تاريخ العرب حـ١ ص ١٤٧،وسالم عبد العزيز تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٤٨٣

(٤) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام حـ٦ ص ٢١٦

٥٠٠ للميلاد في نصيبين ، واليه تنسب اليعاقبة ويدعون بـ (المفوفسيتين) اى القائلين بالطبيعة الواحدة لقولهم ان للمسيح طبيعة واحدة ، فقيل لهم من اجل ذلك لاصحاب الطبيعة الواحدة)(١)

هم (مذهب من مذاهب الكنيسة الشرقية) وكان من المبشرين النبطين ، ذهب إلى بني تغلب ، وبشر بينهم ، وأقام بينهم كهاناً ورهباناً ، وبني لهم ديراً عرف في السريانية بـ « عين قنا» اى « عين الوكر» ودير اخر بتكريت سمي « دير جلتاني» وكانت لهم في ايامه اسقفية التغلبين او (السن) وكريسها بـ(عاقولا) (عاقول) وعاقولا هي الكوفة (٢)

وقد خرج من تغلب عدد من مشاهير الشعراء منهم في الجاهلية ومنهم في الاسلام ، وهم المهلهل اخو كليب ، زعيم تغلب وكان يسميه كليب « زير النساء» اي جليسهن (٣) وبعد مقتل اخيه انتبه للحرب وشمر ذراعيه ، وجمع اطراف قومه وهجر اللهو وحرم القمار والشراب، وهو في نظر تغلب اول من قصد القصائد ، واول من كذب في شعره (٤) والمهلهل ضال امرؤ القيس بن حجر الكندي وقد سألهم النصر على بني اسد حين قتلوا اباه حجر (٥) (والسفاح) وهو سلمه بن خالد الذي قاد تغلب يوم الكلاب (٦) (وافنون) ،لقب (صريم بن معشر) (٧) واسمه ايضا ظالم بن معشر وسمي افنوناً لشعر قاله .

فتّينا الود مضنون مضنونا أيامنا ان للشباب افنونا .

وعمر بن كلثوم ، سبق الكلام عنه وعن امة (٨) (ليلى بنت المهلهل) وهو

---

(١) المصدر السابق حـ٦ ص ٨١-٨٢
(٢) جواد علي المفصل في تاريخ العرب ص ٨١ -٨٢
(٣) شيخو: شعراء النصرانية ص ١٦٠-١٦١
(٤) ابن الاثير: الكامل ص ٥٢٩
(٥) المصدر السابق في مواضيع متفرقه
(٦) دائرة المعارف: مادة تغلب حـ٥ ص ٣٢٤
(٧) ابن دريد: الاشتقاق ص ٣٣٦
(٨) ابن حزم: انساب العرب ص ٢٨٧

احد اصحاب المعلقات (١) وكثيرون غيرهم يذكرهم ابن خلدون(٢) في كتابه العبر . ومن ابيات من معلقة عمرو بن كلثوم يشيد بامجاد قبيلة تغلب قوله :

لنا الدنيا ومن احس عليها ونبطش حين نبطش قادرينا (٣)

وقوله :

بان المطعمون اذا قدرنا وانا المهلكون اذا ابتلينا

وقوله ايضا :

اذا بلغ الرضيع (٤) لنا فطاما تخر له الجبابرة ساجدينا

اما الاخطل فقد اشتهر اسمه في الاسلام،وهو غياث بن غوث وانما سمي الاخطل لسفهه واضطراب شعره ، فشعره مرآة عكست حياة تغلب الاجتماعية . ومن ديوانه شواهد على اعتزازه بتاريخ امته وزها به ، يقص عليه اسلافه بعض رواياته ، فيعتز بعز القبيلة ، ويتحفز لمتابعة اشواطها ، معددا ايامها وابطالها زاهياً لها كل زهو ، وكان يخيل للتغلبيين في عنفوانهم البدائي، انهم اسياد عالمهم لاينازعهم فيه منازع ، ولايزعجهم عن بطونهم اى غاز او فاتح مقتدر(٥) . حتى انه لم ينظر في امر النصرانية نظرة اخلاقية او روحانية . ولم يتثقف بها ويفطن إلى مراميها الزهدية بل انها كانت بالنسبة اليه جزء من تراث قبيلته ومن تاريخها وقد تلقنها وانخرط فيها كاحد تقاليدها وعاداتها وهو اذا استدل لرجل الدين واسلمه امره ، كان في الواقع يحقر من امر نفسه ليعظم من امر دينه ، وتعظيمه لدين قبيلته هو تعظيم لها بوجه من كانوا يعارضونها به فقد شهد الاخطل منذ حداثته ماكان يقاسي بنو قومه من تضييق وحرمان

(١) محمد احمد جاد المولى : ايام العرب ص ٤١٦

(٢) ابن خلدون العبر ج٢ ص ٣٠١

(٣) الشنقيطي : شرح المعلقات العشر واخبار شعرائها ص١٥١

(٤) الشنقيطي المصدر السابق وفي مواضع اخرى، اذا بلغ الفطام لنا صبي(ابو الفتوح محمد التوانس) ياقوت الحموي ص ١٨

(٥) الحاوي : شرح ديوان الاخطل ص ١٤-١٥

اذ فرض عليهم عمر لبس الزنانير ،والقلانس المضربه الطوال والنعال المتينة(١)

وقد عرض عبدالملك على الاخطل الاسلام فابى وكان محباً للخمر وكثيرا ما عيره جرير شرب الخمر فرد عليه الاخطل (٢) وقال جرير يعرض بالاخطل ، ماقمنا بين يدي قسيس لاخذ قربان ، ولا لاداء جزية بين يدي سلطان.



(١) والمصدر السابق ص ٣٥ الاصفهاني الاغاني حـ٨ ص ٣١٠

(٢) شعر الاخطل ص ٣٣٨ (رواية ابي عبد الله محمد بن العباس)

مصادر البحث

١ ـ الالوسي : محمود شكري الالوسي : (بلوغ الارب في معرفة احوال العرب)صححة محمد بهجت الاثري،الطبعة الثالثة، مطبعة الكتاب العربي بمصر .

٢ ـ احمد عطية الله : (القاموس الاسلامي) المجلد الاول ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

٣ ـ ابراهيم : محمد ابو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوى (ايام العرب في الاسلام) القاهرة مطبعة عيسى الباي الحلبي ١٩٧٤

٤ ـ البكـــري : ابو عبدالله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفى ٤٨٧ هـ (معجم ماستعجم) حققه مصطفى الشعار طبعة اولى القاهرة ١٩٤٥

٥ ـ البكالوريوس : المعلم اسكندر البكالوريوس الارمي (نهاية الارب في اخبار العرب) مطبعة الفعلة في مرسيليا ١٨٥٢ .

٦ ـ البغــــدادى : صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق البغدادى المتوفى سنة ٧٣٩ (مراصد الاطلاع) (مختصر معجم البلدان لياقوت) تحقيق علي محمد البجاوى طبعة اولى ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥ مطبعة دار احياء الكتب العربية مطبعة عيسى الباي الحلبي

٧ ـ البلاذرى :ابي العباس احمد بن يحيي بن جابر البلاذرى (فتوح البلدان)،وانساب الاشراف .

٨– البيهقي :ابو بكر احمد بن الحسن ابن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ الطبعة الاولى حيدر اباد الهند ١٣٤٧هـ (السنن الكبرى)

٩– ابن حزم :ابي محمد علي بن سعيد حزم الاندلسي ، تحقيق ليفي بروفنسال دار المعارف بمصر ١٩٤٨ (جمهرة انساب العرب)

١٠– ابن خلدون :عبد الرحمن بن خلدون المغربي (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر) ج٤ دار الكتاب اللبناني للطباعة ١٩٥٧

١١– ابن دريد :ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية ٢٢٣ – ٣٢١ تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ .

١٢– ابن الاثير : الشيخ عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير. دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ (الكامل في في التاريخ ح٢) .

١٣– ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن عبد ربه الاندلسي القاهرة مطبعة لجنة التأليف ١٩٦٥ م (العقد الفريد ح٥).

١٤ ابن حوقل ابي القاسم بن حوقل النصيبي : (صورة الارض) منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

١٥– ابن قيم الجوزية (شرح شروط العمرية) ١٩٣٩ م

١٦– ابن العبري غريفورس الملطي ، المعروف بابن العبري ١٢٢٦ – ١٢٨٦ (تاريخ مختصر الدول) مطبعة الكاثوليكية بيروت طبعة اولى ١٩٥٨

١٧ ــ ابن منظور :ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري (لسان العرب) دار الصادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م

١٨ ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام (السيرة) راجع اصولها محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة حجازي القاهرة .

١٩ ــ ابو الفدا :عماد الدين اسماعيل بن علي شاهنشاه ــ القاهرة ــ مطبعة الحسين ١٣٢٥ (٦٧٢هـ ٧٣١هـ) (المختصر في اخبار البشر) .

٢٠ ــ ابو الفضل :محمد ابو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي (ايام العرب في الاسلام) الطبعة الرابعة مطبعة احياء الكتب العربية ١٩٧٤

٢١ ــ التوانسي : ابو الفتوح محمد التوانسي ـ: (ياقوت الحموي الجغرافي) الهيئة المصرية ١٩٧١.

٢٢ ــ جاد المولى : محمد احمد جاد المولى (ايام العرب في الجاهلية) الطبعة الثالثة مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

٢٣ ــ الحاوى : :ايليا سليم ،(ديوان شرح الاخطل التغلبي) دار الثقافة بيروت .

٢٤ ــ الحمــــــوي : ياقوت الحموي والشيخ الامام شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت ابن ابي عبدالله الحموي (معجم البلدان حـ٢ حـ ٤) طبعه طهران ١٩٦٥ .

٢٥ ــ حمزة : فؤاد حمزة . (قلب جزيرة العرب) ١٣٥٢هـ

٢٦ — حتي :فيليب حتي : (تاريخ العرب المطول حـ١) ١٩٥٢ م دار الكشاف للنشر

٢٧ — الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري . (الاخبار الطوال) ١٩١٢ م

٢٨ — دائرة المعارف الاسلامية: نقلها إلى العربية احمد السيناوى ، وابراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس وحافظ جلال . (مادة تغلب والسفينة).

٢٩ — الازدى : ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس (تاريخ الموصل) طبعه القاهرة تحقيق علي حبيب بن القاسم الازدي ٣٣٤هـ ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

٣٠ — الزبيدي (تاج العروس)

٣١ — الزمخشري : ابو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن احمد الزمخشري توفي ٥٢٨هـ (الامكنة والمياه والجبال) مطبعة بغداد

٣٢ — السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ (تاريخ الخلفاء حـ١) حققه محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٤م

٣٣ — السويدي :محمد امين البغدادي الشهير بالسويدى (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) المطبعة المرتضوية بالنجف ١٣٤٥ هـ

٣٤ — سالم :عبد العزيز سالم (تاريخ العرب قبل الاسلام) مطبعة كرموز بالاسكندرية .

٣٥ — السامر فيصل جرير السامر . (الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ج١) مطبعة الايمان بغداد ١٩٧٠م

٣٦ ـ شيخو :الاب لويس شيخو اليسوعي : جمع وصحح ووقف على طبع كتاب (شعراء النصرانية جـ١) مطبعة المرسلين اليسوعين ، بيروت ١٩٢٦م

٣٧ ـ الشنقطي :احمد بن الامين ١٣٣١ هـ (شرح المعلقات العشر واخبارها وشعرائها بيروت دار الاندلس ١٩٧٣م .

٣٨ ـ الاصفهاني :ابو الفرج الاصفهاني (الاغاني جـ١٢) طبعة بيروت ١٩٥٨ م ـ ١٣٧٨ هـ .

٣٩ ـ صائـــغ :سليمان صائغ : (نصارى العرب في التاريخ) مجلة النجم المجلد ٨ العدد العاشر ١٩٣٦ .

٤٠ ـ الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ (تاريخ الرسل والملوك) الطبعة الثانية تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر.

٤١ ـ علي : جواد علي (المفصل في تاريخ العرب) جـ٤ ، جـ٦ دار العلم للملايين بيروت

٤٢ ـ العلي : صالح احمد العلي .: (محاضرات في تاريخ العرب) جـ١ مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٥م

٤٣ ـ غربال :محمد شفيق غربال (الموسوعة العربية الميسرة) مؤسسة فرانكلين للطباعة القاهرة ١٩٦٥م(مادة تغلب)

٤٤ ـ فروخ : عمرفروخ: تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية) دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠م

٤٥ ـ القلقشندي :ابو العباس احمد القاقشندي ٧٥٦ هـ ـ ٨٢١هـ (نهاية الارب في معرفة انساب العرب) تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة ١٩٥٩م .

٤٦ ـ كحـــالــة :عمر رضا كحالة (معجم قبائل العرب القديمة والحديثة) ح١ المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م.

٤٧ ـ الكوفي ابو محمد احمد ابن أعثم الكوفي : (كتاب الفتوح) الطبعه الاولى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م المتوفي ٣١٤هـ

٤٨ ـ المسعودى ابو الحسن علي بن الحسين المسعودى ٣٤٦هـ: (١)(التنبيه والاشراف) عني بتصحيحه ومراجعته عبدالله اسماعيل الصاوى القاهرة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ (٢)م (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ح١ مطبعة دار الاندلس. دققه يوسف أسعد

٤٩ ـ الهمداني (١) :محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني المتوفى ٣٣٤ هـ (صفة جزيرة العرب) مطبعة السعادة بمصر. صححه ونشره محمد عبدالله النجدي .

٥٠ ـ الهمداني (٢) :ابو بكر محمد بن ابي عثمان الحازمي الهمداني. متوفى ٥٨٤ هـ كتابة (عجالة المبتدى ، وفضالة المنتهي في النسب) حققه عبدالله كنون، المطابع الاميرية القاهرة (١٣٨٤هـ-١٩٦٥م)

٥١ ـ اليزيدي :ابو عبدالله محمد بن العباس اليزيدي . روايه (شعر الاخطل) عن ابي سعيد السكري ، صححه وعلق حواشه. الاب انطون صالحاني في اليسوعي بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٨٩١ م .

اهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الإسلامي



الدكتور
احمد قاسم جمعة



قام العرب بعد ان وحد الاسلام كلمتهم بحمل مبادئه وكانوا في بداية الامر منشغلين بالجهاد والفتوحات غير مكترثين بالمظاهر الدنيوية ولهذا فلا عجب اذا تأثروا في مجال العمارة والفنون بالطرز التي سبقتهم ولاسيما الساسانية والبيزنطية منها التي كانت سائدة في المناطق التي دانت لسلطانهم .

واقتباس كل امة من الامم لبعض المظاهر الحضارية - ومنها العمارة والفنون - من الامم التي سبقتها أمر طبيعي ، لان الحضارة الانسانية حلقات متعددة يكمل بعضها بعضا . ساهمت في تكوينها اقوام متعددة في اماكن مختلفة وازمنة متفاوتة .

ولكن سرعان ما انتقل العرب قبل انتهاء القرن الاول الهجري/السابع الميلادي من دور اقتباس الى دور التطوير والابتكار وكونوا طرازا فنيا ومعماريا له اساليبه ومميزاته بحيث اثر في كثير من النواحي المعماريه والفنية في اوربا خلال القرون الوسطى .

ومما يؤسف له ان الوجه الحقيقي لذلك الطراز العربي الاسلامي لم يبدو على حقيقته بصورة كاملة وذلك لاندثار كثير من العمائر وعدم صيانة معظمها على اسس سليمة فضلا عن فقدان كثير من النفائس الاثرية المنقولة ، كما ان بعض المستشرقين الذين كان لهم السبق في دراسة الآثار العربية قد خصصوا جانبا من جهودهم لحجب اي فضل للعرب والمسلمين في مجال الفنون والعمارة علاوة على التوجيهات التي أوحت الى بعض الدارسين والمثقفين العرب بتركيز الجانب الاكبر من اهتمامهم على الاثار القديمة السابقة للاسلام ثم منح ما بقي من ذلك الاهتمام للاثار العربية في العصر الاسلامي (١) . ونحن لاننكر اهمية الاثار القديمة السابقة للاسلام ولكن آن الاوان للكشف عن اثارنا العربية الاسلامية والعمل على حفظها ودراستها لكي لانبقى في فراغ حضاري في هذا المجال ولكي لا يفقد جيلنا الحاضر واجيالنا اللاحقة الصلة بتراث الاجداد .

---

(١) الدكتور فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠م ، المجلد ١ ، ص ٢٥ .

والبحث سيركز على أهم التأثيرات المتبادلة بين العراق واقطار المغرب العربي في العصر الاسلامي من حيث المظاهر الفنية والعناصر المعمارية في المباني الاثرية واسباب ذلك وكيفية حدوثها، والتطرق الى اصولها وكيفية تطورها بالقدر الذي يفي بالغرض وتقتضيه طبيعة البحث.

وسيكون اعتمادنا في ذلك على مدى التشابه بين تلك المظاهر والعناصر . علما بأن التشابه الحاصل بينها لايكون في جميع الحالات دالا بالضرورة على التأثير المتبادل.، وانما يكون محليا في بعض الاحيان ينشأ عن طريق الصدفة.

والعراق يعد من اهم اقطار المشرق العربي حضاريا بفعل نشأة بعض الجذور الحضارية التي ترقى فيه الى عصور ماقبل التاريخ اذ ترعرع في كنفه كثير من الحضارات القديمة : كالحضارة السومرية والاكدية والبابلية والاشورية ، فضلا عن تأثره بالحضارة الساسانية نظرا لوقوع معظم مناطقه ضمن الحكم الساساني انذاك ، كما اصبح مركزا للخلافة العباسية مدة ناهزت الخمسة قرون ابان العصر الاسلامي.

اما اقطار المغرب العربي فقد كان لها هي الاخرى دور حضاري لانها وقعت تحت التأثيرات الحضارية السابقة للاسلام ومنها الحضارة الاغريقية والرومانية والبيزنطية ، كذلك اصبح لها دور الريادة في تغذية الحضارة الاوربية بكثير من اصول حضارتها العربية الاسلامية بحكم موقعها .

ولما كانت مصر تعد من اهم حلقات الربط الحضاري بين مشرق العالم العربي ومغربه بحكم موقعها الجغرافي ؛ لذ سنتعرض الى عناصرها المعمارية وظواهرها الفنية ذات العلاقة بالتأثيرات الوافدة من العراق الى اقطار المغرب العربي وبالعكس .

وقد امتازت الفنون والعمارة العربية الاسلامية بالوحدة التعبيرية التي جاءت نتيجة للتأثيرات الفنية المتبادلة بين اقطار الوطن العربي بفضل الوحدة السياسية والحضارية فيما بينها لفترة طويلة بعد ظهور الاسلام وحتى حينما كان يحدث انفصال لبعض المناطق الا ان اغلبها كان يدين بالولاء ولو بصورة اسمية — للدولة المركزية

ادى هذا بطبيعة الحال إلى تبادل الولاة والحكام بين الاقاليم المختلفة الذين كان لهم الفضل الكبير في نقل الظواهر الفنية والمعمارية من اقليم لآخر ومن الامثلة على ذلك الوالي الاموي عبيدالله ابن الحبحاب الموصلي الذي ولي مصر وشمال افريقيا من بعدها (١) فقد ذكر انه جلب قسما من عائلات الموصل إلى تونس واقرها فيها وادخلت هذه العوائل بعض المميزات الفنية من العراق الى هذه الربوع (٢) كما نقل الولاة العباسيون من الاغالبة إلى تونس قسماً من المميزات الفنية والمعمارية من العراق ومصر ومنهم ابراهيم بن الاغلب (٣) كما ان احمد بن طولون الذي ترعرع بمدينة سامراء بالعراق تاثر بتصميمها المعماري وزخارفها ونقلها إلى مصر عندما ولي امرها (٤) كذلك فان الحكام الفاطميين لما نقلوا مقر حكمهم من القطر التونسي إلى مصر سنة (٣٦١هـ/٩٧١م) ادخلوا بعض اساليب العمارة التونسية إلى القاهرة (٥).

وكان لتنقل الصناع وهجرتهم من قطر إلى آخر اثره الفعال في هذا المجال وكدليل على ذلك قدوم بعض الصناع واهل الحرف من مصر إلى الموصل في

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ج١ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في اخبار المغرب، (اخبار العرب)، بيروت ١٩٥٠ م ، ص ٥١ ؛ ابو العباس بن خالد الناصري: الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء ١٩٥٤م، ج١، ص ١٠٥ ؛ خير الدين الزركلي : الاعلام، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الثانية، مطبعة كوستانسوماس وشركاه ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤ م، ج٤، ص٣٤٥.

(٢) سليمان مصطفى زبيس : المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب العربي، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، تونس ١٨-٢٩ مايو (آيار) ، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٥٥٥، و ٥٥٦.

(٣) الدكتور احمد فكري: مسجد القيروان، مصر ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م ص ١٢٩ ؛ حسن عبد الوهاب: الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، ص٣٥٩، و ٣٦٠.

(٤) شافعي : المرجع السابق . ص ٤٢١ ؛ حسن عبد الوهاب: من روائع العمارة الاسلامية في مصر، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، ص ٣٠٢.

(٥) عبد الوهاب: الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، ص ٢٦١.

اواخر القرن (٦هـ/١٢م) اثره في تنشيط الصناعة والفنون في مدينة الموصل (١) وهجرة الفنانين من الموصل إلى ربوع الشام ومصر بعد استيلاء المغول على مدينتهم سنة (٦٠٠هـ /١٢٦٢م) ادى إلى نقل بعض الفنون والصناعات الموصلية — ومنها صناعة المعادن — الى دمشق والقاهرة (٢) .

ولاننسى للفنون التطبيقية والعناصر المعمارية التي يمكن نقلها من قطر إلى آخر على ذلك التاثير كما هو الحال بالنسبة لمنبر جامع القيروان الذي صنع في العراق ثم نقل إلى هذا الجامع (٣) فمما لاشك فيه ان المميزات الفنية لمثل هذه التحف تؤثر في المناطق التي نقلت اليها .

ومن اهم العوامل الاخرى التي ادت إلى ذلك التأثير : التبادل الثقافي وتنقل الرحالة وما سطروه في معاجمهم من وصف للبلدان والاثار (٤) كما هو الحال بالنسبة للرحالة الاندلسي بن جبير الذي زار معظم اقطار المغرب والمشرق العربي ووصف كل ماشاهده من الاثار الشاخصة (٥) ورحلة العلماء من قطر لاخر وما ينتج عن ذلك من تأثير في اضافة إلى التأثير العلمي وذلك لالمام بعضهم بالنواحي الفنية والصناعات التطبيقية إلى جانب تخصصهم بمختلف العلوم . ومن امثلتهم العالم النحوي اسماعيل بن يوسف المعروف بالطلاء المنجم فهو اول من

---

(١) سعيد الديوه جي : الموصل العهد الاتابكي، بغداد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ص ٥٥.

(٢) الدكتور احمد قاسم الجمعه : الآثار الرخاميه في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني . رسالة دكتوراه (غير منشوره) مقدمة جامعة القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٣٥٧ :
صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي، بغداد ١٣٨٩ هـ /١٩٧٠م ص ٢٥.

(٣) الدكتور فريد شافعي : الاخشاب المزخرفة في الطراز الاموي، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، المجلد ١٤، ج٢: سنة ١٩٥٢م، ص٧٥ ؛ مانويل جوميث : الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور محمد عبد العزيز سالم ومراجعة الدكتور جمال محمد محرز مصر ١٩٦٨م ، ص ٤٣.

(٤) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص٣٦٠.

(٥) انظر رحلة بن جبير .

من ادخل الطلاء العراقي (التزجيج او القاشاني) إلى المغرب العربي بالقيروان(١) عام (٢٤٨)هـ في محراب المسجد الجامع (٢) علاوة على افواج الحجاج الذين كان منهم فنانين على الارجح (٣) وكذلك النواحي السياسية التي ادت إلى تنقل الجيوش بين المناطق (٤) بغية القيام بالفتوحات والقضاء على الحركات الانفصالية وطرد الغزاة لتوحيد البلاد .

ومن تلك التأثيرات المتبادلة ظاهرة المداخل البارزة عن مستوى الجدران المثبتة فيها قد وجدت امثلتها الاولى في العراق في مداخل الواجهة الشمالية لخان عطشان (١٦١هـ/ ٧٧٧م) وطالعتنا هي الاخرى في بعض عمائر المغرب العربي ومنها مدخل مسجد المهدية في تونس (٣٠٣ — ٣٠٨ هـ / ٩١٥ — ٩٢٠ م) (٥) ومسجد تينملل (٥٥٨ هـ / ١١٥٣م) بالمغرب (٦) وقد تمثلت نفس الظاهرة بالمدخل الرئيسي لجامع الحاكم بالقاهرة (٣٨٠ — ٤٠٣هـ / ٩٩٠ — ١٠١٢م) (٧) من العهد الفاطمي ، وربما تأثر هذا المدخل بمدخل مسجد المهدية المذكور (٨) لان شمال افريقيا كان خاضعاً للحكم الفاطمي في هذه الفترة (٩) .

(١) القفطي : انباه الرواة على انباه النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠م؛ ج١، ص ١٣.

(٢) جورج مارسيه: الفن الاسلامي، ترجمة الدكتور عفيف بهنسي، ومراجعة عدنان بني، دمشق ١٩٦٨م ؛ ص٦٧.

(٣) عبد الوهاب: المرجع السابق؛ ص ٣٦٠؛ شافعي: العمارة العربية في مصر الاسلامية، ص ٥٦٧.

(٤) المرجع والصفحه نفسها.

(٥) الدكتور احمد فكري: العمارة الاسلامية ، في مصر ، القاهرة، ص ٨٢ .

(٦) صبحي أعشى : نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب، المحمدية بالمغرب ١٩٧٧م، ص ١٨.

(٧) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٣٧١؛ الدكتور عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر الصقلي إلى الجبرتي المؤرخ، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦ م، ص٥٤.

(٨) سامح : المرجع السابق، ص ٨٢؛ الجمعه: المرجع السابق، ص ٤٨.

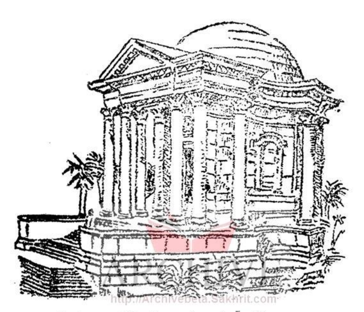
(٩) عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٣٦٠و ٣٦١.



رسم (١) واجهة برج الرياح بأثينا (نقلا عن Fletcher)

وظهر عنصر معماري آخر في العراق قبل ظهوره في المناطق العربية الاسلامية له علاقة بالمداخل وهو عنصر السقائف التي تتقدمها ومن الامثلة الاولى على ذلك السقيفة التي تتقدم الدرج الصاعد الى الغرفة الواقعة في كل برج من الابراج نصف الدائرية المحيطة بسور قصر الاخيضر (١) ، ثم أنتقل هذا العنصر الى بعض اقطار المغرب العربي الاسلامي ، كما هو الحال في سقيفة مدخل جامع ابي فتاتة في مدينة سوس (٣١٣، ٣٢٦هـ/٩٣٤، ٩٣٧م) . ويظهر ان الفاطميين تأثروا بفكرة سقيفة الجامع المذكور ونقلوها الى مدخل مسجد الصالح طلائع بالقاهرة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) (٢) التي تعد من أقدم الامثلة

(١) سامح: العمارة في صدر الاسلام، ص ٩٨ .
(٢) المرجع نفسه، ص٨٢.



رسم (٢) واجهة معبد فينوس بعلبك (نقلا عن Fletcher)

على السقائف التي تتقدم المداخل في مصر (١) .

والجدير بالذكر ان ظاهرتي المداخل البارزة والسقائف التي تتقدم المداخل وجدت في الطرز المعمارية السابقة للاسلام . ومن الامثلة على الظاهرة الاولى بعض المداخل في العراق القديم (٢) ؛ بينما وجدت الظاهرة الثانية في العمارة الهلنستية (٣) (رسم ١) والرومانية (٤) رسم (٢) .

---

(١) عبد الوهاب: المرجع السابق، ٣٧٨؛ الجمعة: المرجع السابق، ص ٥٠ .

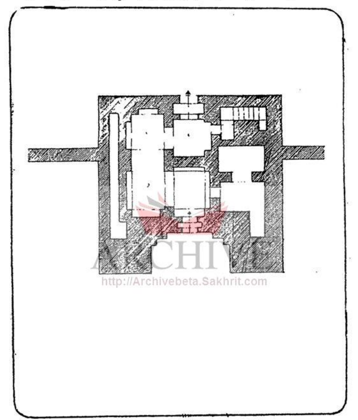
(٢) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة الدكتور السيد يعقوب ابو بكر ومراجعة الدكتور محمد القصاص، القاهرة؛ ص ١٠٩ .

Scranton (R.L.), Aesthetic Aspects of Ancient Art, Chicago 1964 Pl.42.

(3) Fletcher (B.), A history of Architecture on the Comparative Method, 7th Edition, London 1961. 1963, P. 141G .

(4) Ibid ., P. 195H .

كما ان ظاهرة المداخل المنحرفة (المزورة) (١) التي وجدت في مدينة بغداد



رسم (٣) باب الرواح بالرباط في المغرب (نقلا عن صبحي اعش)

(١) المدخل المنحرف او المزور: يخفي وراءه غرضاً عسكرياً اذ لوحظ فيه ان يضطر الغزاة بعد اقتحامه إلى الانحراف إلى اليسار للعبور إلى مدخل ثان، فتتعرض جوانبهم اليمنى للسهام الموجهة اليهم من شرفات الحصن المقابل للمدخل، وكان الجند يحملون الدروع بايديهم اليسرى، فتبقى جوانبهم مكشوفه.
الدكتور احمد فكري: مساجد القاهره ومدارسها-المدخل-القاهره ١٩٦١م. ص ٣٤ حاشية٢؛ طاهر مظفر العميد: بغداد مدينة المنصور المدورة: النجف ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م؛ ص ٢٢٠- ٢٢١).

(١٤٥هـ / ٧٦٦م) (١) ظهرت بعد ذلك في مصر كما في قلعة صلاح الدين بالقاهرة القرن (٦هـ / ١٢) وتعدتها الى المغرب العربي كما في مدخل الرواح بالرباط من فترة معاصرة (٢) رسم (٣).

ويمكن اعتبار المداخل المذكورة من العناصر المعمارية المبتكرة في العمارة العربية السابقة للاسلام وذلك لوجودها في مدينة الحضر بصورة واضحة (٣). ووجود مثال بيزنطي في شمال افريقيا يرجع تاريخه الى سنة (٨٥٩م) لا يعني انه أبتكار بيزنطي لانه جاء متأخر عن بناء مدينة بغداد بما يقرب من مائة سنة (٤). وبهذا تعد مداخل بغداد من اقدم الامثلة العربية للمداخل المزورة (٥) في العصر الاسلامي.

واذا تناولنا المحراب المجوف نجد ان اقدم امثلته الباقية في العالم الاسلامي محراب جامع القيروان من ايام الوالي عقبة بن نافع (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م) (٦) ثم انتقلت فكرة المحاريب المجوفة إلى اقطار المشرق العربي الاسلامي بعد ذلك ومن اقدم امثلتها المحراب الموجود في الضلع الجنوبية من المثمن الخارجي لقبة الصخرة

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، حـ١، ص ٧٤؛ ابن الفقيه الهمداني: بغداد مدينة السلام، تحقيق الدكتور احمد صالح العلي، سلسلة التراث (٦١)، الطبعه الاولى، باريس ١٩٧٧م، ص ٣٦؛ الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه: بغداد قديماً وحديثاً، بغداد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ص ٥٠؛ الدكتور احمد فكري: المرجع السابق، ص ٣٤، حاشية ٢؛ طاهر مظفر العميد: المرجع السابق، ص ٢٢٠و٢٢١و٢٣٢.

Creswell (K.A.C.), A short Account of Early Moslim Architecture, Penguin and Pelican Book 1958, P. 175- 179.

(٢) أعشى: المرجع السابق، ص ٥٠، شكل ٦.

(٣) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، بغداد ١٩٧٤م، ص١١.

(٤) فكري: المرجع السابق، ص ٣٤، حاشية ٢.

(٥) المرجع والصفحه نفسها؛ العميد: المرجع السابق، ص ٢٣٢؛ أعشى: المرجع السابق، ص ٥٠.

(٦) فكري: مسجد القيروان، ص٥٩؛ شافعي: المرجع السابق ص ٦٠٧.

من عهد عبد الملك بن مروان (٧٢ هـ/ ٦٩١م) ثم محراب الجامع الاموي (١) وامتدت الفكرة بعد ذلك إلى الحجاز كما هو الحال في المسجد النبوي من عهد عبد الملك بن مروان وفي ولاية عمر بن عبد العزيز (٨٨هـ/ ٧٠٦م) (٢) ثم انتقلت بعد ذلك إلى العراق ومن اقدم الامثلة على ذلك المحراب المجوف في قصر الاخيضر (١٦١هـ/٧٧٧م) (٣) .

كما ان المحاريب المجوفة ذات الصدور والمساقط المضلعة ظهرت في العراق ومثالها محراب الجامع الثالث في واسط (٤) ، كما وجدت امثلتها في المغرب العربي الاسلامي ويلاحظ في محراب جامع قرطبة (٥) ومحراب مسجد تينملل بالمغرب (٦) .

وأذا تتبعنا التكوين المعماري لهيئة محراب مزار بنجة علي في الموصل بالعراق (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) المتكون من تجويف وسطي تحيطه طاقتان (رسم٤) وما يماثله من تكوين في الحنية الواقعة في الحائط الغربي لكنيسة مار بهنام

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦١٣.

(٢) شافعي: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٣) المرجع نفسه: ص ٦٠٠ .

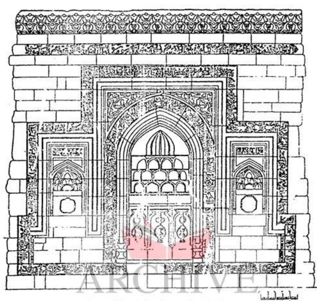
ومما يجدر التنويه اليه أن بعض العلماء العرب ومنهم الدكتور احمد فكري والدكتور فريد الشافعي قد اثبتوا ان فكرة المحراب المجوف في الاسلام اقتضتها الحاجة الوظيفية والضرورة المعمارية، وفندوا ماأورده بعض المستشرقين من ان الفكرة مقتبسة من الحنية المجوفة في الكنائس و منهم مس بل وكريسوول(فكري : المرجع السابق ص ٥٤–٦٠؛ بدعة المحاريب. مجلة الكاتب المصرية ، المجلد٤، العدد ١٤ ص ٣٠٦– ٣٢٠ شافعي: المرجع السابق ص ٥٨٤– ٦١٩ ؛

Bell (G.L.), Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford 1914. P. 147; Creswell (K.A.C.), Early Muslim Architecture, Oxford 1932, Vol. I, P. 99.

(٤) فؤاد سفر: تنقيبات واسط، القاهرة ١٩٥٢م: ص٢.

(٥) Sordo (E.), Moorish Spain Cordoba Seville Granada, Canada 1963. P. 24, Fig. 93.

(٦) اعش: المرجع السابق، لوحة(٤) .



رسم (٤) تخطيط واجهة محراب مزار بدجة علي بالموصل
(تخطيط الدكتور احمد قاسم الجمعة)

بجوار الموصل(١) من فترة متقاربة نجد ــ ما يماثل ذلك من حيث الفكرة قد شاع في اقطار المغرب العربي كما هو الحال في بوابة مسجد المهدية بتونس (٣٠٣ــ ٣٠٨هـ/٩١٥ــ٩٢٠م)من العهد الفاطمي الذي يحف به برجان(٢)ومحراب مسجد تينملل (٥٤٨هـ/١١٥٣م)بالمغرب الذي يحف به بابان صغيران (٣)،ثم اقتبس التكوين مع شيء من التحوير في بعض مداخل ومحاريب العمائر الفاطمية ومن

(١) Ministere de la Culture et de l' Information Direction general de l' Information, Mar Behnam, P. 24. Fig. 3

(٢) فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، حـ١، ص ١٤٣.

(٣) اعش: المرجع السابق، ص٩ .

امثلة ذلك مدخل مسجد الحاكم (٣٨٠ – ٤٠٣هـ/٩٩٠ – ١٠١٢م) (١) ومدخل مسجد الاقمر (٥١٩هـ/١١٢٥م) (٢) ومدخل القبة الكائن في الايوان الخارجي لمشهد السيدة رقية (٥٢٧هـ/١١٣٢م)(٣) ومحراب مسجد الحاكم (٤) .

وانتقل التكوين المعماري ذاته إلى المداخل الايوبيه بالقاهرة، كما هو الحال في مدخل الركن الشرقي لقاعدة قبة ضريح الامام الشافعي (٥٧٤هـ/١١٧٨م) (٥) ومدخل جدار الشمالي لمشهد الخلفاء العباسيين (٦٤٠ هـ/١٢٤٢م) (٦) . وامتد إلى العمائر الايوبية في سوريا، كما هو الحال في محراب المدرسة الظاهرية في حلب (٦١٣هـ / ١٢١٦م) (٧) وربما انتقل من سوريا او مصر إلى العراق او انه تأثير محلي حيث وجدت الفكرة نفسها في العراق قبل الاسلام . كما هو الحال في بعض معابد الحضر التي كانت واجهاتها تتكون من ايوان كبير يحف به اواوين اخرى اصغر منه (٨) .

---

(١) فكري: المرجع السابق، حـ١، ص ١٤٣ .

(٢) Rivoira. Moslem Architecture its Origins and Development Edinburgh 1918 P. 170. Fig. 152; Creswell. The Muslim Architecture of Egypt. Vol. II. P. 82. (c)

(٣) عبد الوهاب: من روائع الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، ص ٤٠٤ لوحه ٢٤.

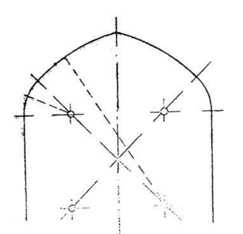
(٤) فكري: المرجع السابق، حـ١، ص ٧٣، لوحه ٢١.

(٥) Creswell. OP. Cit., Vol. II. Pl. 23 (a).

(٦) فكري: المرجع السابق، حـ٢، ص ٣٨، لوحه ١٢ .

(٧) Abb (A. N.,) The Ayyubid Domed Buildings of Syria Vol. 3, Fig. 317 .

(٨) سفر ومصطفى : المرجع السابق، صورة رقم ٣٣٤.
تقع الحضر إلى الجنوب الغربي لمدينة الموصل بحدود ١١٠ كم في بادية الجزيرة قريباً من منخفض الثرثار، ولقد نشأت قبل الاسلام كعاصمة لمملكة عربية وكان لها دور حضاري وسياسي إلى ان سقطت على يد الفرس عام (٢٤٠–٢٤١م) واتخذت بعد ذلك قاعدة عسكرية في العهد الاتابكي بالموصل (٥٢١–٦٦٠هـ/ ١١٢٧–١٢٦١م) ولازالت اطلالها ماثلة للعيان.



رسم (٥) عقد مدبب ذو اربعة مراكز من باب بغداد بالرقة
(نقلا عن الدكتور فريد شافعي)

وقد حدثت تأثيرات متبادلة بين العراق واقطار المغرب العربي الاسلامي في مجال عنصر معماري هام وهي العقود ولاسيما العقود المدببة ذات المراكز الاربعة والعقود المتقاطعة والمزدوجة والمخصصة والصماء .

فالعقد المدبب ذو المراكز الاربعة يعد من الابتكارات العربية الاسلامية المهمة فقد وجدت اقدم امثلته في باب بغداد في الرقة في حدود سنة (١٥٥ هـ/٧٧١م) (رسم٥) وهو احد ابواب مدينة الرقة وفي باب العامة في قصر الجوسق الخاقاني، كما استخدم في عقود بائكات جامع ابي دلف ثم انتقل إلى عمائر المغرب العربي الاسلامي . وعدم ظهوره فيما بعد في عمائر العهد الفاطمي يوحى بأن انتقاله في مصر لم يأت عن طريق العراق وانما عن طريق المغرب العربي (١) .

وقد وجد العقد المدبب العادي في العراق قبل الاسلام منذ العصر الساساني

(١) شافعي: المرجع السابق ص ٤١٣-٤١٥.

لضرورة معمارية ثم ظهرت امثلته الاولى في العمائر العربية الاسلامية في المسجد الاموي بدمشق (٩٦هـ/٧١٤م) (١) وبعد ذلك استحصل في العراق بقصر الاخيضر (١٦١هـ/٧٧٧م) والجوسق الخاقاني بسامراء (٢٢١هـ/٨٣٥م) ثم شوهد بعد ذلك في المغرب العربي، كما هو الحال في جامع القيروان في نفس السنة. وطالعنا فيما بعد في مقياس الروضة بمصر (٢٤٧هـ/٨٦١م) وفي مسجد احمد بن طولون (٢٦٥هـ/٨٧٨م) وربما كان انتقاله اليها عن طريق العراق (٢).

اما انتقال العقد المدبب إلى اقطار المغرب العربي قبل ظهوره في مصر فيوحي بأنه عن طريق العراق ومن المرجح ان ذلك كان على يد الامراء الاغالبة الذين نقلوا بعض الظواهر الفنية والمعمارية إلى تلك الاقطار ولاسيما تونس بالذات (٣).

وقد تمكن المعماريون العرب المسلمون في تطوير هذا النوع من العقود من مركزين (رسم٦) والعقد المدبب المكون من اربعة اقواس رسمت من اربعة مراكز كما تقدم، والعقد المدبب الذي يتكون من قوسين رسماً من مركزين، ويمس كل قوس منهما مستقيم يلتقي مع المستقيم الاخر في قمة العقد المدببة ويسمى بالعقد الفاطمي نظراً لكثرة استخدامه في عمائر مصر في العصر الفاطمي. كما ابتكروا نوعاً اخر من هذه العقود وهو العقد الذي يجمع بين العقد المدبب ذي القوسين وشكل حذوة الفرس ووجدت امثلته في جامع القيروان (٢٢١هـ/٨٣٥م) وبعدها في جامع ابن طولون — ٢٦٣—٢٦٥هـ/٨٧٦—٨٧٨م) (٤).

اما العقود المتقاطعة فهي الاخرى من المبتكرات في العمارة العربية الاسلامية ظهرت في بداية الامر في المسجد الجامع بقرطبة من عهد الحكم

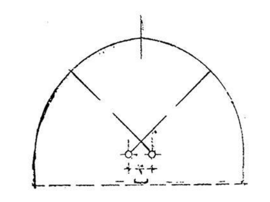
---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٣ ، ٢٠٧.

(٢) فكري: التأثيرات الفنية الاسلامية العربية على الفنون الاوربية، مجلة سومر مجلد ٢٣، بغداد ١٩٦٧ م. ص ٧٥.

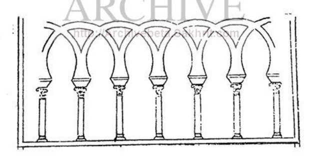
(٣) فكري: مسجد القيروان، ص ١٢٩؛ زبيس المرجع السابق، ص ٥٥٦.

(٤) شافعي: المرجع السابق. ص ٢٠٧.



رسم (٦) عقد مدبب ذو مركزين بالمسجد الجامع بدمشق :
(نقلا عن الدكتور فريد شافعي)

المستنصر (رسم٧) لتؤدي وظيفة معمارية وجمالية في آن واحد(١) وتعدته إلى منارة الكتبية في مراكش لغايات زخرفية (٢) وفي عصر الموحدين زينت الجدران باعمدة صغيرة تعلوها اقواس متقاطعة ، كما ان بني



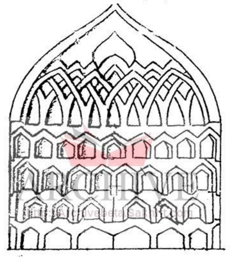
رسم (٧) عقود متقاطعة بالمسجد الجامع بقرطبة
(نقلا عن جوميث)

---

(١) جوميث : المرجع السابق، ص ١٢٠ .
(٢) الدكتور حماد شهاب: الطرز المعماريه واصولها، ص ٢٧، شكل ٤٣.

الاحمر في غرناطة اتخذوها في زخارفهم الجصية التي تميزت بصغر الحجم ودقة التنفيذ .

وطالعتنا الاقواس المتقاطعة لاغراض زخرفية في الموصل منذ العهد الايلخاني ، فقد وجدناها تعلو المقرنصات المزينة لمشكاة شاهد الصندوق الرخامي لقبر مزار الامام علي الهادي (رسم٨). ولاندري هل ان الاقواس



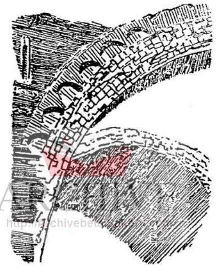
رسم (٨) عقود متقاطعة بشاهد قبر مزار الامام علي الهادى بالموصل.
(تخطيط الدكتور احمد قاسم الجمعه)

المذكورة اشتقت من تشبيكات الخطوط الهندسية التي اشتهرت بها الموصل ولاسيما في العهد الاتابكي (٥٢١ – ٦٦٠هـ/١١٢٧–١٢٦١م) (٢) ام ترجع باصولها إلى تأثيرات واحدة من المغرب العربي.

(١) الدكتور نادر العطار : العمارة الاندلسيه في عصر الموحدين، مجلة الحوليات الاثريه السوريه ١٠٣ لسنة ١٩٦٠م ص ٦٥.

(٢) احمد قاسم الجمعه : محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الاتابكة سنة ٦٦٠هـ/ رسالة ماجستير (غير منشورة) قدمت إلى جامعة القاهرة ١٩٧١م ص ٢٣٣.

وبالنسبة للعقود المفصصة التي تعتمد على التدوير والانحناء فعلى الرغم من وجودها في الفنون السابقة للاسلام كالفن الهندسي(١) والفن الساساني (رسم٩) (٢) ، الا انها كانت تؤدي غرضاً زخرفياً وتمكن العرب والمسلمون



رسم (٩) عقد مفصص بطاق كسرى في طيسفون بالعراق؟
(نقلا عن الدكتور فريد شافعي)

من تطويره واستخدامه في الاغراض المعمارية والاغراض الزخرفية في آن واحد .

وعلى الاغلب فان فكرة العقود المفصصة في العمارة العربية الاسلامية تأثرت بفكرة الفصوص التي كانت تحلي عقد طاق كسرى في طيسفون

(١) Havell (E. B), Indian Architecture, 2nd, Ed., London 1927 P. 82-86 .

(٢) Ghirshman (R.), Iran Parthians and Sassanian, Thams and Hudson, France 1962, Fig. 375 .

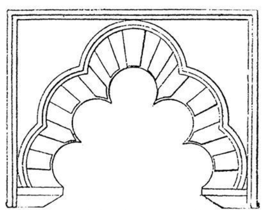
بالعراق من العهد الساساني حيث وجدت الامثلة الاولى لهذه العقود في العصر العباسي المبكر في الشبابيك الوهمية المزينة لواجهة باب بغداد في مدينة الرقة (١٥٥هـ/٧٧١م) (١) وتلتها عقود اخرى وجامع سامراء (٢٣٤—٢٣٧هـ/ ٨٤٨—٨٥٠م) (٢) وقصر العاشق قرب سامراء (٢٦٤هـ/٨٧٨م) (٣) . وقد انتقلت من العراق إلى مصر حيث وجدت في حشوات زخرفية في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ترجع إلى اعمال الوالي عبد الله بن طاهر (٢١٢هـ/٨٢٧م) ثم تعدتها الى جامع ابن طولون حوالي (٢٦٥هـ/٨٧٩م)(٤) .

اما ظهورها في المغرب العربي فكان بواجهة الطاقة الركنية في قبة المسجد الجامع بالقيروان (٢٢١هـ/٨٣٥م) (٥) وربما انتقلت مباشرة من العراق بفعل التأثيرات العراقية التي نقلها الامراء الاغالبة إلى تونس ، كما وجدت في حشوات منبر القيروان (٢٤٢ — ٢٤٩هـ/٨٥٦ — ٨٦٣م) (٦) الذي تم صنعه في العراق (٧) . ثم دخل التكوين نفسه إلى الاندلس كما يلاحظ في العقد الذي يعلو المحراب في المسجد الجامع بقرطبة (رسم١٠) (٨) .

والجدير بالتنويه أن العرب المسلمين تمكنوا من ابتكار نوع آخر من العقود المفصصة تعتمد فصوصها على التدوير والانكسار الذي ظهر في مصر منذ العهد الفاطمي كما في منارة مسجد الحاكم (٣٨٠ — ٤٠٣هـ/٩٩٠ — ١٠١٢م) واحد

---

(١) شافعي: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٢) جوميث: المرجع السابق، ص ١١٦؛ شافعي: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٣) فكري: التأثيرات الفنية الاسلامية العربية على الفنون الاوربية، ص ٧٣.
(٤) جوميث: المرجع السابق، ص ١١٦.
(٥) فكري: المرجع السابق، ص ٧٣ .
(٦) جوميث: المرجع السابق، ص ١١٦.
(٧) شافعي: الاخشاب المزخرفة في الطراز الاموي، ص ٧٥.
(٨) جوميث: المرجع السابق، ص ١١٦، شكل ١٣٦.



رسم(١٠) عقد مفصص من المسجد الجامع بقرطبة
(نقلا عن جوميث)

محاريب الجامع الطولوني (نهاية العهد الفاطمي)(١).

ومن المرجع أن تصميم هذه العقود انتقل من مصر إلى العراق ومن امثلة ذلك عقد محراب عمارة الأربعين في تكريت (من نهاية القرن الخامس) (٢) كما امتدت إلى أقطار المغرب العربي مثلما وجد في قلعة بني حماد بالجزائر (٥هـ/١١م) (٣).

اما العقو د الصماء التي تتخلل المشكاوات في محراب عمارة الأربعين في تكريت والتي تجلت باجلى مظاهرها في اطر بعض المداخل والمحاريب في الموصل في العهد الاتابكي ، مثلما وجد في محراب الجامع النوري من القرن

(١) Shafiei (F.) An Early Fatimid in the Mosque of IbnTulun, Bulletin of the Faculty Arts , Vol. xv- art I, May 1953, PP. 75, 81, Fig. 16, 01. 1,

(٢) Shafiei, OP. Cit., P. 73 .

(٣) Marcais (G.) Manuel D'Art Muslman I' Architecture, Paris 1920 PP. 155, 368, Fig. 80 , 199B .

(٨٥٧هـ/١٣م)(١) ومدخل حضرة مزار الامام عون الدين (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) (رسم ١١)(٢) فهي من الابتكارات العربية الاسلامية في المغرب العربي. حيث ظهرت لاول مرة في المسجد الجامع بقرطبة (٣٥٤هـ/٩٦٥م) وعلى واجهة مسجد تطيلة (٣٦٩هـ/٩٧٩م) (٣) وانتشر استعمالها في مآذن الأندلس والمغرب، ثم تاثرت بها اقطار المشرق العربي ومنها العراق.

ولابد لنا ونحن في سبيل التعرض للعقود أن نشير إلى ابتكار عربي اسلامي في هذا المجال وهو ظاهرة تشكيل العقود من صنجة من الحجر تليها مجموعة من الحجارة الملونة أو قوالب الأجر بالتبادل. فقد وجدت الأمثلة الصريحة لذلك في جامع قرطبة الذي شيده عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦ م) ثم انتشرت الظاهرة بعد ذلك في بناء الجدران وسميت عند العرب (الابلق) حيث كان يستخدم الحجر الفاتح اللون في المدماك الأول والحجر الداكن أو البازلت في المدماك الثاني بالتبادل، وشاع هذا الاسلوب في العمارة العربية في الشام نظراً لتوفر الحجر الجيري وحجر البازلت(٤)، كما شاع في عمائر مصر منذ العصر الأيوبي (٥) لنفس السبب.

وربما انتقلت نفس الفكرة من مصر أو الشام إلى العراق وبالموصل بالذات منذ العصر الاتابكي، كما يلاحظ ذلك في العتبات العليا لبعض المداخل فقد كانت تزخرف صنجة ثم تترك التي تليها صماء خالية من الزخرفة وهكذا بالتبادل، كما هو الحال في مدخل حضرة مزار الامام عون الدين (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

---

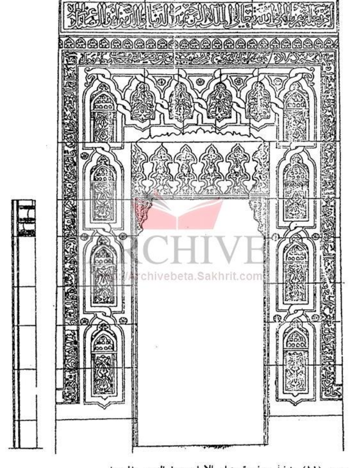
(١) الجمعة: المرجع السابق، ص ٢٨٨، صورة ٧٤.

(٢) الجمعة: المرجع السابق، ص ٤٥٠.

(٣) فكري: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٤) شافعي: العمارة العربية في مصر الاسلامية ص ٢١١.

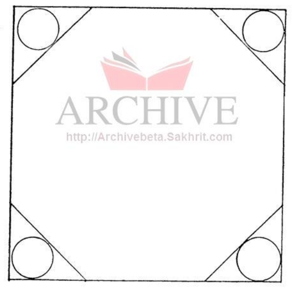
(٥) فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، مصر ١٩٦٩. ج٢ لوحة ٢٥-٢٧.



رسم (١١) مدخل حضرة مزار الامام عون الدين بالموصل
(تخطيط الدكتور أحمد قاسم الجمعة)

(الرسم السابـــق) ومدخــــل جامع الامـام الباهر المماثل لـه في الموصل . وندرة الأحجار الملونة في الموصل كانت السبب في لجوء الفنان إلى ذلك (١) .

وبالاضافة لما تقدم نجد أن التأثير الفني والمعماري المتبادل بين العراق واقطار المغرب العربي تناول مجالاً آخر من العناصر المعمارية وهي الدعائم واعمدة المزدوجة فالدعائم المحاطة بأعمدة مثمنة صغيرة الحجم تحمل العقود في المسجد الجامع بقرطبة من عهد الخليفة المستنصر (٢) تماثل من حيث الشكل والفكرة والدعائم التي ظهرت في العراق منذ العصر العباسي ،وهي تعد من الابتكارات المهمة لدى العرب المسلمين في مجال الفنون والعمارة . فقد وجدت

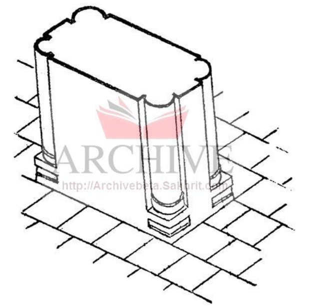


رسم (١٢) دعامة بالمسجد الجامع في سامراء
(نقلاً عن ربيع القيسي)

---

(١) الجمعة : المرجع السابق، ص ٤٥٢.
(٢) جوميث : المرجع السابق، ص ١٠٩.

في الجامع الكبير في سامراء اعمدة ثمانية تحف بها اسطوانية أُخرى اصغر منها (١) (رسم ١٢) وتعد من أول الأمثلة على هذا النوع من الاعمدة ، ثم وجدت بعد ذلك في جامع ابي دلف على هيئة دعائم مستطيلة يوجد في كل ركن من اركانها عمود رشيق اسطواني الهيئة. وأنتقل تأثيرها الى مصر منذ العصر الطولوني . ومن امثلة ذلك دعائم الجامع الطولوني (رسم ١٣) المشابهة لدعائم جامع ابي دلف (٢) وامتدت



رسم (١٣) دعامة بجامع ابن طولون في القاهرة
(نقلاً عن الدكتور فريد شافعي)

(١) ربيع القيسي : جامع الجمعة في سامراء تخطيطه وصيانته، مجلة سومر، ح١، م٢٥ لسنة ١٩٦٩، ص ١٤٨، مخطط رقم ٢.

(٢) شافعي: المرجع السابق: ص ٤٠٣، شكل ٢٣٤و٢٣٥.

الى العهد الاخشيدي حيث وجدت في مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى بالقاهرة (١) وتعدتها الى العهد الفاطمي حيث وجدت في جامع الحاكم (٢) ومن المرجح ان الاعمدة المماثلة التي نوهنا عنها في المسجد الجامع بقرطبة أنتقلت الى الاندلس عن طريق مصر لان ظهورها في هذا الجامع كان بعد أنتقالها من العراق الى مصر ، وربما كان تأثير ذلك بفضل الحجاج الذين كانوا يفدون من اقطار المغرب العربي الى الحجاز مارين ذهاباً وأياباً .

اما الاعمدة المزدوجة فكان معظم استخدامها في الفنون القديمة للاغراض الزخرفية (٣) وأنتقلت الى الفن الاسلامي ، ومن اقدم امثلتها التي استعملت كغرض معماري هي الاعمدة المزدوجة والثلاثية الملصقة في باب بغداد بالرقة (١٥٥هـ/ ٧٧١م) (٤) كما وجدت اعمدة ثنائية الازدواج في محراب الجوسق الخاقاني بسامراء (٢٢١هـ/٨٣٥م) (٥) . وأنتقلت من العراق الى مصر ومن امثلتها الاعمدة الثلاثية الملصقة لحنيات جامع عمرو بن العاص (٦) ، ثم طالعتنا بعد ذلك في جامع القيروان «(٢٢١هـ/٨٣٥م) (٧) من عهد زيادة الله الاغلبي .

ويجب التنويه بوجود نوع خاص من الاعمدة في الجامع النوري بالموصل تنسب الى القرن (٤ أو٥)هـ (٨) يتكون بدن كل منها من اربعة أنصاف اعمدة

---

(١) عبد الوهاب: مميزات العمارة الاسلامية في مصر ، ص ١٧٧.

(٢) عبد الوهاب: تاريخ المساجد الاثرية، القاهرة ١٩٤٦م، ج١، ص ٣٥.

(٣) شافعي: المرجع السابق، ص ١٧٦، شكل ١١٥؛ محمد وهبة: الزخرفة التاريخية ، القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ م ص ٣٥.

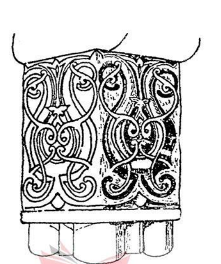
(٤) شافعي: المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦١٥-٦١٧، شكل ٤١٢.

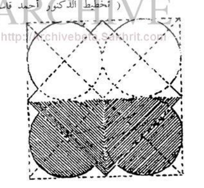
(٦) المرجع نفسه، ص ٣٨٢، شكل ٢١١-٢١٤.

(٧) فكري: مسجد القيروان، ص ٦٧، شكل ١١.

(٨) الجمعة: المرجع السابق، ص ٦٨٦.



رسم (١٤) عمود ركني بالجامع الكبير (النوري) بالموصل
(تخطيط الدكتور أحمد قاسم الجمعة)



رسم (١٥) الاساس الهندسي للعمود السابق
(تخطيط الدكتور احمد قاسم الجمعة)

اسطوانية ركينة تفصل أفيما بينها الاخاديد الغائرة و البروزات الرمحية المدببة احياناً (١) .

اما التيجان الكأسية للاعمدة التي اشتهرت بها اقطار المشرق العربي الاسلامي فقد تطورت التيجان الكورنثية التي وجدت في بعض الطرز الفنية القديمة كالاغريقية والرومانية والبيزنطية .

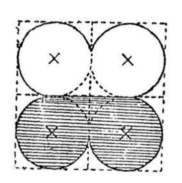


رسم (١٦) عمود ركني بالجامع الكبير (النوري) بالموصل
(تخطيط الدكتور احمد قاسم الجمعة)

واقدم امثلتها الصريحة والواضحة وجدت في سامراء (رسم ١٨) ولا سيما الجوسق الخاقاني بسامراء (٢٢١هـ/٨٣٥م) (رسم ١٩) (٢) و ربما كانت بعض التيجان الشبيهة بالكأسية التي ظهرت في العصر الاموي في الشام مرحلة

---

(١) انظر الرسوم: ١٤-١٧ .
(٢) شافعي: المرجع السابق، ص ٤١١.

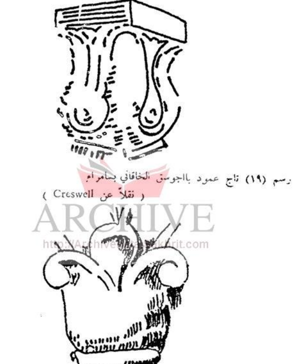


رسم (١٧) الاساس الهندسي للعمود السابق
(تخطيط الدكتور أحمد قاسم الجمعة)



رسم (١٨) تاج عمود من سامراء
(نقلاً عن الدكتور فريد شافعي)

تمهيدية لهذه التيجان (رسم ٢٠) (١) وأنتقلت الى مصر . ومن اقدم امثلتها شاهد قبر مؤرخ في سنة (٢٤٥هـ / ٨٥٩م) (٢) .



رسم (١٩) تاج عمود بالجوسق الخاقاني بسامراء
(نقلاً عن Creswell)

رسم (٢٠) تاج عمود من خربة المفجر بالشام
(نقلاً عن الدكتور فريدشافعي)

---

(١) شافعي، الاخشاب المزخرفه في الطراز الاموي، ص ٨١و٩٣.
(٢) شافعي : العماره العربية في مصر الاسلامية، ص ٤١١

وعلى الرغم من ندرة هذه التيجان في المغرب العربي ، ألا انها وجدت في اعمدة طاقات جامع القيروان (١) (رسم ٢١) .



رسم (٢١) تاج عمود بجامع القيروان . (نقلاً عن Creswell)

ومن المرجح ان انتقال الاعمدة المزدوجة وكذلك التيجان الكأسية الى الجامع المذكور كان على يد الامراء الاغالبة الذين نقلوا بعض العناصر والمظاهر الفنية من العراق الى ربوع تونس كما اسلفنا .

وهناك ظاهرة معمارية اخرى ظهرت في العراق خلال العصر الاسلامي ثم امتد تأثيرها الى المغرب العربي ، هي ظاهرة المقرنصات الركنية التي تحول المبنى المربع الى مثمن او الى دائري للتوفيق بينه وبين القبة الدائرية التي تقوم فوقه . وقد استمدت هذه الفكرة من الحنيات التي وجدت في الطرز السابقة للاسلام إذ وجد اول امثلتها في بعض القصور الساسانية التي تعود الى القرنين الثالث والخامس للميلاد (٢) في حين ظهرت لاول مرة في العصر الاسلامي في قصر الاخيضر حوالي (١٦١هـ/ ٧٧٧م) بالعراق (رسم ٢٢) الا ان هذه المقرنصات متأثرة بالامثلة الساسانية ، ثم تلتها مقرنصات باب العامة في قصر

(١) Greswell, The Muslim Architecture of Egypt, Oxford 1959, vol. *II* Fig.237.

(٢) شافعي: العمارة العربية في مصر الاسلامية ص ٤١١-٤١٣ .

الجوسق الخاقاني التي اتخذت هيئة عربية اسلامية خالصة من ناحية تجويفها نصف المستدير وطاقتيها التي اتخذت شكل نصف قبة مدببة (١) .



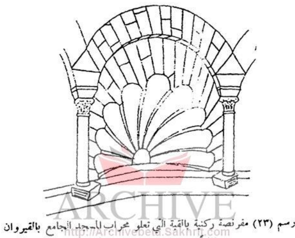
رسم (٢٢) مقرنصة ركنية في مسجد قصر الاخيضر بالعراق
(نقلاً عن الدكتور فريد شافعي)

والجدير بالذكر ان الظاهرة المذكورة لم تظهر في عمائر العصر الطولوني وانما ظهرت منذ العصر الفاطمي في مصر ، إذ وجدت في رواق القبلة في جامع الازهر وجامع الحاكم وجامع الجيوشي(٢) كما ان الامثلة التالية في التاريخ للنماذج العراقية وجدت في قبة جامع القيروان (٢٤٨هـ/٨٦٢م) (رسم ٢٣)، مما يبعث على الظن انها انتقلت الى مصر عن طريق المغرب العربي(٣)

كما انه من المرجح ان الطاقات المحارية التي وجدت في اركان قبة جامع

(١) شافعي: المرجع السابق ص ٤١٣ .
(٢) سامح: العمارة الاسلامية في مصر، ص ١٧٨.
(٣) شافعي/ المرجع السابق ، ص ٤١٥.

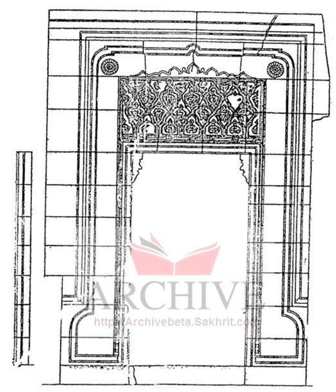
القيروان (٢٤٨هـ/٨٦٢م)(١) قد كانت من جملة التأثيرات الفنية والمعمارية العراقية التي نقلها الاغالبة الى ربوع تونس ، ثم شملت بعد ذلك عقود بعض المحاريب في العمائر الدينية المنسوبة الى القرن (٣هـ/٩م) مثل محراب دار شعبان قرب نابل ومحراب مسجد الذز بالمنستير (٢) .



رسم (٢٣) مقرنصة ركنية بالقبة التي تعلو محراب المسجد الجامع بالقيروان
(نقلاً عن الدكتور احمد فكرى)

كذلك فان المنحنيات والتعرجات البارزة الموجودة على العتبة العليا (الاسكفة) لمدخل بيت الشهداء الشمالي في كنيسة مار اشعيا (من العهد الايلخاني) بالموصل (رسم٢٤) تذكرنا بأشكال المعينات المتراصة التي شاعت في الطراز المغربي الأندلسي على جوانب المنائر : كمئذنة الزيتونة في تونس ومئذنة تلمسان بالجزائر ومئذنة الكتبية بمراكش ومئذنة الجيرالد في اشبيلية (٣).وربما حدثت تأثيرات متبادلة بين أقطار المغرب العربي والعراق في هذا المجال .

(١) فكري : المرجع السابق، ص ٩٢، شكل ٣٦؛ شافعي: المرجع السابق، ص ٤١٢-٤١٣، شكل ٢٤٢.
(٢) زبيس: المرجع السابق، ص ٥٥٧، ٥٦٤، شكل ٦و٦ م.
(٣) الجمعة : المرجع السابق، ص ١١٥.



رسم (٢٤) مدخل بيت الشهداء بكنيسة ماراشعيا بالموصل
(تخطيط الدكتور أحمد قاسم الجمعة)

ومن المرجح أن نظام المحارس الذي ظهر في المشرق العربي الاسلامي منذ أيام الرشيد أو قبل ذلك امتد تأثيره إلى أقطار المغرب العربي (١) على يد ابراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة (٢٦١هـ/٨٧٤م)(مؤسس دولة بني أغلب في تونس(٢).

(١) شافعي: المرجع السابق، ص ٥٣١.
(٢) عبد الوهاب: الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، ض ٢٥٩و ٥٦٠.

والمحارس هي نقاط حربية أوحصون يقيم فيها الجند بغية الدفاع عند الضرورة وكذلك تزود بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح أن يرى الواحد منها الآخر ويمكن ارسال اشارات الانذار للعدو بواسطة النار أو الدخان وتصبح هذه المحارس كلها متصلة فيما بينها وبالحصون الرئيسية وبتجمعات الجيوش داخل البلاد(١).

ويظهر أن ظاهرة اكساء المحاريب المغربية الأندلسية بالجص المنقوش كما نلاحظ في محراب جامع بلاد الحضر بتوروز في تونس (٥٩٠هـ/١١٩٤م) (٢) قد تأثرت بنفس الظاهرة التي وجدت في العراق منذ القرن (٣هـ/٩م). ومن أقدم الأمثلة لذلك محراب جامع ابي دلف بسامراء(٢٢١–٢٧٩هـ/٨٣٥ – ٨٩٢م)(٣).

وربما انتقلت هذه الظاهرة إلى سامراء عن طريق الفن الساساني. فمن المعروف أن طلاء الجدران بالجص المزخرف بالزخارف المختلفة يعد من الأساليب الهامة التي برع فيها الساسانيون (٤).

كما ان طريقة اكساء بعض المحاريب في أقطار المغرب العربي كمحراب جامع القيروان (٢٢١هـ/٨٣٥م)(٥) بلوحات من الرخام المنقوش قد جاءت من العراق على أغلب الظن ومن الموصل بالذات، إذ اشتهرت منطقة الموصل وماجاورها بصناعة الرخام (٦) قديماً ولا سيما في العهد الأشوري حيث استخدم الرخام

(١) شافعي: المرجع السابق، ص ٥٣١.

(٢) زبيس: المرجع السابق، ص ٥٥٩ و ٥٦٠.

(٣) نجاة يونس: المحاريب العراقية، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة بغداد ١٩٦٩م، ص٧١.

(٤) شافعي: المرجع السابق، ص ١٨١.

(٥) فكري: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٦) يقصد بالرخام الصخر المتحول الناتج من بعض الصخور الجيرية (اللايمستون) بفعل الضغط والحرارة واغلب المعادن المكونة لهذه الصخور هي الكالسايت (كاربونات الكالسيوم) والدولومايت (كاربونات الكالسيوم والمغنسيوم المزدوجة). ورخام الموصل الذي يدعى محلياً بـ(الفرش او المرمر) فهو من مادة الجبس اي (كبريتات الكالسيوم المائية)، وبهذا اصبح رخام الموصل يعني دلالات تجارية اكثر مما هي جيولوجية لان تركيبه الكيمياوي– يختلف عن التركيب الكيمياوي للرخام الحقيقي وان جاز لنا ان نطلق عليه اسم الرخام فالاصح ان نسميه بـ(الرخام الموصلي). وقد اطلق البعض على مثل هذا الرخام اسم (الرخام الجصي) لكي يمكن التفريق بينه وبين مفهوم الرخام الحقيقي من الوجهة الجيولوجية. (الجمعة: الاثار الرخامية في الموصل، ص ١٨–٢٢).

في عمل التماثيل والمنحوتات والافاريز الجدارية وذلك لكثرة تواجده ومطاوعته للعمل.

وفي العصر الاسلامي حافظت مدينة الموصل على هذه الصناعة واستعمل الرخام في زخرفة وتلبيس المباني وعناصرها منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ،كما هو الحال في قصر المنقوشة(١) وبلغت أوج تطورها في العهد الاتابكي كما يلاحظ في افريز جامع الامام محسن (٥٨٩–٦٠٧هـ/١١٩٣–١٢١٠م) (٢) (رسم ٢٥) .

وقد رجح الأستاذ زبيس في معرض كلامه عن طريق تلبيس المحاريب التونسية بالرخام انها دخلت إلى تونس على يد العوائل الموصلية التي جلبها إلى ربوع تونس الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب ، أو في عهد العباسيين على يد ولاتهم من الأغالبة (٣) .

وكما تأثرت بعض العناصر المعمارية في أقطار المغرب العربي بظاهرة الاكساء بالجص والرخام الوافدة من العراق فقد تأثرت بظاهرة فنية أخرى على نفس الطريق هي ظاهرة الترجيج والكساء بالقاشاني .

وقد ظهرت بوادر هذه الظاهرة في العصر الاسلامي في بداية الأمر في مدينة سامراء (٤) وامتد تأثيرها إلى المغرب العربي حيث تمثلت لأول مرة في محراب الجامع الكبير بالقيروان .

من عهد الامير أبو ابراهيم أحمد الأغلبي فقد مر بنا ان صانعاً عراقياً ادخلها إلى هذا المحراب (٥) ، وربما هو اسماعيل بن يوسف النحوي المعروف

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، القاهرة ١٢٩٠هـ، جـ٥، ص ٤٩و٥٠ .

(٢) الجمعة : المرجع السابق، ص ٧٨٦، رسم ٣٧ .

(٣) زبيس: المرجع السابق، ص ٥٥٥.

(٤) مارصيه : المرجع السابق، ص ٦٧ .

(٥) فكري: المرجع السابق، ص ١٢٩.



رسم (٢٥) افريز من الرخام الأزرق ملبس بالرخام الأبيض بجامع الامام محسن بالموصل .
(تخطيط الدكتور أحمد قاسم الجمعة)

بالطلاء (١) ، ثم ازدهرت واستخدمت في تغطية القباب في ظل الدولة الحفصية منذ الثلث الأول من القرن السابع حتى النصف الأول من القرن العاشر الهجري (٢)

(١) القفطي : المرجع السابق، حـ١، ص ١٣
(٢) زبيس : المرجع السابق، ص ٢٥٠

وفي الجزائر وجدت في قلعة بني حماد (أواخر القرن الخامس أوأوائل القرن السادس الهجري) بينما ظهرت امثلتها الاولى في المغرب في مئذنة الكتيبة .
واستخدمت لأول مرة في الأندلس فيمباني قرطبة في القرن (٤هـ/١٠م)(١) ثم امتدت إلى عمائر غرناطة في القرن (٧هـ/١٣م) (٢) ، وقد امتدت بعد ذلك الى عصر الموحدين (٣) كما انتقلت إلى جزيرة صقلية حيث نجدها في قصر العزيزة ببلرم الذي انشأه ملوك بني الحسين وجدده غليوم الأول في العهد النورماندي (٤) .

ومما يجدر التنويه به أن استخدام ظاهرة الترجيج بالقاشاني في المباني ترجع باصولها إلى الفنون العراقية القديمة منذ العهد السومري (٥) وربما دخلت الفن الاسلامي بتأثير من تلك الفنون .

كما ان خط الثلث التي ظهرت بوادره في العراق على يد ابن البواب المتوفي سنة (٤١٣هـ/١٠٢٢م) (٦) أمتد تأثيره إلى اقطار المغرب العربي واجمل نماذجه المنفذة على مهاد زخرفي قد وجدت في الجامع الكبير بمدينة تلمسان بالجزائر (٥٣٠هـ/١١٣٥م) (٧) ولانعلم هل ان ظاهرة شيوع هذا الخط في مصر منذ العهد الايوبي (٨)وظاهرة الكساء بالقاشاني منذ العهد

---

(١) الدكتور نادر العطار : العمارة الاندلسية في عصر الموحدين، مجلة الحوليات السورية لسنة ١٩٦١، ١٩٦٢م، المجلد ١١، ١٢، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) الدكتور نادر العطار : فن بني نصر في غرناطة(١٢٣٢- ١٤٩٢)، مجلة الحوليات السورية لسنة ١٩٥٨و ١٩٥٩م، المجلد ٨و٩، ص ٦٣.

(٣) العطار : العمارة الاندلسية في عصر الموحدين، ص ٦٨

(٤) عثمان الكعاك : بلرم كأنك تراها، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس ١٨-٢٩ مايو(أيار) ١٩٦٣، القاهرة ١٩٦٥، ص ٥٣١ .

(٥) Scranton ; OP. Cit. , PL.43

(٦) الجمعة: المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٧) Marcais , Op: Cit. , P.463- Fig 23IA

(٨) عبد الوهاب: من روائع العمارة الاسلامية في مصر، ص ٣٠٣ .

المملوكي (١) جاءت بفعل التأثيرات الفنية الوافدة من مشرق العالم العربي أم مغربه.

ولكننا نرجح ان الظاهرة الاولى دخلت مصر عن طريق العراق او الشام وذلك لبلوغ هذا النوع من الخط اوج تطوره في الفترة الاتابكية كما هو الحال في محراب الجامع الاموي بالموصل (٥٤٣هـ/١١٤٨م) (رسم٢٦)(٢) ومنبر الجامع النوري بحماة (٥٥٩هـ/١١٦٤م) (٣) علاوة على الظروف السياسية التي سادت المشرق العربي في هذه الفترة .

أما ظاهرة الكساء بالقاشاني والاجر المزلج فقد اشتهرت بها مدينة الموصل في الفترة الاتابكية، كما في قبة الجامع المجاهدي (٥٧٢ — ٥٧٦هـ/ ١١٧٦ — ١١٨٠م)(٤)،وقبة مزار يحيى بن القاسم (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) (٥) ولهذا نرجح انتقالها إلى مصر على يد الفنانين المواصلة الذين هاجروا اليها بعد سقوط مدينتهم بيد المغول .

وبعد فلا بد من الاشارة إلى ان التأثيرات المعمارية والفنية الواردة في البحث اقتصرت على العناصر المعمارية والظواهر الفنية المتمثلة في المباني الاثرية التي اوردتها المصادر والمراجع الاثرية والتي لازال معظمها قائماً حتى الان ، علماً بأن هناك قسماً من العمائر قد انطمر في العالم العربي قبل ان تتناوله اقلام الباحثين والقسم الاخر لازال غير مدروس دراسة علمية وافية ، كما ان البحث لم يتطرق إلى التأثيرات المتبادلة بالنسبة للفنون التشكيلية والتطبيقية وذلك لاتساع الموضوع .

(١) عبدالوهاب : المرجع السابق نفسه، ص ٣٠٦ .
(٢) الجمعة: المرجع السابق، رسم٤١، صورة ٤ .
(٣) كامل شحادة: من مآثر نورالدين زنكي العمرانية بحماة(الجامع النوري)، مجلة الحوليات الاثرية السورية، م١٥، ج٢ لسنة ٩٦٥ ، ص ٦٤، صورة ٣ .
(٤) الديوهجي : المرجع السابق، ص ٣٢ .
(٥) المرجع نفسه، ص ٦٥ .



رسم (٢٦) كتابة بخط الثلث على مهاد زخرفي واقعة على الجوانب الخارجية لصدر محراب الجامع الاموي . (تحليل الدكتور احمد قاسم الجمعة)

مصادر ومراجع البحث

أولاً – المصادر والمراجع العربية :

١ – ابن الأثير (عز الدين ابي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري) :

الكامل في التاريخ (٩أجزاء)، القاهرة ١٢٩٠هـ.

٢ – ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م.

٣ – الخطيب (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي):

تأريخ بغداد، القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م.

٤ – الهمداني (ابن الفقيه) :

بغداد مدينة السلام، تحقيق الدكتور أحمد صالح العلي، الطبعة الأولى، باريس١٩٧٧م.

٥ – أحمد فكري (دكتور) :

مساجد القيروان، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٦ – ——— مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل)، القاهرة ١٩٦١م.

٧ – ——— مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الثاني (العصر الفاطمي)، القاهرة ١٩٦٥ م.

٨ – أحمد قاسم الجمعة (دكتور) :

الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني رسالة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة إلى جامعة القاهرة ١٩٧٥م.

٩ – احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الاتابكة ٦٦٠هـ ،رسالة ماجستير (غيرمنشورة) مقدمة إلى جامعة القاهرة ١٩٧١م.

١٠ – حسن عبد الوهاب :
تاريخ المساجد الأثرية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٦م .

١١ – الزركلي : خير الدين :
الاعلام – قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، الطبعة الثانية ،مطبعة كوستاتسوماس وشركاه ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤م.

١٢ – سعيد الديوهجي :
الموصل في العهد الاتابكي ،بغداد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

١٣ – طاهر مظفر العميد (دكتور) :
بغداد مدينة المنصور المدورة ، النجف١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م .

١٤ – صبحي أعشى:
نماذج من الفن المعماري الموحدى بالمغرب، المحمدية بالمغرب ، ١٩٧٧ م.

١٥ – صلاح حسين العبيدي :
التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي، بغداد ١٣٨٩هـ/١٩٧٠ م .

١٦ ـ عبد الرحمن زكي (دكتور):
القاهرة تأريخها وآثارها من جوهر الصقلي إلى الجبرتي المؤرخ ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

١٧ ـ فريد شافعي (دكتور) :
العمارة العربية في مصر الاسلامية ، المجلد الاول ، القاهرة ١٩٧٠م.

١٨ ـ فؤاد سفر :
تنقيبات واسط ، القاهرة ١٩٥٢ م .

١٩ ـ كمال الدين سامح (دكتور) :
العمارة الاسلامية في مصر ،مصر.

٢٠ ـ ـــ العمارة في صدر الاسلام ، القاهرة ١٩٧١م.

٢١ ـ محمد وهبة :
الزخرفة التاريخية ، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧٢.

٢٢ ـ المراكشي (ابن عذارى) :
البيان المغرب في اخبار المغرب (أخبار العرب) ، بيروت ١٩٥٠ م.

٢٣ ـ مصطفى جواد (دكتور) واحمد سوسة (دكتور) :
بغداد، قديماً وحديثاً ، بغداد ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م

٢٤ ـ نجاة يونس :
المحاريب العراقية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٦٩م.

٢٥ ـ الناصري (ابو العباس بن خالد) :
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

ثانياً — المجلات والمقالات العربية :

١ — احمد فكري (دكتور) :

بدعة المحاريب ، مجلة الكاتب المصرية ، المجلد الرابع ، العدد ١٤ ، نوفمبر ١٩٤٩م .

٢ ——— التأثيرات الفنية الاسلامية العربية على الفنون الاوربية ، مجلة سومر ، المجلد ٢٣ ، بغداد ١٩٦٧م .

٣ — حسن عبدالوهاب :

الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة . المؤتمر الرابع الآثار في البلاد العربية ، تونس ١٨ — ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣م ، القاهرة ١٩٦٥م .

٤ — ——— من روائع العمارة الاسلامية في مصر ، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، تونس ١٨ — ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣م ، القاهرة ١٩٦٥م .

٥ — سليمان مصطفى زبيس :

المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب العربي ، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، تونس ١٨ — ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣م . القاهرة ١٩٦٥م .

٦ — ربيع القيسي : جامع الجمعة في سامراء تخطيطه وصيانته ، مجلة سومر ، المجلد ٢٥ ، الجزء ١ لسنة ١٩٦٩ .

٧ — عثمان الكعاك :

بلرم كأنك تراها ، المؤتمر الرابع للاثار في البلاد العربية ، تونس ١٨ — ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣ م ، القاهرة ١٩٦٥م .

٨ – فريد شافعي (دكتور) :
الاخشاب المزخرفة في الطراز الاموي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، المجلد ١٤، الجزء ٢، لسنة ١٩٥٢ م.

٩ – كامل شحادة :
من مآثر نور الدين زنكي العمرانية بحماه (الجامع النوري) ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ١٥، الجزء ٢ ، لسنة ١٩٦٥ م.

١٠ – نادر العطار (دكتور) :
العمارة الاندلسية في عصر الموحدين ، مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد، ١١و١٢ لسنة ١٩٦٠ م.

ثالثاً – المراجع الاجنبية المترجمة :

١ – حوميث (مانويل) :
الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور محمد عبدالعزيز سالم ومراجعة الدكتور جمال محمد محرز ، مصر ١٩٦٨ م.

٢ – موسكاتي (سبتينو) :
الحضارات السامية القديمة ، ترجمة الدكتور السيد يعقوب ابو بكر ومراجعة الدكتور محمد القصاص ، القاهرة.

رابعا / المراجع الاجنبية غير المترجمة :

1. Abbu (A. N.) , The Ayyubid Domed Buildings of Syria (Ph . D. Thesis, Edinburgh University 1973) .
2. Bell (G. L.) , Palace and Mosque at Ukhaidir , Oxford 1914.
3. Creswell (K.A.C.) , Early Muslim Architecture , Oxford 1932.
4. --------------, The Muslim Architecture of Egypt , Oxfotd 1959 .
5. ....-, Ashort Account of Early Moslim Architecture, Penguin and Pelican Book 1958.
6. Ghirshman (R.) , Iran Parthians and Sassanian , Thames and Hudson, France 1962 .
7. Havell (E.B.) , Indian Architecture , 2nd. Ed. , London 1927 .
8. Marcais (G.) , Manuel D'Art Muslman l'Architecture , paris 1920.
9. Rivoira (G.T.) , Moslem Architecture its Origins and Develompment, Edinburgh 1918.
10. Scranton (R.L.) , Aesthetic Aspects of Ancient Art , Chicago 1964 .
11. Sordo (E.) , Moorish , Spain , Cordoba , Seville , Granada , Canada 1963.

البحوث اللغوية والأدبية





الطبري النحوي الكوفي من خلال تفسيره

الدكتور احمد خطاب العمر
قسم اللغة العربية


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تمهيد :

لم يذكر مؤرخو النحو كتب التفسير من مصادره ، مع ان بعضها يحتوي على كثير من الاحكام النحوية ، والمصطلحات والخلافات وخاصة الكتب القديمة منها ، كتفسير الطبري* (جامع البيان في تأويل آي القرآن) الذي اخترناه مادة لدراستنا هذه ، وقد تنبهت الى ذلك حينما كنت اعمل في تحقيق كتاب (القطع والائتناف لابي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ) إذ كان ينقل عنه في مواضع عديدة احكاماً كثيرة في النحو ، واستشهد بكثير من شواهد الشعر منه، ولما عدت استقري تلك المواضع ، ظهر لي ان الكتاب غني بهذا، وأنه ينبغي الا يهمله دارسو النحو ، وخاصة المذهب الكوفي ، لانني بعد دراسته حكمت بأنه قد يكون مصدراً مهماً من مصادرهم على قلتها ، لانه يحتوي على كثير من آرائهم ومصطلحاتهم ، وأورد كثيراً من طرق مناقشاتهم وحججهم اضافة الى ان فيه ما يقرب من سبعين مسألة خلافية ، يذكر فيها حجج علماء المذهبين ، وان الكتاب اشتهر وعرفه الناس ، وفضلوه على كثير من الكتب، في زمن ثعلب والمبرد، جاء في رواية لياقوت عن ابي بكر بن كامل قال : «أملى علينا كتاب التفسير مائة وخمسين آية ، ثم خرج ذلك الى آخر القرآن ، فقرأه علينا وذلك سنة (٢٧٠هـ) واشتهر الكتاب وارتفع ذكره ،

---

*هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري ولد آخر سنة اربع وعشرين ومائتين ، وقيل اول سنة خمس وعشرين بآمل بطبرستان ورحل لطلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة: أي سنة ست وثلاثين ومائتين ، وقيل بل هو ابن عشرين سنة ، أخذ مختلف العلوم في كثير من مدن العراق وفي بيروت ومصر والشام والحجاز ، ورجع إلى بغداد ، فاستوطن فيها إلى ان مات سنة عشر وثلاثمائة .

ترجمته في كثيرمن كتب التراجم ، ولكن ينظر انباه الرواة ٣ / ٨٩ وهامشه وهو غير أبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري . ينظر ميزان الاعتدال ٤٩٩/٣ .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وابو العباس محمد بن يزيد المبرد يحييان، ولاهل الاعراب والمعاني معقلان ، وكان أيضاً في الوقت غيرهما ، مثل ابي جعفر الرستمي ، وابي الحسن بن كيسان ، والمفضل بن سلمة، والجعد وابي اسحاق الزجاج ، وغيرهم من النحويين من فرسان هذا اللسان ، وحمل هذا الكتاب مشرقاً ومغرباً ، وقرأه كل من كان في وقته من العلماء ، وكلٌ فضّله وقدّمه » (١) .

والكتاب وان كان خاصاً بتفسير القرآن – كما قلنا – فهو يشتمل على كثير من العلوم ، ومنها علوم العربية من لغة وصرف ونحو ، وأنه تفرد عن غيره من كتب التفسير في أنه كان يورد الآية فيذكر ما فيها من تفسير، فاذا اقتضى أن ينبه على ما فيها من اعراب واختلاف استقرىء آراء النحويين : بصريين وكوفيين، وعلل لكل منها ثم صوب ورجح ، وكان في تعليلاته يميل الى الكوفيين فهو سجل مهم لآرائهم ، وسجل أيضاً لكثير من المسائل الخلافية ، لانه تقدم زمناً على غيره في ذكره هذا العدد منها ، وان كتب الخلاف التي الفها العلماء في زمانه ، لم يصل الينا منها شيء ، مما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة في دراسة تاريخ تلك الخلافات ، وانه يكشف عن كثير من الأسس التي بني المذهب الكوفي عليها .

مذهبه النحوي :

لايستطيع المتتبع لآراء الطبري النحوية أن يجد تبايناً كبيراً بينها وبين ما يراه الكوفيون في المسألة الواحدة ، ولم يخرج عن الخطوط العامة لمذهبهم الذي نلخصه بما يأتي(٢) :

١ – كانوا يعتدون بالمثال الواحد او يعممون الظاهرة الفردية، فهم قد توسعوا في القياس .

---

(١) معجم الادباء ٦/٣٩؛

(٢) ينظر مدرسة الكوفة النحوية ص ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٧٦ – ٣٧٩ ، والمدارس النحوية ص ١٥٨ – ١٦٠.

٢ - كانوا يغيرون الاصول لتكون وفق الامثلة المستعملة المسموعة .
٣ - جعلوا النقل والرواية مصدر القواعد الاول .
٤ - مضوا يتوسعون في الاحتجاج بالقراءات .

وأول مايعيننا على تأكيد هذا الميل. أنه تتلمذ على ثعلب. فقد ذكر عنه انه قال : « قرأ علي أبو جعفر الطبري شعر الشعراء قبل أن يكثر الناس عندي بمدة طويلة » (١) وهو الذي نعته بأنه من حذاق الكوفيين . نقل ياقوت ذلك فقال « قال أبو بكر بن المجاهد(ت ٣٢٤هـ) قال لي ابو العباس يوماً: من بقي عندكم في الجانب الشرقي ببغداد من النحويين؟ فقلت: مابقي أحد مات الشيوخ فقال: حتى خلا جانبكم؟ قلت: نعم الا أن يكون الطبري الفقيه، فقال لي ابن جرير؟ قلت : نعم. قال: ذاك من حذاق الكوفيين. قال أبو بكر وهذا من أبي العباس كثير لانه كان شديد النفس . شرس الاخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق في عمله» (٢) اضافة إلى ذلك فانه نقل عن الكسائي في مواضع من الكتاب كثيرة . وعن الفراء كذلك وقد كان يقول أحياناً في رواية شيء عنه قال أصحابنا عن الفراء»(٣) .

أما اذا مانقل مسألة خلافية فكان يستعرض رأيي البصريين والكوفيين فيها، ثم يرجح وكان كثيراً ما يميل الى الكوفيين في ذلك : قال مثلا في قوله تعالى« ان ربك هو اعلم من يضل عن سبيله » « الانعام/١١٧) بعض نحويي البصرة موضعه خفض بنية الباء .. وقال بعض نحويي الكوفة : موضع رفع . لانه بمعنى : أي ، والرافع له(يضل) ولما رجح قال:« والصواب من القول في ذلك أنه رفع بـ « يضل » وهو في معنى : أي، وغير معلوم في كلام العرب اسم مخفوض بغير خافض» (٤)

---

(١) معجم الادباء ٦/٤٢٨.
(٢) معجم الادباء ٦/٤٢٨.
(٣) تفسير الطبري ٣١٢/٧.
(٤) تفسير الطبري ١٠/٨.

وقال في « واختار موسى قومه سبعين رجلا » (الاعراف / ١٥٥) قال بعض نحويي البصرة : معناه واختار موسى من قومه سبعين رجـلا ، ثـم جاء بشواهدهم فيها ، وقال بعض نحويي الكوفة : أنما استجيز وقوع الفعل عليهم اذا طرحت «من» لانه مأخوذ من قولك هؤلاء خير القوم ، وخير من القوم ، فاذا جازت الاضافة مكان « من » ولم يتغير المعنى استجازوا ان يقولوا : اخترتكم رجلا واخترت منكم رجلا. وجاء بشواهدهم ايضا ، ولما رجح قال : وهذا القول اولى عندي في ذلك بالصواب ، لدلالة الاختيار على طلب « من » التي بمعنى التبعيض، ومن شأن العرب ان تحذف من حشو الكلام اذا عرف موضعه(١)إلى جانب ميله هذا إلى ارائهم، نراه يتشدد في قبول رأى البصريين ويتعصب عليهم ، وينعتهم باقسى النعوت كقوله فيهم : « زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة(٢)و«هذا قول اذا تدبره متدبر علم ان بعضه مفسد بعضا»(٣)

ثم انه يتابعهم في استشهاداتهم باقوال العرب شعرا او نثرا مما سيلحظه القارىء خلال البحث وخاصة ماكان ذكره الفراء في كتابه،وكذلك شأنه في القياس وبعد ان عرض لرأي البصريين والكوفيين في قوله تعالى : « الا أن تكون تجارة » « البقرة/٢٨٢» مثلا قال : «والذي قال من حكينا قوله من البصريين غير خطأ في العربية غير ان الذي قلنا بكلام العرب اشبه، وفي المعنى اصح »(٤) ، وفي تعليقه على قوله تعالى : « ان كل نفس لما عليها حافظ » (الطارق/٤) خير دليل على اتباعه طريقتهم في القياس . فقد نقل ان التخفيف في « لما » هو الكلام المعروف من كلام العرب .

(١) تفسير الطبري ٧٤/٩.
(٢) تفسير الطبري ١٩٥/١
(٣) تفسير الطبري ٢١٩/١.
(٤) تفسير الطبري ١٣٣/٣.

وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب، والفراء كان يقول: لانعرف جهة التثقيل في ذلك، ونرى انها لغة في هذيل، فان كان صحيحاً ماذكر الفراء : أنها لغة هذيل، فالقراءة بها جائزة صحيحة، وان كان الاختيار ايضاً اذا صح ذلك عندنا القراءة الاخرى وهي التخفيف لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. (١).

وفي كتابه نصوص تدل على أنه يقيس على لغات العرب، من غير أن يخطئ لغة منها، فرأيه في القياس اذن كرأي الكوفيين فيه، ونراه يتبعهم ايضاً عندما يتعرض لقراءة آية ، فاذا كان فيها قراءتان ذكرهما من غير أن يخطئ واحدة منها، وفي الكتاب مواضع كثيرة من هذا قال في قوله: «قل العفو»(البقرة/٢١٩) قرئت رفعاً ونصباً، ثم قال: « فبأي القراءتين قرئ ذلك عندي صواب لتقارب معنييها مع استفاضة القراءة بكل واحدة منهما، غير أن أعجب القراءتين اليَّ– وان كان الامر كذلك–قراءة من قرأ بالنصب لأن من قرأ به من القراء أكثر، وهو أعرف» (٢) وفي « لقد تقطع بينكم» (الانعام/٩٤) قرئ «بينكم» نصباً ورفعاً، فقال : « والصواب من القول عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان بأتفاق المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب(٣) وفي « وأن هذا صراطي» (الانعام/١٥٣) ذكر انها قرئت– أي ان– بالكسر والفتح، ثم قال فيها: « والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما قراءتان مستفيضتان في قراء الامصار وعوام المسلمين، فبأي القراءتين قرأ القارئ فهو مصيب الحق في قراءته(٤)وفي قوله «يُحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ»(الحج/٢٣)

---

(١) تفسير الطبري ١٤٢/٣٠.

(٢) تفسير الطبري ٣٦٨/٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٨٩/٧.

(٤) تفسير الطبري ٨٩/٨.

ذكر أن « لؤلؤ » قرئت نصباً وخفضاً ، ثم قال : « والقول في ذلك عندي انهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكل واحدة منها علماء من القراء، متفقتا المعنى صحيحتا المخرج في العربية، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب » (١) .

والدليل الاخر على انه يميل الى الكوفيين في آرائهم النحوية ، ما نقله في تفسيره من مسائل كثيرة . كان للبصريين فيها رأيٌ يخالف رأيَ الكوفيين وعندما يرجح ، كان ترجيحه مع الكوفيين في ذلك منها :

١.الكوفيون يجوزون نيابة بعض الحروف عن بعض(٢)،وكذلك اورد الطبري كثيراً من تلك الحروف ، وقال بنيابتها ، كما جاء في قوله تعالى : « ولأصلبنكم في جذوع النخل» (طه / ٧١) ان «في» توضع موضع «على» ، و «على» في موضع « في » في كل واحدة منهما تعاقب صاحبتها في الكلام (٣) ولما نقل تأويل الكوفيين لقوله تعالى «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» (الاعراف / ١٦) قال : المعنى لاقعدن لهم على طريقهم او في طريقهم (٤) مما يدل على أنهم أجازوا هنا ان يكون «على» بمعنى «في » وكما قال في قوله تعالى : «عيناً يشرب بها عباد الله » (الدهر / ٦) الباء بمعنى «من » (٥) .

٢.نقل المبرد (٦) : ان الكوفيين يرون أن «الواو» تكون زائدة نحو «حتى أذا جاءوها وفتحت ابوابها» و«فلما اسلما وتله للجبين » وكذلك قال الطبري في قوله تعالى : «واقترب الوعد الحق» (الانبياء / ٩٧) الواو مقحمة ومعنى الكلام : حتّى أذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق . وذلك نظير قوله : «فلما أسلما وتله للجبين وناديناه» ، معناه : ناديناه بغير واو كما قال امرؤالقيس :

---

(١) تفسير الطبري ١٣٦/١٧ .
(٢) مدرسة الكوفة ص ٢٨٤ .
(٣) تفسير الطبري ١٢٠/٧ .
(٤) تفسير الطبري ١٣٥/٨ .
(٥) تفسير الطبري ٢٠٧/٢٩ .
(٦) المقتضب ١٨٠/٢ وينظر الانصاف ص ٤٥٦ .

فلما أجزنا ساحة الحـي وانتحى بنا بطن خبت في حقاف عقنقل

يريد : فلما أجزنا ساحة الحي انتحى (١) .

٣.ويقول الكوفيون : أنه قد يكون للحرف الواحد معان (٢) وكذلك قال الطبري كما في قوله تعالى«أو كصيّب من السماء» (البقرة / ١٩) وفي قوله: « أو اشد قسوة » (البقرة / ٧٤) وفي« وأنا أو أياكم »(سبأ / ٢٤) . « فأو » تأتي بمعنى الشك ، وقيل : بمعنى الواو(٣)

٤.ويسمي الكوفيون لام الابتداء لام اليمين (٤) وكذلك أوردها الطبري بهذه التسمية قال في قوله تعالى : «لما آتيتكم من كتاب»(آل عمران / ٨١) قال بعض نحويي البصرة «اللام» التي في «لما» في اول الكلام لام الابتداء نحو قول القائل : لزيد أفضل منك .. وخطأ بعض نحويي الكوفيين ذلك، وقال : اللام التي تدخل في اوائل الجزاء لاتجاب بـ(ما) ولا (لا) ، فلا يقال : لمن قام لاتتبعه ، ولا لمن قـام ما أحسن ... ثم قال : «فصارت اللام الاولى يميناً اذ تلقيت بجواب اليمين (٥) ونقل في قوله تعالى : «ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم »(المؤمن / ١٠) قول البصريين أنها لام الابتداء ومثله في الاعراب يقال : لزيد افضل من عمرو .. قال آخر من الكوفيين : هذه لام اليمين ... ثم قال : «واولى الاقوال في ذلك بالصواب من قال : دخلت لتؤذن أن ما بعدها أئتناف وانها لام اليمين » (٦) .

٥. قال الكوفيون : يجوز اضافة الشيء الى نفسه (٧) ، اما الطبري فقد نقل عنهم

---

(١) تفسير الطبري ٩٢/١٧.
(٢) الانصاف ص ٤٧٨، همع الهوامع ٣٦/٢.
(٣) تفسير الطبري ٤٩/١، ٣٦٢، ٩٤/٢٢.
(٤) مدرسة الكوفة ص ٢٨٤.
(٥) تفسير الطبري ٣٣٠/٣.
(٦) تفسير الطبري ٤٧/٢٤.
(٧) الانصاف ص ٤٣٦.

قولين وذلك في قوله تعالى : «أو آتيكم بشهاب قبس» (النمل/٧) الاول : أنه أذا أضفت الشهاب الى القبس ، فهو بمنزلة قوله : «ولدار الآخرة» ، مما يضاف الى نفسه أذا اختلف اسما ولفظا توهما بالتالي أنه غير الاول .. والآخر أنه ان كان الشهاب هو القبس لم تجز الاضافة لان القبس نعت ، ولا يضاف الاسم الى نعته الا في قليل من الكلام ، فقال : «والصواب من القول في ذلك: ان الشهاب اذا أريد به أنه غير القبس، فالقراءة فيه بالاضافة لان معنى الكلام حينئذ مابيّنا من أنه شعلة قبس ... وأذا أريد بالشهاب أنه هو القبس أو أنه نعت له فالصواب في «الشهاب» التنوين . لان الصحيح في كلام العرب ترك اضافة الاسم الى نعته والى نفسه (١) .

٦. «مالك» تعمل عمل كان وظن، فقد نقل عن الكوفيين انهم قالوا بذلك حينما استعرض قوله : «فما لكم في المنافقين فئتين» (النساء/٨٨) قال البصريون: منصوب على الحال ، والكوفيون : على فعل «مالك» كما ينصب كان وظن لانهن نواقص في المعنى ثم قال «وهذا القول أولى بالصواب في ذلك لانه المطلوب في قول القائل: مالك قائماً التيام ، فهو في مذهب كان وأخواتها وظن وصواحباتها (٢) .

مصطلحاته النحوية :

ولم يخرج الطبري في استعماله المصطلحات النحوية عما استعمله الكوفيون منها وكذلك تابعهم في عباراتهم . ولكن قد يعترض معترض في أنه قد أورد مصطلحات البصريين أيضاً فكيف نحكم أنه يميل الى الكوفيين في هذا . والجواب عن هذا أن الطبري كان يذكرها منفردة ، ثم ينص على قول البصريين فيها أوقد يذكرها منسوبة الى الكوفيين ويورد مايقابلها من الفاظ البصريين ثم يرجح رأي الكوفيين ويؤيده والمصطلح يأتي ضمن ذلك الرأي.فعبارته واضحة **توحي انه لايستعمل الا مااستعملوه . ومن السهل على القارىء أن يكشف**

(١) تفسير الطبري ١٣٣/١٩.

(٢) تفسير الطبري ١٩٥/٥.

هذا . فانه كان يتابع شيوخ الكوفيين الكسائي والفراء وثعلب بذلك كما سنعرضه في هذه الصفحات

١. المردود :

ورد هذا المصطلح في كتاب الطبري كثيراً ومعناه مختلف في كثير من المواضيع عن غيرها فقد يقصد به البدل او العطف وهو الاكثر. واورده النحويون الكوفيون قبله كالكسائي والفراء فهو عند الكسائي بمعنى البدل . فقد نقل الزجاجي عنه أنه أورده في المناقشة التي جرت بينه وبين الاصمعي في قول الشاعر :

ام كيف ينفع ما تعطي العلوق بـه   رئمان أنف أذا ماضن باللبن

قال الاصمعي : رئمان أنف بالنصب فقال الكسائي : اسكت ما أنت وذاك يجوز بالرفع والنصب والخفض . اما الرفع فعلى الرد على «ما» لانها في موضع رفع ب«ينفع» والنصب بـ « تعطى » والخفض على الرد على الهاء التي في به (١) واورده الفراء كثيراً في كتابه أيضاً من ذلك قوله في «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا» (البقرة/٩٠) ان يكفروا في موضع خفض ورفع . واما الخفض فان ترده على الهاء التي في « به » على التكرير (٢) وفي «انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون» (البقرة / ١٢٠) ليست بجواب لقوله «وما يعلمان » انما هي مردودة على قوله « يعلمون الناس السحر فيتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » . (٣) وفي «قل قتال فيه كبير وصد» (البقرة / ٢١٧) ففي الصد وجهان : ان شئت جعلته مردوداً على الكبير ....)(٤) وفي «مانراك أتبعك الا الذين هم أراذلنا» (هود / ٢٧) فقال : رفعت الاراذل بالاتباع وقد وقع الفعل في اول الكلام على اسمه ولا تكاد العرب تجعل المردود بـ «الا

(١) امالي الزجاجي ص ٥١ .
(٢) معاني القرآن ح١ص٥٦ والتكرير من مصطلحه بمعنى البدل كما سنرى
(٣) معاني القرآن ح١ ص٦٤ .
(٤) معاني القرآن ح ١ ص١٤١.

الا على المبتدأ لاعلى راجع ذكره وهو جائز(١) وفي «فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة» (محمد / ١٨) وان مردوده على الساعة (٢) .

فهو في استعمال الكسائي بمعنى البدل وعند الفراء بمعنى البدل والعطف. واذا ما استقرينا المواضع التي جاء الطبري بهذا المصطلح فيها رأيناه لايخرج عن أحد المعنيين .

وقد يؤكد هذا فيذكر معها العطف أو قد يتركه ومعنى البدلية فيه واضحة. ولكن يمكن أن نقول انه عنى به التبعية التي تدخل تحت معانيها هذه المصطلحات. ففي آية القتال التي أسلفنا ذكرها قال في رفع « صد » : قال بعض نحويي الكوفيين في رفعه وجهان ان يكون مردودا على الكبير يريد القتال فيه كبير وصد عن سبيل الله .... ثم قال ... والبصريون يقولون معطوف على الكبير(٣) وفي «يوم ينفخ في الصور ففزع» (النمل / ٨٧) جعل فزع وهي فعل مردودة على «ينفخ» وهي يفعل)..(٤) وفي قوله «ويقطعون ما امر الله به ان يوصل» (البقرة ٢٧/) «ان» التي مع «يوصل» في محل خفض بمعنى ردها على موضع الهاء التي في « به »وكان معنى الكلام ويقطعون الذي امر الله بان يوصل (٥) وفي قوله «قد كان لكم اية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله» (آل عمران / ١٣) رفعت فئة كقول الشاعر :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلّت

وكذلك تفعل العرب في كل مكرر على نظير له قد تقدمه اذا كان المكرر

---

(١) المصدر نفسه ج٢ ص ١٠

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ٦١

(٣) تفسير الطبري ٣٥٢/٢

(٤) تفسير الطبري ٦٥/٢٤

(٥) تفسير الطبري ١٨٤/١

خبراً ترده على اعراب الاول مرة .... وقد جرّ ذلك كله فخفض على الرد على اول الكلام كأنه يعني اذا خفض ذلك.فكنت كذى رجلين كذى رجل صحيحة ورجل سقيمة وكذلك الخفض في قوله «فئة» جائز الردعلى قوله : «في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله » (١) وفي «بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين» (آل عمران/١٦٩) لوكان «فرحون» رفعا بالرد على قوله : «بل احياء عند ربهم فرحون» كان جائزا (٢) وفي «مالكم من اله غيره» (الاعراف / ٥٩) ترفع «غير» رد الها على موضع«من»لان موضعها رفع لو نزعت من الكلام لكان الكلام رفعا وقيل «مالكم اله غيره الله » (٣) وفي قوله «واسروا النجوى الذين ظلموا» (الانبياء /٣) الخفض تابع للناس في قوله «اقترب للناس حسابهم» الرفع على الرد على الاسماء الذين في قوله (واسروا النجوى) من ذكر الناس كما قيل (ثم عموا وصموا كثير منهم) (٤) وفيما تقدم معنى العطف والبدل واضح ولكن مع هذا نجده يذكر النعت والصفة مع لفظ المردود ففي قوله « الذي جعل لكم الارض فراشا» (البقرة/٢٢) مردود على الذي الاول في قوله «اعبدوا ربكم الذي خلقكم» (البقرة /٢١) وهما جميعاً من نعت ربكم (٥) وفي قوله «في لوح محفوظ» (البروج / ٢٢) محفوظ رفعا ردا على القرآن على انه من نعته وصفته (٦) . فالمردود من لفظ الكوفيين لم نجد البصريين يستعملونه والمقصود به البدل أوالعطف وقد يدخل النعت فيه ولعل اشارته إلى ان العرب توثر رد الاسماء على الاسماء مثلها والافعال على الافعال (٧) تعيننا على تحديد مصطلح المردود بهذه المعاني التي نقلنا نماذج من أستعمال الكوفيين له.

---

(١) تفسير الطبري ١٩٤/٣

(٢) تفسير الطبري ١٧٤/٤

(٣) تفسير الطبري ٢١٣/٨

(٤) تفسير الطبري ٢/١٧

(٥) تفسير الطبري ١٦١/١

(٦) تفسير الطبري ١٢٠/٣٠

(٧) تفسير الطبري ٢٠٣/٣٠

٢. النسق : الغالب أنه من مصطلحاتهم والمراد به : العطف بحروف العطف أستعمله الفراء وثعلب (١) واورده السيوطي (٢) على أنه من مصطلحات الكوفيين . اما الطبري فقد أورده في مواضع كثيرة من كتابه وعلى سبيل المثال قال في قوله «ويكفر عنكم من سيئاتكم» (البقرة / ٢٧١) فان قال قائل : وكيف اخترت الجزم على النسق على موضع الفاء . وتركت اختيار نسقه على ما بعد الفاء وقد علمت ان الافصح من الكلام في النسق على جواب الجزاء (٣) وفي «ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى» (البقرة ٢٨٢/) نصب نسقاً عليه وان كان في معنى الجزاء وقال : ونسق الثاني . اعني : فتذكر على «تضل»(٤) وفي قوله «او لتعودن في ملتنا» (ابراهيم /١٣) :أو «بمعنى» الا «اذا كانت «او» حرف نسق (٥) وفي «ثم ليقضوا تفثهم» (الحج/٢٩) وكذلك يفعلون في لام الامر اذا كان قبلها حرف من حروف النسق كالواو والفاء وثم (٦).

٣. الترجمة او التكرير :

أورده الفراء كثيراً وثعلب (٧) على أنه يعني البدل وذكر السيوطي (٨) :أنهم يسمونه التبيين ونقل عن ابن كيسان : التكرير اما الترجمة عنده فهي عطف البيان وكذلك ذكره الاشموني وهما عند الطبري بمعنى البدل وعطف البيان فذكره بلفظ الترجمة مرة وبلفظ الترجمة والتكرير مرة أخرى قال في قوله عز وجل «ومن الذين استحق عليهم الاوليان» (المائدة/١٠٧) الذين قرأوا «الأولين» فانهم قصدوا في معناه

---

(١) معاني القرآن ٧٥/١، ٢٣٥و٤١٦/٢ وفي مجالس ثعلب ١٤٦/١

(٢) همع الهوامع ١٢٨/٢ وينظر مدرسة الكوفة ص ٣١٥.

(٣) تفسير الطبري ٩٣/٣

(٤) تفسير الطبري ١٢٤/٢، ١٢٥

(٥) تفسير الطبري ١٩١/١٣

(٦) تفسير الطبري ١٥٢/١٧

(٧) معاني القرآن ٥٦٤،٧/١، ٣،١٧٨/٢/٥ وفي مجالس ثعلب ٢٠/١

(٨) همع الهوامع ١٢١/٢، ١٢٥ وشرح الاشموني ص ٤٣٥

الى الترجمة به عن «الذين» فأخرجوا ذلك على وجه الجمع»(١) وقال في «كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم» (الانعام/٥٤) يجعلون «ان» منصوبة على الترجمة بها عن الرحمة (٢) وفي «جهنم يصلونها» (ابراهيم/٢٩) ترجم عن دار البوار(٣) (الآية/٢٨) وفي «وقطعناهم أثنتي عشرة اسباطاً أمماً »(الاعراف/ ١٦٠) والصواب من القول في ذلك عندى ان الاثنتي عشرة أنثت لتأنيث القطعة ومعنى الكلام وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ترجم عن «القطع» بالاسباط وغير جائز ان تكون الاسباط مفسرة عن الاثنتي عشرة .. (٤) وفي « ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال »(النحل/١١٦)خفض «الكذب» فيجعل ترجمة عن «ما» التي في «لما» فتخفضه بما تخفض به «ما» وقد حكي عن بعضهم «الكذب» فيجعل من صفة الألسنة.(٥)وفي «وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم اصحاب النار»(المؤمن/٦) قال بعض نحويي البصرة معناه :لأنهم أو بأنهم .. وقال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك أن قوله أنهم «ترجمة عن الكلمة بمعنى :وكذلك حق عليهم عذاب النار الذي وعد الله اهل الكفر به »(٦) وفي « أن يكفروا» (البقرة/٩٠)أما الخفض في «أن» فان ترده على الهاء التي في «به» على التكرير على كلامين .. أما الرفع فان يكون مكررا على موضع «ما» التي تلي «بئس» وتكون «ان» مترجمه عن « بئسما » (٧) وقال في «ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه » (البقرة/١١٤) أن نصب بفقد الخامض .وتعلق الفعل بها . والوجه الآخر أن يكون معناه ومن أظلم ممن منع أن يذكر أسم الله في مساجده فتكون «ان» حينئذ في موضع

(١) تفسير الطبري ١١٩/٧
(٢) تفسير الطبري ٢٠٨/٧
(٣) تفسير الطبري ٢١٩/١٣
(٤) المصدر نفسه ٨٨/٩
(٥) تفسير الطبري ١٨٩/٢٤
(٦) تفسير الطبري ٤٣/٢٤
(٧) تفسير الطبري ٤١٤/١

م/١٦/أ

نصب بتكرير على موضع المساجد وردا عليه (١) وفي «مافعلوه الا قليل منهم» (النساء/٦٩) بعض نحويي البصرة يزعم ان رفع «قليل» لأنه جعل بدلا من الأسماء المضمرة في قوله «مافعلوه» لأن الفعل لهم. وقال بعض نحويي الكوفة إنما رفع على نية التكرير كأن معناه : مافعلوه مافعله الا قليل منهم .. اذ كان الفعل مشغولا بما في كناية من قد جرى ذكره ثم استثنى منهم القليل (٢) وفي قول الشاعر :

ذريني إن امرك لن يطاعا   وما ألفتيني حلمي مضاعا

فالحلم منصوب بـ «ألفتيني» (٣) على التكرير . وفي قوله تعالى «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع» (الكهف/٣٠) ترك الكلام الاول واعتمد على الثانية بنيه التكرير كما قيل : «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» بمعنى عن قتال فيه على التكرير وكما قال الشاعر :

ان الخليفة ان الله سربله   سربال ملك به ترجى الخواتيم (٤)

وفي قوله «طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة» (طه/١ ـ ٣) بعض نحويي البصرة يقول : قال الا تذكرة بدلا من قوله : لتشقى . وكان بعض نحويي الكوفة يقول نصبت على قوله : ماأنزلنا الا تذكرة وكان بعضهم ينكر قول القائل : نصبت بدلا وذلك غير جائز لأن «لتشقى» في الجحد والا تذكرة في التحقيق ولكنه تكرير (٥) وفي «ائن ذكرتم» (يس/٦٩) أدخلت الف الاستفهام على «أن» التي هي حرف جزاء في قول بعض نحويي البصرة وفي قول بعض الكوفيين منوي به التكرير كأنه قيل : قالوا طائركم معكم ان ذكرتم فمعكم طائركم فحذف الجواب اكتفاء بدلالة الكلام عليه (٦)

---

(١) تفسير الطبري ١/٤٩٨

(٢) تفسير الطبري ٥/١٦١

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٩٦

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٤٢

(٥) تفسير الطبري ١٧/١٩٧

(٦) تفسير الطبري ٢٢/١٢٨

٤. **القطع**: مصطلح استعمله الكوفيون بمعنى الحال فقد جاء في معاني القرآن للفراء في قوله «هدى» نصب «هدى» على القطع لأن «هدى» نكرة اتصلت بمعرفة قد تم خبرها فنصبها لأن النكرة لاتكون دليلاً على معرفة وان شئت «هدى» على القطع من الهاء التي في «فيه» كأنك قلت: لاشك فيه هادياً (١) وقال في «إنها لأحدى الكبر، نذيراً للبشر» (المدثر/٣٥) نصبه على القطع وعلى الحال واذا حسن فيه المدح او الذم فهو وجه ثالث (٢) وفي «كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً» (فصلت/٣) تنصب قرآناً على الفعل اى فصلت آياته كذلك ويكون نصباً على القطع لأن الكلام تام عند قوله: آياته (٣) فهو في هذه النصوص بمعنى الحال وذكره ثعلب مع الحال ايضاً (٤) ثم نجد الطبري يكثر من استعماله مقصوداً به الحال فيستعمله مستقلا او يذكر معه لفظ الحال قال في قوله «هدى للمتقين» (البقرة/٢) وقوله «هدى» يحتمل أوجهاً من المعاني: أحدها ان يكون نصباً لمعنى القطع من الكتاب لأنه نكرة والكتاب معرفة فيكون التأويل حينئذ: ألم ذلك الكتاب هادياً، وقد يحتمل أن يكون نصباً على القطع من راجع الكتاب الذي في «فيه» فيكون معنى ذلك حينئذ: الم الذي لاريب فيه هادياً، وقد يحتمل أن يكون نصباً على هذين الوجهين أعني على وجه القطع من الهاء التي في «فيه» وفي «الكتاب» (٥) وفي «متاعاً بالمعروف» (البقرة/٢٣٦) وقد يجوز أن يكون «متاعاً» منصوباً قطعاً من القدر من قوله: «على الموسع قدره» لأن «المتاع» نكرة والقدر معرفة. وفي قوله «حقاً على المحسنين» وهو من نعت المعروف والمعروف معرفة.

---

(١) معاني القرآن ١/١٢

(٢) المصدر نفسه ١/٣١٩

(٣) المصدر نفسه ٣/١١

(٤) مجالس ثعلب ١/١٤٦

(٥) تفسير الطبري ١/٩٨

والحق نكرة نصب على القطع منه(١) وفي « قائماًبالقسط » (آل عمران /١٨) نصب قائماً على القطع وكان بعض نحويي أهل البصرة يزعم أنه حال من «هو» في قوله «لااله الا هو» وكان بعض نحويي الكوفة يزعم أنه حال من اسم الله . والصواب عندي قول من جعله قطعاً على أنه من نعت اسم الله (٢) وفي « للذي ببكة مباركاً» (آل عمران/٩٦) والمبارك نكرة فنصب على القطع منه في قول بعضهم وعلى الحال في قول بعضهم (٣) .

وفي « سلقوكم بألسنة حداد اشحة » (الاحزاب/١٩) نصب « اشحة » على الحال من ذكر الاسم الذي في قوله « لاياتون الناس » وقد يحتمل أن يكون قطعاً من قوله «قد يعلم الله المعوقين منكم » .. ويجوز ان يكون قطعاً من قوله «هلم الينا أشحة» (٤).

وفي «إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين» (المؤمن/١٨) قال بعض نحويي البصرة انتصابه على الحال ... وكان بعض نحويي الكوفة يقول : الالف واللام بدل من الاضافة كأنه قال : اذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كظمهم وقال آخر منهم : هو نصب على القطع من المعنى الذي يرجع من ذكرهم في القلوب والحناجر. والمعنى اذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين. قال: فان شئت جعلت قطعه من الهاء التي في قوله :«وأنذرهم»قال والأول أجود في العربية (٥) .

٥. الصرف (٦) : عرف الفراء الصرف فقال هو أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أول حادثة لاتستقيم اعادتها على ماعطف عليها ، فاذا كان ذلك كذلك فهو الصرف كقول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله . . . . . .

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٥٣٨

(٢) تفسير الطبري ٣/٢١٠

(٣) تفسير الطبري ٤/١٠

(٤) تفسير الطبري ٢١/١٤٠

(٥) تفسير الطبري ٢٤/٥٣

(٦) يقول الدكتور المخزومي فيه : أنه النصب على الخلاف. ينظر مدرسة الكوفة ص ٢٩٥.

ألا ترى أنه لايجوز إعادة «لا»في تأتي مثله. فلذلك سمي صرفاً اذا كان معطوفاً ولم يستقم ان يعاد فيه الحادث الذي قبله (١) وفي موضع آخر قال :
والصرف ان يجتمع الفعلان بالواو أو«ثم»او«الفاء»أو «أو»وفي اوله جحد او استفهام. ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعاً أو يكرر في العطف فذلك الصرف(٢) ثم ياتي الطبري ليقول فيه والصرف ان يجتمع فعلان ببعض حروف النسق وفي اوله مالا يحسن اعادته ، مع حرف النسق فينصب الذي بعد حرف العطف على الصرف لأنه مصروف عن معنى الاول ،ولكن يكون مع جحد او استفهام اونهي أول الكلام(٢) وهكذا كان يورده في مواضعه. قال في «ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق» (البقرة ٤٢) « وتكتموا » منصوباً لانصرافه عن معنى قوله «ولاتلبسوا» اذكان «ولاتلبسوا»نهياً وقوله«ولاتكتموا الحق»خبرامعطوفاً عليه غير جائز ان يعاد عليه ماعمل في قوله«تلبسوا»من الحرف الجازم ذلك هو المعنى الذي يسميه النحويون: صرفاً ونظير ذلك في المعنى والاعراب قول الشاعر

لاتنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

معناه لاتنه عن خلق وأنت تاتي مثله . فكان الاول نهياً والثاني خبراً فنصب الخبر اذ عطف على غير شكله (٤)

وقال في قوله«وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك» (الاعراف/١٢٧) نصب يذرك على الصرف لاعلى العطف به على قوله «ليفسدوا» .

والثاني ليفسدوا في الارض وليذرك والهتك ، على العطف. والوجه الأول اولى الوجهين بالصواب وهو أن يكون نصب ويذرك على الصرف وفي قراءة أبي كعب وقد تركوك ان يصدوك وآلهتك دلاله واضحة على أن نصب ذلك على الصرف(٥).

---

(١) معاني القرآن ٣٣/١
(٢) معاني القرآن ٢٣٥/١
(٣) تفسير انطبري ١٠٨/٤
(٤) تفسير الطبري ٢٥٥/١
(٥) تفسير الطبري ٢٤/٩ هذه ليست قراءة على الحقيقة وانما هي من باب تأويل القرآن والنحاس يسميها : قراءة على التفسير. ينظر القطع والائتناف ص ١٨٦، ٣٨٤، ٤٦٧.

٦. التفسير: وهو التمييز استعمله الفراء وثعلب(١)وذكره السيوطي(٢)؛(التبيين والمبين والتفسير)اولكنه لم ينسبه إلى احد واورده الطبري في كتابه أيضا قال، في «حسن اولئك رفيقاً» (النساء/٦٩) أما نصب الرفيق فان أهل العربية مختلفون فيه فكان بعض نحويي البصرة يرى أنه منصوب على الحال ويقول هو كقول الرجل : كرم زيد رجلا ويعدل به معنى : نعم الرجل ويقول ان « نعم » لاتقع الا على اسم فيه الف ولام او على نكرة وكان بعض نحويي الكوفة يرى أنه منصوب على التفسير وينكر أن يكون حالا ويستشهد على ذلك بان العرب تقول : كرم زيد من رجل وقال : وقد حكي عن العرب : نعمّم رجالا فدل على ان ذلك نظير قوله وحسنّم رفقاء وهذا القول اولى بالصواب للعلة التي ذكرنا لقائليه (٣) .

وفي «اوعدل ذلك صياماً» (المائدة/٩٥) نصب صياماً على التفسير كما يقال : عندى ملء زق سمنا وقدر رطل عسلا (٤) وفي «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا» (الانعام/١١٥) الصدق والعدل نصبا على التفسير للكلمة كما يقال عندى عشرون درهماً (٥) وفي «فالله خير حافظاً» (يونس/٦٤) على توجيه الحافظ إلى تفسير للخير كما يقال هو خير رجلا (٦) وفي «ملء الارض ذهباً» (آل عمران/٩١) نصب ذهبا على الخروج من المقدار الذي قبله والتفسير منه وهو قوله «ملء الارض» كقول القائل: عندي قدر زق . سمناً وقدر رطل عسلا . فالعسل مبين به ماذكر من المقدار وهو نكرة منصوبة على التفسير للمقدار والخروج منه (٧)

---

(١) معاني القرآن ١/١٧، ٧٩، ٢٢٥، ٢/١٥٩ ومجالس ثعلب ١/٢٦، و٢/٣٧٦
(٢) جمع الهوامع ١/٢٥ ....
(٣) تفسير الطبري ٥/١٦٣
(٤) تفسير الطبري ٧/٥٧
(٥) تفسير الطبري ٨/٩
(٦) تفسير الطبري ٣/٣٤٦
(٧) تفسير الطبري ٣/٣٤٦

وفي «كبرت كلمة» (الكهف/٥) نصب كلمة بمعنى كبرت كلمتهم التي قالوها كلمة على التفسير كما يقال: نعم رجلا عمرو (١) وفي (فله جزاء الحسنى) (الكهف / ٨٨) جزاء منصوب على المصدر بمعنى يجازيهم جزاء الجنة ويكون الجزاء نصباً على التفسير (٢) وفي «كبر مقتاً عند الله» (الصف/ ٣) قال بعض نحويي البصرة اى كبر مقتاً لانه كبر كقوله: بئس رجلا أخوك والصواب من القول عندي ان قوله مقتاً منصوب على التفسير كقول القائل: كبر قولا هذا القول (٣).

وذكر العدد فقال: العدد كلمة يفسر به. فيقال: رأيت قوماً أربعة فلما جاء باثنين وقد اكتفى بالعدد منه لأنهم يقولون: عندى درهم ودرهمان يكفي فاذا قالوا: دراهم قالوا: ثلاثة (٤)

٧. الكناية والمكنى: المراد بهما الضمائر استعملهما الفراء وثعلب (٥) وذكرها السيوطي انهما من مصطلحاتهم (٦) وهذا هو استعمال الطبري له قال: في «فسواهن» (البقرة/ ٢٩) أخرج مكنيهن مخرج مكني الجميع (٧) وفي «ثم انتم هؤلاء» (البقرة/٨٦) أنتم كناية عن المخاطبين (٨) وفي «فأنه نزله على قلبك» (البقرة/٩٧) مضافاً إلى كناية نفس المخبر عن نفسه (٩) «وفي ياحسرتا» (الزمر/ ٥٦) الالف في ياحسرتا هي كناية المتكلم وانما اريد ياحسرتي ولكن العرب تحول

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١٩٣

(٢) تفسير الطبري ١٦/١٣

(٣) تفسير الطبري ٢٨/٨٥

(٤) تفسير الطبري ١/١٧٣

(٥) معاني القرآن ١/٥٠، ١٠٤، ٢٣١ ومجالس ثعلب ١/٣:

(٦) همع الهوامع ١/٥٦، وينظر مدرسة الكوفة ص ٣١٤

(٧) تفسير الطبري ١/١٩٢

(٨) تفسير الطبري ١/٣٩٦

(٩) تفسير الطبري ١/٤٣٦

الياء التي في كناية اسم المتكلم في الاستغاثة الفا فتقول يا ياويلتا (١) وفي «أتينا طائعين» (فصلت / ١١) أن النون والالف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله «أتينا» ، نظير كناية أسماءالمخبرين من الرجال عن أنفسهم (٢) وفي «فهل عسيتم» (محمد/٢٢) بكسر السين وفتح الياء ولو كان صوابا كسرها اذا اتصل بها مكني جاءت بالكسر مع غير المكني وفي اجماعهم على فتحها مع الاسم الظاهر الدليل الواضح على أنها كذلك مع المكني . (٣)

٨ . **العماد والمجهول :** يقول الدكتور مهدي المخزومي أن العماد من عبارات الكوفيين يقابله عند البصريين الفصل (٤) أما المجهول فيقابله عندهم ضمير الشأن والقصة والحديث (٥) وهذا الأخير ذكره السيوطي (٦) أما الطبري فقد ذكره مرة باسم العماد فيتفق مع الفراء كما قال في «وهو محرم عليكم اخراجهم» (البقرة/٨٥) هو أن يكون كناية عن الاخراج الذي تقدم والتأويل الثاني أن يكون عماداً (٧) وهذا الذي استعمله الفراء (٨) وكما في قوله «فاذا هي شاخصة أبصارُ الذين كفروا» (الانبياء/٩٧) هي تكون عماداً (٩) وكذلك سماه الفراء (١٠) وفي (قل هو الله أحد) هو عماد بمنزلة الهاء في قوله « انه أنا الله العزيز الحكيم » (١١) وكذلك قاله الفراء (١٢) ويورد العماد والمجهول معاً

(١) تفسير الطبري ١٨/٢٤
(٢) تفسير الطبري ٩٩/٢٤
(٣) تفسير الطبري ٥٧/٢٦
(٤) مدرسة الكوفة ص ٣١٢
(٥) مدرسة الكوفة ص ٣١١
(٦) همع الهوامع ٦٧/١-٦٨
(٧) تفسير الطبري ٤٠٠/١
(٨) معاني القرآن ٥١/١
(٩) تفسير القرآن ٩٢/١٧
(١٠) معاني القرآن ٢١٢/٢
(١١) تفسير الطبري ٣٤٣/٣٠
(١٢) معاني القرآن ٢٩٩/٣

مع أن الفراء لم يذكر فيها إلا العماد كما في قوله« إنه أنا الله» (النمل /٩) الهاء هي عماد وهو اسم لايظهر في قول أهل العربية وكان بعض نحويي الكوفة يقول : هي الهاء المجهولة ومعناها أن الامر والشأن أنا الله (١)

ويذكرهما أحياناً بالعماد والمجهول معاً أو بالمجهول أو مستقلين مع أن الفراء لم يذكرهما، كما في قوله «أنه كان فريق من عبادي» (المؤمنون/١٠٩)هذه الهاء التي في قوله «انه» هي الهاء التي يسميها أهل العربية المجهولة (٢) وفي«يابني انها أن تك مثقال حبة»(لقمان/١٦)قال بعض نحويي البصرة ذلك كناية عن المعصية والخطيئة وقال بعض نحويي الكوفة وهذه الهاء عماد ...

ومن نصب جعل في«تكن»اسماً مضمراً مجهولا مثل الهاء التي في قوله«أنها أن تك»(٣)

٩. التقريب :

المراد به اسم الاشارة ذكره الفراء وثعلب(٤) واورده السيوطي(٥) ايضاً وستعمله الطبري كما في قوله تعالى«هؤلاء بناتي هن اطهر لكم»(هود/٧٨) فقال : وانما لم يجز أن يقع الفعل ههنا لان التقريب رد كلام فلم يجتمعا لأنه يتناقض لأن ذلك اخبار عن معهود وهذا اخبار عن ابتداء ما هو فيه : ها أنذا حاضر (٦) وفي«ها أنتم هؤلاء تدعون»(محمد/٣٨) أدخلت ها في موضعين لان العرب أذا أرادت التقريب جعلت المكني بين«ها» وبين «ذا» فقالت : ها أنت ذا قائماً لان التقريب جواب الكلام فربما اعادت«ها»مع «ذا» وربما أجترأت بالاولى . وقد حذفت الثانية ولا يقدمون انتم قبل«ها» لان «ها» جواب فلا تقرب بها بعد الكلمة (٧)

---

(١) تفسير الطبري ١٣٥/١٩ وينظر معاني القرآن ٢٨٧/٢
(٢) تفسير الطبري ٦٠/١٨
(٣) تفسير الطبري ٧١/٢١
(٤) معاني القرآن ١٢/١ ، ٢٣٢ ومجالس ثعلب ٤٣/١-٣٥٩/٢
(٥) همع الهوامع ١١١/١ قال: هذا وهذه سموهما تقريبا .
(٦) تفسير الطبري ١٢/ ١٥.
(٧) تفسير الطبري ٦٥/٢٦

١٠. حروف الصلة والحشو :

يقابلها عند البصريين حروف الزيادة (١) واستعملها الفراء (٢) واوردها الطبري في مواضع كثيرة منها في قوله « ولا الضالين » كان بعض أهل البصرة يزعم أن « لا » مع « الضالين » أدخلت تتميماً للكلام والمعنى الغاؤها ويستشهد على قوله ذلك بقول العجاج :

في بئر لاحور سرى وما شعر ....

ويتأوله بمعنى : في بئر جور سرى. أي في بئر هلكة وان «لا» بمعنى الالغاء والصلة(٣) وفي «فاما يأتينكم مني هدى» (البقرة / ٣٨) ما التي بمعنى توكيد الكلام التي يسميها أهل العربية صلة وحشوا (٤)

١١. حروف الصفات :

أوردها الفراء كثيراً في كتابه (٥) ويقصد بها حروف الخفض والظروف فقد قال في قوله (لاتجزي نفس عن نفس شيئاً» (البقرة / ٤٨) قال : يجوز لاتجزي نفس عن نفس شيئاً وتضمر الصفة ثم تظهرها فتقول : لاتجزي فيه وكان الكسائي لايجيز اضمار الصفة في الصلات (٦) وكذلك في قوله «لافيها غول» (الصافات / ٤٧) لو قلت لاغول فيها كان رفعا ونصباً . فاذا حلت بين لا وبين القول بلام او بغيرها من الصفات لم يكن الا الرفع (٧) وذكره باسم المحال ايضا (٨) . اما الطبري فقد جاء بالمعنيين أيضاً فقال في « واذا خلوا الى شياطينهم » (البقرة/ ١٤) بمعنى الى. شياطينهم أي مع شياطينهم . أذ كانت حروف الصفات يعاقب بعضها بعضاً ... (٩) «وفي عليكم أنفسكم»(المائدة/ ١٠٥) نصب أنفسكم بالاغراء، والعرب تغرى من الصفات بعليك وعندك ودونك واليك (١٠) وفي «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» (المائدة / ١١٩) رجح نصب اليوم فيكون حينئذ منصوباً على الوقت والصفة . بمعنى هذا الامر في يوم ينفع . واولى

---

(١) مدرسة الكوفة ص ٣١٥
(٢) معاني القرآن ٢٤٤/١ ، ١٣٧/٣ ، ١٨٩
(٣) تفسير الطبري ٨١/١
(٤) تفسير الطبري ٢٤٦/١
(٥) معاني القرآن ١٢/١ ، ٣٨٥/٢
(٦) معاني القرآن ٣٢/١
(٧) معاني القرآن ٣٨٥/٢
(٨) معاني القرآن ٦٢/١
(٩) تفسير الطبري ١٣١/١
(١٠) تفسير الطبري ٩٤/٧

القرائتين في ذلك عندي بالصواب: هذا يوم ينفع بنصب اليوم على انه منصوب على الوقت والصفة(١) وفي «فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب» (هود / ٧١) اسحاق وان كان مخفوضاً فانه بمعنى المنصوب بعمل «بشرنا فيه ..» وأما الكوفي فانه قرأ بتأويل الخفض فيما ذكر عنه غير أنه نصبه لأنه لايجرى وقد أنكر ذلك أهل العلم من العربية من أجل دخول الصفة بين حرف العطف والاسم (٢) وقال في الشاهد:

قـلـت أجيبـي عاشـقـاً بحبكـم مكلـف

فمكلف من نعت عاشق وقد رفعه بحرف الصفة وهو الباء (٣)

١٢.مالم يسم فاعله :

وهو نائب الفاعل فقد أورده الفراء وثعلب (٤) واورده الطبري في كتابه كثيراً قال في «الا ان يخافا» (البقرة/٢٢٩) المتروك الذي لم يسم فاعله. والخوف عامل فيما لم يسم فاعله (٥)وفي «سيكتب ما قالوا» (آل عمران/١٨١) يقرأ على مذهب ما لم يسم فاعله، أو على مذهب ما يسمى فاعله (٦) وفي «فاما الذين سعدوا» (هود / ١٠٨) قرئت «سعدوا» فيما لم يسم فاعله وانت لاتقول في الخبر فيما سمي فاعله: سعده الله، بل انما تقول: أسعده الله وقيل: ذلك نظير قولهم: مجنون ومحبوب فيما لم يسم فاعله فاذا سموا فاعله قيل اجنه الله وأحبه (٧) .

١٣.الاجراء وترك الاجراء :

وهو الصرف والمنع من الصرف ذكره الفراء (٨) ، وأورده الطبري

(١) تفسير الطبري ١٤٠/٧
(٢) تفسير الطبري ٧٦/١٢
(٣) تفسير الطبري ١٠٠/٢٠
(٤) معاني القرآن ٢٥٧/١ ومجالس ثعلب ٢٠٨/١
(٥) تفسير الطبري ٤٦١/٢
(٦) تفسير الطبري ١٩٦/٤
(٧) تفسير الطبري ١١٩/١٢
وسماها السيوطي حروف الاضافة فينظر همع الهوامع ١٩/٢ ، والمخزومي : المحل والصفة ينظر مدرسة الكوفة ص ٣٠٩
(٨) معاني القرآن ٢٥٥/١ ، ٣٤٠ ، ٢١٧/٣

كثيراً قال في :«اهبطوا مصر » (البقرة/٦١)وقيل مصراً. وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالاجراء والتنوين .. غير انه أجراها ونونها اتباعاً منه خط المصحف لأن في المصحف ألفا ثابتة في مصر ، فيكون سبيل قراءته بالاجراء والتنوين سبيل من قرأ «قواريراً قواريرا من فضة»(الانسان/١٦)(١)وفي قوله«مثنى وثلاث ورباع» (النساء/٣) ترك اجراؤهن لانهن معدولات عن اثنين وثلاث واربع كما عدل عمر عن عامر وزفر عن زافر فترك اجراؤهن وكذلك: أحاد وثناء وموحد ومثنى ومثلث ومربع لايجري ذلك كله للعلة التي ذكرت من العدول عن وجوهه. (٢)

وفي« ويوم حنين»(التوبة/٢٥) يوم حنين أجرى لأنه مذكر وقد ترك اجراؤه ويراد به أن يجعل اسماً للبلدة التي هو بها ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الابطال(٣)

وفي «أنك بالواد المقدس طوى»(طه/١٢) من أراد أن يجعله اسماً للوادي. فانه انما ينونه لأنه اسم ذكر لا مؤنث وان لام الفعل منه ياء فزاده ذلك خفة فأجراه، كما قال تعالى«ويوم حنين»اذ كان« حنين»اسم واد والوادي مذكر(٤) وفي «جئتك من سبأ بنبأ يقين»(النمل/ ٢٢) قرآه المدينة والكوفة بالاجراء المعنى أنه رجل اسمه سبأ وقرأه بعض أهل مكة والبصرة بترك الاجراء على أنه أسم قبيلة (٥) وفي«وأما ثمود فهديناهم »(فصلت/١٧) برفع«ثمود»وترك الأجراء على أنها اسم للامة التي تعرف بذلك . وأما الاعشى فأنه ذكر أنه كان لايجريه في هذا الموضع خاصة...... والصواب من القراءة في ذلك عندنا الرفع وترك الاجراء. أما الرفع فلما وصفت. وأما ترك الاجراء فلانه أسم للامة (٦)

---

(١) تفسير الطبري ٣١٣/١
(٢) تفسير الطبري ٢٣٧/٤ ، ١١٤/٢٢
(٣) تفسير الطبري ٩٩/١٠
(٤) تفسير الطبري ١٤٧/١٦
(٥) تفسير الطبري ١٤٧/١٩
(٦) تفسير الطبري ١٠٤/٢٤

١٤. الجحد:

وهو النفي كما يقوله البصريون(١) وهو من مصطلحات الفراء وثعلب (٢) وهو مااستعمله الطبري كما في «غير المغضوب» أن «غير» بمعنى الجحد،(٣) وفي «ولا الضالين» ولايعطف بها الا على جحد قد تقدمها (٤) وفي «بلى من كسب سيئة» (البقرة/٨١) بلى اقرار في كل كلام في اوله جحد كما أن نعم اقرار في الاستفهام الذي لاجحد فيه (٥) . وفي «ألم تعلم ان الله ملك السموات والارض» (البقرة/١٠٧) الم تعلم معناه : اماعلمت وهو حرف جحد أدخل عليه حرف استفهام (٦) .

وقال في قول الشاعر :

ما ان ندبت لشيء تكرهه .

فأدخل على (ما) وهي حرف جحد ، «ان» وهي ايضاً حرف جحد ، لاختلاف اللفظ بهما (٧) .

وقال أيضاً في قول الشاعر :

ما أن رأيت ولا سمعت به　　كاليوم طالي أينق جرب

فجمع بين «ما» وبين «ان» وهما جحدان ، يجزىء أحدهما عن الآخر (٨) اضافة الى العبارات التي أكثر الكوفيون من استعمالها كتوهم في المبتدأ والخبر أنهما ، ترافعا كقوله في «ألم ذلك الكتاب» «ذلك» مرفوع بـ«ألم» و«ألم» «به» (٩) وفي «ماذا ينفقون» (البقرة/٢١٥) يرفع «ما» بـ«ذا» و «ذا» بـ«ما» (١٠) وفي «والذي أنزل اليك من ربك الحق» (الرعد/١) «الذي» مرفوع بـ«الحق» و«الحق» به (١١) . وأخيراً هو مثلهم يسمي حروف الجر بحروف الخفض .

---

(١) مدرسة الكوفة ص ٣٠٩
(٢) معاني القرآن ٨/١، ٥٢/٣، ١٣٧، ٢٠٧، مجالس ثعلب ١٠١/١
(٣) تفسير الطبري ٧٩/١
(٤) تفسير الطبري ٨١/١
(٥) تفسير الطبري ٣٨٤/١
(٦) تفسير الطبري ٤٨١/١
(٧) تفسير الطبري ١٢/٢٥ .
(٨) تفسير الطبري ٢١٦/٢٦
(٩) تفسير الطبري ٩٨/١ .
(١٠) تفسير الطبري ٣٦٨/٢ .
(١١) تفسير الطبري ٩٢/١٣ .

الخاتمة :

هذا هو مذهب الطبري في النحو . درسناه من خلال كتابه «جامع البيان» لأنه لم يخلف كتاباً في النحو يعتمد عليه . وقد ظهر لنا من خلاله أنه نحوي كوفي ، ولاشك في ذلك ، وأكد ثعلب شيخه هذا فقال :

«أنه من حذاق الكوفيين» سار على أسس مذهبهم واستعمل مصطلحاتهم وترجيحاتهم وتعليلاتهم ، وسار على طريقتهم في الاخذ بالقراءات من غير أن يضعف الاخرى منها ، واستنبط الاحكام على قياسهم . الا أنه كان يقول : «قال بعض نحويي البصرة أو قال بعض نحويي الكوفة» ولكنه لم يسم واحداً منهما ويصعب على الدارس أن يعين المقصود من ذلك ، لكثرة الآراء التي نقلها والمناقشات ، وخاصة ما كان منها في مسائل الخلافات النحوية . على قلة من ألف فيها من معاصريه . فجعلنا اشاراته تلك ممثلة لكل مذهب ينقل عنه ، لاننا بمقارنتنا مانقله مع ما نقله غيره ثبت صحة مانقله عن المذهبيين .

ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة بين مصادر النحو الكوفي : أنه تميز عن غيره منها وخاصة كتاب «معاني القرآن للفراء» أنه يأتي بالآية فيذكر ما فيها من أحكام نحوية ، فاذا ما اختلف المذهبان فيها ، ذكر ذلك الخلاف وذكر تعليل وحجة علماء كل مذهب فيها ، ويذكر أحياناً الخلافات اللغوية والاحكام الصرفية في كلماتها . ولكن لايعني ذلك أنه لم يكن له رأي ليس عليه المذهبان فقد كان أحياناً يستقل في ترجيحاته وتأويلاته فيختار رأياً وسطاً كما قال في قوله تعالى «ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة» (آل عمران/ ١١٣) «وعرض رأى المذهبين فيها» : «وقد توهم جماعة من نحويي الكوفة والبصرة والمتقدمين منهم في صناعتهم» (١) مما يجعل لآرائه تلك اثرها في هذا العلم ولكتابه قيمة كبرى بين مصادر النحو الكوفي .

---

(١) تفسير الطبري ٥١/٤ ..

المصادر والمراجع

امالي الزجاجي ط١ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة / ١٣٨٢

أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٥٠

الانصاف في مسائل الخلاف — ابو البركات الانباري ط٤

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٨٠ / ١٩٦١

جامع البيان في تأويل آي القرآن الطبري ط٢ القاهرة ١٣٧٣ / ١٩٥٤

شرح الاشموني — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط١مصر ١٣٧٥ / ١٩٥٥

القطع والائتناف — لابي جعفر النحاس (بتحقيقنا) على الآلة الكاتبة / ١٩٧٦

مجالس ثعلب جا١ط٣ مصر ١٩٦٩

مجالس ثعلب ج٢ ط٢ مصر ١٩٦٠

مدرسة الكوفة ط٢ د. مهدي المخزومي ١٣٧٧ / ١٩٥٨

المقتضب — المبرد تحقيق عبد الخالق عضيمة مصر ١٣٨٨

معاني القرآن — للفراء من ١٩٥٥ — ١٩٥٨

معجم الادباء — ياقوت الحموي نسخة مصورة عن نسخة مصر ١٩٢٤

ميزان الاعتدال — الذهبي مصر ١٩٦٣ / ١٣٨٢

صراع الحياة والموت في شعر امرئ القيس

الدكتور
عمر محمد الطالب





كان لقسوة البيئة الصحراوية ونضوب مصادر العيش فيها وقلة مواردها الاقتصادية تأثير كبير على احساس العربي بالموت (١) فهو يتوقعه دائماً، اذا ما حيل بينه وبين الحصول على هذه الموارد.

---

(١) الموت المعنوي او الموت في الحياة نوع آخر من الموت. وهو يصيب الانسان عند بلوغه درجة اليأس من الحياة بسبب الكوارث المستمرة التي تصيبه. او بسبب عدم قدرته على تحقيق مايريد لفقدان التوافق بين عالمه الداخلي(النفسي) وعالمه الخارجي (المجتمع). فحرمان الانسان مما يسعى اليه في حياته يعد موتا معنويا. لذا يهرب الانسان من هذا الواقع الذي لم يحقق له مااراد إلى الذكريات او الاحلام. وهو هروب من الحياة إلى الماضي الذي يتوهم بانه اسعده. او المستقبل الذي يأمل بأن يحقق له مايصبو اليه قبل ان يصيبه الموت المادي الذي يهدد حياته. ومن هنا ينشأ القلق عند الانسان في الصراع المحتوم بين الحياة والموت. وتعتقد ميلاني كلاين« بأن الخوف من الموت هو اصل كل القلق الذي يصيب المرء في حياته واساس كل الافكار والتصرفات العدائية المشاكسة لدى البشر... امايو تيليش فيقول: ان الانسان فان... وان الشعور بعدم الأمن هو دليل الموت» فخري الدباغ. الموت اختياراً ص ١٢ وعدم الشعور بالأمن هو الذي جابه امرأ القيس في حياته فصارع الموت المتمثل فيه سواء أكان مجتمعياً (الرحيل، الاطلال) ام حياتنا (التغيير والزوال في الحياة والطبيعة) ام كونيا(الاندثار والموت) ام شخصياً(كونه مفركا تكرهه النساء، اصابته في كرامته لعدم قدرته على الأخذ بثأر والده، مطاردة المنذر بن ماء السماء له). يقول رانك: بأن الخوف من الموت« هو قلق من التأخر وفقدان الفردية، انه خوف الفرد من ان يضيع في المجموع او خوفه من ان يفقد استقلاله الفردي ويعود إلى حالة الاعتماد على الغير، فرويد، القلق ص ٣٤. وقد كان الخوف من فقدان الحرية والاستقلال هو الخوف من الموت الذي هدد امرأ القيس طوال حياته: (ملك ابيه) في صباه و(طلب الثأر) في شبابه. وقد ثار امرؤ القيس عن طريق فنه الشعري ضد الموت المعنوي الذي لاحقه في حياته. يقول مالرو« الفن هو اعنف ثورة للانسان ضد مصيره» الموت اختياراً ص١٥. كما ثار في حياته ضد الموت المحتمل في جميع انواع القيود التي تعيق الانسان من تحقيق استقلاله وحريته. فكانت حياته صراعاً ضد الموت المعنوي. ويصدق عليه شعر ديلان توماس« لاتتمهل ولاتسر الهوينى في هذه الليلة الطيبة بل ثرثر ضد موت ذلك الضياء» الموت اختياراً ص ١٣.

وأدت حياة العرب الاجتماعية المبنية على وحدة القبيلة إلى وجود التناحر بصورة مستديمة بين هذه القبائل للحصول على الموارد الاقتصادية الأساسية بالنسبة لهم (الماء والمرعى).

وقد قادهم هذا التناحر إلى ايجاد مصدر مهم آخر للرزق ألا وهو السلب عن طريق الغزو .

وهكذا عاش الانسان الجاهلي حياة قلقة غير مستقرة فإذا اطمأن إلى وجود الماء والكلأ لايأمن غزو قبيلة معادية . ومن هنا تمثَّل له الموت دائما، واصبح رفيقه حتى انه لم يعد يخشاه .واكبر دليل على ذلك حياة الغزو التي كانوا يحيونها. وقد تفاخر الشعراء بأنفسهم وقومهم لانهم يزجون بانفسهم في غمار الموت دون تردد أو خوف.

ونجد تأكيدا على ذلك في قول الشعراء ولنكتفي بقول عنترة :

يجرون هاما فلقتهـا سيوفنا تزيل منهن اللحى والمسائح (١)

وقوله :ـــ

وانا المنية حين تشتجر القنا والطعن مني سابق الآجال (٢)

ومن احساسهم هذا بمصاحبة الموت ، تولد احساسهم بقصر الحياة ودنو الأجل إذ ((ان احدهم ماكان يأمن الموت في يوم من أيام حياته بل خطره ماثل ابدا)) (٣)

ان الاحساس بالموت احساس باطني ومختف في نفس كل انسان فإذا ما أبان عن نفسه في الاوقات العصيبة فهو في الغالب يختفي وراء الممارسات الحياتية ، الشعور بالموت لايمكن أن يكون شعوراً واعياً كالشعور بالحياة بل هو شعور غاية في الخفاء يظهر احياناً في ظروف خاصة متخذاً من من الأقنعة والرموز مرة أُخرى مايضمن اخفاءه وان نمّ عليه .... ان قليلا من البحـث ليكشف لنا رموز الحياة والمـوت في كـل جوانب حيـاتنا حيـث تداخلـت في نسيج تأريخنا واساطيرنا ، في شعرنا وتصويرنا

(٢،١) ديوان عنترة ص ٧٥،٣٣٦

(٣) محمد النويهي، الشعر الجاهلي ص ٤٢٠ .

في احلامنا وحديثنا بل انه لمن المحتمل ان تسيطر هذه الرموز بطرق عدة بارعة على حياة كل فرد » (١) ولما كان الجاهلي لايؤمن بوجود حياة غير الحياة الدنيا ، نستثني ... النصارى واليهود والاحناف ، ولما كانت الحياة الدنيا قصيرة ومهددة دائماً بالموت حاول الجاهلي ان يغترف من لذات الحياة اقصى ما يستطيع ، وان يتمتع بها قصارى جهده ، أنه ليس اكثر من مغامر في هذه الحياة مادام يقتنص لذاتها اقتناصاً ، اذاً لم لايجابه الموت بكل ما يستطيع من قوة ليغنم من مصارعة الموت ، الحياة التي يبتغي ؟ ! وهكذا كانت مصارعة الموت سمة الكرامة والرجولة وكان بتحديه الموت يستنزف طاقات الحياة، فكما يسعى الجاهلي الى نهب متع الحياة ، يصبر على قسوة الحياة ويتحمل شظفها ، ولكنه لايستكين ابداً. فهو دائم الحركة في دأب ونشاط للتخلص من هذا الشظف والوصول الى المتعة وان كان ذلك الوصول عن طريق القسوة (الغزو) «فليجعلوها أذن حياة كاملة ... يحيون بعنف كل لحظة من لحظاتها ويتفعلون بكل ما يستطيعون من نشاطها وحركتها قبل ان يخمدهم سكون الموت الابدى ... لذلك كان شعرهم شعر هذه الحياة بكل حدودها وكل امكانياتها الفانية فمن وراء هذا الشعر يكمن احساسهم بالزمن ومأساة انقضائه احساساً قوياً بليغاً عظيم المرارة . تجلى هذا الاحساس في مختلف موضوعاتهم الشعرية في وصفهم لرحيل المحبوبة وانفصام الصداقات ، وتبدد الشمل وخراب الديار التي كانت آهلة ... ومصارع الحيوان الوحشي » . (٢)

مسألة الحياة والموت في شعر امريء القيس:

يتمثل صراع الحياة والموت في شعر امريءُ القيس عبر بنائه الشعري كله، في الوقوف على الاطلال ،مشاهد التحمل ، الارتحال ، الناقة،المرأة ، الطبيعة، الحصان والصيد .

---

(١) عز الدين اسماعيل، روح العصر، ص ٢١.

(٢) محمد النهويهي، الشعر الجاهلي، ص ٤٢٦، ص ٤٢٨.

الوقوف على الاطلال :

يبدأ امرؤ القيس قصائده بالوقوف على الاطلال وخاصة في القصائد الطوال لأنه في المقطعات الصغيرة يباشر الموضوع راساً.

ونحن نرى ان الوقوف على الاطلال هو منطلق الشاعر للتعبير عن نفسه وقلقه تجاه مجتمعه الذي ألف الترحال، وتجاه الحياة التي الفت التغيير والزوال وتجاه الكون الذي ألف الاندثار والموت. فهو في وقفته تلك على الاطلال يستجلي موقفه من المجهول الذي يترقب البشر في غدوهم ورواحهم. وهو لايجد سبيلا لتحقيق ذلك الا بتأكيد وجوده تجاه الطلل. ويتحقق له ذلك عن طريق تداعي الذكريات التي يوحيها الطلل. وهي في الغالب ذكريات بهيجة سعيدة، لتقابل الحزن الذي انبعث في نفسه بسبب مضي تلك السعادة الغامرة: وتتمثل ذكريات السعادة لدى الشاعر بالحب الذي لفه مع فتاة الحي فتنبعث ذكريات الحب قوية جياشة في نفس الشاعر وتنطلق شعرا نسبياً لتؤكد وجوده تجاه الموت والفناء المتمثل في الطلل. ان الذكريات الحية وسط الاثار الميتة ماهي الا وسيلة من وسائل الصراع بين الحياة والموت في شعر الوقوف على الاطلال. يقول فالتر براونه« ان النسيب وان اختلفت انواعه فهو اختيار القضاء والفناء والتناهي... لقد ملأ التفكير في الوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته غير أنه لم يكن تعبيرا صادرا عن تشاؤم وانما كان حافزاً يحفزه على الاقبال على الحياة(١)» ويؤكد براونه رأيه قائلا« يصور لنا الشاعر احساسه بتلك العناصر الكونية الثلاثة اختيار القضاء والفناء والتناهي موقفه منها (٢)»

ونتلمس تأكيداً لما قلناه في مطالع القصائد التالية حيث وقف امرؤ القيس على الطلل وقفة الحياة المتمثلة في كيانه تجاه الموت المتمثل في الطلل:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول وحومل(٣)

الاعم صباحاً ايها الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي(٤)

لمن طلل أبصرته فشجاني ... كخط زبور في عسيب يمان (٥)

(١-٢) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣١

(٣-٥) شرح الديوان، ١٢٤، ١٣٨، ١٣٣، ١٨٦،

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان(١)
ألما على الربع القديم بعسعسا كأني أنادي أو أكلم أخرسا(٢)
لمن الديار غشيتها بسحام فعمايتين فهضب ذي أقدام (٣)
يادار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل(٤)
الا انعم صباحاً ايها الربع وانطق وحدث حديث الركب ان شئت واصدق(٥)

اذا تتبعنا شعر الوقوف على الاطلال عند امرىء القيس. وامعنا النظر فيه جيداً، لانجد في حقيقتة الأمر مقدمات يبدأ بها الشاعر قصيدته ليخلص الى موضوعه كما يقول أبي قتيبة عن شعر الوقوف على الأطلال «سمعت بعض أهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الاطلال والدمن والآثار ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحو القلوب ويصرف اليه الوجوه فاذا استوثق الاصغاء اليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير ... وقرّ عنده مانال من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة »(٦) . واذا كان قوله هذا يصح على ضياع قصائد المديح فهو لايصدق بالنسبة لشعر امرىء القيس. فهو يقف من الاطلال موقف الكائن الحي من الأحياء الاخرى : فهو دائم الخطاب لها والحديث معها بل هو دائم التحية لها

ـ الا انعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي
ـ الا أنعم صباحاً أيها الربع وانطق وحدث حديث الركب ان شئت واصدق

وهو أذ يحدثها ينتظر منها الاجابة :

يادار ماويه بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل

وهو يجزع أذا لم تجبه :

(١-٥) شرح الديوان، ١٢٤، ١٧٥، ١٥١، ١١٧
(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص٢٠

ألما على الربع القديم بعسعسا   كأني انادي أذ أكلم أخرسا

ان الوقوف على الاطلال ليس محاولة أدكار فقط بل هو «نوع من التشخيص امتازت به عند وقوفه لديها . أنه ليس مجرد عابر بها يستوحي فيها ذكريات الماضي وحباخبا او رحل ولكنه حديث مع صورة الماضي ومحاولة لانطاقه بما تختزنه من ذكريات وما تحتويه من لواعج وأحزان (١) . وقد عد ابن رشيق القيرواني المقدمة الطللية مفتاح القصيدة « لا ألى الاغراض الاخرى بل الى نفس الشاعر الذي ينطلق من نفسه الى الآخرين بعد ذلك في الاغراض الاخرى التي يتطرق اليها حيث يقول للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل الى اللهو والنساء وان ذلك استدراج الى ما بعده. ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والاشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ، والتشوق بحنين الابل ولمع البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يحلون بها » (٢) وهو ما يشيع في قصائد امرىء القيس ويقول الحاتمي في هذا المعنى «من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح وذم متصلا به غير منفصل عنه ، فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم عاهة تتخون(٣)محاسنة وتعفيّ معالم جماله . ووجدت حذاقّ الشعراء وارباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان » (٤)

---

(١) سيد حنفي، الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية ص ٦٤-٦٥

(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة حـ١ ص ٢٢٥

(٣) تتخون محاسنه: تنقصها

(٤) ابن رشيق القيرواني : العمدة ص١١٧

ولمحجة الاحسان» (١).

ويلاحظ من قراءة النصوص الثلاثةان كلا من ابن رشيق والحاتمي يخالفان مقولة ابن قتيبة ويذهب شكري فيصل هذا المذهب ويوافق ابن رشيق في رأيه فيقول» وابن رشيق في هذا يخالف ابن قتيبة فهو لايجعل من شعر الغزل (٢) وسيلة لاغراض اخرى يتلمسها الشاعر عند السامع وانما يجعل منه وسيلة الشاعر الى نفسه(٣)». وهذا رأينا ايضاً وعلى الاخص في نسيب امرئ القيس.

وقد تأثر (جب) برأي ابن رشيق في تعليل الوقوف على الاطلال،فهو يرى أن الغزل الذي ينبعث في شعر الوقوف على الأطلال عند الشعراء الجاهليين لاتمت إلى الغزل بصلة بقدر ماهي ذكري حب حزينة وادكار للفراق عن المحبوب. ويعتقد جب ان علاقة ذلك بالغزل ضعيفة . لأن الشاعر الجاهلي لم يرد غير التعبير عنذاته والافصاح عن المشاعر التي تعتلج في نفسه. وما معلقة امرئ القيس عنده سوى اعتداد بالنفس يصور منها مغامراته ومالاقاه من زوابع واسفار ووحوش وما اقتنص من صيد (٤) .

ويمضي الباحثون في تأكيد الظاهرة العاطفية في الوقوف على الاطلا ل واعادة الذكريات الحزينة . (٥)

وفي رأينا ان طرح مثل هذا الرأي ليس بالمسألة الهينة ، فقد تواكبت على وجود ظاهرة خلق الوقوف على الاطلال في العصر الجاهلي ظروف بيئية ومادية

(١) ابن رشيق القيرواني. العمدة جـ٢ ص ١١٧

(٢) يرى ابن قتيبة ان « النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد» العمدة جـ٢ ص ١١٧.

(٣) شكري فيصل. تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام. ص ٣٠

(٤) انظر / هاملتون جب. المدخل في الأدب العربي ص ٢١،٢٣،٢٧

(٥) نوري القيسي ، دراسات في الشعر الجاهلي ،ص ٦٦-٦٧ ، ويحيى الجبوري ، الشعر الجاهلي ،ص ١٦٥ . والبهبيتي ،تأريخ الشعر العربي ص ١٠٠ . والكفراوي ، الشعر العربي بين الجمود والتطور ، ص ٢٨ - ٢٩ . وإيليا حاوى ، امرؤ القيس ، ص ١٣١-١٣٢ وآخرون .

وتاريخية وشعورية لتخلق حالة الخوف من المجهول وهو خوف ديني متوارث منذ نشوء الخليقة على سطح هذه الارض الفانية .

إن البيئة الصحراوية تحتم الانتقال وراء الماء والكلأ وبالتالي تترك الخيمة آثارها وتترك شؤون الحياة اليومية العادية آثارها هي الأخرى . فاذا ما مر الانسان الجاهلي بالاطلال القديمة أندفع الادكار في نفسه قوياً يثير الشجن والأسى على الايام الذاهبة ، والايام الذاهبة هي جزء من عمر الانسان فهو يأسى بالدرجة الاولى على انقضاء شطر من عمره يلفعه بالذكريات التي مرت بهذا الشطر من العمر المحدود بزمان ومكان معينين . لذا نجد شاعراً كامرىء القيس يكثر من ذكر الاماكن ، بل ويلجأ الى تحديد جغرافيتها تحديداً كاملا . وفي هذا التحديد الجغرافي يعقد مقارنة بين المكان (الارض) الباقية الصامدة في وجه الزمن (سقط اللوى ، الدخول ، حومل ، توضح ، المقراة ، ذو الخال ، وادى الخزامي ، رأس ، عال ... الخ).

وبين الديار التي زالت وأندثرت آثارها بفعل الرياح والامطار وعادت مرعى للحيوانات المتوحشة (ترى بعر الارام في عرصاتها وقيعانها) .

ديار لسلمى عافيات بذى الخال الح عليها كل أسحم هطّال
وتحسب سلمى لاتزال ترى طــلا من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال (١)

هذا الموقف من طبيعة البيئة الصحراوية يقود الشاعر دائماً الى قضية مادية صرفة هي علاقته بالمرأة واستمتاعه بها استمتاعاً حسياً . ولماذا الاستمتاع الحسي دائماً ؟ لانه فعل أولا والفعل حركة والحركة ضد السكون الذي يمثل الموت وهمود الاشياء ، ثم هو تجديد للحياة ثانية . ومن هنا تنبثق السمات المادية في الفعل لتقابل تلك الحالة المادية الاخرى (الاندثار) بفعل عوامل الطبيعة والزمن .

وهو يتخذ من المرأة الحية في عالم الواقع والحيّة في نفسه وذكرياته ، رمزا لحركة الحياة التي تبدو فاجعة في اتيانها على معالم الحياة ، متمثلا بالطالل . ولكنها

(١) شرح الديوان ، ص ١٣٨.

رغم ذلك منتصرة في إبقائها على الربع والارض المكان من ناحية وإبقائها المرأة المحبوبة حية في واقعها وفي ذكريات الشاعر من ناحية أخرى ، وان كان حنينه إليها يمثل إحساسه بغدر الزمان وبفجيعة الموت .

إن مايحدث هو ظرف تأريخي بحت لسكان الصحراء، هو ليس فعل امريء القيس ومن بعده بل هو فعل الأقدمين ايضاً. لقد عانوا نفس ماعاناه امرؤ القيس، لقد وقف اناس كثيرون قبله على هذه الأطلال، لأنها الحياة في البيئة الصحراوية .

عوجا على الطل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حذام (١)

لماذا بكى امرؤ القيس كما بكى ابن حذام هذا ؟ أعتقد أن سبب البكاء هو الاحساس بالغربة ثم الحنين إلى هذه الأرض (الأم) التي ابتعد عنها وبالتالي ستتصل الأرض الأم بالمرأة ، فهي أم البشر وبالتالي هي صفة الاستقرار والخصب والنماء (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) لقد اقترن الحبيب بالمنزل بصورة لاشعورية لانهما واحد (ديار لسلمى ، وتحسب سلمى لاتزال كعهدنا بوادي الخزامى أو على رأس أو عال) (٢) اقترنت سلمى بالديار وبالمكان .(وحلت سليمى بطن قو و فعرعرا) ارتبطت سليمى ايضاً بالمكان. (ديار لهند والرباب وفرتنى) وكذلك هند والرباب وفرتنى

(قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان   ورسم عفت أياته منذ أزمان

ذكرت بها الحيّ الجميع فهيجت   عقابيل سقمٍ من ضمير وأشجان)(٣)

ويرتبط هنا بالآثار المندرسة جميع الحيّ الذين نأى عنهم امرؤ القيس بعد أن نكب بمقتل أبيه وملاحقة المنذر بن ماء السماء له للنيل منه (٤) .

(١– ٣) شرح الديوان ؛ ص ١٧٦، ١٣٨ ؛ ١٨٤ .

(٤) انظر القصيدة حيث يقول امرؤ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه   فليس على شيء سواه بخزان

فاما تريني في رحالة جابر   على حرج كالقبر تخفق اكفاني

فيارب مكروه كررت وراءه   وعان فككت الغل عنه ففداني

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة   فقاموا جميعاً بين عاث ونشوان

وخرق بعيد قد قطعت بناطه   على ذات لوث سهوة المشي مذعان

ويخلق هذا الظرف التأريخي الشعور بالغربة لدى الشاعر الواقف على أنه لاينكر مايرى من آثار الحيوانات الوحشية ،بل قد تصيبه الوحشة لما يرى : —

ألمّا على الربع القديم بعسعسا كأني أنادي أو أكلم أخرسا

فلماذا هذه الوحشة ؟ ولماذا يحس الشاعر وكأنه ينادي أخرس ؟ أن عدم الرد يذكره بالموت ، ولماذا هذا الربع المندثر قديم بالنسبة له ؟ ألأنه يذكره بالموتى، والموت هو قديم أيضاً .لهذا تمنى أن يتخلص من تلك اللحظة الشعورية التي اقترنت بها الغربة بالموت فصاح بفزع :

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا وجدت مقيلا عندهم ومعرّسا

فلا تنكروني انني أنا ذاكم ليالي حلّ الحيّ غولا فألعسا (١)

فهو يخشى أن ينكره قومه (وهذا لم يحدث بل هو لحظة إحساسه بالوحشة) وعندئذ يستمر في غربته ،والغربة في نظره موت ، أو هي مقترنة بالموت دائما وقد نطق بها لسانه وهو يحتضر (أجارتنا انّا غريبان ههنا) (٢). لذا هو يحلم بالبديل :فلو كان أهل الدار موجودين لوجد لديهم مقيلا ومعرّسا .

فهل هو ثائر على طبيعة الحياة البدوية ، لذا فهو يبكي هذه الآثار تارة، ويشفق على نفسه منها تارة أُخرى ،ويجزع ثالثة ؟ أعتقد ذلك فهو يتحدى حياة الترحال وهو يحتضر وكأنه انتصر على تلك الحياة (وإني مقيم ماأقام عسيب) . لذا هو يحاول ان يحدّث هذه الأطلال (الموت) ويطلب اليها أن تجيبه عن سر الوجود هذا وكأنه (كلكامش) جديد يبحث عن اكسير الحياة : .

ألا انعم صباحا أيها الربع وانطق وحدث حديث الركب إن شئت واصدق(٣)

والشاعر يلمس هذا التناقض في الحياة بين الرهبة المتمثلة بالموت ، وبين الحب المتمثل بالحياة ويدور صراع قوي بين الرهبة والحب. لقد قضت

(١–٣) شرح الديوان ، ص ٩٧ – ٩٨ ، ١١٧، دد

الرهبة على آثار الحبيبة ولكنها لم تمتها فهي مازالت حيّة في نفس الشاعر وما أعادة الذكريات القديمة الا إحياء مستمر لهذا الشيء الجميل المتمثل في الحب ، يقول العقاد :« إن النفس الانسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل . فالجميل هو كل ما حبب الحياة إلى النفس واظهرها لها في المظهر الذي يبسط لها الرجاء فيها ويبعث على الاغتباط بها والجليل كل ماحرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة فالربيع والصباح والنور... كلها جميلة لأنها تنعش الحواس وتذكرها بالحياة . . . والسكون والقفار المخيفة و الاطلال الدارسة ... كلها جميلة لانها تقبض الحواس وتميل بالنفس إلى التضاؤل والضعة أمام رهبة الفناء وعظمة الطبيعة وضخامتها). (١)
لقد انتصر الجميل (الحياة) على الجليل (الموتُ) في مطالع قصائد امري القيس. ان الحب أبقى في نفس الشاعر من الأطلال التي عفى عليها الزمن مهما طال . اما الحب فهو باق لاتؤثر فيه مؤثرات الزمن . وما الذكرى مهما طال العهد عليها الا صورة لبقاء هذا الشيء الجميل (الحب) . وما أن يتأسى الشاعر لمرأى الطلل (الموت) :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطّال

حتى يتفتح الجميل في نفسه وتعود ه الذكريات بأجلى صورها :

ليالي سليمى أذ تريك منصباً وجيداً كجيد الرئم ليس بمعطال (٢)

ولكن فعل الحياة وتجددها أقوى من أي أثر للموت الفناء :

ويارب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثال
يضيء الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت في قناديل ذّبال(٣)

---

(١) عز الدين اسماعيل ،روح العصر ص١٩ .
(٢) منصبا : الثغر المتسق المستوى ، معطال : مجرد من القلائد والحلي.
(٣) ذبال : فتيلة .

اذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها　　تميل عليه هونة غير مجبال (١)
ومثلك بيضاء العوارض طفلة　　لعوب تسيني أذا قمت سربالي(٢)

وهو لايكتفي بتحدي طبيعة الحياة بل يتحدى طبيعة الكون ويطلب الى الموت ان يقف متحدثاً مع أعدائه (وكأنه يريد أن يصيبهم به) وينقل اليهم تهديد الشاعر :

يادار ماوية بالحائل　　فالسهب فالخبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها　　واستعجمت عن منطق السائل
قولا لدودان عبيد العصا　　ما غركم بالاسد الباسل
قد قرّت العينان من مالك　　ومن بني عمرو ومن كاهل
ومن بني غنم بن دوران أذ　　نقذف أعلاهم على السافل (٣)

ان امرأ القيس يحيل تجربته المادية تلك — في الترحال والغربة — الى تجربة شعورية تتحدث من مأساة التغيير في الكون — الحياة التي يعقبها الموت — فكل شيء الى زوال ، لذا فهو يتنكر للموت الذي طمس الآثار كما يطمس آثارها البشر ، فهو عندما يقف على الآثار المندرسة كأنما يقف إزاء الموت :

لمن الديار غشيتها بسحام　　فعمايتين فهضب ذي أقدام
فصفا الاطبط فصاحتين فغاضر　　تمشي النعاج بها مع الأرآم
دار لهند والرباب وفرتنى　　ولميس قبل حوادث الايام
عوجاً على الطلل المحيل لاننا　　نبكي الديار كمابكى ابن حذام(٤)

انه الخوف من المستقبل المجهول ، ورفض للحاضر الاجتماعي — الترحال والنفسي — الغربة ، والكوني — الموت — فلا يجد غير الماضي يطوف في اجوائه ويقلب ذكرياته. ولكن اليس العيش في الماضي نوعا من الموت في الحياة ؟

---

(١) ابتزها : جردها ، مجبال : ليست بفظة ولا غليظة .

(٢) العوارض : صفحتا العنق ، السربال : الثوب ، شرح الديوان ، ص ١٣٨ — ٣٩ .

(٣) شرح الديوان ، ١٥١٠ .

(٤) شرح : الديوان ص ١٧٥ — ١٧٦

أجاب جلال الخياط عن ذلك بقوله « ويعود إلى الماضي ولاشيء غير الماضي كلعبة مارسها الانسان في كل مكان وزمان ليبعد عنه وطأة الحاضر والمستقبل،ليهرب من ذاته ويغذي التزيف الذي يجري في شرايينه ويتخذ شكل ذكريات تلح عليه أن يموت في ظلالها فيتخلص من واقع متعب ومستقبل يتخيله مرعباً ... ولكن الشاعر يدرك أنه يخدع نفسه وأن الحاضر والمستقبل فقدا رونقهما ولم يبق لديه سوى الماضي ... ولكن العيش في الماضي نوع من الموت في الحياة فما العمل؟ غادر امرؤ القيس خدر عنيزة وترك الخمر والصيد وذهب وراء ثار أبيه واراد ايضا أن يثأر لنفسه من واقع حياته فمات على جبل تركي بعد أن طوّف الآفاق ورضي من الغنيمة بالاياب (١) .

ولكننا نرى أن امرأ القيس لم يذكر الماضي ليعيشه فيكون كالحي الميت بل هو وقف من الموت ، موقفاً ايجابياً تماماً . فقد تحدى الموت ـ الطلل ـ بافعال الحركة الكثيرة ليشعر بان الانسان أقوى من الموت . وهذه هي ظاهرة التمرد الكوني عند امرىء القيس . لنأخذ على سبيل المثال مطالع المعلقة ولنحص الالفاظ الدالة على الحياة (قفا ، نبك ، ذكرى ، لم يعف نسجتها ، تسح ، كساها الصبا ، سحق ، تربى ، كأني ، تحلو ، ناقف ، وقوفاً ، يقولون ، لاتهلك ، تجمّل ، دع ، مضى ، أقبل ، وقفت ، ترددت ، سفحتها ، فاضت ، بل) . هذا بالاضافة إلى سخريته الكبيرة من عملية الوقوف على الطلل في قوله : (وهل عند رسم دارس من معول) .مع ذكرة الأماكن التي لم يؤثر عليها الزمن والموت (سقط اللوى ، الدخول ، حومل توضح ، المقراة ، قيعان) . كل هذه الحركة والديمومة والبقاء تقف امام الاطلال الممثلة للموت ، لتنتصر عليها بالتالي وليتدفق فعل الحياة في القصيدة تدفقاً عظيماً وهائلا .

---

(١) جلال الخياط ، الشعر والزمن ص ١٩ – ٢٠

لا أدعي الفلسفة لامريء القيس فعصره لم يكن عصر فلاسفة ولكنني أجده لايرضى بما هو كائن فاذا تمرد على النواميس الاجتماعية والدينية والاخلاقية فهو قد ثار في وجه الموت . ولم يستسلم أبدا لأن الحياة كانت تصرخ في جنباته بشكل عارم قوي . لذا لم تصبه باليأس والأستكاته رغم المصائب الجمّه التي احاطت به منذ مقتل والده وتحمله مسؤلية الثأر واعادة الملك المسلوب . لقد ذكر امرؤ القيس الجزء (الطلل) وكان يريد الكل (الكون) وذكر الاماكن وحددها للدلالة على هذا المطلق الذي ذهب منه الجزء (الخيمة) ولكن الارض التي اقيمت عليها الخيمة ما زالت باقية وستبقى مابقيت الحياة على سطح الكرة الارضية. لأن الوقوف على الاطلال بالتبرير الفلسفي كما يقول فيصل حسين صوفي نوع من حنين النسبي إلى المطلق أو الجزئي إلى الكلي والارض تمثل لديهم الصدر الرحيب لعذاب البشر وآلامهم وما الارض في نفس الشاعر الجاهلي الا البديل للشيء المطلق رمز الانعتاق والخلاص وربما كانت إلها آخر يختزنه اللاشعور الجماعي من بقايا الأساطير القديمة الموروثة منذالقدم(1).

ويقول شوقي ضيف: « كانوا يجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها ألهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة (2) » .

من هذا الموقف بالذات بدأ امرؤ القيس يؤكد على صدق انتمائه لا للجزء (الطلل) بل للكل (الارض) . وظهر حنينه للجزء لانه منتم إلى الكل :

فلو أن اهل الدار فيها كعهدنا   وجدت مقيلا عندهم ومعرسا
فلا تنكروني إنني أنا ذاكم   ليالي ملّ الحيّ غولا فالعسا(3)

وهكذا يتداخل الجزء في الكل والكل في الجزء :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

(1) انظر / فيصل حسين صوفي ، عصرية القصيدة الجاهلية ، الثقافة العربية ، العدد ٥ ، ١٩٧٦ ص ٤٨
(2) شرح الديوان ص ٩٨ .
(3) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ١٩٦

ولاحساسه القوي بالغربة شعر بحنين طاغ إلى الارض والمرابع حيث الاستقرار الدائم وبالتالي الحب والخصب والنماء والحياة. فعرّج من ذكر الاطلال إلى تذكر أيامه الجميلة مع المرأة سواء أكانت فاطمة أم عنيزة سلمى أم سليمى: هند أم الرباب. فكلهن مأوى من الخوف الاجتماعي (الرحيل) والخوف الكوني (الموت) وكلهن مستقر وأمان من المخاطر وكلهن أداة للخصب والنماء. لأنه سيرى نفسه في ولده ومن هنا يأتي انتصار الحياة على الموت بديمومة الانسان عن طريق التوالد والتجديد ضد الموت القديم الذي لم ينم ولم يتجدد. وهكذا تقف الحياة إزاء الموت في قصائد امرىء القيس في الوقوف على الاطلال لتنتصر الحياة على الموت كلما أوغلنا في بناء قصائده.

إن شعر الوقوف على الاطلال يجمع بين المتعة والألم بين الحياة والموت فهو تعبير عن الحياة المهددة بخطر الموت المتمثل في الرحيل والاغتراب والبعد عن المحبوب بالاضافة إلى الوقوف بجانب الخراب والدمار الذي يهدد الحياة بالفناء: «أما من الناحية النفسية فهو انعكاس لذلك الصراع الأبدي في نفس الانسان في الحياة من حوله... بين حب الحياة وغريزة الموت أو التخريب التي تعمل كما قال فرويد بصمت» (١).

وبعد لقد كان الوقوف على الأطلال عند امرىء القيس نابعا من طبيعة أحاسيس الشاعر فقد بدأ بنفسه يستجلي أحاسيسه في اطار الزمن — الحياة والموت — والمكان — اسماء الاماكن — والمجتمع — الطلل الذي كان مأهولا، بسكان الحي — والمرأة التي يريد — لذا نبع الصدق من بين ابياته، وقد تمثل فيها صدق العاطفة والاحاسيس. فلا أثر فيها للتكلف والتصنع، وكان التعبير ممثلا لهذه العاطفة الصادقة. وجاء ذكره للمشاهد والاماكن والاخيلة دليلا على ذلك. وقد كانت عاطفته قوية جياشة صحيحة، ورغم ارتباطها باماكن معينة في الظاهر الا انها مسألة انسانية في الوقت ذاته، لأن مشكلة الحياة والموت، والاحساس بالغربة والخشية من المجهول والحنين الى الاستقرار

(١) عز الدين اسماعيل، روح العصر، ص ٢٢

نوازع انسانية يحسها كل انسان على ظهر البسيطة . وقد كانت السمات الفنية بارزة فيها من حيث الايجاز في الكلمات والتركيب وأعطاء صورة محددة ومركبة ذات بعد عميق عظيم بتعبير غير مباشر يوحي بابعاد عميقة كما اسلفنا مع إيقاع حزين فيه رنة التمرد والثورة . وإذا كانت السمة الغالبة على قصائده الطوال البدء بالوقوف على الأطلال فانه في قسم منها اكتفى بذكر الحنين الى المحبوب وإظهار لواعج الحب وألم الفرقة :

تنكرت ليلى عن الوصل ونأت ورثّ معاقد الحبل (١)
عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أوشال (٢)
أمن ذكر سلمى ان نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة و تبوص(٣)
لعمرك ماقلبي إلى أهله بحرّ ولا مقصر يوماً فيأتيني بقرّ (٤)
أماوي هل لي عندكم من معرّس أم الصرم تختارين بالوصل نيئس(٥)
سما بك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرا(٦)

وإذ يذكر امرؤالقيس في هذه القصائد الحبيبة دون الوقوف على الأطلال فهو كأنما بذكر الحبيبة يستوحي المكان ، ويحل محل الطلل الشوق الى الأقامة مع الحبيبة سواء أكان هذا الاستقرار في بيتها أم في قلبها . لافرق مادامت المرأة في نظره هي الأرض كلاهما يقود الى الاستقرار وبالتالي يخلصه من الخوف الاجتماعي — الرحيل — ومن الخوف الكوني — الموت — . وتندمج الغربة بالموت في شعر امرىء القيس بشكل مكثّف وهو يقول بعيداً عن وطنه مجدّا في طلب الثأر :

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو وأبلغ ذلك الحي الجديدا
بأني قد هلكت بأرض قوم بعيداً عن دياركم بعيدا

(١) شرح الديوان ،ص ١٤٩ ، ١٦١ .
(٢) الشئون : ملاقي قبائل الرأس ، أوشال : الماء القليل .
(٣) ناص : تحول ، م. س. ص ١٠٦ باص : سبق
(٤) حر : يعني هنا صابر م. س . ص ٨٣ . قر : البرد ويعني هنا الراحة.
(٥) المعرس : من التعريس نزول المسافر. م. س ص ١٠٠
(٦) م. س ص ٦٦

ولو أني هلكت بأرض قومي   لقلت الموت حقّ لا خاودا (١)

إن الاحساس بالغربة والوحشة تعني الموت لشدة ثقلها على النفس، ولكن الموت في أرض القوم هو خلود وليست موتا. ان هذا الحنين إلى الأرض يتوزع في نفس الشاعر بين الماضي عن طريق الذكريات وعن طريق الأمل بالمستقبل. اما الحاضر فيمثل الموت لأنه يبعث على وحشة الغربة فيغرق في الأسى والحزن. ولكن الأمل في العودة وتبديد وحشة الغربة في نفس الشاعر ممثلا للحياة، فهو لايترك راحلته أبدا سعيا وراء تحقيق الأمل بالعودة إلى الارض الأم وتحقيق الأهداف :—

على قلص تظل مقلدات   ازمتهنّ مايعدقن عودا (٢)

وبعد يجد الباحث أن هناك مطالع للقصائد جاءت تعبيراً عن مواقف نفسية معينة مرّ بها امرؤ القيس وكانت حصيلة ظروف خاصة :

لمن الديار غشيتها بسحام   فعمايتين فهضب ذي أقدام (٣)

قالها بعد أن رده قريبه (سبيع بن عوف) عندما أراد النزول عنده وفيها يبين موقفه منه وأنه لايريد وصله ولا قطيعته

ويعبر عن فخره بأخذ الثأر بعد أن أنجده (مرمل بن الحميم الحميري) في النيل من بني أسد.

يادار ماويّة بالحائل   فالسّهب فالخبتين من عاقل

صمّ صداها وعفا رسمها   واستعجمت عن منطق السائل

قولا لدودان عبيد العصا   ما غرّكم بالأسد الباسل (٤)

ويعبر عن أمله في اعادة مجد آبائه وأجداده بعد عودته منتصرا على بني أسد للمعونة التي كان يحلم بالحصول عليها من ملك الروم. ويعود إلى (سليمى) التي ترمز لهذا المجد :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا   وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرا (٥)

(١–٢) السندوبي : شرح الديوان ؛ ص ٦٢– ٦٣ ، قلص: جمع قلوس وهي الناقة الشابة. يعدقن : يجمعن (٤)م. س ص ١٥١ . دودوان : بطن من بطون بني أسد.

(٣) م. س ص ١٧٥ عما يتبين ، بسحام ،ذو اقدام : اسماء اماكن

(٥) شرح الديوان ص٦٦

أو يعبر عن فرحته بالحياة ومتعها المتباينة والمتفرقة بين الحب والصيد وركوب الخيل :

خليليّ مرّا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب
فانكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب(١)

لقد امتزج النسيب بالوقوف على الاطلال وعبر الشاعر في وقفته عند الاطلال عن مكنونات نفسه . ووضح من خلال شعره موقفه من الحياة التي يحياها بدوي الصحراء . وأبان عن العناصر الخفية التي اصطدم لها حسه بالتناقض واللاتناهي والفناء .. ومن أجل ذلك لم يكن الشاعر يحسّ بالاطمئنان إزاء الحياة . فلم تكن لدى الجاهلي ولا لدى شاعرنا نظرية واضحة تفسر له مسألتي الحياة والموت لتشيع في نفسه الراحة كما حدث بعد ظهور الاسلام (٢)

(٢)

مشاهد التحمل والارتحال

أثرت الطبيعة الصحراوية تأثيراً مباشراً على الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي وبالتالي كان تأثيرها في الشعر بيناً وواضحاً . فقد كان لزاماً على الجاهلي أن ينتقل وراء الماء والكلا وبالتالي أن يرتحل من مكان إلى آخر سعياً وراء العيش ، وقد عني أمرؤ القيس عناية كبيرة بمشاهد التحمل والارتحال ، وظهر فيها موقفه من مسألة الحياة والموت كما سنرى .

فهو كما وقف أمام الاطلال يكلمها ويسألها أن تجيب وكما وقف امام الموت المتمثل في الطلل متحديا يثبت أن الحياة اقوى من الموت لأن الذكريات أقوى في نفسه من تأثير الطلل البالي . فانه وقف متسائلا أمام ظاهرة الارتحال . يعني الاغتراب يعني مفارقة الاحباب ، والاغتراب يقترن عند أمري القيس بالموت

---

(١) شرح الديوان ، ص ٣١

(٢) انظر عزالدين اسماعيل ، ص١٧ – ١٨

فالموتى أيضا يرحلون عنا ويتركوننا في أسى اغترابنا لفراقهم ؛ فالرحيل هو موت آخر في نفس الشاعر لذا كان انعكاسه يختلف كل الاختلاف عن انعكاس الطلل فيها . فالحياة تشع فيه لذا يبدأ الشاعر بالتساؤل ويلون في صيغ الاستفهام وهو أكثر صيغ الشاعر شيوعاً :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... سوالك نقباً بين حزمي شعبعب(١)

وقد يلجأ الى صيغ أخرى :

- أو ما ترى أظعانهن بواكرا ... كالنخل من شوكان حين صرام (٢)
- أمن ذكر سلمى ان نأتك تنوص ... فتقصر عنها خطوة و تبوص (٣)
- أمن آل ليلى وأين ليلى ؟ ... وخير مارمت ما ينال (٤)
- ولووا متاعهم وقد سئلوا ... بذل المتاع فضن بالبذل
- ونحت له عن ازر تألبة ... فلق فراغ معابل طحل (٥)

وقد يلجأ امرؤ القيس بالسؤال للربع وهنا يمتزج الرحيل في نفسه بالطلل لأن كليهما يخلفان الغربة والوحشة في نفسه وبالتالي يمثل كلاهما الموت :

الا أنعم صباحاً أيها الربع وانطق ... وحدث حديث الركب ان شئت واصدق
وحدث بأن زالت بليل حمولهم ... كنخل من الاعراض غير منبّق (٦)

أو يلجأ الى تحية الحمول كما فعل قبلا مع الربع ثم يبدأ بالسؤال :

حي الحمول بجانب العزل ... أذ لا يلائم شكلها شكلي (٧)
ماذا يشق عليك من ظعن ... الأ صباك وقلة العقل ؟ (٨)

---

(١) السوالك : الابل السائرة ، شرح الديوان ، ص ٣٢ .

(٢) شوكان : اسم مكان كثيرة النخل ، م. س. ص ١٧٦

(٣-٤) شرح الديوان ص ١٠٤ ، ١٦٢

(٥) م. س. ص ١٤٩ ، ازر تالبة : مجتمع حمر وحشية ، فلق : ابيض ، راغ : طلب ، معابل : نصال ، طحل ، مغبرة بين السواد والبياض .

(٦) الأعراض : النخل النابت في اعراض الحجاز م. س ص ١١٨ منبق : متفرق .

(٧) العزل : اسم مكان

(٨) شرح الديوان ، ص ١٤٦ .

ويتجلى الاحساس بالموت في أبعد حدوده عندما يصور الشاعر النوى الذي خلفه الرحيل بينه وبين الحبيب الجميل (الحياة) ؛ ويبدو لنا لأول وهلة وكأنه قد أنتقل الى عالم آخر غير عالم الاحياء :

وكم دونها من مهمه ومفازة   وكم أرض جدب دونها ولصوص (١)

ولكننا سرعان ماندرك أن الحياة ستنتصر على الموت لذكره كلمة (مفازة) وقد سميت بهذا الاسم لوجود الأمل بقطعها وتخطيها . واذا ما استحكم فيه الهم لأحساسه بالاغتراب والوحشة نتيجة لرحيل القوم يبدد عنه هذه الهموم بسماع الغناء وهكذا ينتصر الجميل على الجليل ، تنتصر الحياة على الموت

وان أمسى مكروباً فيارب قينة   منعمة أعملتها بكران (٢)

لها مزهر يعلو الخميس بصوته   أجشّ أذا ما حركته يدان (٣)

ولا يعتمد امرؤ القيس على الحواس في وصف الرحيل(الموت) بل كثيراً ما يعتمد الى الشعور في تجسيد فجيعة الموت لاحساسه به وهو يفارق الأحبة :

ألاعم صاحاً ايها الطلل البالي   وهل يعمن من كان في العصرالخالي

وهل يعمن الا سعيد مخلد   قليل الهموم ما يبيت بأوجال(٤)

وهل يعمن من كان احدث عهده   ثلاثين شهراً في ثلاثة احوال (٥)

وكثيراً ماتتداخل الاحاسيس بالمشاعر وهو يصف لنا أحساسه بالموت (ساعة الرحيل) :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل(٦)

وقد يحس امرؤ القيس بثقل الفراق (الموت) على نفسه فيسعى للتمرد

---

(١) الديوان ، ص ١٧٧ .

(٢) الكران : العود

(٣) الخميس : الجيش اللجب شرح الديوان ص ١٨٧

(٤) المخلد : الذي أبطاه الشيب ويبدو شاباً ، اوجال : المصائب او الامور الموجبة للخوف .

(٥-٦)شرح الديوان ، ص ١٣٨ ، ١٢٤ ، ٩٨

عليه عن طريق ابراز الحركة التي تمثل الحياة . ويصف في إطار احساسه بالصراع بين الحياة والموت مشهداً انسانياً تتغلب فيه الحياة على الموت :

تأوبني دائي القديم فغلسا أحاذر ان يرتد دائي فأنكسا (١)
فاما تريني لا أغمض ساعة من الليل الا أن أكبّ فأنعسا
فيا رب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا(٢)

فهو يكثر من الافعال المتكررة الدالة على الحياة (كرّ . طاعن . تنفس) .

ولا يكتفي الاحساس المتفائل عند امرىء القيس بذلك بل يبعث الحياة في الظعائن ويصور الركب وهو سائر في الطريق ويعطينا معالم الطريق وكأنه يرسم لنا طريق الحياة المليء بالخصب والنماء لما فيه من أشجار ومياه :

– أو ما ترى اضعافهن بواكرا كالنخل من شوكان حين صرام(٣)
– وحدّث بان زالت بليل حمولهم كنخل من الأعراض غير منبق
على أثر حيّ عامدين لنية فحلوا العقيق أو ثنية مطرق (٤)
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سوالك نقباً بين حزمي شعبعب
علون بانطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أو كجنة يثرب (٥)

ثم يعكف امرؤ القيس على تصوير الظعائن المتفرقة في الطريق (طريق الحياة) كما تفرّق الناس عادة . ولكن هذا التفرق على الرغم من أنه يسبب البعد والوحشه والغربة ويولد الحسرة والألم . الا أن الشاعر لم ييأس فهو يقطع هذه الأهوال على فرس قوية دائماً ليصل إلى المحبوب وهكذا تنتصر ارادة الحياة القوة والعزيمة على فراق الموت ووحشته وغربته :

فلله عينا من رأى من تفرق أشت وأنأى من فراق المحصب (٦)
فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب (٧)
فعيناك غرباً دلو في مفاضة كمرّ الخليج في صفيح المصوّب (٨)

---

(١) تأوبني : اتاني مع الليل وقت الغلس .

(٢) شرح الديوان ص ، ٩٨

(٣–٤–٥) شرح الديوان ص١٧٦ ، ١١٧ – ١١٨ ، ٣٢ – ٣٣ .

(٦) المحصب : المكان الذي ترمى فيه الحجار بمنى

(٧) جازع : قاطع ، بطن نخلة ونجد كبكب : اسمان لمكانين في الحجاز .

(٨) غرب : الدلو العظيمة من الماء المفاضة : الأرض ذات السعة ، الخليج : الماء المضطرب في النهر والذي تعوقه عوائق ، صفيح : العريض من الحجارة ، المصوب : المنحدر

غزرت على أهوال ارض اخافها   بجانب منفوح من الحشو شرحب(١)

وبعد أن يتأكد في مشاعر امريء القيس انتصار الحياة – بقطع الفيافي والمفاوز للوصول إلى المحبوب – على الموت – الفراق يسعى إلى وصف الهودج ببهجة وجمال وحياة :

جعلن حوايا واقتعدن قعائدا   وحفّفن عن حوك العراق المنمق(٢)
علون بانطاكية فوق عقمة   كجرمة نخل أو كجنة يثرب(٣)
فشبهتهم في الآل لما تكمشوا   حدائق دوم أو سفينا مقيرا(٤)
او المكرمات من نحيل ابن يامن   دوين الصفّا اللائي يلين المشقرا(٥)
سوامق جبار اثيث فروعه   وعالين قنوانا من البسر احمرا(٦)
حمته بنو الربداء من آل يامن   باسيافهم حتّى أقر واوقرا(٧)
وارضى بني الربداء واعتم زهره   واكمامه حتى إذا ما تهصّرا(٨)
اطافت به جيلان عند قطاعه   تردد فيه العين حتّى تحيرا(٩)

وهكذا لف امرؤ القيس الهوادج بكل الجمال والخصب والنعيم فهي في الغالب تشبّه بالبساتين المزهرة ذات الشجر المثمر اليانع.

ينتقل امرؤ القيس بعد ذلك إلى البشر بعد ان أعطى الحياة جوانبها العديدة من مياه واراض ونبات وحيوان (الرواحل والمطايا) فهو ينتقل إلى النساء الجميلات المنعمّات المشوقات الجالسات في الهوادج . وهو يضفي عليهن

---

(١) شرح الديوان ص ٣٣– ٣٤ .منفوح : مرتفع ، شرحب : طويل يريد به الفرس
(٢) الحوايا : البراذع ،م . س ص ١١٧ . حففن : هودج محفف بالديباج .
(٣) العقمة : نوع من الوشي ، الجرمة : ما قطع من البسر والتي بالارض م. س. ص٣٣
(٤) الآل : السراب .تكمشوا : جدوا في السير ،دوم : نوع من الشجر .
(٥) المكرعات من النخيل : النخيل النابت في الماء . المشقر : حصن في البحرين .
(٦) قنوان : عذق ،البسر : التمر المحمر
(٧) بنو الزبداء : قوم في البحرين لهم معرفة في غراسة النخيل واستغلاله ، اقر : استقر او قر : حمل ثمراً كثيراً وجيداً .
(٨) اعتم : طال وصلح ، تهصرا : تدلى ونضج .
(٩) شرح الديوان ، ص ٦٧– ٦٨ .

سبيل الانسان الجاهلي إلى الاستقرار – كل صفات الجمال ، تماماً كما أعطى مثل هذا الجمال للهوادج ، لانه يريد أن يصل إلى الجميل ،إلى الحياة بعد أن خرج من مفازة – الفراق والرحيل – الممثلين للموت . إنه شعوره الذي يقف دائماً إلى جانب الحياة ضد الموت .

-.غرائر في كِنّ وصون ونعمة يحلين ياقوتاً وشذراً مفقرا
وريح سنا في حقّة حميرية تخص بمفروك من المسك أذفرا(١)
وبانا وألويا من الهند ذاكياً ورندا ولبنى والكباء المقترا(٢)
اويقول : تراءت لنا يوماً بسفح عنيزة وقد حان منها رحلة وقلوص (٣)
بأسود ملتف الغدائر وارد وذى أشر تشوفه وتشوص(٤)
منابته مثل السدوس ولونه كشوك السّيال فهو عذب يفيض(٥)

وكما بدأ الشاعر الرحلة مبيناً صلتها بالارض ، فهو ينتهي بها الى صلتها بالانسان . والبشر دائماً فيها هم النساء اللاتي في الهوادج . ومن هنا نلمس مدى العلاقة بين الطريق الذي تقطعة الرواحل وبين النساء الجالسات في الهوادج. كلاهما يمثل عنصر الاستقرار وسط رحلة الموت (الاغتراب) . ولكن الجمال الذي يحيط بوصف المكان ووصف الهوادج ووصف النساء ، يطغى على الغربة التي تولدها هذه الرحلة في نفس الشاعر ، لان الرحلة هي حركة . والحركة هي الحياة .

---

(١) سنا : نبت ذو رائحة ذكية ، المفروك : المسك الجيد ، الاذفر : صفة للمسك
(٢) شرح الديوان ص ٦٨ – ٦٩ الوى : العود ، الكباء : البخور ، المقتر : المدخن
(٣) قلوص : رجوع
(٤) وارد : الشعر الطويل المسترسل ، ذو أشر : فم محدد الاسنان ، تشوفه : تستجليه ، تشوص : تدلكه بالمسوك
(٥) م. س ص ١٠٤ ، السدوس : النيلج الأسود ، يفيض : يسيل على الأرض .

(٣)

الناقة :

وتتجلى هذه الحياة بأجلى صورها في سعي الناقة الحثيث للوصول الى المحبوب . فيبدو انتصار الحياة على الموت جلياً في حركة الناقة المسرعة، قطعها المفاوز والقفار ، عظم خلقها ونشاطها وقوتها ودأبها على السير دون أن تحس بالتعب او النصب ، حتى أنها لشدة نشاطها تطاير الحصى من تحت خفها :

فدع ذا وسلّ الهمّ عنك بجسرة ذمول اذا صام النهار وهجّرا (١)
تقطّع غيطاناً كأن متونها أذا أظهرت تكسى ملأ منشّرا (٢)
تطاير ظرّان الحصى بمناسم صلاب العجى مثلومها غير أمعرا (٣)
كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلّته رجلها حذف أعسرا (٤)
كأن صليل المرو حين تشذّه صليل زيوف ينتقدن بعبقرا (٥)

ويقول

فدعها وسلّ الهمّ عنك بجسرة مداخلة صمّ العظام أصوص(٦)
تظاهر فيها النيّ لاهي بكرة ولا ذات ضغن في الزّمام قموص(٧)

---

(١) الجسرة : الناقة القوية على السير ، الذمول : السريعة ، صام النهار : قامت الظهيرة

(٢) الغيطان : الأرض المطمئنة ، اظهرت : دخلت وقت الظهيرة

(٣) ظران : قطع من الحجارة المحددة . العجى : قدر مضغة تكون موصولة بعصبة تنحدر من ركبة البعير إلى الفرس . غير امعر : لم يذهب شعره .

(٤) نجلته : رمته بمناسمها ، الحذف:الرمي

(٥) صليل المرو : صوت الحجارة ، تشذه : تطيره . زيوف : الدراهم الزائفة التي لا فضة فيها ، شرح الديوان ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٦) مداخلة : مدمجة الخلق ، اصوص : شديد لحمها

(٧) الني : الشحم ، ذات ضغن : لا تسير الا بالقسر قموص : الجامحة .

اووب نعوب لايـواكـل نهزها إذا قيل سير المدلجين نصيص(١)

ويشتد الصراع بين الحياة والموت عند وصف امرىء القيس لناقتـه، فهي بالاضافة إلى قطعها المفاوز والمهامة، تبدو في نظره وكأن هراً متوحشاً يهاجمها فهي تسرع مجدة في سيرها لتتخلص من هذا الموت – المتمثل بالهر المتوحش – الذي ينتظرها فيما إذا أبطات ليتمكن منها هذا الحيوان الغادر. وان ناقة في سرعتها ونشاطها وقوتها.

– بعيدة بين المنكبين كأنهـا ترى عند مجرى الضفْر هراً مشجّرا(٣)

ويقول :

– تروح إذا راحت رواح جهامة بأثر جهـام رائـع متفرق (٤)

– كأن بها هرا خبـيا تجره بكل طريق صادفته ومأزق (٥)

وكأن امرأ القيس لايكتفي بتمثيل الناقة لطاقات الحياة، فهو لايقف عندها طويلا كما يقف عند الفرس مثلا – كما سنرى – بل اتخذها جسرا ليعبر منها إلى حيوانات الصحراء الأخرى التي تتمثل الحياة في نشاطها وسرعة حركتها وقدرتها على الصراع والمجابهة كالحمار الوحشي والثور والظليم والنعامة.

---

(١) أووب نعوب : ترجع إلى الوراء صياحة، لايـواكـل نهزهـا : تنهض مستوية لا يتواكل بعضها على بعض، المدلج : السائر في الليل، نصيص : رفيع، شرح الديوان ؛ ص ١٠٥

(٢) ويعجب الباحث من تأكيد امريء القيس على الهر دائماً دون الحيوانات الضارية وربما كان تفسير ذلك يعود إلى الميثولوجيا القديمة وربما كان الهر يرمز للموت عندهم، فنحن نجد في تراثنا الشعبي أن (الطنطل) أو (زمزم القبور) كليهما يشبهان الهر وكلا هما غادر مخادع، وهو لا يتمكن إلا من الموتى. وما زالت موجودة في الأساطير المتداولة في جنوب العراق

(٣) الضفر حبل من شعر هو من اطناب الهودج : مشجر مربط م.س ؛ ص ٧١

(٤) جهامة : السحابة التي لاماء فيها.

(٥) شرح الديوان ؛ ص ١١٨.

فهو ينتقل في قصيدته (خليلي مرا بي على أم جندب) من وصف لناقة بالقوة والنشاط والضخامة إلى تشبيهها بالحمار الوحش ليعبر منها إلى وصف هذا الحيوان الممتلئ حياة وحيوية :

بمجفرة حرف كأن قتودها على أبلق الكشحين ليس بمغرب(1)

يصف امرؤ القيس حمار الوحش بما أوتي من جمال خلقة، فهو فتي ضامر البطن قد أتى من جبال عماية في البحرين يمج مايأكله في مورد شربه، وهو يغني في الليل غناء مطربا يتصنع في اداء الصوت ليطرب الندامى من حوله. وكيف لا وهو يقود قطيع الحمر في ذلك الوادي الخصيب كثير الشجر والكلأ حتى ساوى نبته شجره .

لقد جمع امرؤ القيس كل اسباب الحياة في تصويره لحمار الوحش وكأنه يريد ان يضفي كل ذلك على ناقته الفتية. السريعة العدو ، والمنطلقة إلى المحبوب.

ويعود امرؤ القيس مرات عدة لتشبيه ناقته بالحمار الوحش ولكن أجمل صورة أعطاها لهذا الحمار تلك التي اوردناها سابقاً عندما أخذ فيها حمار الوحش الأتن إلى مورد الماء والعشب، وبعد الري والامتلاء عاد بهم ثانية إلى الهضاب والمرتفعات وهم على أشد ماتكون الحياة نشاطاً وحركة وجمالا. كما شبه الشاعر ناقته بالثور الوحشي الذي يعلوي البلاد نشاطاً وقوة وهو متوجس لسماع كل نبأة:

كأني ورحلي فوق أحقب قارح بشربة أوطاو بعرنان موجس (2)

ويشبهها بالظليم الفتي السريع المليء بالحياة والحيوية. فهو نشيط سريع العدو ليدرك بيضه. ولايكتفي امرؤ القيس باضفاء صفات الحياة على الظليم

---

(1) المجفرة الحرف : الناقة العظيمة الشديدة الصلبة ، قتود : اداة الرحل ، أبلق الكشحين : حمار الوحش أبيض الخاصرة ، مغرب : ابيضت اشفاره وحماليقه ، شرح الديوان ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(2) أحقب : ابيض الجانبين ، القارح : التام الحسن المتناهي القوة شربة وعرنان : اسما مكان، طاو : ثور وحشي يطوي البلاد قوة نشاطا، موجس : منصت ،شرح الديوان ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

بل هو يعطينا صورة أخرى للحياة وتجديدها باحتضان النعامة لبيضها، وخشية الظليم على البيض، فهو يسرع ليدركه خشية من أن يعبث به عابث. وهكذا تتكرر صور الصراع بين الحياة والموت في صور الشاعر وجزيئات قصائده:

على نقنق هيق لـه ولـعـرسـه — بمنعرج الوعساء بيض رصيص (١)
اذا راح للأدحيّ أوبا يـفـنـها — تحاذر من إدراكه وتحيص (٢)

ويكرر نفس الصورة ونفس التشبيه في شعره ولكنه في بعضها يعطينا حياة أكثر ألا وهي صورة فراخ النعام وهي تكسر البيض لتخرج منها إلى الحياة:

كأني ورحلي والقراب ونمرقي — على يرفئيّ ذي زوائد نقـنق (٣)
تروّح من أرض لأرض نـطيّـة — لذكرة قيض حول بيض مفلق (٤)

فهذا الظليم يعدو مسرعا قاطعا أراض بعيدة لتذكره أن الفراخ تنقف قشور بيضها لتخرج إلى الحياة.

ويعود إلى تصوير الصراع بين الحياة والموت في تشبيهه ناقته بعنزة تعدو والهة طائشة الصواب للعثور على فحلها الذي أبعد عنها:

كـأنـها مـفـرد شـبـوب — تلفه الريح والطـلال (٥)
أرأنـهـا عـنـز بـطـن واد — تعدو وقد أفرد الغـزال (٦)
عـدواً تـرى بـيـنـه أبـواعا — تحفزه أكـرع عـجـال (٧)

---

(١) نقنق: ظليم، هيق: ظليم فتي، منعرج الوعساء: رابية من الرمل، بيض رصيص: بيض نعام منسق

(٢) الادحي: الموضع الذي فيه البيض، الأوب: الرجوع، يفنها: يزينها، تحيص: تميل وتضطرب، شرح الديوان، ص ١٥

(٣) النمرق: الوسادة، اليرفئي: الظليم، ذو زوائد: ذو عدو سريع

(٤) نطية: بعيدة.

(٥) مفرد: ثور، شبوب: حسن، الطلال: جمع طل وهو الندى

(٦) أفرد: ذهب به.

(٧) أبواع: جمع بوع وهو البعد الاكرع: الايدي والأرجل، شرح الديون ص١٦٢

وليست الناقة وحدها هي الممتلئة حياة وشدة بل ان الفارس الذي يرحل عليها هو الآخر شجاع مقدام لايخفيه شيء، يقطع القفار والفيافي رغم وعورة الطريق للوصول إلى هدفه:

علـيها فتى لم تحمل الارض مثله ... أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا

هو المنزل الألاف مـن جو ناعط ... بني أسد حزنا من الارض أوعرا (١)

والفتى الباسل الشجاع هو دائماً الشاعر نفسه.

ان امرأ القيس يتخطى احساسه بالموت والفناء ، فالامل الذي يساوره قوى بالوصول الى المرأة المشتهاة المنعمة المطيّة التي تمثل لديه السعادة والجمال والحب وفعل الحياة من أجل التجدد والتكاثر . وهكذا تتداخل صراعاته النفسية منذ وقوفه على الاطلال بين الحياة والموت حتى تنتصر الحياة على الموت بوصوله الى المرأة (السعادة والحياة والاستقرار) .

(٤)

تمثل المرأة عند أمرىء القيس الحياة بما فيها من الاستمرار والرفاهية ، والجمال والحب والمتعة الجسدية ، والفعل الحياتي وتجدد الحياة .

يجابه امرؤ القيس الموت باشد ما تكون عليه الحياة من قوة لينتصر عليه متمثلا بالمرأة . فيتمثل الاحساس بالسعادة والاستقرار والاستمتاع الجسدي وتملي محاسن المرأة ليقتل ذلك الشعور الغائص في أعماقه بالموت والفناء .

ويبدو لنا أن المراة في شعر امرىء القيس ما هي الا رمز للحياة متمثلا هذا الرمز بجميع النساء اللاتي ذكرهن (أم الحويرث (٢) ، ام الرباب ، (٣) فاطمة (٤) عنيزة ، (٥) أم جندب ، (٦) ، هرّ (٧) ليلى (٨) سلمى ، (٩) سليمى ، (١٠) فرتنى ، (١١) هند ، (١٢) ماويّة (١٣) الرباب ، (١٤) فطيمة ، (١٥) سعاد (١٦) . وهذه الاسماء لاتعني مسمياتها فهن متشابهات

(١) الالاف : القصاد ، ناعط : جبل في اليمن فوقه حصن قديم ، الحزن : الأرض صعبة النسالك ، ، شرح الديوان ، ص ٧١.

(٢ - ١٦) شرح الديوان ، ص ١٢٥ ، ١٢٨، ١٢٧، ٣١، ٧٨، ١٤٩، ١٦٢، ١٠٤، ٦٦، ٨٣، ٦٤، ١٠٠ ، ١٨٦، ١٥٦، ١١٤.

في الوصف وفي الخصائص الجسدية ، حتى تكاد جميع هؤلاء النساء يكوّن امرأة واحدة هي المثال الذي يشتهيه للمرأة (الحياة) «ففاطمة قلما تختلف عن عنيزة وأم الحويرث وأم الرباب ومن اليهن بل أنه يتناول الاسم في صدفة لاختيار بحيث لاتشعر أنه يخص احداهن بعاطفة لايخص بها سواها. كما أنه لايريد اسم واحدة منهن أكثر من سواها ليخيل الينا أنه سنحت له عواطف لبعضهن أو أنه علق واحدة منهن بالفعل » . (١)

ولم يذكر مؤرخو الادب شيئاً عن النساء اللواتي ذكرهن امرؤ القيس في شعر غير ابنة عمه فاطمة ، وقد اختلطت عند بعضهم عنيزة بفاطمة وأصبحت تعني فتاة بعينها . (٢) ويروون اسطورة الغدير عندما قدم امرؤ القيس اليه وكانت الفتيات يستبردن فيه وبينهن ابنة عمه شرحبيل (فاطمة أو عنيزة)وكيف منع عنهن ملابسهن حتى يقبلن ويدبرن عاريات امامه(٣). وهي قصة غير منطقية ، أذ كيف يصنع ما يصنع بفتيات دون أن تثار حفيظة أهلهن ، ودون أن يثأروا لكرامتهم المهدرة ؟ وكيف يرضى الفتيات بهذا الامتهان الماجن ، ألا أذا كنّ عاهرات ؟ وكيف تخرج نساء العرب بمفردهن دون حراسة ؟ وكيف يرضى امرؤ القيس ان يمتهن نساء قومه ؟ وكيف يستسيغ أن يدنس شرف ابنة عمه ؟ ولماذا لم يأت على ذكر الغدير والثياب والموقف برمته في شعره ما دام هو متعهراً الى هذا الحد؟ ولماذا لم يصفهن وهن عاريات وكيف يسمح لنفسه ذكر ابنة عمه في شعر ماجن ووصف مكشوف يبدو فيه وكأنه يتحدث الى عاهرة من الساقطات لا الى حرة من بنات اعمامه (٤) .... فامرؤ القيس الذي سبق الى هذا الفن أو في أجزاء منها والطبيعة لاتكذب هذا فحياة امرىء القيس الحرة التي

(١) ايليا حاوي ، امرؤ القيس ، ص ٤٤ـ ٤٥ .
(٢) محمد صالح سمك ، امير الشعر في العصر القديم ، ص ٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦ـ ٧٧.
(٤) بدوي طبانة ، ص ٨٧ .

ينتهب فيها اللذات انتهاباً لاتمنع أن يصف ذلك في شعره وأن يوجد فيه ذلك القصص الغرامي الذي افتتن به ابن ابي ربيعة ».(١) وقد ذكر مؤرخو الادب ايضاً هرّ زوجة أبيه او جاريته واتهموه بالاتصال بها وهو كلام غير مقبول « وليس هرّ امرأة أبيه كما يذهب القصص الشعبي الرخيص » (٢) أذ لايعقل ان يتغازل بامرأة أبيه في بيئة عربية أصيلة وفي قصر ملك وهو ابنه ، وكان بعد صبياً كما ذكرت كتب الأدب القديمة .

كما ذكر مؤرخو الادب وأم جندب التي ذكرها أبو الفرج الاصفهاني وقال أن امرأ القيس كان مفركاً لاتحبه النساء ولاتكاد امرأة تصبر معه . وهي فيما يبدو الامرأة التي تزوج بها من طيي فابتنى بها فأبغضته من تحت ليلها وكرهت مكانها معه فجعلت تقول : ياخير الفتيان أصبحت فيرفع رأسه فيرى الليل كما هو فتقول المرأة اصبح ليل . فلما أصبح قال لها قد علمت ما صنعت الليلة وقد عرفت أن ما صنعت كان كراهية مكاني في نفسك. فماذا كرهت مني؟فسكتت فألح عليها فقالت : كرهتك لأنك ثقيل الصدر. خفيف العجز. سريع الاراقة. بطيء الافاقة.(٣) هذا بالاضافة الى قصة أم جندب المشهورة في التحكيم بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة وتفضيلها علقمة على امرىء القيس (زوجها) بغير وجه حق لمجرد أن علقمة نزل من نفسها منزلة حسنة . فطلقها امرؤ القيس وتزوجها علقمة . وسمي (بالفحل) بعد ذلك الحادث . هذا ما أوردته كتب الادب (٤) . ولكن هل يعقل ان يكون هذا التصرف تصرف امرأة حرة وزوجة لرجل أصيل عرف عنه الجمال والفروسية والنجدة . ان المتفحص لأم جندب في اطار هاتين الروايتين يتبين جيداً انها ليست أكثر من بغي من اولئك النسوة اللاتي يمتهن الدعارة ويبعن الجسد لطالبيه. «وأظن أن أم جندب هذه كانت لها دار في الصحراء يؤمها الشباب

---

(١) معلقات العرب ، ١٠١
(٢) البهبيتي : تأريخ الشعر العربي ، ص ١٠٢ .
(٣) الأغاني : ج ٩ ، ص ١٠٣ .
(٤) ابو الفضل ابراهيم ، ديوان امرىء القيس ص ٤٣٠

ليشربوا ويمرحوا ويعبثوا كما يشاء لهم العبث . وهناك يحكي الشبان مغامراتهم. ومثل هذه البيوت كانت معروفة عند العرب وعند غيرهم من الأمم القديمة حيث البغاء أمر معترف به ، .(١) تمعن قوله في حديثه عنها :

خليلي مرا بي على أم جندب لتقضي لبانات الفؤاد المعذب
فانكما إن تنظرا ني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت لها طيباً وإن لم تطيّب(٢)

أنه يأتيها بصحبة خليليه ، ليقضي حاجات النفس ، ويطلب منهما ان يفسحا له مجالا للتمتع بها . وانه يذكر كيف كان يأتيها ليلا فيما مضى ليجدها مستعدة لاستقباله. فهل يمكن أن يكون مثل هذا الحديث عن زوجه؟ ومن هي ؟ زوجة أمير عربي وفارس التجأ الى بني طيّ ليحموه من مطارد المنذر بن ماء السماء بعد أن قتل أباه . ومن تكون أم جندب هذه كما تقول كتب الادب؟ امرأة من طيّ زوّجها القوم لامرىء القيس زيادة في الاحترام والتقدير (٣)

يبدو لنا بعد التمحيص والمقارنة أن هذا المطلع ماهو الا من نوع الذكريات التي طالما بدأ بها الشاعر قصائده، وهي ذكريات قديمة تعود به إلى ماضيه السعيد الذي طالما يحلم به عندما كان يعيش حريته الكاملة ويرتاد المرابع وبيوت الدعارة والحانات.

فامرؤ القيس دائم البحث عن المرأة (الحياة) التي تغدق عليه الحنان والاستقرار والسعادة. لقد كان منذ فتوته يبحث عن مثل هذه المرأة– غير الجارية وغير السلعة– التي تقف منه موقف الند للند، المرأة التي تمتص ما في نفسه القلقة غير المستقرة ذلك الصراع الخفي الناشب فيها بين الحياة (اللذة والسعادة والاستقرار) . والموت (القلق والخوف من المجهول).

---

(١) محمد كامل حسين ،الشاعر العربي والذوق المعاصر ، ص١١
(٢) طارقاً : الذي يأتي ليلا . شرح الديوان ص ٣١
(٣) ديوان امرىء القيس ص ٤٠ ، شرح الديوان ص ٣١ .

ولايجد الباحث امرأة تنطبق عليها مواصفات المرأة الحرة من خلال شعر امرئ القيس غير (فاطمة) التي جاء على ذكرها في معلقته:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
وإن تك قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي
أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتّل(١)

فهو يعاتبها على تدللها عليه وكأن هذا التدلل- وربما كان صداً- قد أوحى اليه بأنها تزمع قطيعته. وهو يعجب لموقفها، فيسألها هل قام بعمل سيء يستحق عليه كل هذا الصد؟- وهو تساؤل جميل يدل على صدق شعوره نحوها- وهو يعرف حقّ المعرفة أنه لم يفعل شيئاً يسيء به اليها. ويعود ليفسر هذا الصد بأنه دلال امرأة تريد أن تذكي الحب في قلب رجلها، لأنها تعلم شدة حبه لها، فلماذا لم يحظ امرؤ القيس بحب فاطمة- يبدو من وصفه لها أنها تكاد أن تساويه في شخصيتها وخلقها وأصالتها- وهو الشاب الوسيم والأمير ابن الملك، والغني الشجاع، والشاعر الملهم. إن المرأة (الحياة) التي يعني جرمانه منها الموت بالنسبة له، تصد عنه وتبتعد. وهنا يقوم سؤال مهم. لما كانت النساء تبتعد عن امرئ القيس؟

تذكر كتب الأدب أن امرأ القيس كان مفركا لاتميل النساء إلى وصله، وقد بينا في حديثنا عن (أم جندب) ماقالته له ليلة زواجهما- أو ماقالته له امرأة تزوجها من طيّ-.

فاذا كان السبب المذكور آنفاً وحده جعله مرغوبا عنه من النساء، فذلك شئ غير منطقي لأن ما ذكر عنه- من ثقل الصدر وخفة العجز وسرعة الاراقة وبطء الافاقة- لاتدركه في الرجل الاّ امرأة مجربة عاشرت العديد من الرجال- أي امرأة بغي تعرف أسرار مهنتها. أما المرأة الشريفة فهي لاتعاشر غير زوجها، وتعتقد عندئذ أن خصائص زوجها هي المثلى-ولاتقول ماقالته

(١) شرح الديوان، ص ١٢٨.

أم جندب – أو لمرأة الطائية – حتى ولو كانت تحسه فيه بعد طول معاشرة. اذا لابد من وجود سبب آخر يجعل النساء يكرهن معاشرة امرئ القيس الشاب الجميل الأمير. ويورد الأصفهاني سبباً آخر فيقول: " ويقال أن امرأ القيس سأل إحدى نسائه مرة عما تكرهه النساء فيه. فقالت إنك اذا عرقت فاحت منك ريح كلب. فقال أنت صدقتني. إن أهلي أرضعوني لبن كلب. ولم تصبر عليه الا امرأة من كندة كان أكثر ولده منها». (١)

لقد كانت الرائحة الكريهة التي تنبعث منه اذا ماعرق– وما أكثر مايعرق الانسان في المناخ الصحراوي الحار– هو السبب في اجتناب النساء لامريء القيس خاصة والمياه شحيحة والقدرة على الاستحمام اليومي غير ممكنة بالاضافة إلى طبيعة الحياة المتنقلة، غير المستقرة، وحبه هو بالذات للتنقل والصيد وممارسة حريته.

لقد أحس امرؤالقيس بهذا النقص أنه الموت المعنوي الذي يهدده لأنه يحرمه المرأة (الحياة..) التي يصبو اليها فعليه اذن ان يصارع الموت الذي يواجهه، فلم ترضخ له نفسه الأبية فاسرف في إتيان النساء الجواري والعاهرات– على عادة شباب عصره– خاصة وهو يملك الوسائل للحصول عليهن بيسر. وذكر ذلك في شعره، ولكنه لم يرد أن يظهرهن عاهرات لأنه يعد الأمر منقصة بالنسبة له، لذا بَدوّن في شعره نساء محصنات (٢).

وبيضة خدر لايرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراسا اليها ومعشرا   عليّ حراصا لو يسرون مقتلي (٣)

---

(١) الأغاني ، جـ٩ ، ص ١٠٨ .

(٢) والجماع ليس مجرد اتحاد من أجل التناسل بل هو تجديد حياتي للجنسين كأنه موت وبعده حياة ، فخري الدباغ ، الموت اختياراً ص٩٩

(٣) شرح الديوان ؛ ص١٢٨

إنه يكذب(١). هنا وكذبه واضح من جموع الحراس الحريصين على قتله إن ظفروا به،ومن هذا اللهو الممتع غير المعجل . لو كان ما يقوله حقيقة لأسرع في لهوه معها خشية اكتشاف أمره من قبل المتربصين به ، ثم أية بيضة خدر لايرام خباؤها هذه؟ تبدو لنا وكأنها تملك خيمة على مشارف طريق القوافل يحيط بها سماسرة وطلاب لهو ومتعة وحراس لايحرصون على عفافها وشرفها . خاصة وأنه أورد هذه القصة بعد إظهار فاطمة الصرم له ، وكأنه أحس بطعن في كرامته فأراد أن يدافع عنها بهذه القصة المختلقة وكرامته هي حياته وفقدان الكرامة يعني الموت المعنوي بالنسبة لامرىء القيس فاذا ماصدته فاطمة أصابته في الصميم ، وقتلته قتلا معنوياً . وهو لم يعودنا على الاستسلام للموت فثارت كرامته ووهبته قوة الحياة لديه وشاعريته الفذة قدرة عظيمة على الخلق فحكى لنا قصة بيضة الخدر وأمره معها . وهي قصة فنية وليست حقيقة واقعة . فتدفقت الحياة من خلال الالفاظ واعاد خلق التوازن في نفسه لتعود الحياة دافقة في مواجهة الموت (فقدان الكرامة أمام فاطمة) . وهكذا كان الفن الشعري لدى امرىء القيس وسيلة جديدة للأحساس بقوة الحياة أذا ما تعرض لموت معنوي .

ويسعفه الفن الشعري في مواجهة الموت المعنوي في قصيدة أخرى،حيث يروي لنا قصة امرأة تخون زوجها من أجله . والزوج على علم بالأمر ولكنه أجبن من أن يمنع الشاعر الشجاع المقتحم والسمّارجالسون والزوج يغط في نومه:

---

(١) عد طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) ص ٢٠٦ هذه الأبيات منتحلة وقال انها أشبه بشعر عمر بن ابي ربيعة من أي شعر آخر. بينما آمن حنا فاخوري بالحدث وعده إلى جانب صحته ابداعاً في فن القصص الحواري عند امريء القيس في كتابه (تأريخ الأدب العربي) ص ٨٩ ومثله الكفراوي في كتابه « الشعر العربي بين الجمود والتطور » هامش (٢) ص ٣٠ . وسلم شوقي ضيف في كتابه (العصر الجاهلي) ص ٢٤٩ –٢٥١ بصحة الحدث ومثله انس داؤد ،قراءة جديدة لمعلقة امريء القيس ،مجلة البيان ، العدد ١٢٢ عام ١٩٧٦ ص ٢٨ وعده نوري القيس في كتابه (دراسات في الشعر الجاهلي) ص ٨٧ –٩٠ كاذبا في ادعائه

ويا رب يوم قد لهوت وليلة — بآنسة كأنها خطّ تمثال
يضيء الفراش وجهها لضجيعها — كمصباح زيت في قناديل ذبّال
سموت اليها بعد ما نام أهلها — سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي — ألست ترى السمّار والناس أحوالي
فاصبحت معشوقاً وأصبح بعلها — عليه القتام سيء الظن والبال
يغط غطيط البكر شدّ خناقة — ليقتلني والمرء ليس بقتال
أيقتلني والمشر في مضاجعي — ومسنونة زرق كأنياب أغوال (١)

إن المنعم النظر في هذه الابيات يدرك للوهلة الأولى أن المسألة لاتعدو أن تكون خيالا جسده الشاعر لقدرته الشعرية الفائقة في أن يسقط ما في نفسه من شعور بالنقص تجاه المرأة الشريفة التي يطلبها ولا تريده — لانه مفرك او بسبب رائحته — بهذا الشكل الفني الذي صدقه اكثر مؤرخي الادب العربي (٢) . وأذا ما التزمنا التجربة الشعورية الصادقة في القصيدة لانعدو القول بأن المسألة ليست أكثر من زيارة لدار بغاء : السمّار الجالسين والمرأة المتمرسة في معايشة الرجال والزوج الذي يغط في النوم . والبساطة الكاملة التي دخل فيها الشاعر خدر المرأة رغم وجود الزوج والسمّار فصب خياله المحلّق وشاعريته الفذة ، المرأة الساقطة في إطار المرأة المصونة ، التي يريدها الشاعر كبديل للمرأة البغي التي طالما حصل عليها بيسر وسهولة، ولكنه مجدّ دائماً في البحث عن المرأة (الحياة) ، فاذا ما خانه جدّه في الحصول عليها أسعفه خياله المتألق على خلقها ليوجد التوازن في نفسه بين الهدف

(١) شرح الديوان ص ١٣٩ — ١٤١
(٢) قد تكون القصة حقيقية لو طلب الزوج من امرأته أن تبضع من امري القيس بعد تطهرها من طمثها رغبة منه في انجاب ولد « لأنهم كانوا يطلبون ذلك من اكابرهم ورؤسائهم... فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع » محمود شكري الآلوسي ، بلوغ الأرب في احوال العرب ج٢ ص ٣
ولكننا لا نرى ذلك فمن يتمعن في القصيدة يرى ان زوجها لم يكن يعلم بالأمر وكانت تخشى معرفته بالأمر.

الذي يبتغيه والواقع الذي لايحقق له ذلك الهدف ، فلم يجد وسيلة غير الفن لتحقيق ذلك الهدف عن طريق نفث زفرات النفس بأسلوب شعري (الفن) .

وقد تكون النتيجة التي توصل اليها الباحث خطأ أذا سلّمنا بأن العربي عديم الشرف بحيث يغط في النوم ويعلم أن زوجته في أحضان رجل آخر ، وأن السمار العرب يسمرون وهم يعلمون بأنهم يحرسون البغاء الذي يجري قريباً منهم . لم أسمع أو أقرأ عن العرب ذلك بل العكس هو الصحيح . وقد أكون مخطئا أذا ما سلمّنا بأن الزوج فخور بأن تكون زوجته بين أحضان أمير كأمرىء القيس ، وعندئذ لايكون هذا الزوج عربياً ولا حتى انساناً بل هو مجرد سمسار يريد ابتزاز المال من عشاق زوجته .

أنظر معي الابيات السابقة على هذا الحدث :

الا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لايحسن السر أمثالي
كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزنّ بها الخالي(١)

ترى هل كانت القصة التي رواها امرؤ القيس نتيجة انفعال حاد دفعه الى الخلق الفني ليضع البغي موضع المرأة المصونة للرد على بسباسة وزعمها ؟ ربما .

ولكن المسألة المعقدة تكمن في الشطر الثاني من البيت الثاني (وامنع عرسي أن يزّن بها الخالي) فهو يغري العروس عن زوجها لجماله . ولكن ترى لماذا حدثنا عن زوجته وأنه يمنع الأعزب من اغوائها ، ترى هل غويت زوجته من قبل شاب آخر لأنها لاتميل اليه بسبب ماذكر عن رائحته وعن الصفات غير المستحبة فيه وأراد أن ينتقم لكرامته بأن يسبي امرأة متزوجة وكأن كلامه مجرداً اسقاط فرويدي ؟ لا أظن ذلك فأمرؤ القيس رجل بكل معنى الرجولة ، فلو حدث ما افترضنا لقتل زوجته وعشيقها . ولم نسمع تلميحاً لهذا الفعل لا في كتب الأدب ولا في شعره كسقات لسان ،

---

(١) عرسه : زوجة ، يزن : يتهم ، الخالي : الذي لا زوج له ، شرح البلدان ص ١٣٩

أذن لماذا ذكر أمرؤ زوجته وقدرته في دفع العذاب عنها ؟ إنه مجرد تباه وزهو برجولته وفحولته مقابل سقوط رجال آخرين في مهاوي الضعف والسمسرة أولئك الذين كانوا يبتزون أموال الرجال المترددين على خيم البغايا اللواتي أكثر أمرؤ القيس من التردد عليهن بحكم بيئته وتقاليدها ومؤثراتها وهكذا كانت مواجهة امرىء القيس للموت المعنوي (تعبير بسياسة له بالكبر) غيضا ،فاسعفته قدرته الشعرية على عبور هذا الموت الى حياة متدفقة انهالت مع أبيات قصيدته ممثلة قدرته على استلاب قلوب النساء وأجسادهن رغم وجود الأزواج والسمّار.وقد مثّل قدرته على المواصلة وأعطاء الحياة دفقة دفقة في قوله (سموت اليها سمو حباب الماء حالاً على حال) هذا التجمع حبّة حبّة هو الذي يعطي الحياة تجديدها وديمومتها .

وكأن الشاعر أحسّ بأن كلامه هذا غير مصدق من قبل بسباسة التي عيرته بالهرم وبأنه لايحسن السر . فحدثها عن قوته وشجاعته وعدم قدرة زوج المرأة والسمّار في الوصول اليه ، رغم أنه يستبيحهم في نفس المكان .

لقد كانت الطاقة الشعرية لامرىء القيس دائماً وسيلة لتدفق الحياة في جنبات نفسه أذا ما تعرض لموت معنوي يهز كيانه فهو يواجه هذا الموت بقوة الحياة وقوة الفن أليس الفن جزء من حياة الأديب : وبعد ماذا عن أم الحويرث وأم الرباب وعنيزة ، والحامل والموضع .

ـ كدأبك من أم الحويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسل
أذا قامتا تضوع المسك منهما	نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل (١)
ويقول : فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع	فألهيتها عن ذي تمائم محول
أذا ما بكى من خلفها انصرفت له	بشق وتحتي شقها لم يحول (٢)

ويقول

ويوم عقرت للعذارى مطيتي	فيا عجباً من كورها المتحمّل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة	فقالت لك الويلات إنك مرجلي (٣)

(١ ـ ٣) شرح الديوان ص ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ـ ١٢٧ .

ولا نرى في أم الحويرث وأم الرباب غير بغيتين اعتاد امرؤ القيس الذهاب الى داريهما طلباً للمتعة فأثاره صدّ فاطمة وأصابه في كرامته، وكرامة امرىء القيس حياته، فأسعفته شاعريته في خلق الواقع بشكل جديد فكانت قصة أم الحويرث وقصة أم الرباب وسيلتين لمجابهة الموت المعنوي الذي أصابته به فاطمة بصدها عنه، فرد صدّها هذه المرة ايضاً عن طريق الفن الشعري وكأنه لم يكتف بهاتين القصتين فاورد قصة عنيزة، الفتاة العذراء الجريئة المرحة في استيحاء، والمشوقة الى شاعرنا في خفز، المانعة له في دلال ورغبة. وقد خلق لنا امرؤ القيس حياة كاملة بكل مافيها من أخذ وعطاء في قصة دارة جلجل ليواجه الموت المعنوي المتمثل في صدّ فاطمة له. وكأن كل ذلك لم يكفه فحدثنا عن فحولته وقدرته الهائلة على تجديد الحياة وعلى النماء في قصتي الحبلى والمرضع، فكلاهما رغم الحياة التي أوجداها (الرضيع والجنين) تطلبان المزيد لان التوقف عن الحمل والرضاعة يمثل بالنسبة لهما توقف الحياة. وهما لاتشبعان منها وبالذات من الحياة التي يمنحها شاعرنا لأنه أقدر الرجال على منحها، نستنتج من تحليلنا لشعر أمري القيس الغزلي(١). انه لم يحب حباً حقيقياً.

(١) -المثل يقول (هو أغزل من امرىء القيس) لسان العرب ج ٤ /٤.
والغزل هو حديث الفتيان والفتيات عن اللهو مع النساء «وقد سبق امرؤ القيس العرب إلى أشياء ابتدعها منها رقة النسيب» طبقات الشعراء، لابن سلام ص ٢٧
والغزل وليد عاطفة الحب وتصوير نفسية قائله فهو إذن يتسم بالصدق الشعوري فقلما ينبعث عن محاكاة او تكلف. والغزل يتسم بالصدق الفني والقدرة على التعبير الصادق عن بواطنه والبراعة في تصويرها حتى لكأن القارىء يجسمها لقرائه وسامعيه فيشاركونه مشاركة وجدانية في افراحه واتراحه .. وهو من أسمى ابواب الشعر العربي إن لم يكن اسماها. احمد الحوفي، الغزل في الشعر الجاهلي ص ١٢-١٣.
«أمرؤ القيس استاذ هذا الفن من كندة» عبد الحميد عابدين بين؛ الحبشة والعرب.

فقد اورد مغامراته الغرامية مورد الفخر (١) للتعويض عن النقص الذي يحسه في قرارة نفسه لعدم انجذاب النساء له: «قصيدة الغزل في أكثر الأحيان تمثل ردّ فعل... مبعثها الحاجة الغريزية».(٢) وهو ما فخر بقاباليته الجنسية في هذه المواضيع– وهي مصدر ديمومة الحياة– الاّ لمواجهة صدّ النساء له وبعدهن عنه بسبب رائحته وهذا الصدّ يمثل الموت بالنسبة لشاعرنا لذا أكثر من ذكر مغامراته الغرامية. حقيقة كانت أم خيالا – لأنها تمثل له الحياة ليقف بواسطتها ضد الموت المتمثل في صدّ النساء له.

فهو يريد امرأة أية امرأة لأنها تمثل لديه الحياة لتمتص منه الشعور بالموت، لذا جاء غزله مادياً جميلا فيه عذوبة ورقة، كما أن «امرأ القيس مدل بجماله مغرور بنفسه وهو يحب المرأة التي يريدها ولكنه يتهمها بعدم الاخلاص»(٣) فالمرأة عنده غير صادقة دائماً لايوثق بها. ولعل ذلك الأحساس تولد لديه من عاملين أساسيين:

الاول: بعد النساء عنه بسبب رائحته، أو ربما بسبب العلل التي ذكرتها المرأة الطائية وهذا النوع من النساء اللواتي يواصلهن هن نساء محترفات، إعتاد أن يذهب إلى خيمهن وأماكن احترافهن.

الثاني: تعويض عما في نفسه من نقص تجاه المرأة، فبدا هذا التعويض بشكل سلبي بالنسبة للمرأة فهي دائماً خائنة لايوثق بها ولايعتمد عليها.

ومن هذه النقطة نلمس أن حبه للمرأة كان حباً لايعدو المتعة تدمغه الغريزة ويتعطش اليه الجسد، وبالاضافة إلى ما أوردنا من شواهد نورد شواهد أخرى للاستدلال على اندفاعه الغريزي تجاه المرأة – الجسدوالحرية والاستقرار – المرأة الحياة بكل أبعادها البدائية المتدفقة: يقول

---

(١) سعد دعبيس، تجربة الحب في الشعر الجاهلي، مجلة الثقافة العربية العدد، ١٢، ١٩٧٦ ص٢٨

(٢) جلال خياط، الشعر والزمن، ص ٨.

(٣) أحمد مطاع قباني، الشعراء النوابغ، ص ٢٥

ـهصرت بفودي رأسهـــا فتمايلـــت   عليّ هضيم الكشح ريّا المخلخل(١)
ويقول: اذا مالضجيع ابتزها من ثيابها   تميل عليه هونة غير مجبال (٢)
ويقول: تقول وقد جردتها من ثيابها   كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجـدك لوشيءٌ أتانـي رسـولـه   سواك ولكن لم نجد لك مدفعا(٣)

وقد وضع نصب عينيه مثالا جسديا، المرأة الحياة، لتمثل عنفوان الجمال والشباب والحياة. فاذا به يضفي هذه المحاسن على نسائه(المرأة التي يريد). ونستطيع أن نحصر هذه المحاسن بما يأتي:

بيضاء الوجه:

دخلت على بيضاء جسّم عظامها   تعفّي بذيل المرط أذ جئت مودقي (٤)

مشرقة وضاءة:

تضيء الظـلام بالعشاء وكأنها   منارة ممسى راهب متبتل (٥)

أسيلة الخدّ جميلة العينين:

تصد وتبدي عن أسيـل وتتقي   بناظر من وحش وجرة مطفل (٦)

عذبة الريق:

كأن المدام وصوب الغمام   وريح الخزامى وذوب العسل
يعلّ بـه بـرد أنيـابــهـــا   أذا النجم وسط السماء استقل (٧)

صغر الاسنان:

ومؤشر عـذب مـذاقـتـــه   برد القلال بذائب النحـل (٨)

اللثة السوداء:

منابته مثل السـدوس ولـونه   كشوك السّيال فهو عذب يفيض(٩)

(١ - ٣) شرح الديوان ، ص ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١١٣ .
(٤ - ٦) شرح الديوان ، ص ١١٩ ، ١٣١، ١٣٠ .
(٧) يعل : يسقي مرة بعده مرة م. س. ص ١٧١ - ١٧٢
(٨) مؤشر : فم حسن الاسنان ، م. س. ص ١٤٩
القلال : الماء المنحدر من أعلى الجبل .
(٩) السدوس : النيلج الأسود ، يفيض : يسيل على الأرض ، م. س. ص ١٠٤

طول الجيد :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل (١)

الشعر الجميل :

وفرع يزيد المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل (٢)

الخصر الضامر والساق الجميلة :

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقيّ المذلل (٣)

حركة اعضاء الجسد :

أذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال (٤)

وهو في وصوله الى مثل هذه المرأة التي يشتهي ، المرأة المتعة (الحياة) يتجاوز الحراس لنوالها كما مرّ في أمثلة سابقة يستعين بسفراء يصلونه بمن يريد نوالها :

بعثت اليها والنجوم ضواجع حذار عليها أن تهب فتسمعا (٥)

وهو يصور استماعة الجسدي ، كما لاحظنا في أمثلة سابقة ، وهو لايترك أثر الفعلة فقد يرتدي ثوباً طويلا يعفي آثار قدميه أو تلبس هي ذلك الثوب الطويل :

خرجت بها تمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل (٦)

وتأتي فتاته بصحبة صويحباتها :

فجاءت قطوف المشي هيابة السرى يدافع ركناها كواعب أربعا (٧)

وهولايحفل بالجوانب الروحية في المحبوب قدراهتمامهبالنواحي الجسدية(٨).

وهو يصف المتعة التي تبعثها مثل هذه المرأة في نفسه:

وهل يعمن الا سعيد مخلد قليل الهموم مايبيت بأوجال (٩)

(١ - ٤) م. س ص ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٤٠ .

(٥ - ٧) شرح الديوان ، ص ١١٣ ، ١٢٩ ، ١١٣ .

(٨) شرح الديوان ، ص ١٢٩ - ١٣١ ، ١٣٩ - ١٤٠ .

(٩) شرح الديوان ، ص ١٣٨ .

وقد استخدم امرؤ القيس جميع الحواس في وصفه للمرأة ويبدو لي أنّ الجاهلي لم يحفل كثيراً بحاسة السمع. فلم يصف لنا أمرؤ القيس جمال الصوت في سياق وصفه للمحاسن التي يطلبها في المرأة الحياة. وقد اهتم امرؤ القيس بالجوانب الحضرية للمرأة– والجانب التمدني يدل على تطور الحياة– فاهتم بالرفاه والدعة والتطيب، كما اهتم بوصف المرط والوشاح، والسابريّ، والمسك، والزنبق والخضاب، وأنواع طيوب الهند المختلفة.

وقد عني عناية خاصة بتشبيه المرأة بأشياء حضرية: فشبهها بالدمية، وبمصباح الراهب. وعني بالغزل وفخامة اللفظ والايجاز بالاسلوب وبالجرس الموسيقي العذب. وقد اقتضته الناحية الفنية على الاستعانة بالحواروبالاسلوب القصصي لتوضيح الأبعاد التي يتطلبها الفن لأظهار المرأة بالمظهر الذي يراه هو، المرأة (الحياة).

فالمرأة في أحاسيس امرئ القيس ليست الأنثى فقط. بل هي امتداد الحاضر إلى الماضي والنزاع نحو المستقبل أيضاً. ويمتزج فيها الفرح بالغبطة وتتحول نتيجة لهذه التراكمات من الذكريات والآمال إلى رمز الحياة لمتعتها وجمالها وقدرتها على توفير السعادة والراحة له (١).

وقد عني امرؤ القيس بتجسيد النواحي المعنوية في المرأة رغم التشبيهات الحسية التي أوردها كما في قوله:

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برد أنيابها اذا طرب الطائر المستحر (٢)

فقد ألفّ تأليفاً جميلا بين المدام والغمام والخزام والبخور على ثغرها وكأن الجمال لاملامح له ولاشكل الاّملامحها وشكلها. وكأن الحياة لاتتجسد الاّ في الطبيعة والمرأة التي جمعت جمالها المنثور، فالمرأة هي الطبيعة الحيّة عنده.

---

(١) انظر ايليا حاوى، امرؤ القيس، ص ٧٢.
(٢) شرح الديوان، ص ٧٩.

فنحن « نستشف عبر الابيات كلها نوعا من الاحساس العميق بالوحدة بين المرأة والطبيعة بحيث لاندرك اذا كان يحب الطبيعة عبر المرأة أو المرأة عبر الطبيعة »(١). وهكذا اختلطت الحياة (الجمال) بوحدة لاتنفصم عراها بين جمال المرأة وجمال الطبيعة فكلاهما يمثل الجمال في الحياة أو الحياة الحياة لتقف ضدّ الموت أو الموت في الحياة اي الموت المعنوي .

لقد كان امرؤ القيس يمتلك روح فنان قبل كل شيء ، ولما كانت وظيفة الفنان هي استجلاء الجمال في الكون ، فقد أمعن في استكنان الجمال الكامن في المرأة والطبيعة معا ، فكلاهما يمثل جمال الحياة ، ونتيجة لقصور في فهم فلسفة الجمال اتهمه بعض الباحثين بالدعارة والفجور وسوء الخلق .

وهم بهذا المقياس لم ينظروه بمنظار عصره أو بالمنظار الجمالي ، بل نظروه بمنظار الاخلاقيات الاسلامية فحسب .

وهنا يكمن الخطأ في التعليل .فقد درس امرؤ القيس لدى كثير من مؤرخي الأدب العربي من وجهة نظر اسلامية . دون وضعه عند الدراسة في إطار عصره وبيئته .وفي هذا النوع من الدراسة بعد عن الموضوعية لأ ننا ننسى أثر البيئة الكبير والعوامل المجتمعية التي خلقت الشاعر وجدانياً وفكريا في زمان ومكان معينين . وسحبوا على دراسته إفرازات اجتماعية مغايرة كل المغايرة للحقبة التي يعيشها ، وكأن الشاعر شيء يعيش في المطلق خارج الزمان والمكان اللذين يحددان إطاره وواقعه(٢) .

وهكذا قيس امروء القيس في معيار هؤلاء الباحثين بموازين أخلاقية اسلامية لابموازين عصر امرىء القيس فكانت النتيجة أن خرج البحث بنتائج سلبية بعيدة عن الدقة « فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحي اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا

---

(١) ايليا حاوي، امرؤ القيس ، ص ٦٢

(٢) انظر عز الدين اسماعيل ،الشعر والقيمة الحضارية ،الاقلام ، ١، ١٩٧٢ ص ٤

عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » (١).

لقد عبّر امروء القيس عن مكنونات نفسه المصطرعة بين الحياة (الجمال) الذي يصبو في المرأة، والطبيعة والخمر والصيد والفروسية لتقف أمام الموت (الارتحال) الذي يخشى . وقد وصل امروء القيس بشعره هذا درجة عالية من الفن ، حتى بقي شعره في مقدمة الشعر الجاهلي حتى نهاية مدرسة الشعراء المحافظين في الربع الاول من القرن العشرين وكان شعره الى جانب تصويره للبيئة الصحراوية التي عاش فيها جماليا فنيا لذا بعث شعره على الاعجاب والتنفيس والسرور ، فقد عكس أحوال البيئة بصدق فني عظيم ولم يتصنع ويفتعل فهوجم من قبل مؤرخي الادب المسلمين ورغم ذلك فقد وضعوه في مقدمة الشعراء . يقول دريدن «ان المتعة هي الغرض الرئيسي للشعر ان لم تكن هي الغرض الوحيد . اما التعليم فلا يمكن الا أن يكون الغرض الثاني ...(٢) وربما كان اقذع ما توصف بـه قصيدة أنها تهذيبية أو تثقيفية ولايفوق ذلك الوصف اقذاعا الا قولنا أنها قبيحة»(٣).

ويرى الباحث أن ليست الاخلاق بحاجة الى تعهد متكلف لتثبت في تيار الحياة ولتدس في الفن على هذا النحو المصطنع.وان الفن كلما كان حراً في تصويره للواقع كلما كان ذلك أتم « ليس الوجدان الفني بحاجة الى الوجدان الأخلاقي يستمد منه العفة لأنه ينطوي في ذاته على هذه العفة التي هي الحياء الفني ويدسّ في الفن مالاتدعو اليه حاجة فنية أو يسوغه مسوغ فني – ولو كان أنبل المسوغات وأشرفها – فإنه لايكون قد أخطأ من الناحية الفنية فحسب، بل يكون قد أجرم من الناحية الأخلاقية لأنـه أخل بواجبه من حيث أنه فنان» (٤)

(١) عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص ٦١

(٢ – ٣) جاريت ،فلسفة الجمال ، ص ٦٥، ٦٤ .

(٤) كروتشة ،المجمل في فلسفة الفن ، ص ١٧١ .

الطبيعة

إن العلاقة بين المرأة عند امرىء القيس والطبيعة بجوانبها المختلفة وثيقة جدا فهما يجتمعان في شعره معا في علاقة نفسية تصدر عن عاطفة واحدة وتشغل تفكير الشاعر ، لأن المرأة لديه عنصر آخر من عناصر الطبيعة . ولا ينكر احد ان جمال المرأة جزء من جمال الطبيعة وبالتالي فهما يمثلان معا — المرأة والطبيعة — جمال الحياة بكل أبعادها بالاضافة إلى انهما أمران أساسيان من نواميس حياة البدوي في الصحراء . إن ارتباط المرأة بالطبيعة عند امرىء القيس ارتباط نفسي فهو يأتي على وصف الطبيعة بعد وصف المرأة . فهما يرتبطان في ذكرياته معا والذكريات كما يقول فرويد: أفكار مرتبطة لاشعوريا يفيض بها التيار العصبي من غير تفكير يستثير الشعور فتتداعى الذكريات (١).

يقول امرؤ القيس في معلقته :

الا رب خصم فيك ألوى رددته   نصيح على تعذاله غير مؤتل(٢)
وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بانواع الهموم ليبتلي (٣)

ويقول ايضاً :

دخلت على بيضاء جم عظامها   تعفّى بذيل الدرع إذ جئت مودقي
وقد ركدت وسط السماء نجومها   ركود نوادي الربرب المتورّق (٤)
وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل   شديد مشك الجنب فعم المنطق (٥)

وهكذا انتقل بشكل سليم من وصف المرأة إلى وصف الليل إلى وصف الحصان من دون أن نحس بتكلف أو نشعر بفجوة من خلال هذه الانتقالات ،

---

(١) فرويد ، كيف يعمل العقل ، ص ٤٥ ، ٣٠ .
(٢) الوى : شديد الخصومة، غير مؤتل : غير مقصر في عذله ونصحه .
(٣) شرح الديوان ، ص ١٣٢
(٤) نوادي الربرب المتورق : وقوف قطيع الظباء بعد تناولها ورق الشجر .
(٥) العطاس : الصباح ، فعم المنطق : ممتلىء مكان النطاق .م. س. ص١١٩.

ويعود السبب في ذلك الى أن كلا من المرأة والليل والفرس مظهر من مظاهر الطبيعة الحيّة، فاستقبال المرأة لحبيبها ونبض النجوم وسط السماء والخروج على ظهر الفرس القوية في الغداة كلها مظهر واحد للحياة التي تنبض بها الطبيعة. والسبب في ارتباط الحس الجمالي للمرأة عنده بالحس الجمالي للطبيعة يعود إلى فقر الطبيعة الصحراوية وتشابهها وعدم تنوعها . وإحساسه الجمالي لها ينحصر في وصف مظاهرها الخارجية كما وصف المظاهر الخارجية لجمال المرأة . ولم يرتق في وصفهما إلى درجة المشاعر لخشونة العيش وانعدام الرقة وضآلة الثقافة . ومن هنا ارتبطت المرأة بالطبيعة في شعر أمرئ القيس فكلاهما يمثل جمال الحياة ومتعها بالنسبة له . فهو يعجب بالمرأة كما يعجب بالطبيعة . لذا لم يترك وصفاً جميلا الآ وقرنه بهما واضفاه عليهما ، وهوفي وصفه لايتعدى التشبيه للمظاهر الجسدية الخارجية التي تكمّل صورة اشتهائه للمرأة وتدفع الرغبة في نفسه . وهذه السمة تدل على الحيوية والحياة: أليس التناسل رمزاً لتجدد الحياة وبقائها بالتالي ؟ وهو عنصر أساس وحيوي في كيان الطبيعة .

لقد أحب امرؤ القيس الطبيعة حيث ولد وشب ، فقد نشأ في طبيعة أكثر الشعراء من وصف جمالها ومحاسنها ، فلا عجب أن يتأثر بها ويصفها ويضفي من خياله عليها .

ويظهر حبه للطبيعة من خلال شعره ، فقد ذكر فيه أماكن عدّة ، هي تلك الاماكن التي طوف فيها وعرفها ، فبدت معشوقاته جزء منها ، ورأى المرأة من خلالها ، فقد ارتبطت أم الحويرث وهرٌ بسقط اللوى ، وأم الرباب بمأسل، وعنيزة بدارة جلجل . وهكذا امتزجت الطبيعة بالمرأة والمرأة بالطبيعة لتحليهما المباهج الحضارية التي عايشها الشاعر ولتختلط معا فتصور له الحياة الحقيقية الجميلة المتحركة أبداً المليئة بالحيوية والنشاط والمتعة :

غرائر في كنّ وصون ونعمة ... يحلّين ياقوتا وشذرا مفقّرا (١)

وريح سنا في حقّة حميريّة ... تخصّ بمفروك من المسك أذفرا (٢)

وبانا والويّا من الهند ذاكيا ... ورندا ولبنى والكباء المقتّرا

غلقن برهن من حبيب به ادعت ... سليمى فأمسى حبها قد تبتّرا (٣)

وكان لها في سالف الدهر خلّة ... يسارق بالطرف الخباء المستّرا (٤)

إذا نال منها نظرة ريع قلبه ... كما ذعرت كاس الصبوح المخمّرا (٥)

لقد استطاع الشاعر أن يجمع بما أوتي من مقدرة شعرية فائقة بين جمال سليمى والفتيات اللاتي حولها والطبيعة المتمثلة بالريح الطيبة والخمرة المعتقة ومظاهر الترف آنذاك : الخباء، أنواع النباتات ذات الرائحة الطيبة، وأنواع الحليّ . بالاضافة إلى الحركة الجميلة التي أوردتها القطعة الشعرية . مسارقة الطرف لفتاته من طرف الخباء المستور ودقات القلب المتتابعة عندما يرى فتاته فيبهره جمالها .

ألم يجمع الشاعر مظاهر الحياة الجميلة بكلمات موجزة شاملة ؟

لقد اعتمد شعر امرىء القيس النزعة الحسية والشعورية عند تناوله الطبيعة والمرأة ، فهو يعبر عن موقفه النفسي ازاء العالم الخارجي ، لأنه يمتلك هذا العالم الخارجي من خلال نفسه التي تقف مترصدة لظاهرة الحياة في الطبيعة دون أن تستطيع فضّ أسرارها البعيدة ودون قدرة على التغيير أو التبديل ، فهو مبهور بقدر ماهو ملتذ بمظاهر الحياة في الطبيعة ، وهو يحاول أن يجد السبيل – ولكن دون جدوى نتيجة لمحدودية ثقافة عصره – لامتصاص الفزع الذي يصطرع في نفسه عند انتهاء كل هذه المظاهر الجميلة وخفوتها متمثلة

---

(١) مفقر : مصوغ

(٢) اذفر : صفة للمسك وهي طيب الرائحة

(٣) تبتر : تقطع . غلقن برهن : حل موعده وتعذر فكاكه .

(٤) خلة : صاحب ويريه نفسه .

(٥) مخمر : الذي ترفع من كثرة شرب الخمر . شرح الديوان ص ٦٨ – ٦٩ .

بالمرأة والفرس والناقـــة والظليم والليل والنهار والجماد والامطار إلى آخره » فيجد الانسجام في الشكل والحركة والتآلف في الالوان والنماذج في الخصائص والرموز فيحاول أن يصوغ ذلك كله في إطار اللفظ ... يقلده ويحاكيه ... لأن الشك لايعروه إزاءه فالخاصة الكبرى في شعر امريء القيس هي عبادة الطبيعة عبادة المادة بنوع من الوثنية الغامضة التي ترى في المادة كمالها في ذاتها ... الا ّ أن الشاعر يعاني حسرة أزاءه وشعورا بالندم من زوال الاشياء وهرمها وتغيرها » (١) وهو إذ يصور لنا الطبيعة يلتصق بالواقع فيذكر لنا أسماء الاماكن وقد يذكر لنا إضافة إلى ذلك أبعادها الجغرافية .وهو قد لايجمد على الواقع الحرفي في تصويره للطبيعة بل يصفها لنا منعكسة في حنايا نفسه :

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والاغثاء فلكة مغزل (٢)
كأن سباعاً فيه غرقى عشية بارجائه القصوى أنابيش عنصل (٣)

فقد أعطى للاشياء العظيمة (ذرى رأس المجيمر ، السباع) وهي غرقى تشبيها لآشياء صغيرة (فلكة مغزل أنابيش عنصل) دلالة على صغر الاشياء العظيمة تجاه عظمة الطبيعة وقوتها . ومن هـذا الاحساس الفني العظيم في نفسه الآموازنة بين العظمة في الحياة وسرعة الزوال في الموت والفناء حتى أن الاشياء العظيمة (الحياة) تبدو صغيرة جدا تجاه الفناء (الموت) ولكن الحياة انتصرت في النهاية وبقيت على عظمتها:

والقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحمل(٤)

فقد تصرفت المياه في حزن من الارض وتخلص المجيمر والسباع من خطر السيل حاملا معه ماأفناه من حيوان وشجر كما ينزل اليماني المحمل باعدال

(١) ايليا حاوى :امرؤ القيس ، ص ١٦٤

(٢) الاغثاء : مايحمله السيل من بقايا .

(٣) انابيش عنصل : البصل البري .شرح الديوان ص ١٣٧

(٤) شرح الديوان ، ص ١٣٧ . بعاعه : ثقله ، العياب : الثياب

مملوءة بالثياب على القوم ، ولكن الحياة باقية وهكذا تتعاقب الحياة والموت كما يتعاقب الليل والنهار .

لقد كان وقوف امرىء القيس تجاه السيل موقفاً انسانياً مركباً فلم يكن السيل مجرد سيل أمام امرىء القيس بل كان تمثيلا لجبروت الطبيعة ، تمثيلا للجليل فيها (الموت). فقد جاء وصفه للسيل حواراً داخلياً عن الصراع الناشب في الطبيعة بين الحياة والموت« أراد الشاعر أن يعبّر عن تصوراته بشكل حوار داخلي أو استنباط لأحداث كانت أشباحها في نفسه قائمة تؤكد أن هذه الصور هي محاولات جديدة لتحقيق الذات وإشباع الفردية ومحاولات إيجاد صيغة جديدة في توزيع الاحساس الذي كان ينوء به الشاعر الجاهلي وهو يقع تحت طائلة الزمن وأحداثه » (١) .

وقد أعطى امرؤ القيس للمكان وللزمان وجوداً فنيا يعادل وجودهما الواقعي في تصويره لطير المكاكي :

كأن مكاكي الجواء غديّــــــــــة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

فهذه الطيور النجدية تبكر في الصباح تشنف الآذان بصوتها الجميل وقد أجاد الشاعر في المبالغة الفنية لتصوير خوف الحيوانات الضخمة وفزعها من جبروت السيل وقت العشاء .ليعقد هذا الصراع الأبدي بين عظمة الحياة وجبروت الموت:

ومرّ على القنّان من نفيانه فانزل منه العصم من كل موئل(٢)

كأن سباعاً فيه غرقى عشية بارجائه القصوى أنابيش عنصل (٣)

فالوعول المتشبثة بالحياة أدركت خطر الموت يتهددها فنزلت من جبل القنان لعلها تجد سبيلا للخلاص ، فهي في النهار تصارع للنجاة ولكنها لم تستطع الاستمرار في هذا الصراع عند العشية فيغرقها السيل .

---

(١) نوري القيسي ، الحوار في القصيدة الجاهلية ، آفاق عربية ، العدد : ٥ ، ١٩٧٦ ، ص١٢٢

(٢) نفيانه : ماينفي من قطره ، العصم : الوعول .

(٣) شرح الديوان ، ص ١٣٧ .

واذا كان السيل العارم ينعكس في نفس امرىء القيس ممثلا للموت وجلاله بحيث يخيف السباع ويكاد أن يغرق الجبال . فإن الغيث يمثل الحياة وما فيها من خير وخصبه وقد يكون الغيث السيل . وكأن الشاعر يقول لولا الحياة لما وجد الموت . فالحياة دائماً متقدمة . والموت تابع لها ، فالحياة هي الأصل والموت تابع للاصل :

علا قطنا بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
واضحى يسح الماء عن كل فيقة يكب على الاذقان دوح الكنهبل(١)

فاذا مالمع البرق يمينا وشمالا وسح بشكل غزير اقتلع اشجار الكنهبل العظيمة ورمى باغصانها القوية المتشابكة إلى الأرض ليجرفها السيل بعد ذلك . أليس في هذا القول آية للصراع بين الحياة والموت ؟!

واذا حظي جلال السيل (الموت) بعناية الشاعر واهتمامه مرة ، فان عظمة المطر (الحياة) حظيت بعنايته كثيرا وتردد وصفه لها في أماكن كثيرة . ولاعجب أن يعد ذو الرمة امرأ القيس أفضل شاعر وصف الغيث في قوله : (٢)

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الارض تحرى وتدر(٣)

فهذا المطر لاينعش الأرض ويفيد الشجر فحسب بل يمتع الحيوانات أيضاً:

وترى الضب خفيفاً ماهرا ثانياً برثنه مايتعفر (٤)

وهو في قصائد أخرى يصف الخير العميم الذي يزجيه الغيث للارض والبشر والنبات والحيوان :

---

(١) فيقه : مابين الحلبتين أي ان المطر يسح وينقطع ثم يسح وهذا أغزر ، الكنهبل : شجر عظيم.

(٢) الديوان ، ص ١٤٤ .

(٣) شرح الديوان ، ص ٨٩-٩٠ ، الوطف : الدنو من الأرض.تحرى : تتعمد المكان وتثبت فيه .

(٤) برثنه:مخلبه ، ينعفر : يلصق بالتراب .

أعنّي على برق أراه وميض يضيء حبياً في شماريخ بيض (١)

وهو إذ يدعو بالخير لشيء دعا له بالغيث الهاطل :

سقى واردات والقليب ولعلعا ملثّ سماكيّ فهضبة أيهبا (٢)

فمرّ على الخبتين خبتي عنيزة فذات النقاع فانتحى وتصوّبا (٣)

وهكذا جاء الغيث في شعر امرىء القيس مقترنا دائما بالفرس التي تمثل حياة الشاعر . (٦)

الحصان والصيد :

يحظى الحصان باهتمام كبير في نفس امرىء القيس بحيث لايكاد يفارقه وكأنه حصنه الحصين . فهو لايبتعد عن حصانه الا ساعة يتحصن بخدر إمرأة . لأنه يصاحبه دائما في مسيرة الحياة التي يحياها الشاعر وكما يعنى الشاعر بالاوصاف الخارجية لمحاسن المرأة يهتم بأوصاف الحصان ويتفنن فيها فهو « منجرد بقيد الاوابد . ضخم لاتستطيع الانفلات منه . أو هو ضامر شديد أيبس الجري لحمه . صلب كالهراوة .. أملس سريع .. على العقب جيّاش .. على الأين جيّاش له أيطلا ظبي وساقا نعامه » (٤) ولكن هذا الحصان يبقى في حركة دائمة وكأنه بحركته تلك يريد أن يثبت وجوده مادام على ظهر هذا الحصان المليء بالحياة :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من عل

كميت يزلّ اللبد عن حال متنه كما زلّت الصفواء بالمتنزّل (٥)

على العقب جياش كأن اهتزامه اذا جاش فيه حمية غلي مرجل (٦)

درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصّل (٧)

---

(١) شرح الديوان ، ص ١٠٨ – ١٠٩ الحبي : السحاب . الشماريخ : اعالي الجبال ، بيض : وصف الشماريخ .

(٢) اسماء أماكن ، ملث : غزير المطر . سماكي : نجم بأسماء تنسب اليه العرب المطر .

(٣) الخبت : المتسع من بطون الأرض . شرح الديوان ، ص ٥٠ .

(٤) نوري القيسي ، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، ص٥٦ .

(٥) الصفواء : الصخرة الملساء المتنزل : السيل الجارف .

(٦) العقب : الجري المتواصل ، جياش : الذي يزداد جرياً .

(٧) شرح الديوان ، ص ١٣٣ – ٣٤ .

أليست هذه الحركة هي حركة الحياة بأجلى مظاهرها ؟ إن الشاعر بعد أن أثبت وجوده من خلال الطلل والرحل والناقة والمرأة والطبيعة يؤكد الحركة التي تتمثل فيها استمرارية الحياة وهو على ظهر الحصان . حصنه المكين الذي عليه يمارس حريته عند ذوبانه في جمال الطبيعة . وهو ينتقل في أرجائها هنا وهناك ، أو ينقله إلى المحبوب أو يأخذه إلى اماكن لهوه أو إلى ممارسة هوايته في الصيد ، لذا لم تعد انتقالات المعلقة مجرد أغراض تتعاورها وتلحق بها بالتناوب بل هي شرح لأصالة النزوع نحو الفعل الذي يدركه الشاعر الجاهلي كجسد للجوهر وكرقعة للانجاز في آن معاً . إن الجاهلي لايستطيع أن يتصور ذاته خارج إطار الفعل وبأختصار خارج التاريخ. فالفعل بالنسبة إليه هو الحقيقة المطلقة التي لاوجود لها الا إذا تجسدت في عالم الوقائع... فالجاهلي يتوحد مع الفعل بحيث يغدو كل منهما علة ونتيجة للآخر . الانسان مشروط بالفعل والفعل مشروط بالانسان» . (١)

وترتبط حركة الحصان على الأغلب بالصيد حيث يطارد قطيع الظباء المهاة فيلحق بها وهو ينضح عرقاً لشدة جريه وقوة حركته . كما في تلك اللوحة الجميلة التي قدمها لنا امرؤ القيس في معلقته ، ولوحاته الأخرى لايقل جمالا عن لوحته السابقة حيث يبقى الصراع بين الحياة والموت على أشده ويبقى صراع الفريسة من أجل الحياة على أشد مايكون وأروعه (٢)

بعجلزة قد أترز الجري لحمها   كميت كأنها هراوة منوال (٣)
ذعرت بها سرباً نقياً جلوده   واكرعه وشي البرود من الخال (٤)

---

(١) يوسف اليوسف ، الواقعة والمفهوم في المعلقات ، الثقافة العربية ، العدد : ١١ ، ص٣٩ ، ١٩٧٦ .

(٢) انظر / الديوان : ص ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٧٦ .

(٣) عجلزة : فرس شديدة قوية اترز : أيبس

(٤) الخال : اثواب يمنية شفافة .

كأن الصوّار إذ تجـّـهـد عـدوه   على جمزى خيل تجول بإجلال(١)
فجال الصوار واتقين بقـرهـب   طويل القرا والرّوق أخنس ذ ّيال(٢)

إن جواد امرئ القيس ليس جواد قتال رغم قوته وسرعته، بل هو جواد صيد يعادي الظباء والبقر الوحشي ويظفر بها، الصراع هنا من أجل الحياة حياة الفريسة تعتمد على السرعة بالدرجة الأولى . فاذا استطاعت أن تسبق الجواد بقدرتها الفائقة على الركض نجت وفازت بالحياة والا كان نصيبها الموت . ومن الغريب جداً ان نجد امرأ القيس الانسان الملئ بالحياة لايتعاطف مع الفريسة، بل هو في الغالب يظفر بها ليقيم وليمة فاخرة لندمائه أو اصدقائه أو ليثبت قدرة جواده وسرعته . وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن سبب ذلك.

يعتقد أن السبب في ذلك هو مشاهدات امرىءالقيس الواقعية للحياة بسبب كثرة ترحاله وتجواله . فان الحيوانات القوية تفوز بالحيوانات الضعيفة إنها شريعة الغاب . وقد مارس امرؤ القيس هذا الفعل عندما كان يحتاج الى الطعام له ولندمائه . فناموس الحياة هو الصراع وطبيعة الحياة هي أن تمد أحياءها بالغذاء ، وقد كان غذاؤه صيد الطرائد .

أما في الحالة الثانية .فشدة حبه للحصان ولأن الحصان حصنه المانع الذي لايفارقه ابداً :

وبات عـليـه   سـرجه ولجـامه   وبات بعيني قائماً غير مرسل(٣)

فهو يريد له أن يفوز في صراع الحياة والموت (الصيد) مادام الحصان يمثله هو . فهو عندما يريد الفوز للحصان في هذا الصراع انما ينقل هذا الفوز لنفسه لأنه هو الذي يقود الحصان فهو والحصان واحد . والصياد عند امرىء القيس لايرافقه حصانه فقط بل يصطحب معه كلابا لمطاردة الفريسة . ويعطينا الشاعر لوحة رائعة للصراع بين الحياة والموت ، بين

---

(١) الصوار : القطيع من بقر الوحش ، جمزى : اسم مكان
(٢) القرهب : فحل البقر المسن ، القرا : الظهر ، الروق : القرن . شرح الديوان ص٥٤١
(٣) الديوان ، ص٢١ .

الكلب الذي يريد أن يفوز بالثور والثور الذي يدافع عن نفسه من اجل الفوز بالحياة .

فيدركنا فغم داجن سميع بصير طلوب نكر (١)
ألص الضروس حبّي الضلوع تبوع طلوب نشيط أشر (٢)
فأنشب أظفاره في النسا فقلت هبلت الا تنتصر (٣)
فكر اليه بمبراته كما خلّ ظهر اللسان المجر (٤)
فظل يرنح في غيطل كما يستدير الحمار النعر (٥)

لقد اعطانا امرؤ القيس أجمل لوحة للصراع بين الحياة والموت . وأجمل انتصار للحياة عندما نطح الثور الكلب بقرنه فجعله يدور حول نفسه ألماً. وهكذا نجا من موت محقق وفاز بالحياة . إنها لوحة الحياة من أجل الحياة ضدّ كل مغتصب لها في خضم الطبيعة العارمة التي لاتجد فيها غير الصراع من أجل الحياة

« ليست قصة الثور الوحشي سوى قصة رمزية يتناولها الشاعر من هذه الصحراء التي يضطرب فوق رمالها ويتحدث من ورائها عن هذه الرحلة رحلة الحياة في مخاوفها وقلقها واطمئنانها وأحلامها أو بعبارة أخرى أنه يصور واقع الحياة على مرآة وجدانه ويبين رأيه فيها» (٦) .

وقد عاد امرؤ القيس ثانية لوصف الصراع بين الثور والكلاب (٧) فاذا ما انزاح ستار الليل وخرج الثور من مكنسه تربصت به الكلاب الجائعة تريد

---

(١) فغم : اسم الكلب
(٢) الص : ملتصق ، حبي الضلوع : ظاهر الضلوع لضعفه ، اشر : نبه .
(٣) النسا : عرق في الفخذ إلى القوائم، هبلت : دعاء.
(٤) مبراة : قرن (*) المجر : الذي يدخل العود ،وشبه طعنه الثور بقرنه للكلب كمن ادخل عوداً في لسان الفصيل — ولد الناقة لذا فصل عن امه —ليمنعه من الرضاع .
(٥) غيطل : الشجر الملتف ، النعر : النعرة ذبابة خضراء تدخل في انف الحمار ، شرح الديوان ، ص ٨٠
(٦) وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص ٢٠٤
(٧) انظر / شرح الديوان ؛ ص ١٠٠ — ١٠٢

أن تنشب فيه أنيابها ومخالبها، فيحسّ الثور بالخطر ويلوذ بالفرار مثيراً الغبار في وجوه الكلاب .وبعد أن أجهدت نفسها للحاق به أنشبت أنيابها بالساق والنسا .ولكنه كافح من أجل الخلاص منها فلاذت بالشجر تعبة مرهقة مكدودة ومضى نشيطاً مرحاً :

يغورن في ظل الغضى وتركنه كقرم الهجان الغادر المتشمّس (١)

وقد لجأ امرؤ القيس الى تصوير الحالة النفسية للثور وهو يجابه الخطر المتمثل بالكلاب :

وأيقن أن لاقيته أن يومه بذي الرمث او ماوتنه يوم أنفس (٢)

إن امرأ القيس يدافع عن الحياة في تصويره للصراع بين الكلاب (الموت) والثور (الحياة) حيث ينتصر الثور (الحياة) دائماً في نهاية الصراع ويفوز بحياته . بينما ترتد الكلاب (الموت) خائرة مرهقة لاتستطيع اللحاق به . وهكذا تنتصر الحياة على الموت في صراع البقاء بين الحيوانات ذاتها ، كما انتصر الجمال والحب (الحياة) على الموت (الطلل) كما بينا سابقاً .

وكان حظ الحمار الوحشي حظاً وافراً مثل حظ الثور في اللوحات التي رسمها له :

فهو في آن يغني ويبعث صوته في الأسحار جميلا منعشاً في وادي خصيب مليء بالكلأ والشجر (٣) .

---

(١) غورن : دخلن ،ظل الغضى : ملتف الشجر ،قحل الهجان : الجمل الضروب ، الغادر : الممسك عن الضراب ، المتشمس : الذي ترك الضراب وبرز إلى المتشمس مرحاً نشيطاً : شرح الديوان ص ١٠٢

(٢) يومه : حينه وموته ، ذو الرمث : اسم مكان ، ماوتنه : استماتت في طلبه واستماتت الثور في دفعهن عنه ، يوم أنفس : يوم ذهاب نفوس فاما نفسه واما نفوس الكلاب ، شرح الديوان ص ١٠٦

(٣) شرح الديوان ، ص ٣٤- ٣٥

ثم يعود ليصور لنا الحمار الوحش نشطاً قوياً يسوق أتنه المستعدات للضراب ليعيد تجديد الحياة (١) . ويعطينا في لوحة كاملة تمثل جمال الحياة وروعتها عندما يقود الحمار الوحش الأتن الى مورد الماء للارتواء ثم يعيدها الى الهضاب مرحة سعيدة (٢) .

« ان هذه القصص رمزية لم يقصد الشاعر بها الى وصف حياة الحيوان ... بل يقصد أولا وقبل كل شيء الى الحديث عن رحلة الحياة نفسها ... فليست هذه السرعة سوى صورة حية من توالي الأيام وتعاقب الليالي وليست تحفل بالساقطين والضعفاء والمهزومين فتتوقف أو تبطيء بل تمضي سريعة ... وهو قبل كل شيء رحيل العمر أو رحلة الحياة في هذه المفازة الصعبة التي نعاشر في أحضانها الحزن والفرح » (٣) .

وأذا ما ظفر الصياد مرة بصيد حمار وحشي أو ثور يحصل ذلك بعد صراع طويل بين الحياة والموت :

فصاد لنا عيراً وثوراً وخاضبا ... عداء ولم ينضح بماء فيعرق (٤)

لقد كان انتصار الصياد على الحيوانات البرية مسبباً لدى امرىء القيس، فان الانسان دائماً هو سيد الموقف . وكأن الشاعر يريد أن يجعله سيد الطبيعة ليتمكن بعد ذلك من كشف سرّ هذا المجهول (الموت) . لقد قتل امرؤ القيس هذه الحيوانات ليوفر الطعام لصحابه خشية أن يموتوا جوعاً . فموت الحيوان أهون على نفس امرىء القيس ضمن خضم صراع البقاء من موت الانسان :

وظل صحابي يشتوون بنعمة ... يصفون غارا بالمكيك الموشّق (٥)

(١ - ٢ - ٤) شرح الديوان ، ص ١٠٦،٥٨ - ١٠٧ ، ١٢١ ؛
(٣) وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص ٢٤١ .
(٥) المكيك الموشق : اللحم المقطع ،وشائق يغلي بالماء والملح ثم يجفف ويحمل للطلب م. س. ص ١٢١

ولكن هذه الصورة اذا ما قارناها باللوحات الاخرى نجدها لوحة سريعة وناقصة ، وكأنه في باطنه غير راض عن هذا الموت لتلك الحيوانات المليئة بالحيوية والنشاط وإن كان المنتصر في حلبة الصراع هو الانسان « فعناصر المشهد وجوانبه المختلفة كاملة ولكنها متفرقة فالوحدة في التأليف مفقودة والترابط قد لايكون ضرورياً لشاعر ينظر الى الطبيعة الواسعة نظرة شمول بأرضها وسمائها وظواهرها المتباينة ولكن الوحدة الشعورية قد تكون البديل الذي ارتضاه امرؤ القيس لنفسه » (١).

لم ينته الصراع بين الحياة والموت مع امرىء القيس حتى بعد موته ، لقد استمر صراعه مع الفناء وانتصر عليه . وبقي امرؤ القيس مخلداً في نفوس محبي الأدب لانه كان متفاعلا مع الحياة وصادقاً مع نفسه وعكس كل ذلك في شعره وفي نفوس قرائه .



(١) عبد القادر حسن امين : شعر الطرد عند العرب ص ٢٩٠ .

المصادر

١ ابن رشيق القيرواني، العمدة، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٢

٢ ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، القاهرة ،مطبعة المدني، بلا

٣ — ابن قتيبة، الشعر والشعراء. بيروت. دار الثقافة، ١٩٦٩

٤ — ابن منظور، لسان العرب. القاهرة ، مطبعة بولاق، بلا

٥ — ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣

٦ — احمد الحوفي ، الغزل في الشعر الجاهلي . القاهرة. مكتبة النهضة مصر، بلا

٧ — احمد مطاع قباني واحمد الكردي، الشعراء النوابغ. دمشق. مطبعة الوفاء، بلا

٨ — ايليا حاوي، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، بيروت، دار الثقافة ١٩٧١

٩ — بدوي طبانة. معلقات العرب. القاهرة . مطبعة الرسالة. ١٩٥٨

١٠ — جاريث، فلسفة الجمال، القاهرة، بلا

١١ — جلال الخياط، الشعر والزمن، بغداد، دار الحرية. ١٩٧٥

١٢ — حسن السندوبي،شرح ديوان امرئ القيس، القاهرة ،مطبعة الاستقامة، بلا

١٣ — حسين عطوان، مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي، دار المعارف، ١٩٧٠

١٤ — حنا فاخوري، تاريخ الأدب العربي، بيروت، المطبعة البولسية ، ١٩٥٤

١٥ — سيد حنفي حسنين، الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية . القاهرة الهيئة المصريه العامة، ١٩٧١

١٦ — شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام. دمشق. مطبعة الجامعة دمشق، ١٩٦٤

١٧ — شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي. العصر الجاهلي، القاهرة. دار المعارف، ١٩٦٢

١٨ — طه حسين، في الأدب الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢

١٩ — عبد الحميد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، مطبعة الاعتماد، بلا

٢٠ – عبد القادر حسن أمين. شعراء الطرد عند العرب. النجف. مطبعة النعمان. ١٩٧٢
٢١ – عز الدين اسماعيل. روح العصر. بيروت. دار الرائد العربي. ١٩٧٢
٢٢ – علي بن عبد العزيز الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاهرة، دار أحياء الكتب العربية. ١٩٤٥
٢٣ – عنترة بن شداد العبسي. الديوان، القاهرة. المكتب الاسلامي، ١٩٦٤
٢٤ – فخري الدباغ. الموت اختياراً. بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٨
٢٥ – فرويد. كيف يعمل العقل. ت محمد خلف الله، القاهرة. بلا
٢٦ – فرويد. القلق. القاهرة. النهضة المصرية. ١٩٥٧
٢٧ – كروتشه. المجمل في فلسفة الفن. دمشق. دار الاوابد. ١٩٦٤
٢٨ – محمد ابو الفضل ابراهيم. ديوان امرئ القيس. القاهرة، دار المعارف. ١٩٦٩
٢٩ محمد صالح سمك. أمير الشعر في العصر القديم القاهرة مطبعة النهضة. بلا
٣٠ – محمد عبد العزيز الكفراوي. الشعر العربي بين التطور والجمود، القاهرة، دار النهضة مصر. ١٩٦٩
٣١ – محمد كامل حسين. الشاعر العربي والذوق المعاصر، القاهرة، مؤسسة دار الشعب. بلا
٣٢ – محمد النويهي. الشعر الجاهلي. القاهرة. الدار القومية. بلا
٣٣ – محمود شكري الآلوسي، بلوغ الارب في احوال العرب، بغداد دار السلام، ١٣١٤
٣٤ – نجيب محمد البهبيتي. تاريخ الشعر العربي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠
٣٥ – نوري حمودي القيسي، دراسات في الشعر الجاهلي، دمشق، دار الفكر. ١٩٧٢

٣٦ ـ نوري حمودي القيسي، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، الموصل، مطبعة الجامعة، ١٩٧٤
٣٧ ـ يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، بغداد، دار التربية، ١٩٧٢
٣٨ ـ وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، بيروت، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥
٣٩ ـ هاملتون جب، المدخل في الأدب العربي، ت. كاظم سعد الدين، بغداد، دار الجاحظ، ١٩٦٩

الدوريات

٤٠ ـ أنس داود، قراءة جديدة لمعلقة امرئ القيس، مجلة البيان، العدد ١٢٢، ١٩٧٦
٤١ ـ سعد دعبيس، تجربة الحب في الشعر الجاهلي، مجلة الثقافة العربية، العدد ١٢، ١٩٧٦
٤٢ ـ عز الدين اسماعيل، الشعر وقيمته الحضارية، مجلة الاقلام، العدد ١، ١٩٧٢
٤٣ ـ فيصل حسين صوفي، عصرية القصيدة الجاهلية، مجلة الثقافة العربية، العدد ٥، ١٩٧٦
٤٤ ـ نوري حمودي القيسي، الحوار في القصيدة الجاهلية، مجلة آفاق عربية، العدد ٥، ١٩٧٦
٤٥ ـ يوسف اليوسف، الواقعة والمفهوم في المعلقات، مجلة الثقافة العربية، العدد ١١، ١٩٧٦

الجرس والإيقاع في تعبير القرآن

د. كاصد ياسر حسين



الموسيقى (١) في تعبير القرآن صورة للتناسق الفني فيه ، ومظهر من مظاهر تصوير معانيه ، وبالتالي هي آية من آيات هذا الاعجاز الذي يتجلى — فيما يتجلى — في اسلوبه المتميز الرفيع . ولم يكن القرآن شعراً لتكون موسيقاه على غرار موسيقى الشعر الخارجية من تفعيلات متزنة متكافئة ، وقواف مطردة متناظرة ، وانما هو نثر له خصائص النثر جملة ، الا انه نثر من نوع فريد ، نثر لم تعرف له العربية نظيراً في تراثها الادبي وفنها القولي .

واذا كانت الحياة العقلية والاجتماعية والدينية التي جاء بها الاسلام مباغتة قوية للحياة الجاهلية ، وقفزة نوعية في حياة الامة العربية ، فان هذه الظاهرة القرآنية الجديدة ظاهرة الموسيقى القرآنية ، قد أتخذت سمة بارزة متميزة يمكن وصفها بانها مباغتة «أذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي بل — حدث — ما يشبه الانفجار الثوري المباغت ، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة » . (٢)

---

(١) الموسيقى لفظة يونانية الاصل mousike كانت تطلق عند اليونان القدماء على الفنون بعامة ولاسيما الشعر والغناء (مرمرجي : عربية — سامية ص ٤٠)، وعني بها فيثاغورس وافلاطون وأرسطو ،وكان افلاطون خاصة يعدها مهذبة للنفوس (الكاتب : كمال أدب الغناء ص٢٤، وجوليوس : الفيلسوف وفن الموسيقى ص ٢٨ وما بعدها) . ثم عربها العرب قبل الاسلام، وكانوا يسمونها— فضلا على التسمية باللفظة المعربة— بعبارة عربية صرف هي: « علم الايقاع والنغم» (مرمرجي : ٤٠). وقد صنف فيها كثيرون بعنوانات متباينة دالة عليها، الا ان غير واحد ذكرها بلفظها المعرب، من اقدمهم: احمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦هـ) في مصنفاته : « المدخل إلى علم الموسيقى» و« كتاب الموسيقى الصغير » « كتاب الموسيقى الكبير» (حسين محفوظ: قاموس الموسيقى العربية ص ٤٢٣)،كما الف فيها أبو نصر الفارابي(ت ٣٣٩) مصنفه الضخم : « كتاب الموسيقى الكبير» المطبوع. واستعملت اللفظة في العصر الحديث في الدراسات اللغوية والادبية وبخاصة في جرس الشعر وايقاعه كما استعملت للدلالة على الجرس والتنغيم والايقاع في القرآن الكريم، على نحو ما نجد في« اعجاز القرآن» للرافعي: و« من بلاغة القرآن» للدكتور احمد بدوي، و« دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم » لمحمد المبارك، و« التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ٢٣٢.

ولقد كان من المناسب للقرآن ، وقد انزل ليكون كتاب عقيدة شاملة ودين عالمي ، ان يتجاوز الموسيقى التقليدية المحلية المتعارف عليها في البيئة العربية الجاهلية ، وان يحدث «انقلاباً هائلا في الادب العربي ، بتغييره الاداة الفنية في التعبير .

فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون ، وجاء من ناحية اخرى بفكرة جديدة ، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد » . (١)

ويرى الدكتور هرتفج هرشفلد ان القرآن تجاهل الصور العروضية ليباين الشعر في موسيقاه ،ويؤكد فارمر أن القرآن تجنب ذلك النوع من الموسيقى الذي يصاحب الشعر ويمجد المثل الوثنية . (٢)

ومن هنا ارتبطت الموسيقى — كأداة فنية في التعبير — بقيم القرآن ومفاهيمه عن الله والطبيعة والانسان ، ارتباطاً جعلها من اهم الادوات ذات التأثير المباشر في نفس الجاهلي ووجدانه .

تأثر العربي بموسيقى القرآن :

وأذا كان القرآن بهذه الصفة من التفرد والسموق ، فان لجرس موسيقاه نصيباً ضخماً من هذه الميزة . ولقد أدرك العربي بحكم فطرته من هذا الجرس الشيء الكثير وهو وان لم يكن قادراً على تعليله وبيان مواضع التأثير فيه فأنه — لاشك — كان قادراً على استيعابه ، والاحساس بجلاله وجماله جملة . فكان المشرك اذا عجز عن النيل مـن سمو القرآن وهو عاجز عنه — وصفه بالسحر . وكأنه يعبر بذلك الوصف عن غاية اعجابه وتأثره به وآية ذلك ماحكاه القرآن في سورة سبأ (٣) أذ قال :

« وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين »

ان تأثير اسلوب القرآن وجرسه وايقاعه الموسيقي ، يحتاج في الواقع الى تهيؤ وجداني لاستقباله ، او بعبارة اخرى الى تحسس ذاتي ويقظة وجدانية

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

(٢) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ص ٤٤–٤٥.

(٣) آية : ٤٣.

تد كه وتنفعل به . ومن هنا فان الذين تأثروا به . لابد انهم كانوا يملكون قدراً وافياً حياً من هذا التحسس، الذي لايتخلف او يقصر عن أدراك هذه الخصيصة الفنية الفائقة في اسلوب القرآن وتعبيره . فادراك الجرس الموسيقي على حقيقته يحتاج كما يقول احمد بن الطيب السرخسي الى امرين : «قوة حس السمع ، وقوة التمييز» ، (١) وهذا عنده يقع قبل كل شيء «بسلامة الطباع ودربة السماع » (٢)

فاذا انتقلنا من النص القرآني الى التاريخ والسير ، وجدنا لأمر القرآن وروعته الموسيقية في الفاضه وعباراته ، اكثر من شاهد ، فمن ذلك جواب الوليد بن المغيرة المخزومي — وكان من وجوه قريش وبلغائها — لأبي جهل بن هشام ، حين جاءه يستعديه على رسول الله (ص) ، ويغريه بأن يقول قولا ويدل على انكاره دعوته ، أذ قال الوليد : «فماذا أقول فيه ؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالاشعار مني ، ولا اعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله ان لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وانه ليحطم ما تحته ، وانه ليعلو وما يعلى .. » قال أبو جهل : «والله لايرضى قومك حتى تقول فيه» ، قال : «فدعني أفكر فيه ...» ، فلما فكر قال : «ان هذا الا سحر يؤثر عن غيره» . (٣) فحكى القرآن ذلك في سورة المدثر ، (٤) منكراً لهذا القول الباطل .

ويستوقفنا من كلام الوليد اسباغه على القرآن صفة الحلاوة ، وهي صفة تتصل عن كثب بجرسه بهذه الموسيقى العجيبة الآسرة التي فيه والتي انتهت بالرجل الى هذا الغلو ، حين وصفه بأنه «سحر يؤثر» . وكأن اسلوب القرآن

(١) الكاتب : كمال ادب الغناء ص٢٠.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) أورده البخاري في صحيحه، انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن ١٨٨/٢٩.

(٤) آية : ٢٤.

وموسيقاه متلكا عليه كل أحاسيسه، حتى وصفه بهذه الصفة التي تنبيء عن تحير وانقطاع وهروب من مواجهة روعة الكتاب المعجز المبين .

وارتباط الموسيقى بالسحر قديم في التصور الانساني أذ «كان الاغريق يعتقدون ان للموسيقى قوة سحرية ، شأنهم في ذلك شأن العالم الشرقي » ؛ (١) ، وكلام الوليد مبني – فيما يبدو – على هذا التصور الاسطوري لأثر الموسيقى البليغ في النفس والوجدان .

ان هذه الحاسة الموسيقية أو «الهيئة الشعرية» كما يسميها الفارابي (٢) فطرية في الانسان منذ تكوينه ، أو على حد قوله : «مركوزة فيه من اول كونه» (٣) وهي في اللغة العربية وفي أحساس العربي اكثر ظهوراً ، حتى ان كثيراً من الدارسين «يصف لغتنا بأنها لغة موسيقية ، وانها انحدرت الينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم نصوصها» ، (٤) وتلك الخصيصة اكسبت سمع العربي قدرة فائقة في الحكم على النصوص والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة فصار مرهفاً يستريح الى ضرب من الكلام لحسن وقعه . وينفر من آخر لنبو جرسه . (٥) ولقد بلغ القرآن الذروة في التأثير في سمع العربي ووجدانه : بعذوبة جرسه وجمال ايقاعه ونغمه .

وليست الحلاوة التي عناها الوليد – هذا البليغ – الا الموسيقية التي تنفذ الى صميم الوجدان ، فتحركه بل تهزه ، وتثير مكان الاعجاب والاستحسان ، فهي أذاً حلاوة وجدانية وليست حسية ، ولذلك تدرك ولا تعلل في كثير من الاحيان وهذا سرمن اسرار القرآن ، وقد جعلها الحسن بن أحمد الكاتب (من أدباء القرن السادس للهجرة) ، صفة موسيقية ، وهي عنده مقابلة للفجاجة ، مثلما يقابل اللين الشدة والخفة الثقل ، (٦) ولذلك وصف

---

(١) كورت زاكس: تراث الموسيقى العالمية ص٥٤.
(٢) و(٣) كتاب الموسيقى الكبير ص ٧٠.
(٤) ابراهيم انيس: دلالة الالفاظ ص ١٩٥.
(٥) ابراهيم انيس: دلالة الالفاظ ص ١٩٥.
(٦) الكاتب: كمال أدب الغناء ص ٢٥.

لحنا لم يستحسنه لحن به بيت من الشعر قائلا : «فانه صوت فج قليل الحلاوة » . (١) فاذا علمنا ان الفجاجة من كل شيء تعني – في اللغة – عدم نضجه حتى قيل : ثمار فجة ، (٢) وتعني تبعاً لذلك عدم الاستلذاذ والاستمتاع بالمأكول تبين . لنا ان مفهوم الحلاوة الموسيقية التي وردت في النصوص الجاهلية والاسلامية ، ليست الا استمتاع بالجرس والايقاع الجميل المكتمل المشتمل على اعلى صفات الحسن .

وكأن الوليد ايضاً أراد هذا ، حين سمع الرسول (ص) يتلو عليه سورة (حم السجده) ، فاذا به يدهشه أمر القرآن ، فيقول من غير تردد ولا كتمان: «ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق ، وان اعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر» . (٣)

حتى أذا صار القرآن سمير الصحابة ورفيقهم الذي لايغادرونه في حلهم وترحالهم ، وجدنا ذلك الشعور العميق بروعة الموسيقى القرآنية يتعاظم في نفوسهم، مثلما تتعاظم المعاني والمفهومات : ووجدنا من اقوالهم ما يفصح عن احساس جمالي بهذه الموسيقى التي أزدانت بها سور القرآن . فاذا كان الوليد بهرته سورة واحدة من (الحواميم) (٤) قد سمعها فان الصحابي العالم عبد الله بن مسعود بهرته غير واحدة من هذه السور . بل بهرته كلها من غير استثناء ، حتى شبهها بالروض الأنف الذي ان حل فيه حال ، لم يرق له ان يتركه وشيكاً أو يمر به سريعاً ، بل يتملاه ببطء ويستمتع به على ريث، لينعم بما فيه من حسن وروعة . وقد يسرت له ملكة الايجاز صوغ هذا الاحساس الفائق ، بهذه العبارة البديعة :

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٧.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (فجج) ٣/١٦٤.

(٣) الجرجاني: الرسالة الشافعية ص ١٢٥، دلائل الاعجاز ص ٣٥٨: والعلوي: الطراز ٣/٢١٨.

(٤) الحواميم: هي السور المبدوءة بالحرفين المقطعين(حم)، وهي: غافر، وفصلت، والشوري، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف .

« أذا وقعت في آل حم ، (١) وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن » . أي أتتبع محاسنهن . (٢)

وقد أنكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ان يكون ابن مسعود ، أنما وصف الحواميم بهذا الوصف « من أجل أوزان الكلمات ومن أجل فواصل في اواخر الآيات » ، (٣) وارجع ذلك الى المعاني التي عليها مدار النظم عنده ، وهذه المعاني هي « معاني النحو واحكامه فيما بين الكلم » . (٤) وايضاً استبعد ان يكون الجاحظ قد ذهب الى مزية اللفظ الموسيقية حين قال في بعض كتبه : «ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم عورة واحدة ، لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها » . (٥)

ولاشك ان ابن مسعود لم يذهب في وصف الحواميم الى مجرد هذا الملحظ الموسيقي من الفواصل واوزان الكلمات ، بل لابد انه ذهب الى اعمق من ذلك وأدق ، الى ائتلاف الاصوات اللغوية في الكلمة الواحدة وانسجامها موسيقياً ، والى أئتلاف أواخر الالفاظ وتناغمها ، بحيث تتصل اللفظة باللفظة من غير نبو ولا شرود ، فيحس القارىء وهو يتلو تلك السور بانسيابية موسيقية رائعة . وفي كلام الجاحظ الذي اوردناه آنفاً نقلا عن عبد القاهر ، ما يشعر بهذه الخصيصة الموسيقية المزدوجة ، متجلية في اللفظة المفردة وفي نظم الكلمات . وعبارته التي يقول فيها : «لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها» دالة على ذلك بوضوح ، فيما يبدو لنا . وعناية الجاحظ – المعروفة – باللفظ تفسح لنا المجال في ان نفهم عبارته هذا الفهم .

على ان معاني القرآن ليست بمعزل عن هذه الميزة التي بيناها وهي الموسيقى

---

(١) يريد: الحواميم.

(٢) و(٣) الجرجاني: دلائل الاعجاز ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٠.

(٥) الجرجاني: دلائل الاعجاز ص ٣٥٩.

أذان هذه المعاني السامية الفريده ،تؤدى بألفاظ جزلة فصيحة ذات موسيقى ملائمة لتلك المعاني ، على ما سنرى .

وبذلك يتبين لنا ان هذه الحلاوة التي استشعرها العربي في الجاهلية وصدر الاسلام بفطرته وذوقه ووجدانه ، اتخذت سمة التعليل والتحديد بوضوح في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة على يد الجاحظ . كما تناولتها من بعد، أيدي البلاغيين الباحثين عن اعجاز القرآن كالرماني والباقلاني والزمخشري وغيرهم ، وان كان بحث طائفة منهم في هذا الجانب قاصراً أذ لم يتجاوزوا لمح الفواصل والمقاطع ، وما فيها من امارات البلاغة والاعجاز ، وهي جانب من موسيقى القرآن وليست جميع الجوانب .

موسقى القران في تصوير المحسنات : —

يعني القرآن بالجرس والايقاع عنايته بالمعنى . وهو لذلك يتخير الالفاظ تخيراً يقوم على اساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جو الآية وجو السياق ، بل جو السورة كلها في كثير من الاحيان. وبخاصة تلك السور القصار التي حفل بها العهد المكي . لتأكيدها أصول العقيدة الاسلامية : من الايمان بالله وتوحيده، والتصديق برسالة النبي المبعوث (ص) ، وبالبعث والنشور ،والجنة والنار، ، وما الى ذلك من موضوعات هامة في بناء العقيدة الاسلامية .

فالقرآن يستعمل الالفاظ ذات الجرس الموسيقي الناعم الرخي والسلس الموحي ، في المواضع التي يشيع فيها جو من الحياة الهانئة الجميلة .

فالصبح حين ينشر ضوءه في الآفاق ، ويبث الحياة في الطبيعة الهامدة الساكنة وفي الانسان يتخير له القرآن هذه اللفظة الموحية المؤدية بجرسها لحركة الفجر الشفيفة الممتدة ، وهي لفظة «تنفس» ، ذات الجرس الهامش الرقيق،فيقول: « والصبح أذا تنفس » . (١) ولو تأملنا في رقة هذه اللفظة وسلاستها لوجدناها ملائمة لرقة الصبح ونداوته ،يبدو ذلك في همس (٢)التاء والسين

(١) التكوير : ١٨.

(٢) حروف الهمس : هي حروف يضعف الصوت بها عند جري النفس معها، فلم يقو الصوت بها قوته في حروف الجهر، فصار فيها نوع من الخفاء. ولذلك اتسمت الحروف المهموسة بالرقة، وهي عشرة يجمعها قولك : فحثه شخص سكت.

وذلاقة (١) النون والفاء. فاللفظة موحية بدلالتها وجرسها وظلها على هذه اليقظة التي شملت الطبيعة بعد سكون الليل وهدوئه .

وهذه اللفظة بهرت قدامى البلاغيين من المفسرين الا انهم لم يتجاوزوا في الوقوف عندها ، لمح الاستعارة وبيان دلالة التنفس في الآية ، على نحو ما نجد في «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي (٢) (ت٤٠٦هـ) أذ نراه يقول : «وقوله سبحانه : «والصبح أذا تنفس » ، وهذه من الاستعارات العجيبة ، والتنفس هنا عبارة عن خروج ضوء الصبح من غموم غسق الليل فكأنه متنفس من كرب أو مَروح من هم» وعلى نحو ما نجد في تفسير الكشاف للزمخشري (٣) (ت٥٣٨هـ) أذ يقول : «فان قلت : ما معنى تنفس الصبح ؟ قلت : أذا أقبل الصبح أقبل باقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً على المجاز » .

ورأى الرضي في تصوير الاستعارة هنا ، أقوى واقرب .

وبالمثل يعمد القرآن الى الاسلوب نفسه حين يصور هدوء الليل وسكونه وخلوه من صخب النهار واصطراع الحياة فيه ، فيعبر عن هذه الحقيقة المحسة في الطبيعة بالعسعسة تارة وبالسجو أخرى ، وبالسريان ثالثة ، مزاوجاً في تصوير الحركة المتخيلة لامتداد الليل بهدوء، بين دلالة الالفاظ الوضعية في اللغة ، وبين ايحائها الموسيقي في السمع فيقول في سورة التكوير : (٤) «والليل أذا عسعس » . وفي سورة الضحى : (٥) «والليل أذا سجى» ؛ وفي سورة الفجر : (٦) «والليل أذا يسر ».

---

(١) حروف الذلاقة : وتمتاز بالسهولة والخفة على اللسان ، ويجمعها قولك : مر بنفل . ينظر في النوعين : طيبة النشر ص ٣١و ٣٣

(٢) ص ٢٧٢

(٣) ٣/٣١٧

(٤) آية : ١٧

(٥) آية : ٢

(٦) آية : ٤

فاذا تأملنا مثلا في لفظة «عسعس» بمقطعيها : عس عس وجدنا جرسها وايقاعها يوحي بحركة الليل وهو يعس في الظلام والخفاء ، كما يعس الماشي ويطوف في الليل تارة بيده وأخرى برجله . (١) وهو ايحاء بالجرس والايقاع عجيب لا نجده في العبارة المؤدية للمعنى : أقبل بظلامه .

وكل ما ورد في القرآن من وصف الليل بهذا المعنى يتسم بالموسيقية الرقيقة المناسبة لهدوئه وأنتشاره ، او اشتماله على المحسنات آنا بعد آن . فالقرآن يقول في مواضع أخرى : «والليل وما وسق» (٢) ويقول : «فالق الاصباح وجعل الليل سكناً » ، (٣) ويقول : «والليل أذا يغشاها » . (٤)

هناك أذاً نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الاصوات ،وهي التي يسميها علم اللغة الحديث : «الدلالة الصوتية» ، وممن يذهب الى ذلك من علماء اللغة الغربيين : «همبلت» و«جسبرسن» . وسمي الاخير هذه الظاهرة «رمزية الالفاظ . (٥)

ان الرقة الموسيقية في تصوير الليل في القرآن تعود الى انه — في مفهومه — نعمة وجمال وطمأنينة ، خلافاً للتصوير الجاهلي له ، أذ نراه في اشعار غير واحد من الجاهليين يرتبط بالهموم والآلام النفسية المبرحة وتشخيص امرىء القيس لليل ومخاطبته له ، من اصدق الامثلة على ذلك ، أذ نراه يقول في مطولته المشهورة (٦)

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

الى ان يقول في شعور الضائق الصدر ، المضطرب النفس ، بظلام الليل وتطاوله.

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٣٠/٦٦.

(٢) الانشقاق: ١٧.

(٣) الانعام: ٩٦.

(٤) الشمس: ٤.

(٥) ابراهيم انيس: دلالة الالفاظ ص ٦٨و ٧٠.

(٦) هما البيتان ٤٤و٤٦، ينظر: النحاس: القصائد التسع المشهورات١/١٥٩، ١٦٠.

الا ايها الليل الطـــويل الا أنــجـــل بصبح وما الاصباح منك بأمثل

على ان مسيلمة الكذاب حاول ان يعارض القرآن بوصف الليل ، ولكن اين من ذلك الايقاع القرآني المعبر ، ما ذهب اليه حين استعمل — بجهل منه — لفظة «أطخم» صفة لليل، فقال في محاولته المتهافتة : والليل الا طخم»(١) مقسماً بالليل .

مع ما في هذه اللفظة من نّبو وجسأة في السمع يزريان بها اذا عرضناها خاصة على تلك التعابير الشفيفة التي اوردنا آنفاً ، من مثل : (والليل اذا سجى » ، « والليل وما وسق» ... فضلا على ان مفهوم هذه اللفظة في اللغة لايلائم رقة الليل ، اذ الأطخم كما في القاموس : «كبش رأسه أسود وسائره كدر» والاطخم ايضاً :

« لحم جاف يضرب الى السواد » . (٢) وكلاهما لامناسبة بينه وبين الليل بحال الا في صفة السواد ،وهي صفة تظهر في كثير من المحسات التي في الطبيعة . انه لبون كبير ما بين كلام مسيلمة الكذاب، وبين قول الباري عزّ وجل . ولم يكن ذلك ليفوت الصحابة وهم الذين ملكوا ذوقاً فنياً عالياً،وانما روى عن ابي بكر — رضي الله عنه — انه قال منكراً محذراً بعد سماعه هذا الكلام وشبهه من بعض بني حنيفة : «سبحان الله ! ويحكم ان هذا لم يخرج عن آلّ — اي عن ربوبية — فأين كان يذهب بكم ؟» (٣)

لقد ظن مسيلمة ان السجع هو سر الموسيقى في القرآن ، وفاته ان الايقاع الذي في الفواصل غير السجع الذي كان يقوله الكهان ، وان التناسق الموسيقي بين الفواصل وبين الجو الذي تصوره الآيات من اسرار القرآن واعجازه في البيان . ولا نريد ان نطيل في التعليق على كلام مسيلمة في تصوير الليل ، أذ الامر كما قال الباقلاني بحق من ان «كلام مسيلمة الكذاب وما زعم انه قرآن ، أخس من

---

(١) الباقلاني : اعجاز القرآن ص ١٥٧—١٥٨.

(٢) الفيروز آبادي : القاموس المحيط : (الطخمة).

(٣) الباقلاني : اعجاز القرآن ص ١٥٧—١٥٨.

ان يشتغل به ، واسخف من ان يفكر فيه » . (١)

وأذا أنتقلنا الى مشاهد أخرى من الطبيعة — ولنختر مشهداً مائياً — وجدنا القرآن يمتاز بألفاظه الفريدة ، حين يعرض لطرف من مظاهر النعمة الالهية في البحر أذ نراه يختار من الالفاظ أسلسها جرساً وأرقها صوتاً وينفي من بيانه ، وتعبيره اشدها صوتاً وأثقلها جرساً، ومن ذلك ما صوره في سورة الشورى(٢) أذ يقول : « ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام » ، وهي عبارة جمعت بين الايجاز ورقة الجرس وجمال الايقاع .

وقد وقف عند جانب من موسيقاها — وهو المتعلق بالجرس — العلوي صاحب «الطراز» (ت٧٤٥هـ) ليقول : ان القرآن يتميز عن كلام النبي (ص) وكلام أمير المؤمنين علي ، وغيرهما ممن يشهد له بالفصاحة والبلاغة وهذا التميز «تارة يكون راجعاً الى الفاظه من فصاحة بنيتها وعذوبة تركيب احرفها وسلاسة صيغها، وكونها مجانبة للوحشي الغريب وبعدها عن الركيك المسترذل»... ثم يضرب الآية مثلاً دالاً على مواضع هذه السلاسة التي نوه بها ، في الفاظها ، وكيف آثرها القرآن في الاستعمال على غيرها ، فيقول : «الا ترى قوله تعالى: «ومن آياته الجوار» ولم يقل : الفلك لما في الجرى من الاشارة الى باهر القدرة ... وقال : «في البحر» ولم يقل : في الطمطام ولا العباب وان كانت كلها من اسماء البحر لكون البحر أسهل وأسلس ، ثم قال : «كالأعلام » ولم يقل: كالروابي ولا كالاكام ايثاراً للاخف الملتذ به، وعدولا عن الوحشي المسترك » . (٣)

موسيقى القرآن في تصوير الشعور النفسي :

أذا كانت النصوص التي اوردناها سالفاً ، تشعر بتلاؤم موسيقى الالفاظ

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٨. وانظر في سخافة سجع مسيلمة: الرافعي: اعجاز القرآن ص ٢١٩.

(٢) آية : ٣٢.

(٣) العلوي: الطراز ٣/٢١٥-٢١٦.

القرآنية مع الجو الحسي الذي اراد القرآن تصويره فان من الفاظ القرآن ما يلائم جرسها وايقاعها الجو النفسي الذي اراد القرآن بيانه .

فاذا وقفنا عند قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم » (١) الفينا «ما» قد عملت بجرسها عملها في توفية معنى الرحمة النبوية حقها من التفخيم والتعظيم ، تلك الرحمة التي شملت اصحاب النبي الكريم ، فجعلتهم يلتفون حوله في حب وثقة وأطمئنان ، فهذه الأداة تعظم معنى ما تدخل عليه ، وتعطي ملمحاً بلاغياً معنوياً ، «ولا يكون ذلك الاحيث يكون الكلام مرتبطاً بأمر عظيم ،كالرحمة التي الآنت قلب الرسول»(٢)على ما بينته الآية التي اوردناها آنفاً(.) ولا يضير قول النحويين انها زائده (٣)أذ هي زائدة عندهم في الاعراب ؛ اما من ناحية النظم فهي اصيلة مؤدية لاستكمال المعنى المراد . غير انهم لم يلحظوا ذلك من جهة الجرس ، وانما لحظوه من جهة الوضع اللغوي للفظ ، او التجوز فيه ، حتى قالوا : ان «ما» هنا تفيد التوكيد» (٤) أو «زائدة تفيد التوكيد » (٥) وحتى قال عبد القاهر الجرجاني : «ان كون «ما» تأكيداً نقل لها عن اصلها ومجاز فيها » . (٦) على ان الزمخشري اضاف الى القول بزيادتها للتوكيد افادتها «الدلالة على ان لينه لهم ما كان الابرحمة من الله» . (٧) وهذا يتعلق بعلم المعاني كما ترى ، ولاينافي ماقدمناه من افادتها تفخيم («ما» تدخل عليه وتعظيمه عن طريق الجرس) وهو يصدق ايضا على الآيتين الاخريين اللتين استعملت فيهما على هذا الحد ، وهما قوله عزّ وجلّ في قوم نوح «مما خطيئاتهم اغرقوا فأ دخلوا نارا» ، (٨) وقوله في بني

---

(١) آل‌عمران : ١٥٩.

(٢) احمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ١٠٢.

(٣) ينظر : الكامل للمبرد ٣٤٢/٢ ، وفيه يقول : « ماتزاد على ضربين : ان يكون دخولها في الكلام كالغائها » ، وضرب مثلا لذلك الآية التي ذكرنا.

(٤) الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٤٥٩ (٧) الزمخشري : الكشاف ٣٥٧/١.

(٥) الزمخشري : الكشاف ١ ٣٥٧ .

(٦) الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٤٥٩.

(٨) نوح : ٢٥ .

اسرائيل : «فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم...» (١) اذا كان لهذا المد الموحي جرسه بالتفخيم ، دلالة على عظم الخطيئات التي اغرقت قوم نوح عليه السلام ،وعظم نقض الميثاق الذي استحق بسببه بنو اسرائيل اللعن .

ويشعرنا مدّ «ما» وبقية المدات ، في قول موسى عليه السلام للرجل العالم الصالح (٢) الذي اتبعه ليتعلم منه ، بالاستعطاف ، والتحنن الذي اراد ان يحدثه في نفس صاحبه ، حين سأله ثم قال معتذرا « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امرى عسرا» (٣) .

وكان من الممكن ان تردّ «ما» المصدرية (٤) هنا مسبوكة في الجملة ، لتكون العبارة: لاتؤاخذني بنسياني(٥).ولكن شتان مابين التعبيرين في اداء المعنى اذ الاول يوائم هذا الموقف النفسي المتسم بالاستعطاف والاعتذار ، وبخاصة حين يتناغم مع (المدود) في الآية كلها .

ويشعرنا شعورا متزايدا بالاستعطاف ،هذا الدعاء الخاشع المتناغم المتلائم مع موقف الرجاء في نفس الداعي المزدان بسمات البث والمناجاة : «ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) يرجح المفسرون انه الخضر انظر : الطبري : جامع البيان عن تأويل أي القرآن ١٥ / ١٧٩ و ما بعدها .

(٣) الكهف : ٧٣ .

(٤) ينظر في مصدرية «ما» في هذه الآية : الزمخشري : الكشاف ٢٦٦/٢ ، والنسفي : مدارك التنزيل ٣ / ٢٠ أذ أولا الآية – فيما اولاها – : لا تؤخذني بنسياني . ويعضد هذا التاويل رواية أبي بن كعب التالية ، من أنه «لم ينس». وهو اقرب الى المراد من عدها موصولة لانه طلب ألا يؤاخذ بالنسيان ، لا بالمنسي .

(٥) ظاهر النص القرآني أنه نسي ، غير ان المروى عن ابي كعب كما في رواية الفراء بسنده عنه – أنه «لم ينس ولكنها من معاريض الكلام» معاني القرآن ١٥٥/٢ ، وكأنهذا مبني على تنزيه الانبياء عن الغفلة والسهو . وقد جعله الزمخشري احد الوجوه المحتملة في معنى الآية قال «وهو من معارض الكلام التي يتقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض» الكشاف ٢٦٦/٢ ، يريد ، : انه لم يعتذر عن نسيان هنا ولكن عن مطلق النسيان .

من قبلنا ربنا ولاتحملنا ما لاطاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » . (١) وهذا الدعاء : «ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرّ عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لاتخلف الميعاد » (٢).

أرأيت كيف ان الألفات الى ما في هذه الالفاظ ،قد استطالت بالصوت والنداء المرفوع الى الباري عزّ وجل — وخاصة عندما يمد عدد منها عند الترتيل والتجويد (٣) . حتى جعلته ترتيلة متناغمة فيها ما فيها من روح المناجاة وصدق البث؟ ... وكيف ولدت نغما ملائما لهذا الاشفاق على النفس، الذي حدا بأولئك الداعين الى رفع هذا الدعاء الخاشع الوديع ، حتى جاء موائما لطلب الغفران وتكفير السيئات ومناسبا للرجاء في نيل الثواب والنجاة في يوم الجزاء ؟ .. فضلا على ما احدثته النونات بغنتها (٤) الموسيقيةمن تنغيم منسجم مع هذا الجو الروحي الرقيق ، وهي متبعة بالمصوت الطويل «الالف» المتكرر في اجزاء هذا الدعاء .

ان اللغة في القران تؤدي دورا كبيرا في العطاء الموسيقي ذلك ان الموسيقى فيه لاتنبع من وزن شعري كالذى عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ولكنها

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) آل عمران : ١٩٣-١٩٤ .

(٣) كالمد الجائز ، مثل مد الف «نا» في (تؤاخذنا) او(نسينا) ، وهو المنفصل ، وقدره عند التجويد اربع اوخمس حركات والمد العارض للسكون ، وهو الذي يكون عند الوقف على آخر الكلمة المسبوقة بحرف من حروف المد — الالف والياء والوو — مثل (الابرار) و(الميعاد) في آية آل عمران ، التي اوردنا . ويجوز مده الى ست حركات . ينظر هذا المدان في : هداية المستفيد في احكام التجويد لابي ريمة ص١٧ والتجويد وعلوم القرآن لعبد البديع صقر ص٣٥و٣٩ .

(٤) حرفا الغنة : هما الميم والنون . والغنة تقع في حرف النون حين يخرج الهواء من الانف ينظر في غنة النون : شرح طيبة النشر لاحمد بن الجزري ص٣٩ .

تنبع من اللغة نفسها ، من ائتلاف الاصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الالفاظ وتناسقها وتناغمها وادائها للمعنى ودلالتها عليه.

واذا كانت هذه الخصيصة الهامة معروفة في الشعر العربي . حتى الحديث منه (١) فانها قد بلغت في القرآن الذروة في التكامل والوضوح . وفكرة الارتباط بين الاصوات والمدلولات ، المعروفة لدى المحدثين من علماء اللغة بأسم « الأ نا ماتوبويا» onomatopoia ،ليست مما ينكره علم اللغة القديم والحديث، وان كانت هذة الصلة فيما بين الطرفين ليست عقلية منطقية في الذهن الانساني العام ، بحيث توحي لجميع الشعوب ايحاءا واحدا بل هي تختلف من شعب إلى آخر ومن أمة إلى امة (٢).

واذا كانت الموسيقى الرقيقة التي نوهنا بها قد تجلت في كتاب الله ــ في اللفظة المفردة وفي العبارة الواحدة،بل في سياق مجموعة من الآيات،وكانت تصويراً لمناظر ومشاهد حسية من الطبيعة ــ بيناها عند الكلام على الموسيقى في تصوير المحسات أو نفسية روحية تنبع من داخل النفس وتنطلق من صميم الوجدان البشري المتفاعل مع الحياة في ايمان ووعي،فلسنا نعدم ــ فوق ذلك ــ اثرا لهذه الموسيقى الرقيقة حين يصور القرآن مشاهد النعيم في اليوم الآخر بما فيها من هناءة حسية ومعنوية ، وضروب من المتع مشتهاة . وجو هانىء رغيد ، على نحو ما نرى في هذه الاية « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع اجر من أحسن عملا اولئك لهم جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » (٣).

(١) يذكر الدكتور محمد مندور ان الحنين المضني في بيت الدكتور احمد زكي ابو شادي :
عودي لنا ياليالي أمـــســنـــا عـــودي وجددي حظ محـــروم وموعـــود
لا توحي به الالفاظ وتركيب اللغة . بل توحي به المدات التي استطاع ان يجمعها في البيت . ينظر : الادب وفنونه ص٢٩ .

(٢) ابراهيم أنيس : من اسرار اللغة ص١٣١ وما بعدها .

(٣) الكهف : ٧٣ .

أو حين يصور القرآن نعيم الاخرة المترتب على العمل الصالح في الدنيا : « ان المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالاسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (١) .

أو حين يصور مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، يتسم بالخشوع للرحمن في العرض والحساب : « وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً»(٢).

فتوالي اصوات الهمس في المشهد الاخير مثلا ، يشعر بهذا الموقف الخاشع والجو الهامس المليء بخشية الله وان كان تناغم الحروف والكلمات في عذوبة ليوائم جوالنعيم الحسي والمعنوي الذي يستمتع به المؤمنون في الآخرة والدنيا في النصين الاولين - ،قد يستشعره السامع ولا يستطيع تشخيصه والنفاذ الى سره . ومع ذلك فلا يمنعه شيء دون تسلله الى وجدانه لينعم بما فيه من جمال ورقة « وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وارفع من الفصاحة اللفظية اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن اعظم مزايا القرآن » (٣) .

ان هذا التناسق الذي يستشعره القارىء بين حروف القرآن . والذي يعد سمة عامة في تعبيره ، سماه قدامى البلاغيين « تعديل الحروف » . وعدوه « نقيض التنافر » ،(٤) قال الرماني (ت٣٨٦هـ) : « ... المتلائم في الطبقة العليا القرآن كله . وذلك بين لمن تأمله ... والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس ، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة . ومثل ذلك قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف

---

(١) الذاريات : ١٥ - ١٩.

(٢) طه : ١٠٨ .

(٣) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٧٨ - ٧٩ .

(٤) ينظر الرماني : النكت في اعجاز القرآن ص٩٤ ، والباقلاني : نكت الانتصار لنقل القرآن ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

وقراءته في اقبح ما يكون من الحرف والخط . فذلك متفاوت في الصورة وان كانت المعاني واحدة » . (١)

وبذلك التفت الرماني الى الأثر النفسي الذي يحدثه تلاؤم موسيقى الالفاظ وتناسقها في قارىء القرآن وسامعه . وهو ملحظ دقيق والتفات ذكي . وكان يذهب الى ان القارىء في التلاؤم الموسيقي بين حروف القرآن وبين غيره من الكلام، كالفارق بين المتنافر والمتلائم من الكلام، الذيهو في الطبقة الوسطى، (٢) والذي لايرقى الى القرآن . الا ان ابن سنان لم ير له هذا الاعتبـــار ولم يرَ هـذا التلاؤم من وجـوه الاعجاز . وعلة ذلك انه لم يعد نظم القرآن بذاته — من دلائل اعجازه ، بل كان يذهب إلى القول بالصرفة ، وهي « صرف العرب عن معارضته بان سلبوا العلوم التي بها يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك » كما يقول . (٣) وهو رأى مرجوح ، بل مرفوض عند جمهور البلاغيين جملة وتفصلا . (٤)

الموسيقى الشديدة ودلالتها

ويبدو العكس مما اوردناه في مواضع كثيرة من القرآن اذ قد تتسم الموسيقى بالقوة والشدة المناسبة للمعنى الذي اراد تصويره وبيانه .

---

(١) الرماني : النكت في اعجاز القرآن ص٩٦ .

(٢) الرماني : النكت في اعجاز القرآن ص٩٥ .

(٣) ابن سنان : سر الفصاحة ص٨٩ .

(٤) أول من قال بالصرفة انظام من شيوخ المعتزلة (ت٢٢١هـ) ، ثم تابعه عليه آخرون . وقد رده فيمن رده الخطابي (ت٣٨٨) في بيان اعجاز القرآن ص٢٢ – ٢٣ ، والباقلاني (ت٤٠٣هـ) في اعجاز القرآن ص٢٩ وما بعدها . وعبد القاهر الجرجاني في الرسالة الشافية ص١٤٦ ودلائل الاعجاز ص٣٥٩ وهو كما قال الزركشي (ت٧٩٤هـ) بحق : « قول فاسد » البرهان في علوم القرآن ٩٤/١ لانه لايجعل القرآن معجزا بذاته بل بأسباب خارجية لا علاقة لها بنظمه وفصاحته وبلاغته وجرسه وايقاعه . ولو كان الامر كذلك لما بدا من العرب ما يدل على اكبارهم له، وتعجبهم من سحر بيانه، لانه يكون – على هذا الفرض – من طبقة ما تنطق به السنتهم .

فالمتامل في قوله تعالى: « تلك اذا قسمة ضيزي »(١)يشعر بأن جرس اللفظة: « ضيزى » ، ملائم كل الملاءمة للدلالة على تلك القسمة الجائرة التي تمخضت عنها اسطورية الجاهليين ، حين زعموا ان الملائكة بنات الله ! . . مع انهم في واقع حياتهم يبخسون البنات حقوقهن ، ويئدونهن من غير ذنب . وأية لفظة اخرى لها عين مفهومها في اللغة ، مثل: «ظالمة» أو «جائرة» ، لاتوفي المعنى المراد ايفاء تلك اللفظة القرآنية . اذ ليس لهاتين اللفظتين او نحوهما ذلك الوقع النفسي الذي يحدثه جرسها ، بما فيه من ثقل حرف الضاد المستعلي الفخم (٢) وايحاء المدين المتقابلين إلى اسفل وإلى اعلى (٣) اعني الياء والالف ، اللذين راى الاستاذ مصطفى صادق الرافعي (٤) في جرسهما مايشبه حال المتهكم المستغرب حين يميل يده وراسه . فغرابة هذه اللفظه في وضعها اللغوي وجرسها من اكثر الاشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي قسمها الجاهليون . (٥)

واذا انتقلنا إلى مواضع العذاب والوعيد في القرآن ، لم نخطىء ايحاء الجرس في اداء المعنى ، ولم يعسر علينا ادراك اثره في تصوير المشاهد والاحداث . فنحن ندرك بلا مشقة هذا الجرس الشديد الذي يحكي صورة العذاب الذي انصبت على الطغاة: عاد وثمود وفرعون ذي الاوتاد، في هذه العبارة الموحية: «فصب عليهم ربك سوط عذاب»(٦) وسواء أكان المراد بالسوط في لغة الآية الآلة المعروفة التي يضرب بها أم كان –على قول بعضهم– مصدرا من ساط القدر يسوطها

---

(١) النجم : ٢٢ .

(٢) ينظر في استعلاء الضاد وفخامتها : شرح طيبة النشر لاحمد بن الجزري ص٣٢ .

(٣) ذكر الفارابي والحسن الكاتب عند كلامهما على المصوتات الطويلة ان الالف حرف عال والياء حرف منخفض . ينظر كتاب الموسيقى الكبير ص١٠٧٣ وكمال أدب الغناء ص٦٣ .

(٤) اعجاز القرآن ص٢٦١ .

(٥) احمد بدوي : من بلاغة القرآن ص٢٦١ .

(٦) الفجر : ١٣ .

سوطا، اذا حرك مافيها وخلطه(١)سواء أكان المرادلغة هذا أوذاك، فان جرس هذه اللفظة مع ماتقدمها من الصب ، يلائم هذا الحدث . فضلا عن ظلها الذي تلقيه وهي متشكلة في صورة استعارية فريدة. والصاد والطاء من الاصوات المطبقة (٢) المستعلية، ذات الجرس الفخم الشديد، (٣) وورودها في الاسلوب القراني ضئيل جدا ، كما لاحظ الدكتور ابراهيم أنيس .(٤)

ومن ذلك قوله تعالى : « فأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين »، (٥) وقوله: «ولقد اتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء»(٦)ونحوذلك من آيات الوعيد التي ورد فيها ذكر المطر. فصيغ مادة«مطر»بثقل طاءاتهاوتكرارها، ملائمة بجرسها لمشهد العذاب الذي نزل بأولئك الكافرين المكذبين لرسل الله .

وورودها على الصورة من دلائل دقة استعمال القرآن للألفاظ في تعبيره، ومن دلائل استعماله الجرس المناسب في الموضع المناسب، ذلك ان استعماله لهذه المادة في مثل هذه المشاهد مطرد، على حين استعمل الغيث في مواضع النعمة والخير من مثل قوله في آية يوسف (٧): «فيه يغاث (٨) الناس وفيه يعصرون » ، وفي آية الشورى(٩) : «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد »لانها بمفهومها اللغوي وجرسها الموسيقي،

---

(١) الرضي تلخيص البيان في مجازات القرآن ص٢٧٧.

(٢) سيبويه : الكتاب ٤/٤٣٦ ؛ والباقلاني : اعجاز القرآن ص٥٤ .

(٣) ابراهيم انيس : اللهجات العربية ص٧١ - ٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ص٧٢ ، وفيه يذكر نسبة شيوع الصاد في القرآن ٨ مرات في كل ألف من الاصوات الساكنة ، والطاء ٦ مرات .

(٥) الشعراء : ١٧٣ ، النمل : ٥٨ .

(٦) الفرقان : ٤٠

(٧) هي الآية ٣٩ من سورة يوسف .

(٨) أي : ينزل عليهم الشورى.

(٩) هي الآية ٢٨ من سورة الشورى .

ملائمة لذلك لتلبسها بمعني النجدة والعون من جهة وائتلاف اصوات اللين والهمس الرقيقة الرخوة فيها من جهة أخرى. اذ الياء والالف حرفان ليّنان - أو مصوتان طويلان - والثاء حرف مهموس . فلم يقل: فيه يمطر الناس، لما في هذه اللفظة من الجسأة والشدة . وهو ملحظفني فات كثيراً من المتقدمين. وكأنهم وجدوا ان اللفظتين «مطر» و «غيث» بمفهوم واحد في الدلالة ولافارق بينهما البتة . على حين يدل الاستقرار لموارد استعمالها في القرآن: على ان بينهما تباينا في الدلالة وتمايزا في الاستعمال . وقد التفت الى ذلك الجاحظ (١)(ت ٢٥٥ هـ) من قبل، فقال: «وقد يستخف الناس الفاظا يستعملونها . وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى ان الله تبارك وتعالى لم يذكر الجوع الا في موضع العقاب ... وكذلك ذكر المطر ، لانك لاتجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام . والعامة واكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث » .

والتفت إلى هذا التمايز بعد الجاحظ أبو منصور الثعالبي (٢) (ت ٤٢٩ هـ)، فبين ان لفظ الامطار لم يأت في القرآن الا للعذاب ، الا انه لم ينوه بأثر الجرس في الدلالة على المعنى، شأنه في هذا شأن عامة الادباء واللغويين .

وعلى هذا الاساس من اعطاء الجرس الموسيقي الشديد حقه في التعبير استعمل القرآن الاوصاف التي اشتقها ليوم القيامة من مثل : « الصاخة » في قوله عز وجل : « فاذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وامه وابيه . وصاحبته وبنيه » (٣) (الطامة) في قوله : « فاذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ماسعى» . (٤) فالأولى «لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها والثانية « لفظة ذات دوى وطنين تخيل اليك انها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شي ويطويه » (٥) .

(١) البيان والتبيين ٢٠/١

(٢) فقه اللغة : فصل في الريح والمطر ص٣٧٥ .

(٣) عبس : ٣٣ ٣٦ .

(٤) النازعات : ٣٤، ٣٥ .

(٥) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٨٠ .

(٥)

التقابل الموسيقي في تعبير القرآن :

وكثيراً ما تتقابل صور النعيم والعذاب في القرآن فيتقابل معها تبعاً لذلك الجرس الموسيقي ، منتقلاً من نوع إلى آخر وآية ذلك التباين الموسيقى بين هاتين الصورتين اللتين يعرضهما القرآن في سورة « عيسى » ، اولاها للمؤمنين وقد استبشروا بما آتاهم الله من نعيم والثانية للكافرين وقد غموا بما جنت أيديهم ، وهم يساقون إلى الجحيم « ووجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يؤمئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة الفجرة » . (١)

فالجرس في آيتي النعيم سلس يوائم بسلاسته – المنبعثة من همس الحروف وذلاقتها – فرحة القلوب التي بدت على وجوه المؤمنين فجعلتها مضيئة متهللة ، كما يسفر الصبح بعد غموم الليل ويضيء(٢) على حين يشعرنا الجرس في آيتي العذاب باختلافه عن هذا الجرس الرخي وهو في عبارة « ترهقها قترة » شديد ثقيل لافت ، يعبر عن تلك المشاعر النفسية المرهقة التي لابست قلوب القوم ، حتى بدت على وجوههم المغبرة السود . « ولا ترى اوحش من إجتماع الغبرة والسواد في الوجه » كما يقول الزمخشري (٣) وهذا الازدواج في وصف الوجوه بالغبرة والسواد ، يقوى التقابل بين هذا المشهد والذي سبقه أعني الذي وصفت فيه الوجوه بالإسفار والضحك والاستبشار ، كما يقابل الجرس الشديد هنا ، ذلك الجرس الرقيق . والتقابل ضرب من التناسق الفني في القرآن . واسلوب من اساليب التصوير فيه « وطريقة من طرق التلحين » . (٤)

---

(١) عبس : ٣٨ / ٤٢ .

(٢) قارن في اخذ (مسفرة) من اسفار الصبح بالكشاف للزمخشري ٣١٤/٣ .

(٣) الكشاف ٣ / ٣١٤ .

(٤) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٨٢ .

واذا كان التقابل الموسيقي نابعاً في هذين المشهدين من تقابل جرس الحروف، فانا نراه في مواضع اخرى من القرآن ، نابعاً من تقابل الايقاع في مشهدين متباينين . فمن ذلك هذان المشهدان اللذان يعرضهما القرآن في ايقاعين متغايرين، احدهما لآخر يوم من ايام الدنيا، والثاني للأيام التي يقضيها متكبر مغرور سادر في غيّه ، لايلوى على شيء من الحق والخير والصلاح : « كلاّ اذا بلغت (١) التراقي وقيل مَن راق وظن انه الفراق. والتفّت الساق بالساق. الى ربك يومئذ المساق . فلا صدّق ولا صلّى . و لكن كذّب وتولّى . ثم ذهب الى اهله يتمطّى . أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ».(٢)

فالايقاع في المشهد الاول، مشهد الاحتضار وما يلابسه من رهبة وخشوع واشفاق وحيرة ، تمس المحتضر المكروب ، وتنتاب المحيطين به من اهله وصحبه، ايقاع هادىء رزين يلائم جلال الموت ورهبة الاجل. وقد اضفى عليه المد الذي يحدثه المصوِّت الطويل – الألف – ، مسحة في الهدوء المناسب لهذا المقام، مقام التسليم والخضوع للسنّة الالهية، التي لاتدفعها رقية راق ولا اشفاق مشفق. ثم يعقبه مباشرة – في المشهد الثاني – ايقاع آخر ، فيه تباين عن الاول اذ هو لايخلو من سرعة وخفة ، تحكي حالة فكرية ونفسية لأنموذج بَشَري خالد ، يراه الانسان في كل زمان ومكان ، هي حالة المغرور الذي ينفلت بسرعة من طاعة الله ، لينطلق الى اهله في تمطّ وخيلاء ، فيعقبه هذا الوعيد الذي جرى في بيان العرب ولسانهم مجرى الاصطلاح : « أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى » ، فاذا اطلقوه في وجه من يعادون ، لم يفهم منه الا الوعيد والتهديد. اذ «هو دعاء عليه بأن يليه مايكره» ومعناه «ويل لك». (٣) وتغاير الايقاع في كلا هذين المشهدين يدركه السمع بشيء غير قليل من الارهاف

---

(١) الضمير المستتر يعود على الروح والتراقي : العظام التي على جانبي الرقبة.
(٢) القيامة : ٢٦ – ٣٥ .
(٣) الزمخشري : الكشاف ٣/٢٩٥ .

والتحسس الدقيق ، ففيه إذاً خفاء قد لايتأتى ادراكه لكل سمع ، بل يحتاج الى تحسس ذاتي وارهاف سمعي.

(٦)

موسيقى الفواصل القرآنية :

للفواصل (١) دورها في اعطاء الآي جرساً موسيقياً مناسباً ، لذا عني القرآن بتوافقها في كثير من السور والآيات ، وبخاصة السور المكية ، اذ كان للجرس أثره في احداث التأثير النفسي والوجداني المطلوبين ، في بدء الدعوة الاسلامية خاصة. لانها اكدت أول ماأكدت اصول الدين والعقيدة : على مابيناه سالفاً .

وكان القرآن يوفّي هذه الظاهرة الاسلوبية حقها من الإداء والتأثير ، من دون أن يحيف على المعنى ، أو بعبارة اخرى : انه لايعنى بموسيقى الفواصل من دون ان يلحظ تناسقها مع سياق الآيات وتناسبها مع اجوائها المعنوية .

ولهذا قال الرماني : « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن افهام المعاني ، والفواصل بلاغة والاسجاع عيب، وذلك ان الفواصل تابعة للمعاني ، واما الاسجاع فالمعاني تابعة لها ».

---

(١) الفاصلة في القرآن كالقافية في الشعر والقرينة في السجع ، ألا انها لا تخضع للضرورة بخلاف الأخريين . وسميت بهذا الاسم ، لانها ينفصل عندها الكلامان ذلك انها تفصل الآية التي تقع فيها عما بعدها . ينظر الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٥٣/١و٥٤ . وما ذكره الدكتور احمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن»ص٧٥، من انها قد تكون مأخوذة من قوله تعالى : «كتاب فصلت آياته» أو لأن المعنى بها يتم ويزداد وضوحاً وجلاء وقوة، ليس بالقوى ولا يسنده : اشتقاق اللفظة أذ هي من الفصل لا من التفصيل . ولا نوافقه في تسميته التوافق الموسيقي بين الفواصل سجعاً ، وعدة السجع من سمات اسلوب القرآن . ينظر كتابه : من بلاغة القرآن ص٢٤٦ . كما لا نوافق الدكتور احمد الحوفي في ذلك وان كان قد وصف هذا السجع بأنه فريد . ينظر الحديث عن مقالة : (سجع القرآن فريد) في كتاب : لغتنا الجميلة لفاروق شوشة ص١٤٥ .

ثم قال : « وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لانها طريق الى إفهام المعاني التي يحتاج اليها، في احسن صورة يدل بها عليها » .(١)

واذا كان الرماني قد وقف عند هذا الحد من الاعتبار لأثر الفواصل في تعبير القرآن، فان الباقلاني وقف طويلا عند هذه الظاهرة الشائعة في اسلوب القرآن، ظاهرة التعبير الموسيقي بالفواصل. فجعل نظامها من الاسس التي يبنى عليها الاعجاز البياني ، وأشبع هذه المسألة بحثاً ودراسة في كتابة: « اعجاز القرآن»، وبين ان نظام الفواصل في الكتاب المبين، نسيج وحده. وميز الفواصل من الاسجاع ، بعد ان نفى السجع جملة من القرآن، ناقلا عن اصحابه الأشاعرة. (٢) ثم بين ان هذا النظام الفريد في الفاصلة ، لوكان سجعاً لما تحيروا فيه ذلك التحير حتى سماه بعضهم سحراً . «لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة. وهو غير خارج عنها ولاتميز منها» ؟ (٣) وانتهى في هذا الفصل الذي عقده لنفي السجع من القرآن، (٤) إلى القول في خاتمته: «فبان بما قلنا ان الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة، موقع النظائر التي تقع في الاسجاع . لايخرجها عن حدها ولايدخلها في باب السجع». (٥) وهي حقيقة لابد من التسليم بها، والاقرار بمضمونها ، اذ شتان مابين الفاصلة القرآنية والسجعة النثرية . وذلك جلي لكل من درس الفاصلة دراسة جيدة، وعرف طرفاً من اسرارها وموسيقى اصواتها.

والفواصل اما ان تتقارب من الناحية الموسيقية تقارباً يبلغ درجة التماثل(٦) في الوزن وحرف الروي ، وعندئذ تبلغ أوجها في التناسق الموسيقي .

---

(١) الرماني : النكت في اعجاز القرآن ص٩٧ وص٩٨ .

(٢) الباقلاني اعجاز القرآن ص ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧–٦٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٦٤.

(٦) هكذا سماه ابن سنان في سر الفصاحة ص ١٦٥، وسماه الرماني في النكت ص ٩٨ : تجانس وتابعة في هذه التسمية الباقلاني في: الانتصار لنقل القرآن، تنظر نكت الانتصار ص٦٦ . وسماه البديعيون : المتوازي. ينظر الاتقان للسيوطي ١٠٤/٢ والتسمية الاولى أدل . أثر،

كما في قولة تعالى « والنجم اذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى ». (١) فهوى وغوى فاصلتان من وزن واحد وحرف روى واحد. واما ان تتماثل في الوزن دون حرف الروي، وذلك هو المتقارب (٢)، كما في قوله تعالى « وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم». (٣) فالمستبين والمستقيم فاصلتان متفقتان في الوزن متباينتان في حرف الروى.

واما ان تتماثل في حرف الروى دون الوزن ، وهو الذي سماه البديعيون : « المطرف » (٤) كالذي في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر وأن يروا آية يعرضوا ويقولون سحر مستمر » . (٥) فلفظتا قمر ومستمر فاصلتان متفقتان في الورى متباينتان في الوزن .

ولهذا التغاير في وزن الفواصل ورويها من التماثل الى التقارب أثره النفسي. أذ هو ضرب من التنويع الموسيقي المشوق لسماع الكلام . لان الكلام إذا استمر على جرس واحد وايقاع واحد ، لم يسلم من التكلف واثارة الملل في النفوس . وذلك شيء معروف في الموسيقى . إذ يتغير الايقاع في الدرجة والنوع ... بل ان من البلاغيين من ربط ذلك بفصاحة القرآن ، فرأى ان الجرس الموسيقي من وجوه فصاحة القرآن ومظهر من مظاهره . حتى ان حازماً القرطاجني (ت٦٨٤هـ) ذكر في كتابه : (منهاج البلغاء) : «ان الافتنان

---

(١) النجم : ١-٢.

(٢) هذه تسمية الرماني وابن سنان الخفاجي، تنظر النكت ص ٩٨ وسر الفصاحة ص. ١٦٦، والبديعيون يسمونه: المتوازن، ينظر البرهان للزركشي ٧٥/١-٧٦ والاتقان للسوطى ١٠٤/٢.

(٣) الصافات: ١١٧-١١٨.

(٤) الزركشي: البرهان ٧٥/١، والسيوطي: الاتقان ١٠٤/٢.

(٥) القمر : ١-٢.

في ضروب اعلى من الاستمرار على ضرب واحد ، فلهذا وردت بعض آيات القرآن متماثلة وبعضها غير متماثل » (١)

ان هذا التنويع الموسيقي في الفواصل وزناً ورويا يلحظ في اغلب سور القرآن ، وبخاصة الطوال والمتوسطة منها . فنحن أذا تأملنا في آخر سورة الاحزاب مثلامن الآية ٥٧الى الآية ٦٩ ، تجلى لنا هذاالبناءالفريد في نظام الفاصلة بوضوح . أذ نجد ان الفواصل تتشكل بهذه الصورة بحسب الترتيب : مهيناً . مبيناً رحيماً . تقتيلا تبديلا . قريباً . سعيراً . نصيراً . الرسولا . السبيلا . كبيراً . فتتفق تارة في حرف الروى والوزن ، وتختلف اخرى ، في حرية واضحة ، لايربطها بما تقدمها من الآي التي تقع فواصل لها الا المعنى . وهذا النظام ليس من الشعر في شيء،ولا من النثر المعهود عند ظهور القرآن . بل هو نظام خاص بالقرآن وحده .

لقد تميزت فواصل القرآن بالدقة،(٢)ويسر لها ذلك نأيها عن الضرورات التي كثيراً ما يخضع لها الشعر ، وبعدها عن التكلف الذي ينؤبه سجع الكهان وما روى لنا من نثر الجاهليين في صور خطب ووصايا اسست على موسيقية اللفظ والتزام القرائن السجعية ، ووجهت فيها كل العناية الى الاصوات فغمرت المعاني ، وصار من المألوف التعبير عن المعنى القليل بألفاظ كثيرة (٣) . اما فواصل القران فهي تابعة للمعني وليس المعني تابعاً لها . وهي بالتزامها الموسيقى المتفاوت في الدرجة والنوع تتمتع بحرية تامة في الانتظام برؤوس الآي .

---

(١) الزركشي : البرهان ٦٠/١، وانظر : منهاج البلغاء لحازم القرطاجني: الملحق ص ٣٨٨-٣٨٩، ففيه اشارة إلى ماحكاه الزركشي عن حازم.

(٢) عبد الوهاب حمودة : مقال بعنوان: اللغة العربية والموسيقى، مجلة الثقافة، العدد: ٥٧، ص ٣٢.

(٣) ابراهيم انيس: دلالة الالفاظ ص ٢٠٣، وقد مثل لذلك بقول مرثد الخير بن ينكف : « قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السهمة»، وعلق عليه بقوله: « تجد ان كل هذه العبارات ذات معنى واحد»، مع مافيها من السجع المقصود لذاته.

ولقد ميز القرآن نفسه عن كلا النوعين : الشعر وسجع الكهان ، حين قال « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » . (١) وهي حقيقة مارى فيها الجاهليون بادىء بدء ثم سلموا بها بعد ذلك عن طواعية ،بعد ان لم يجدوا عن الاذعان للحق والواقع محيصاً .

ولاثر الفواصل في التعبير والتصوير نجد القرآن يصّعد الجرس الموسيقي وحين يقتضي الجو الذي يصوره ذلك . فتراه يلتزم في مواضع بحرفين في الروى بدلا من حرف واحد . وهو التزام عرف في الشعر العربي أحيانا ، ولكنه لم يأت بطائل .

فلو قرانا سورة الرحمن أوصور جمال الطبيعة في القرآن كما يسميها الغربيون(٢) لوجدنا فواصلها تنتهي بحرفين هما في الغالب الالف والنون والالف صوت لين ، ومده له دلالته الهادئة . والنون حرف متوسط الجرس لابالشديد ولابالرخو ، وهوشبيه بأصوات اللين (٣) ولذلك فهو «من الاصوات التي تستعمل استعمالا سلسا ، وتبين بيانا غير مستكره وتحس حسا غير مستبشع» كما يقول الفارابي (٤). وقد ائتلفا في فواصل هذه السورة فجاءت الالف سابقة للنون ذات الغنة الملائمة للترنم والتطريب. (٥)

ويلاحظ ايضا انه قد تخلل ألفاظ الايات كثير من حروف الهمس الرقيقة الرخية ، كالسين والشين والحاء لتناسب هذا الجو الغنائي الذى تصوره وهو جو مليء بالنعم المتباينة في مشاهد الطبيعة الحية والصامتة ، التي تؤلف موكبا موحيا بالنعمة العريضة التي انعم الخالق بها على عباده وهي نعمة

(١) الحاقة : ٤٠-٤٣.
(٢) سيد أمير علي: روح الاسلام ص ١٧١.
(٣) ابراهيم انيس: اللهجات العربية ص ١٠٥.
(٤) الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير ص ١٠٧٤. وقريب منه ماذكره الكاتب في كمال ادب الغناء ص ٦٣.
(٥) تنظر دلالة نون الفواصل على التطريب، في البرهان للزركشي١/٦٨.

لاتقف عند حد ولا تحصى أوتعد ، وان كان القرآن قد نوه بطرف منها . ولم يقصد الى تقصيها ، على عادته في اللفت والتوجية .

وقد تناولت السورة في فاتحتها المسائل الثلاث الكبرى التي شغلت فكر الانسان منذ اقدم الازمان : الله والطبيعة والانسان. الا انها لم تذكر من اسماء في هذا الموضع الا لفظة (الرحمن) ، لتساوقها مع هذا الجو الفياض بالرحمة والانعام ، ولايقاعها الجميل المتناغم مع ما بعد ها من الفواصل فالمتأمل في هذه الايات التي افتتحت بها السورة . ليتضح هذا الذي بيناه:

« الرحمن ،علم القران ،خلق الانسان،علمه البيان الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » . (١)

وعلى هذا النمط من تعداد النعم في الطبيعة والانسان تسير السوره في اياتها المباركات ، فتتكرر فيها هذه اللازمة الخالدة : «فبأي آلاء ربكما تكذبان» اثنتين وثلاثين مرة ، تقريرا للنعم المعروضة على الانظار نعمة نعمة على وجه التفصيل والبيان وقد عملت عملها في اضفاء جرس موسيقي رائع على السور .

وقد تحدث فاصلة ولفظة تقدمتها ايقاعاً موسيقيا متناغما مع فاصلة اخرى ولفظه متقدمة عليها . فيكون الايقاع في كل آية مركبا من جزأين ،كل جزء منهما يوائم نظيره — موسيقيا — في الاية الاخرى . (٢) فمن ذلك

(١) الرحمن: ١–١٣.

(٢) وقارن بأحمد بدوي: من بلاغة القرآن ص٨٨، فقد نوه بالتقارب الموسيقي الشديد بين الفاصلتين في الايتين اللتين استشهد نا بهما بعد هذا الكلام، وان لم ينوه بالايقاع في الآيتين بالصورة التي بيناها.

قوله تعالى : « ان الينا ايابهم . ثم ان علينا حسابهم » (١) فعبارة «الينا ايابهم» ذات ايقاع متوازن مع ايقاع عبارة « علينا حسابهم » وكل من العبارتين في آية مستقلة وكل منهما مكون من جزأين متناسقين في الايقاع ومتوازيين اذ ان « الينا » تناظر «علينا» «ايابهم» توائم « حسابهم» في الايقاع.

وكان من عناية القرآن بتناغم الفواصل بالتقارب او التماثل ، ان جعل عبارة « طور سينين » ، ترد في سورة التين بهذه الصيغة ، لتوائم من حيث الجرس ما قبلها وهو قوله عز وجل : «والتين والزيتون » وما بعدها وهو قوله : « وهذا البلد الامين » ، وعدل في هذا السياق عن الصيغة الاخرى التي وردت في سورة (المؤمنون) ، وهي «طور سيناء» ، من قوله تعالى : «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين » ، (٢) وذلك لأن الهمز الذي في «سيناء » لايتناغم مع النونات التي في الفواصل ، ولا يتسق وجو الترنم الذي بثته موسيقى النونات في السورة كلها ، سورة التين ، لما في الهمز من جسأة وشدة . (٣)

على ان طلب القرآن للمعنى قبل كل شيء يصرفه — في مواضع — عن العناية بتحقيق التناسق الموسيقي التام بين الفواصل — في الوزن والروى — حين يحقق العدول عنه ، معنى اكثر ايحاء وأبلغ تصويراً . ففي آية الحج : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، (٤) كانت الفاصلة في الآية السابقة :

«وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » ، (٥) دالية الروى ، وكان من المناسب ان يوصف الفج بالبعد فيقال : فج بعيد . ولكن ايثار الوصف بالعمق تصويرٌ لما يشعر به المرء امام طريق حصر بين جبلين ، فصار كأن له طولا وعرضاً وعمقاً » .(٦)

---

(١) الغاشية : ٢٥—٢٦.

(٢) المؤمنون : ٢٠.

(٣) ينظر في شدة الهمزة : ابراهيم انيس : اللهجات العربية ص ٥٨.

(٤) الحج : ٢٧.

(٥) الحج : ٢٦.

(٦) احمد بدوي : من بلاغة القرآن. ص٦٣.

وقد تشترك الفواصل وطائفة من ألفاظ الآي ، في تصوير الجو الذي تتحدث عنه السورة . ويبدو ذلك بجلاء في سورة «الناس» اذ نجد ان هذه السورة التي ختم بها القرآن ، تؤلف بنية موسيقية متناغمة . فنلحظ ان حرف الروى (السين) قد صور بجرسه المهموس المتكرر ، جو الوسوسة (١) التي تحدثت عنها السورة وعزز من كثافة الجرس الآيات وتقارب الفواصل . نقرأ ذلك في قوله تعالى :

«قل أعوذ برب الناس . ملك الناس اله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس » .

وهناك ظاهرة تطرأ على عدد من الفواصل بجرسها وتناسق بعضها مع بعض أشار اليها غير واحد من القدامى المحدثين . تلك هي حذف حرف من آخر الفاصلة أو زيادة حرف فيه. وقد سماه الزركشي :(٢) «ايقاع المناسبة» وقال في الفصل الذي عقده بهذا العنوان : «واعلم ان ايقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد ، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً . ولذلك خرج من نظم الكلام لأجلها في مواضع » .

فمن الحذف ، حذف ياء العلة من آخر الفعل المضارع المعتل الذي لم يسبقه جازم ، كما في قوله عز وجل في سورة الفجر : (٣) «والليل أذا يسر » اذ حذفت الياء من الفاصلة «يسر» ، لتَلحقَ التناسق الموسيقي بينها وبين الفواصل التي تقدمتها والفاصلة التي تلتها . أذ ان مبنى الفواصل على الوقف؛(٤) وبقاء الياء يفوّت هذا التناسق .

ومنه حذف ياء المنقوص الذي لم ينون ، كما في قوله تعالى في «سورة الرعد» : (٥) «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» ، أذ حذفت الياء من «المتعال» لتناسقة هذه الفاصلة موسيقيا مع ماتقدمها من الفواصل،مثل« مقدار » وما تأخر عنها مثل «النهار» و «وال» و (الثقال)،إذا كانت تلك الفوصل غير منتهية بالياء.

---

(١) قارن بالتصوير الفني في القرآن ص ٨٠.
(٢) البرهان في علوم القرآن ٦٠/١.
(٣) آية : ٤.
(٤) البرهان ٦٩/١.
(٥) آية : ٩.

وقد التفت الى هذا الاسلوب من قدامى اللغويين أبو منصور الثعالبي، (١) وعلله بما سماه: «حفظ التوازن»، أي توازن الفواصل موسيقياً في رؤوس الآي .

ومن هذا الوادي ايضاً حذف ياء الاضافة ، ويبدو ذلك في قوله تعالى في «سورة القمر : (٢) فكيف كان عذابي ونُذُر»، اذ كان حرف الروي«الراء» في الفاصلة : «نذر» ، موائماً لحروف الروى في فواصل السورة كلها ، أذ كانت تنتهي بالراء . فاذا وقف عند التلاوة على هذه الفاصلة ، اتسقت في موسيقاها وايقاعها مع ما قبلها من الفواصل .

واما الملحظ الآخر الذي يرى في الفواصل ، وهو زيادة حرف في اواخرها، فقد عدوا منه ما ورد في سورة الاحزاب ، (٣) وهو قوله تعالى : «وتظنون بالله الظنونا» ، فقد زيدت الالف بعد النون في لفظة «الظنونا» ،مع ان الاصل ورودها بغير ألف. وقد عللوها بتناسق الفواصل وتناسبها ، قال الزركشي: (٤) «لان مقاطع فواصل هذه السورة الفات منقلبة عن تنوين في الوقف ، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع ، وتناسب نهايات الفواصل» . وعد منه قوله عز وجل في السورة نفسها : «فأضلونا السبيلا» ، (٥) وقوله : «وأطعنا السبيلا» . (٦) أذ زيدت الألف على اللام في الآيتين ، كما هو واضح .

وقد ذهب هذا المذهب من المعاصرين عبد الوهاب حمودة فيما سماه : «زيادة حرف المد ولا موجب له الا المحافظة على الموسيقى ، والحرص على الانسجام الصوتي» ، الا انه احتاط مع ذلك ، فرأى أنه لا مانع من أن تكون

---

(١) فقه اللغة: فصل(في الحذف والاختصار) ص ٥٠٧ .
(٢) آية: ١٦.
(٣) آية: ١٠.
(٤) البرهان في علوم القرآن ٦١/١.
(٥) الاحزاب: ٦٧.
(٦) الاحزاب: ٦٦.

هناك اسباب اخرى على وجه المناسبة الموسيقية ، يصح ان تلحظ في الخروج عن الاصل في الآيات المذكورة » (١) .

غير ان بعض المغاربة أنكر ان تكون زيادة الألف أجتلبت من أجل تناسق الفواصل ، وقال : «لم تزد الألف لتناسب رؤوس الآي ، كما قال قوم لأن في سورة الاحزاب : (٢) «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» ، وفيها : « فأضلونا السبيلا» ، وكل واحد رأس آية وثبتت الالف بالنسبة الى حالة أخرى غير تلك ، في الثاني دون الاول . فلو كان لتناسب رؤوس الآي لثبت في الجميع » . (٣)

وهي حجة قوية ، أذ لو كان الغرض مجرد التناسب الموسيقي ، لزيدت الألف في الآية الاخرى التي ذكر فيها السبيل . وأذا لابد ان يعود التعديل وتناسق الفواصل الى امر معنوي . وهو أمر لم نجد أحداً قال فيه كلمة فاصلة في هذا الموضع ، ولا نريد ان نخوض فيه برأي من غير تثبيت ولا دليل ، وكل ما يمكن ان نقوله الآن ، ان هذه الزيادة قد حققت تناسقاً موسيقياً في رؤوس الآي .

والكلام هنا يسلم الى مسألة هامة لابد من الاشارة اليها في خاتمة الحديث عن موسيقى الفاصلة ، وهي أن من البلاغيين والمفسرين والمؤلفين في علوم القرآن ، من بالغوا في موضوع ما يطلق عليه في الاصطلاح اسم

(١) عبد الوهاب حمودة: اللغة العربية والموسيقى، مقال نشر في مجلة الثقافة سنة الاولى، العدد: ٢٠ص١٢ لسنة ١٩٣٩.

(٢) آية: ٤.

(٣) الزركشي : البرهان ١/ ٦١.

«رعاية الفاصلة»،(١) الى الحد الذي تجاوزوا فيه المعقول. أذ حملوا كثيراً من الظواهر البلاغية التي وردت في تعبير القرآن وبخاصة ما يتعلق منها بعلم المعاني على ذلك. وعدوا منه تأخير «موسى» في قوله عز وجل: «فأوجس في نفسه خيفة موسى» (٢) قالوا: «لان اصل الكلام ان يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخّر الفاعل وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة»(٣) او بعبارة أخرى: لأجل الانسجام الموسيقي بينه وبين بقية الفواصل التي تقدمته — مثل: أتى، افترى، النجوى، المثلى استعلى، تسعى — او تأخرت عنه، — مثل: الاعلى، أتى، موسى، أبقى... وهذا في الواقع حصيلة الفصام بين علم البلاغة والنحو، أذ هو الذي أدّاهم الى ان يحملوا القرآن على قواعد النحو المرسومة التي وضعوها ابتداء، دون لمح الوجوه البلاغية. وكان عليهم ان يستقوا هذه القواعد من القرآن البيان الاعلى في هذا اللسان، بعد مراعاة الملاحظ البلاغية المتعلقة بالتعبير.

على ان ما قالوه من تقديم الفاعل على المفعول ليس لازماً على كل حال، بل هو متوقف على المعنى الذي في نفس المتكلم. ذلك ان هذا الترتيب المنطقي قد ينعكس لغرض معنوي كالتخصيص أو الاهتمام، فيتقدم المفعول عندئذ على الفاعل. وعلى الاول — التخصيص — ورد تأخير الفاعل في قوله تعالى: «انما يخشى الله من عباده العلماء»، (٤) أذ كان المراد، كما يقول

(١) يراد برعاية الفاصلة، في اصطلاح المصنفين في علوم القرآن والتفسير والبلاغة: بناء التقديم والتأخير والزيادة والحذف... المتعلقة بالفاصلة القرآنية او العبارة التي تقع فيها تلك الفاصلة، على مجرد احداث التناسق الموسيقي بين الفواصل، من دون عد الوجه البلاغي السبب الرئيس في تلك الظواهر. ومنهم من يجعل هذا الوجه لا حقاً للقول برعاية الفاصلة، مع ان العكس هو الصحيح اذ ان القرآن يتوخى المعنى، وبلاغة القول قبل كل شيء، والفاصلة انما هي تابعة للمعنى وملاحظ البلاغة لا متبوعة.

(٢) طه: ٦٧.

(٣) الزركشي: البرهان ٦٢/١.

(٤) فاطر: ٢٨.

الزمخشري (١) : «ان الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء ، دون غيرهم . وأذا عملت على العكس انقلب المعنى الى انهم لايخشون الا الله ، كقوله : «ولا يخشون أحداً الا الله » .

وعلى التخصيص ايضاً يمكن ان يحمل ما ورد في آية طه التي اوردناها آنفاً ، أذ قدمت الخيفة على الفاعل «موسى» ، لانها الخاطر الذي أحس به أو أضمره في نفسه ، حين خيل اليه ان حبال سحرة فرعون وعصيهم — بتأثير سحرهم — تسعى . والقرينة على ذلك الحال ، أذ كان الجو بعد هذا التخييل مخيفاً ، ولم يكن أسبق الى نفسه من هاجس خوف .

ومع تحقق هذا الغرض المعنوي ، بالتقديم والتأخير ، تحقق التناسق الموسيقي بين فاصلة هذه الآية وبقية الفواصل ، وهذا سر من اسرار استعمال الفاصلة في القرآن .

وعلى هذا فقد وهم الذين عدوا السبب في تأخير الفاعل هنا مراعاة الفاصلة(٢). وايضاً فان توجيه الزركشي (٣) الذي ثنى به علة هذا التأخير — بعد قوله برعاية الفاصلة — لايبدو مراداً . اذ رأى ان «للتأخير حكمة أخرى ، وهي ان النفس تتشوق لفاعل «أوجس» ، فاذا جاء بعد ان أخر وقع بموقع » .

وعدوا من باب رعاية الفاصلة ، أو كما عبر الزركشي (٤) : «مناسبة رؤوس الآي » ، تقديم الآخرة على الاولى ، في قوله عز وجل في قصة فرعون ؛

---

(١) الكشاف : ٥٧٦/٣.

(٢) ومن الغريب ماوقع فيه الدكتور ابراهيم انيس من وهم، مع فضله ودقة بحوثه اللغوية ، اذ حمل التقديم والتأخير في الآية التي أوردنا، على رعاية الفاصلة ، دون الالتفات لأي ملحظ بلاغي معنوي يقول : « ولانجد عنتا او مشقة حين نذكر ان نظام الفواصل القرآنية والحرص على موسيقاها ، هو الذي تطلب تأخير الفاعل في الآية.... فارجع إلى ماكتنفها من آيات في سورة طه» ينظر : من أسرار اللغة ص ٢٣٠.

(٣) البرهان : ٦٢/١.

(٤) البرهان ٢٦٤/٣.

«فأخذه الله نكال الآخرة والاولى » ، (١) وقوله في سورة النجم : (٢) «فلله الآخرة والاولى » . مع ان تقديم الآخرة في الموضعين ، يتجاوز هذا الملحظ الموسيقي الى النسق المعنوي ، وينبغي على الأهمية ، بتقديم الأهم على ما دونه . أذ لايخفى ان نكال الآخرة وعذابها اشد على فرعون مما ناله من عذاب الدنيا وهو الغرق في البحر بل ان هذا العذاب أشد على كل كافر من أي نوع من العذاب يصيبه في الدنيا . وكذا الحال في الآية الثانية أذ الآخرة أهم وأولى لانها دار الخير والحق والعدل ، واما الدنيا فعرض زائل وأثر لايلبث ان ينمحي .

ويدل على ذلك ما ورد في سورة الاعلى :(٣) «والآخرة خير وأبقى »، وما ورد في سورة الضحى (٤) في مخاطبة النبي الكريم : « وللاخرة خير لك من الاولى » . أذ الآيتان صريحتان في تفضيل الآخرة على الدنيا .

وقد وجدت الدكتورة عائشة عبد الرحمن تذهب الى مثل ذلك ، في تعليل تقديم الآخرة في آية الليل (٥) : «وان لنا للاخرة والأولى» ، مبينة ان المعنى هو الذي اقتضى ذلك لا رعاية الفاصلة ، تقول: «والملحظ البياني في الآية، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة ، وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الاولى وانما اقتضاه المعنى في سياق البشرى والنذير أذ الآخرة خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد وأخزى وأبقى ، وان الآخرة هي دار القرار » . (٦)

ونكتفي بهذا القدر من مبالغة المفسرين واوهامهم فيما سموه : «رعاية

---

(١) النازعات : ٢٥.
(٢) آية : ١٧.
(٣) آية : ١٧.
(٤) آية : ٤.
(٥) هي الآية ١٣ من سورة الليل.
(٦) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم ١١٤/٢.

الفاصلة » ، مؤثرين التمثيل على الاستقصاء والتفصيل ، آملين ان نفرد لهذا الموضوع بحثاً مستقلا في المستقبل ليتضح أكثر فأكثر .

الإيقاع بين السور المكية والمدنية :

التفت كثير من القدامى الى الفارق الاسلوبي بين المكي والمدني من القرآن، ألا انهم شغلوا بالصيغ ونحوها عن الالتفات الى امر آخر هام ؛ وهو ايقاع الآي بين القبيلين ، مع ان هذا الايقاع يشكل ظاهرة اسلوبية جديرة بالدراسة ويرتبط ارتباطاً واضحاً بالمعاني والموضوعات التي تناولتها هذه السور الكريمة .

فبينما نرى السور المكية تعنى ، أكثر ما تعنى ، بأصول العقيدة الاسلامية – على ما بيناه سالفاً – ، أذا بنا نرى السور المدنية تعنى غالباً بأصول التشريع واحكامه ، واحوال اهل الكتاب والمنافقين ومواقفهم من الدين الجديد، كما تعنى بالقصص المصور لاحوال اهل الاديان السابقة وغير ذلك .

وهذا التفاوت في مقاصد الآي وموضوعاتها صحبه تغاير في طبيعة الايقاع الموسيقي فيها . فالايقاع يجري في اغلب السور المكية قصير الموجة ، سريع النبض متدفق الحركة ، متوازناً أو شبه متوازن ، والفواصل تتسم غالباً بالتوافق في الايقاع ، لتماثلها في الوزن ، او الوزن وحروف الروى وما الى ذلك من خصائص موسيقية ميزتها من السور المدنية بعامة .

وهذا ما جعل موسيقى هذه السور اكثر تاثيرا واستجاشة للمشاعر والوجدانات التي هي جانب هام من جانبي تلقي وقبول مفاهيم القرآن .ذلك ان القرآن «لا يعتمد على التفكير وحده ليتم ، ولكنه يتكيء عليه وعلى الوجدان ليستميل».(١)

وأذا كانت عناية العربي «بالموسيقى والنغم قد فاقت عنايته بالمعاني والاخيلة(٢) حتى وجدنا ذلك جلياً في الشعر وتلك السمة الموسيقية ترمز بها

---

(١) احمد بدوي: من بلاغة القرآن ص ٣٧.

(٢) ابراهيم انيس: دلالة الالفاظ ص ١٩٩.

الشعر العربي من أكثر الشعر الانساني القديم وفاقة فيها، كما يقول الفارابي(١) فان القرآن قد وازن بين الموسيقى والمعاني والاخيلة واولى الايقاع الموسيقي عناية أكثر في السور المكية ، السور التي واجهت المشركين في مكة ، عند مهد الدعوة وأول الرسالة . والهدف من ذلك – كما اسلفنا – زيادة التأثير.

ولتوضيح هذا الذي قدمناه اخترنا للدراسة التطبيقية ، ثلاث سور قصار من السور المكية ، هي : الاعلى والفجر والبروج ، مراعين في ترتيب دراستها تاريخ نزولها (٢) . كما اخترنا من السور المدنية ، أحدى السبع الطُول ، (٣) وهي سورة النساء ، مكتفين منها – لطولها – بنصوص من اولها ، لتكون هذه النصوص انموذجاً لخصائصها الموسيقية . وكان غرضنا من هذه الدراسة التطبيقية، تحليل هذه السور تحليلا موسيقياً يتناول ايقاعها في آياتها وفواصلها، يكشف عن هذه الخصيصة الهامة فيها ، بقدر ما وسعنا الفهم والجهد .

الايقاع في سورة (الأعلى) :

أذا تأملنا في سورة (الاعلى) بآياتها التسع عشرة الفيناها ذات ايقاع واحد متزن في جميع اقسامها. وألفينا فواصلها كلها ذات نهاية موسيقية واحدة، هي الحرف المصوت الطويل (الالف) . ولا نجد تغايرا ايقاعياً بين آية وأية او مجموعة من الآيات وأخرى ، بل نجد السورة كلها تسير على هذا الايقاع

---

(١) كتاب الموسيقى الكبير ص ١٠٩١.

(٢) نزلت الاعلى– كما تشير المصادر– قبل الفجر ، والفجر قبل البروج. والأوليان من اوائل السور المكية. وهذا الترتيب ذكره الماوردي وابو القاسم النيسابوري في تفاسيرهما، واعتمده الفيروز آبادي في: بصائر ذوي التمييز ١/٩٧–٩٨. وهو عين الترتيب الوارد في مصحفي عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس المرتبين حسب النزول. ينظر: الزنجاني: تاريخ القرآن ص ٧٤–٧٦.

(٣) السبع الطول: هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ، واختلف في السابعة ،فقيل: الانفال والتوبة لانهما في حكم سورة واحدة بدليل عدم التسمية بينهما، وقيل: يونس. ينظر النسفي: مدارك التنزيل ٢/٢٧٨.

الموحد ، وهو ايقاع قصير الموجة ، متحد الروى في الفواصل . وقد اضفى عليها امتداد الصوت بالألف في نهاية الفواصل موسيقية رقيقة ، تلائم الجو الذي يشيع في السورة – وبخاصة الآيات الاولى منها – جو التسبيح للرب، الاعلى، والترنم بنعمة وآلائه المتجلية في الانفس والطبيعة .

وتماثل حروف الروى في الفواصل . من أظهر الخصائص الموسيقية في السور المكية وذو علاقة بالناحية المعنوية والموضوعية . وهو في هذه السورة قد عمّ الفواصل كلها، فكان تماثل فواصلها في حرف الروى دالا على وحدتها المعنوية والفكرية، التي نوهنا بها، لتأكيدها الاعتراف بالخالق وتنزيهه، والاعتراف بنعمة وآلائه ، وشمول علمه ، وما يتصل بذلك ويتفرع عليه من وجوب خشيته وعبادته ، والنأى عن اسباب عقابه وغضبه ، والسعي الى ما يؤدي الى جنته : «سبح اسم ربك الاعلى. الذي خلق فسوى . والذي قدّر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى . سنقرئك فلا تنس . الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى . ونيّسرك لليسرى . فذّكر ان نفعت الذكرى سيذّكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لايموت فيها ولا يحيى . قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . ان هذا لفي الصحف الاولى . صحف ابراهيم وموسى » .

فالايقاع في السورة متزن وهو متماثل في جميع الآيات . الا انه قد يلفت المتأمل فيها بدقة ، أن زمن ايقاع الآية السابعة قد طال نوعاً ما بالقياس الى بقية الآي ، وان هذا الايقاع كونته العبارتان : «الا ما شاء الله » و«انه يعلم الجهر وما يخفى » ، وان العبارة الاولى منهما لم تنته بالحرف الذي انتهت به الفواصل ، وهو الالف .

فاذا بحثنا عن سر هذا التغاير ، وجدنا بعد تأمل ان المراد منه اللفت الى شيء هام ، هو فعل المشيئة ، وبيان انه متعلق بالله . فهو أذ يتكفل – سبحانه – بتحفيظ نبيه القرآن ، حين يحمله اليه جبريل منجّماً ، يستثني منه ما شاء ان ينسيه اياه ، لمصلحة تقتضي ذلك .

فطول زمان الايقاع في هذه الآية إذا، ملفت الى امر ديني هام يتعلق بكتاب الله .

واذا كان الايقاع في هذه السورة، سورة الاعلى، يتسم بالتوافق والاتحاد. وكان المسوغ لذلك وحدة للهدف العام فيها . والمعاني التي تضمنتها ، فان من السور المكية ما يتغاير فيها ايقاع الآي ونظام الفواصل ، تغاير المعاني والموضوعات التي تدور فيها . وآية ذلك ما نجده في سورتي «الفجر» و«البروج» .

الايقاع في سورة (الفجر) :

في مطلع سورة الفجر : «والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر » (١) ، ابتدأ الايقاع سريعاً ، قصير الموجة خفيفاً . لقصر الآيات وذلاقة حروف فواصلها — الراءات — إذ هي خفيفة الجرس سهلة النطق . وزاد من تماثل هذا الايقاع . حذف الياء من فاصلة الآية الرابعة : «والليل اذا يسر» لتترك للراء مجال الأداء الموسيقي المتحد مع بقية حروف الروى . فجاء ايقاع هذه الآى الخمس ملائماً للقسم بظواهر من الطبيعة الجميلة ، عمادها الفجر والليل مع ما تحلل من رموز ذات دلالات متمثلة بالليالي العشر ، والشفع والوتر .

وفجأة يتغير الايقاع فيطول زمنه نسبياً ويتغير معه حرف الروى في الفواصل من الراء الذلقة الخفيفة السلسة الى الدال الشديدة ، (٢) وتسبق حروف الروى مدات المصوتات الطويلة : «الالفات » . كأنما تحكي بجرسها استطالة معنوية ومادية . متمثلة بطغيان عاد وثمود وفرعون واكثارهم الفساد في الارض، وما ترتب على ذلك من عذاب أليم، صبه الله عليهم، فجعلهم أثراً بعد عين . وذلك ما يبين في هذه الآيات التي افتتحت بمخاطبة الرسول (ص) وأريد به

---

(١) الفجر : ١-٥.

(٢) ينظر في شدة الدال : ابراهيم انيس : اللهجات العربية ص ٧٠.

تنبيه الكافرين على ما اصاب الامم السالفة ، لما جحدت أنبياءها وكفرت برسالاتهم : (١)

«ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد » . (٢)

ثم يتغير الايقاع بعد ذلك ، فيطول زمنه بطول الآية ويتغير جرس الفاصلة بتغير نظامها ، وحرف رويها من الدال الشديد الجرس الى النون الذلقة المعتدلة الجرس ما بين الشدة والرخاوة . ليصور هذا الايقاع حالة نفسية لأنموذج بشري خالد ، يراه الناس في كل زمان ومكان . انه الانسان الذي اذا امتحنه ربه بالنعمة فحباه اياها ، رأى ذلك تكريماً له منه. فاذا ضيق عليه رزقه ومحصه بالبلاء ، ظن ذلك أهانة .

وقد اوجز التعبير عن هذين الموقعين ، بهاتين الآيتين المتوازنتي الايقاع . توازن كلتا الحالتين في نفس الانموذج الذي رسمه وازدواجهما في حياته : «فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن. واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن» . (٣)

وينتقل الايقاع بعدذلك الى موجة أقصر منهذه،موجة فيقصر الايات التي سبقتها والتي انتهتفواصلها بالدال.وذلك لتواكب هذا التأنيب المتتالي،المصور لطبيعة النفس الانسانية في تكوينها، المصدّر بالزجر والردع للانسان،عن قوله (٤) الذي بينته الايتان السابقتان : «كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضُّون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلا لمّا وتحبون المال حبا جما». (٥)

---

(١) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ٣٠/ ١٢٨.
(٢) الفجر : ٦-١٤.
(٣) الفجر : ١٥-١٦.
(٤) ينظر : الزمخشري : الكشاف ٣/ ٢٣٧.
(٥) الفجر : ١٧-٢٠.

وهنا نحس ان تدفق الايقاع الموسيقي في الآي افتتح بشيء من القوة في الجرس، متمثلة بهذا التشديد الذي في «كلاّ»، واختتم بمثل ذلك في كلمة «جمّا» المسبوقة في السياق بكلمة «لمّا»، ليتصاعد بعد ذلك الى هذه الصورة من صور التغير الكوني يوم القيامة حيث الحسرة والندامه على ما فرّط اولئك المفرطون .حين لاتنفع ندامة وقد افتتحت الصورة بالردع والزجر كما افتتح الكلام في الايات التي تقدمتها : «كلاّ اذا دكّت الارض دكّا دكّا. وجاء ربك والملك صفا صفا. وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى، يقول ياليتني قدمت لحياتي فيومئذ لايعذب عذابه احد . ولا يوثق وثاقة أحد ». (١)

ويلاحظ ان الايقاع في الاية الاولى ، يصور الدّك بما فيه من عنف وقد اكسبه التشديد المتتالي جرساً يتناسب وهذا العنف الذي يتطلبه دك الارض وتفتيتها وجعلها لاشيء . فوق ان تكرار الدك نفسه يوحي جرسه بذلك، وخاصة في المقطع الاخير «دكا دكا».وقد فسره الزمخشري (٢) بأن المعنى «دكا بعد دك . كقوله حسبته بابا بابا .أو كرر عليها الدك حتّى عادت هباء منبثا».

ويلاحظ ايضا ان الشعور المرير بالندم والتحسر الموجع اللذين يلازمان الانسان المفرط في اليوم الاخر لم تشعرنا بهما الدلالة اللفظية فحسب ، في قوله «يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى . يقول ياليتني قدمت لحياتي» ، بل اشعرتنا بهما ايضا الدلالة الموسيقية لهذه العبارات . أوبعبارة اخرى : أشعرتنا بهما المدات المتتاليات التي فيها والتي كونتها المصوتات الثلاثة الطويلة : الالف والواو والياء ، في مثل : «أنى » و «الذكرى» و«يقول» و «ليتني » و «حياتي» . وهذا من آيات تلأوم الجرس والمعنى في القرآن

---

(١) الفجر : ٢١-٢٥.

(٢) الكشاف ٣/٣٣٧.

واشتراك الجرس في تصوير الجو الحسي او المعنوى الذى تصوره الاى .
وقد نوهنا بمثل هذه الميزة الفريدة في موضوع سابق .

ولانريد ان يفوتنا التنويه هنا بانسجام الفاصلة «أحد» مع المعني . في الايتين الأخيرتين اذ ان شدة جرس الروى الدال في كل منهما يناسب الجزم والتوكيد بتعذيب الكافرين وغلهم يوم القيامة: «فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه احد »(١)

واذا انتهينا بالتلاوة الى هذا الحد اشرفت السورة على الختام واتخذ ايقاعها وجرسها ، بعد ذلك بسمة موسيقية تلائم فاتحتها اذ يغلب عليها الهدوء ليوائم الوعد برجوع المؤمن الى ربه ودخوله مع عباد الله في جنته:
«ياايتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . (٢)

الايقاع في سورة (البروج) :

الايقاع في سورة البروج شأنه شأن الايقاع في اغلب السور المكية القصيرة، فهو سريع النبض متدفق الحركة قصير الزمن يناسب المعاني والاغراض التي تناولتها السورة . فاذا اقسم الخالق سبحانه في هذه السورة والقسم في السور المكية اكثر –وتبعه الوعيد والتهديد، كان المناسب لذلك ان يتدفق ايقاع الاى سريعا قصير الموجة ، ليناسب هذا الجو . ويتجلى ذلك بوضوح في أولها ، اذ نجدها تفتتح بهذه الايات: « والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل اصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ». (٣)

---

(١) الفجر : ٢٤–٢٥.
(٢) الفجر : ٢٧–٣٠.
(٣) البروج : ١–٧.

غيران ايقاع الاى لايسير باستمرار على زمن واحد ونمط واحد بل نراه يتجه نحو الطول في الزمن ، حين يقرر امورا عقيدية تتعلق بالايمان بالله ودلائله في الطبيعة البعيدة والقريبة وبصور العذاب الحسي للكافرين والنعيم الحسي للمؤمنين وقد تغير حرف الروى في فواصل هذه الآى . بتغير الموضوع ، من الدال إلى القاف إلى الراء . وكأنه اريد بهذا التغير اللفت إلى شيء هام :

« وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والارض والله على كل شي شهيد . ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير » . (١)

وواضح ان احدى الايات ختمت بعبارة « عذاب الحريق » واخرى بعبارة « الفوز الكبير » وهذا التغاير لافت إلى امرين : أولهما : العذاب الذي سيصيب اصحاب الاخدود يوم الحساب لاحراقهم اولئك الابرياء الذين لا ذنب لهم الا أيمانهم بالله العزيز الحميد ، وما هو بذنب . وهذا العذاب من جنس ما مارسوه في دنياهم ، فهو مطابق لما اقترفته ايديهم وثانيهما : الثواب الذي سيناله المؤمنون ومنهم اولئك الابرياء الثابتون على ايمانهم على الرغم من تعذيبهم . فهذا الانتقال الموضوعي صحبه انتقال في الايقاع وهذا اللفت إلى هذين الامرين صحبه تغير في روى الفاصلة . فاذا عاد القرآن — بعد هذا الفصل الهام — إلى الوعيد ، عاد الايقاع إلى صورته الاولى من جديد ، بسرعته وتدفقه وقصر موجته وتماثل زمنه . بل عاد معه تناسق الفواصل متماثلة فيما بينها من جهة ومع ماتقدمها من الفواصل الاولى — الدالية — من جهة اخرى بما فيها من شدة تناسب الوعيد والتهديد : « ان بطش ربك لشديد . انه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود .

---

(١) البروج : ٨-١٢.

ذو العرش المجيد . فعّال لما يريد . هل اتاك حديث الجنود . فرعون وثمود». (١) حتى اذا انتهى من هذا الوعيد والسرد. إلى الجزم والتقرير، غير نظام الفواصل من جديد . بتغيير حروف الروى فيها ، مستعملا صوتا شديدا هو « الباء » (٢) وصوتين مفخمين : (٣) .

هما الطاء والظاء ، بالاضافة إلى الدال في احدى الآيات : « بل الذين كفروا في تكذيب .والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد .في لوح محفوظ». (٤) وهكذا نجد الايقاع في سورة «البروج »قد ناسب الموضوعات التي تناولتها، والمعاني التي تضمنتها ، معتمداً في ذلك على أمرين :احدهما زمان النغم .والآخر نظام الفاصلة .ومايوحيه صوت رويهامن دلالات موسيقية مناسبة لاجواء الآي ومقاصدها.

ولنا بعد هذا الذي قدمناه من وصف الايقاع ودلالاته في السور الثلاث المكية : الأعلى والفجر والبروج .أن ننتقل إلى وصف الايقاع في السورة المدنية التي اخترناها وهي سورة النساء ، ليتبين الفارق في الايقاع بين القبيلين من السور القرآنية .

الايقاع في سورة (النساء)

وسورة النساء من تلك السور الطول التي تتجلى فيها بوضوح .الخصائص العامة للسور المدنية وهي أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة (٥) ومدنية بأجماع القراء .(٦) وإذا تأملنا فيها عند تلاوتها ، ألفيناها تفيض بالمعاني والموضوعات

---

(١) البروج : ١٢-١٨.

(٢) تنظر شدة الباء الصوتية في: اللهجات العربية لابراهيم أنيس ص٨٣ فوق.

(٣) ينظر التفخيم في هذين الصوتين في المصدر نفسه ص ٧١.

(٤) البروج: ١٩-٢٢.

(٥) اذ يبلغ عدد آياتها ١٧٦ آية ، على حين يبلغ عدد آيات سورة البقرة ٢٨٦ ، في عد الكوفيين.

التي أكـدها القرآن المدني . إذ تتجلى فيها العناية بالمجتمع الجديد في المدينة بحيث تتناول الفرد والاسرة والمجتمع .فهي تؤكد أول ماتؤكد وحدة الاصل الانساني وقيام نظام الزوجية في الحياة الاجتماعية ،ووشائج القرابة .وتتناول بعد هذا ،الحديث عن فئات كانت ممتهنة في الجاهلية ،لترد اليها اعتبارها الانساني ،وتأمر برعاية حقوقها التي تحفظ لها آدميتها .فنراها تأمر بحفظ أموال اليتامى وحماية اليتامى الأناث من الجور والعسف .وتنظيم الحياة الاسرية بما يحفظ لها كيانها وقيامها : من العدل والصدق وما اليهما.وتتطرق في عدد من آياتها إلى الارث وما يتعلق به من أنصبة ووصية .. إلى غير ذلك من موضوعات اجتماعية ومالية ذات وشيجة وثيقة بالاسرة والمجتمع .كما تتناول في عدد من آياتها ذم اليهود وتحريفهم التوراة ،ووصف المنافقين ...

واذا استمعنا إلى ايقاع هذه السور وجدناه يتسم بالهدوء وطول زمن النغم لطول الآية ووجدنا اغلب فواصلها تنتهي بالالف والفواصل الاخرى واحدة منها باللام ، وواحدة بالنون خمس بالميم المضمومة (١) وهذه الاصوات الثلاثة الأخيرة : « اللام والنون والميم» متقاربة حتى ان الحسن بن أحمد الكاتب (من علماء القرن السادس للهجرة) يسميها حروف الغنة (٢). فهي ذات وشيجة فيمابينهاوفي الاستعمال وفي الصفات الصوتية ، اذ«هي اكثر الاصوات شيوعا في اللغات السامية كما انها من الاصوات المتوسطة الشبيهة باصوات اللين » (٣) وهـذه الصفـات جعلـت الفواصـل ملائمـة بجـو السورة وطابعهـا الهادئ . وايضـا فـان طـول زمـان الايقـاع ، الذي ترتب على طول آيات السورة – وذلك غالب على السور الطويلة – مناسب لمراميها الاجتماعية والاقتصادية المتعددة التي تحتاج إلى بسط وسرد وتفصيل . اذ هي – كما

(١) وينظر الفيروز آبادي: بصائر ذوي التمييز ١٦٩/١.

(٢) كما في أدب الغناء ص ٨١.

(٣) ابراهيم انيس: اللهجات العربية ص ١٠٥.

بينا سالفاً — تتناول في الغالب الاحكام الشرعية ، وتنظيم الحياة الاجتماعية والمالية ، الفردية والأسرية ، واكثر ماتناولت من الاحكام حقوق المرأة وأمورها ولذلك سميت « سورة النساء الكبرى » كما سميت سورة « الطلاق » : « سورة النساء الصغرى » (١) .

فالسورة تبدأ بهذه الآيات التي تتوالى فيها المصوّتات الطويلة (الالفات) لتكسب ايقاعها هدوءاً . فوق هدوئها المعنوي الذي يبسط الاحكام والتشريعات ويعرضها على الناس جميعاً وان كان المخاطبون بها من نزلت فيهم من المهاجرين والانصار :

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ فيهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا . وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث من الطيب ولاتأكلوا اموالهم إلى اموالكم انه كان حوباً كبيراً . وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ماملكت ايمانكم ذلك ادنى الاتعولوا وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » (٢).

« يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه ولكل واحد لهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين ،

(١) الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز ١٦٩/١ .

(٢) النساء : ١-٤ .

آباؤكم وابناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً » . (١)

ويلاحظ ان الايقاع مع طول موجته في كل آية يتسم بانقسامه الى وحدات زمنية متناسقة في الآية الواحدة. من مثل مافي الآية الاولى:

« يأيها الناس اتقوا ربكم » الذى خلقكم من نفس واحدة »« وخلق منها زوجها » « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .

وقوله في الآية الحادية عشرة :

«يوصيكم الله في اولادكم » «للذكر مثل حظ الانثيين » «فان كن نساء فوق اثنتين » « فلهن ثلثا ما ترك » .

وهذا التناسق في جزئيات الايقاع ،مما يضفي عليه ذلك السر الذي عرفت به موسيقى القرآن ،وذلك التأثير الذى ينفذ الى صميم الوجدان فيستجيشه ويحركه، وتتقبل النفس ما يحمل معه من مفهومات ومعان وتوجيهات. وهو هنا يحمل معه احكاما هامة في بناء حياة الفرد والجماعة ذكورا واناثا . وان كان هذا التناسق لاينبعث من جزئيات الايقاع التي في الآية الواحدة فحسب ،بل ينبعث من تناسق الايقاع ما بين آية وآية،ومن ائتلاف الحروف في الالفاظ وتناسق الالفاظ في العبارات . ولذلك فانه كثيرا مايحس ولايعلل اوبعبارة أخرى يدركه الحس والوجدان ولايستطيع له تفسيرا وهذا سر روعة الموسيقى في القران وتأثيرها في النفوس .

ويلاحظ اننا لانشعر هنا بذلك التدفق الموسيقى والنبض السريع الذي الفيناه في ايقاع الايات المكية اذ المقام هنا لايستدعي ما وجدناه هناك ، لان الايات المكية واجهت مجتمعا لاتزال موسيقى الشعر والنثر المسجوع ترن في اذنه ، وتستحوذ على مشاعره قبل ان ينفذ الية القرآن بما يملك عليه وجدانه ومشاعره . فضلا على ما بيناه سالفا من ان ذلك التدفق في ايقاع

(١) النساء : ١١.

القرآن ، وسرعتة وقصر موجته ،له تأثيره الكبير في تلك المواجهة الفكرية والعقيدية التي خاضها القرآن ضد المشركين وعقائدهم الجاهلية ، من اجل تثبيت اصول الدعوة الاسلامية .

على اننا لانزعم ان ما ذكرناه في هذه الدراسة التطبيقية حول الايقاع في السور الثلاث القصار المكية والسورة المدنية ، التي اخترناها ، هو كل ما يمكن ان يقال في هذا الموضوع الدقيق الهام. بل اننا لنقر بأن كثيرا من خصائص الايقاع الموسيقية سر من اسرار القرآن،ودليل من دلائل الاعجاز في هذا البيان.

ولابد من الاشارة في ختام هذا البحث الى حقيقة هامة، وهي ان هذه الموسيقى المعجزة التي تكمن وراء النظم القرآني ، هي التي مكنت قارئي القرآن من ترتيله وتجويده عند تلاوته (١). ذلك ان الشعر والنثر يقصر عن أن يؤدياهذا الأداء الذى يؤدى به القرآن عند ترتيله أوتجويده. ولو حاول أحد تكلف ذلك لهما لكان متكلفا المحال ، وساعيا وراء ما لاطائل وراءه.بل ان هذه الخصيصة الهامة،تميز بها القرآن من غيره من كتب الاديان التي بين أيدى الناس اليوم ايضا . فلم تكن «المزامير» (٢) — على ما فيها من موسيقى — لترتل أو تجود عند العبرانيين ، بل كانت تغنى في الطقوس التي يقيمونها . ثم نقلت الطقوس المسيحية اسلوبها الى الكنيسة ،ولايزال مستعملا الى وقتنا الحاضر (٣) على حين بقيت السـمة التي يؤدى بها القرآن ويتلى ، هي الترتيل والتجويد فحسب لما بيناه من عجيب ايقاعه وروعة جرسه فضلا على تساميه — بحكم قدسيته — على ان يؤدى بالغناء الذى لايليق بكلام الله .

---

(١) قارن ببلاغة القرآن لأحمد بدوي ص ٢٤٥.

(٢) المزامير: هي من أسفار (العهد القديم)، وتقع في الترتيب بعد سفر أيوب، وتعتبر أطول هذه الاسفار، اذ تتكون من ١٥٠ اصحاحاً.

(٣) هوجو لا يختنتربت: الموسيقى والحضارة ص ٦٢ .

المصادر والمراجع

١.ابراهيم أنيس (الدكتور) :

(أ) دلالة الالفاظ ، ط٢ مطبعة لجنة البيان العربي – القاهرة ١٩٦٣ .

(ب) اللهجات العربية مطبعة الرسالة – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع)

(ج) من اسرار اللغة ، ط٣ ، المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة ١٩٦٦

٢.احمد بدوي (الدكتور) : من بلاغة القرآن ، ط٣ ، مكتبة نهضة مصر (لم تذكر سنة الطبع).

٣. الباقلاني : ابو بكر محمد بن الطيب :

(أ) أعجاز القرآن – بتحقيق السيد احمد صقر ، دار المعارف – مصر ١٩٦٣ .

(ب) نكت الانتصار لنقل القرآن – دار بور سعيد للطباعة – الاسكندرية ١٩٧١ .

٤. الثعالبي : ابو منصور عبد الملك بن محمد : فقه اللغة وسر العربية مطبعة الاستقامة القاهرة ، ١٩٥٩

٥. الجرجاني : ابو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن :

(أ) دلائل الاعجاز – علق عليه محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة الفجالة الجديدة – القاهرة ، ١٩٦٩

(ب) الرسالة الشافية – ضمن كتاب : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ، ط٢ دار المعارف – مصر ١٣٨٧هـ= ١٩٦٨ .

م/ ٢٤ / آ

٦.ابن الجزري: احمد بن محمد : شرح طيبة النشر في القراءات العشر ، ط١ ، مطبعة البابي الحلبي – مصر ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠ م .

٧.جوليوس بورتنوي : الفيلسوف وفن الموسيقى – ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، مطبعة دار الكتب – القاهرة ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

٨.حسين علي محفوظ : قاموس الموسيقى العربية ، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٧ .

٩. الخطابي : ابو سليمان حمد بن محمد : بيان اعجاز القرآن – ضمن كتاب : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن . بتحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ، ط٢ . دار المعارف – مصر ١٣٨٧= ١٩٦٨ م.

١٠ .الدومنيكي : الأب أ . س . مرجي : معجميات عربية – سامية مطبعة المرسلين اللبنانيين – جونية – لبنان ١٨٥٠ .

١١ . الرافعي : مصطفى صادق : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ط٧ ، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٨١هـ – ١٩٦١ .

١٢ . الرضي : الشريف محمد بن الحسين : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، مطبعة المعارف – بغداد ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .

١٣ .الرماني : ابو الحسن علي بن عيسى : النكت في اعجاز القرآن – ضمن كتاب : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ، ط٢ ، دار المعارف – مصر ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م .

١٤. ابو ريمة : محمد المحمود النجار : هداية المستفيد في أحكام التجويد، مطبعة دار احياء الكتب العربية – مصر (لم تذكر سنة الطبع) .

١٥ . الزركشي: بدرالدين محمد بن عبدالله : البرهان في علوم القرآن ـ بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط١ دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٧ .

١٦ . الزمخشري : جار الله محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل . مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

١٧ . ابن سنان : ابو محمد عبد الله بن محمد الخفاجي : سر الفصاحة ، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي . مطبعة محمد علي صبيح ـ القاهرة ١٩٦٩ .

١٨. سيبويه : ابو بشر عمرو بن عثمان : الكتاب . ج٤ ، بتحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون . مطابع الهيئة للكتاب ـ القاهرة ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ م .

١٩ . سيد : أمير علي : روح الاسلام ، تعريب عمر الديراوي ، مطبعة كرم بيروت ١٩٦١

٢٠. سيد قطب: (أ) التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٣ .
(ب) في ظلال القرآن ، ط٣ دار احياء التراث العربي ـ بيروت ، (لم تذكر سنة الطبع) .

٢١. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر : الاتقان في علوم القرآن ، ط٣ ، مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ١٩٥١ .

٢٢. الطبرسي : ابو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن ، ط٢ دار الفكر ـ بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١ م

٢٣ . الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بالاوفست عن مطبعة بولاق ط٢ ، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢

٢٤. عائشة عبد الرحمن (الدكتورة) : التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط١
دار المعارف — مصر ١٩٦٩ .

٢٥. عبد البديع صقر : التجويد وعلوم القرآن ، ط٣دمشق — ١٣٨٩هـ
لم تذكر سنة الطبع .

٢٦. عبد الوهاب حمودة : اللغة العربية والموسيقى ، بحثان في مجلة الثقافة
لسنتي ١٩٣٩و١٩٤٠ .

٢٧. العلوي: يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق
الاعجاز ، مطبعة المقتطف— مصر ١٣٣٢هـ—١٩١٤م.

٢٨. الفارابي : ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان : كتاب الموسيقى الكبير
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر— القاهرة (لم تذكر الطبع) .

٢٩. فاروق شوشة : لغتنا الجميلة : مكتبة مدبولي — القاهرة (لم تذكر
سنة الطبع)

٣٠. الفراء : يحيى بن زياد : معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي النجار وزميله .
ط١ ، مطبعة دار الكتب — مصر ١٩٥٥ .

٣١. الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب .
(أ) بصائر ذوي التمييز في لطائف تتعلق بالكتاب العزيز ،
مطابع شركة الاعلانات الشرقية — القاهرة ١٣٨٤هـ—١٩٦٤م
(ب) القاموس المحيط دار العلم للجميع — بيروت (لم تذكر
سنة الطبع)

٣٢. القرطاجني : حازم : منهاج البلغاء ، بتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة
دار الكتب الشرقية — تونس ١٩٦٦ .

٣٣.الكاتب : الحسن بن أحمد علي : كمال أدب الغناء ، بتحقيق غطاس عبد الملك خشبة ومراجعة الدكتور محمود احمد الحفني ،مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م .
٣٤.كورت زاكس : تراث الموسيقى العالمية . ترجمة الدكتورة سمحة الخولي . ومراجعة وتقديم حسن فوزي دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٦٤ .
٣٥.مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية الطبعة المنقحة ، دار الفكر – بيروت ، (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٦.المبارك : محمد : دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم . دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٧.المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد : الكامل بتحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاتة،مطبعة نهضة مصر – القاهرة ١٩٥٦ .
٣٨.النحاس : أبو جعفر أحمد بن محمد : شرح القصائد التسع المشهورات، بتحقيق أحمد خطاب عمر،دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٣ .
٣٩ . محمد مندور : الادب وفنونه . ط ٢ . مطبعة نهضة مصر – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٤٠ . ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب . طبعة مصورة عن طبعة بولاق . مطابع كوستاتسو ماس – القاهرة (لم تذكر السنة) .
٤١ . النسفي : ابو البركات عبد الله بن أحمد : مدارك التنزيل وحقائق التأويل،مطبعة البابي الحلبي – مصر (لم تذكر سنة الطبع) .
٤٣ . هوجولايختنتريت : الموسيقى والحضارة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٤٣. هـ.ج . فارمر : تاريخ الموسيقى العربية . ترجمة الدكتور حسين نصار – دار الطباعة الحديثة – القاهرة ١٩٥٦ .

الشعر في أربل في ظل الأسرة البكتكينية

بين ٥٢٦ - ٦٣٠ هـ

ناظم رشيد



تمهيد :

اشتهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين مجموعة من المدن في انحاء العالم الاسلامي ، كان لملوكها وحكامها الشهرة الواسعة التي تضاهي شهرة الخليفة في بغداد ، حيث جمع بلاط بعضهم من العلماء والأدباء مالم يجمعه بلاط الخليفة ، والفت الكتب الضخمة والمجاميع الكبيرة في اكنافهم. فكان لهم الدور الكبير في دفع مسيرة الثقافة العربية التي ابتدأها السلف العظيم الى مراحل بعيدة من الرقي والتقدم .

واحدى هذه المدن هي «إربل» التي كانت قلعة حصينة ضدّ الغزاةوالطامعين من التتر وغيرهم ، ومركزاً مهماً للعلم والأدب ، ومأوى أميناً للدارسين . ويعود الفضل في تقدمها ورقيها الى اسرة بكتكين التركمانية التي حكمت اربل من سنة ٥٢٦هـ الى سنة ٦٣٠هـ .

وسأوضح في هذا البحث الوجيز نشأة هذه الأمارة وانتهاءها ، ثم اعرج على الجانب الثقافي ، مبيناً ازدهارها ، ذاكراً أسماء أعلامها الكبار الذين خدموا الفكر الانساني ، وأشهر من وفد اليها من أقطار العالم الإسلامي ثم اقف وقفة طويلة عند شعرائها والأغراض التي عالجوها ، واختتم كل ذلك بخاتمة موجزة عن ماخرج البحث به من نتائج .

الأسرة البكتكينية

كان الأمير زين الدين علي بن بكتكين التركماني ، الذي يدعى كجك علي قائد جيش عماد الدين زنكي ونائباً عنه في الموصل واعمالها مدة إحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، ثم سلمها الى قطب الدين مودود بن زنكي لما اصيب بالعمى والصمم ، وابقى لنفسه اربل (١) .

ولما توفي (٥٦٣هـ) كان الحاكم في اربل خادمه مجاهد الدين قايماز (٢)

(١) ينظر تفاصيل ذلك في التاريخ الباهر ص ١٣٥.
(٢) مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني، توفي سنة ٥٩٥ (الجامع المختصر ٩ : ٨).

فولى بعده ولده مظفر الدين كوكبري(١) . وله من العمر أربع عشرة سنة . ثم تآمر عليه . وكتب محضراً بانه لايصلح للملك لصغره (٢) . وأقام اخاه يوسف مقامه . وكان أصغر منه .

خرج مظفر الدين من اربل وتوجه الى بغداد عله يظفر بمعونة الخليفة . المستنجد بالله ومساعدته في رد ملكه . ولكن خاب أمله . فعاد الى الموصل . ومالكها يومئذ غازي بن مودود . فاتصل بخدمته وأقطعه سران (٣) . فأقام بها مدة ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي وتزوج اخته الصغرى ربيعة خاتون وزاده صلاح الدين الرها وسميساط (٤) . وشهد معه عدة معارك اظهر فيها شجاعة وبطولة وحسبه فخراً انه ابلى بلاء عظيماً في معركة حطين . فقد ولاه صلاح الدين فيها قيادة الجيوش الشرقية . اي جيوش الموصل والجزيرة .

وفي سنة ٥٨٦هـ استنجد صلاح الدين الأيوبي بملوك المسلمين على حرب الافرنج حينما احتلوا عكا . فكان أحد القادمين لنجدته يوسف . وهو يومئذ صاحب اربل . فاحترمه السلطان صلاح الدين وأكرمه وأنزله في خيمته . وأكثر من ضيافته . فأقام مدة لم تتجاوز بضعة أشهر . ثم توفي اثر مرض شديد .

أعطى السلطان صلاح الدين أربل لمظفر الدين كوكبري . واستنزل له عن بلاده التي كانت بيده . فمضى اليها واستقبله الناس فرحين . لأنهم كانوا يتوسمون فيه الخير والاصلاح . وقد سبقت اليهم أخباره وما قام من اعمال جليلة في المناطق التي حكمها . وبطولاته الموفقة في حربه مع اخوانه المسلمين في بلاد الشام . وتحققت ظنونهم فوجدوه الرجل الجدير لحكم البلاد الصالح لإدارة شؤون العباد فأحبوه وأكرموه . واطاعوا أوامره ونواهيه .

قام مظفر الدين بعمارة أربل . وتأسيس المدارس . وبنى مسجداً صرف عليه مبالغ طائلة . تقوم الآن مئذنته الشاهقة البديعة غريبة تعكس للأجيال

(١) كوكبري: اسم تركي، معناه الذئب الأزرق (وفيات الأعيان ٤ : ١٢١) .
(٢) شذرات الذهب ٥ : ١٣٨ .
(٣) حران: مدينة مشهورة وهي على طريق الموصل والشام والروم(معجم البلدان٢ : ٢٣٤).
(٤) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام(معجم البلدان ٣ : ١٠٦).
سميساط : مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم (معجم البلدان٣ : ٢٥٨).

آثاره الجليلة . قال عن نفسه : «لما اخذت اربل آليت على نفسي ان اقسم مغلها ثلاثة اقسام : قسم انفقه في أبواب البر . وقسم للجند وما يخصني . وقسم ادخره لعدو يقصدني (١)» .

اهتم مظفر الدين بالشعائر الدينية . وخاصة المولد النبوي الشريف . ويقدر سبط ابن الجوزي(٢)من كان يحضره بثمانمئة الف . وما يصرف عليه ثلاثمئة الف دينار . والف احد الوافدين لمشاهدة هذا المولد . وهو الحافظ ابو الخطاب ابن دحية الأندلسي البلنسي كتاباً سماه« التنوير في مولد البشير النذير» اجازه على ذلك بألف دينار (٣) . واصبح هذا الكتاب شغل مظفر الدين الشاغل فكان يكثر من قراءته ويسمعه الى كل ضيف كبير يفد عليه . ويقرأه عليه بنفسه . وقد سمع ابن خلكان هذا الكتاب منه في ستة مجالس في جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وستمئة . (٤)

حكم مظفر الدين بلاده حكماً عادلا . ورعى حق الله في رعيته . ولم يأل جهداً في اسعادهم . ومنع الأمور المحرمة في الاسلام ان تقترف في امارته بحيث اصبح « لايمكن لأحد ان يشرب الخمر او يدخلها الى البلد (٥) ».

لقد كان مظفر الدين رجلا عظيماً . متمرساً في حرب الأعداء . اكتسب خبرة كبيرة من محاربته الصليبيين مع صلاح الدين في معركة حطين والسواحل الشامية ، وكان التتر يهابونه ويخشونه . ولو عمل الخليفة العباسي بنصيحته ، واهتدى برأيه لما اجتاحت جيوشهم العراق . ولما اصابه دمار واحراق. قال الدواداري في حوادث سنة ٦٢٠هـ : «كتب مظفر الدين للخليفة يقول : ان هذا العدو عدو ثقيل ، وخلق عظيم . لا يعلم عددهم الا الله تعالى عز وجل فابعث الينا جيشاً نلقى به هذا العدو ولو عشرين الف فارس ، ونحن

---

(١) مرآة الزمان ٨ : ٦٨. والمغل : الايراد.

(٢) نفسه ٨ : ٦٨.

(٣) البداية والنهاية ١٣ : ١٣٦.

(٤) وفيات الاعيان ٣ : ٤٤٩.

(٥) العسجد المسبوك ص ٣٣٧.

نتكل على الله تعالى ونلقاه بمعونته. فغلب على رأي الخليفة وزراء السوء ، وأثبتوا في ذهنه ان التتار لايدوسون له ارضاً ... فلم يرد الخليفة له جواباً . وقد كان التتار لما سمعوا بمظفر الدين تأخروا الى ورائهم ، فانه كان رجلا شجاعاً مقداماً » (١)

توفي مظفر الدين سنة ٦٣٠هـ ، وكان قد اوصى باربل للخليفة المستنصر بالله لأنه لم يخلف ولداً(٢) ، فتسلمها الخليفة ،وبذلك انطوت الصفحة المضيئة من حكم هذه الأسرة الكريمة .

الجانب الثقافي :

اهتمت الأسرة البكتكينية بالعلوم والآداب ، وشجعت الدارسين . وبذلت لهم بسخاء ، وأنشأت لهم المدارس ، ووفرت لها المدرسين ، فانتجع مدينة اربل الكثيرون من كل حدب وصوب ، فخرجت من الخمول الذي ران عليها زمناً طويلا . ولكثرة من دخل هذه المدينة من الوافدين – طلاباً وأساتذة – ألف شرف الدين أبو البركات بن أبي الفتح أحمد المشهور بابن المستوفي آخر وزراء أربل على عهد مظفر الدين كتاباً كبيراً بأربعة مجلدات سماه : «نباهة البلد الخامل ومن ورد عليه من الأماثل » (٣) ؛ لأن أربل ظل بلداً خاملا لايأخذ بأسباب النباهة الا بعد منتصف القرن السادس الهجري . أي بعد أن أصبحت ملكاً لأسرة بكتكين التركمانية . واستمرت هذه النباهة حتى اجتاحها التترسنة ٦٣٤هـ ، فخربوها وقتلوا أكثر أهلها ، ولم ينج منهم ألا من لجأ الى القلعة واعتصم بها ، وبذلك خفت ذلك اللألاء الذي لاح فترة من الزمن ، وعادت المدينة الى سابق خمولها .

---

(١) كنز الدرر ٧ : ٢٥٤.

(٢) تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٦١.

(٣) كان هذا الكتاب يعد من الكتب المفقودة، وقد عثر أخيراً على الجزء الثاني منه في مكتبة جستر بيتي في دبلن بايرلندة رقم ٤٠٩٨ ، كتب سنة ٦٤١هـ، أي بعد أربع سنوات من وفاة المؤلف، وعدد أوراقه ٢٣١ ورقة(توجد في مكتبتي نسخة مصورة منه).

أن اهم المراكز الثقافية في عهد هذه الأسرة هي مدرسة القلعة التي أنشأها أبو منصور سرفتكين النائب الأول للأمير زين الدين على بن بكتكين ، والمدرسة القيمازية التي أسسها النائب الثاني مجاهد الدين قايماز . ومدرسة مظفر الدين التي أنشأها مظفرالدين كوكبري .وقد اهتمت الأخيرة بتدريس الفقهين الحنفي والشافعي ، وكان يدرس فيها أيضاً : التفسير والحديث والنحو والصرف والمنطق والتاريخ والادب . ولم تكن هذه المدارس أقل شأناً من المدارس القائمة آنذاك في المدن المشهورة كدمشق والموصل وحلب والقاهرة .

لقد أرادت هذه الاسرة باهتمامها هذا ان تخدم أبناءها وتزيد من ثقافتهم من جهة . واكتساب الشهرة بين الملوك الذين كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء والادباء من جهة أخرى .

وكان للحركة العلمية والأدبية النشيطة في هذه المدينة . واحتضانها العلماء والأدباء واكرامهم وتقديم كل مستلزمات الراحة والاقامة لهم أثر كبير ودافع عظيم في اقبال أبنائها على الدرس والتحصيل ، فلم يمض وقت طويل حتى ظهرمنهم رجال عظام وصلوا الى مراتب عليا . واشتركوا مع اخوانهم في البلدان الاسلامية الأخرى في اغناء المكتبة العربية بثروة فكرية كبيرة تناولت مختلف جوانب المعرفة .

فمن العلماء : ابو الفضل الياس بن جامع بن علي الإربلي (ت٦٠١هـ) درس في أربل ثم « قدم بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية وسمع الحديث ، وعاد الى بلده ، وخرج التخاريج ، وجمع المصنفات . وروى هناك ، وتفرد بكتابة الشروط ، وكان فيه فضل وأدب (١) . وأبو محمد جعفر بن محمد الاربلي (ت٦٠٩هـ)«وكان عالماً متفنناً لعدة علوم منها الفقه على المذهب الشافعي — رحمه الله — والفرائض والحساب والهندسة والأدب والنجوم ومعرفة علوم القرآن المجيد »(٢) . وابو القاسم نصر بن عقيل بن نصر الاربلي (٣)

---

(١) الجامع المختصر ص ١٦٥.
(٢) الجامع المختصر ص ٣٤٣.
(٣) شذرات الذهب ٥ : ٨٦ .

(ت٦١٩هـ)، وعلى بن أبي القاسم بن علي الاربلي (ت٦٢١هـ)«وكان عنده فضل ومعرفة في النحو والفقه والعروض ... أخذ على سيبويه في عدة مواضع» (١).
والعلامة شمس الدين أحمد بن الحسين الإربلي الضرير المشهور بابن الخباز (ت٦٣٩هـ) وهو صاحب التصانيف. وشرح الألفية لابن معطي: وكان استاذاً بارعاً في النحو واللغة والعروض والفرائض» (٢).

ومنهم من ولد ونشأ في أخريات أيام هذه الامارة. وظهرت مواهبه بعد زوالها مثل: يحيى بن محمد أبي زكريا الاربلي (٣) (ت٦٨٠هـ). والامام العلامة سلار بن الحسن الاربلي(٤) (ت٦٧٠هـ). والجنيدبن عيسى الاربلي (٥) (٦٨٠هـ). والقاسم بن ابي بكر القاسم الأربلي (٦) (ت٦٨٠هـ). والشيخ مجد الدين أبي العباس أحمد بن علي بن ابي غالب الاربلي النحوي (٧) (ت٦٧٥هـ). وتقي الدين عمر بن يعقوب الاربلي (٨) (ت٦٧٣هـ)
ومن الأدباء: موفق الدين الاربلي (ت٥٨٥هـ) «وكان اماماً مقداماً في علم العربية. متفنناً في أنواع الشعر. ومن أعلم الناس بالعروض والقوافي وأحذقهم بنقد الشعر. وأعرفهم بجيده من رديئه. وأدقهم نظراً في أختياره. وهو شيخ ابن المستوفي صاحب تاريخ اربل(٩)

وأحمد بن عبد السيد المشهور بالصلاح الاربلي (ت٦٣١٢هـ). وكان حاجباً عند مظفر الدين كوكبري فتغير عليه واعتقله. ثم أخرج عنه: فخرج

---

(١) بغية الوعاة٢: ١٨٤.
(٢) نكت الهميان ص ٩٦.
(٣) ذيل مرآة الزمان٤: ١٣٣.
(٤) شذرات الذهب ٥: ٣٣١.
(٥) ذيل مرآة الزمان٢: ٣٦٥.
(٦) ذيل مرآة الزمان ٢: ١٢١.
(٧) شذرات الذهب ٥: ٢٨٨.
(٨) شذرات الذهب ٥: ٣٤١.
(٩) وفيات الأعيان ٥: ٩.

من اربل قاصداً الشام ، ومنها الى مصر ، فأتصل بالملك الكامل وعظمت منزلته عنده ، ثم تغير عليه واعتقله ، فعمل دوبيتاً ، واملاه على أحد المغنين فغناه عند الملك ، فاستحسنه . وسأله : لمن هذا ؟ فقال : للصلاح ، فأمر بالافراج. عنه ، والدوبيت :

ما أمر تجنيك على الصب خفي   أفنيت زماني بالأسى والأسفِ
ماذا غضبٌ بقدر ذنبي ولقد   بالغتَ وما أردتَ الاّ تلفي

وبقي على رفعة شأنه الى ان توفي بالرّها . له ديوان شعر (١)

اما الشاعر عيسى بن سنجر الاربلي المعروف بالحاجري (ت ٦٣٢) فقد ترك لنا ديوان شعر(٢) تغلب عليه الرقة والعذوبة . اعتقله مظفر الدين في قلعة أربل . فأرسل اليه قصيدة مطلعها :

قيد اكابده وسجن ضيــــــــــق   يارب شاب من الهموم المفرق

فأطلق سراحه . واتصل بخدمته . وتقدم عنده . وتزيا بزي الصوفية وترك لنا بالاضافة إلى ديوانه . مسارح الغزلان الحاجرية (٣) ونزهه الناظر وشرح الخاطر (٤) والحجازيات في مدح خير البريات (٥) .

ومن اعيان الادب مجد الدين ابن الظهير الاربلي(ت ٦٧٧هـ) له مؤلفات منها : تذكرة الاريب وتبصرة الاديب(٦) ومختصر أمثال الشريف الرضي ، وله ديوان شعر . جمع ابن الظهير بين الفقه والشعر ، وله القصائد الرائعة ، منها القصيدة المشهورة التي عارضها ابن نباتة المصري وقد ابدع فيها ، أولها :

مضت لنا بالحمى والبان اوقات   صفت وصفت فيها المسرات

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٨٤ . وانظر مرآة الزمان ٨ : ٦٤٣ .

(٢) له طبعتان : الأولى سنة ١٢٨٠ بمصر (طبع حجر) ، والثانية بمطبعة شرف بمصر سنة ١٣٠٥ (طبع حروف) .

(٣) نسخة منه في المكتب الهندي بلندن رقم ٨٢٩ .

(٤) نسخة منه في برلين رقم ٨١٩٨ .

(٥) نسخة منه بدار الكتب المصرية (انظر فهرست الدار ٣ : ٣٧٨) .

(٦) نسخة منه في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣١٢٩ .

اما قصيدة ابن نباتة المصري فأولها :

قضى وما قضيت منكم لبانات   متيم عبثت فيه الصبابات (١)

وسئل شهاب الدين محمود الحلبي عن هاتين القصيدتين أيهما أجود ؟ فاجاب :

هاتان قصيدتان بديعتان في بابهما ، فريدتان في اقتضائهما المعاني الجليلة وانتصابهما ، والثانية ارجحهما عندي وافضلهما في اعتباري ونقدي لتمكن الفاظها ومعانيها الرزينة ، وقواعد ابياتها ، وقوة مأتاها (٢) .

اما اسعد بن ابراهيم المشهور بمجد الدين النشابي (ت ٦٥٧ هـ) فهو شاعر كبير (٣) وكاتب بليغ . اشتغل في ديوان الانشاء عند مظفر الدين كوكبري واصطحبه سنة ٦٢٨هـ حين توجه إلى بغداد . وعندما دخل مظفر الدين على الخليفة المستنصر بالله امير المؤمنين ابي جعفر بن الامام الظاهر بامر الله تقدم مجد الدين بين يدي الخليفة وحياه بقصيدة طويلة نالت اعجابه (٤) .

واشتهر بقرض الشعر الحسن بن محمد المعروف بالعز الاربلي الضرير (ت ٦١٠هـ) ولم يصل الينا من شعره الا اعدة قصائد ومقطوعات من ذلك هذه الابيات الجميلة التي اجاب بها عن سؤال تلك الكاعب التي تعجبت من ضرير يعشق الجمال دون رؤيته ، ولاعجب في ذلك وقد سلك الطريق الذي سلكه بشار ابن برد الضرير ، فانه وجد بديلا وعوضا ، انه الفؤاد ، واما البصر فهو الطريق اليه فيقول : —

وكاعبٍ قالتْ لأترابها   ياقوم ماعجبَ هذا الضريرْ

---

(١) ديوان ابن نباتة المصري ص ٦٧.

(٢) الجواهر المضية ٢ : ٤٠١.

(٣) وصل الينا ديوان بشعره ، وهو محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٩٩٤ ، وقد اطلعت على مصورة هذا الديوان المحفوظ بمكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ٢٢٦ فوجدته خاصاً بمدح الخليفة المستنصر بالله العباسي ، ويبدو لي انه جزء من باب المديح في ديوانه الكبير الذي لم يصل الينا لأنه مخروم الاول والآخر ولايعرف مقدار الخرم أو أنه جزء من مجموع قصائده التي مدح بها الخليفة المستنصر بالله والتي تكون منها ديوان صغير .

(٤) انظر ذلك مفصلا في ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٢.

هل تعشق العينان مالاترى فقلت والدمع بعيني غزير
ان كان طرفي لايرى شخصها فانها قد صورت في الضمير (١)

ان شعر العز الاربلي محكم البناء . جيد السبك، عالي الطبقة ، يقول ابن شاكر الكتبي : وشعر العز الاربلي كله جيد(٢) وقال اليونيني : « وله نظم حسن جيد .(٣)»

ومن شعراء اربل الشاعر الصوفي علي بن عثمان الاربلي (ت ٦٧٠هـ)، وله قصيدة طويلة في كل بيت منها نوع من البديع (٤) . وابو الربيع سليمان بن بليمان الاربلي(٥)(ت ٦٨٦هـ)وجمال الدين طه بن ابراهيم الاربلي(ت٦٨٩هـ) وقد جاوز الثمانين (٦). وخشترين بن تليل الحكمي الاربلي (٧) (ت ٦١٩هـ). وابو بكر محمد بن ابراهيم الملقب بعرش الدين الاربلي (ت ٦٧٩ هـ) وكان شاعراً مقتدرا ومن نظمه «الألفية في الالغاز المخفية» وهي الف لغز في الف اسم (٨)،وابو العز يوسف بن النفيس الاربلي المشهور بشيطان الشام (ت٦٣٨هـ) وكان يسلك في شعره مسلك ابن حجاج في السخف والهزل (٩) وغرس الدين غازي الاربلي (١٠) (ت ٦٧٩هـ).

ومن شعراء النصارى باربل جيورجيس وردا الاربلي«انشد الشعر البليغ والاغاني المطربة ، لكنه يؤاخذ في شعره على استعماله كثيرا من الالفاظ اليونانية ... وتتنوع الموضوعات في قصائده فيصف في بعضها حصار اربل والجنود التترية

(١) فوات الوفيات ١: ٣٦٤.
(٢) فوات الوفيات ١: ٣٦٥.
(٣) ذيل مرآة الزمان٢: ١٦٥.
(٤) فوات الوفيات ٣: ٣٩.
(٥) النجوم الزاهرة ٧: ٣٧٢
(٦) شذرات الذهب ٥: ٣٥٧.
(٧) ذيل مرآة الزمان ٢: ٢٢٨.
(٨) ذيل مرآة الزمان ٤: ٧٩.
(٩) وفيات الأعيان ٧: ٣٤.
(١٠) تالي وفيات الأعيان ص ١٢٧.

وغير ذلك من الحوادث التاريخية الخطيرة وقد خصص قسما كبيراً من قصائده في مديح السيدة العذراء ، فأجاد في هذا الباب وفاق من جاراه في هذا الميدان . (١) »

ومن تلاميذه خاميس القرداجي الاربلي . ويمتاز شعره «بالعذوبة والسهولة والحلاوة والجزالة ، وهو عند الكثيرين اشهر من عبد يشوع الصوباوي صاحب الديوان المسمى فردوس عدن» (٢) .

لقد اثمرت مدارس اربل ومساجدها تلك الثمرات الطيبة التي ذكرنا طرفاً منها . وإلى جانب ذلك شاركت المجالس والندوات الأدبية والعلمية في ازدهار الثقافة ورقيها ، فانهم اتخذوها غذاء للعقل وتسلية وترفيهاً للنفس من مشاغل الحياة وهمومها . وكان لمظفر الدين ولع كبير بمجالسة العلماء والأدباء والاستماع اليهم . يذكر سبط ابن الجوزي ان مظفر الدين سمع مسند الامام احمد بن حنبل كله من المحدث حنبل بن عبدالله بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٤هـ(٣)وله ميل كبير إلى دراسة التاريخ وقراءة كتبه والاستماع إلى رواته. يقول ابن خلكان : «انه كان يميل إلى علم التاريخ وعلى خاطره شيء منه (٤) وكان يحضر الندوات الأدبية التي كانت تعقد في دور الأدباء وكبار رجال الدولة ممن يتذوقون الأدب : امثال : ابن المستوفي ، ومجد الدين التشابي . وعيسى بن سنجر الحاجري .او يحضر المجالس الدينية ويستمع إلى العلوم الاسلامية من فقه وتفسير وحديث التي كانت تعقد في مسجد القلعة والمسجد الذي شيده بجوار مدرسته في ربض اربل .

(١) تاريخ الموصل ٢ : ١١١ . وجاء فيه ان ديوان جيورجيس وردا الاربلي عني بتحقيقه المستشرق الألماني هزيخ وطبع في لايبزك سنة ١٩٠٤ .

(٢) تاريخ الموصل ٢ : ١١١ . وقال : « و من ديوانه نسخ خطية عديدة في مكاتب الشرق والغرب ، وشعره في الدين والنفس والتوبة ، وفيه التقويات على شكل الشعر الصوفي ، والهجويات يهجو مواطنيه الأرابلة ، والاخوانيات والخمريات والغزليات والرثاء » .

(٣) مرآة الزمان ٨ : ٥٣٧ .

(٤) وفيات الأعيان ٤ : ١١٩

وكان امراء اربل وادباؤها يحتفون في ندواتهم بالوافدين اليهم من الشعراء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) وقد كتب إلى اخيه ابي الحسن الساكن بمدينة شيزر بالشام في صدر كتاب :

وان امرأً اضحى باربل داره   وفي شيزر احبابه وشجونه
لغير ملوم في الحنين اليهم   ومعذورة ان تستهل دموعه (١)

وابا الحسن علي بن الحسين المعروف بشميم الحلي (ت ٦٠١ هـ)،ويوسف بن الحسن المعروف بابن مجاور (ت ٦٠١ هـ) ويوسف بن مواهب الحظيري (ت ٦٠٣هـ) وجمال الدين ابن السنينيرة (ت ٦٢٦ هـ) قال ابن خلكان : «وكان قد جاءنا ونحن في بلادنا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة الشيخ جمال الدين ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السنينيرة الواسطي وكان من شعراء عصره. نزل عندنا بالمدرسة المظفرية وكان قد طاف البلاد ، ومدح الملوك وأجازوه الجوائز السنية . واذا قعد حضر عنده كل من له عناية بالادب وتجري بينهم محاضرات ومذاكرات لطيفة» (٢) .

وشرف الدين ابن عنين (ت ٦٣٠ هـ) وعز الدين ابا رواحة الأنصارى (ت ٦٤٦ هـ) وعلي بن محمد بن الرضا الموسوي الطوسي المعروف بدميرخان (ت ٦٥٥هـ) والملك الناصر داود بن عيسى الايوبي (ت ٦٥٦هـ) ويوسف بن عبد الرحمن المعروف بابن الجوزى (ت ٦٥٦هـ) وعثمان بن محمد بن عبدالله بن أبي عصرون (ت ٦٥٨ هـ) .

ويعد مجلس شرف الدين ابن المتوفى من أعمر المجالس واكثرها ارتياداً، فانه لم يكن يدع احداً من الفضلاء يصل إلى اربل الا بادر إلى اكرامه واستضافته(٣) وابن المستوفى اربلي المولد والمنشأ ولد في منتصف شهر شوال سنه ٥٦٤هـ، وهو من بيت كبير مشهور بالعلم والادب ،تولى والده وعمه صفي الدين ابو الحسن

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٥ .
(٣) أنظر ماقاله ابن الشعار عن ابن المستوفي في كتاب وفيات الأعيان ٧ : ٢٥ .

علي بن المبارك منصب الاستيفاء في اربل ، وكان عمه هذا يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فنقل كتاب «نصيحة الملوك» لحجة الاسلام الغزالي إلى اللغة العربية ، وكان الغزالي قد الف الكتاب باللغة الفارسية وقد شغل ابن المستوفي منصب الاستيفاء في اربل حتى سنة ٦٢٨ هـ قال ابن خلكان : «كان جم الفضائل عارفاً بعدة فنون . وكان ماهراً في فنون الادب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الاوضاع المعتبرة عندهم . جمع لاربل تاريخاً في اربع مجلدات ... وله كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وابي تمام (١) وكتاب «اثبات المحصل في نسبة ابيات المفصل» في مجلدين تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل وله كتاب « سر الصنعة» وسمعت منه كثيرا وسمعت بقراءته على المشايخ الواردين إلى اربل شيئا كثيرا، فانه كان يعتمد القراءة بنفسه . وله ديوان شعر أجاد فيه (٢) .

الشعر :

ان القسم الاكبر من الدواوين الشعرية التي تذكرها المصادر لشعراء اربل ضاع مع ماضاع من تراثنا العظيم ،وما بقي منها غير مطبوع ماعدا ديوان حسام الدين الحاجري الذي يفتقر إلى ابسط قواعد التحقيق . وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على مأأوردته كتب التاريخ والادب من قصائد ومقطوعات .

لقد ازدهر الشعر في ظل الاسرة البكتكينية وراج سوقه ،فان الشعراء طرقوا ابواب الوصف والفخر والغزل ،كما طرقوا ابواب المديح والهجاء والشكوى والعتاب والاستعطاف ، ولم تخل اشعارهم من الحكم والامثال وكل مايقال عن الشعر في هذه الامارة او يظن من جديد، ليس في الواقع بجديد وانما هو امتداد لما كان عليه في العصور العباسية السابقة بل تكرار لمعانيهم واخيلتهم

---

(١) وصل الينا منه جزءان ، الأول في مكتبة سوهاج في صعيد مصر رقم ١٣٥ ، والثاني في مكتبة يني جامع في استنبول رقم ١٠١٥ ولم يعثر إلى الآن على الجزء الثالث الذي يتم به الكتاب.

(٢) وفيات الأعيان ٤ : ١٤٧ .

الا ماندر ، وسأتناول توضيح ذلك بايجاز .

من الاغراض المهمة التي تطالعنا في شعر هذه الامارة هو الغزل ، الذي أفرد له الشعراء القصائد والمقطوعات، واستهلوا به النظم في فنونه المختلفة. ومما يلفت النظر فيه كثرة عودة الضمير إلى المذكر ، وهناك دلائل تدل على ان الاغلب فيه يراد به المذكر الحقيقي ، ويؤيدنا في هذه الدعوى سيرة عدد من الشعراء وعلى رأسهم ابن خلكان الذي وقع اسيراً في حب ابن الملك الزاهر صاحب حماه ، ونظم فيه قصائد كثيرة . ومن كثرة انتشار الشذوذ الجنسي المقيت نرى العز الاربلي يتهم شخصا يدعى ابن ابي زهران بانه يدعو اصحابه اليه ويرغبهم فيه :

وقال : السلام على من زنى ولاط وقاد لإخوانه
فردّوا جميعاً عليه السلام وكل يترجم عن شانه
وقال يجوز التداوي بها وكل عليل بأشجانه(1)

من دواعي هذا الانحراف الخلقي كثرة الغلمان من الافرنج الذين امتازوا بجمال مفرط ، فإن جيوش اربل شاركت في عده معارك في بلاد الشام وأوقعت خسائر جسيمة بالافرنج وأسرت منهم اعدادا كبيرة ، وأصبح هؤلاء بملاحتهم موضع قربى من الناس ، حتى ان الامراء والسلاطين ، بل الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن ان يصطحبوا الغلمان الصباح الوجوه في مجالسهم، ولم يروا عيباً او بأسا في ان يختص احدهم بواحد او اثنين منهم لمرافقته في خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه(2)»يضاف الى هذا ان كثيراً من رجال الحرب كرهوا الزواج واعرضوا عنه ، لأن الحروب الصليبية التي لم تكن نارها تخمد الا لتعود إلى الاشتعال من جديد منعتهم من الاستقرار الذي يترتب عليه تكوين الاسرة . واخيراً اعباء الحياة الثقيلة وسوء الحالة الاقتصادية ، والمجاعات المتوالية ابعدت الكثيرين من دخول الحياة الزوجية .

---

(1) فوات الوفيات ١: ٣٦٣.
(2) الأدب في العصر الأيوبي ص ٣٨

وقد تصدى كثير من الكتاب لمحاربة هذا الشذوذ والحملة على انصاره والداعين اليه . ولم يرض مظفر الدين بهذا الخلق الشائن ، فحارب فاعليه والقى الكثيرين منهم في سجن كرخيني (١) .

اما الغزل بالمؤنث فهو نادر(٢) بل لانجد له اثرا عند فريق كبير من الشعراء وكأنه محرم عليه ان يلهج باسم امرأة ،او يصف هيامه وولهه بها .ولايعقل بأنهم نسوا المرأة وابطلوها من حياتهم ، ولم يتعلق قلب احدهم بحبها ، وربما كان احتجابها وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بالمخالطة والمجالسة حتى المقربين منها ، سبباً دون ان يتغزل بها الرجل صراحة حفظاً لسمعتها وخشية من أهلها فالتجأ إلى الغزل بالمذكر واتخذه وسيلة يلمح بها لحبيبته عن حبه ومودته لها .

ان الشعر ماكان ليروج ، ولايقبل عليه الناس الا اذا كان مشتملا على شيء في هذا الغرض وكان من الشعراء من يضطر إلى القول في هذا الموضوع . وهو مكره ، قال ابن الوردي :

مـــا المرد اكـــــبر همي ولا لهـــــايـــة علمـــي
ولست من قوم لوط حاشا تقـــاي وحلمـــي
وانما خرج دهـــــري كذا فنفقت شعري (٣)

ان الغزل بالمذكر يصف الغلام في اعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وأردافها وثناياها وشعرها وعينيها ، حتى في غنجها ودلالها ووصفوا الحب والهيام والترصد واللحاق في اللقاء كما وصفها الشعراء المجانين في حب النساء ، وافتتنوا بحسن منظره ورواثه وسحر طرفه ومبسمه كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة الساحرة . انهم تغزلوا بالمذكر ولكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة الرخيصة التي نجدها عند ابي نواس وابي الحسن والسلامي والخبز أرزي وابن حجاج وابن سكرة الهاشمي . فهذا قاضي اربل جعفر

(١) كرخيني : قلعة حصينة على تل عال بين داقوق واربل(معجم البلدان ٤ : ٤٥٥ .
(٢) انظر ديوان الحاجري ص ١٦ .
(٣) الحروب الصليبية ص ٢٥٥ .

بن محمد يطلب من الاخرين ان يكفوا عن لومهم وعذلهم في حبه لذلك البدر الجميل الذي توارت الشمس عنه خجلا . فان الحاظه افتك من السيف المرهف، وريقه افعل من الخمر السلاف الممزوج بالعسل :

طلَّ دمي بالفتور والكحل فلا تلمني وكف عن عذلي
آليتُ لأسمع الملام ولا اركن في حبه إلى ملل
بدر اذا مابدا مقابله الشمس توارت عنه من الخجل
اذا ترشفت ريقه سحراً قلت : سلاف يعل بالعسل
الحاظه في حشاي افتك من سيف علي في وقعه الجمل (١)

وان قلب ابن الظهير الاربلي مقيم على الجمر . لما وقع في حب غرير من الاتراك تخجل البيض القواضب امام الحاظه الفتاكة والرماح اللدنة تجاه عطفه النحيف المضمر :

غريرٌ من الاتراك زنجي خاله كقلبي مقيمٌ من هواه على جمر
إذا ازورَّ سخطاً او تلفت راضيا أمات واحيا بالقطوب وبالبشر
وان سل سيف اللحظ أوهز عطفه فياخجلة البيض القواضب والسمر (٢)

وهذا قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان يقع في شباك حب ابن الملك الزاهر صاحب حماه، وينظم فيه قصائد كثيرة تنم عن لوعة وعذاب، فها هو ذا يقسم بذلك الوجه النير الجميل . وبالطرة البارزة السوداء ، والقامة الفارهة، والمبسم الوسيم ، والدر النظيم . فهو يخشى من ألسن الناس وعيون الحراس ، فيطلب منه ان يطفىء حرقته ، ويشفي غلته ، قبل ان يكشف القناع ويفتضح امره بين الاسياد والرعاع :

قسماً بوجهك وهو بدرٌ طالعٌ وبليل طُرتك التي كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبتُ من أخطارها في الحب اعظم مركب
وبطيب مبسمك الشهي البارد الـ ـعذب النمير اللؤلؤي الأشنب

(١) الجامع المختصر ص ٢٤٣.
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٣١٠.

لو لم اكن في رتبة ارعى لها ال عهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي خلع العذار ولج فيك مؤنبي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي : قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي
لاتفضحن بحبك الصب الذي جرعته في الحب اكدر مشرب (١)

وبعضهم لم يكف عن الغزل بالمذكر حتى وقد أدركته الشيخوخة فهذا المنشيء الاربلي يهيم شوقاً — وقد جاوز الثمانين — بغلام يفوق الظباء في جيدة وطرفه. والغصن الغض في لينه وطوله . والقمر المنير في حسنه وبهجته والبرق في وميض مبسمه :

ولولا معان فيك اوجبن صبوتي لما كنت من بعد الثمانين مغرما
كلفت بساجي الطرف احوى مهفهف يميس فينسيك القضيب المنعما
يفوق الظبا والغصن طرفاً وقامة وبدر الدجى والبرق وجها ومبسما(٢)

ولهم في هذا الغزل معان طريفة ، ولمحات ظريفة اسمع مايقوله موفق الدين الاربلي في غلام اسمه السهم وقد التحى

قالوا التحى السهم ، قلت : حصن حشاك فالآن لايطيش
فالسهم لاينفـذ الرمـايـا الا اذا كان فيه ريش(٣)

وانظر إلى ماقاله ابن المستوفي في غلام ، فان يده تعلقت بعذاره وخدّه ، تارة يجني وتارة يقبل ، ثم خالطت زفراته انفاسه لما ضمهما الليل . ولكن لم يدم ذلك فان داعي الصبح قد هتف غيظا وحسداً :

علقت يدي بعذاره وبخده هذا اقبله وذا اجنيـــه
لو لم تخالط زفرتي أنفاسه كانت تنم بنا إلى واشيه

(١) فوات الوفيات ١ : ١١٢ .
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٥٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٥ : ١١ .

حسد الصباح الليل لما ضمنا غيظا ففرق بيننا داعيه (١)

ويصور مجد الدين النشابي رشاقة محبوبه تصويراً بديعاً ، فهو نحيف ضامر لايفصل بين خصره وردفه الا حزام صغير ومع ذلك فهو قوي يرد جيوش عشاقه ويرديهم صرعى برمح خده القاتل :

شكا خصره من ردفه فتراخيا بفصلهما بند القباء المكتم
ورد جيوش العاشقين لأنه أتاهم بخط العارض المتحكم(٢)

ويبث ابن نجا الاربلي شكواه من الحبيب الذي اصم اذنيه وكأنه لايسمع بعد ان وقع اسير سجنه الذي لايبرح عنه . فالبغض سجيته ، والقسوة طبيعته والقطيعة ديدنه ، وقد نفد صبره وتزاحم وجده :

تذللت لو ان التذلل ينفع وافرطت في الشكوى لو انك تسمع
وامسى خضوعي للحبيب سجيتي وهل نافعي للحب اني اخضع
ومن عجب اني بحبك مولع وانت ببغضي والقطيعة مولع
نصيبك مني الحب والوصل كله ومنك نصيبي البغض والهجر اجمع
فؤادك مما بي من الشوق فارغ وقلبي ملآن من الحزن موجع
ووجدي وصبري في هواك تحالفا فوجدي مقيم واصطباري مودع (٣)

ويصف لنا عرش الدين الاربلي محبوبه الجميل، وهيامه به فهو مريض الاجفان. كأنه وسنان، اسدل عذاره فوق خده الاسيل، الحاظه واسعة تطلق السهام فتصمي قلوب الاقوياء ،ثناياه حلوة يتخللها رضاب يشفي غليل الاصدياء.

ومريض الاجفان بلبل عقلي بعذار من فوق خد اسيل
جؤذري اللحاظ حلو الثنايا طاب بسقمي في حبه ونحولي
مقلة الروم من بني الروم رام بسهام تصمي قلوب الفحول
ماعليه لو جاد لي برضاب من لماه عساه يشفي غليلي (٤)

---

(١) وفيات الأعيان ٤ : ١٤٩.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٣.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤.
(٤) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٨٠.

هذه هي ابرز المعاني التي نجدها في اغلب قصائدهم الغزلية ، فهي لاتعدو عن وصف جمال المحبوب وهيامهم به . وولهم فيه . وبيان آلام الهجران ، ومرارة الحرمان ، وطلب الرأفة بالحال ، والاسراع في الوصال بلغة بعيدة عن الفحش والبذاءة ، والابتذال التي ينبو عنها الذوق. والامر الذي يلمسه القارىء في غزلهم هو اختيارهم للبحور القصيرة والمجزوءة واستعمالهم الكلمات السهلة المأنوسة التي تصل عند بعضهم إلى اللغة العامية واكثارهم من المحسنات البديعية .

وموقع الغزل في قصائد الشعراء يختلف بأختلاف الشعراء. فمنهم من افرد له قصائد ومقطوعات مستقلة ومنهم من جعله في مطلع قصائده .وا تخذه وسيلة يمتطيها للوصول إلى غرضه الأصلي وقد اطال بعضهم فيها واستغرقت اكثر من نصف القصيدة . فهذا حسام الدين الحاجرى يمدح الامير ركن الدين أحمد بن الامير شهاب الدين باربل ، فيبدأ قصيدته بذكر الديار الحجارية والتغزل بالمقل الواسعة المكحولة التي سلبت فؤاده: والطلب من سائق العيس الذي ا سرع في سيره لقطع المفاوز والقفار ان يعرج على رامة ليرى دار الحبيبة ومن ثم يلقي عليها تحيته :

لي بالعقيق ، سقى العقيق غمامة ... قلب أسير ماله من فـادِ
سلبته مني يوم رامة مقلة ... مكحولـة أجفانهـا بسـواد
ياسائق الوجناء غير مقصرٍ ... يطوي المفاوز من ربى ووهاد
مالي اليك سوى التحيةِ حاجةً ... تلقى سعاد بها ودار سعاد
عرِّجْ برامة إنَّ رامة مُنتهى ... أملـي وغـايةُ بُغيتي ومُرادي
لله صب بالـعـراقِ متيم ... ظامٍ الى مـاءِ المحصَّب صادي

ويطيل بعدها وصف ذلك الرشأ الذي يصمي قلوب العباد ، بسهام الحاظه الحداد ، ويكويها بجمر خدّه الوقّاد . وينتقل بعدها الى وصف حاله ، وما يعاني من فقره ومآله ويطلب من الممدوح أن يسعفه ويمدّ له يد عونه ومساعدته :

بأيُّها المولى الذي عن كفّه ... يُروى حديثُ الجود بالإسنادِ

اشكوك حالا لارميت بمثلها لاتبتلي بشماتة الحساد
حاشا سجيتك الكريمة ان تحد عن منهج الاسعاف والاسعاد (١)

وهذا مجد الدين النشابي يمدح الملك المنصور زنكي بن ارسلان شاه ، ويبدأ قصيدته بوصف الشادن الذي يبعث البهجة والسرور لكل من يراه ، فإن عذاره حرير ، وخدّه جنة ، وثناياه لجين :

بابي شادن تبدى فأبدى من محياه بهجة وسرورا
وعذار في ذلك الخد ابدى ببها الحسن جنة وحريرا
وثنايا كأنها من لجين قدروها في ثغره تقديرا

ولو سرحت طرفك في ذرى الممدوح فلا ترى فيه بؤسا ولامن يعاني زمهريراً وشمسا . فانه يبيح المال والطعام ويكسو الفقراء والايتام :

سرح الطرف في ذراه ترى ثم نعيماً وملكاً كبيرا
لم ير النازلون في ظله المعمور شمساً يوماً ولازمهريرا
ويبيح الطعام والمال كم عم يتيماً بزاده واسيرا (٢)

وهذا سليمان بن بليمان الاربلي يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف ويهنئه بعيد الاضحى بقصيدة عدتها تسعة واربعون بيتاً . خصص الابيات العشرين الاولى لوصف المحبوبة الذي يخجل البدر حسنه فاذا رنا تغار الظبية منه واذا تثنى تحسده العسالة الذبل . وينتقل بعدها إلى وصف الممدوح الذي تهابه ملوك الارض فان عقله راجح وحكمه ناجح ، ونائله عميم وعطاءه جسيم :

طوى الحجا ماللملوك الارض غير حجاه ابداً معقلُ
يعدل في الحكم ولكنه عن طرق المعروف لايعدلُ

وهو شجاع في الوغى . تهاب منه اسد الشرى واذا تقابلت جحافله مع جيوش الاعداء ، فان اسيافه من لمعها تحيل الليل نهارا :

---

(١) ديوان الحاجري. ص ٥.
(٢) فوات الوفيات ١ : ١٦٧.

ذيب اذا ماصار في معزل وان له ليث الشرى المشبل
تعيدُ ليل النقع اسيافــه صبحاً اذا ماازدحم الجحفـل

ويدعو له في ختامها بالسعادة والسلامة وبطول العيش رافلاً في ثوب الهناء :

فاسعد بعيد النحر واسلم له لازلت في ثوب الهنا ترفل (١)

ويمدح موفق الدين الاربلي الأمير زين الدين يوسف صاحب اربل بقصيدة طويله يتذكر في مطلعها داراً بالغضا، وكيف كانت فيما مضى : ويصفها وقد وقف الركب عليها باكيا : فاذا هي آثار دارسة ومعالم طامسة بعد ان كانت دار عز كشجرة لايرقى اليها الطير وهي محروسة بكماة شجعان يقطعون الكف التي تمتد اليها بسوء وينتقل إلى الممدوح ويذكر يده الكريمة التي كفته مؤونة السؤال :

رب دار بالغضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها
درست الا بقايا اسطر سمح الدهر بها ثم محاهـا
كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاهـا
قـل للجيران مواثيقهم كلما أحكمتها رثت قواها
كنت مشغوفاً بكم اذ كنتم شجراً لايبلغ الطير ذراها
لاتبيت الليل الا حولها حرس ترشح بالموت ظباها
واذا مدت إلى اغصانها كف جان قطعت دون جناها
ان زين الدين اولاني يداً لم تدع لي رغبة فيما سواهـا (٢)

وانظر إلى موفق الدين الاربلي كيف يوفق بين الهلال الجميل . وامير اربل فالأول للظلام زائل، والثاني للمظالم حائل :

تقابلتما فاستجمع الحسن كله فمن نظر يرنو ومن نظر يغضي
هلالان هذا للظلام يزيله سناه وهذا للمظالم في الارض (٣)

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٣٢٤.
(٢) وفيات الأعيان ٥ : ١٠.
(٣) بغية الوعاة ١ : ٢٨٧.

ويمدح ابو الربيع الاربلي الملك الناصر بن العزيز الذي فاق الملوك نوالاً ، وقد ألبسه من العطاء كساء ، وتلافاه من وهدة الفقر نجاء :

يامليكاً فاق الأنام جميعاً	منه جودٌ كالعارض الوكّافِ
والذي راشَ بالعطايا جناحي	وتلافى بعد الاله تلافي (١)

ويطالعنا مجد الدين النشابي بقصيدة غريبة ، فانه لايتغزل فيها، ولايصف. بل يأتي على تاريخ الخلفاء العباسيين جميعاً ، ابتداء من أبي العباس السفاح ، وانتهاء بالامام المستنصر بالله، ذاكراً طرفاً من محاسن اعمالهم. وجميل أفعالهم . ويخيل للقارىء أنها قصيدة في تاريخ بني العباس فانه لايخصص للمدوح الا أبياتاً معدودة منها:

فاليوم برهان النبوة ظاهـــر	بخلافة المستنصر المستبصـــرِ
سلطانُ كلّ معجم ومطيلس	ومليكُ كلّ متوّج ومسوّر (٢)

وقد خلا شعر المديح الذي ذكرنا طرفاً منه ، من المعاني الجديدة ، والافكار المبتكرة ، فالمقدمات طويلة لامسوغ لها ، والأوصاف التي حشدت حشداً تنفر السامع وتكسبه الملل والسأم ، وقد خرج الكثيرون عن طريق الفن والابداع إلى مجموعة من الالفاظ والصفات المكررة كالكرم والشجاعة والحكم العادل. وغاض عندهم معين الاسلوب الجزل المتين الذي ارتقى به أبو تمام والبحتري والمتنبي إلى اعلى درجات الفن الرفيع .

والهجاء من الموضوعات التي كثُر القول فيها ، ولكننا لانجد فيه مايتناول العرض وقذف المحصنات والسب والشتم الرخيص، بل نجد هجاء فيه شيء من الهزل والسخرية . وتصوير المهجو بشكل مضحك، يثير انتباه السامع ، او نعته بنعوت مشينة في عرف المجتمع كالغدر والبخل والحمق .

فهذا مجد الدين النشابي ينعت وزير اربل شرف الدين ابن المستوفي بالتوقّف واللجاجة والبخل فيقول :

---

(١) فوات الوفيات ٢ : ٥٧.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٢١.

انّ المبارك فيـــــــه توقفُ وبجـــــــاجهْ
صديقهُ انت مـا لـــم تعرضْ اليه بحاجـ.........هْ (١)

وعندما بلغ سليمان بن بليمان الاربلي أن الشيخ الشاعر محمود بن يوسف التلعفري يلعب القمار هجاه ، قال فيها :

مارأينا ولاسمعنا بشيـــخ قبلَ هذا مقامرٌ بالخفافِ
أسودُ الوجه ، أبيض الشعرِ لكن في سخيم وقبحه وخفـــافِ
يدعي نسبة إلى آل شيبا ن وتلك القبائـــلِ الأشرافِ
مثل نجد لو استطاعت لقالت ليس هذا الدعيُّ من اكنافي
فابسط العذر في هجاء رقيع عادلٍ عن طرائق الانصافِ (٢)

لم يسمع ، ولم ير مثل هذا الشيخ الممسوخ الوجه بالسواد المشتعل الرأس بالشيب ، يقامر بكل مايملك حتى خفافه التي تحميه من اذى الحفاء . انه يدعي تتبرأ منه شيبان وتأنف ، ان يكون منهم وهو رقيع مبتذل . لذلك فهو غير ملوم على هجائه .
وهناك هجاء سلك مسلك العتب والتأنيب . فمن مستطرف مايرويه صاحب كتاب «الغصون اليانعة» عن خطيب اربل وقاضيها جعفر بن هبة الله . حينما دخل على احد موظفي الامارة — وكان قد درس الادب والنحو عليه — فلم يلتفت اليه ، ولم يعرف قدره ، فجلس متألماً ، وانشد مشيراً اليه :

هذا مقامي لديك يامَنْ أقـــام دهراً وراءَ بابي
اقصى أمانيه قربُ اذن في دولة الحسنِ والشبابِ
ان كنت انسيت ذاك فانظر في فرد باب من الكتـــاب (٣)
لاتغتـــرر بالزمان يوماً وافكر اذا سرت في الأباب (٤)

---

(١) فوات الوفيات.
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٥٧ .
(٣) الكتاب : هو كتاب سيبويه ، وفرد كتاب : اي الباب الأول منه ، وهو باب الفاعل الذي يتعدى فعله إلى مفعول ، واليه يلمح .
(٤) الأباب : التهيؤ ، ولعله يريد به الاستعداد لاستقبال الموت .

مخارق الجاه ليس تبقى ومواقف العزل كالحسابِ
فافعل على قدر ماتلقى وقل فلا بد من جواب

فلما سمع السلطان مظفر الدين كوكبري صاحب اربل الخبر عزل هذا الموظف ، فقال له القاضي جعفر بن هبة الله : « ارغب من احسان السلطان الا يكدره بأن اكون سبباً لعزل شخص وقطع رزقه ، وانا ممن يشتفي بالقول لا بالفعل ، فالاشتفاء بالافعال من شيم الملوك ، فقال له السلطان أبيت الا أدباً وظرفاً ، وجاء ذلك الرجل فصار من خدامه والمعترفين بانعامه » (١).

ونهج هذا المنهج ابو الربيع الاربلي حينما اشتكى من اولئك الذين لايعاضدونه في محنته ولايؤازرونه في فقره وشحته ، فأصبح في أرضهم يسحب ذيل الذل والهوان . وهم يرونه على مرأى وعيان ، فقرع سن الندم ، لأن هزة الكرم اضحت فيهم كالعدم :

خليلي كم اشكو الى غير راحم وأجعل عرضي عرضة للوائم
وأسحب ذيل الذل بين بيوتكم وأقرع في ناديكم سن نادم
هبوني ماستوجبتُ حقاً عليكم اما تعتريكم هزّةُ للمكارمِ
كأنّ المعالي ماحللن لديكم وقد اصبحت معدودة في المحارم(٢)

ان اضطراب الحالة الاجتماعية في طبقة كبيرة من المجتمع في اخريات ايام الدولة العباسية ومنها اربل . وسوء امورهم ، والضرائب الجائرة التي لحقتهم والظلم الذي اصابهم من موظفي الجهاز الاداري ، ووصول فريق من الناس إلى مراتب الجاه والسلطة دون استحقاق ، والثراء الفاحش على حساب الآخرين وانتشار الرشوى وارتفاع الاسعار وشيوع الخداع والتضليل والتدجيل .

كل ذلك أثار حفيظة الشعراء ، ودعاهم أن يترصدوا أفعال المسيئين بلسانهم الساخر ، يفضحون معايبهم ويكشفون للناس عوراتهم ونقائصهم وينشرون مخازيهم . وقد اتهم ياقوت الحموي الذي زار اربل وأعمالها سنة ٦١٧ هـ مظفر الدين كوكبري بالجور والاعتساف . فقال : « وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة ، فانه

(١) الغصون اليانعة ص ٧٩ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٥٩ .

كثير الظلم ، عسوف الرعية ،راغب في أخذ الأموال من غير وجهها، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء، كثير الصدقات على الغرباء يسير الأموال الجمة الوافرة يستفك بها الأسارى من أيدى الكفار » (١) .

ان الهجاء الذي تحول إلى نقد اجتماعي كثير ولكن لانجد فيه تهجماً على مظفر الدين بل على موظفي امارته . ومن أجرأ الشعراء في هذا الميدان مجد الدين النشابي . فانه حمل حملات عنيفة على الموظفين وهجاهم هجاء لاذعاً . فقد كان مشرف ديوان اربل رجلا نصرانياً يقال له يعقوب ، فحبسه مظفر الدين لأمر لم تذكره المراجع ،وولي مكانه نصرانياً آخر يقال له المختص فقال:

فرحنا بيعقوب اللعين وحبسه ... وقلنا أتانا مايطيب به القلب
فلما ولي المختص فالشر واحد ... اذا مامضى كلب اتى بعده كلب (٢)

وبين لنا في أبيات أخرى سوء تصرف الموظفين واستغلال نفوذهم في التحكم برقاب الناس ، فقال :

قد قسمنا الديوان خمسة أقسا ... م عليها لكل قول دليل
رب حق فلا يطاع ومنسو ... ب إلى الظلم قوله مقبول
ثم شخص كأنه الحرف في النحـ ... ـو فلا فاعل ولا مفعول
ومُصرٌ على التحيف والظلم ... بعيد عن الصواب جهول
واخو حاجة يمشي أحوا ... لاً لديه ان جاءه برطيل
اتراهم لم يعلموا ان كلاً ... منهم عن فعاله مسؤول(٣)

فالحقوق ضائعة بأيدي اناس جهلة،واسواط ظلمهم وتعسفهم تلهب ظهور الناس والأعمال لا تقضي الا بالرشاوى ، وحسبوا انهم لايصادون ولايقعون في قبضة العدالة ، ولكن خاب ظنهم فان مظفر الدين القاهم في السجن جزاء مااقترفوه بحق شعبه ، فقال مجد الدين النشابي :

---

(١) معجم البلدان ١ : ١٣٨.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٧.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.

جماعة الديـــــوان في ليلة شحط مظلمه
وقد غدت أيدى الوزير منهــم منتقمـــه
لارحم الله الذي يرحم قوماً ظلمــه (١)

ولم يكتف بعذاب السجن ، بل طلب ان يقتلوا ، ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه ان يجني على حقوق الناس الشرعية ، فقال :

جماعة ديواننا أصبحـوا وهم في العذاب لسوء الحساب
فان يك يرجو الوزير الثواب فقتلهم من جـزيل الثـواب (٢)

وعندما زار مجد الدين النشابي بغداد ، ورأى تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وانشغال المسؤولين بملذاتهم وملاهيهم ، والتتر آخذة في ابتلاع أجزاء من بلاد المسلمين وهي في طريقها إلى بغداد ، تألم لذلك ، ونظم قصيدة طويلة أوضح فيها افعالهم الرديئة واعمالهم المشينة وحذرهم في آخرها من واقعة لاتبقي ولاتذر ان لم يتخذوا الحيطة والحذر ، منها :

اما الوزير فمشغول بعنبره والعارضان فنساج ومداد
وحاجب الباب طوراً شارب ثمل وتارة هو جنكي وعواد
وابن عباس مغرى باللواط له في كل ناحية علق وقواد
وشيخ الاسلام صدر الدين همته مقصورة الحطام المال يصطاد
الكفر أضرم في الاسلام جذوته وليس يرجى لنار الكفر اخماد
اين المنية مني كي تساورني فللمنية اصدار وايــراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة يشيب من هولها طفل وأكباد (٣)

ونرى طه بن ابراهيم الاربلي يتألم ويتأسف لأن اربل أصبحت مفتقرة إلى رجل لبيب يرعى حقوقه الناس ، ويرفه عنهم في المعاش فيطلب من الله ان لايستقيها الغيث مادام حكامها من غير المسلمين :

أأربل ؟ لاسقاك الله غيثا فقد اقفرت من رجل لبيب
ارى العزاء قد ملئت لئاما وقد ضاقت على الشيخ الوهوب

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.
(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠.

فما في مالكيها من معين على صرف الزمان ولا والخطوب
ولا في قاطنيها أريحـي ولا في ساكنيها من طروب
الا أجرى الاله بليد سوء تحكم فيه عباد الصليب (١)

لقد كان للهجاء – كما رأينا – دوافع عديدة منها الفقر والحرمان او الظلم والهوان ، او انشغال والي الامر عن مصالح العباد باسلوب لايصل إلى درجة الاقذاع والافحاش اللذين نجدهما عند بعض الشعراء الأقدمين .

ولانجد في فن الهجاء الذي ذكرنا نماذج منه صوراً مبتكرة والتفاتات ذكية. وهو نظم تغلب عليه الركة والهلهلة ويختلط بعبارات عامية او الفاظ دارجة .

وللوصف في شعر هذا العصر نصيب وافر، فان الاربليين عاشوا في طبيعة جميلة، ينعمون بها ويستمتعون بمناظرها ، فاقبل الشعراء على وصف كل شيء تقع اعينهم عليه فيها ، وهذا الوصف جاء بعضه في قصائد ومقطوعات مستقلة. وبعضه الآخر ضمن الاغراض الأخرى، فان حسام الدين الحاجري يصف بقصيدة الربيع وازهاره البديعة من نرجس وشقيق وياسمين وسوسن وبنفسج وآس ويشبهها بأشياء محسوسة لطيفة ، ويصف فيها الطير الصادح ، والشجر المتناوح ، والنسيم الهاب العليل ، اليك منها هذه الابيات .

لا والربيــــع النضير وزهـــــره المستنير
من نرجس وأقـــاح كأعيـــن وثغور
ومن شقيـــق كحسنا قد اقبلت في حرير
وياسمين كلون الـ متيـــم المهجـــور
وسوسن كنجـــوم أشرقـــن في ديجـــور
والآس شبه عـــذار بخد ظبي غريـــر
والطير بين هـــديل من جمع وهدير
والغصن ميـــال عطف كشـــارب مخمـــور (٢)

وشبه مجد الدين النشابي البرق الساطع بين السحاب السائر بالفؤاد الخافق

(١) ذيل مرآة الزمان ٣ : ٣٠٥ .
(٢) ديوان الحاجري ص ١٤ .

وقت انتظار الحبيب الزائر :

والبرق يخفق من خلال سحابه خفق الفؤاد لموعد من زائر (١)

وشبه تتابع وميض البرق بالسلاسل الذهبية اللامعة والسيوف البراقة القاطعة :

كأن ائتلاف البرق من جنباتها سلاسل تبر أو سيوف قواضب (٢)

ويدعو ابو الربيع الاربلي إلى شرب الخمرة ، وطرح الهموم لأن الجو طاب بمجيء أيلول والكأس المترعة تحاكي الشمس في بريقها ، والبدر الجميل قد أسفر عن وجهه النير والأرض قد زهيت بحلتها البديعة وهي مطرزة بأزهارها الأنيقة :

اشرب فشربك هذا اليوم تحليل وانف الهموم فقد وافاك ايلول
أما ترى الشمس وسط الكأس طالعة منيرة ونطاق البدر محلول
والارض قد كسيت بالغيث حلتها وناظر الروض بالأزهار مكحول(٣)

وأغرم بعض الشعراء بوصف الخمرة ومجالسها وسقاتها ، وعابوا الوقوف على الأطلال الدارسة ، وذرف الدموع على أيام الصبا والجمال ، يقول حسام الدين الحاجري :

لأطيب من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى دارٌ بشرقي أربل
وصهباء كالمصباح في كفِّ شادن رقيق حواشي الخدّ عذب المقبل
يطوف بها كالخيزرانة ساحر الـ ـجفون متى يلحظ بعينيه يقتل
فما العيش الا بين حانٍ وحانة مع الراح لا بين الدخول فحومل
إذا أنا لم الثم لكأسٍ من الطلا فما منزلُ اللذاتِ عندي بمنزل (٤)

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٤٤.
(٢) نفسه ١ : ١١٤.
(٣) فوات الوفيات ٢ : ٥٨.
(٤) ديوان الحاجري ص ٤٤.

فالدار الواقعة بشرقيّ اربل ، أطيب عنده من ذكرى حبيب ومنزل ،فيها عقار شفّاف كالمصباح المضيء ،بيد ساق بديع الحسن وضيء ،خدّه أسيل ، وطرفه كحيل ، يتمايل كالخيزرانة ليناً ، ويقتل ناظريه حيناً ، فلا خير في العيش إذا لم يكن بين حان وحانة ، ولاسعادة في منزل لايرتشف فيه كأس الطلا ، إنها دعوة نواسيّة في طلب المتعة ،والانغماس في الملذات ،قبل انقضاء الحياة .

ويطلب العز الاربلي الضرير من نديمه يسقيه حتى يسكر ، ويغنيه حتى يطرب ، فإنّ ذلك عنده خير من تسبيحات النساك ، وتهليلات العبّاد :

قم يانديم إلى الابريق والقدح هات الثلاثَ وسلْ ماشبتَ واقترح
وغنّ إن غادرتني الكأس مطرحاً وأنتَ ياصاحِ صاحٍ غير مطّرحِ
إني لأفهم في الأوتارِ ترجمةً ماليس تفهمُه النسّاكُ في السبح (١)

كما شاع شعر الخمرة ، فقد شاع شعر الزهد والتصوف . وكان له أثر كبير في نفوس الزهاد والمتعبدين ،يرددونه في أذكارهم ومواجدهم التي يقيمونها في تكاياهم المنتشرة في اربل ،ولابأس أن أذكر لك ماشاهده ابن خلكان بنفسه حين حضر أحد المجالس التي تُعنى بالذكر والمواجد ، فقال :

«كان عندنا بمدينة اربل مغنّ موصوف بالحذق والإجادة في صنعة الغناء يقال له : الشجاع جبريل بن الأواني ، فحضر سماعاً قبل سنة عشرين وستمئة ، فانني أذكر الواقعة وأنا صغير ،وأهلي وغيرهم يحدثون بها في وقتها ،فغنّى الشجاع المذكور القصيدة الطنانة البديعة لسبط ابن التعاويذي أولها:

سقاكِ سارٍ من الوسميِّ هتّانُ ولا رَقَتْ للغوادي فيكِ أجفانُ

فلما انتهى من القصيدة ، قام بعض الحاضرين وقال له : ياشجاع ، أعد ماقلته ،فأعاده مرتين أو ثلاثاً،وذلك الشيخ متواجد،ثم صرخ صرخة هائلة ووقع

(١) فوات الوفيات ١ : ٣٦٥.

ووقع فظنوه قد أغمي عليه . فافتقدوه بعد أن انقطع حسّه . فوجدوه قد مات ،فقال الشجاع : هكذا جرى في سماعي مرّة أخرى ،فإنه مات فيه شخص آخر » (١).

وتكثر في شعر عرش الدين الاربلي الدعوة لمجاهدة النفس ، وتنزيهها من أدران الدنيا ،لكي تنال رضى الله ومغفرته ،واليك مما قال فيه على سبيل الاستشهاد :

الحمدُ للهِ إني في مجاهدةٍ مما اقاسي وحسبي ذاك يكفاني
ولستُ ابغي سوى عفوٍ ومغفرةٍ من الإله إذا ما الموتُ فاجاني
فإنْ بلغت الذي ارجو وآملهُ زالتْ همومي وأوجاعي وأحزاني(٢)

ومنهم من سلك طريقة ابي العتاهية فأكثر من الوعظ والارشاد ، والنهي عن المنكر ،وضرب الحكمة والمثل . واليك نموذجاً من شعر عز الدين الحسن بن محمد بن نجا الاربلي :

هـذا الوجود مكدّرٌ فانهضْ إلى اصفى وجودِ
واطلبْ مقرّكَ في العلى إن كنتَ من أهلِ السعودِ
قرب الرحيلُ اليهم فمزارهم غير بعيد
فإذا رحلت اليهم صيرت ذاك اليوم عيد (٣)

وظهرت الحكمة على ألسنة كثير من الشعراء . وهي نظرات في أحوال الدنيا وأحداثها ، ومعرفة عميقة لأخلاق الناس وطبائعهم، جاءت عن تجربة شخصية ،وثمرة من ثمار العقل الواعي المدرك . وقد عبرت عن واقع المجتمع في ذلك الوقت ومافيه من سلبيات دفعت الشاعر أن يطلقها حكمة ، فهذا علي بن عثمان الاربلي الصوفي ينصح الانسان أن يكفّ لسانه عن تعقيب عيوب الناس والتشهير بها .وأن لايطرق أبوابهم ، لأنه سوف يقابل بالمثل ،وتلصق به عيوب لا وجود لها عنده :

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣١٧، وانظر ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤١٢.
(٢) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٨٤.
(٣) نفسه ١ : ٥٠١.

كفَّ عن الناسِ إذا شئتَ أنْ تسلمَ من قولِ جهولٍ سفيه
مَنْ قذفَ الناس بما فيهم يقذفهُ الناسُ بما ليس فيه

وكثرت الحكمة على لسان جعفر بن محمد بن محمود الأربلي ، فها هو ذا يدعو من يريد أن ينال الشهرة ، أن يقطع الفيافي والقفار ، ويتحمل من أجلها الصعاب ، فالسيف لاقيمة له إذا بقي محفوظاً في غمده :

وجبِ الفيافي واشتهرْ تَنَل المُنى لايقطعُ الهنديُّ حتى يُشْهَرا (١)

والمرء إذا برز واعتلى كرسي الرفعة لاتضيره نظرات الحساد ، وطعنات من في قلوبهم لؤم وزيغ وفساد :

فالشمسُ إن شَرَفَتْ واشرق نورُها ماضَرَّها الا براها الأرمد (٢)

وله قصيدة جميلة مزج فيها الحكمة بالعتاب : —

لايدفع المرء مايأتي به القدر وفي الخطوب إذا فكّرتَ معتبر
وليس يُنجي من الأقدار ان نزلت رأيٌ وحزمٌ ولاخوفٌ ولاحذر
فاستعملِ الصبرَ في كل الأمور ولا تجزعْ لشيءٍ فعقبى صبركَ الظفر
وانَّ معرفتي بالناس صادقةٌ انْ ليس فيهم فتىً للودِّ يدَّخرُ
فلا ألومُ امرءً أرثَتْ مودَّتُه وخانَ عهداً ووالى صفوه كدرُ
سجيّة الدهرِ غدرٌ بالكرامِ فلا تخصصْ بنيه بلومٍ إنْ همُ غدروا
يا أربليينَ لو أنصفتهمُ ادبي احللتموني حيث الأنجم الزهرُ
فهي فخارٌ لمن يبغي الفخار إذا جاءت بنو الفضلِ بالآداب تفتخر(٣)

اقدار الحياة كثيرة ، ولا حيلة للمرء في دفها ، واللبيب من يطيل فيها النظر ، ليأخذ منها العبرة والعظة ، ومن أراد ان يكسب الظفر فعليه ان

---

(١) نفسه ٢ : ٤٨٣. والبيت الثاني فيه شيء من قول الشاعر :
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
(٢) الغصون اليانعة ص ٨٠.
(٣) نفسه ص ٨٠.
(٤) الجامع المختصر ص ٢٤٤.

يستأنس بالصبر، ثم يعود فيقول : وقد غاض في الناس الوفاء ، ولم يبق فيهم من يؤتمن ليوم الشقاء ، والكرماء يصيبهم الغدر ، ويلاحقهم الكدر ، ثم يعاتب الاربليين لأنهم لم ينصفوه ،ولم يضعوه في المكان الرفيع الذي يستحقه ولو فعلوا ذلك لازدادوا به فخراً ، وارتفعوا به قدراً.

ولم تخل اشعارهم من الإخوانيات التي يرسلون بها لاظهار الشوق والودّ والاخلاص تارة، التهنئة بفرح ، او ابلال من مرض ، اونجاة من مصيبة ، وما إلى ذلك تارة أخرى ،وهي لاتخلو من غلو ومبالغة مثل قول جعفر بن محمد الاربلي:

ولو أني كتبت بقدر شوقي اليك لضاق عن كتبي الفضاء(١)

وقول ابن المستوفي في جواب رسالة:

وافى كتابُك يامولاي مشتملاً على رياضٍ معانٍ نشرها أرجُ
فكان أحسن من سحرٍ تقلّبه أجفان ظبي مراضٍ حشوها غنج
إذا بدا قيّد الأبصار منظره فما لأنسانِ عينٍ عنه منعرجُ
فبتُّ اشفي به داءً تضمّنه جوانح باتَ فيها الهمّ يعتلج (٢)

اي رسالة هذه ؟ انها حديقة غنّاء تنشر ازهارها عطراً فوّاحاً ،وهي اسحر من ظبي غرير ، يقيّد الأبصار منظره ،وانها بلسم شاف لما تضمنت جوانحه من هموم .

ولم يبق للحاجري سوى رمق اخير بسبب فراق صديقه ضياء الدين عيسى اخي ابن خلكان . ويطلب منه ان يسرع في كتابة رسالته ،ويرفق معها تعزية لأن الشوق قد اخذ منه مأخذاً . وربما يميته قبل وصولها:—

الله يعلمُ ماأبقى سوى رمق منّي فراقُكَ يامَنْ قربُه الأمَل
فابعثْ كتابَكَ واستودعه تعزيةً فربما مُتُّ شوقاً قبل ما يصل (٣)

---

(١) الجامع المختصر ص ٢٤٥.
(٢) الحوادث الجامعة ص ١٣٥.
(٣) وفيات الأعيان ٣: ٥٠٢.

إن شعر الاخوانيات يغلب عليه التأنق في المعنى ، والإغراق في المحسنات البديعية ، واصطناع العاطفة ، والمبالغة في اظهار الودّ والصفاء ، والاخلاص والوفاء . وقد ساد هذا اللون من النظم كل البلاد الاسلامية ولا يخلو ديوان شاعر منه .

وشاع في امارة اربل الشعر الشعبي ، ونقصد به المنظوم بلغة عامية ملحونة . وقد تعدّدت الوانه ، وأظهرها القوما والمواليا ، وممن تأثر به من كبار أدباء اربل حسام الدين الحاجري ، من ذلك قوله في مواليا :

يحقّ من قد جعل ذا الحسن ملبوسك وقّع على قصتي باطلاق محبوسك
لولا الفضيحة واحراقي بناموسك كنت الزمك بين الناس وابوسك(1)

الخاتمة

لقد شاهدت معالم الشعر في هذه الجولة القصيرة التي أمضيناها مع شعراء الإمارة البكتكينية في اربل ، فهو يجاري الشعر في الأقطار الاسلامية الأخرى آنذاك في المنهج واللغة والموسيقى الشعرية واستخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى في استيحاء المعاني والصور ؛ فهم مقلّدون قلما نجد في شعرهم تجديداً أو تطويراً إلا ماندر .

ومما يسترعي النظر في ذلك أن بين الأغراض الشعرية يومئذ الغزل بالمذكر والافراط فيه ، وعدم الاحتشام من ترديده حتى على ألسنة الفقهاء والزهاد . مما يدل أن العصر كله لم يكن متزمّتاً . والغرض الآخر الذي شاع النظم فيه وأقبل جمهور الناس على سماعه لأنه يخصهم ويتولى عرض مشكلاتهم ، هو شعر النقد الاجتماعي ، الذي تولّد نتيجة سوء الأوضاع التي مرت بها الأمة الاسلامية ، وما اصابها من كوارث ونكبات وهجمات شرسة من الغرب والتتر من الشرق ، وتولي السلطة والجهاز الإداري أناس غير أكفاء .

(1) ديوان الحاجري ص ٧٠ .

والغريب في هذه الإمارة ان تخلو ساحة الأدب من الشعر الحماسي ، الذي برز فناً ظاهراً وبغزارة في القرنين السادس والسابع ،وقد شارك المظفر كوكبري ومن قبله اخوه وأبوه في المعارك التي دارت آنذاك في ديار الشام ، وبخاصة في تحرير القدس . ويبدو لي أن الأيام قد عدت عليه ، او أنه في بطون الكتب والدواوين التي لازالت محفوظة كتاريخ اربل الذي وصل الينا منه الجزء الثاني فقط ،وعقود الجمان لابن الشعار (١).

وأمر آخر نلمسه في هذا العصر هو ميل الناس إلى الشعر الشعبي الذي خرج عن دوائر البحور المعروفة كالدوبيت والقوما والمواليا .. وقد تأتّى ذلك من الثقافة الضئيلة التي كان يصيبها الشاعر من جهة ،وهبوط أذواق الناس وعدم فهم الشعر الجزل الألفاظ الدقيق المعاني من جهة أخرى .

إن خلو ميدان الشعر من الفحول ، نرى كثيراً من أنصاف المتعلمين حالما استقام لهم الوزن في بيت أو عدة أبيات ، انطلقوا ينشرونها بين جمهور القراء ،وهي على جانب كبير من الركة والضعف ، والعجز عن التصرف في اللغة تصرّف من يملك زمامها ،ويعرف أسرارها ، وعدم تأليفها في كثير من الاحيان تأليفاً محكماً ، ونظمها نظماً متساوقاً منسجماً (٢)

إن كان الشعر في هذه الامارة متكلفاً زائفاً في كثير من جوانبه،إلا أنه يضم بين الحين والحين لمحات تصوّر أخلد العواطف الأنسانية كما هو الحال في شعر حسام الدين الحاجري الذي شاع شعره بين محبّي الأدب ، وكان يُوصى بحفظه . يقول ابن حجة الحموي :« اتفق أن الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي الأديب المشهور لما ورد إلى هذه البلاد ، اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير ، وتطفّل على موائد طريقته الغرامية . وسأله الارشاد إلى سلوكها ، فقال له : طالع ديوان الحاجري والتلعفري . وأكثر من المطالعة فيهما ،

---

(١) الكتاب في عشرة مجلدات ، وصل الينا منه ثمانية مجلدات محفوظة في مكتبة اسعد افندي في استنبول (رقم ٢٣٢٣ -٢٣٣٠).

(٢) انظر كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٥٥٩ ، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٨٤ ، وادب الدول المتتابعة ص ٧٩٩ .

وراجعني بعد ذلك فغاب عنه مدّة ، واكثر من مطالعة الديوانين إلى أن حفظ غالبهما » (١).

لقد أردت في هذا البحث الوجيز أن ابين مكانة هذه الإمارة الصغيرة المغمورة بين الامارات القائمة آنذاك . والمنافسة الشديدة بينها في اجتذاب العلماء والأدباء ،وما قدّم أبناؤها من عصارة أفكارهم في خدمة الفكر الانساني .

ولي أمل أن يتقبل القارىء هذا العمل المتواضع ، ويعذرني من الاقتضاب. فإنّ ادب هذه الامارة فيه مجال رحب لمن يريد التوسع والاسهاب .



(١) خزانة الأدب ص ٨

المصادر والمراجع

١ — آدب الدول المتتابعة : د. عمر موسى باشا. المكتبة العباسية— دمشق ١٩٧٢.

٢ — البداية والنهاية: ابن كثير، ت ٧٧٤ هـ. مط السعادة— القاهرة ١٩٣٢ .

٣ — بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي، ت٩١١ هـ.تح: محمد أبو الفضل ابراهيم . مط مصطفى الحلبي— القاهرة ١٩٦٤.

٤ — التاريخ الباهر : ابن الاثير ، ت ٦٣٠هـ. ط دار الكتب الحديثة — القاهرة .

٥ — تاريخ الموصل: سليمان صائغ. ج٢. المط الكاثوليكية— بيروت١٩٢٨.

٦ — الجامع المختصر: ابن الساعي، ت ٦٧٤هـ. تح: د. مصطفى جواد. المطبعة السريانية الكاثوليكية — بغداد ١٩٣٤.

٧ — الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن أبي الوفاء محمد، ت ٧٧٥هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية — الهند ١٣٣٢هـ.

٨ — الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام: محمد سيد كيلاني. مط دار الكتاب العربي— مصر ١٩٤٩ .

٩ — الحوادث الجامعة: عبدالرزاق الفوطي، ت ٧٣٢ هـ. تح:د. مصطفى جواد. مط الفرات— بغداد ١٣٥١هـ.

١٠ — الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية:د. أحمد أحمد بدوي. مط نهضة مصر— القاهرة د. ت.

١١ — ديوان الحاجري: عيسى بن سنجر الاربلي ت ٦٣٢هـ. المط الشرقية— مصر ١٣٠٥هـ.

١٢ — ديوان سبط ابن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله. تح: مرجليوث. مط المقتطف— مصر ١٩٠٣.

١٣ — ذيل مرآة الزمان: قطب الدين اليونيني، ت ٧٢٦هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية — الهند ١٩٥٤.

١٤ ــ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ. نشر مكتبة القدس- القاهرة ١٣٥١هـ.

١٥ ــ العسجد المسبوك : الملك الأشرف الغساني، ت ٨٠٣هـ. تحـ:شاكر محمود. مط دار التراث الاسلامي ــ بيروت ١٩٧٥.

١٦ ــ الغصون اليانعة: علي بن موسى الأندلسي، ت ٦٨٥هـ. تحـ: ابراهيم الأبياري- مط دار المعارف- مصر ١٩٦٧.

١٧ ــ فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي، ت ٧٦٤هـ. تحـ: د. احسان عباس. مط دار صادر- بيروت ١٩٧٣.

١٨ ــ الكامل في التاريخ: ابن الاثير، ت ٦٣٠هـ. مط دار صادر ــ بيروت ١٩٦٥.

١٩ ــ كنز الدرر : عبد الله بن أيبك الدواداري. ت ٧٣٦هـ. تحـ:د. سعيد عبد الفتاح عاشور . مط دار الكتب العربية- القاهرة ١٩٧٢.

٢٠ ــ المختصر في أخبار البشر : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء: ٧٣٢هـ . المط الحسينية ــ القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢١ ــ مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ت ٦٥٤هـ. جـ٨. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية- الهند ١٩٥١.

٢٢ ــ مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: د. بكري شيخ أمين. مط دار الشرق- بيروت ١٩٧٢.

٢٣ ــ معجم البلدان: ياقوت الحموي، ت ٦٢٦هـ. مط دار صادر- بيروت ١٩٥٥.

٢٤ ــ مفرج الكروب: ابن واصل، ت ٦٩٧. تحـ: جمال الدين الشيال مط دار القلم- القاهرة ١٩٦٠.

٢٥ ــ نكت الهميان: صلاح الدين الصفدي، ت ٧٦٩هـ المط الجمالية- مصر ١٩١١.

٢٦ ــ وفيات الأعيان: ابن خلكان، ت ٦٨٤هـ. تحـ: د. احسان عباس . مط دار صادر ــ بيروت ١٩٧٢.

دراسات لغوية

(صيغة فعال ودلالتها)

الدكتور حازم الحاج طه



لقدعرض اللغويون والصرفيون القدامى لصيغة ُفعال وأثبتوا لها معاني منها. الدلالة على بقية الأشياء والأدواء والأصوات .... واستبان لهم أن بعض صيغ (ُفعال) تتعاقب على (َفعيل) في بعض المعاني. وقد رأيت أن أقوم بدراسة لهذه الصيغة محاولا أن أجد العلاقة بين هذه المعاني المختلفة التي أشرت اليها آنفاً. وبخاصة علاقة فعال بفعيل. قد استلزم ذلك ان أجمع صيغ فعال التي أستطعت الوقوف عليها وأصنفها وفق معانيها الجامعة حتى يستبين الرابط بين هذه المعاني وصيغة فعال لعلي أخرج من ذلك بما يلقي الضوء على الدلالة الأصلية لهذه الصيغة. وليتسنى للدارس أن يقف على الدلالات المختلفة المتنوعة مجتمعة بعد تفرقها في المراجع والمظان مرتبة موادها ترتيباً هجائياً. على أنني استبعدت من بحثي صيغ فعال التي تجاوزت في دلالتها المعنى الأصلي إلى معان مجازية قد ترتبط من قريب أو بعيد بالدلالة الأساسية التي أثبتها لفعال.

أ. ُفعال او ُفعالة الدال على القطع أو البرد

١. جُذامة، مايبقى من الزرع بعد الحصد.

والفعل متعد. جذم فلان حبل وصاله: إذا قطعه. وجذمه يجذمه جذماً: قطعه، فهو جذيم. (١)

٢. جُرامة: التمر المقطوع. وقيل هو مايجرم منه بعد مايصرم يلقط من الكرب. والجريم: التمر المقطوع. عن اللحياني: قوم جرم وجرام وتمر جريم. وذهب أبو هلال العسكري إلى أنه ما يبقى في النخل من الرطب بعد ماجرم. وعن الاصمعي. الجرامة. مايسقط من التمر إذا جرم وعن أبي عمرو. جرم الرجل. إذا صار يأكل جرامه النخل بين السعف. والفعل متعد. جرم النخل والتمر يجرمه جرماً: صرمه(٢)

---

(١) لسان العرب ٣٥٣/١٤، ٣٥٦. مادة (جذم).

(٢) المصدر نفسه ٣٥٧/١٤. مادة (جرم) والمعجم في بقية الاشياء ص ٦٧

٣. ُجزاز وُجزازة : ماجز منه اى قطع وجزازة كل شيء ماجز منه وجزاز الأديم : مافضل منه وسقط منه اذا اقطع .
والفعل متعد . جز الصوف والشعر والنخل والحشيش يجزه جزا ، فهو مجزوز وجزيز (١) .

٤. ُحذافة : ماحذف من شيء فطرح وحذافة الأديم مارمي منه .
والفعل متعد . حذف الشي يحذفه حذفا . قطعة من طرفه والحجام يحذف الشعر من ذلك (٢) .

٥. ُسحالة : ماسقط من الذهب والفضة ونحوهما اذا بردا .
وسحالة البر والشعير : قشرهما اذا جردا منه . وكذلك غيرهما من الحبوب كالارز والدخن قال الازهرى : وما تحات من الارز والذرة اذا دق شبه النخالة فهي أيضا سحالة (٣) وكل ماسحل من شي فاسقط منه سحالة وعن الليث . السحل نحتك الخشبة بالمسحل وهو المبرد والسحالة ماتحات من الحديد وبرد من الموازين .
والفعل متعد . سحل الشيء : برده (٤) .

٦. ُقحافة : كل مااقتحف من شيء واستخرج قحافة . وما جرفته منه قحافة وسيل قحاف كثير يذهب بكل شيء .
والفعل متعد . قحفة قحفا . وضربه فاقتحف قحفاً من راسه اى بان قطعة من الجمجمة (٥) .

٧. ُقراضة : ماسقط بالقرض ومنه قراضة الذهب . وكذلك مايقرض الفأر من خبز او ثوب او غيرهما . والفصم متعد . قرضة يقرضه قرضا(٦)

(١) لسان العرب ٧/ ١٨٤، ١٨٥ مادة (جزز)
(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٣٨٤ مادة (حذف)
(٣) تهذيب اللغة ٤/ ٣٠٧ مادة (سحل)
(٤) لسان العرب ١٣/ ٣٥٠ مادة(سحل)
(٥) المصدر نفسه ١١/ ١٨٢، ١٨٣ مادة (قحف)
(٦) المصدر نفسه ٩/ ٨٢ مادة قرض.

٨. قُصاصة : قصاصة الشعر . ماقص منه . وقصاص الشعر : منقطعه على الرأس وكذلك ماقص من الهدب والشعر .
والفعل متعد . قص الشعر والصوف والظفر يقصه قصا : قطعه (١).

٩. قُضابة : قضابة الشجر : مايتساقط من أطراف عيدانها اذا قضب .
وقضابة الشيء : مااقتضب منه وخص بعضهم به ماسقط من اعالي العيدان المقتضبة .
والقضيب : كل نبت من الأغصان يقضب .
والفعل متعد . قضبه قضبا . انقطع (٢) قال الاعشى : (٣)
ولبون معزاب حويت فاصبحت نهبى وآزالة قضبت عقالها

١٠. قُطافة : مايسقط من العنب اذا قطف كالجرامة من التمر . وما قطف من الشجر .
وفي الحديث يقذفون فيه من القطيف وفي رواية يديفون القطف المقطوف من التمر فعيل بمعنى المفعول والفعل متعد قطف الشيء يقطفه : قطفة (٤) .

١١. قلامة : ماقطع من الظفر والحافر والعود .
وكذلك المقلومة عن طرف الظفر وانشد : (٥)
لما اتيتم فلم تنجوا بمظلمة قيس القلامة مما جزه العلم .
والفعل متعد . قلم الظفر والحافر والعود يقلمه قلماً : قطعه بالقلمين (٦)

١٢. قوارة : ماقور من الثوب وغيره . وخص اللحياني به قوارة الأديم وكذلك ماقطعت من جوانب الشيء المقور . وكل شيء قطعت من وسطه خرقاً مستديرا فقد قورته . ومنه قوارة القميص والجنب والبطيخ . وفي حديث معاوية في فنائه اعنز درهن غير يحلبن في مثل قوارة حافر البعير اي ماستدار من باطن حافر .

---

(١) المصدر نفسه ٨/ ٣٤١ مادة (قصص).
(٢) لسان العرب ٢/ ١٧١ مادة (قضب)
(٣) ديوانه ١٥٤
(٤) لسان العرب ١١/ ١٩٣ مادة(قطف)
(٥) لم اقف على قائله.
(٦) لسان العرب ١٥/ ٣٩٢ مادة (قلم)

والفعل متعد قار الشيء قورا : قطع من وسطه حرقاً مستديرا (١) .

١٣. نخالة : مابقي في المنخل عما ينخل ، حكاه ابو حنيفة : وكل ما نخل فما يبقى فلم ينخل نخاله وكذلك مانخل من الدقيق .
والفعل متعد . نخل الشي ينخله نخلا : صفاه واختاره (٢)

١٤. نسالة : نسال الطير : ماسقط من ريشها هو النسالة وكذلك سنبل الحلي اذا يبس وطار والفعل متعد نسل الطائر ريشه ينسل وينسل نسلا . وقد ورد لازما ايضا في نحو . نسل الوبر وريش الطائر وما سقط منه نسيل ونسال (٣)

١٥. نشارة : ماسقط من الخشب المنشور (٤)
والفعل متعد : نشرت الخشبة انشرها اذا قطعتها بالمنشار (٥)

ب. الدال على الكسر : —

١. جذاذ : يقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب جذاذ والجذاذ المقطع وقال الفراء في قوله (فجعلهم جذاذا) (٦) فهو مثل الحطام والرفات (٧) الليث وقطع الفضة الصغار .
جذاذ . وما كسرت من الشي :
والفعل متعد جذذت الشيء كسرته وقطعته (٨)

٢. حطام : حطام الشي ماتحطم وكذلك ماتكسر من اليبس والتحطيم التكسير والحطيم مابقي من نبات عام اول ليبسه وتحطمه . الازهرى

(١) المصدر نفسه ٦/ ٤٣٥، ٤٣٦ مادة (قور)
(٢) المصدر نفسه ١٤/ ١٧٥ مادة(نخل)
(٣) لسان العرب ١٤/ ١٨٣، ١٨٤ مادة (نسل)
(٤) المصدر نفسه ٧/ ٦٤ مادة(نشر)
(٥) الصحاح/ ح٢ ٨٢٩ مادة (نشر)
(٦) سورة الانبياء آية ٥٨
(٧) المفردات في غريب القرآن ص ٩٠
(٨) لسان العرب ٥/ ١٠، ١١ مادة (جذذ)

عن الاصمعي : اذا تكسر يبيس البقل فهو حطام (١) وحطام الدنيا كل مافيها من مال يفني ولايبقى .
والفعل متعد . حطمه يحطمه حطماً اى كسره (٢) .

٣. فتات : فتات الشيء : ماتكسر منه وماتفتت . قال زهير (٣) :
كأن فتات العهن في كل منزل   نزلن به حب القنى لم يحطم
والفتيت : الشيء المفتوت . وقد غلب على مافت من الخبز وفي التهذيب الا انهم خصوا الخبز المفتوت بالفتيت (٤) .
والفعل متعد . فت الشيء يفته وفتا وفتته دقة وفتته كسره وقيل كسره بأصابعه (٥) .

٩. فُضاضة وفضاض : فضاض الشيء وفضاضته : ماتكسر منه قال النابغة (٦) .
تطير فضاضا بينها كل قوس   ويتبعها منهم فراش الحواصب
وفضاض الشيء ما تفرق منه عند كسرك اياه وفي الدعاء لايفضض الله فاك اى لايكسر اسنانك . والفم هنا الاسنان . كما يقال سقط فوه يعنون الأسنان
والفعل متعد . فضضت الشيء افضه فضا . فهو مفضوض وفضيضه كسرته (٧) .

٥. كُسار : كسار الحطب دقاقه . وما تكسر من الشيء .

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٤٠١ مادة (حطم)
(٢) لسان العرب ١٥/ ٢٧، ٢٨ مادة(حطم)
(٣) شرح ديوانه ص ١٢
(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥٦ مادة(فت)
(٥) لسان العرب ٢/ ٣٦٩ مادة (فتت)
(٦) رواية الديوان: ص ٦٢
يطير فضاضا بينهم كل مونس   ويتبعها منهم فراش الحواجب
(٧) لسان العرب ١٠/ ٧١، ٧٢ مادة (فضض)

والفعل متعد . كسر الشيء يكسره كسرا (١)

٦. ُنكاثة : ماانتكثت من الشيء .

والفعل متعد نكث السواك وغيره ينكثه (٢) .

ت. **الدال على النحت :**

١. ُبراية : اذا نحت وما وقع مما نحت فهو براية والبراية النحاتة وما بريت من العود والبراء النحاتة . قال ابو كبير الهذلي (٣) .

ذهبت بشاشته واصبح واضحاً

حرق المفارق كالبراء الأكفل

والبراية كالبراء.قال ابن جني : همزة البراء من الياء لقولهم في تانيثه البراية وقد كان قياسه اذا كان ا، مذكر ان يهمز في حالة تانيثه فيقال براءه الا تراهم سا جاءوا بواحد العظاء والعباء على مذكره قالوا : عظاءة وعباءة فهمزوا لما بنوا المؤنث على مذكره .

وقد جاء نحو البراء والبراية

والفعل متعد . برى العود والقلم والقدح وغيرها يبريه برياً نحته (٤)

٢. بشارة : ماتقشره عن شجرة من شيء رقيق .

والفعل متعد . قشر الشيء يقشره ويقشره قشرا (٥)

٣. ُنحاتة : مانحت من الخشب . والحافر النحيت الذي ذهبت حروفه والنحيت الردى من كل شيء والفعل متعد ، نحت النجار الخشبة ونحوها ينحتها (٦) .

٤. ُنجارة ماانتحت من الخشب عند النجر .

والفعل نجر الخشبة ينجرها نجرا ، نحتها (٧) .

---

(١) المصدر نفسه ٦/ ٤٥٣ مادة (كسر)

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨، ١٩ مادة (نكث)

(٣) شرح اشعار الهذليين ٣/ ١٠٨١

(٤) لسان العرب ١٨/ ٧٤، ٧٥ مادة (برى)

(٥) المصدر نفسه ٦/ ٤٠٤ مادة (مشر)

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٤٠٣ مادة(نحت)

(٧) المصدر نفسه ٧/ ٤٥، ٤٦ مادة (نجر)

ث. الدال على المشط :

١. جُراشةُ : ماسقط من الشيء تجرشه وفي التهذيب : الجراشة : مايتساقط اثناء الجرش (١) والجريش المجروش كأنه قدح بعضه بعضا فتفتت ، وجراشة الرأس ماسقط منه إذا جرش بمشط والفعل متعد. جرشه يجرشه جرشا فهو مجروش وجريش (٢) .

٢. مُشاطةُ : ماسقط من الشعر عند المشط .
والفعل متعد . مشط شعره يمشطه مشطا رجله (٣)

٣. مُشاقةُ : ماطار وسقط عن المشق. والمشاقة من الكتان والقطن والشعر ماخلص منه. ومشاقة هي المُشاطةُ وهي ايضا ماينقطع من الابريسم والكتان عند تخليصه وتسريحه. والفعل متعد مشق الثوب مزقة (٤).

ج . الدال على الكنس :ـ

١. قُمامةُ : كناسة . وقال اللحياني : قمامة البيت ماكسح منه فالقي بعضه على بعض ويقال ألق قمامة بيتك على الطريق، اى كناسة بيتك. وتقمم اي تتبع القمام في الكناسات. والقميم حطام الطريفه(٥) وما جمعته الريح من يبسها .
والفعل متعد. قمّ الشيء قما: كنسه. وفي حديث عمر، رضي الله عنه: انه قدم مكة فكان يطوف في سككها فيمر بالقول فيقول : قموا فناءكم (٦)

٢. كُساحة : كساحة البيت : ماكسح من التراب فالقي بعضه على بعض والكساحة . الكناسة . وكذلك تراب مجموع كسح بالمكسح .

---

(١) حاشية تهذيب اللغة ١٠/ ٥٢٨ مادة (جرش)
(٢) لسان العرب ٨/ ١٥٩ مادة (جرش)
(٣) المصدر نفسه ٩/ ٢٧٩ مادة(مشط)
(٤) المصدر نفسه ١٢/ ٢٢١، ٢٢٢ مادة(مشق)
(٥) الطريفة: ضرب في الكلاء
(٦) لسان العرب ١٥/ ٣٩٤ مادة(قمم)

والفعل متعد . كسح البيت والبئر يكسحه كسحا : كنسه (١) .

٣. كناسة : قال اللحياني : كناسة البيت ماكسح منه من التراب فألقي بعضه على بعض والفعل متعد . كنس الموضع يكنسه كنسا . كسح القمامة عنه . (٤)

ح. **الدال على النخل :ــ**

١. قُطاعةُ : ماسقط عن القطع.وما قطع من الحُوارى من (٣) النخالة. والفعل متعد . قطع النخالة من الحوارى : فصلهما منه (٤) .

٢. نُخالةُ : ماتنخل من الشيء وكذلك مانخل من الدقيق.وما بقي في المنخل مما ينخل به . والفعل متعد نخل الشيء ينخله نخلا : صفاه واختاره (٥)

٣. نُسافةُ : ماسقط من الشي ينسفه ، وخص اللحياني به نسافة السويق. ويقال : اعزل النسافة وكل من الخالص .
والفعل متعد . نسف الشيء وهو نسيف.غربلة . ونسف الطعام ينسفه نسفا : اذا نفضه . (٦)

خ . **الدال على بقية الاكل والشرب:ــ**

١. حُتامة: مابقي على المائدة من الطعام او سقط منه اذا اكل . وقيل: مافضل من الطعام على الطبق الذي يؤكل عليه .
والفعل.لازم تحتّم الرجل . اذا اكل شيئاً هشا في فيه (٧)

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٤٠٦ مادة (كسح)
(٢) المصدر نفسه ٨/ ٨١ مادة(كنس)
(٣) الحوارى: الحوارى من الدقيق: ماينقى من لباب البر
(٤) لسان العرب ١٠/ ١٤١ مادة(قطع)
(٥) المصدر نفسه ١٤/ ١٧٥ مادة (نخل)
(٦) المصدر نفسه ١١/ ٢٤٠، ٢٤١ مادة (نسف)
(٧) لسان العرب ٣/١٥ مادة(حتم)

٢. حُساف وحُسافة : حُساف :بقية كل شيء اكل فلم يبق إلا قليل .
وحسافة التمر :بقية قشوره واقماعه وكسره هذه عن اللحياني قال الليث :ـ
حسافةُ التمر . وهي قشورة ورديئة :
وحساف المائدة : ماينتثر فيوكل فيرجى فيه الثواب .
الجوهري : الحسافة : ماتناثر من التمر الفاسد (١)
والفعل متعد . حسف التمر يحسفه حسفا : نقاه من الحسافة (٢)

٣. شُفافة : بقية الماء واللبن في الاناء .
والفعل متعد .شف الماء يشفه شفا واشتفه واستشفه وتشافة كل ذلك يقضي شربه .
ويقال : تشاففت مافي الاناء واستشففته : اذا شربت جميع مافية ولم تسئر منه شيئا .
ابن الاعرابي : تشافيت مافي الأناء تشافياً :اذا اتيت على مافيه.(٣)

٤. صُبابة : بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الاناء والسقاء قال الاخطل في الصبابة (٤) .

جاد القلال له بذات صبابة حمراء مثل سخينة الاوداج

وقال ابو عبيد : الصبابة البقية اليسيرة تبقى في الاناء من الشراب فاذا شربها الرجل قال تصاببتها . فامــا ماأنشده ابن الاعرابي من قول الشاعر : (٥)

وليل هديت به فتيــــة سقوا بصباب الكرى الأغيد

قال : قد يجوز انه بصبابة الكرى فحذف الهاء .
والفعل متعد : صب الماء ونحوه صبا (٦) .

---

(١) الصحاح ٤/ ١٣٤٤ مادة (حسف)
(٢) لسان العرب ١٠/ ٣٩١ مادة(حسف)
(٣) المصدر السابق ٨٣/١١ مادة (شفف)
(٤) ليس في ديوانه
(٥) لم اقف على قائله
(٦) لسان العرب ٢/ ٤٤٢ مادة (صبب)

٥. قُداحةُ وقديح : بقية تبقى في القدر من المرق وفي الركزة من الشراب. قدر مايقدح مرة واحدة اى يغرف (١)
والقديح : مايبقى في اسفل القدر فيغرف بجهد وفي حديث ام زرع : تقدح قدرا وتنصب اخرى اى تغرف ،يقال قدح القدر اذا غرف مافيها .
والفعل متعد . قدح مافي اسفل القدر يقدحه قدحا فهو مقدوح وقديح اذا غرفه بجهد (٢) .

٦. قُرارةُ : مايبقى من المرق اليابس في القدر والصبيان يتقرون.اذا اخذوا ذلك واكلوه (٣) والقرارة مابقي في القدر بعد الغرف منها .
والفعل متعد : قر القدر يقرها قرا . فرغ مافيها من الطبيخ (٤)

٧. ُقرامة : مايبقى من الخبز ملتزقا بالتنور (٥) .
والقرامة من الخبز : ماتقشر منه وكل ماقشرته عن الخبز فهو القورامة .
والفعل متعد . قرم الشيء قرما : قشره (٦) .

٨. قُشامُ وقشامة : القشام : مايبقى من كسار الخبز وغيره على المائدة (٧)
والقشامه : رديء التمر عن ابي حنيفة . والقشام والقشامة : ماوقع على المائدة ونحوها مما لا خير فيه او مابقي فيها من ذلك .
وعن ابن الاعرابي : القشامة . مابقي من الطعام على الخوان .
والفعل متعد . قشمت الطعام قشماً اذا نفيت الردى منه (٨) .

---

(١) معجم بقية الاشياء ص ١٣٤
(٢) لسان العرب ٤/ ٣٩٠ مادة (قدح)
(٣) معجم بقية الاشياء ص ١٣٧
(٤) لسان العرب ٦/ ٣٩٠ مادة(قرر)
(٥) معجم بقية الاشياء ص ١٣٧
(٦) لسان العرب ٣٧٣/١٥ مادة (قرم)
(٧) معجم بقية الاشياء ص ١٣٨
(٨) لسان العرب ١٥/ ٣٨٥ مادة(قشم)

٩. كُدادة : قال الأصمعي : مايبقى في اسفل القدر (١) .
وقال الجوهري : مايبقى في اسفل القدر من المرق (٢) .
وقال الازهري : اذا لصق الطبيخ باسفل البرمة فكد بالاصابع ، فهي الكدادة (٣) .

والكدادة : ثقل السمن . وبقيت من الكلأ كدادة وهو الشيء القليل والفعل متعد كد الشيء يكده واكده : نزعة بيده ، يكون ذلك في الجامد والسائل (٤) .

١٠. كدامة : بقية كل شيء اكل . والعرب تقول : بقي من مرعانا كُدامة اى بقية تكدمها المال باسنانها ولاتشبع منها .
والفعل متعد : كدمه يكدمه ويكدمه كدما (٥)

١١. لُعاعة : مابقي في السقاء ويقال وفي الاناء لعاعة : اى جرعة من الشراب.
قال اللحياني بقي في الاناء لعاعة : اى قليل (٦) .

١٢. لعاق : مابقي في فيك من طعام لعقته .
والفعل متعد : لعق الشيء يلعقه : لحسه (٧) .

د. مادل على اللب والصفوة :

١. خلاصة : خلاصة السمن : ماخلص منه لانهم اذا طبخوا الزبد ليتخذوه سمنا طرحوا منه شيئا من سويق وتمر فاذا جاد وخلص من الثقل فذلك السمن .
والفعل لازم : خلص السمن من الثقل (٨)

---

(١) معجم بقية الاشياء ص ١٤١
(٢) الصحاح ١/ ٥٢٧ مادة (كدد)
(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٤٣٥ مادة (كد)
(٤) لسان العرب ٤/ ٣٨٢ مادة (كدد)
(٥) معجم بقية الاشياء ص ١٤١
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٤
(٧) لسان العرب ١٢/ ٢٠٦ مادة (لعق)
(٨) المصدر نفسه / ٢٩٣، ٢٩٤ مادة (خلص)

٢. لباب : لباب كل شيء خالصه وخياره . وقد غلب على مايؤكل داخله ويرمي خارجه من الثمر .
وشيء لباب خالص.ان جني وهو لباب قومه وهلهم لباب قومهم. وهي لباب قومها . قال جرير (١)

تُدرَّى فوق متنيهـا قرونا   على بشر وانسة لباب

والحسب اللباب : الخالص ومنه سميت المراة لبابة . وفي الحديث انام من مذبح عباب سلفها ولباب شرفها .
واللباب طحين مرقق .
وَلبَبَ الحُبُّ جرى فيه الدقيق (٢)

٣. مُصاص : خالص كل شيء والمصاص والمصاصة ماتمصصت منه. والفعل متعدّ مصصت الرمان امصه (٣) .

٤. نُقاوة : افضل ماانتقيت من الشيء .
الجوهري : نقاوة الشيء خياره .وكذلك النقاية بالضم فيهما كانه بني على ضده وهو النفية لان فعالة تاتي كثيرا فيما يسقط من فضله الشيء (٤) وقال ابو زياد : النقاية الردى والنقاوة الجيد .
والفعل متعد . انتقيت الشيء اذا اخذت خيارزة (٥) .

٥. نَقيعٌ : ونقاعه : النقيع : المحض من اللبن يبرد . قال ابن برى شاهده قول الشاعر (٦) .

اطوف ماأطوف ثم اوى   إلى امي ويكفيني النقيع

والنقيع شيي ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه فيشرب وكذلك

---

(١) شرح ديوانه ص ٨٢
(٢) لسان العرب ٢/ ٢٢٥ مادة (لبب)
(٣) لسان العرب: ٣٥٩/٨ مادة (مصص)
(٤) الصحاح ٦/ ٢٥١٤ مادة (نقا)
(٥) لسان العرب ٢١٢/٢٠ مادة (نقا)
(٦) لم اقف على قائله

هو شراب يتخذ من زبيب ينقع في الماء من غير طبخ . وقيل في السكر انه نقيع الزبيب .

والنقاعة ماانقعت من ذلك . قال الشاعر (١)

به من نضاخ الشول ردع كانه نقاعه هناء بماء الصنوبر

والفعل متعد . نقع الشيء في الماء وغيره ينقعه نقعاً فهو نقيع (٢)

ذ. مايدل على معان اخرى :ـ

١. حُكاكَه وحُكاكٌ : حكاكة : ماتحاك بين حجرين اذا حك احدهما بالاخر الدواء وغيره وقال اللحياني الحكاكة ماحك بين حجرين ثم اكتحل به من رمد .

وقال ابن دريد: الحكاك ماحك من شيء على شيء فخرجت منه حكاكة (٣)

وقال الجوهري : الحكاكة مايسقط عن الشيء عند الحك (٤) .

والفعل متعد . حك الشيء بيده وغيرها يحكه حكا (٥) .

٢. حُلاقة، وحليق، وحُلاق : حلاقة المعزى : ماحلق من شعره . وكذلك منه يكون ذلك في الناس والمعز .

والحليق : الشعر المحلوق

والفعل متعد . حلق معزاه . اذا اخذ شعرها وجز ضافه، وهي معزة محلوقة وحليقة (٦) .

٣. حُشاشة : روح القلب ورمق حياة النفس . قال : (٧)

(١) لم اقف على قائله

(٢) لسان العرب ١٠/٢٣٨ مدة (نقع)

(٣) جمهرة اللغة ١/٦٣ مدة (حكك)

(٤) الصحاح ٤/١٥٨٠ مدة (حكك)

(٥) لسان العرب ١٢/ ٢٩٥ مدة (حكك)

(٦) لسان العرب ١١/٣٤٣،٣٤٤،٣٤٥ مادة (حلق)

(٧) لم اقف على قائله

وما المرء مادامت حشاشة نفسه بمدرك اطراف الخطوب .ولاال

وكل بقعه حشاشة والحشاش والحشاشة : بقية الروح في المريض، ومنه حديث زمزم فانفلتت البقرة من جازرها بحشاشة نفسها اى الرمق بقية الحياة والروح .

الازهرى (٣) الحشاشة : رمق بقية من حياة قال الفرزدق (١)

اذا سمعت وطء الركاب تنفست حشاشتها في غير لحم ولا دم

والفعل لازم : حش الولد في بطن امه : جووز به وقت الولادة فيبس في البطن . وحش ولد في رحمها اى يبس والقته (٣)

٤. خُباسة : الغنيمة . قال عمرو بن جوين او امروا القيس (٤)

فلم ار مثلها خباسة واجد ونهنهت نفسي بعد ماكدتأفعله

اى اخذته وغنمته . الاصمعي : الخباسة : ماتخبست من شيء اخذته وغمته . ومنه يقال . رجل خبأس اى غنام .

والخباسة : الظلامة . والاختباس : الظلم . حبسة مالة واختبسه اياه . والفعل متعد . خبس الشيء يخبسه خبساً . أخذه وغنمه (٥) .

٥. خُصاصة : مايبقى في الكرم بعد قطافه العنقيد الصغير ههنا واخر ههنا . وكذلك الفص من الكرم اذا لم يرو وخرج منه الحب متفرقا ضعيفاً . (٦) .

٦. خلالة : طلب الرطب خلال السعف بعد أنقضاء الصرم . وقال أبو حنيفة : هي ما يبقى في اصول السعف من التمر الذي ينتثر .

---

(١) تهذيب اللغة ٣٩٢/٣ مادة(حش)

(٢) ليس في ديوانه

(٣) لسان العرب ١٧٢/٨ مادة(حشش)

(٤) ملحق بالشعر المنسوب إلى امرئ القيس مما لم يرد في اصول الديوان المخطوفة ص ٧٢

(٥) لسان العرب ٣٦٣،٣٦٢/٧ مادة (خبس)

(٦) المصدر نفسه ٢٩١،٢٩٠/٨ مادة (خصص)

والفعل متعد . تخلل الرطب : طلب خلال السعف (١)

٧. خُراطة : قال ابو الهيثم : خرطت العنقود خرطاً . أذا اجتذبت حبه بجميع اصابعك . وما سقط منه فهو الخراطة .
والفعل متعد . خرج الرجل العنقود . (٢)

٨. حُشار وحُشارة : الردىء من كل شيء . وخص اللحياني به ردىء المتاع . والخشارة من الشعير ما لا لب له . وخشارة الناس سفلتهم . وفي الحديث : أذا ذهب الخيار وبقيت خشارة كخشارة الشعير لايبالي بهم‌الله باله، هي الردىء من كل شيء . وفلان‌من الخشارة . إذا كان دوناً قال الخطيئة (٣)

وباع بنيه بعضهم بخشارة وبعت لذبيان العلاء بمالكا

يقول : اشتريت لقومك الشرف بأموالك .

والفعل متعد . خشرت الشيء . إذا ارذلته فهو مخشور .
وخشرت الشيء أخشره خشراً . أذا نفيت منه خشارته (٤)

٩. دُقاقه ودُقاق : ما أندق من الشيء وهو التراب‌اللين الذي كسحته الريح من الارض .

والدقاق : فتات كل شيء.والدقيق:الطحين وكذلك الشيء لاغاظ فيه.
والفعل متعد . دق الشيء يدقه . أذا اظهره (٥)

١٠. رُذال ورُذالة ورذيل : الرذيل : الدون من الناس ؛ وقيل : الدون في منظره وحالاته وقيل الدون : الخسيس . وقيل : هو الردىء من كل شيء ورذيل : وسخ ودىء ..

---

(١) لسان العرب ١٣/٢٢٦ مادة(خلل)
(٢) المصدر نفسه ٩/ ٤ : ١ مادة(خرط)
(٣) رواية الديوان ص ٣٠ وباع بنيه بعضهم بخشارة وبعت لذبيان العلاء بمالك
(٤) لسان العرب ٥/٣٢١ : ٣٢٢ مادة(خشر)
(٥) المصدر نفسه ١١/ ٣٨٩ ، ٣٩٠ مادة(دقق)

١١. رُذال ورُذالـة : ما أنتقي جيده وبقي رديئه . ورذيلـة كل شيء أردؤه .
والفعل متعد . رذله يرذله رذلا . جعله كذلك (١)

١٢. سُقاطـة : ما سقط من الشيء .
والفعل لازم ، يسقط سقوطاً : وقع (٢)

١٣ – ظُلامة : وظليم وظليمة . ظلامة وظليمة : ماتظلمه عند الطعام والظليم والظليمة . اللبن يشرب منه قبل ان يروب . ويخرج زبدة . قال (٣)

وقائلة ظلمت بكم سقائي وهل يخفى على العكد الظليم

وفي التهذيب. العرب تقول : ظلم فلان سقاءه ، اذا سقاه قبل أن يخرج زبدة (٤) والفعل متعد . ظلمت سقائي : سقيتهم إياه قبل أن يروب (٥)

١٤ – عُشانة : مايبقى في أصول السعف من التمر .
والفعل متعد . تعشن النخلة : أخذ عشانتها . (٦)

١٥ – عُصافة : ماكان على ساق الزرع من الورق الذي ييبس فيتفتت وقيل : هو ورقة من غير ان يعين ييبس ولا غيره . وقيل : ورقة وما لايؤكل . وقيل التبن وقيل : هو ماعلى حب الحنطة ونحوها من قشور التبن . وقيل : ماسقط من السنبل كالتبن ونحوه .
والفعل متعد. عصفنا الزرع نعصفه، أي جززنا ورقة الذي يميل في أسفله (٧)

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٨/١٣ مادة (رذل)
(٢) المصدر نفسه ١٨٩/٩، ١٩٠ مادة(سقط)
(٣) لم اقف على قائله
(٤) تهذيب اللغة ٣٨٣/١٤ مادة(ظلم)
(٥) لسان العرب ٢٦٨/١٥ مادة(ظلم)
(٦) المصدر نفسه ١٥٨/١٧ مادة(عشن)
(٧)

١٦ – غُسالة: غساله الثوب: ماخرج منه بالغسل . وغسالَه كل شيء ماؤه الذي يغسل به.

والغسالة ماغسلت به الشيء .

والفعل متعد . غسلت به الشيء (١)

١٧ – فُضالة : وفضيلة: مافضل من الشيء

والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضل وضد النقيصة .

والفعل لازم. فضل فلان على غيره . اذا غلب بالفضل عليهم (٢)

١٨ – مُضاغة: مامضغ : وكذلك مايبقى في الفم من اخر مامضغته .

والفعل متعد . مضغ الطعام يمضغه مضغاً (٣)

١٩ – مُشاش: أرض رخوة لاتبلغ ان تكون حجراً يجتمع فيها ماء السماء وفوقها رمل يحجر الشمس عن الماء وتمنع المشاشة الماء ان يتشرب في الأرض فكلما استقيت منها دلو جمت أخرى .

وابن شميل : المشاشة جوف الأرض . وإنما الارض مساك فمسكة كذانه . ومسكة حجارة غليظة . ومسكة لينة . وإنما الارض طرائق فكل طريقة مسكة . والمشاشة هي الطريقة التي هي حجارة خوارة وتراب . وأما مشاشة الركبة نجلبها الذي فيه نبطها وهو حجر يهمي منه الماء أي ترشح فهي كمشاشة العظام تتحلب أبداً .

يقال: وان مشاش جبلها ليتحلب اي يرشح ماء .

الجوهري: المشاش : أرض لينه . قال الراجز :

رأسي العروق في المشاش البجباج

ويقال: فلان لين المشاش. اذا كان طيب النحيزة . عفيفاً من الطمع (٤)

---

(١) المصدر نفسه ٨٠٧/١٤ مادة (غسل)

(٢) المصدر نفسه ١٤/٣٩-٤٠٠ مادة (فضل)

(٣) المصدر نفسه ٣٣٤/١٠ مادة (مضغ)

(٤) الصحاح ٣/ ١٠٢٠ مادة (مشش)

وفلان طيب المشاش اي كـريم النفس . وقـول أبي ذؤيب يصف فرساً (١)

يعدو به نهش المشاش كأنه صدع سليم مرجعهُ لايظلع

يعني انه خفيف النفس والعظام أو كنى به عن القوائم .

والفعل متعد. مشت المشاش. اي قصصته ممضوغاً (٢)

٢٠ ـ نُفاية: نُفاية الشيء: بقيته وأردؤه. وكذلك نفاوته. وخص ابن الأعرابي به رديء الطعام .

والنفاية: المنفي القليل ، مثل البراية والنخالة.

والنفاية: مانفيته من الشيء لرداءته .

والفعل متعد. يقال: نفيت الشعر انفيه نفياً ونفاية. إذا رددته (٣)

يلاحظ في الامثلة التي أوردناها انها مأخوذة من أفعال متعدية وهي تفيد معنى يشبه معنى اسم المفعول فهي نتيجة لوقوع الفعل على المفعول. غير أنها بخلاف اسم المفعول نتيجة غير مقصودة . فـ(نشارة) مثلاً ليست هي النتيجة المقصودة من فعل النشر، وإنما هي نتيجة لازمة . بينما الخشب المنشور، أي الذي وقع عليه الفعل هو المقصود من إجراء الفعل أصلا،وليست البقايا بالضرورة مما يرفض وينبذ دائماً (٤) فـ(سحالة) مثلا إذا كان المسحول ذهباً او فضة فلا يمكن عدها غير ذات قيمة لنفاستها . ولكن تكون غير ذات قيمة في مثل (الجرامة) وهو التمر المجروم .

فالمادة التي يقع عليها الفعل هي التي تعين كون البقية حسنة أو رديئة

---

(١) شرح اشعار الهذليين ٣٧/١

(٢) لسان العرب ٢٤٠،٢٣٩/٨ مادة(مشش)

(٣) المصدر نفسه ٢١١/٢٠ مادة(نفى)

(٤) انظر ادب الكاتب ص ٤٧٠

ومثل ذلك ايضاً (الجزارة) وهي اجر الجزار.ومنه ايضاً (المضاغة) وهو من مضغ . وكذلك ما يبقى في الفم من آخر ما مضغته . ففي هذا المثال نلاحظ ان المعنى الاول وهو (ما مضغ) يعني مطلق المفعول اما المعنى الثاني وهو (ما يبقى في الفم من آخر ما مضغته) فقد لوحظ فيه معنى بقية الممضوغ . ونستطيع من تبادل (فُعال وفَعيل) ان نخلص الى ان العربية في طور من اطوارها كانت تستعمل كلا من (فعال وفعيل) لاداء معنى اسم المفعول فتعاقب بينهما كما رأينا في الامثلة ظلامة وظليمة (وكلاهما بمعنى ما تظلمه) (١) و(رذال ورذاله ورذيل) (٢) ونسالة ونسيل (٣) غير ان الصفتين قد نزعتا الى التباين في طور آخر ليفيد (فعيل) معنى (المفعول) المراد من الحدث او الفعل (٤) أما فعال فاستعمل للدلالة على اسم المفعول غير المقصود من الفعل والذي كان لازمة من لوازمه . كما ويبدو ان ذلك كان اول الامر مع افعال مثل (كنس) البيت . فالمفعول المقصود هنا هو البيت غير ان ناتج فعل الكنس هو (الكناسة) اي ما كسح منه من التراب او القمامة (٥) وبعد ان استقر استعمال فعال للدلالة على نحو ما ذكرنا امتد الى افعال اخرى لا ليدل على نتاج غير مقصود ، وانما ليستفاد منها معنى البقية عموماً دون ان يكون في ذلك اقلال من شأن هذه البقية بل انها تكون احياناً من خياره . ومن ذلك مثلا (خلاصة) السمن : التي تدل على ما خلص منه لانهم اذا طبخوا الزبد ليتخذوه سمناً طرحوا فيه شيئاً من سويق وتمر فاذا جاد وخلص من الثقل فذلك السمن هو الخلاصة (٦) (نقاية) و(نقاوة) التي تدل على افضل ما ينتقي من الشيء(٧) كما قال الجوهري

(١) انظر ذ/١٣
(٢) انظر ذ/١٠
(٣) انظر أ/١٤
(٤) ومنه: قتيل وجريح واسير وطريح وطليح (متعب) ومقيت (مبغض) وختين (مقطوع الغرلة) وصريع وعقير ولهذا جعله بعضهم مقيساً فيما ليس له فعيل بمعنى فاعل، فيقال: عليه حسيد وشهيد(مغموم) تصريف الاسماء ص ٩١
(٥) انظر ج/١
(٦) انظر د/١
(٧) د/٤

فيها مما اشرنا اليه من قبل (١)

كما ان صوغ فعال لم يعد مقصوراً على الافعال المتعدية وانما امتد ايضاً الى افعال لازمة عثرنا منها على فعلين هما (سقط سقاطة) وفضل فضالة (٢) ونلاحظ ان الفعل الأخير اي فضل — ياتي منه ايضاً (فعيل) غير أنه في معنى اسم الفاعل للزوم فعله ؛ اي فضيل بمعنى فاضل .

مادل على افرازات البدن

١. بزاق وبصاق لغتان

والفعل لازم . بزق يبزق بزقا وبصق يبصق بصقا (٣)

٢. ذنان وذنين : المخاط الرقيق الذي يسيل منه الانف . وقيل هو المخاط

وقيل هو الماء الرقيق الذي يسيل من الانف

والفعل لازم . ذن أنفه يذن اذا سال (٤).

٣. رضاب الريق . وهو ما يرضبه الانسان من ريقه كأنه يمتصه وقيل

الرضاب الريق المرشوف

وقيل هو تقطع الريق في الفم كثرة ماء الاسنان (٥)

٤. لعاب : ما سال من الفم

لعب — بفتح العين — الرجل سال لعابه .

وخص الجوهري به الصبي فقال: لعب الصبي. أذا سال لعابه(٦) قال لبيد(٧)

لعبت على اكتافهم وحجورهم وليداً وسموني لُبيداً وعاصماً

وثغر ملعوب اي ذو لعاب .

---

(١) أنظر د/٤

(٢) انظر ذ/١٧

(٣) لسان العرب ٣٠١/١١، ٣٠٢ مادة(بزق وبصق)

(٤) المصدر نفسه ٣٢/١٧ مادة (ذنن)

(٥) المصدر نفسه ٤٠٣/١، ٤٠٤ مادة(رضب) وانظر ديوان العرب ٣٨/١؛

(٦) الصحاح ٢٢٠/١ مادة (لعب)

(٧) رواية الديوان: لعبت على اكتافهم وحجورهم وليدا وسموني مفيدا وعاصما

ولعاب الحية والجراد سمهما . ولعاب النحل ما يعسله وهو العسل . والفعل لازم . لعب الرجل سال لعابه (١)

٥. مخاط : ما يسيل من الانف والمخاط من الأنف كاللعاب من الفم، والفعل متعد . مخطت الصبي مخطا . وقد مخطه من انفه اي رمى به (٢)

٦. نخاع : ما تفله الإنسان

لم يرد فعل مجرد منه . والوارد تنخع . تنخع الرجل رمى بنخاعته (٣)

٧ نخامة : ما يلقيه الرجل من خراشي صدره . وكذلك ما يخرج من الخيشوم عند التنخم والفعل لازم . نخم الرجل نخماً (٤)

ان بين معاني هذه المجموعة ومعاني بقية الاشياء صلة واضحة غير اننا نلاحظ ان اغلب الأفعال التي اخذت منها هذه الاسماء لازمة فهي بمثابة مفعول لازم عن الفعل نفسه اي ان مخاطاً وبصاقاً مثلا كان ينظر اليه على انه المفعول الناتج عن فعل المخط والبصق وما من ريب ان العرب نظروا الى هذه الافرازات على انها بقايا وفضلات تخرج من البدن وليست بذات قيمة كما هو الشأن في الامثلة التي اوردناها . ولهذا جعلوا اسماءها على زنة (فعال) التي غلب عليها معنى البقية . ويؤيد هذا انه لايشرك (فعيل فعالا) في هذا المعنى اذ لافائدة من هذه البقايا حتى يأتي منها صيغ على وزن (فعيل) ولكن شذ (ذنان وذنين)

مادل على الصوت

١. ازاز وازيز : للقدر عند غليانه .

والفعل لازم : أزز القدر توز وتئزازا وازيز وازازا،اذا اشتد غليانها. وقيل : هو غليان ليس بالشديد (٥)

---

(١) لسان العرب ٢/٢٣٥،٢٣٦،٢٣٧،٢٣٨ مادة(لعب)

(٢) لسان العرب ٣٤/٩ مادة (مخط)

(٣) المصدر نفسه ٢٢٦/١٠ مادة (نخع)

(٤) المصدر نفسه ٤٩/١٦ مادة (نخم)

(٥) المصدر نفسه ١٧/٧ مادة (ازز)

٢. بغام : صوت الظبية .
والفعل لازم . بغمت الظبية وتبغم بغاما . صاحت الى ولدها بأرضم ما يكون من صوتها (١)

٣. بكاء : يقصر ويمد . قال الفراء وغيره . اذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء . واذا قصرت أردت الدموع وحروجها . قالت الخنساء في البكاء الممدود ترثي اخاها (٢)

إذا قبح البكاء علـى قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

والفعل لازم ومتعد . بكى يبكيه بكاء . وبكيت عليه بمعنى (٣)

٤. ثغاء : صوت الشاء والمعز وما شاكلها . وفي المحكم الثغاء : صوت الغنم والظباء عند الولادة وغيرها والفعل لازم . ثغا يثغو وثغت تثغو ثغاء : اي صاحت (٤)

٥. ثواج : صوت البقرة :
والفعل لازم . ثاجت البقرة تثاج وتثوج ثوجاً : صوتت (٥)

٦. جؤار : رفع الصوت مع تضرع واستغاثة
وفي الحديث : كأني انظر الى موسى له جوأر الى ربه بالتلبيه .
الجوهري : الجوأر مثل الخوار . جار الثور والبقرة يجار جوار . صاحا (٦)
والفعل لازم . جأر بالدعاء : اذا رفع صوته (٧)

---

(١) المصدر نفسه ٣١٧/١٤ مادة (بغم)
(٢) ديوان الخنساء ص ١٢٤
(٣) لسان العرب ٨٨/١٨ مادة (بكى)
(٤) المصدر نفسه ١٢٢/١٨ مادة (ثغا)
(٥) المصدر نفسه: ٤٥/٣ مادة (ثوج)
(٦) تهذيب اللغة ١٧٧/١١ مادة (جأر)
(٧) لسان العرب ٨١/٥ مادة (جار)

٧- خُوار : صوت الثور وما أشتد من صوت البقرة والعجل وقال ابن سيدة . الخوار : من أصوات البقرة والغنم والظباء والهام (١) والفعل لازم . خار يخور خوارا : صاح (٢) . ومنه قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) (٣)

٨- رُعاق : صوت يسمع من قنب الدابة .
وفي التهذيب : الرعيق والرعاق والوعيق والوعاق . الصوت الذي يسمع من بطن الناقة قال الاصمعي : وهو صوت جردانه . إذا تقلقل في قنبه (٤) الليث : الرعـاق صوت يسمع من قنب الدابة . والصواب ما قاله ابن الاعرابي . وقال ابن برى : الرعيق والرعاق والوعيق والوعاق بمعنى ، عن ابن الاعرابي ، وهو صوت البطن من الحجر وجردان الفرس . وقال ابن خالويه:
الرعاق : صوت بطن الفرس إذا جرى .
والفعل لازم. رعق يرعق رعاقاً (٥)

٩ - زُقاء: صوت الديك والطائر والمكاء. وكذلك الصبي إذا اشتد بكاؤه والفعل لازم . زقا الديك والطائر والمكاء ونحوها يزقو ويزقي زقوا وزقاء. صاح (٦)

١٠ - سُحال وسحيل: الصوت الذي يدور في صدر الحمار .
والفعل لازم. سحل البغل والحمار يسحل ويسحل سحيلا وسحالا: نهق (٧)

---

(١) المخصص ٢/٤١٢
(٢) لسان العرب ٥/٤٥ مادة (خور)
(٣) سورة طه رقم الاية ٨٨
(٤) تهذيب اللغة ١/٢٣٧ مادة (رعق)
(٥) لسان العرب: ٤٠٨/١١٠ مادة (عق)
(٦) المصدر نفسه ٧٦/١٩ مادة (رقا)
(٧) المصدر نفسه ٣٥٠/١٣ مادة (سحل) وانظر اصلاح المنطق جـ١٠٨

١١ ـ صُراخ وصريخ: الصراخ. الصوت الشديد ماكان .

والصريخ المستغيث . وفي المثل : عبد صريخه امه ،أي ناصره أذل منه وأضعف .

والصراخ: صوت استغاثتهم . والصريخ المغيث .

والفعل لازم. صرخ فلان يصرخ صراخاً. إذا استغاث فقال ياغوثاه، واصرختاه والصريخ يكون فعيلا بمعنى مفعل مثل نذير بمعنى منذر وسميع بمعنى مسمع (١)

١٢ ـ صُقاع: صوت الديك .

والفعل لازم. صقع الديك يصقع صقيعاً وصقاعاً . أي صاح (٢)

١٣ ـ صُباح: صوت الثعالب. وقال ذو الرمه (٣)

سباريت يخلو سمع مجتاز ركبها من الصوت إلا من صباح الثعالب

وضبح ضبحاً وضباحاً: نبح والضباح: الصهيل .

وضبحت الخيل في عدوها : أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة . وقيل تضبح ، وهو صوت أنفاسها إذا عدوت قال عنترة : ـ

والخيل تعلم حين تضـ ـبح في حياض الموت ضبحاً (٤)

١٤ ـ ضُفاء: صوت الذئب والسنور والثعلب .

والفعل لازم. ضفا الذئب والسنور والثعلب يضغو ضغوا وضغاء: صوت وصاح. وكذلك الكلب والحية، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا ضرب فاستغاث (٥)

---

(١) المصدر نفسه ٣٠٣/٤، مادة (صرخ)

(٢) ديوانه ص ٢٠١

(٣) ديوانه ص٣٣٣

(٤) لسان العرب ٣٥٥/٣ مادة (ضبح)

(٥) لسان العرب: ٢٢٠/١٩ مادة(ضغا)

١٥ – عُواء: قال ابن الأثير : صوت السباع . وكأنه بالذئب والكلب أخص .
والفعل لازم. عوى الكلب والذئب يعوى عيا وغواء: لوى خطمه
ثم صوت . وقيل : مد صوته ولم يفصح (١)

١٦ – مُكاء: صفير بالفم.
والفعل لازم . مكا الانسان يمكو مكوا ومكاء: صفر بفيه. قال بعضهم : هو أن يجمع بين أصابع يديه ثم يدخلها في فمه ثم يصفر فيها (٢) وفي التنزيل العزيز : (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) (٣)

١٧ – مُواء: صوت الهرة .
قال اللحياني: هرة مؤوء وصوتها المواء.
والفعل لازم. ماءت الهرة تموء . إذا صاحت (٤)

١٨ – نُباح ونَبيح: صوت الكلب.

والفعل لازم. نبح الكلب ينبح نبيحاً ونباحاً. والنباح صوت الاسود ينبح نباح الجرو (٥)

١٩ – نُعاب ونَعيب: صوت الغراب .
والفعل لازم . نعب الغراب ينعب وينعب نعباً ونعيباً ونعاباً. صاح وصوت .وقيل مد عنقه وحرك رأسه في صياحه. (٦)

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٢/١١ مادة (عوى)
(١) المصدر نفسه ١٥٨/٢٠ مادة (مكا)
(٣) سورة طه رقم الاية ٨٨
(٤) لسان العرب ١٥٥/١ مادة (موا)
(٥) المصدر نفسه ٤٤٩/٣ مادة (نبح) وانظر اصلاح المنطق ١٠٩
(٦) المصدر نفسه ٢١٦/٢ مادة(نعب)

٢٠ ـ نُعاق ونعيق :

نعق الراعي بالغنم ينعق نعقاً ونعاقاً ونعيقاً. صاح بها وزجرها.

يكون ذلك في الضأن والمعز (١)

٢١ ـ نُهاق ونَهيق: صوت الحمار . فاذا كرر نهيقه واشتد قيل: أخذه النهاق .

والفعل لازم . نَهِق الحمار ينهق وينهق نهقاً ونهيقاً ونهاقاً : صوت (٢)

٢١ـ هتاف . الصوت الجاف العالي . وقيل الصوت الشديد .

والفعل لازم . هتف به هتافاً . صاح به (٣)

٢٢ـ يعار : صوت الغنم . وقيل صوت المعزى . وقيل هو الشديد من اصوات الشاء . قال الشاعر (٤)

وأمّـا اشجـع الخـنـثـى فـولّوا تُيوساً بالشـظى لها يعار

والفعل لازم . يعرت العنز تيعر يعار : صاحت (٥)

تكون النتيجة هنا كامنة في وقوع الفعل نفسه .

فـ(النهاق والنهيق) هو نتيجة احداث الفعل (نهق) فمعنى المفعولية هنا واضح أشد الوضوح ولذلك فهمت هذه الأسماء الدالة على نتيجة فعل الصوت على أنها نوع من اسم المفعول ولذلك أمكن صيوغها على (فعال او فعيل).

ويلاحـظ ان مـن الافعـال مـا يتفـرد اسم الصوت منهـا بـ(فعـال) دون (فعيل) او (فعيل) دون (فعال) مما يؤيد اتحاد (فعال وفعيل) في المعنى الذي يدلان عليه في الأصل ، غير ان اللغة قد عاملت هذه الأسماء الدالة على المفعول من بعد معاملة المصادر فيعدها الصرفيون مصادر لهذه الافعال

---

(١) المصدر نفسه ٢٣٤/١٢ مادة (نعق)

(٢) لسان العرب ٢٢٩/١٢ مادة(نهق) وانظر اصلاح المنطق ١٠٨

(٣) المصدر نفسه ٢٥٩/١١ مادة(هتف)

(٤) لم اقف على قائله

(٥) لسان العرب ١٦٥/٨ مادة(يعر)

اللازمة ونحن لانتازع في كون هذه الأسماء تقوم الآن بالنسبة الى افعالها بدور المصدر . الا اننا كما اسلفنا انها كانت في اول امرها أسماء لما تنتجه افعالها . ويؤيد هذا ورود فعال مع فعيل الذي يفيد أصلا اسم المفعول كما أشرنا من قبل .

مادل على داء : —

قال الثعالبي : أكثر الأدواء والأوجاع في كلام العرب على (فعال) (١) وورد في شرح شافية ابن الحاجب الغالب في مصدر الأدواء من غير باب فعل المكسور العين (الفعال) كالسعال ، والدوار .....) (٢)

١ — جُذام : من الداء معروف لتجذم الأصابع وتقطعها . ورجل أجذم نزل به الجذام .

قال الجوهري (٣) ولا يقال أجذم ، والجاذم الذي ولي جذمه والمجذم الذي ينزل به الجذام ويقال : رجل أجذم ومجذوم ومجذم . إذا تهافتت أطرافه من داء الجذام .

والفعل مبني للمجهول . جذم الرجل بضم الجيم فهو مجذوم (٤)

٢ — خُراج : ورم يخرج بالبدن من داء به . أو خراج يخرج بالأسنان فلا يكاد يبرأ . وكذلك ورم يخرج بدابة او غيرها من الحيوان (٥)

٣ — خُشام : داء يأخذ فيه وسده وصاحبه مخشوم . والخشم : داء يأخذ في جوف الأنف فتتغير رائحته والفعل لازم . خشم خشماً وخشوماً وهو أخشم (٦)

---

(١) فقه اللغة وسر العربية ص ١٩٢
(٢) شرح شافية ابن الحاجب ١/١٥٤، ١٥٥
(٣) الصحاح ٥/١٨٨٤
(٤) لسان العرب/٣٥٤ مادة(جذم)
(٥) المصدر نفسه ٤/٧٥ مادة (خرج)
(٦) المصدر نفسه ١٥/٦٩ مادة(خشم)

٤ ــ خُناق : وخنيق : ريح أو داء يأخذ الناس والدواب في الحلوق ويعترى الخيل أيضاً وقد يأخذ الطير في رؤوسها وحلقها . واكثر مايظهر في الحمام .

والفعل متعد . خنقه يخنقه خنقاً وخنقا . فهو مخنوق وخنيق (١)

٥ ــ دُكاع : داء يأخذ الخيل في صدرها كالخبطة (٢) في الناس . وقال أبو عبيد عن أبي زيد : من أمراض الإبل الدكاع وهو سعال يأخذها وقال الليث : داء يأخذ الخيل في صدورها كالخبطة في الناس والفعل مبني للمجهول . يقال دكع الفرس فهو مدكوع (٣)

٦ ــ دُوار : كالدوران يأخذ في الرأس .

والفعل مبني للمجهول . دير به وعليه و دير به . أخذه الدوار من دوار الرأس (٤)

٧ ــ رداعَ : الوجع في الجسد . قال قيس بن معاذ مجنون بني عامر : (٥)

صفراء من بقر الجواء كأنما ترك الحياة بها رداع سقيم

وقال قيس بن ذريح : (٦)

فياحزنا ، وعاودني رداع وكان فراق لبنى كالخداع

والفعل مبني للمجهول: ردع : إذا نكس في مرضه. قال ابو العيال الهذلي (٧)

---

(١) المصدر نفسه ٢٨١،٢٨٠/١١ مادة(خنق)

(٢) الخبطة : كالزكمة. وقد خبط فهو مخبوط

(٣) تهذيب اللغة ٣٠١/١ مادة(دكع)

(٤) لسان العرب ٣٨٢/٥ مادة(دور)

(٥) ديوانه ٢٥٦

(٦) رواية الديوان: فواكبدى وعاودني زداعي وكان فراق لبنى كالخداع

(٧) شرح اشعار الهذليين ٤٢٤/١

ذكرت أخي فعاودني رداع السقم والوصب (١)

٨ ــ رُعاف: دم يسيل من الأنف .

والفعل لازم. رعف يرعف رعفاً ورعافاً (٢)

٩ ــ زُحارة: وزحار وزحير.: زحارة: إخراج الصوت و النفس بأنين عند عمل او شدة . وزحار : داء يأخذ البعير فيزحر منه حين ينقلب سرقه فلا يخرج منه شيء . وزحير: تقطيع في البطن يمشي دما .

والفعل مبني للمجهول . زحر الرجل على صيغة مالم يسمم فاعله من الزحير فهو مزحور (٣)

٢٠ ــ زكام: معروف .

والفعل مبني للمجهول. زكم الرجل، فهو مزكوم . . والزكام مأخوذ من الزكم وهو الملء . يقال: زكم فلان وملىء بمعنى واحد (٤)

١١ ــ سعال : سعال ساعل على المبالغة ، كقولهم شغل شاغل وشعر شاعر والمسعل موضع السعال من الحلق .

والفعل لازم. سعل يسعل سعالا (٥)

١٢. سُلاق : حب بثور على اللسان فيتتشر منه أوعلى أصل اللسان،ويقال تقشر في أصول الأسنان . وفي حديث عقبة بن غزوان : لقد رأيتني تاسع تسعة قد سلقت أفواهنا من أكل ورق الشجر بمامنا رجل اليوم

---

(١) لسان العرب ٤٨١/٩ مادة (ردع)

(٢) تهذيب اللغة ٣٤٨/٢، ٣٤٩ مادة (رعف)

(٣) لسان العرب ٤٠٧/٦، ٤٠٨ مادة (زحر)

(٤) المصدر نفسه ١٦١/١٥ مادة (زكم) وانظر تهذيب اللغة ١٠٤/١٠ مادة (زكم)

(٥) المصدر نفسه ٣٥٧/١٣ مادة (سعل)

الا على مصر من الأمصار . سلقت من السلاق وهو بثر يخرج من باطن الفم اي خرج فيها بثور .
والفعل مبني للمجهول . سلقت أفواهنا (١)

١٣. سُلال : داء يهزل ويضني ويقتل .
والفعل مبني للمجهول . سل الرجل فهو مسلول (٢)

١٤. صداع : وجع الرأس .
والفعل مبني للمجهول . وقد صدع الرجل فهو مصدوع (٣)

١٥. صُدام : داء يأخذ في رؤوس الدواب . وقال ابن شميل : داء يأخذ الإبل فتخمص بطونها وتدع الماء وهي عطاش اياماً حتى تبرأ او تموت.
وبعضهم يقول: الصدام . ثقل يأخذ الانسان في رأسه وهو الخشام (٤)

١٦. صُفار : صفرة تعلو اللون والبشرة وصاحبه مصفور .
والفعل مبني للمجهول . يقال : صفر فهو مصفور (٥)

١٧. قُفاص : داء يأخذ في الصدر ويبس في قوائم الغنم. وداء يأخذ في الدواب يسيل من أنوفها شيء (٦)

١٨. قُلاب : داء يأخذ في القلب . عن اللحياني داء يأخذ البعير فيشتكي منه قلبه فيموت من يومه يقال بعير مقلوب .

وورد في المزهر . قال كراع : القلاب : داء يصيب القلب . وليس في الكلام اسم داء يشتق من اسم العضو الذي أصابه الا القلاب من القلب

---

(١) لسان العرب : ٢٦،٢٥/١٢ مادة (سلق)
(٢) تهذيب اللغة ٢٩٢/١٢ مادة (سل)
(٣) لسان العرب ٦٣/١٠ مادة (صدع)
(٤) المصدر نفسه ٢٢٦/١٥ مادة (صدم)
(٥) المصدر نفسه ١٣٤/٦ مادة(صفر)
(٦) المحيط في اللغة ١٢٨/١ مادة (قعص)

والكباد من الكبد والنكاف من النكفين وهما غدتان يكتنفان الحلقوم من أصل اللحي . (١)

والفعل مبني للمجهول . قلب قلباً : شكا قلبه (٢)

١٩. ُكباد : وجع الكبد او داء

وفي الحديث : الكباد من العب (٣) وجع الكبد

والفعل مبني للمجهول . كبد : شكا قلبه (٤)

٢٠. كُزاز : داء يأخذ من شدة البرد وهو تشنج يصيب الانسان من البرد الشديد أو الرعدة منها . أى من شدة البرد كما فسره ابن الاعرابي وزاد الزمخشرى حتى يموت أو من خروج دم كثير والفعل مبني للمجهول. قد كزَّ الرجل فهو مكزوز .(٥)

٢١. مُلاء : زكام يصيب من امتلاء المعدة .

وقد ملؤ فهو مليء . وملىء فلان وأملاه الله املاء . فهو مملؤ على غير قياس ، يحمل على مليء (٦)

٢٢. نُحاز : داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتسعل سعالا شديدا.

وقيل : النحاز سعال الإبل إذا اشتد.

والفعل لازم نحز الرجل سعل وانحز القوم . أصاب ابلهم النحاز (٧)

٢٣. نكاُف : ونكاث : على البدل : داء يأخذ في النكفين وهو أحد

---

(١) المزهر للسيوطي ٩١،٩٠/٢

(٢) لسان العرب ١٨١،١٨٠/٢ مادة (قلب) وانظر ديوان العرب

(٣) العب: شرب الماء من غير مص

(٤) لسان العرب ٣٧٨/٤، ٣٧٩ وانظر ديوان العرب ٤٤١/١

(٥) تاج العروس: ٧٤/٤

(٦) لسان العرب ١٥٣،١٥٢/١ مادة (ملأ)

(٧) المصدر نفسه ٢٨٣،٢٨٢/٧ مادة (نحز)

الأدواء التي اشتقت من العضو وكذلك هو ورم يأخذ نكفي البعير وقيل هو داء يأخذها في حلوقها فيقتلها قتلا ذريعا(١)

٢٤. هيُام : الهيام كالجنون : ابن شميل : الهيام : نحو الدوار جنون يأخذ البعير حتى يهلك يقال بعير مهيوم . وفي حديث ابن عمر ان رجلا باع منه ابلا هيما ، اي مراضا جمع اهيم وهو الذي أصابه الهيام وهو داء يكسبها العطش . الاصمعي : الهيام : للإبل داء شبيه بالحمي تسخن عليه جلودها .

والفعل لازم . هامت الناقة (٢)

يمكن ارجاع اشتقاق أسماء مادل على داء إلى أصلين : —

احدهما : مأخوذ من أسماء مثل (القلاب والكباد) فهما مأخوذا من القلب والكبد (٣)

والاخر : مأخوذ من أفعال . هي في الغالب أفعال لازمه على وزن فعل — بكسر العين — مثل (خشم) (٤) وهذه الافعال يكون مصدرها على وزن (فعل) بفتح العين . فمن الفعل المذكور يقال (خشم) بفتح الشين . على ان أكثر الافعال ترد مبنية للمجهول على وزن (فعل)مثل (زكم) ويكون اسم المفعول من هذه الافعال المبنية للمجهول على وزن (مفعول) فيقال (مزكوم) . واسم المرض منه على زنه (فعال) هي — خلافا للمعاني التي عرضنا لها في المجموعات السابقة — في الأصل مصادر لهذه الافعال المبنية للمجهول . فهي على ذلك المصدر المبني للمجهول الذي يقابل المصدر (فعال) المبني للمعلوم الذى يرد بين مصادر الفعل المجرد نحو (قضي قضاء)(٥) الأفعال المبنية للمعلوم والثانية (فعال) من الأفعال المبنية للمجهول

(١) المصدر نفسه ٢٥٦/١١ مادة (نكف)
(٢) المصدر نفسه ١١١،١١٠/١٦ (هيم)
(٣) انظر مادل على داء مادة ١٩،١٨
(٤) انظر مادل على داء مادة ٣:
(٥) ادب الكاتب ص ٧٥

وكلاهما مصادر لهما غير أن فعال قد استفاض وكثر استعماله حتى غلب على (فعل) وعندئذ أمكن جعل صيغة فعال مطردة حتى في الامراض التي يدل عليها فعل نحو خشم الذى صيغ له أيضا اسم على زنه (فعال) خشام . وعندما استقر استعمال صيغة المصدر المبني للمجهول فعال لأسماء الأدواء والعلل أمكن أيضا أن يصاغ منه أسماء لأمراض مأخوذة من أسماء الأعضاء المصاب بها . وبعبارة أخرى اشتق من أسماء الأعيان ، من ذلك (كباد) فاصلها من الكبد وهو اسم – وان كان قد أخذ منه بعض الأفعال الأخرى تكبد كابد ......

وبعد فقد بان من دراسة المادة ان صيغة فعال قد ترجع إلى أصلين مفترضين : – الاول : – اسم مفعول قديم توقف الاشتقاق على صيغته فيما بعد كان بينه وبين فعيل علاقة لازمة يدل الأول على المفعول غير المراد والثاني على المفعول المقصود في الأصل من احداث الأفعال التي تحتل ذلك . إلا أن اسم المفعول القياسي في العربية قد أصبح يدل عليه بالصيغة الأحدث لهما الا وهي (مفعول)

الثاني : – مصدر لأفعال قليلة مبنية للمجهول غلبت في الدلالة على الأدواء والعلل ثم امتد استعمال فعال كمصدر الى أفعال مبنية للمعلوم فجاءت المعاجم بالصيغتين معا احياناهذاولم يقتصر في اشتقاقه على الأفعال وانما توسعوافيه بعض التوسع فاشتقوه من الأسماء ايضا .

المصادر

١ ادب الكاتب: ابن قتيبة: محمد محيي الدين عبد الحميد . مط السعادة– مصر ١٩٥٨

٢ – إصلاح المنطق : ابن السكيت . أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . مط ٠ دار المعارف – مصر ١٩٥٦.

٣ – الاغاني :ابو الفرج الأصفهاني. دار الثقافة بيروت. الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ، ١٩٦٢م

٤ – تاج العروس: الزبيدي . مط دار صادر – بيروت ١٩٦٦

٥ – تصريف الأسماء: محمد الطنطاوي. مط وادي الملوك – القاهرة ١٩٥٥

٦ – تهذيب اللغة : المد بن احمد الازهري. تح: عبد السلام هارون مط الدار المصرية للتاليف والترجمة – القاهرة.

٧ – جمهرة اللغة: ابن دريد. طبع مكتبة المثنى ببغداد بالاوفست .

٨ – ديوان الادب: اسحاق بن ابراهيم الفارابي. تح:د. احمد مختار عمر. المط الاميرية القاهرة ١٩٧٤.

٩ – ديوان امرئ القيس: تح: محمد أبو الفضل ابراهيم. مط دار المعارف– مصر

١٠ – ديوان الخنساء: مط دار الاندلس– بيروت ١٩٦٨.

١١ – ديوان ذي الرمة: تح: د. عبد القدوس ابي صالح. مط طربين دمشق ١٩٧٢.

١٢ – ديوان زهير ابن ابي سلمى: مط دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٤٤

١٣ – ديوان عنترة: تح: محمد سعيد مولوي. مط المكتب الاسلامي – بيروت.

١٤ - ديوان لبيد بن ابي ربيعة: مط دار صادر- بيروت ١٩٦٦.

١٥ - ديوان مجنون ليلى: تح: عبدالستار احمد فراج. مطدار مصر للطباعة

١٦ - ديوان النابغة الذبياني: تح: شكري فيصل. مط دار الفكر--بيروت

١٧ - شرح أشعار الهذليين: تح: عبد الستار احمد فراج. مط المدني القاهرة.

١٨ - شرح ديوان الاعشى: مط دار صادر- بيروت.

١٩ - شرح شافيه ابن الحاجب: رضي الدين الاسترابادي مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي تح: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف. محمد محيي الدين عبد الحميد. ج٤. مطحجازي القاهرة.

٢٠ - الصحاح: اسماعيل بن حماد الجوهري. تح: عبد الغفور عطار. مط دار الكتاب العربي- مصر

٢١ - فقه اللغة وسر العربية: ابو منصور عبد الملك محمد الثعالبي. مط الاستقامة- القاهرة.

٢٢ - لسان العرب: ابن منظور. المط الكبرى الميرية ببولاق مصر ١٣٠هـ.

٢٣ - المحيط في اللغة: الصاحب اسماعيل بن عباد .تح: الشيخ محمد حسن ال ياسين.

٢٤ - المخصص: ابن سيدة. مط المكتب التجاري- بيروت.

٢٥ -المزهر: السيوطي. شرح وضبط محمد احمد جاد المولى ومحمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاري. مط عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٨

٢٦ ـ المعجم في بقية الاشياء: ابو هلال العسكري. تح/ ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي.
مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤.

٢٧ ـ المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني. تح: محمد سيد كيلاني مطالبابي الحلبي ـ مصر .

ابن جبير الأندلسي شاعراً

منجد مصطفى بهجت


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تمهيد :

يزخر تراثنا الأدبي بكبار الأعلام والأفذاذ ممن تعددت ميادين نتاجهم الأدبي، وأحد هؤلاء ابن جبير الاندلسي، الذي شاعت رحلته لدى جمهرة المثقفين . فاشتهر جغرافياً وواحداً من اشهر رحالي القرون الوسطى ، وعرف بالترسل في الكتابة كذلك . وحين اكبت الدراسات على رحلته ونثره .. لم تول شاعريته قدرها من الأهمية .

فأردت في هذا البحث ان اجلو هذا الجانب ، بعد أن وقفت على اكثر اشعاره مبثوثة في المصادر التاريخية والادبية ، فعرّفت بحياته وعصره ، ووقفت عند شخصيته واخلاقه وعرضت لرحلته . كل هذا على صورة موجزة ثم وقفت عند شعره بشيء من التأني عارضاً لأغراضه ، ولأبرز سمات شعره .. ثم أردفت البحث بمجموع شعره .

حياته وعصره :

هو محمد بن احمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني ، كنيته ابو الحسين وأبو الحسن(١) البلنسي الشاطبي (نزيل شاطبة) الاسكندراني(٢). كان جده عبد السلام ابن جبير قد دخل الاندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري في المحرم سنة ثلاث وعشرين ومئة للهجرة. فنزل ابوه شاطبة ثم استوطن هو جيان فغرناطة ،ففاس ثم الاسكندرية ، كذلك أقام في سبتة ومالقة في اوقات مختلفة (٣) والكناني نسبة إلى كنانة، والمنتسبون إلى كنانة من العلماء والفضلاء كثيرون في الاندلس(٤) وقد تصحفت النسبة عند ابي الجزرى (٥) إلى (الكتاني) وكذلك عند حاجي خليفة (٦) فسمى رحلته « رحلة الكتاني » .

(١) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٤ ، التكملة لكتاب الصلة ٩٩٩/٢ الذيل والتكملة ٥٩٥/٢/٥ وكنيته بأبي الحسن جاءت في المغرب ٣٨٤/٢ ورحلة العبدري (ط الجزائر) ، وفي ايضاح المكنون ٦٢٣/٢ ٦٢٣/٢ (أبو عبدالله) .

(٢) زاد المسافر ١١٤ ،النجوم الزاهرة ٢٢١/٦

(٣) الذيل والتكملة ٥٩٥/٢/٥، الا حاطة ٢٣٠/٢

(٤) نفح الطيب ٢٩١/١

(٥) غاية النهاية ٦٠/٢

(٦) كشف الظنون ٨٣٦/١

ولد ليلة السبت العاشر من ربيع الاول سنة اربعين وخمسمئة ببلنسية(١) وقيل كان مولده بشاطبة سنة تسع وثلاثين وخمسمئة (٢) وتوفي بالاسكندرية (٣) باتفاق المصادر ليلة الاربعاء التاسع والعشرين لشعبان اربع عشرة وستمئة، ودفن على كوم عمرو بن العاص (رض) (٤)، ويرجح الدكتور شوقي ضيف ان يكون مسجد (سيدي جابر) فيها مسجده، وان يكون العامة حرفوا اسمه مع الزمن . (٥)

أخذ العلم عن أبيه وعن جلة من علماء عصره منهم : ابو الحسن علي بن ابي العيش (توفي بعد ٥٦٠ ﻫ) (٦) وابن الأصيلي وابو الحجاج يوسف ابن يسعون (توفي في حدود ٥٤٠ ﻫ) (٧) وابو محمد القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠ﻫ) (٨). والتقى في رحلاته بأكثر علماء عصره في مكة وبغداد ودمشق وحرّان (٩). وتلمذ له خلق كثير في المغرب والاندلس من اشهرهم : الحافظ ابو محمد المنذري (ت٦٥٦ﻫ)(١٠) صاحب التكملة لوفيات النقلة والحافظ ابو الحسين على القرشي (١١). واحمد بن عبد المؤمن الشريشي (ت ٦١٩ﻫ)(١٢) صاحب الشروح الكثيرة .

---

(١) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٤ ؛ نفح الطيب ١٨٢/٢
(٢) التكملة لكتاب الصلة ٥٩٩/٢ ،الذيل والتكملة ٦٢١/٢/٥
(٣) التكملة ٥/ ٢/ ٦٢١
(٤) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٨/٤
(٥) الرحلات ٧١
(٦) معرفة القراء ٤٢٨/٢ ، غاية النهاية ٥٧٥/١
(٧) بغية الوعاة ٣٦٢/٢
(٨) نفح الطيب ٣٨٣/٢ ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ٤٧
(٩) الذيل والتكملة ٥/٢/ ٥٩٦ - ٥٩٧ .
(١٠) التكملة لوفيات النقلة ٢٨٩/٤
(١١) نفح الطيب ٩/٢ ٤٨
(١٢) نفح الطيب ١١٥/١ وينظر بقية تلامذته في الذيل والتكملة ٦٠٧/٢/٥ والاحاطة ٢٣٣/٢

عاش ابن جبير في ظل الموحدين (١) وأتيحت له مجالات التعلم والثقافة في أسرته وشيوخ عصره .. وكانت الدولة الموحدية (٥١٤ — ٦٤٠ هـ) قد بسطت يدها على المغرب والاندلس وبلغت أوج عظمتها في القوة الحربية والسياسية والحضارية ، فاستطاعت ان تضع حداً للهجمات الاسبانية . واشتهرت معركة الأرك (سنة ٥٩١ هـ) التي انتصروا فيها . وقد بدأ تراجع هذه الدولة اثر معركة العقاب (سنة ٦٠٩هـ) والتي كانت السبب في إدبار دولة الموحدين وسقوطهم . وفي المشرق الاسلامي كانت الحروب الصليبية قائمة . ولما شاع الخبر المبهج بتحرير صلاح الدين لبيت المقدس (سنة ٥٨٣ هـ) قام ابن جبير برحلته الثانية .

ازدهرت الاندلس عصر الموحدين في الحياة الثقافية والشعرية ، وبلغت مكاناً عالياً حتى قصدتها سفارات اسبانيا النصرانية والدول الاوربية للصداقة وعقد المعاهدات وطلب المعونة (٢) . وقد اشار بالنثيا الى نضوج الشعر في عصر ابن جبير . بل بلغ من كثرة العلماء الذين هنؤوا ابا يوسف يعقوب المنصور بقصائد من الشعر الفصيح او الزجل الدارج أن امر بألا ينشدوه الا البيتين الأولين من قصائدهم (٣) ، ومن شعراء عصره : الرصافي البلنسي (ت ٥٧٢هـ) وابو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر (ت ٥٩٥هـ) ، كذلك عرف عصره ابا جعفر بن سعيد الذي كان شاعراً ممتازاً لعثمان بن عبد المؤمن — وجرى بينه وبين حفصة الركونية ماجرى بين ابن زيدون وولادة . وابن عربي محيي

---

(١) جاءت التسمية من دعوتهم إلى الفهم النقي والتوحيد الخالص وصفاء العقيدة ، وزعيمها الأول ابو عبد الله المهدي محمد بن تومرت (٤٨٥ - ٥٢٤هـ) ينتسب إلى قبيلة هرغة التي تسكن منطقة السوس جنوب المغرب ، وقد اوصى ابن تومرت بالأمر من بعده لابي محمد بن عبد المؤمن الكومي الذي حارب المرابطين وقضى عليهم سنة ٥٤١ هـ ، ورثه في الحكم ثمانية من اسرته وكانت عاصمتهم مراكش .

(٢) التأريخ الأندلسي ٤٩٩ .

(٣) تأريخ الفكر الأندلسي ٢٣

الدين محمد بن علي (ت ٦٣٨ ﻫ) وابراهيم بن سهل الاسرائيلي (ت ٦٤٩ﻫ) وعلي بن موسى (ت ٦٥٨ﻫ) وقد كانت لشاعرنا ابن جبير صلات ادبية بشعراء عصره، وجرت بينه وبين طائفة ادباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته (١).

شخصيته واخلاقه :

نعتت كتب التراجم ابن جبير بنعوت كثيرة تنم عن الصلاح والفضل فقالوا انه : المقرىء والامام الرئيس (٢) والفقيه الزاهد المنقطع إلى الله (٣) وقال المراكشي : « كان اديباً بارعاً كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً سنياً فاضلاً ، نزيه الهمة سري النفس كريم الاخلاق، انيق الطريقة في الخط.. ونظمه فائق(٤)، عني بالآداب فبلغ منها الغاية وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة، ونال بهما دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها (٥). ووصفه ابن الخطيب بأنه من علماء الاندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب (٦) وذكر تلميذه المنذري أنه : كان من اهل العلم والديانة والفضل والصيانة (٧). ومما يؤكد على صفاته المتقدمة القصة التي رواها صاحب الملتمس وجعلها اغرب مايحكى في المروءة وقضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان(٨) وفي هذا المعنى يقول :

يحسب الناس بأني متعـب	في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذاك لي	راحة في غيرها لن افكرا

(١) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٦٠٧

(٢) معرفة القراء ٢/ ٤٨١ ،شذرات الذهب ٥/ ٦

(٣) رحلة العبدري ٢٦

(٤) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٦٠٧

(٥) التكملة ٢/ ٥٩٨

(٦) الاحاطة ٢/ ٢٣١

(٧) التكملة لوفيات النقلة ٤/ ٢٨٩

(٨) نفح الطيب ٣/ ٢٩٥ كذلك ٢/ ٤٨٨

وبودي لو اقضي العمر في خدمة الطلاب حتّى في الكرى (١)

كان ابن جبير سلفياً ، محباً للنبي وآله وصحابته . ولذلك أثنى عليهم في رحلته وأشعاره(٢)وهو رجل مطمئن النفس ، قانع بما يصيبه من الحياة لايغضب الا إذا ضاق ذرعه بالامور كما حصل له في رحلته الاولى ، وهو بين يدي الأمناء في الاسكندرية ،فأستأدوهم الزكاة عن كل ما عندهم، ووقع التفتيش الدقيق واختلطت اسباب الحجاج وضاعت ، فاعتبر ابن جبير ذلك موقف ذل وخزي عظيم . كذلك حين يصف اهل عيذاب وهم يشحنون الحجاج بالسفن ينيلونهم أصناف العذاب فيعتبر حكمهم حكم الطواغيت (٣) .

لم يكن ابن جبير ذاهلاً عن مجتمعه . زاهداً في اخوانه .. انما« جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته (٤) ومن خلال رحلته وما تبقى من شعره نقف على شخصية العالم الفقيه المتصل اتصالاً مباشراً بمجتمعه ، وأما زهده في أخريات ايامه فلا يمثل سلوكاً معيناً كان يعيشه ثم أقلع عنه ، كما لايمثل اقبالاً على المجون والتهتك وتخلياً عنه فيما بعد .. انما يمثل زهد الفقيه المتحرج لازهد العابث اللاهي .. والأمر يبدو لنا من خلال الأخبار التي رويت عنه والأشعار التي قالها ، تذاكر يوماً مع صاحب الملتمس حالة الزاهد ابي عمران المارتلي ، يقول ابن جبير، « صحبته مدة فما رايت مثله وانشدني شعرين(٥)مانسيتهما ولا انساهما ما استطعت احد هذين الشعرين :

اسمع اخي نصيحتي	والنصح من محض الديّانه
لا تقربن الى الشها	دة والوساطة والأمانه
تسلم من ان تعزى لزو	رٍ أو فضول او خيانه

(١) ق ١٨
(٢) الرحلة ٥٣ ، ق ٢٠
(٣) الرحلة ١٣ ، ٤٧ ، ٤٨ وينظر تأريخ الجغرافية والجغرافيين ٥١٩
(٤) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٠٧
(٥) يريد بالشعرين : قطعتين من الشعر.

قال صاحب الملتمس : أراك لم تعمل بوصيته في الوساطة فقال : ماساعدني رقة وجهي على ذلك » (١) . ومن الذين صحبوه : ابو تمام غالب بن محمد الانصاري ت٦٢٩ هـ من اهل بلنسية معدود في ادبائها . صحب ابن جبير وروي بعض شعره (٢) . وانشد بعض اشعاره ابا عمر بن الشقر بالاسكندرية وكتب شعراً بعد رحلته الى والي سبتة ابي .. محمد البجائي : وجرت بينه وبين ابي عمران الزاهد باشبيلية مراسلات (٣) ،فصلاته متينة بمجتمعه، ومودته دائمة لأخوته .

ومن الأحداث البارزة في حياته . حادث شربه . فقد ذكر المقري: أن ابن جبير كتب في شبيبته عن السيد ابي سعيد عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، فاستدعاه لأن يكتب له كتاباً وهو على شرابه فمد يده اليه بكأس فأظهر الانقباض وقال : سيدي ماشربتها قط فقال . «والله لتشربن منها سبعاً فلما رأى العزيمة شرب سبع اكؤس فملأ له السيد الكأس من الدنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره . فحمله الى منزله . وأضمر ان يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب الى السيد وأعلمه انه حلف بايمان لاخروج له عنها انه يحج في تلك السنة فأسعفه وباع ملكاً تزود به وانفق تلك الدنانير في سبيل البر » (٤) . فمدلول الحادثة — اذا صحت — كبير. وأثرها في نفسه عميق اذ أن شعوره بالذنب دفعه الى التكفير عن خطيئته، وقد كان محرجاً ومضطراً لاطاعة امير الموحدين . فحلف بعدها بأيمان غليظة ان يحج . وباع ملكاً له . واما تلك الدنانير التي لاتمثل مالاً طيباً بحكم اقترانها بالخمرة ، فانه انفقها لوجه الله ... ولعل نزعة الزهد رسخت عنده بعد هذه الحادثة .. ولم يلتفت الزهاد لهذه الكبوة التي لم يستطع دفعها عن نفسه وإنما ظل ذكره عطراً لدى معاصريه . وهذا ابو عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يثني عليه بقوله :

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٢٩٦ وتنظر القطعة الاخرى فيه
(٢) المقتضب ١٣٦
(٣) نفح الطيب ٢/ ٤٨٧
(٤) نفح الطيب ٢/ ٣٨٥ — ٣٨٦

لابي الحسين مكارم لو أنها عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله علي فضائل قد قصرت عن بعض نعماها عظام الأبحر (١)

رحلته :

اشتهرت رحلة ابن جبير شهرة كبيرة بين كتب الرحلات ، وهي التي ابرزت فيه الجانب الجغرافي . وحظيت بعناية الدارسين والباحثين ، فعدت اجمل واصدق رحلة في تراث الفكر الاندلسي كله(٢)، ولم تكن رحلته اول رحلة مدونة في الاندلس، اذ ان هذا اللون من الرحلات شاع منذ عهد مبكر . وابو بكر بن العربي (٤٦٨-٥٤٢هـ)يعد مبتكر هذا اللون في الاندلس(٣) في حين يعتبر ابن جبير اعظم رحالة في القرن السادس للهجرة (٤) .

رحل ابن جبير ثلاث رحلات حج في كل منها:

الرحلة الاولى: بدأها من غرناطة في (٨ شوال سنة ٥٧٨هـ) وعاد اليها في (٢٢ محرم ٥٨١ هـ) وهي التي صنف فيها كتابه المشهور (٥) واستغرقت عامين وثلاثة اشهر ونصفاً .

الرحلة الثانية : بدأها من غرناطة كذلك في (١٠ ربيع الاول ٥٨٥هـ) وعاد اليها في (١٣ شعبان ٥٨٧هـ) (٦)

الرحلة الثالثة : بدأها من سبتة (سنة ٦٠١ هـ) وكان قد بلغ الثالثة والسبعين، ولم يعد بعدها فامضى اكثر من عشرة اعوام حتى توفي (سنة ٦١٤ هـ) (٧) .

تعددت اسباب رحلته كل مرة ، فالاولى تقترن بحادث شرب الخمرة، والثانية تقترن بسماعه لأخبار تحرير صلاح الدين الايوبي لبيت المقدس سنة٥٨٣هـ

---

(١) نفح الطيب ٢/ ٤٨٦
(٢) تأريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٤١٦
(٣) المصدر السابق ٤١
(٤) مقال أدب الرحلات في الاسلام ،في مجلة الثقافة العربية ، العدد ٩ ص ٢٩
(٥) الذيل والتكملة ٥/ ٥٩٦، الاحاطة ٢/ ٢٣١ وانظر الرحلة ص ٧
(٦) الذيل والتكملة ٥/ ٦٠٥/٢ ، الاحاطة ٢/ ٢٣٢
(٧) التكملة ٢/ ٥٩٩ وفي تأريخ الفكر الأندلسي ٣١٧ ودائرة المعارف الاسلامية ١١٦/١ ان رحلته الثالثة كانت (سنة ٦١٤ هـ) وهو وهم واضح لأنه وفاته كانت في تلك السنة .

ويكون ذلك من اقوى الأسباب للحج وزيارة المسجد الأقصى . (١) واما رحلته الثالثة فكانت اثر وفاة زوجته عاتكة المدعوة بأم المجد في (١٠ شعبان ٦٠١هـ) (٢) ، والرحلات في القرون الوسطى كانت متصلة بدعوة الدين الاسلامي الى الجهاد، وأداء الحج وطلب العلم والتجارة .. وصف ابن جبير رحلتهُ الأولى وصفاً مسهباً باسلوب المذكرات وهو المطبوع بين ايدينا بعنوان (رحلة ابن جبير) والتي عرفت باسمين آخرين (٣) وهي على جانب كبير من الاهمية، بلغت ذروة مابلغه نمط الرحلة في الادب العربي (٤) واستطاع ان يضيف الى سجل الجغرافية والرحلات صفحات من أجل مافيه. وتعد الرحلة قياساً الى كتب الرحلات من أغزرها مادة واقربها الى روح العلم وأصدقها (٥) .

وفضلا عن رحلته روي عنه ترسيل بديع وحكم مستجادة نقلتها بعض المصادر (٦) .

شعره :

كان ابن جبير من ذوي المواهب المزدوجة فكتب ونظم. الا أن **شهرة رحلته طغت على شاعريته فعرف** كاتباً ولم يعرف شاعراً ... وأهملت **الدراسات الحديثة (٧)**

(١) الذيل والتكملة ٥//٦٠٥٢

(٢) الذيل والتكملة ٦٠٦/٢/٥ ،نفح الطيب ٨٩/٢؛

(٣) في بداية الرحلة المطبوعة نجد عنوان :« تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار » وفي نهايتها نجد عبارة « أنتهت رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك». وينكر كراتشكوفسكي هذين العنوانين ويرى انهما منحولان » انظر الرحلة ص ٧؛ ٣٢٠ وتأريخ الأدب الجغرافي ٣٠٠

(٤) تأريخ الأدب الجغرافي ٣٠١/١

(٥) تأريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٥٢؛

(٦) الذيل والتكملة ٥/٢/ ٦٠٨ - ٦٠٩ الاحاطة ٣٧/٢ - ٢٣٩

(٧) من هذه الدراسات مقدمة الدكتور حسين نصار لرحلة ابن جبير ،ومقالة في مجلة تراث الانسانية ٢٣٨/١ - ٢٤٥ ،قدماء ومعاصرون للدكتور سامي الدهان ١٢٠ - ١٣١ الشعر في عهد المرابطين والموحدين صفحات متفرقة منه .وقد توهم الدكتور حسين مؤنس حين نسب اليه بيتين هما لابن رشيق القيرواني . انظر الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٤١٨ وديوان ابن رشيق القيرواني ٢٢٦

هذا الجانب وتعجلت الوقوف عنده وأصدرت أحكاماً عامة فيه لجملة أمور في مقدمتها فقدان ديوانه ... ولمكانة ابن جبير وشهرته لدى الدارسين، وللصلة القوية بين شعره ورحلته، قمت بجمع ماتيسر من شعره في المصادر والمراجع مستكملاً جوانب شخصيته الأدبية.

ذكر ابن الأبار (ت ٦٥٩ هـ) أن شعر ابن جبير كثير مدوّن، وقال ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ): انه « وقفت منه (شعر ابن جبير) على مجلد متوسط يكون بقدر ديوان ابي تمام حبيب بن اوس (جمع ابي بكر الصولي) او نحو ذلك، ومنه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» اودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه ام المجد بعد وفاتها والتوجع لها ايام حياتها (١) تزيد بيوته على ثلاثمئة، سوى موشحات خمس جعلها قريباً من آخره. ومنه جزء سماه « نظم الجمان في التشكي من اخوان الزمان » يشتمل على أزيد من مئتي بيت في قطع » (٢).

وما توفر بين أيدينا من شعره يتوزع على ثمانية مصادر: اقدم من نقل من اشعاره – صفوان بن أدريس التجيبي (ت٥٩٨هـ) في زاد المسافر حيث اورد خمس قطع (٣) تفرد برواية ثلاث منها – يليه ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٧٣هـ) في المغرب. جاء بثلاث قطع (٤) في تسعة ابيات وردت في مصادر اخرى، ثم نجد الرحالة ابا محمد العبدري (توفي بعد ٦٨٨هـ) يورد له ثماني قطع (٥) وقصيدة واحدة منفرداً برواية خمس مقطوعات منها، ونلتقي بابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) ثاني اثنين أوسعا من الاختيار لأشعاره. إذ يورد ثلاثين قطعة وقصيدة منفرداً برواية ثماني عشرة منها واكثر اشعار ابن جبير ترد عند المقري (ت ١٠٤١هـ) في موسوعته الاندلسية

(١) توفيت ام المجد سنة ٦٠١ هـ بعد زمانة طويلة عن خمس وخمسين عاماً.
(٢) الذيل والتكملة ٦٠٨/٢/٥ وانظر الاحاطة ٢٣٤/٢ وايضاح المكنون ٦٢٣/٢
(٣) تنظر ق: ١٣، ١٤، ٣٢، ٥٧، ٥٩
(٤) تنظر ق ٥٨، ٥٩، ٦٣
(٥) تنظر ق. ٦، ١٠، ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٥ ٣٠، ٣١، ٦٠

نفح الطيب . فيورد ثماني وثلاثين قطعة وقصيدة منفرداً برواية اربع وعشرين منها، وهي أكبر كمية ترد في مصدر واحد،ومن المتأخرين يختار له ابن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ) ثلاثة ابيات (١) في انوار الربيع. وفي رحلته نتعرف على بيتين شعريين (٢) . وهذا الذي بين ايدينا لايمثل الا اليسير من شعره الذي وضعه المراكشي آنفاً فمن جزئه المسمى (نتيجة وجد الجوانح) وصل بيتان فقط . وموشحاته الخمس مفقودة لم نقع عليها ومن جزئه الآخر (نظم الجمان) وصلت قطع كثيرة .. واما أمداحه في بني عبد المؤمن فقد وقفنا منها على ثلاث قطع في سبعة عشر بيتاً . بينما يذكر ابن عبد الملك المراكشي أن له فيهم أمداحاً كثيرة (٣) فهو بعد ان يورد شيئاً من شعره في المنصور الموحدي يقول:(وله فيه غير مما يطول ايراده) (٤). ويقول في موضع آخر . واغراضه كثيرة في اشعاره، مستحسنة، ولولا خوف الاملال والخروج بها الى غير ماله قصدنا لاستكثرنا منها ايثاراً لكريم آثاره . واستطابة لايراد أخباره وأشعاره ، وفي بعض ما اوردناه منها دلالة على انطباعه وشهادة بكرم طباعه (٥) فاذا علمنا ان ابن عبد الملك اكثر من ايراد شعر ابن جبير. كان لقوله دلالته الواضحة على فقدان شعره .. والمقري ينفرد (٦) برواية قصيدته الميمية وبعد ان يستهلها ببيتين يقول (وهي طويلة وآخرها) ثم يورد ابياتاً .. من هنا يتأكد لدينا بأن مابين ايدينا لايمثل الا جزء من شعر ابن جبير ولو وصل ديوانه الموصوف بأنه على قدر ديوان ابي تمام (جمع الصولى) لتحصل لدينا شيء كثير .

---

(١) تنظر ق ٤٧

(٢) تنظر ق ٣، ٦٧

(٣) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٦٠٧

(٤) المصدر السابق ٦/ ٣١

(٥) المصدر السابق ٥/٢/ ٦٢٠ - ٦٢١

(٦) نفح الطيب ٢/ ٤٩٣

موضوعات شعره

شعر ابن جبير صورة لحياته في اكثر من وجه ، فطابع التدين والالتزام بالخلق الاسلامي الذي لازم حياته واضح كل الوضوح في شعره ، وهو يمثل الاتجاه الاول الذي يتناول شعره ، واما الاتجاه الثاني فشعره المتصل برحلاته واسفاره .. يعرض ابن جبير موضوعاته بطريقتين اثنتين المقطعات الشعرية والقصائد الطويلة . وأهم موضوعاته ضمن هذين الاتجاهين هي :

١ – المديح :

قصيدة المديح عند ابن جبير ليست تقليدية ، فهو لايسبغ الفضائل جميعها على ممدوحه : الكرم ، والشجاعة ، والصدّق ، والغيرة كذلك يسمو مديحه على المدح التكسبي . الذي شاع عند شعراء المديح .. فمن خلال النماذج التي بين ايدينا تقترن قصيدة المديح عنده بسلوك الممدوح النابع عن موقف متصل بواقع المسلمين ، فهو يوجه مديحه للشخصيات السياسية والدينية التي أعجب بها وقصائده الست في المدح غير مقترنة بمال او عطاء يصرح بذلك فيقول :

وحبك انطقني بالقريض ومـا ابتغي صلة الشاعـر (١)

وابرز ممدوحيه امير المؤمنين المنصور الموحدي ، ابو يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن مدحه في مقطوعة وقصيدتين (٢) وافتخر به لأنه ناوأ الفلاسفة وذاد عن الدين الحنيف . فهـو بذلك لايختلف عن المصلحين الذين يبعثون في كل مئة سنة ، وفي اخرى يقول :

بلغت امير المـؤمنين مـدى المنى لانك قـد بلغتنـا مانُؤمـل
قصدت إلى الاسلام تعلي مناره ومقصدك الاسنى لدى الله يقبل
تداركت دين الله في اخذ فرقة بمنطقهم كان البلاء موكل

وممدوحه الثاني هو صلاح الدين الايوبي ؛ مدحه واحداً من الذين اذهلتهم انتصاراته ، وليس لدينا دليل على انه التقى به ، وقد خاطبه بقصيدتين طويلتين

---

(١) ق ٣٠ / ٤٨
(٢) تنظر ق : ١ ، ٤٢ ، ٥٠ .

الامر في قصيدته الاخرى – الرائية – والتي نظمها بعد رحلته الثانية ٥٨٥هـ.
إذ فيها يهنىء صلاح الدين على فتحه بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فيقول :

فتحت المقدس من ارضه   فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى   فخلصته من يد الكافر

ويصف الأذى الذي ينال الحجاج فيقول :

يعنف حجاج بيت الاله   ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم   وناهيك عن موقف صاغر
وقد اوقفوا بعدما كوشفوا   كأنهم في يد الآسر

فلما رفع صلاح الدين تلك المغارم ، وخصص اعطيات عوضاً عما كانوا يأخذونه من الحاج خاطبه بقوله :

رفعت مغارم اهل الحجاز   بانعامك الشامل الغامر
وأمنت اكناف تلك البلاد   فهان السبيل على العابر

وبذلك يملأ حبه قلوب الناس ويستأهل الاكبار والاجلال :

محبتكم القيت في النفوس   بذكر لكم في الورى طائر
فكم لك بالشرق من حامد   وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عامٍ   بمكة من معلن جاهر

وتلك المشقة التي نالت الحجاج من حكام الحجاز موصوفة في الرحلة بقوله: « يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في اهل الذمة .. وقد صيروهم من اعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينتهبونهم انتهاباً، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً (١) »

ذكرنا ممدوحيه – المنصور الموحدي وصلاح الدين الايوبي ، واما الثالث فهو الصدر الخجندي – ابو القاسم عبد اللطيف بن محمد، الذي اعجب به اعجاباً كبيراً في رحته لما راى من علمه وخلقه، فوصف مجلسين من مجالسه، وهو يحدث بالمدينة في ٧ محرم و ١٢ صفر سنة ٥٨٠ هـ وقال: واستجزناه فأجازنا نثراً ونظماً وهو اعظم من شاهدنا بهذه الجهات (٢) » ومما قاله فيه :

(١) رحلة ابن جبير : ٥٤
(٢) الرحلة ١٧٩ ، وانظر وصف مجلسيه في الرحلة ١٧٧ ، ١٩٦

يامـن حـواه الديـن في عصره   صـدراً يحـل العلـم منـه فؤاد
لايبتغـي منــه سوى احرف   يعتدهــا اشرف ذخـر يفــاد
اجـازة يورثنيهــا العــــلا   جــائزة تبقـى وتفنى البـلاد (١)

وواضح من الابيات أنها صدرت – على سبيل الاخوانيات لاعلى سبيل: المديح – بالمفهوم التقليدي – وبهذه الروح يجيب ابن جبير على ابياته فيقول

للـــك الله مـن خاطـب خلتي   ومـن قابس يجتدى سقط زنـدي
اجـــزت ماأجازوه لــــي   ومـا حدثـوه ومـا صح عندي

٢ – النقد الاجتماعي والشكوى من الزمان : –

تؤلف شكوى ابن جبير من الزّمان نزعةً واضحة في أشعاره ،فقد وسم جزءاً من ديوانـــه بـ « نظم الجمان في التشكي من اخوان الزمان » ذكر ابن عبد الملك المراكشي انه يشتمل على أكثر من مئتي بيت في قطع، ومن هذا الجزء ،بين ايدينا حوالي عشرين قطعة وقصيدة ..

كان ابن جبير فقيهاً متصلاً بمجتمعه ،كما تقدم في حديثنا عن اخلاقه، وهو يصدر في كثير من سلوكه مع المجتمع عن وجهة دينية ،فإذا شكا الزمان، فانما يشكو اخوان الزمان ، وينفذ من خلال هذه الشكوى إلى دعوة للاصلاح الاجتماعي ،بعد تشخيص المظاهر السلبية ونقدها، وهي نزعة لايتفرد بها بها ابن جبير في عصره ،وقد كان من المع أعلامها في المشرق – ابو العلاء المعري ، وابن جبير يتحمس للالتزام بما كان عليه السلف . وينكر محدثات الأمور :

قـد أحدث الناس اموراً فلا   تعمل بهـا إني امرؤ ناصـح
فما جماع الخيـر الا الذي   كان عليه السلف الصالح (٢)

وكثيراً مايكون التقاطع والتدابر سبباً إلى الضياع والفرقة، ينتقد هذه الظواهر

(١) ق ٨
(٢) ق ٧

ويقول :

إلى الله اشكو ماتكن الجوانح تقاطعت الأرحام حتى الجوارح
فلست ترى الا قلوباً وألسناً مخالفة هذي لهذي كواشح (١)

ويرى أن الامور كلها بيد الله فينكر التذلل والتمسح للولاة والحكام:

من الله فاسأل كل شيء تريده فما يملك الانسان نفعاً ولاضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم من الكبر في حال تموج بهم سكرا
واياك ان ترضى بتقبيل راحة فقد قيل انها السجدة الصغرى(٢)

وفي أبيات أخرى يدعو إلى الترفع عن خطط الدنيا ومناصبها والتعالى على سفاسفها :

من كبرت عن قدره خطة داخله من أجلها الكبر
ولاية الانسان سكر فما دامت له دام به السكر
دعهم مع الدهر واحداثه حتى ترى مايصنع الدّهر (٣)

ويتوجه إلى البغاة الظالمين بأن يقصروا عن بغيهم :

ايها المستطيل بالبغي أقصر ربما طأطأ الزمان الرؤوسا (٤)

ويسترسل في توجيه النصيحة للالتزام بالدين الحنيف – وعدم اهدار الوقت بجمع المال (٥)،ويدعو الانسان إلى التواضع ، ويزين صنع المعروف في اهله وتطويع شهوة الانسان لارادته (٦) . ويصدر عن تجربة مريرة في عدد من قصائده – مما يلقاه من اخوان الزمان خلال رحلاته واسفاره ويفقد الأمل في صلاحهم :

---

(١) ق ٦
(٢) ق ١٩
(٣) ق ٢٤
(٤) ق ٣١
(٥) ق ٣٦
(٦) ق ٥١ و ٥٣

صبرت على غدر الزمان وحقده وشاب لي السم الزعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم اجد صديقاً جميل الغيب في حال بعده
وكم غرني تحسين ظني به فلم يضيء لي على طول اقتداحي لزنده
وأغرب من عنقاء في الدهر مغرب اخو ثقة يسقيك صافي ودهِ
وشاهدت في الاسفار كل عجيبة فلم أر من نال جداً بجـده (١)

والناس بعد هذه التجربة ظروف محشوة بالمرارة وفوق افواهها شيء من العسل(٢)
وهو يلقي الخطوب خلال صحبته الزمان :

ومن تطل صحبة الزمان له يلق خطوباً وأفـكادا (٣)

وتغير اخوان الزمان احد تلك الخطوب ، فيخاطب ابا عمران المارتلي بقوله :

تغير اخوان هذا الزمان وكـل صديق عـراه الخلـل
وكانوا قديماً على صحة فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من شأنهم فصرت اطالع باب البـدل (٤)

وينتهي إلى ان يسأل الله الراحة من دنياه لأن حاجته فيها إلى البشر – والبشر بعد خلاصة تجاربه – كسر لمنجبر – ماهم جبر لمنكسر (٥) .

٣ – نقد الفلاسفة وهجاؤهم :

يشغل نقد ابن رشد عند ابن جبير مساحة كبيرة من اشعاره ، وهو :لايكف عن التعريض بالفلاسفة والدّهرية – وموقف الاندلسيين من الدعوات الفلسفية صارم فـ «كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم .. فان لهما حظاً عند خواصهم، ولايتظاهر بها خوف العامة فان كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة اطلقت عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه انفاسه » (٦) .

---

(١) ق ١٥
(٢) ق ٥٢
(٣) ق ١٠
(٤) ق ٤٦
(٥) ق ٢٧
(٦) نفح الطيب ١/ ٢٢١

وقد تبنى هذا الموقف ، بعض امراء الاندلس ومنهم المنصور الموحدي ، وفي ظله اشعل ابن جبير نار الحرب ضد ابن رشد والفارابي ، وهو رجل غيور على الشريعة يخشى عليها القدح والثلم،وكان الموحدون قد عُرفوا بدعوتهم الى الأخذ بالكتاب والسنة،ويرى بعض الدارسين ان بغضه للفلسفة نتيجة لتأثره مما سمعه في بيئات المشرق التي اتصل بها اثناء رحلته (١) . وهو في سبيل القضاء على دعوتهم يخاطب المنصور الموحدي بقوله :

خليفة الله انت حقاً فارق من السعد خير مرقى
حميتَ الدينَ من عداه وكل من رام فيه فتقا
تفلسفوا وادّعوا علوما صاحبها في المعاد يشقى (٢)

ويرى فيهم فساد الدنيا والدين :

قد ثبت الغيّ في العباد طائفة الكون والفساد
يلعنها الله حيث كانت فانها آفة العباد (٣)

ويجد فيها الشؤم والفحش والجهل والسفه :

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر(٤)

ويقول :

ياوحشة الاسلام من فرقة شاغلة انفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه(٥)

وتشتد سورة الغضب عنده فيصفهم بأنهم مارقون من الدين يستبيحون المحرمات ويتهاونون في الفرائض :

اباحوا كلَّ محظور حرام ورده لانفسهم حلالا
فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى (٦)

---

(١) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ١٥٣ (ط ٢ النهضة المصرية ١٩٤٦)
(٢) ق ٤٢
(٣) ق ١٦
(٤) ق ٢٦
(٥) ق ٤٠
(٦) ق ٤٨ وتنظر : ق ١٢ ، ٦٢ ، ٦٦

وقد كان من شأن المنصور الموحدي ان نكب ابن رشد سنة ٥٩٣ هـ الا أنه لم يلبث ان ارسل اليه وعفا عنه ، ويقال إن ابن جبير شهد دفن ابن رشد وكان في حال تأثر شديد (١).

٤ — الشوق والحنين

قام ابن جبير — كما تقدم . برحلات ثلاث . كانت الاولى سنة ٥٧٨ هـ والأخيرة سنة ٦٠١ هـ وبين هذين التاريخين كان دائم الشعور بالشوق والحنين، فحين يكون في وطنه يشتد به داعي الشوق إلى الاماكن المقدسة ، وما أن يفصل عن البلاد المقدسة حتى ينكص شوقه ويرتد إلى وطنه الذي تغرب عنه : استمع اليه وقد تحرك إلى الرحلة الحجازية :

أقول وقد دعا للخير داع حننت له حنين المستهام
حرام أن يحل بي اعتياض ولم أرحل إلى البيت الحرام
فلا طافت بي الآمال ان لم أطف ما بين زمزم والمقام
ولاطابت حياة لي اذا لم ازر في طيبة خير الانام
فأهديه السلام واقتضيه رضا يدني إلى دار السلام(٢)

وحين يهيء حجاجاً عائدين سبق له أن اجتمع بهم في مكة يشتد وجده وشوقه ليقول :

يا وفود الله فزتم بالمنى فهنيئاً لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات معكم فلهذا برح الشوق بنا
أنتم الاحباب نشكو بعدكم هل شكوتم بعدنا من بعدنا
ما عنى داعي النوى لما دعا غير صب شفه برح العنا (٣)

وحين يكون بعيداً عن وادي العقيق يقول :

(١) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ١٥٣ هامش ٣
(٢) ق ٥٧
(٣) ق ٥٨

سكان وادي العقيق شوقي اليكم في البعاد زادا
ونظرة منكم المنى لو اهديتموها إلي زادا(١)

وينفدُ صبره بعد أن يجور الزمان عليه بفراق أهل طيبة فيجاري دمعه أدمع المزن (٢) وترهف مشاعره بحب النبي الكريم ،فحين يقترب من مدينة الرسول (ص) ينير سراج الهدى له الدرب ، والليل يتجلى نهارا . وشذا المسك يفوح من الديار . والرواحل تبتدر مسرعة بعد أن كانت تشتكي النصب . وهو يمضي ببغيته لايملك الا البكاء :

سوى أننا لم نطق أعينا بأدمعها غلبتنا انفجارا (٣)

ويمضي ابن جبير في وصف لواعج الشوق وعظيم السرور بلقاء حبيبه سائلاً الله سبحانه ان يمهد له — بلحظة من الرسول (ص) — جنته .

وكانت النزعة مستحكمة في اشعار الاندلسيين في تفضيل الغرب على الشرق ، —تروم من ذلك إلى اثبات الشخصية الاندلسية— ،وفي ذلك كتب ابن حزم والشقندي وابن سعيد رسائلهم(٤)..لكن شوق ابن جبير وضميره منشدان إلى بلاد الشرق لكرامة من فيه ..فاذا برحت به الغربة وذاق لأواءها تذكر اوطانه ،وارسل دموعه قرابين ،فمما قاله وهو بمصر :

شهدنا صلاة العيد في ارض غربة باحواز مصر و الاحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بدمعة فليس لنا الا المدامع قربان (٥)

وهو يعاود البكاء في تذكر الاوطان دائماً :

---

(١) ق ١١
(٢) ق ٢١
(٣) ق ٢٢ /١٩
(٤) اورد المقري رسائلهم في نفح الطيب ، ونشرها مستلة صلاح الدين المنجد بعنوان: فضائل الأندلس واهلها (ط دار الكتاب الجديد ١٩٦٨ بيرت)
(٥) ق ٦٠

ويرسل للغرب من دمعه غروباً لتسقي سكانه (١)

وحين يقطع غصناً نظيراً فيذوي في يده يقول :

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النوى

اما ترى الغصن إذا ما فارق الاصل ذوى (٢)

وتجود قريحته بشعر رائق ،يضطرب بالعواطف ،حين تلوح له جبال «دانية» وهو على ظهر البحر عائداً من رحلته الاولى .

يا ليت شعري والآمال معوزة وربما امكنت يوماً لمختلس

هل يدنون مزار الشوق ان به ماشئت من نهز للأنس اوخلس

وهل تعودن ايام رشفت به سلافة العيش احلى من جنى اللعس

حيث انبسطنا مع اللذات تنقلنا ايدي المسرات من عيد إلى عرس (٣)

والملاحظ ان شوق ابن جبير وحنينه متصل بوطنه في اكثر القطع التي نظمها، وفي الوطن ذكريات عزيزة تقترن بالاهل الذين خلف فيهم الله سبحانه، واستودعه اياهم :

أيارب اهلي في يديك وديعة وما عدمت صوناً لديك الودائع (٤)

وهو يتشوق لأهله وخلانه في قطع أخرى فيكتب ابياتاً يخاطب فيها البجائي والي قضاء سبتة — بلواعج شوقه، وحبه لزوجه التي وسّدها الثرى هناك:

فلو استطيع ركبت الهوا فزرت بها الحي والميتا (٥)

كما يتشوق إلى جارية بغرناطة، ويرسل تباريح الشوق التي لاصبر له عليها:

ولي بغرناطة حبيب قد غلّق الرّهن في يديه

ودعته وهو بارتماض يظهر لي بعض مالديه (٦)

---

(١) ق ٥٩
(٢) ق ٦٨
(٣) ق ٣٣
(٤) ق ٣٧
(٥) ق ٤
(٦) ق ٦٣

وكنا نؤمل ان يستوعب شعره وصف البلاد العريضة التي طاف بها وضرب في ارجائها ،فلم نحظ بشيء يذكر فيه ،وقد ظفرنا بقطع في غزل بمحبوب(١) واستحسان للصوت الجميل (٢) ووصف للقلم (٣)

سمات عامة في شعره :

لاشك ان ابن جبير نال قسطاً من الثقافة الادبية ، فهو يروي الشعر ويحفظ نماذج منه ،وهو يهتز لجيد الشعر حين يستمع لرئيس الشافعية صدرالدين الخجندي،ينشد أبياتاً في مدح الرسول (ص) (٤)،ويعجب بابن الجوزي، وهو ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق تشعل القلوب وجداً ... «وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام » (٥) حين تثور الريح الشمالية ويكابد الأمرين يقول : فلله در القائل :

البحر مرّ المذاق صعب لاجعلت حاجتي اليه
اليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه (٦)

ويروي أبياتاً لابي محمد عبدالخالق المسكي، حين مجيئه من قرافة مصر، جرت بين يحيى بن هذيل وابن القوطية (٧) كما يأخذ بالمباح في السماع، حين يقول :

زيادة حسن الصوت في الخلق زينة يرون بها لحن القريض المحبر
ومن لم يحركه السماع بطيبة فذلك أعمى القلب أعمى التصور
وأهل الحجا أهل الحجاز وكلهم رأوه مباحاً عندهم غير منكر

(١) ق ١٣
(٢) ق ٢٨
(٣) ق ٤١
(٤) الرحلة ١٧٨
(٥) الرحلة ١٩٩
(٦) الرحلة ٢٨٨ والبيتان لابن رشيق القيرواني ينظر الديوان ٢٢٦
(٧) ق ٢٨ (واباحة السماع وردت بمذهب مالك)

فان رسول الله قد قال زينوا　　بأصواتكم آي الكتاب المطهر
فان أك مغرى بالسماع وحسنه　　فحسبي اقتداء بالكريم ابن جعفر (١)

وحمل ابن جبير قلباً كبيراً يعتلج بعاطفة جياشة. ذلك دفعه إلى التأسي بالرحلة في سن كبيرة بعد وفاة زوجه (ام المجد)، وهو أمر لايقدم عليه الكثيرون. وقد حرمنا للأسف ديواناً نادراً في الشعر الاندلسي افرده في رثاء زوجه لمكانتها في نفسه «فهو اول ديوان افرده شاعر عربي كبير لبكاء زوجته الراحلة» . (٢) ولم يكن نظم الشعر عند ابن جبير عملية مؤرقة، لايكد ذهنه فيها، وانما كان يسح بالشعر وينساب انسياباً ، فقد نظم قصيدته الرائية ، نظمها ارتجالا حين تراءت له المدينة (٣). ومن خلال اشعاره يلمح العبدري أن ابن جبير متأثر في بعض أشعاره بمنصور الفقيه (ت سنة ٣٠٦ ﻫ) (٤)

سلك ابن جبير في اشعاره سبيلين : المقطعات الشعرية والقصائد الطويلة .. والاسلوب الأول كان شائعاً في عصره ، وأولع به شعراء الأندلس : ابن زيدون وابن اللبانة وابن خفاجة وابن الزقاق البلنسي والرصافي البلنسي وغيرهم .. ومقطعاته تؤلف – من خلال مجموع شعره – نسبة عالية ، حوالي ثلاثة ارباع شعره ، واما قصائده المطولة ذات النفس الطويل فهي ضئيلة ، وقد استأثرت المقطوعة باعجاب الأندلسيين حتى كان ذلك مدعاة لفخر بعض الشعراء (٥)

---

(١) الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ٢٣٨
(٢) مقالة رحلة ابن جبير – مجلة تراث الانسانية ١ / ٢٣٩ ، وكان الشعراء قديماً رثوا زوجاتهم الا اننا لا نعرف من ترك ديواناً كاملا في رثائها ، ومن الذين رثوا زوجاتهم بالاندلس : ابن الزقاق البلنسي (ت ٥٣٠ ﻫ) والاعمى التطيلي (ت ٥٤٢ ﻫ) وابو عامر ابن الحمارة (من شعراء القرن السادس الهجري)
(٣) تنظر ق ٢٢
(٤) رحلة العبدري ٧١
(٥) هجا الأبيض ابن صارة الشنتريني فقال :
غروه ان قالوا شويعر قطعة　　لا شاعر فحل يمر وينتقض
يريد ان الشاعر اصبح مغروراً لأن الناس اعجبوا بمقطوعاته القصار انظر : ابن صارة الأندلسي ٢٣

وفي الغالب تستهدف المقطوعة الشعرية عند ابن جبير : الابداع الفني والبراعة اللغوية ،والكثير منها في ديوانه الموسوم « نظم الجمان في التشكي من اخوان الزمان » وقد قصد ابن جبير لتحقيق الجناس وفنون البديع الاخرى في مقطوعات كثيرة (١)، استمع اليه يقول :

سكان وادي العقيق شوقي اليكم في البعاد زادا
ونظرة منكم المنى لو اهديتموها إلي زادا
عهد لنا عندكم حميد ياليته بالوصال عادا
صادق فيه الكرى جفوني وبعدكم للجفون عادى (٢)

فالتجنيس واضح بين (زادا) في البيتين الأولين و(عادا) في الاخيرين ومثل ذلك بين لفظتي (جدك) ولفظتي (الرشد) و (رشد) في قوله :

لم تلزم الرشد ياابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ماهكذا كان فيه جدك (٣)

وتعلق ابن جبير بالجناس في منظومه يفضي به إلى (لزوم مالايلزم) وهو أن يأخذ الشاعر نفسه بالتزام حروف وحركات في القافية لاتتطلبها قواعد علم القافية ،زيادة في الايقاع الموسيقي للقافية، ونلقى ذلك في عشر مقطوعات . ففي المقطوعة الاولى الآنفة التزم حرف الروى بالألف . وفي المقطوعة الثانية.. التزم بحرف الدال والجيم .. ووصل بالكاف .. وتتجلى قابليته ابرع ما تكون في قوله :

اذا بلغ المرء ارض الحجاز فقد نال افضل ماأمله
وان زار قبر نبي الهدى فقد أكمل الله ماأم له (٤)

---

(١) انظر ق ١٠ ، و ٢١ و ٢٣ و ٣٩ و ٧/٥٨ ، ٨ ، ١٣
(٢) ق ١١
(٣) ق ١٢
(٤) ق ٤٧

وقوله :

هنيئاً لمن حج بيت الهدى ... وحط عن النفس اوزارها
وان السّعادة مضمونة ... لمن حل طيبة أوزارها (١)

ويرى الدكتور ابراهيم انيس : ان اللزوميات تتدرج من ثلاثة اصوات الى ثمانية، والنوع الاخير هو اقصى مايمكن ان يطمح اليه الشاعر من الموسيقى. وهي تتطلب في انشادها مايقرب من ثانية ونصف ... (٢) ويلاحظ أنّ ابن جبير في لزومياته يلتزم بوحدة زمنية طويلة، كما هو واضح في المقطوعتين الاخيرتين ... وهو في هذا يعكس لنا ملكته اللغوية وثقافته فيها . ومن فنون البديع الاخرى التي التزمها فضلا عن الجناس حسن التعليل والتورية استمع اليه يقول :

أخلاءُ هذا الزمان الخؤون ... توالت عليهم حروف العلل
تغيّر اخوانُ هذا الزمان ... وكلّ صديقٍ عرّاه الخَلَلْ
وكانوا قديماً على صحّة ... فقد داخلتهم حروف العِلل
قضيت التعَجب من شأنهم ... فصرتُ أُطالِعُ بابَ البدل (٣)

فلفظتا (العلل والبدل) فيهما مدلول اصطلاحي من علم المنطق .. وهو يريد بهما المعنى الاخر وقصده التورية اضطره الى الوقوع في خطأ التضمين فأورد (العلل) مرتين في معنى واحد قبل مضي سبعة ابيات وقد استطاع الشاعر وباستخدامه لاسلوب السّخرية والتهكم ان يجسد لنا صورة ذات مدلول بليغ لتغير الناس وتقلبهم .

كذلك نجد ابن جبير يكثر الاقتباس من القرآن الكريم (٤) والحديث الشريف والأمثال العربية المأثورة مكرراً ذلك في قصائد ومقطوعات كثيرة لاتخفى على المتأمل .. وهو بذلك يعكس لنا وجهاً آخر من أوجه ثقافته ويحاول ان

(١) ق ٢٣ وانظر كذلك ق ٥ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩
(٢) موسيقى الشعر : ٢٧٨
(٣) ق ٤٦
(٤) للعلماء مواقف متباينة من الاقتباس من القرآن الكريم انظر انوار الربيع ٢/٢١٧وما بعدها

يبسطها للسامعين . واقتباسه من القرآن الكريم في كثير منه محمود معقول لانه يقصد من ورائه الموعظة والنصح ومن ذلك قوله : —

« وكن بحبل الله معتصماً » (١) و« اذهب الرجس عنهم » (٢) و « جاهدوا في الله حق جهاده » (٣) و« ان قارون من قوم موسى »(٤)او « يأتون الصلاة وهم كسالى » (٥)

وفي اقتباسه من الحديث الشريف يدرك غايته كذلك . بالوعظ والنصح من ذلك قوله (مطهراً دينه في رأس كل مئة)((٦) و (فان زناء العيون النظر) (٧) و(جنودك بالرعب منصورة) (٨) و(آثرت درء الحدّ عنهم بشبهة) (٩)

ومن اقتباساته من الامثال قوله (فعند جهينة الخبر) و (ان البلاء موكل بالمنطق) و (من قبل قرعك سنّ الندم)(١٠) .. وفي كثير من اقتباساته يغير بزيادة اونقصان او ابدال . فاذا لم يقتبس قاس المعاني بلطف وبلاغة فصاغها في قالب جديد :

من الله فاسأل كل شيء تريده فما يملك الانسان نفعاً ولا ضرا

ولا تتواضع للولاة فانهم من الكبر في حال تموج بهم سكرا

يقول العبدري « ونهيه عن التواضع للولاة حكم شرعي — قال (ص) « من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه » (١١) كذلك قوله :

---

(١) ق ١٠ / ٢
(٢) ق ٢٠ / ٢
(٣) ق ٢٠/ ٥
(٤) ق ٣١/ ٢
(٥) ق ٤٨/ ٤
(٦) ق ١/ ٢
(٧) ق ١٧/ ٢
(٨) ق ٣٠/ ١٠
(٧) ق ١٧ / ٢
(٨) ق ٣٠/ ١٠
(٩) ق ٥٠ / ٨
(١٠) ق ٥٥/٩
(١١) ق ١٧ رحلة العبدري ٧١

فلست ترى الا قلوباً والسنا مخالفة هذي لهذي كواشح
فللقلب عقد واللسان بنطقه يخالفه والفعل للكل فاضح

فانه مأخوذ من قول الحسن (رض) (وألسن تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف) (١)

واما المعاني التي تجري فيها اشعاره فتتمثل فيها نظرة الفقيه المسلم للخلافة (٢) ونزعة الفقيه في محاربة البدع (٣) واستسلام الفقير الى الله في كل شيء (٤) وهو يتضرع الى ربه دائماً لطلب المغفرة (٥) ويعلن حربه على الشهوات ويسعى لبذل الخير للناس واعانتهم . وهو ضمن اطار هذه المعاني يكثر من ترداده .. ويضطر الى تكرارها في اكثر من مقطوعة فيقول :

فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

ويقول : اذا قاموا لها قاموا كسالى على الكره كأنهم نيام (٦)

وهو لايختلف كثيراً في قوله :

بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة : «ان البلاء موكل بالمنطق»

وقوله : تداركت دين الله في اخذفرقة بمنطقهم كان البلاء موكل (٧)

وتتكرر هذه الظاهرة في مقطوعات اخرى (٨) :-

واما الموسيقى التي أساس لها قوافيه واطمأنت اليها نفسه فهي في كثير تتحدد بالموضوع الذي يتناوله فنجده في بعض يستخدم البحور الطويلة الرحبة .

---

(١) رحلة العبدري ٩٨ ق ٦
(٢) ق ١ ، ٤٢
(٣) ق ٧ ، ٥٦
(٤) ق ٩/١٥ - ١١ ، ١٩، ٢٧
(٥) ق ٩ ، ٣٧
(٦) ق ٤٨ /٤ ، ٥٦/ ١٧ .
(٧) ق ٢/٤٤ ، ٥٠/ ٣
(٨) ق٥١ ، ٥٣

كالطويل والكامل والبسيط والمتقارب وفي بعض اخر يعمد الى البحور السريعة والقصيرة والمجزوءة كالسريع والمنسرح ومخلع البسيط والخفيف والمجتث وفي الحالين يأتي شعره في مقطوعات وقصائد فحظ البحور الطويلة كبير في المديح والحكمة والنصح الاخلاقي والوداع والفراق بينما يزداد حظ البحور القصيرة في هجاء الفلاسفة ونقد المجتمع وهجر الحبيب ... ومجموع مانظمه في بحر الطويل . والمتقارب والكامل هو احدى وثلاثون مقطوعة وقصيدة . وهو يمثل نصف قطع المجموع الشعري تقريباً . بينما مجموع مانظمه في بحري السريع ومخلع البسيط هو ثماني عشرة مقطوعة وقصيدة . وهو اقل من ثلث المجموع الشعري الذي بين ايدينا . واكثر منظومه جاء في البحور الآنفة .

ولا نستطيع أن نفترض أن هناك موضوعات خاصة بكل بحر . فالبحر الواحد قد يصلح لموضوعات الشعر بشكل عام كما أن الموضوع الواحد قد تصلح معه بحور الشعر كذلك . ولكن نستطيع ان نقف مع الشاعر فنتأمل الوزن الذي تخيره على سبيل المثال في موضوعين مختلفين في الحكمة والنصح الاخلاقي يقول :—

عليك بكتمان المصائب واصطبر ... عليها فما ابقى الزمان شقيقاً
كفاك من الشكوى الى الناس انها ... تسر عدواً او تسوء صديقاً (١)

فيستخدم بحر الطويل ذا الامواج الهادئة والاجزاء الكثيرة متوغلا الى النفس الانسانية في محاولة لتثبيت معاني الخير فيها . بينما يتخير في هجائه للفلاسفة وزناً قليل المقاطع متلاحق الاجزاء يظهر جزعه مما هم عليه، ويصبُّ جام غضبه عليهم :

يـاوحشة الاسـلام من فرقة ... شـاغلـة انفسهـا بـالسـفه
قـد نبذت دين الهـدى خلفها ... وادّعـت الحكمـة والفلسفه (٢)

وهكذا تتكرر الصورة في قطع اخرى .

استكمل ابن جبير عدة الشاعر ، واستطاع ان يسمو في بعض اشعاره الى

(١) ق ٤٣
(٢) ق ٤٠

درجة الجودة لاسيما تلك التي يصدر اليها عن عاطفة غزيرة ، وصور فنية رائعة ، لاسيما في اشعار الشوق والحنين ، لاينفي ذلك هبوط المستوى الفني الى درجة النثرية حين تتمكن منه الفكرة فيجري لادائها ، ويتخلف في البراعة الفنية، وليس من الانصاف ان ننتهي الى الحكم بان شعره شعر علماء وفقهاء ليس بذي قيمة » (١) كما رأى بعض الدارسين .

وبعد ، فقد وقفنا عند حياة ابن جبير وعصره وشخصيته واخلاقه وابرز اغراضه ثم تأملنا في سماته الشعرية العامة من خلال ماتوفر من شعره ودونك شعره مرتباً حسب القوافي (٢) .

(١) مقدمة رحلة ابن جبير – تحقيق الدكتور حسين نصار ص (ظ)

(٢) اخذت في ترتيب اشعاره بحرف الروي – وذكرت بحر القصيدة ،ثم اتبعت الأبيات تخريجها في المصادر ، وعولت على المصدر الاقدم في رواية الأبيات الا إذ كان تصحيفاً أو تحريفاً حيث اثبت الوجه الصحيح في المتن واشير إلى ذلك في الهامش كما ترجمت للاعلام الواردة وخرجت الابيات والأحاديث المقتبسة ،وذكرت مناسبة الأبيات حين اهتديت لها.

(الهمزة)

(١)

قال يمدح المنصور الموحدي :(٥)

(من البسيط)

١ – خليفةَ اللهِ دُمْ للدّين تحرسه ... من العِدى وتقيه شرَّ(كل) فئهْ

٢ – فالله يَجعَل عدلاً من خلائقه ... مُطَهِرا دينه في رَأس كلّ مئهْ

(١) الذيل والتكملة ٦/ ٣١ .

(٥) هو ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن امه أم ولد بويع في حياة أبيه وتولى بعد وفاته سنة ٥٨٠ هـ إلى أن توفى سنة ٥٩٥ وتوفى وله من العمر ثمان واربعون سنة كان من الدعاة إلى الأخذ بالكتاب والسنة وحمل الناس على الظاهر من القرآن . وكانت محنة ابن رشد في اخريات حياته في قصة وردت في المعجب . الا انه لم يلبث ان ارسل عليه وعفا عنه . انظر ترجمته في المعجب ٣٣٦ – ٣٨٥ .

(٢) في عجز البيت اقتباس من الحديث الشريف « ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » انظر سنن ابي داود ٢/ ٤٢٤ .

(٢)

قال يخاطب بعض أصحابه بالقاهرة وقد أهدى اليه موزاً: (من المجتث)

١ – يامهديَ الموزِ تبقى وميمه لكَ فاء
٢ – وزايُهُ عن قَريبٍ لمن يُناويك تاء

(٢) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٢٠، نفح الطيب ٢/٣٨٤
(٢) النفح «لمن يعاديك تاه»

الباء

(٣)

ولما وصل قرية (زريران) على شط دجلة على مرحلة من بغداد قرب مشهد سلمان الفارسي قال متذكراً بلده :–

(من الطويل)

سقى الله باب الطاقِ صَوبَ غمامة ورَدَّ إلى الأوطان كلَّ غريب

(٣) رحلة ابن جبير ١٩٢ (بلا نسبة)، نفح الطيب ٢/ ٣٦.

التاء

(٤)

وقال (*) : (من المتقارب)

١ – بسبتةَ لي سَكَنٌ في الثرى وخِلٌّ كريمٌ اليها اتى
٢ – فلو استطيعُ رَكِبت الهَوا فزرتُ بها الحَيَّ والميتا

(٤) نفح الطيب ٢/ ٤٨٩
(*) الابيات مما كتبه ابن جبير من الديار المصرية في رحلته الأخيرة إلى ابي محمد عبد الله البجائي ويعرف بابن الطيب وكان والياً قضاء سبتة، وزوجته هي عاتكة المدعوة بام المجد، والدها الوزير الحسيب احمد بن عبد الرحمن الوقشي توفيت لعشر خلون من شعبان سنة ٦٠١ بعد زمانة طاولتها عن خمسة وخمسين عاماً. انظر الذيل والتكملة ٥/٢/٦٠٦.

(٥)

وقال في صديق له : (مـن الخفيـف)

١ – لي صديقٌ خسرت فيه ودادي حين صَارَتْ سلامتي منه ربحا
٢ – حَسن القول سيء الفعل كالجـ زار سمّى وأتبع القولَ ذَبحـا

(٥) الطيب ٢/٤٨٨– ٤٨٩

(٦)

وقال ينتقد المجتمع :– (من الطويل)

١ – إلى الله أشكو ماتُكن الجوانحُ تقاطعت الارحام حتى الجوَارحُ
٢ – فلستَ تَرى الا قلوباً وألسُناً مُخالفةً هذى لهذى كواشحُ
٣ – فللقلبِ عَقد واللسانُ بنطقه يُخالفه والفعلُ للكُلِّ فاضحُ

(٦) رحلة العبدري : ٩٨

(٢) – الكواشح جمع كاشح وهو الذي يضمر العداوة . وفي رحلة العبدري اشارة إلى أن البيتين من قول الحسن (رض) « ألسن تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف »

(٧)

وقال ينتقد المجتمع : (من السريع)

١ – قد أحدث الناس اموراً فلا تَعَمل بها إني امروءٌ ناصح
٢ – فما جِماعُ الخَيـرِ الا الّذي كان عَليه السّلفُ الصّالح

(٧) نفح الطيب ٢/ ٤٩٢ .

الدال

(٨)

قال يمدح الصدر الخجندي ويستجيزه:(•)

(من السريع)

١ — يامن حواه الدين في عصره ... صدراً يحلّ العِلمِ منه فؤاد

٢ — ماذا يَرى سَيِّدنا المرتَضى ... في زائر يخطب منه الوداد

٣ — لايبتغي منه سوى أحرُف ... يعتدها أشرف ذخرٍ يُفاد

٤ — ترسمها أنمله مثل ما ... نمّق زهر الروض كفُّ العهاد

٥ — في رُقعة كالصبح أهدى لها ... يَد المعالي مِسك ليل المداد

٦ — إجازةٌ يورثنيها العلا ... جائزة تَبقى وتفنى البلاد

٧ — يستصحب الشكر خديما لها ... والشكر للامجادِ أسنى عتاد

---

(٨) نفح الطيب ٢/ ٣٨٢

(•) هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت، الخجندي، ابو القاسم اوبو محمد الملقب بـ: صدر الدين من أهل اصبهان. تولى الرئاسة على قاعدة آبائه، كان فقيهاً أديباً واعظاً وله شعر جيد ولد سنة ٥٣٥ هـ ومات في جمادى الاولى ٥٨٠ هـ، وانتهت رئاسة الشافعية ه إلى ابنه «محمد» الملقب بسور الدين وقد وصف ابن جبير مجلسين من مجالسه بالمدينة في ٧ محرم و١٢ صفر سنة ٥٨٠ هـ وذكر انه كان يعظ باللسانين ينظر: طبقات الشافعية ٤/ ٢٦١ ، التكملة ٢/ ٥٩٨ .

وقد اجاب على ابيات ابن جبير واجازه بقوله :

لك الله من خاطب خلتي ... ومن قابس يجتدي سقط زندي

أجزت ما أجازوه لي ... وما حدثوه وما صح عندي

وكاتب هذي السطور التي ... تراهن عبداللطيف الخجندي

٤ — العهاد : اول مطر الوسمي

(٩)

ومن شعره قوله في الزهد :

(من مخلع البسيط)

١ – ياخيرَ مَولى دَعـاه عَبْدٌ ... أعمـل في البـاطـلِ اجتهَادَه

٢ – هَبْ لي مـاقَد عَلِمتَ مني ... يـاعـالمَ الغَـيـب والشّهَادَه

(٩) نفح الطيب ٢/ ٤٩٠

(١٠)

قال في الحكمة والخلق الاسلامي وهو ينشد ابا عمرو بن الشقر (*) بالاسكندرية :

(من المنسرح)

١ – تَأنَّ في الأَمر لاتكنْ عَجِلا ... فمن تأنَى أَصـاب او كَادَا

٢ – وكُـن بحبـلِ الإله مُعتَصِماً ... تَأمَـنْ به بَغْيَ كلٍّ من كادا

٣ – فكم رَجـاهُ فنالَ بغيتَه ... عبـدٌ مسيءٌ بنفسه كـادا

٤ – ومن تَطُلْ صحبةُ الزمان له ... يلـقَ خُطوباً به وأَنكـادا

(١٠) رحلة العبدري ٧٠

(*) لم نهتد إلى ترجمته فيما توفر لدينا من مصادر.

(٢) في صدر البيت اقتباس من قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ..» ال عمران : ١٠٣

(١١)

قال يتشوق لاهل العقيق :

(من مخلع البسيط)

١ – سُكّان وادي العَقيق شَوقي ... إليكـم في البِعـادِ زَادَا

٢ – ونَظرةٌ منكـم المُنى لو ... أهـدَيتُمُـوها اليَّ زَادا

٣ – عَـهدٌ لنا عندكم حَميدٌ ... يـاليتَـه بـالوصال عـادا

٤ – صَـادَقَ فيه الكَرى جُفوني ... وبَعدَكمْ للجفـونِ عـادَى

(١١) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٥.

(١٢)

وقال يهجو ابن رشد (٥) :

(من مخلع البسيط)

١ – لم تَلزمِ الرُّشدَ يابنَ رشدٍ   لما علا في الزَّمانِ جَدُّكْ
٢ – وكنتَ في الدِّين ذا رياءٍ   ماهكذا كانَ فيه جَدُّكْ

(١٢) الذيل والتكملة ٦/ ٣٠

(٥) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن احمد بن رشد الحفيد .فقيه حافظ مشهور شارك في علوم جمة وعرف بالطب والفلسفة تولى القضاء باشبيلية ثم بقرطبة . له كتب كثيرة نكب سنة ٥٩٣ هـ زمن المنصور الموحدي ،ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥ هـ ينظر : المعجب ٣١٤ – ٣١٦ ، ٣٨٤ – ٣٨٥ ، التكملة رقم ٣٧٨ ، المغرب ١/١٠٤ – ١٠٥ ،الذيل والتكملة ٦/ ٢١– ٣١ ، الوافي بالوفيات ١/١١٤ ، والتكملة ٦/٢١ – ٣١ الوافي بالوفيات ١/ ١١٤ ، الديباج المذهب ٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ٦/١٥٤ .

(١٣)

وله وقد هجره محبوبه :   (من السريع)

١ – يارشأ حظّيَ إبعاده   وحظ غيري منه إسعاده
٢ – خبتُ وكلٌ نال منكَ العُلى   أسعد أهل الحب أوغاده
٣ – بي ظمأٌ برّح لكنّه   زهد في المَوردِ وُرّاده

(١٣) زاد المسافر ١١٤

(١٤)

وقال (•): (من الكامل)

١ – أفقيهنا المستنَ ديناً والذي شَهِدت له بالفضل منه شَوَاهِـدُ

٢ – لو تُبصر ابنَ سعادةِ ونديمه قد حَلَّ بينهما الغَزالُ الشّارد

٣ – لرأيتَ من ثِقلٍ عليك وخِفةٍ جَبلين بينهما نسيمٌ راكـد

(١٤) زاد المسافر : ١١٤

(•) المرجح لدينا ان الأبيات في ابن رشد .

٢- ابن سعادة هو ابو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة ، مرسي سكن شاطبة وبلنسية وسمع عن شيوخ زمانه ومنهم ابو الوليد بن رشد ، رحل إلى المشرق سنة ٥٢٠ ﻫ، وكان مشاركاً في علوم كثيرة موصوفاً بها وقد حدث عن عمه ابي عمران موسى بن سعادة ولد سنة ٤٩٦ ﻫ وتوفي سنة ٥٦٦ ﻫ التكملة ٢/ ٥٠٥ نفح اليب ٢/ ١٥٨ .

(١٥)

وقال في الشكوى من الزمان والحكمة: (من الطويل)

١ – صبرتُ على غدرِ الزمان وحقدهِ وشابَ لي السُّمَ الزعافَ بشهده

٢ – وجربتُ إخوان الزمان فلم أجد صَديقاً جميلَ الغيبِ في حال بعده

٣ – وكم صَاحبٍ عَاشَرتُه وألفتُه فما دَامَ لي يوماً على حُسنِ عهده

٥ -- وأغربُ من عنقاءَ في الدّهر مغرب أخو ثقة يسقيك صافي ودّه

٦ -- بنفسك صادمٍ كـل امرٍ تُريده فليسَ مضاءُ السّيف الا بحده

٧ – وعَزمك جرِّد عند كلِّ مهمةٍ فما نافعٌ مكثُ الحسام بغمده

٨ – وشَاهدتُ في الأسفار كلَّ عجيبةٍ فلم أرَ من نالَ جدا بجدِّه

٩ – فكُنْ ذا اقتصاد في امورك كلها فأحسن أحوال الفتى حسن قصده

١٠ – وما يُحرمُ الانسانُ رزقاً لعجزه كما لاينال الرِّزقَ يوماً بكَدِّه

١١ – حُظوظُ الفتَى من شقوةٍ وسعادة جرَتْ بقضاءٍ لاسبيلَ لردِّه

(١٥) نفح الطيب ٢/ ٤٩٠– ٤٩١

٥- العنقاء : الداهية يضرب بها المثل

(١٦)

قال في ذم الفلاسفة: (من مخلع البسيط)

١ — قد ثبّتَ الغيّ في العباد طائفةُ الكون والفسَــاد

٢ — يلْعنها الله حيثُ كانت فإنّها آفةُ العبَــاد

٤ — دهريةٌ لايرون رسلاً ولا يقرون بالمعَاد

٣ — يعتقدون الامورَ دَوراً والناسَ كالزرع والحصاد

(١٦) الذيل والتكملة ٦١١/٢/٥

٤ — المراد بالدور عند الفلاسفة توقف الشيء على مايتوقف عليه ، ويسمى الدور المصرح كما يتوقف أ على ب وبالعكس او بمراتب ويسمى الدور المضمر كما يتوقف أ على ب وب على ج وج على أ ، التعريفات ٩٤ .

(الراء)

(١٧)

وقال : (من المتقارب)

١ — صن العقلَ عن لحظة في هوى فان البصيرةَ طوعُ البَصرْ

٢ — وغضنَّ الجفون على عفة فإنَّ زناءَ العيون النّظرْ

(١٧) رحلة العبدري : ٧٠

٢ — عجز البيت فيه اقتباس من الحديث الشريف :« ان الله كتب على ابن ادم حظهُ من الزنا ادرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر .. » سنن ابي داود ١/ ٤٩٦ .

(١٨)

وكان من اهل المروءات في حقوق الاخوان وفي ذلك يقول :

(من الرمل)

١ — يَحسب الناس بأني متعب في الشفاعات وتكليف الورى

٢ — والذي يتعبهم من ذاك لي راحةٌ في غيرها لن أفكرا

٣ — وبودى لو أقضيَ العمر في خدمة الطلاب حتى في الكرى

(١٨) نفح الطيب ٤٨٨/٢

(١٩)

ومن وصاياه النافعة وآدابه الجامعة قوله : (•) (من الطويل)

١ – من الله فاسأل كل شي تريده فما يملك الانسان نفعاً ولاضرا

٢ – ولاتتواضع للولاة فانهم من الكبر في حال تموجُ بهم سكرا

٣ – وإياك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيل فيها إنها السجدة الصغرى

(١٩) رحلة العبدري : ٧٠ الذيل والتكملة ٦١٣/٢/٥ ،نفخ الطيب ٢/ ٤٩١ – ٤٩٢ .

(•) قال العبدري ص ٧١ « ونهيه عن التواضع للولاة حكم شرعي قال (ص) من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه» : وارى هذا الحديث مبيناً على الحديث الآخر وهو قوله (ص) : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه من سواهما وان يحب المرء لا يحبه الا الله وان يكره ان يعود في الكفر بعد ان أنقذه الله منه كما يكره ان يقذف في النار » .

١ – العبدري : «كل أمر»

٢ – النفح : « قيل عنها »

(٢٠)

قال في حب النبي وآل بيته : (من الطويل)

١ – أحب النبي المصطفى وابن عمه علياً وسبطيه وفاطمة الزهرا

٢ – هم اهل بيت أذهب الرجس عنهم وأطلعهم افق الهدى انجماً زهرا

٣ – موالاتهم فرض على كل مسلم وحبهم اسنى الذخائر للأخرى

٤ – وما انا للصحب الكرام بمبغض فاني ارى البغضاء في حقهم كفرا

٥ – هم «جاهدوا في الله حق جهاده» وهم نصروا دين الهدى بالضبى نصرا

٦ – عليهم سلام الله مادام ذكرهم لدى الملأ الاعلى واكرم به ذكرا

(٢٠) الذيل والتكملة ٦١٦/٢/٥

٢ – في صدر البيت اقتباس من قوله تعالى « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت..» الاحزاب : ٣٣

• – الظبى ، جمع ظبة وهي حد السيف او السنان وفي صدر البيت اقتباس من القرآن الكريم الحج ٧٨ .

(٢١)

قال ، وقد تذكر طيبة على ساكنها الصلاة والسلام :   (من المجتث)

١ – يأهـل طيبـة قلبي	عـن منهـج الصبر جارا
٢ – اشكو اليكـم زمانا	عـلي بالبـين جـارا
٣ – وبعدكم لست ارضى	مـن البريـة جـارا
٤ – ودمع عيني عليكم	لأدمعِ المزنِ جـارى

(٢١) الذيل والتكملة ٦١٥/٢/٥

١ – جار في البيت الأول بمعنى سقط وتهدم وفي الثاني بمعنى ظلم وتجاوز وفي الثالث من الجيرة والجيران وفي الرابع من المجاراة بمعنى المراعاة.

(٢٢)

وقال وقد شارف المدينة المكرمة على ساكنها الصلاة والسلام (*)

(من المتقارب)

١ – أقول وآنستُ بالليل نارا	لعل سِراجَ الهدى قد انارا
٢ – وإلا فما بالُ افق الدجى	كأن سَنَا البرق فيه استطارا
٣ – ونحن من الليل في حندسٍ	فما باله قد تجلى نهارا
٤ – وهذا النسيم شذا المِسك قد	اعير ام المِسك منه استعارا
٥ – وكانت رواحلُنا تشتكي	وجاهاً فقد سابقتنا ابتدارا

* ذكر العبدري انه نظمها ارتجالا حين ترأت له المدينة وكان وصوله لها في ٣ محرم سنة ٥٨٠ هـ انظر الرحلة ص ١٦٧ .

(٢٢) رحلة العبدري ٩٦ – ٩٨ ،« ١ – ٣٣» الذيل والتكملة ٦٠٢/٢/٥ –٦٠٣ « ١ – ٢٣». الاحاطة ٢٣٥/٢--٢٣٦ « ١– ٣٣» عدا البيت ١٣ ، نفح الطيب ٤٨٧/٢ « ١ – ٣»

١ – في صدر البيت اقتباس من قوله تعالى : « اني آنست نارا .. » طه : ١٠

٥ – العبدري « وجا فلقد » والوجى أن يشتكي البعير باطن خفه ، والوجاء : العدول الصغار، والا بتدار : الاسراع والمعاجلة .

٦ – وكنا شكونا عناء السرى | فعدنا نبارى سراع المهارى
٧ – اظن النفوس قد استشعرت | بلوغ هوى تخذته شعارا
٨ – بشائر صبح السرى آذنت | بأن الحبيب تدانى مزارا
٩ – جرى ذكر طيبة مابيننا | فلا قلب في الركب الا وطارا
١٠ – حنيناً إلى أحمد المصطفى | وشوقاً يهيج الضلوع استعارا
١١ – ولاح لنا احد مشرقاً | بنور من الشهداء استنارا
١٢ – فمن اجل ذلك ظل الدجى | يحل عقود النجوم انتثارا
١٣ – ومن ذلك الترب طاب النسيم | نشراً وعم الجناب انتشارا
١٤ – ومن طرب الركب حث الخطى | اليها ونادى البدار البدارا
١٥ – ولما حللنا فناء الرسول | نزلنا بأكرم خلق جوارا
١٦ – وحين دنونا لفرض السلام | قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا
١٧ – فمانرسل اللحظ الا اختلاسا | ولانرفع الطرف الا انكسارا
١٨ – ولانظهر الوجد الا اكتتافاً | ولانلفظ القول إلا اسرارا
١٩ – سوى اننا لم نطق أعيناً | بأدمعها غلبتنا انفجارا
٢٠ – وقفنا بروضته للسلام | نعيد السلام عليه مرارا
٢١ – ولولا مهابته في النفوس | لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
٢٢ – قضينا بزورتنا حجنا | وبالعمرين ختمنا اعتمارا

---

٨ – العبدري : « تباشير »

١٤ – العبدري « طرب الشرب » والبدار كالمبادرة والابتدار ، والاسراع والاستباق

١٥ – الاحاطة « باكرم مجد »

١٧ – الاحاطة « ولا نرجع الطرف »

١٨ – السرار والسرارة بفتح السين . السر وهو جوف كل شيء

٢٠ – الاحاطة : « وقفنا بروضة دار السلام »

٢١ – العبدري « ولزمنا »

٢٢ – العبدري « بعمرتنا حجنا ،وبالعمرتين » وفيه تحريف . الاحاطة :« بزوته حجنا » وبالعمرتين » وفيه تحريف ايضاً .

٢٣ – اليكَ اليكَ نبي الُهدى ... رَكبتُ البحار وجبتُ القِفارا
٢٤ – وفارقتُ أهلي ولا منّةٌ ... ورُبَ كَلام يَجرُ اعتِذارا
٢٥ – وكيفَ نمنُ على من بِه ... نُؤمِّل للسّيئات اغتفارا
٢٦ – دَعاني اليك هوى كامنٌ ... أثارَ من الشّوق ماقد أثارا
٢٧ – فناديتُ لبّيكَ داعِي الهوَى ... وماكنت عنك اطيقُ اصطبارا
٢٨ – ووطنت نفسي لحكم الهوى ... علي وقلتُ رَضيت اختيارا
٢٩ – اخوض الدجى واروض السرى ... ولا أُطعمُ النَّوم الا غِرارا
٣٠ – ولو كنت لااستطيع السبيل ... لطِرت ولو لم اصادِفْ مَطَارا
٣١ – وأجدر من نال منك الرِّضى ... محبُ ذُراكَ على البُعد زارا
٣٢ – عسى لحظةٌ منك لي في غدٍ ... تُمهِّد لي في الجنان القَرارا
٣٣ – فما ضلَّ من بُهداك اهتَدى ... ولاذلَّ من بذراكَ استجارا

---

٢٥ – العبدري « يمن »
٢٧ – الاحاطة « فناديتك لبيك » وبها يكسر الوزن « العبدري « وهل كنت »
٢٨ – العبدري « بحكم الهوى »
٢٩ – العبدري « نطعم »
٣٠ – العبدري : مقطت « لطرت » وفيه « ولما اصادف »
٣١ – العبدري : « نحب ثواك» وهو تحريف ، الاحاطة « محب ثراك »
٣٢ – الاحاطة « من بمسراك اعتدى » واستجار : طلب المعونة ودفع الظلم .

(٢٣)

وقال وهو في زيارة قبره (صلى الله عليه وسلم):

١ – هنيئاً لمن حج بيت الهدى ... وحطَّ عنِ النفس أوزارها
٢ – وإنَّ السّعادة مضمونةٌ ... لمن حلَّ طيبة أوزارها

---

(٢٣) الذيل والتكملة ٦٠٤/٢/٥ . الاحاطة ٢٣٦/٢ – ٢٣٧ ، نفح الطيب ٤٩٣/٢ قال قال شكيب ارسلان في الحلل السندسية ١٢٠/٣ « هذا الجناس المركب قد ورد ايضا في شعر آخر ،فقد قيل في قبر محي الدين بن عربي في صالحية الشام :

قبر محي الدين بن عربي ... كل من لا ذابه اوزاره
قضيت حاجاته من بعدما ... غفر الله له اوزاره.

٢ – الاحاطة والنفح « حج طيبة »

(٢٤)

(من السريع)

وقال في الولاة واحوالهم :

١ – من كُبِّرتْ عن قدره خُطَّةٌ داخَلَهُ من أجلها الكِبْرُ
٢ – ومن سَمتْ همّته لم يَكُنْ لخطّة في نفسه قَدْرُ
٣ – ولايةُ الانسانِ سَكرٌ فما دامَتْ له دام به السُّكْرُ
٤ – مغايظ الدُّنيا وأربابها ليس عليها لامرىء صبْرُ
٥ – دعهم مع الدهر واحداثِه حتى ترى مايصنع الدَّهر

(٢٤) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٣
٤ – الغيظ : الغضب او اشده او سورته ، والمغايظ ، مايدعو الرجل للغيظ

(٢٥)

(من مجزوء الوافر)

وقال في الشكوى من الدهر :

١ – أما في الدّهر معتَبر ففيه الصفو والكدر
٢ – فسلني عن تقلبه فعند جُهينة الخبر
٣ – صحبناه إلى أجلٍ نُراقبه ونحتَذِرُ
٤ – فياعجبًا لمرتحلٍ ولايدري متى السفر

(٢٥) رحلة العبدري ٩٨ .
٢ – في عجز البيت تضمين من المثل المشهور : « عند جهينة الخبر اليقين » مجمع الأمثال ٣/٢

(٢٦)

(من السريع)

وقال في ذم الفلاسفة :

١ – قد ظهرت في عصرنا فرقةٌ ظهورها شؤم على العصر
٢ – لاتقتدي في الدِّين إلا بما سَنَّ ابن سينا وأبو نصر

(٢٦) نفح الطيب ٣٨٥/٢
٢ – يريد الفيلسوفين المشهورين ، ابن سينا وابا نصر الفارابي

(٢٧)

وقال في النقد الاجتماعي وذم الزمان: (من المديد)

١ – رَبَّ إن لم تؤتني سَعَــةً فاطو عنّي فضلةَ العمــرِ
٢ – لا أحب اللبثَ في زمــنٍ حاجتي فيه إلى البشــرِ
٣ – فهُـمُ كسرٌ لمنجَبِــرِ ماهمُ جَبْرٌ لمنكســرِ

(٢٧) نفح الطيب ٢/ ٤٩٢

(٢٨)

قال في الصوت الحسن وسماعه: (من الطويل)

١ – زيادة حسن الصوت في الخلق زينة يروقُ بها لحن القريض المحبر
٢ – ومن لم يحركه السماع بطيبة فذلك أعمى القلب أعمى التصور
٣ – تصيخ إلى الحادي الجمال لواغباً فتوضع في بيدائها غير حسر
٤ – ولله في الارواح عند ارتياحها إلى اللحن سر للورى غير مظهر
٥ – وكل امرىءٍ عابَ السّماع فانه من الجهل في عشوائه غير مبصر
٦ – وأهل الحجا أهل الحجاز وكلهمْ رأوه مباحاً عندهم غيرَ منكرِ
٧ وهامَ به أهل التّصوف رغبةً لتهييج شوق ناره لم تسعرِ
٨ – فان رسولَ الله قد قال زَيّنوا بأصوا تكم آي الكتاب المطهر
٩ – وزانت لداوود النبيِّ زبـوره مزاميـرُه بالنّوح في كل محضر
١٠ – وفي الخلد إسرافيل يسمع أهله فيسليهم المسموعُ عن كل منظر
١١ – فان أكُ مغرى بالسّماع وحسنه فحسبي اقتداء بالكريم ابن جعفرِ

(٢٨) الذيل والتكملة ٦١٥/٢/٥ – ٦١٦ .

١١ – الأبيات تشير إلى مذهب ابن جبير في اباحه الغناء وبعض حججه في ذلك اباحة أهل الحجاز له ، وابن جعفر هو عبدالله بن جعفر بن ابي طالب اول من ولد من المسلمين بارض الحبشة عاش في البصرة والكوفة والشام سمي ببحر الجود لكرمه واتصل به الشاعر أبن قيس الرقيات وانقطع .له وكان عبدالله يصله ولا يقضي عنه دينه ولم ير بسماع الغناء بأساً واجتمع عنده عدد من المغنيين منهم : طويس وصائب ونشيط وبديح . . .
انظر فوات الوفيات ١٧٠/١ تأريخ الموسيقى العربية (فارمر) ٦٢– ٦٩ واخباره في الأغاني والعقد الفريد والكامل.

(٢٩)

قال يكشف عن خلقه الكريم : (من المتقارب)

١ — وإني لأُوثر من أصطفي وأغضي على زلة العاثر

٢ — وأهوى الزيارةَ ممنْ أحبّ لاعتقد الفضلَ للزائر

---

(٢٩) نفح الطيب ٢/ ٩٠

(٣٠)

وقال يمدح صلاح الدين الايوبي (*) : (من التقارب)

١ — اطلت على افقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

٢ — فأبشر فان رقاب العدا تمد إلى سيفك الباتر

٣ — وعما قليل يحل الردى بكندهم الناكث الغادر

٤ — وخصب الورى يوم تسقى الثرى سحائب من دمها الهامر

٥ — فكم لك من فتكة فيهم حكت فتكة الاسد الخادر

---

(٣٠) الروضتين ٢/١٠٥ — ١٠٦ « ١، ٢، ٥ — ٢٤ » ٢/٤—٥ « ٢٥— ٥٦»
رحلة العبدري : ٩٤— ٩٦ « ١ — ٢٥ ، ٢٨ — ٥٦ » الذيل والتكملة ٥/٢/٥٩٨—٦٠١«
١—٢٥ ، ٢٨ — ٥٦ » نفح الطيب ٢/ ٣٨٣ « ١، ٢٥ — ٢٨)

(*) في البيتين ١٩ و ٢٠ اشارة إلى أن القصيدة نظمت بعد فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ أي بعد رحلته الثانية سنة ٥٨٥ هـ حيث يتوجه إلى صلاح الدين مهنئاً ،وفيها اشارة إلى رفع صلاح الدين المكوس عن الحجاج الذاهبين إلى الحجاز ، ارخ ذلك ابو شامة المقدسي بسنة ٥٧٢ هـ (الروضتين ٢/٤) وقد نال الحجاج أذى من رجال الأمن في الاسكندرية، ولذلك يورد العبدري وابو عبد الملك المراكشي القصيدة على انها مما قاله في الاسكندرية (ذي الحجة ٥٧٨ هـ) تنظر الرحلة ١٣ — ١٤ ومقدمة د. محمد مصطفى زيادة الرحلة ١٧ ود الرحالة المسلمون في القرون الوسطى ٧٤ ».

٣ — الكند بضم فسكون فكسر ، كلمة اسبانية (conde) اصلها في اللاتينية(comes) والتي عرفت كذلك عند عرب الاندلس بلفظة قومس وهولقب شرف عند النصارى ورتبة لرؤساء الجيوش من الامراء ، والكند اليوم في المراتب الشريفة يأتي بعد المركيز وقبل البارون (رحلة العبدري ٩٤ هامش ١).

٥ — الروضتين « وكم»

٦ – كسرت صليبهم عنوة فلله درُّك من كاســـر
٧ – وغيرت آثارهم كلهـا فليس لها الدهر من جابر
٨ – وأمضيت جدك في غزوهم فتعساً لجدهم العاثـــر
٩ – فأدبر ملكهم بالشـآم وولى كأمسهم الدابـر
١٠ – جنودك بالرعب منصورة فناجز متى شئت أو صابر
١١ – فكلهم غـارق هـالك بتيـار عسكرك الزاخر
١٢ – ثأرت لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائـــر
١٣ – وقمت بنصر إله الورى فسـماك بالملك النـاصر
١٤ – وجاهدت مجتهدا صابراً فلله درك من صابـــر
١٥ – تبيت الملوك علـى فرشها وترفل في الزرد السابـــرى
١٦ – وتوثر جاهد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضـر
١٧ – وتسهر جفنك في حق من سيرضيك في جفنك الساخر
١٨ – فتحت المقدس من ارضـه فعادت إلى وصفهـا الطاهـر
١٩ – وجبت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافـــر
٢٠ – وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائـر
٢١ – لكم ذخر الله هذي الفتوح من الزمن الاول الغابـــر
٢٢ – وخصك من بعد مازرته بها لاصطناعك في الآخـــر
٢٣ – محبتكم القيت في النفوس بذكر لكم في الورى طائر

---

٩ – الروضتين « وأدبر »

١٠ – العبدري « فناجز » وهو تصحيف والمناجزة : المقاتلة وفي صدر البيت اقتباس من الحديث الشريف ونصه، « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وارسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون » صحيح مسلم ١/ ٣٧١

١١ – الروضتين والذيل « غرق »

١٤ – الروضتين « فلله أجـرك »

١٥ – الذيل « السابر »

٢٤– فكم عند ذكر الملوك لهم بمثلك من مثل سائر
٢٥– رفعت مغارم أهل الحجاز بانعامك الشامل الهامر
٢٦– وأمّنت أكنافَ تلك البلاد فهان السّبيل على العابرِ
٢٧– وسحبُ أياديكَ فيّاضة على وارد وعلى صّادر
٢٨– فكمْ لك بالشرق من حامدٍ وكم لك بالغربِ من شاكر
٢٩– وكم بالدُّعاء لكم كل عامٍ بمكة من معلنٍ جاهر
٣٠– وكم بقيتْ حسبةٌ في الظّلوم وتلك الذّخيرةُ للذّاخر
٣١– يعنف حجاج بيتِ الإله ويسطو بهم سطوةَ الجائر
٣٢– ويكشف عما بأيديهمُ وناهيك عن موقف صاغر
٣٣– وقد أُوقفوا بعدما كوشفوا كأنهم في يد الآسر
٣٤– ويُلزمهمْ حلفاً باطلاً وعُقبى اليمين على الفاجر
٣٥– وإن عرضت بينهم حُرْمَةٌ فليس لها عنه من ساتر
٣٦– أليس يخاف غداً عرضَهُ على الملك القادر القاهر
٣٧– وليسَ على حُرَم المسلمين بتلك المشاهد من غائر
٣٨– ولا حاضر نافع زجره فيا ذلة الحاضر الزاجر
٣٩– الا ناصحٌ مبلغ نصحه إلى الملك الناصر الظافر
٤٠– ظلوم تضمّن مال الزكاة لقد تعست صفقة الخاسر
٤١– يُسِر الخيانةَ في باطن ويبدي النصيحة في الظاهر

---

٢٤ – الذيل « فكم لهم عند ذكر الملوك » ، الروضتين : « لمثلك »
٢٥ – الروضتين والنفح « مكس الحجاز »
٣٠ – الروضتين « وقد بقيت .. في فلان »
٣٣ – الذيل « وقفوا » الروضتين « وقفوا بعدما كوشفوا »
٣٧ – الروضتين « اليس » « من غابر »
٣٨ – الروضتين « الا فيا ذلة الشاهد الحاضر » .
٤١ – الذيل « في ظاهر»

٤٢ــ فأوقعُ به حَادثاً أنـــــه   يقبّح أحدوثـــة الذاكـــر
٤٣ــ فما للمناكِر من زَاجـــر   سواك وبالعرفِ من آمــر
٤٤ــ وحاشاك إن لم تزل رسمَها   فما بالك في النّاس من غـادرِ
٤٥ــ ورفعك أمثالهـا موسِـع   رداء فخارك للنّاشـــر
٤٦ــ وآثارك الغرّ تبقى بهـــا   وتلك المآثر للآثـــر
٤٧ــ نذرتُ النّصيحة في حقّكم   وحق الـوفـاء على النّـاذِر
٤٨ــ وحبك أنطقَـني بالقريـض   وما أبتغـي صِلَة الشّاعـر
٤٩ــ ولاكانَ في ما مضى مكسَبي   وبئسَ البِضاعـةُ للتّاجِـر
٥٠ــ إذا الشّعر صارَ شِعارَ الفتى   فناهيك من لقب شاهِـر
٥١ــ وإن ان تناهى له نّـادرا   فقد قيل : لا حكمَ للنـادر
٥٢ــ ولكنّما خطرات الهوى   تَعن فتلعَبُ بالخَاطـر
٥٣ــ وأما رقد زارَ تلك العلا   فقد فازَ بالشّرف الباهـر
٥٤ــ وان كانَ منك قبولٌ لـــه   فتلك الكرامةُ للزّائــر
٥٥ــ ويكفيه سمعكَ من سامعٍ   ويكفيه لحظكَ من ناظِـرِ
٥٦ــ ويزُهى على الرّوض غِبّ الحيا   بما حازَ من ذِكرِكَ العَاطِرِ

٤٢ – الروضتين « فما للمناكير »
٤٤ – الروضتين « فمالك »
٥٢ – الذيل « تعن فتخلب للخاطر »
٥٥ – العبدري: سقطت ((سمعك)) واول العجز ((ويكفيك لحظك)) .

السين

(٣١)   (من الخفيف)

١ــ ايهـا المستطيل بالبغي أقصر   ربما طَأطأَ الزّمان الرؤوسا
٢ــ وتذكّر قول الاله تعالـى   «إن قارونَ كان من قَوم موسى»

(٣١) رحلة العبدري ٧١ ، نفح الطيب ٢/ ٤٩٢ وانظر هامش ١ حيث يذكر المحقق ان بعض نسخ النفح تنسبها له
١ – في العجز اقتباس من القرآن الكريم سورة القصص ٧٧ .

(٣٢) (من الكامل)

قال في حبيبة وقد جلس بين ثقيلين :

١ـ لو كنت تبصر منذ يوم قد نأى تيسين ضمّهما وظبيا مجلس
٢ـ لعَجبتَ قُبحاً منهما وملاحة منه وقلت حظيرة ام مكنِس ؟

(٣٢) زاد المسافر ١١٤ .
١ - التيس: الذكر في المعز
٢ - المكنس : موضع الظبي في الشجر يكتن فيه ويستتر .

(٣٣)

وقال وقد لاحت له جبال دانيه على ظهر البحر وهو قافل من رحلته الاولى سنة ٥٨١ : (من البسيط)

١ـ لي نحو أرض المنى من شرق اندلس شَوق يؤلفُ بين الماء والقبس
٢ـ لاحت لنا من ذراها الشمُ شاهقةً تدني لزهر الدّراري كفَّ ملتمِس
٣ـ وقد اغذت بنا في اليّم جاريةً سَوداءَ لاتستطيعُ الجرَى في يبَس
٤ـ كأنها وعباب الماء يزعجها تنص جيدَ مراعي اللحظ مختلس
٥ـ كأن بيض نَواحيها اذ انتَشرت لواءُ صُبح بدا في سدفةِ الغَلَس
٦ ـ تنازعَ الريحَ منها صعب مقودها فيرتمي بعنان مسمح سَلَس
٧ ـ لولا حذاري ان اذكي لها لهَبَا زَجيّتها برياح الشّوق في نفسِ
٨ ـ ياليت شعري والآمال معوزةٌ وربما امكنتْ يوماً لمختلس
٩ ـ هل يدنونَ مزارُ الشوق ان بِه ماشئت من نهز للأُنس او خلَس
١٠ ـ وهل تعودن ايامٌ رشفتُ بها سلافة العيش احلى من جنى اللعَس
١١ ـ حيث انبسطنا مع اللذات تنقلنا ايدي المسرات من عيد إلى عرُس

(٣٣) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٠٤ - ٦٠٥ « ١ - ١١» نفح الطيب ٢/٤٨٩ «١»
١ - القبس : شعلة من النار
٥ - السدفة : الظلمة وهي من الاضداد. والغلس : ظلمة آخر الليل
٧ - زجى وأزجى بمعنى ساق ودفع
١٠ - السلاف : ماسال من عصير العنب قبل أن يعصر والخمر وسلافة كل شيء عصرته واوله
واللعس : لون الشفة تضرب إلى السواد وهو يستملح .

(٣٤) (من الوافر)

وقال يخاطب ابا عمران الزاهد(٥) باشبيلية :

١– ابا عِمْران َ قد خلّفتُ قلبي لَديكَ وانت اهلُ للوديعـهْ
٢– صحبت بِكَ الزَّمانَ اخا وفاء فها هو قَدْ تَنَمرَ للقطيعـــهْ

(٣٤) نفح الطيب ٢/٤٨٧ –٤٨٨ .
(٥) ابو عمران موسى بن عمران المارتلي ، و (مارتلة) من حصون باجة ، كان ورعاً زاهداً عابداً له حظ وافر في شعر الزهد ، لازم مسجده باشبيلية سنة ٦٠٤ هـ(التكملة ٢/٧٥٤ ، المغرب ١/٤٠٦ ؛ الغصون اليانعة ١٣٥)

(٣٥) (من مخلع البسيط)

قال يهجو الدهريين :

١ – ضلت بأفعالها الشنيعــهْ طائفة عن هدى الشريعـــهْ
٢ – ليست ترى فاعلاً حكيماً يفعل شيئا سوى الطبيعـهْ

(٣٥) نفح الطيب ٢/ ٣٨٥ .

(٣٦) (من البسيط)

وقال في الزهد :

١ – عجبتُ للمرء في دنياه تطمعه في العيش ُ والأجلُ المحتوم يقطعهُ
٢ – يُمسي ويصبحُ في عَشواءَ يخبطها اعمى البَصيرة والآمالُ تزرَعه
٣ – يغتر بالدَّهرِ مَسروراً بصحبته وقد تيقّن ان الدَّهرَ يَصرَعه
٤ – ويجمع المالَ حرصاً لايفارقه وقد درى انه للغَير يجمعـــه
٥ – تراه يشفق من تَضييع درهمه وليس يشفق من دينٍ يُضيِّعه
٦ – وأسوأ الناسِ تدبيراً لعاقبــة من انفقَ العمر فيما ليس ينفعه

(٣٦) نفح الطيب ٢/ ٤٩٠ .

(٣٧) (من الطويل)

وقال وهو يودع اهله :

١– اقول وقد حَانَ الوَداعُ وأسلمتْ قلوبٌ إلى حكم الاسى ومدامعُ
٢– ايارب اهلي في يَديك وديعةٌ وما عَدِمَتْ صوناً لديك الودائعُ

(٣٧) نفح الطيب ٢/ ٤٨٥

(من السريع) **(٣٨)**

وقال يهجو ابن رشد (*)

١- الحمد لله على نصــــــــره	لفرقــة الحقِ وأشـيـاعـه
٢- كان ابنُ رشد في مدى غيـــه	قد وضعَ الدّين باوضاعـه
٣- حتى اذا اوضع في طُرُقِـه	توّى لفيـــه عند ايضاعـه
٤- فالحمدُ لله علـى اخـــذه	واخـذ من كان من اتباعـه

(٣٨) الذيل والتكملة ٦/ ٣٠

(*) تقدمت ترجمة ابن رشد انظر هامش ق ١٢.

٢ - وضع الرجل في تجارته : صار وضيعا ، ووضع عنه : حط من قدره

٣ - اوضع بين القوم ، افسد ، الوضع ضرب من سير الابل دون الشدة ووضع البعير إذا عدا والايضاع سير مثل الخبب يقال : « قد اوضعت منذ ساعة » يضرب لمن تستبطيء قضاء حاجته ولم تبطؤ بعد التوى مقصور الهلاك وهلاك المال .

الفاء

(من مخلع البسيط) **(٣٩)**

وقال في نكبة ابن رشد

١- الآن قد أيقنَ ابنُ رُشدِ	انّ توالِيفَـــه تَوالِفْ
٢- يا ظالماً نفسَه : تأمل:	هل تَجِد اليوم من يوالِفْ؟

(٣٩) الذيل والتكملة ٦/ ٣٠

(من السريع) **(٤٠)**

وقال يهجو الفلاسفة

١- يا وحشة الاسلام من فرقـة	شاغلةٌ انفسها بالسفـــهْ
٢- قد نبذَتْ دين الهدى خلفهاً	وادّعت الحكمةَ والفلسفه

(٤٠) نفح الطيب ٢/ ٣٨٥ .

(٤١)

وقال يصف القلم من قصيدة : (من الكامل)

١ – قلم به الاقليم أصبح في حمى بشباته صرف الحوادث يُصرَف
٢ – ولئن تقاصرَ قدّه فلقدْه ظلّت له الأسل الطِّوال تقصَّف
٣ – هل تغنينَّ المرهفات غناءه وصليلها لصريره يستضعف
٤ – حَكَتِ الظُّبا والسمرفعلامنه لو (م) لاه لعطِّلَ صَارمٌ ومُثَقَّفُ
٥ – طعن كمثلِ النقط منضافٌ إلى ضَربٍ كما شُكِلَتْ بنقط أحرف
٦ – كلٌّ يتيهُ بأن حوى شبهاً له فانظر إلى المحكي فهو الأشرف
٧ – يكفيه فخراً أنَّ كلَّ مقدَّرٍ يجري بما قد خطّه ويصرَّف

(٤١) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٠

١ – شباة كل شيء حد طرفه

(القـــاف)

(٤٢)

قال يمدح المنصور ويعرض بابن رشد (من مخلع البسيط)

١ – خليفة الله أنتَ حقـاً فارق من السّعد خير مرقى
٢ – حميتَ الدّين من عِـداه وكلٌّ من رام فية فتقـا
٣ – أطلعك الله سرَّ قـوم شقوا العصا بالنفاق شقـا
٤ – تفَلْسَفوا وادَّعوا علوماً صاحبها في المعاد يشقى
٥ – واحتقـروا الشّرعَ وازدروه سفاهة منهم وحُمْقَـا
٦ – اوسعتهم لعنةً وخزيـاً وقلتَ: بعداً لهم وسُحْقَـا
٧ – فابقَ لدينِ الاله كهفاً فإنه ما بقيت يبقـى

(٤٢) الذيل والتكملة ٦/٣١ .

(٤٣)

وقال في الحكمة (من الطويل)

١ ــ عليك بكتمان المصائب واصطبر   عليها فما أبقى الزّمان شفيقا
٢ ــ كفاك من الشكوى إلى الناس أنها   تسرُّ عَدواً أو تَسوء صديقا

(٤٣) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٢ – ٦١٣ ؛ الاحاطة ٢/ ٢٣٧ .
٢ – الاحاطة « كفاك بالشكوى » وبها يكسر البيت وفيها « اوتسيء »
الذيل : « انه تسر »

(٤٤)

وقال يهجو الفلاسفة : (من الكامل)

١ ــ نفذ القضاء بأخذ كل مموّه   متفلسف في دينه متزندقِ
٢ ــ بالمنطقِ اشتغلوا فقيل : حقيقة   «إنَّ البلآء موكلٌ بالمنطِـــق»

(٤٤) الذيل والتكملة ٦/ ٣٠
١ – الأصل : « مزمه » وما اثبتناه جاء في بعض النسخ من الأصل
٢ – عجز البيت من الأمثال قائله ابو بكر الصديق (رض) في اللسان يجر على صاحبه مالا يشتهي وأصل المثل « ان لكل طامة طامة وان البلاء موكل بالمنطق» مجمع الأمثال ١/ ١٧ –١٨

(٤٥)

قال في تفضيل المشرق على المغرب (من الكامل)

١ ــ لايستوي شرقُ البلاد وغربها   الشرق حازَ الفضل باستِرقاقِ
٢ ــ انظر لحالِ الشمس عندطلوعها   زهراءَ تَصْحَب بهجةَ الاشراقِ
٣ ــ وانظُر لها عندَ الغُروب كئيبة   صفراء تَعقب ظلمةَ الآفاقِ
٤ ــ وكفى بيومِ طُلوعها من غربها   أن تؤذن الدنيا بوشكِ فراقِ

(٤٥) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٠ – ٦١١ ،الاحاطة ٢/ ٢٣٧
١ – الاحاطة « باستحقاق » وهو ابلغ
٢ – الاحاطة « انظر إلى جمال الشمس » وبها يكسر البيت
٣ – الاحاطة « وانظر اليها عند الغروب » وبها يكسر البيت
٤ – الاحاطة « بعزم فراق »

(اللام)

(٤٦)

ويقول : (٥) (من المتقارب)

١ – أَخلاءُ هذا الزمان الخؤونِ توالت عليهم حروف العللِ
٢ – تغيّر إخوان هذا الزّمـانِ وكلُّ صديقٍ عرَاهُ الخللِ
٣ – وكانوا قديماً على صحّةٍ فقد داخلتهم حُروفُ العللِ
٤ – قضيت التّعجبَ من أمرهمً فصرتُ أُطالِعُ بابَ البــدَلِ

(٤٦) نفح الطيب ٢/٣٨٤) «٤٠١٠» ٢/٤٩١ «٢–٤» انوار الربيع ٢/ ٢٨٧ «٢– ٤»
(٥) رأى المقرى بخط ابن سعيد رواية بيتين على وجه آخر :
تكـلـت أخـلاء هـذا الزمـان فعـنـدي مما جنـوه خـلـل
قضيت التـعـجب مـن شأنهم فصرت اطالع باب البـدل (ينظر نفح الطيب٢/٤٩١)
٣ – في الأبيات عيب من عيوب القافية هو (الايطاء) وهو اعادة كلمة الروى «العلل» لفظاً ومعنى بدون فاصلة سبعة ابيات
٤ – النفح ٢/٤٩١ «من بابهم»

(٤٧)

وقال يتشوق لأرض الحجاز وقبر النبي: (من المتقارب)

١– اذا بلغ المرء ارض الحجاز فقد نـال افضـل مـاأمله
٢– وان زار قبر نبي الهدى فقد اكمل الله ماأمً لـه

(٤٧) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٠٤ الاحاطة ٢/٢٣٧ ،نفح الطيب ٢/٤٨٨
١ – النفح «بلغ العبد» وآخر البيت «ماأم له»
٢ – النفح «فان زار» وآخر البيت «مأأمله» الاحاطة : آخر البيتين بلفظ واحد «مأأمله» وفي احدهما سهو من الناسخ

(٤٨)

قال في ذم الفلاسفة : (من الوافر)

١– لأشياع الفلاسفة اعتقاد يرون به عن الشرع انحلالا
٢– أباحوا كل محظور حرام وردوه لأنفســـهم حــلالا

٣– وما انتسبوا إلى الاسلام الا لصون دمائهم ان لاتسالا
٤– فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

(٤٨) الذيل والتكملة ٥/٢ ٦١١ .
٤ – في عجز البيت اقتباس من قوله تعالى « ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى » التوبة ٥٤

(٤٩)

وقال في الحكمة والخلق الاسلامي : (من السريع)

اياك والشهرة في ملبس والبس من الأثواب اسمالها
تواضع الأنسان في نفسه اشرف للنفس وأسمى لها

(٤٩) نفح الطيب ٤٥٨/٢ .

(٥٠)

قال يمدح امير المؤمنين المنصور الموحدي : (من الطويل)

١– بلغت امير المؤمنين مدى المنى لأنك قد بلغتنا مانؤمل
٢– قصدت إلى الاسلام تُعلي مناره ومقصدك الأسنى لدى الله يقبل
٣– تداركت دين الله في اخذ فرقة بمنطقهم كان البلاء موكل
٤– اثاروا على الدين الحنيفي فتنة لها نار غي في العقائد تشعل
٥– اقمتهم للناس يبرأ منهم ووجه الهدى من خزيهم يتهلّل
٦– وأوعزت في الاقطار بالبحث عنهم وعن كتبهم والسعي في ذاك اجمل
٧– وقد كان للسيف استباق اليهم ولكن مقام الخزى للنفس اقتلُ
٨– وآثرت درء الحد عنهم بشبهة لظاهر اسلام وحكمك اعدلُ

(٥٠) الذيل والتكملة ٣١/٦
٣ – يريد بالفرقة الفلاسفة وعلى رأسهم ابن رشد وقد تعرض له في قصائد كثيرة وفي عجز البيت اقتباس من المثل الذي قاله ابو بكر الصديق (رض) ق ٤٤ هامش (٢).
٨ – في ابن ماجة باب في الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات « ادفعوا الحدود ماوجدتم ثم له مدفعاً وفي الترمذي – حدود : « ادرأوا الحدود مااستطعتم » .

(٥١)

وقال في الحكمـــــة : (من الطويل)

١– وكم فلتات للصّنائع تُتقى عواقبها إن لم تقع في محلِّها
٢– كذا شهوات المرء إنْ لم تكُنْ له موافقة عادتْ عليها بكلهــا

(٥١) الذيل والتكملة : ٥/٢/٦٠٩.

(٥٢)

وقال في الحكمـــــة : (من البسيط)

١– الناس مثل ظروف حشوها صَبِرٌ وفوق أفواهها شيء من العسل
٢– تغرُّ ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ماتحويه من دخـــل

(٥٢) نفح الطيب ٢/٤٩١
١ – الصبر : عصارة شجر مر

(٥٣)

وقال في الحكمة : (من الكامل)

لصنائع المعروف فلتة غافل إن لم تضعها في محل قابـــل
كالنفس في شهواتها ان لم تكن وفقاً لها عادت بضر عاجل

(٥٣) الذيل والتكملة ٥/٢/٦٠٩ ، الاحاطة ٢/ ٢٣٧
١ – الاحاطة « وصانع المعروف فلتة عاقل » وفي اوله تحريف لا يستقيم به الوزن وفيها « في محل عاقل »
٢ – الاحاطة « وفقاً لها »

(٥٤)

وله من قصيدة مطولة أولها: (من المتقارب)

لعل بشير الرضى والقبول يعلل بالوصل قلب الخليل

(٥٤) نفح الطيب ٢/ ٤٨٧

الميم

(٥٥)

لما وصل ابن جبير إلى مكة في ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ أنشد قصيدته التي أولها : (من المتقارب)

١ ــ بلغتَ المنى وحللت الحرَمْ فعاد شبابك بعد الهرَم
٢ ــ فأهلاً بمكةَ اهلاً بهـا وشكراً لمن شكرُه يلتزم

وهي طويلـة وآخرها :

٣ ــ نبيٌّ شفاعته عصمـة فيوم التّنادى به يعتصم
٤ ــ عسى ان نُجاب لنا دعوة لديه فنكفى بها ماأهـم
٥ ــ ويرعى لزوّاره في غـد ذماماً فما زالَ يرعى الذِّمم
٦ ــ عليه السلام وطوبى لمـن ألمَّ بتربتـه فاستلـم
٧ ــ اخي كم نتابع اهواءنـا ونخبِط عشواءها في الظُّلم
٨ ــ رويدك جرت فعجْ واقتصدْ امامك نهجُ الطريق الأعمْ
٩ ــ وتُبْ قبل عضَّ بنان الأسى ومن قبل قرعك سنَّ النـدم

ومنها :

١٠ ــ وقل ربِّ هبْ رحمةً في غد لعبدٍ بسيما العُصاة اتسم
١١ ــ جرى في ميادين عصيانـه مسيئاً ودان بكفر النعـم
١٢ ــ فيارب صفحك عما جنى ويارب عفوك عما اجترم

---

(٥٥) نفح الطيب ٢/ ٤٩٢ ــ ٤٩٤ .

٩ ــ في البيت اقتباس من المثل « قرع سن الندم » المستقصى ٢/ ١٩٦ .

قال يحرض السلطان صلاح الدين الأيوبي على النظر فيما ظهرت من البدع بالمدينة على دفينها الصلاة والسلام (*) (من الوافر)

١ — صلاح الدين انت له نظام   فما يخشى لعروته انفصَامُ
٢ — فأظهرْ سُنّة الله احتساباً   فقد ظهرت بها البِدعُ العظام
٣ — وفي دين الهدى حدثت امور   بها للدّين حزن واغتمام
٤ — جديرٌ ان يقام لها ارتماضاً   مآتم للورى فيها التدام
٥ — وكيف يلذّ للأجفان نومٌ   وللاسلام جفنٌ لاينام
٦ — وكيف تطيب في الدنيا حياة   وطيبةُ لا يطيبُ بها مُقام
٧ — بتربتها رسول الله ثاوٍ   وليس لأهلها منه احتشام
٨ — لو احترَموه هَابوه يَوماً   لكانَ لصحبه معه احترام
٩ — وهل يَرضى صَلاتهم عليه   اذا سُبّتْ صَحابتُه الكرام
١٠ — بأم المؤمنينَ قد استهانُوا   وللصديق والفَاروق ذَاموا
١١ — عَزوا بعد النّبي لهم ضَلالاً   لقد ضَلّ الغواةُ ما استقاموا
١٢ — و سنّته اضاعوها امتهاناً   فما لهم بواجبها اهتمام
١٣ — وليس يَذلّ عندَهم سوى من   له بجميلِ مذهبها ارتسام
١٤ — وما يَرعونَ ذمّة زائريه   وللذّمي قد يُرعى الذّمام
١٥ — ومسجدُه المباركُ عاد سوقاً   لهم فيها على اللّهو ازدِحام
١٦ — يعيدُ به الصّلاة مؤذنوه   وما بأمامهم لهم ائتمام
١٧ — اذا قَاموا لها قَاموا كسالى   على كره كأنّهم نِيام
١٨ — يضيعون المَواقيت اقتصاداً   ليعدمِ للصّلاةِ به انتظام
١٩ — وروضتَه المقدّسة استباحوا   مَهابتها فأدمعها سِجَام
٢٠ — أذا حتّموا بها لَعبوا ازدراءً   وكان لهم بتربتها انتخِام

٢١ — وقاموا للسّلام وفيه لَعْنٌ ‏ ‏ لقد ساءَ الهدى ذاكَ المَقام

٢٢ — ويَرقى فوقَ منبره خطيب ‏ ‏ له في الدين خَطبٌ لايرام

٢٣ — هو القاضي وحَسبكَ من قضاءٍ ‏ ‏ له بالجَور في الشّرع احتِكام

٢٤ — يغرُهمُ لفاطمة انتِساب ‏ ‏ وما لهم بحرمتها التِئام

٢٥ — وهَلْ يغني انتِسابهم اليها ‏ ‏ وعن دينِ الهدى لهم انْصِرام

٢٦ — ونوحٌ لابنه لم يغنِ شيئاً ‏ ‏ ولا اغناهُ بالجَبل اعتصام

٢٧ — اعزّ الله بالاسلام قوماً ‏ ‏ فليسَ له بغيرِهم قَوام

٢٨ — فذلّت فِرقة طعنت عليهمْ ‏ ‏ وهيلَ على أنوفهم الرّغام

٢٩ — وكيف يعزّ عندَ الله قَومٌ ‏ ‏ ودينُ الله بينهم يضام

٣٠ — نقوم الى الصّلاةِ وهم قعودٌ ‏ ‏ ويَعلو عِندَها لهمُ الكَلام

٣١ — بلعنٍ صمّتَ الآذانُ منه ‏ ‏ وسبَ للصحابة يستَدام

٣٢ — وتَقرأ بين ايديهم جِهاراً ‏ ‏ تَوالف كلها زُورٌ سخَام

٣٣ — ويَسعى بينَ أيدينا اعتِراضاً ‏ ‏ لقطعِ صَلاتِنا منهمُ طَغَام

٢٤ — فلا المَأموم يَدرى ما يُصلّي ‏ ‏ ولا يَدري بما صلّى الإمام

٣٥ — تَراهم يَسخرون بِنا احتِقارا ‏ ‏ وللأحقادِ عندَهم احتِدام

٣٦ — ويعتَقِدونَنا نَجساً خَبيثاً ‏ ‏ فليسَ لهم لجانِبنا انضِمام

٣٧ — يرونَ الجَمع للاختَين حِلاً ‏ ‏ وتعطَى البِنتُ ما يَرِث الغلام

٣٨ — وما التّجميعُ عندَهم بشَرعٍ ‏ ‏ لقد تاهوا بباطِلِهم وهاموا

٣٩ — يُقيمونَ الصّلاةَ وهم فُرادى ‏ ‏ لقد شردوا كما شرد النّعامُ

٤٠ — وليسَ لهم من الاسلام حظ ‏ ‏ ولو صَلوا مدى الدُّنيا وصَاموا

٤١ — ومن قد خالفَ السّلف ابتداعاً ‏ ‏ أتنفعه الصّلاة أوِ الصِّيام

٤٢ — لقد مَرقوا من الدّين اعتداء ‏ ‏ كما مَرقتْ من المرمى السِّهام

٤٣ – لهمْ من أهل مذهبهم شيوخٌ   أقاموا بينَ أظهرهم ودَاموا
٤٤ – فكم غمر أضلُّوا واستزلّوا   فحُمَّ على الضّلاَل له الحِمام
٤٥ – وكم غرٍ ببذلِ المال غرُّوا   فكانَ على الحُطَام له انحِطام
٤٦ – فأضرم بالمدينة نار غيٍّ   أبت الا يـَزالَ لها اضطرام
٤٧ – وأوسع اهلها بِرِاً وُبِراً   فكان لَهم على الغيِّ اقتحام
٤٨ – فما يُرجى لهم أبداً فَلاح   ولا رشدٌ وهل يُرجى الجَهام
٤٩ – وما لهم الى خيرٍ مضاءٌ   مدى الدّنيا وهل يَمضي الكَـهام
٥٠ – لَعمرُك إنهم داء عُضَالٌ   وما يسوى الحُسام له انحِسامُ
٥١ – ومن لم يرض حكم الله شرعاً   فما دَمه لسافكه حَرَام
٥٢ – إذا انحطَّ الرَّعية في هَوَاها   ولم تَردَعْ فراعيها يُلام
٥٣ – وان نشأت عوارضُ للاعادي   فَبرقُ السّيف اول ما يُشامُ
٥٤ – فأمض الهمّة العليا اليهم   وجَاهدْ ايها الملكُ الهُمام
٥٥ – وأرض المُصطفى في صاحبيه   بنصرٍ لايفلَّ له اعتزام
٥٦ – أتاكَ رضاه عفواً فاغتنمه   لما ترجو وحقَّ له اغتنام
٥٧ – أيقبَلُ منك عندَ الله عُذر   ومالك من اعاديه انتقام
٥٨ – وما نالَ الحجاز بكم صَلاحاً   وقد نالته مِصرٌ والشّام
٥٩ – ولولا هَيبةٌ لدفينهم لم   تُحجَّ الكعبة البيت الحرام
٦٠ – فإن اسلمتَ دِين الله فيها   على الدُّنيا وساكنها السّلام

---

(٥٦) الذيل والتكملة ٦١٧/٢/٥ – ٦٢٠ « ١ – ٦٥ » ،نفح الطيب ٣٨٤/٢ « ٥٧»

٤ – ارتمض فلان من كذا : اشتد عليه واقلقه ،وارتمض له : حدب له ، التدم : اضطرب

١٧ – في صدر البيت اقتباس من قوله تعالى « واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » النساء ١٤٢

٢٠ – تنخم : دفع بشيء في صدره أو انفه

٥٠ – الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه

٥١ – الكهام : السيف الكليل .

(٥٧)

وقال وقد تحرك للرحلة الحجازية : (من الوافر)

١ — أقول وقد دعا للخير داعٍ حَنَنْتُ له حَنينَ المُستَهام
٢ — حَرام أن يَحل بـي اعتياض ولم ارحَلْ الى البيتِ الحَرامِ
٣ — فلا طَافَتْ بي الآمالُ ان لم أطف ما بينَ زَمزَمٍ والمقامَ
٤ — ولا طَابت حَياةٌ لي اذا لم أزرْ في طَيبةٍ خيرَ الأنــام
٥ — فأهديه السَّلام وأقتضيه رِضا يُدني الى دارِ السَّلام

(٥٧) زاد المسافر ١١٥ ، نفح الطيب ٢/ ٤٩٣
٢ — النفح « ان يلذ لي اغتماض » والاعتياض : طلب العوض
٣ — النفح « ولا طافت »
٥ — النفح « وأهديه »

«النون»

(٥٨)

وقال يهنىء حجاجاً اجتمع بهم في مكة — شرفها الله — وتشوق اليهم :

(من الرمل)

١ — ياوفودَ الله فُزتُم بالمُنى فهنيئاً لكم أهلَ مِنــى
٢ — قد عَرَفْنا عرفات معَكم فلهذا برَّحَ الشـوقُ بنـا
٣ — نحنُ بالمغرب نُجري ذِكركم فغُروبُ الدَّمع تَجري هَتَنا
٤ — أنتمُ الاحبابُ نشكو بعدكم هل شكوتم بُعدنا من بَعدنا
٥ — علّنا نَلقَى خَيالاً منكم بلذيذ الذِّكر وَهْناً عَلّنا
٦ — لوحّنا الدَّهر علينا لقَضى باجتماعٍ بكمُ في المُنحَنى
٧ — لاحَ برقٌ موهِناً من ارضكم فلعَمري ماهَنا العَيشُ هنا
٨ — صَدَعَ اللّيلُ وميضاً وَسَناً فأبَينا ان نَذُوقَ الوَسَنا
٩ — كم جَنى الشوق علينا من أسى عاد في مَرضاتِكم حُلو الجَنى
١٠ — ولكم بالخيف من قَلب شجٍ لم يزل خوفَ النوى يَشكو الضنى

١١ — ما ارتضى جانحةَ الصدرِ له سَكَناً منذ به قد سكنا
١٢ — فيناديه علىشَحْطِالنّوى من لنا يَوما بقلبٍ ملّنا
١٣ — سِرْبِنا ياحَادِي العيسعَسَى أن نلاقي يومَ جمع سِربنا
١٤ — ما عَنَى داعي النّوىلمادعى غيرَ صَبّ شَفّة بَرح العَنا
١٥ — شِمْ لنا البَرقَ اذا لاحوقلْ جَمَعَ الله بجمعٍ شَمْلَنا

(٥٨) المغرب : ٣٨٥/٢ « ١— ٣» الذيل والتكملة ٦١٤/٢/٥ « ١— ١٥» نفح الطيب ٤٨٦/٢ — ٤٨٧ «١ — ٧» (١٢ — ١٥)

٢ — المغرب والنفح « عرفات بعدكم»
٣ — النفح « نحن في الغرب ويجري ذكركم بغروب » المغرب : «وغروب الدمع تجري بيننا»
٦ — النفح « بالمنحنى »
٧ — النفح « من نحوكم »
١٢ — الشحط : البعد
١٣ — النفح « ياحادي الركب»
١٤ — النفح « مادعا »
١٥ — الذيل « إذا هب » وشام البرق : نظر إلى سحابته اين تمطر.

(٥٩)

وقال يتشوق لوطنه :

(من التقارب)

١ — غريبٌ تذكّر أوطانه فهيّج بالذكرِ اشجانه
٢ — يحلّ عرى صَبْره بالأسى ويعقد بالنّجمِ أجفانه
٣ — ويرسلُ للغرب من دَمعه غروباً لتَسقي سُكّانه

(٥٩) زاد المسافر ١١٥ « ١ — ٢» المغرب ٣٨٥/٢ «١— ٣» نفح الطيب ٣٨٤/٢ « ١—٣»

٢ — المغرب « يحل جواه عقود العزاء »

(٦٠)

وقال وقد شهد العيد بطندقة من قرى مصر :

(من الطويل)

١ـ شَهدنا صَلاة العيد في ارض غربة ٍ بأحواز مصر والأحبة قد بَانوا

٢ـ فقلت لخلّي في النوى جُد بدَمعة ٍ فَلَيس لنا الا المدامعَ قُربانُ

(٦٠) رحلة العبدري ٧١ ، نفح الطيب ٢/٩٢؛

٢ – النفح « جد بمدمع »

الزاء

(٦١)

قال في الحكمة والخلق الاسلامي :

(من الطويل)

١ـ تنزّة عن العوراء مهما سمعتها صيانةَ نفس فهو بالحرّ أشبه

٢ـ اذا انت جاوبت السفيه مشاتماً فمن يتلقى الشتّم بالشتّم أسفه

(٦١) نفح الطيب ٢/٥٨٥؛

(٦٢) الياء

قال في ذم الفلاسفة :

(من المجتث)

١ – قل للزنادق عنّي قولاً هو السيفُ أُمضيه

٢ – أرسلتُ شِعري فيكم يَغزوكم بقَوافيه

٣ – صدَعت لله فيه بالحق والحقُ يُرضيه

٤ – كم ظامئ لكلامي يَرويه عَجباً فَيرويه

٥ – وكمْ غَليل فؤاد بصحة القول يَشفيه

٦ – وراكب لهواه عَساه يَوماً سَيُثنيه

٧ – لعلّكم انْ تَقولوا فإنكّم أهل تَمويه

٨ – من كانَ جاهلَ شيء فلا يَزالُ يُعاديه

٩ – هَيهاتَ بغضيَ فيكم في الله والله يَدريه

١٠ – وذلكَ العِلمُ عِندي لاخيرَ فيكمْ ولافِيه

(٦٢) الذيل والتكملة ٥/٢/٦١٢

(٦٣)

وقال في جارية تركها بغرناطة : (من مخلع البسيط)

١ – طُول اغترابٍ وبَرح شَوقٍ ... لاصَبْرَ والله لي عَلَيـه

٢ – اليكَ اشكو الّذي أُلاقي ... ياخَيْرَ من يُشتكى إليـه

٣ – ولي بغرناطةٍ حَبِيب ... قـد غَلّقَ الرّهنَ في يَدَيْه

٤ – ودّعته وهو بارتماض ... يَظهر لي بعضَ مالديه

٥ – فلو تَرى طَلَّ نَرجسيهُ ... يَنْهَلُ في ورد صَفحتَيه

٦ – أبصرتَ دراً على عَقيقٍ ... من دَمعه فوقَ وَجنتَيه

(٦٣) المغرب ٢/ ٣٨٤ – ٣٨٥ ؛ نفح الطيب ٢/٣٨٦

٤ – النفح « وهو في دلال » والارتماض من قولهم : ارتمض فلان من كذا بمعنى اشتد عليه واقلقه

٥ – النفح « في ورد وجنتيه »

٦ – النفح « فوق صفحتيه »

(٦٤)

قال لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفاً : (من المقارب)

١ – بدَتْ لي أعلامُ بيتِ الهُدى ... بمكةَ والنور باد عَليـه

٢ – فأحرمت شوقاً له بالهوى ... وأهديت قَلبي هَدْياً إليـه

(٦٤) نفح الطيب ٢/ ٣٨٤

(٦٥)

ومن أبدع ماأنشده اول رحلته الى الديار المقدسة :

(من الخفيف)

١ – طالَ شَوقي الى بقاعٍ ثَلاث ... لاتشدّ الرِّحالُ الا اليـها

٢ – إنّ للنفس في سَماءِ الأماني ... طائراً لايَحوم الا عليهـا

٣ – قُصَّ منه الجَناحُ فهو مَهيضٌ ... كلَّ يَومٍ يَرجو الوقوع لديها

(٦٥) نفح الطيب ٢/ ٤٨٨

١ – في البيت اقتباس من الحديث الشريف « لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » صحيح البخاري /٢/ ٧٣ »

(٦٦)

وقال يذم الفلاسفة :

(من المجتث)

١ – الدِّين يشكو بَلِيَّه	من فِرقَة منطِقيه
٢ – لايشهَدون صلاةً	الا لمعنى التَّقيه
٣ – ولا تَرى الشَّرع الا	سياسة مدنيه
٤ – ويؤثِرونَ عَليه	مذاهباً فلسفيه

(٦٦) الذيل والتكملة ٥/٢/ ٦١١ – ٦١٢

(٦٧)

وقال ابن جبير في رحلته :

(من مجزوء الخفيف)

١ – سيكون الذي قُضِي | سَخِطَ العَبد او رَضِي

(الألف)

(٦٨)

قال حين دخل بغداد فاقتطع غصناً نضيراً فذوى في يده :

(من مجزوء الرجز)

١ – لاتغترب عن وطنٍ	واذكر تصاريفَ النَّوى
٢ – اما تَرى الغُصن اذا	مافارقَ الأَصلَ ذَوى

(٦٧) رحلة ابن جبير ٢٨٩ .
(٦٨) نفح الطيب ٢/ ٣٨٢

المصادر والمراجع

١ – الاحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) حـ١ – ٢ ط مؤسسة الخانجي القاهرة سنة ١٩٧٣ – ١٩٧٤.

٢ – أدب الرحلات في الاسلام، احمد أبو سعد مقال بمجلة الثقافة العربية العدد ٩ السنة الثالثة ايلول ليبيا ١٩٧٦ .

٣ – ادب الرحلة عند العرب ؛ الدكتور حسني محمود حسني ، المكتبة الثقافية رقم ٣٣٥ القاهرة ١٩٧٦

٤ – انوار الربيع في انواع البديع ، علي صدر الدين بن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) تحقيق شاكر هادي شكر طه النعمان النجف ١٩٦٩ م .

٥ – ايضاح المكنون ، اسماعيل باشا جـ١ مكتبة الاسلامية والجعفري تبريزي. طهران ١٩٤٧

٦ – بدائع البدائه ، ابن ظافر الأزدي (ت ٦٤٣ هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . ط١ الانجلو مصرية القاهرة ١٩٧٠م .

٧ – التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة، الدكتور عبد الرحمن الحجي ط١ دار القلم دمشق ١٩٧٦م .

٨ – تاريخ الادب الجغرافي، اغناطيوس كراتشكوفسكي ط ١ – ٢ ترجمة صلاح الدين عثمان لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧.

٩ – تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس، الدكتور حسين مؤنس معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٦٧ م

١٠ – تاريخ الفكر الاندلسي ؛ بالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ط١ النهضة المصرية ١٩٥٥ م .

١١ – تاريخ الموسيقى العربية هـ،ج فارمر ترجمة الدكتور حسين نصار مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني مكتبة مصر بالفجالة ب.ت

١٢ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع «(ذيل الروضتين)، ابو شامة المقدسي ط بيروت

١٣ — التعريفات : ابوالحسن الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨م القاهرة

١٤ — التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار البلنسي (ت ٦٥٩هـ) ط العطار ١٩٥٥ م

١٥ — التكملة لوفيات النقلة، ابو محمد المنذري (ت ٦٥٦ هـ) جـ١ — ٨ تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ط الاداب النجف ١٩٧١م .

١٦ — الحلل السندسية، شكيب ارسلان ط دار مكتبة الحياة بيروت ب.ت

١٧ — دائرة المعارف الاسلامية، مجموعة المستشرقين ترجمة محمد الفندي — احمد الشنتناوي — ابراهيم خورشيد ١٩٣٣م.

١٨ — ديوان ابن رشيق القيرواني، جمع وتحقيق عبدالرحمن ياغي — دار الثقافة بيروت .

١٩ — الذيل والتكملة، ابن عبدالملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ)
السفر الاول بقسمين تحقيق محمد بن شريفة دار الثقافة بيروت
بقية السفر الرابع تحقيق احسان عباس بيروت ١٩٦٤
السفر الخامس بقسمين احسان عباس بيروت ١٩٦٥
السفر السادس احسان عباس بيروت ١٩٦٥

٢٠ — الرحالة المسلمون في القرون الوسطى، الدكتور زكي محمد حسن دار المعارف ١٩٦٥ م القاهرة

٢١ — رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار . مكتبة مصر ١٩٥٥م

٢٢ — رحلة ابن جبير تقديم محمد مصطفى زيادة دار التحرير القاهرة ١٩٦٨

٢٣ — رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت بيروت ١٩٦٤م

٢٤ — رحلة ابن جبير، الدكتور حسين نصار مقال. بمجلة تراث الانسانية المجلد ١ وزارة الثقافة والارشاد . القاهرة ب.ت.

٢٥ – رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، العبدري (ت بعد ٦٨٨هـ) تحقيق محمد الفاسي سلسلة الرحلات ٤ حجازية ١ المغرب ب. ت
٢٦ – رحلة العبدري،العبدري. ط البعث قسطنطينة كلية الآداب الجزائر ب. ت
٢٧ – الرحلات، الدكتور شوقي ضيف سلسلة فنون الادب العربي . الفن القصصي ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٥٦م
٢٨ – الروضتين في اخبار الدولتين .شهاب الدين ابو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) دار الجيل بيروت ط وادي النيل القاهرة ١٢٨٨هـ
٢٩ – سنن ابي داؤد، ابو داؤد الأزدي السجستاني والبابي الحلبي القاهرة ١٩٥٢م
٣٠ – شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩) . المكتب التجاري بيروت
٣١ – الشعر في عهد المرابطين والموحدين ،الدكتور محمد مجيد السعيد اطروحة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٧
٣٢ – ابن صارة الاندلسي حياته وشعره (ت ٥١٧هـ) الدكتور مصطفى عوض الكريم ط مصر. الخرطوم
٣٣ – صحيح البخاري . البخاري ط محمد علي صبيح واولاده القاهرة
٣٤ – صحيح مسلم، مسلم ط دار احياء الكتب العربية ١٩٥٥ القاهرة
٣٥ – طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين ابو نصر عبدالوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ) ط الحسينية القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
٣٦ – غاية النهاية، ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) جـ١ – ٢ نشرة ج – برجستر آسر ط الخانجي القاهرة ١٩٣٣م .
٣٧ – في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي – دار النهضة بيروت ١٩٧١

٣٨ ــ فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) جـ١ ــ ٤ تحقيق الدكتور احسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٤م .

٣٩ ــ قدماء ومعاصرون، الدكتور سامي الدهان دار المعارف بمصر ١٩٦١م.

٤٠ ــ كشف الظنون، حاجي خليفة الكاتب الجلبي (ت ١٠٦٧هـ) ط الاسلامية طهران ١٩٤٧م

٤١ ــ مجمع الأمثال. الميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط٣ دار الفكر بيروت ١٩٧٢ .

٤٢ ــ المستقصى في أمثال العرب. الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تحقيق الدكتور محمد عبد المعيد خان ط العثمانية. حيدراباد. الهند ١٩٦٢.

٤٣ ــ معرفة القراء الكبار ، الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق سيد جاد الحق ط١ دار الكتب الحديثة القاهرة ب.ت

٤٤ ــ المغرب في حلى المغرب، ستة من بني سعيد آخرهم علي بن موسى (ت ٦٧٢هـ) جـ١ ــ ٢ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٤م

٤٥ ــ المقتضب من كتاب تحفة القادم ، ابن الأبار القضاعي (ت ٦٥٨هـ) اختيار ابي اسحاق البلقيفي تحقيق ابراهيم الابياري ط الاميرية القاهرة ١٩٥٧م

٤٦ ــ النجوم الزاهرة ابن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) ط المؤسسة المصرية العامة القاهرة ب.ت .

٤٧ ــ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المقري التلمسانى (ت١٠٤١هـ) تحقيق الدكتور احسان عباس ط١ دار صادر بيروت ١٩٦٨

٤٨ ــ النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب . الدكتور جمال الدين سرور ط ٤ دار الفكر العربي ١٩٦٤م.

اللّيلُ في الشِعرِ الجاهِليّ

جليل رشيد فالح


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منهج البحث :

يزخر ديوان الشعر العربي في الحقبة الجاهلية بألوان شتى من اللوحات الوصفية عن الطبيعة بكل عناصرها ومكوناتها ، لذلك لم يكن ظاهرة غريبة أن يتمثل الشعر الطبيعة بحركتها وسكونها ، وبأحداثها المرئية المشهودة ، وما توحي به من أمور متخيلة غير مرئية .. فانعقدت دراسات عن الطبيعة في الشعر الجاهلي تكشف عن عمق أثرها في حياة الانسان العربي ، وانعكاس مظاهرها في الشعر انعكاساً قائماً على التفاعل الصميم بين الطبيعة والشاعر .

ورأيت أن هذه الدراسات لم تول ظاهرة الليل — وهي ابرز ظواهر الطبيعة — اهتماماً يذكر ، سوى شذرات لاتتجاوز حد الاشارة والتلميح .

واذا كان بين الشاعر والطبيعة من حوله هذا التفاعل الحيوي الفعال فان الليل الزمن يغطي من مساحة حياته شطر المناصفة .

فكان هذا البحث — لذلك — خطوة متأنية كان باعثها الرغبة في دراسة هذه الظاهرة دراسة انبثقت خطوطها من طبيعة الحديث الخاص للشاعر عن الليل .

ومن خلال النصوص الشعرية تبين أن الليل صور مختلفة شتى ، يجمع بينها رباط نفسي ، وتؤلف بين أجزائها مشاعر ذاتية تستوحى ابعادها من الليل الزمن ، فيتحول من خلال هذا التفاعل الى ليل نفسي تنسفح على صفحاته دفقات تلك المشاعر الذاتية والخلجات الوجدانية .

ومن خلال هذا الملحظ الفني ينبثق خطان واضحان متميزان احتويا تلك المشاعر وتوزعا تلك الخلجات . فكان حصيلة ذلك ان تحدد هذا الخطان

في ليل الرهبة وليل الالفة .

وازاء هذين الخطين يبدو لنا . من خلال النصوص المتفرقة ــ ان هناك خطاً آخر . هو خط الليل الزمن ــ ، الا ان ملامحه لاتحمل من القوة ما نلحظه في ذينك الخطين الواضحين المتسمين بالقوة والفاعلية . وكان من مقتضيات الوفاء بمتطلبات الدراسة أن عقدنا له حديثاً وجيزاً من خلال أمثلته وشواهده دون الحاجة الى التفصيل والاسهاب ، لضيق دلالته التي تكون بمعزل عن الحدث الرئيس في النص ، فهو لايعدو ان يكون غير وعاء للحدث فحسب .

وكان ثمة لزام أن نوضح مدلول الرهبة والألفة وابعادهما النفسية العامة ليتسق لنا المنهج في توزيع عناصرهما توزيعاً ينأى بعض الشيء عن التعسف والتكلف .

ثم إن الليل في امثلة الرهبة والالفة يشكل الجزء الفعال في مجمل لوحة الحدث ، بحيث انه لو انسل عنصر الليل من اللوحة لما كان لها تلك الحيوية الفاعلة ، والخاصية المتميزة في تجسيده معنى الرهبة او الألفة .

ومن أجل ذلك كانت هناك ــ في الجزء الأخير من البحث ــ دراسة فنية تكشف عن الدلالات المنسجمةمع عنصر الليل من الفاظ وتراكيب وموسيقى وصور ، تتضح من خلال هذه العناصر الفنية أهمية وجود الليل الذي يعطي الحدث ــ كما أشرنا ــ مدلوله الحيوي رهبة كان او ألفة .

مدلول الرهبة والألفة :

خشية ان تذهب الظنون الى حصر معنى الرهبة ــ بصورة خاصة ــ في الفزع والخوف بمعياره العام المتعارف عليه ، نود ان نشير الى ان الرهبة التي جعلناها ملمحاً من ملامح الليل من خلال شعر هذه الحقبة انما نريد بها كل ما يستشفه الشاعر ويستشعره من امور يجدها من الأهمية القصوى بحيث تشغل باله وتستحوذ على حواسه ، وقد يكون

هذا الجو النفسي الذي يرسمه الشاعر باعثاً على الخوف او الفزع الى حد معين ، وقد يكون عنصر الخوف او الفزع ضرورياً وايجابياً في منح الفكرة حركة وفعالية .

فالرهبة إذن تعنى ان الموضوع بدرجة بالغة الأهمية تستوفز إزاءه احاسيس الشاعر لمواجهة موقف عسير بحيث تعتريه حالة من القلق والاضطراب الوجداني وعندئذ يكون لمجابهته أو تصديه معنى خاص يضفى على الحدث فعالية تلفت الأنظار وتدعو الى شيء من الإعجاب ولو في حدود اعجاب الشاعر بنفسه .

أما الألفة فأنها تعني كل الأحداث التي تتحرك في دائرة من الأجواء النفسية الهادئة الساكنة ، التي تنساب من خلالها المشاعر والاحاسيس ازاء الليل الزمن في رقة ودعة وشفافية يحس الشاعر ازاءها ان ليلهذا أنيس ودود وسمير حبيب الى النفس ، فيسرى بذلك — من خلال لوحة الليل — ارتياح نفسي إلى اعماقه .. وكأن الليل هنا مرآة يشهد عليها خلجات نفسه الوادعة الأنيسة .

الشاعر والطبيعة :ـ

يشكل الليل جزءاً مهماً من أجزاء الطبيعة ، ولما كان الشاعر يتفاعل مع الطبيعة بكل أبعادها فإن من الضرورة التحدث عن علاقة الشاعر بالطبيعة عامة ، وتبيان موقفه منها وقدرته على توظيف عناصرها ومكوناتها في عمله الفني ،وصولاً إلى تمثل أبعاد اللوحة المتمثلة في الليل ،ليبدو لنا — بالتالي — أن منهج تعامله مع الليل إن هو الا صورة من صور تعامله مع الطبيعة التي يضطرب ضمن اطارها العام ؛ إذ أن ارتباط الانسان الجاهلي بالطبيعة إنما هو ارتباط عضوي لا انفصام بينهما ، ذلك أنه حين يفتح عينيه على ماحوله يرى نفسه وهو في صميم الطبيعة المترامية الفسيحة جزءاً منها لايتجزأ .

والطبيعة هي التي تحدد مساره وانطلاقته ، بل هي التي ترسم له مناهج الحركة ضمن الأطر النفسية والسلوكية والاجتماعية المنبثقة من طبيعة هذا الوجود المحدد بسمات خاصة ، والتي تحلو مظاهرها في عينيه تارة ،وتبدو تارة أُخرى — كالحة كئيبة ، وثالثة تظهر قاسية جافية .

والشاعر هو اللسان المعبر عن معاناة الانسان الذي يضطرب ضمن اطار الطبيعة المحدودة رغم امتدادها المترامي وتعدد عناصرها ،ومن هنا كان تعامله مع الطبيعة قائماً على التأثر والخوض في اعماق المشاهدات الحسية ليستجلي بما وراء الأشياء صورة عالمه النفسي ، عالم المشاعر والأمنيات . عالم البحث عن الأمثل الأفضل.

ولذلك كان من التجني على شعر الطبيعة أن يرى محمد زكي العشماوي « أن شعر الطبيعة في الأدب العربي لم يكن في معظمه أكثر من تسجيلات لأدراكات حسية تظهر فيها مهارة الشاعر في الوصف.والتشبيه أعطاء صور متشابهة للشيء الذي يراه دون أن يتعمق إلى التعبير عن حالات روحية ، أو دون أن يشعرنا باندماج الشاعر مع الطبيعة وغنائه لها » (١)

ذلك أن الطبيعة جزء من وجود الشاعر ، فهو يرى نفسه من خلال حركة العناصر في هذه الطبيعة ،وان كان في بعض أجزائها صامتة لاتتكلم ،رابضة لاتريم.

وكان حديث الشاعر الجاهلي عن الطبيعة متصلاً بدقائق الأشياء ،فقد استوعب في شعره كل ماحوته الطبيعة من عناصر تدل على انسجام وألفة وارتباط . كما تدل على وعي فني متكامل .

« وقد وهب الشاعر حساً دقيقاً بوحدات الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات وأصوات اصدائها التي تتجاوب فيها إذا جنّ الليل . وذهبوا مع مع الأوهام في تصور مصادرها ، فاعتقدوا انها من الجن تارة وانها من غير الجن تارة أُخرى » (٢)

---

(١) الأدب وقيم الحياة المعاصرة ص ٤٠٧

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ٢٣٦

وحين يكون اهتمام الشاعر بالطبيعة من حوله على هذا النحو الذي أسلفنا ،فليس من الغرابة ان نتلمس عنده لعناصر الطبيعة ومجاليها لوحات تحتاج إلى استجلاء وبحث ، ذلك أن الوقفات الجزئية عند بعض هذه المظاهر تحملنا على تأمل أطول وأدق ،حتّى نصل انفسنا مع الشاعر في تملي معالم الجمال من خلال الرؤية الخاصة للشاعر.

« على أن العربي لماح يكتفي بنظرة إلى الشيء ، ولا يريد أن يطيلها ويتعرف تفاصيله. والشاعر بنوع خاص لايهمه الموصوف كله ، وانما يهمه منه شيات معينة ومعالم خاصة فهو يتحدث عنها ويدع غيرها ، ولقد يعود إلى فكرة سابقة ليزيدها وضوحاً او ليزيد نفسه رضا بتصويره الذي صوره(١)

الا ان هذه الشيات والمعالم تمثل لنا نقاط التلاحم الضارب بجذوره في أعماق نفسه . بل هي التي تشخص ذروة التفاعل الوجداني الذي يعمق احساسنا بكل ما في اللوحة من معان وهواجس ومشاعر ، فهو حين يقف عند معلم من معالم الطبيعة وقفة خاصة يسكب عنده دفقة من احاسيسه المكثفة ، فانما يحقق بذلك وجوده الحقيقي ، اذ أن تناثر هذه الاحاسيس ضرب من القلق الذي يلازمه ، والحيرة التي تضيع عليه الرؤية العميقة ، ولكن كثافة اللوحة الطبيعية تعني الوعي المتفاعل بين الطبيعة التي يرتبط بها ارتباطاً مصيرياً وبين ما يعتمل في اعماقه .

من هنا كان لنا وقفة — من خلال هذا البحث —مع لوحة من لوحات الطبيعة تعامل معها الشاعر تعاملاً خاصاً متسماً بالحيوية والحركة سواء من خلال الفعل الشعوري او الفعل الفني — تلك هي لوحة الليل —كما اسلفنا، حيث حقق الشاعر الجاهلي فيها قدراً وافياً من الموازنة بين الحركة الشعورية والصورة الفنية .

وتتنوع ملامح الليل في الشعر الجاهلي وتتباين صوره وتختلف دلالته ، ومرد ذلك الى تنوع المشاعر والمواقف لدى الشاعر نفسه ، حتّى ان خلجاته

(١) اغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٦٧

الداخلية وما ينتابه من احاسيس انما تضفي على الليل تلك السمة المتساوقة مع تلك الخلجات والاحاسيس «فان العلاقة بين صوره من جهة ومشاعره من جهة اخرى ليست علاقة تضايف وإلحاق ، بل هي علاقة صميمية تعكس توحد الانسان بالطبيعة كما تعكس تمثل هذه الطبيعة للانسان » (١) .

ليل الرهبة :

ان التصاق الانسان بحياة الصحراء الفسيحة المنبسطة جعله يتوجس خيفة مما تضمره في طواياها ، ولذلك فانه لايحس بأن بينه وبينها صلة من ود او وشيجة من ألفة ، كما يحس انها لم توفر له شيئاً من الطمأنينة النفسية ، وهو يعايشها معايشة حياة او مصير ، سواء اكانت هذه المعايشة على هامش الحياة أم في صميمها ، لذلك فقد تصور العربي عالمه الذي يمتد امام عينيه امتداداً لانهاية له ، يخفي في طياته اسراراً لم تكشف ، ويحس أن وراء هذه المجاهيل كائنات هي اقوى منه ، تتحكم في حياته وتمسك على زمام مصيره ، فتصور الصحراء عالماً مشحوناً بالجن ، كما تصور طبيعة الحياة التي يحياها الجن . وتوهم أن لابد من أن يتقي شرور هذا العالم المجهول ، فكانت الآلهة التي تعبد وسيلته في اتقاء الشرور ودفع المكاره .

« ولم يكن انسان الصحراء ليشعر يوماً انه وحيد ، وأن ليس من احد سواه في هذه القفار المترامية ، فاذا خلت من بشر لم تخل من حيوان مستأنس او متوحش ، واذا خلت منهما لم تخل من ارواح تمضي وتجيء ، وهو لايراها لكنه يحس بها ، اما هي فتراه وتحس به في طوافه وتجواله ، يحمل في حقيبته الهه الصغير وفي صدره طقوس الهه الكبير وتنظر اليه عيون الآلهة من وراء قبة الليل المدلهم » (٢)

ان تصور عالم الصحراء على هذه الصورة عمق من احاسيسهم بترقب الشر ، فالمثقب العبدي يحس ان الشر يبتغيه انى رحل فيقول (٣) :

---

(١) مقدمة للشعر الجاهلي ص ٤٥ مجلة المعرفة السورية ، العدد ١٥١ ايلول ١٩٧٤

(٢) الاسطورة والرمز في الأدب الجاهلي ص ٩٧ من مجموعة بحوث بعنوان (الشعر والمجتمع)

(٣) ديوان شعر المثقب العبدي ٢١٢ - ٢١٣

وما أدري اذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا ابتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

يقول المسعودي في تعليل لهذا الوهم الذي قد ألم بالعرب في جاهليتهم «وقد تنازع الناس في الهواتف والجان ، فذكر فريق ان ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك انما يعترض لها من قبل التوحد في القفار ، والتفرد في الأودية ، والسلوك في المهامه المغولة والمروريات الموحشة ، واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة و الأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ومثلت له الاشخاص وأوهمته المحال ، بنحو ما يعرض لذي الوساوس .... لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف واعتراض الجان له » (١)

ومما تركته الصحراء الموحشة في نفوس العرب أن كثيراً من الأمور المتوهمة سيطر على عقولهم ونفوسهم ، فكان من آثار ذلك الزجر والعيافة ، فالزجر هو زجر الطيور والوحش وإثارتها تفاؤلاً او تشاؤماً . والعيافة هي التكهن بالطير وغيرها ، وكذلك التطير مما يكرهون ، اذ يداخلهم خوف من وقوع مكروه ، وكانت لهم عادات وممارسات تتصل بما يجول في دخائل النفوس من خوف ورعب مما يتمخض عنه المجهول ، ومن ذلك عقر الابل على القبور ، والهامة والصدى وتمائم للوقاية من الحسد والجن (٢) .

واذا كانت الحياة العربية محفوفة بالمجهول حافلة بكل ما يبعث في جنبات النفس من هواجس ومخاوف فاننا نعتقد ان الليل يضيف ملمحاً آخر يعمق من احساس العربي بالخوف ويجعله على جانب كبير من الحذر والحيطة .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ ص ٢٩٥ – ٢٩٦

(٢) ينظر (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) للوقوف على تفاصيل العقائد والعادات التي تتصل بهذا الجانب – الباب الرابع ٣٧٠– ٤٣١ ، والباب الخامس ٤٣٤ – ٥١٠

ومن خلال حديث الشاعر عن الليل نجد عنصر الرهبة متجسداً خلال ارتحاله ، وحتّى في حديثه عن التحدى يشعرنا أن الليل رهيب لايقتحم . وأن وراء سجف الظلام أهوالا ضخاماً . وهو مع كل ذلك يقدم دون أن يبالي بما يضمره له الليل البهيم وراء استاره السود، فقيمة التحدى تتحدد بعظم استثارة الرهبة من أجواء الليل ، فهاهو المرقش الأكبر يجتاز الدوية الغبراء على ماحفها من امور تحول دون المضي.

يقول : (١)

ودوية غبراء قد طال عهدها	تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها منكراتها	بعيهمة تنسل والليل دامس
تركت بها ليلاً طويلاً ومنزلاً	وموقد لنار لم ترمه القوابس
وتسمع ترقاء من البوم حولنا	كما ضربت بعد الهدو النواقس
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست	من الليل قد دبت عليه الروامس

انه يشير بذلك إلى أن الصحراء مهلكة .ومع هذا فانه صمم على أن يسلكه متخطياً عسر المسالك فيها . ثم يجعل الليل الدامس وعاء لهذه الحركة التي يحف بها الهلاك إشعاراً بأن الامر اشد عسراً وأن الهلاك اقرب إلى السالك . ويكون أعشى قيس أكثر امعاناً في تجسيد الرهبة من خلال رحلة أخرى متحدية حين يقول (٢)

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة	للجن بالليل في حافاتها زجل
لايتنمى لها بالقيظ يركبها	الاالذين لهم فيما أتوا مهل
قطعتها بطليح حرة سرح	في مرفقيها إذا استعرضتها فتل
بل هل ترى عارضاً قد بت ارمقه	كأنما البرق في حافاته الشعل

فهو يعرض لذكر الجن من خلال الليل فيزيده ذلك رهبة وفزعاً اكثر

---

(١) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٢٩٠

(٢) المصدر نفسه ٣٦٨

مما لو جعل الليل المظلم وحده وعاء لحركته واضطرابه وتكون لوحة اعشى قيس بهذه الاضافة الفنية أكثر عمقاً من لوحة المرقش الأكبر.

ويقترن التحدي بالليل في أكثر من لوحة عند شعراء الجاهلية حتى أصبح ذلك ظاهرة . ولا تعليل لها غير أن الليل عند الجاهلي يوحي بالرهبة . وهو بذلك يعطي لتحديه بعداً بطولياً يسترضي بايراده الآخرين . وكأن المتحدي يعدم مايلتمسه من صور النهار . لأن وضح النهار عند العربي رمز الصفاء والسكينة والبسمة والأمل. وهو آمن في نهاره قدر ما يخالجه الخوف والرهبة من هذا الليل الدامس الذي يتساوى فيها الأعمى والبصير . كما أشار إلى ذلك أعشى قيس في قوله (١١).

وليل يقول القوم من ظلماته   سواء بصيرات العيون وعورها
كأن لنا منه بيوتا حصينة   مسوحاً أعاليها وساجاً كسورها
تجاوزته حتى مضى مدلهمه   ولاح من الشمس المضيئة نورها

وادلهام الليل بسواده الكثيف يوحي إلى الاعشى ان جدراناً عالية تطاول السماء قد قامت من حوله مسكنه فجعلتها حصوناً حصينة وقلاعاً شامخة .

ثم إن الليل الرهيب على الصورة التي تأملها لم يحل بينه وبين المضي . وينتهي مدلول البطولة او أن الشاعر ينهي مدلول البطولة وحدودها عند اضاءة نور الشمس وكأنه يقول :

ليس للتحدي وقع في النفوس إذا اقترن بوضح النهار.

ودريد بن الصمة يعرض المعنى نفسه في صورة مماثلة مما يألفه القارىء عند الشعراء الآخرين وهو يختار الليل عنصراً من عناصر رحلته الشاقة العسيرة ليكون له احسن الوقع في النفوس فيقول : (١٢)

وما قصرت يدي عن عظم أمر   اهم به ولا سهمي بنكس
وما أنا بالمزجى حين يسمو   عظيم في الامور ولا بوهس

---

(١١) المصدر نفسه ٣٩٠

(١٢) المصدر نفسه ٧٦٧ .

وقد أجتاز عرض الحزن ليلاً بأعبس من جمال الغيد حالس
كأن على تنائفه إذا ما اضاءت شمسه أثواب ورس

الا أن دريداً حين يقرن مضيه بالليل دون غيره من الأوقات فهو في موقف دفاع عن النفس وكأنه مرمي بالتقصير والتهاون فأراد أن يثبت أنه غير ذلك ولذلك وجد انه ينبغي أن تكون لهجته متسمة بشيء من العنف وأن يجعل تحديه مقترناً بما يعيه الذهن العربي من عناصر الرهبة المعروفة والليل يحقق للشاعر مايسعى إلى تصويره وتجسيده .

وتتجلى براعة عنترة في توظيف صورة الليل لتصوير معركة نهارية احتدمت حتى ثار فيها الرهج كثيفاً مدلهماً استحالت معه الهاجرة إلى ظلمه جوالة شاملة أرجاء المعركة.

يقول عنترة (١٣)

ودرنا كما دارت على قطبها الرحى ودارت على هام الرجال الصفائح
بهاجرة حتى تغيب نورها وأقبل ليل يقبض الطرف سائح

وفي موضع آخر يقرن عنترة الليل بالأقدام والمضي فيقول (١٤)

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطلاها
وسريت في وعث الظلام اقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها

إنه يجعل نهاية الليل وبدء انبلاج الصباح آخر ما يقترن الحديث بالزمن. فهو وغيره من الشعراء لايتجاوزون هذا الاطار الزمني وكأن الليل هو ساحة البطولات الفذة التي تجلب الاعجاب والتقدير.

وتتكرر الصورة عند عنترة أكثر من غيره . يقول (١٥)

وكيف أخشى من الأيام نائبة والدهر اهون ماعندي نوائبه
كم ليلة سرت في البيداء منفرداً والليل للغرب قد مالت كواكبه

---

(١٣) ديوان عنترة . تحقيق محمد سعيد مولوى ٣٠١
(١٤) المصدر نفسه ٣٠٥ – ٣٠٦
(١٥) شعراء النصرانية قبل الاسلام . – ٨١٨ ديوان عنترة دار صادر ٩١

ان السير في البيداء منفرداً أمر لايخلو من خطورة ، وقد يقوم بهذه الرحلة كل من ارتبط مصيره بمثل هذه البيئة . ولكن السير في الليل منفرداً لايتأتى إلا ممن اوتي نصيباً وافراً من الشجاعة والاقدام .

ويقول ايضاً : (١٦)

اطوى فيافي الفلا والليل معتكر   واقطع البيد والرمضاء تستعر
ولا ارى مؤنساً غير الحسام وإن   قل الأعادى غداة الروع اوكثروا

ولا يغير من نظرتنا الى استخدام الليل عنصراً من عناصر التحدي ان يستعير عنترة من النهار صورة الى جوار صورة الليل هي الاخرى تعبر عن التحدي. فالفرق هنا ان الليل مستخدم بصورته الماثلة للعيان ظرفاً زمانياً له سماته المحددة . اما النهار فلم يستخدم هنا بوصفه ظرفاً زمانياً . كما استخدم الليل، بل ان الشاعر استعار من النهار صورة هي بحد ذاتها دالة على التحدي وهي صورة الرمضاء مستعرة اي الارض التي ألهبها حر الصيف .

ويتفاوت الشعراء في القدرة الفنية على تجسيد الجو الرهيب الذي يبرز من خلاله التحدي والمضاء .

وبعض من الشعراء يقف عند الليل فلا يورده لمجرد أنه ظرف زماني معتم بهيم . بل يضيف اليه ملامح اخرى يزيده جهامة . ويكون لصورته وقع للرهبة اشد . وهنا يقف الأسود الجعفي ازاء الليل ليضيف اليه ما بدا له من ملامح وذلك بقوله (١٧)

ومن الليالي ليلة مزؤودة   غبراء ليس لمن تجشمها هدى
كلفت نفسي حدها ومراسها   وعلمت ان القوم ليس لهم غنى

فليل الاسود الجعفي يبث الذعر والهلع في النفوس . ومن يتكلف خوضه ضل في غمراته ولم يتبين له المخرج . فاذا كان هذا شأن الليل فان من الشجاعة الخارقة ان يكلف الشاعر نفسه حدها ومراسها ؛ على حد تعبيره .ومما يتصل بجو الرهبة ذلك الشعر الذي يتحدث فيه الشاعر عن همومه وأحزانه.وليل

---

(١٦) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٨٣٧ – ديوان عنترة دار صادر ١٤٣
(١٧) الأصمعيات ١٤٣

الحزين من أشد الليالي وطأة على النفس . ولذلك ضاق به الشاعر الجاهلي ذرعاً ، فعرض له في شعره مستمداً صورة مما يشيع في جنباته من سمات الخوف والرهبة والفزع مجسداً من خلال ذلك احزانه وآلامه . وامرؤ القيس من أدق شعراء الجاهلية تصويراً لأحزانه وهمومه إذ يقترن ذلك بالليل أوثق اقتران . ففي لوحة من لوحات معلقته تتتابع الصور الليلية تتابعاً يتساوق الشكل مع المضمون تساوقاً فنياً يفضي الى الاحساس بأن الليل كابوس ثقيل يجثم على الصدور حتى لايدع للمرء متنفساً .

وليل كموج البحر ارخى سدولـه	علي بانواع الهموم ليبتـلي
فقلت له لما تمطـى بصلـبه	وأردف اعجازا وناء بكلكـل
الا ايـها الليل الطـويل الانـجل	بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالـك من لـيـل كـأن نـجومه	بكل مغار الفتل شدت بيذبـل
كأن الثريا علـقت فـي مـصامها	بامراس كتان الى صم جندل(١٨)

واوضح ما في هذه اللوحة تنوع الصور . فالليل تارة بحر تتلاطم امواجه . وهنا يهدف الشاعر الى تجسيد الظلمة الرهيبة امعاناً في اشعار السامع بأن الهموم التي تمور بها جوانحه ليست من قبيل الهموم العابرة التي يمكن ان يسلو عنها الانسان بسرعة . وانما هي هموم متراكبة ومن خلال «ارخى سدوله» يرى الاستاذ ايليا حاوي ان هناك صورة متوازية وراء الصورة الظاهرة ويعني بها صورة البحر . ويعلل انبعاث الصورة الثانية «ان الشاعر في غفلة الذهول تمثل له الليل وكأنه خيمة هائلة تغمر الكون ، وليس الظلام سوى سدول تلك الخيمة الهائلة» (١٩)

وألمح من خلال هذا البيت أن الشاعر عمد الى تشبيه الهموم بأستار سوداء كثيفة تحجب الضوء . وتراكب الصور هو الذي يوحي الينا بسواد هذه الأستار المسدلة لاقتران صورتها بالليل المظلم البهيم

---

(١٨) ديوان امريء القيس ١٨ — ١٩

(١٩) امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ١٤٩

وتارة اخرى يمضي الشاعر ليستعير صورة الجمل الجاثم على الارض لايريم ليعمق إحساسنا بوطأة الليل على نفسه وهو يجتر آلامه اثقال . هذا الجمل يقترن وجوده الحي بما يحتل من حياة العربي في الصحراء من مهابة وتقدير . انه مثال الضخامة والثقل والتباطؤ . اذن فليلتقط من هذا الحيوان صورة الضخامة والثقل والتباطؤ . فيضيفها الى لوحة الليل عنواناً لكبر همومه التي اقترنت بالليل الذي لايحس بحركته . ولئن أحسسنا برهبة الليل البهيم وسواده المدلهم من خلال البحر والأستار المسدلة فان الشاعر هنا يجسد لنا ضخامة هذا الليل وثقل وطأته على نفس الشاعر . ولا بد ان الشاعر قد شهد من خلال المعايشة اليومية ان جملاً قد جثم بكلكله على انسان . او انه تصور مقدار هول المنظر لو ان جملاً جثم على انسان .

ثم تنطلق صرخة الضيق والبرم من الشاعر يريد بمحاولة يائسة ان يدفع هذا الثقل الجسيم الذي أضناه وأجهده . يصف الاستاذ ايليا حاوي هذه الصيحة بصيحة اليأس والانسحاق (٢٠) وقد حمله على هذا الوصف ما جاء في الشطر الثاني بأن آماله لن تتحقق وان انجلى هذا الليل ووافى النهار بانواره الساطعة . اذن ليست المشكلة ليل يلف الكون بسواده فيضيق به صدر الشاعر وانما هي «نفس الشاعر التي أدلهمت باليأس والحزن والالم . ووجدانه الذي أثقل بالهم والبؤس والفشل ...... واذن فوصف الليل هنا تجربة وجدانية مفاضة من أعماق الشاعر . لقد أظلم الليل في ضميره وارخى سدوله على أفق خياله فإذا هي سدول هم لاسدول ظلمة » (٢١)

ثم يفقد الأمل في انجلاء هذا الليل كفقدان الأمل في أن يسرى عن همومه او بعض همومه . ولذلك نلمح في نهاية مطاف هذا الصراع النفسي استسلاماً مريراً هدأت فيه سورة الغضب والتمرد لنصغي إلى نبرة باكية مشوبة بغضب المستسلم فيتحول الليل إلى كائن رابض على الأرض مشدودة نجومه بحبال قوية إلى جبل ضخم أصم.

(٢٠) المصدر نفسه ١٥٣
(٢١) أمراء الشعر في العصر الجاهلي ١/٢٠٨

وقد حمل الدكتور سيد نوفل هذه النفثات الشعورية على أن الشاعر يفلسف الطبيعة . ويصورها على غراره ويسكب فيها فكره .وفي ايضاح هذه الفلسفة استخدم الفن البياني أدق استخدام فبدأ الهم مجسماً في الألفاظ والمعاني (٢٢).

ويبدو لي أن حمل ذلك على الفلسفة أمر ينافي الطبيعة الشاعرية التي ملأت جوانح امريء القيس كما ينافي الفن الذي استولى على زمامه ببراعة متناهية . فالفلسفة وعي متكامل للحياة يتسم بالعمق والاستيعاب بحيث يجعل الانسان صاحب موقف يفسر أحداث حياته في ضوء احكام هي إلى العقلانية اقرب ورؤية محدودة المعالم والسمات . وهذا التعليل الذي اورده الدكتور سيد نوفل يبعدنا عن الجو الشاعري الذي ينسجم فيه القاريء مع الشاعر انسجاماً نفسياً قبل أن يكون انسجاماً فكرياً .

ولعل هذا التعليل لايتفق مع ماذهب اليه الدكتور سيد نوفل في موضع آخر من كتابه.

حيث يقول « وهذه البساطة طبيعية في حياتهم الساذجة التي لم تعقدها الحضارة » وبقول ايضاً « يصف الحاضر المشاهد في غير مغالاة ولا اسراف .وخياله محدود لايبلغ درجة التخيل وابداع مخلوقات غريبة » (٢٤)

ويقول أيضاً « لكن الشاعر على هذا الصدق دائم الجيشان النفسي شديد الشعور سريع التأثر » (٢٥)

إن ليل الحزين يقترن بالسهد ومجانبة الرقاد فبمقدار تلبد الهموم في حنايا النفس يتجسد الليل الذي يزايل فيه النوم عين المؤرق المسهد. وهنا يعود امرؤ القيس ليتولى صورة الليل مقترناً بالسهد والأرق : يقول (٢٦)

---

(٢٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٣٨

(٢٣) المصدر نفسه ٦٢

(٢٤) المصدر نفسه٦٣

(٢٥) المصدرنفسه٦٤

(٢٦) ديوان امريء القيس ١٨٥

تطـاول ليـلـك بالأثمد ونام الخلي ولـم تـرقـد
وبات وباتـت لـه ليـلـة كليلة ذي العـائـر الأرمد

واستعانته بالليل لتصوير همومه يتجاوز الحد الأدنى لهذه الاستعانة حتّى يعمد إلى المجاز الذي يسميه البلاغيون بالمجاز العقلي حيث يسند فعل المبيت إلى الليل نفسه . وكأن الليل هو المؤرق المسهد . ثم يفجأنا بتشبيه سهاد الليل بليل آخر يعاني فيه العائر وجعاً في عينيه .

واذا كان ليل امرىء القيس مصوراً لنزعات رجل مترف يعيش لذاته، ولا يجد في كل ممارساته اليومية مقنعاً يملأ عليه احساسه بالفراغ ، فان هناك رجلاً استبدت به الهواجس والهموم، وأقضت مضجعه قضية تتعلق بكرامته، ذلك هو النابغة الذبياني .

ضاقت الأرض على رحبها بالرجل بعد ان وجد نفسه طريداً مهدداً بالموت إثر وشاية من شانئيه، وهو الرجل الذي تأبى عليه أخلاقه العربية ان يرد موارد التهمة فضلاً عن ارتكاب فاحشة . فهو يبذل جهداً غير اعتيادي لاظهار براءته ،فليله يجسد له هذه الهموم اللاهبة والأحزان المؤرقة .ذلك الليل هو ليل نفسي، وليس ليلاً علمياً، لأن الشاعر نقض حدود التعقل والمنطق. ونما اليه حالة نفسية جعلته ليلاً يخالف سائر الليالي بتباطئه وعدم انحساره» (٢٧)

يقول النابغة (٢٨) :

كليني لهمّ يا أميمة نـاصـب وليـل أقاسيـه بطـيء الكواكب
وصـدر أراح الليل عازب همه تضاعـف فيـه الحزن من كل جانب
تقاعس حتّى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

يقرب النابغة في نزعته الفنية من امرىء القيس في تصور الليل ثقيلا متباطئاً او مشدوداً الى موضع ثابت حتّى يئس من زواله.

---

(٢٧) النابغة : سياسته وفنه ونفسيته ص ١٧٧
(٢٨) ديوان النابغة الذبياني ص ٥٤ — ٥٥

والشعراء الآخرون حين تستبد بهم الهموم والأحزان يغمسون ريشة الفن في سواد الليل يلونون به مشاعرهم . فاذا بهذه الاحاسيس تستشعر الليل طويلاً أمل من انبلاج الصبح بعده، ولذلك تتكرر هذه النبرة عند اكثر من شاعر .

وحين يقول المهلهل :

بـات ليـلي بالأنعمـين طـويـلا ... أرقـب النجم سـاهراً لن يزولا

فان الشطر الاول من بيته ليس إلا حديثاً مباشراً عن طول الليل، وحين تعوزنا الصورة التي تجسد الطول والاحساس به إحساساً ينفذ الى اعماقنا فأن ذلك نلتمسه في الشطر الثاني في حركة الترقب للفجر الذي يمني نفسه بانبلاجه ، ولكن أفق الأمل يضيق حين يرى النجم ثابتاً لايريم، ساهراً لن يزول ، فهنا تضيق النفس بهذا الليل الراكد الجاثم .

والحارث بن عباد يضرب على الوتر في الاحساس بطول الليل من خلال تلبد الهموم في آفاق نفسه . وذلك من خلال قوله (٣٠) :

قـربا مـربط النعـامة مني ... للسرى والغـدو والآصـال

قـربا مـربط النعامة مني ... طـال ليلي على الليـالي الطوال .

إن هموم الشاعر هنا تبلغ الذروة . حتى تصور أنه لم تمرّ به ليلة طويلة كهذه الليلة التي يترقب زوالها لأن وراءه أمراً مهماً يشغل باله ويملأ عليه أقطار نفسه .

ومعاناة المثقب العبدي تبدو لنا واضحة ، واستعانته بالليل في تصوير هذه المعاناة أكثر وضوحاً، حين جعله هو الذي يكدس همومه في صدر الشاعر . يقول المثقب العبدي (٣١)

ظللت أرد العـين عن عبراتها ... اذا نـزفت كانت سراعاً جمومها

كـأني أقـاسي من سوابق عبرة ... ومن ليلة قد ضاق صدري همومها

---

(٢٩) شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ١٧٨

(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٧٢

(٣١) ديوان شعر المثقب العبدي ٢٣٦

فليلة الشاعر تقف منه موقف المعاداة حين أترعت صدره بهذه الهموم الثقال. فاذا كان في شواهد الشعراء الآخرين إلماح الى معاداة الليل للشاعر فإن المثقب قد جسد لنا عداء الليل له بوضوح.

وعدى بن زيد العبادى ينحو في موقفه من الليل منحى الشعراء الآخرين في ذكر الليل الطويل. وأضاف إلى طول الليل وصفاً آخر نلمح من خلاله ضيقه وألمه بهذا الليل الطويل. حيث يقول (٣٢)

طال ذا الليل علينا فاعتكر ... وكأني ناذر الصبح سمر
من نجيّ الهم عندي ثاويا ... فوق ما اعلن منه واسر
وكأن الليل فيه مثله ... ولقدما ظن بالليل القصر
لم أغمض طوله حتى انقضى ... أتمنى لو ارى الصبح جشر

إن الهم قد جعله يشعر بطول الليل واعتكاره، وتعبيره عن هذا الشعور جاء على صورة معادلة بين الهم والليل. كما جعل لضيقه الذي يعتلج في صدره منافذ الأمل في انقضاء الليل وإسفار الصبح. ومن خلال ذلك نحس أن الرجل يملك طاقة نفسية داخلية يعالج بها معاناته. وقد حافظ على توازنه ولم يكن مستسلما لليأس كما استسلم له امرؤ القيس والنابغة على النحو الذي رأيناه من قبل. وعنترة يستثمر اللون في تصوير حزنه: فالسواد الذي التمسه لوناً لأحزانه هو من نفثات الأحاسيس الداخلية. فلونه الأسود يشكل في اعماق نفسه عقدة والليل بسواده هو الآخر يشعره بمأساته الشخصية. كما هو اللون الذي يتسق مع همومه وأحزانه. ومن أجل ذلك كان سواد الليل هو سبيله إلى تصوير مشاعره: كما هو واضح في قوله (٣٣)

ترى هل علمت اليوم مقتل مالك ... ومصرعه في ذلة وهوان
فان كان حقاً فالنجوم لفقده ... تغيب ويهوى بعده القمران
لقد كان يوماً اسود الليل عابساً ... يخاف بلاه طارق الحدثان

---

(٣٢) ديوان عدى بن زيد العبادي ٥٩

(٣٣) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٨٧٦

ولأكثر من شاعر إشارة خاصة إلى ليلة بعينها يسمونها ليل التمام (بكسر التاء) اطول ليلة من ليالي الشتاء وهي عندهم رمز لأشد مايعانيه الشاعر من ضيق وبرم يصلان حد الرهبة والفزع .

وليل التمام لاتختلف أجواؤه في جانب تصوير الجو الرهيب عن بقية الليالي الا بما تلقيه في أعماق النفس من استشعار الطول والتباطؤ . أو بالاحرى سرعة استشعاره الطول والتباطؤ . وقد يشعر السامع شدة ما يلقي الليل في أعماق النفوس من ظلال ثقيلة بتوافر عناصر أخرى هي التي تعمق الاحساس برهبة الليل . ولكن ليل التمام بحد ذاته يلقي في النفس هذا الشعور الطاغي بصورة مباشرة دون تضافر العناصر الاخرى،وربما توفرت عناصر اخرى في البيت والمقطع،ولكن مع ذلك يظل ليل التمام مؤدياًالمهمة الفنية او الشعورية بذاته .

يقول امرؤ القيس (٣٤)

أعني على التهمام والذكرات يبتن على ذي الهم معتكرات
بليل التمام أو وصلن بمثله مقايسة ايامها نكرات

إن أجواء البيتين توحي بالهموم والادكار،ولكنه عبر عن مشاعره هذه بربطها بليل التمام . ومن شدة ما يعاني عمد الى إعطاء الملمح الأعمق لهذا الشعور . فلم يكتف بليل واحد من ليالي التمام . بل ضاعفه بقوله : او وصلن بمثله فيتعمق الاحساس بما يبث منشكوى وألم،ومن خلال جو غير جو الحزن والالم يعرض امرؤ القيس لليل التمام اذ يقول (٣٥) .

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برد انيابها اذا طرب الطائر المستحر
فبتّ اكابد ليل التمام والقلب من خشية مقشعر

---

(٣٤) ديوان امرئ القيس ٧٨ – ٧٩
(٣٥) المصدر نفسه ١٥٧ – ١٥٨

إنه على موعد. فكان الجو مشعراً بالأنس إلا أنه مشوب بالخوف. مم يخاف امرؤ القيس ؟ لاندري . وليس المهم ان ندري. انما الذي يهمنا ان نحس بأن امرأ القيس خائف . وقلبه من شدة الخوف قد اعترته هزة وقشعريرة. وكأني به ينتظر امراً ويخشى ان تفوته الفرصة . وما كان يعانيه من ثقل الوقت. ووقت المنتظر بطيء ثقيل. وما كان يخشاه أن يحول دون تحقيق امنيته كل ذلك يرسم جو الرهبة . وليس أوقع في النفس من رسم الصورة من خلال ليل التمام الطويل بذاته والطويل من خلال معاناة الشاعر المنتظر .

ويرتبط ليل التمام عند متمم بن نويرة بمكرمة من المكارم التي يعتد بها العرب ضمن ممارسة الحياة اليومية حيث يقول (٣٦)

لعمري لنعم المرء يطرق ضيفه اذا بان من ليل التمام هزيع
ينول لما في رحله غير زمج اذا ابرز الحور الروائع جوع

إنه يثني على صاحبه لكرمه . وقد يكون هذا المعنى معاداً معروفاً عند الشعراء. ولكن ليل التمام يمنح ممارسة الكرم ملمحاً معنوياً يتسم بالعمق ودلالة فنية يتجلى فيها الوضوح والدقة . إنه يخلق لهذه الخصلة اطاراً خاصاً تتحرك ضمنه على صورة متميزة، فليل التمام اكثر ليالي الشتاء طولاً .وضيوفه يغدون عليه بعد ان يمضي هزيع من هذا الليل الطويل فينهض لأداء الواجب والوقت وقت إخلاد الى النوم والراحة . فهو يضحي براحته ويظل ساهراً قائماً على تكريم ضيوفه طوال ذلك الليل غير برم أو ضجر . وحين نرصد ملامح الرهبة تستوقفنا ظاهرة الرحيل ، وهي أمس رحماً وأقرب صلة بمشاعر الرهبة والتوجس ، ذلك ان ارتباط العربي بأرضه وتعلقه الوجداني بها جعلاه يحس بثقل وطأة الرحيل على نفسه ، وهو —مع ذلك— مضطر الى شد الرحال بين حين وآخر، مدفوعاً اليه بجملة عوامل هي من مقتضيات حياته .

---

(٣٦) المفضليات ٢٧٢

« كانت حياة الناس — اذن — مرتبطة بالارض ، وكان هذا الارتباط يحكم علاقاتهم الاجتماعية ويوجهها الى حد بعيد ، ويصبغها بلونه الخاص من اللقاء والاجتماع الى الفرقة والقطيعة ، وكان الأدب يصوغ هذه الوقائع الاجتماعية بدقة وأمانة ، فيرسم اشكالها ويعين ملامحها ويحدد طبيعتها ثم يلونها ويغنيها بلمسة الفن الساحرة ، وكانت الرحلة — بلونيها — واحدة من ابرز هذه الوقائع » (٣٧)

فتارة يكون الرحيل تحدياً وقوة ، وتارة اخرى يكون باعثاً على الحزن والألم ، وكلاهما يؤلف لوحة الرهبة والتهيب والتوجس

يقول اعشى قيس (٣٨) :

فدع ذا ولكن ربّ ارض متيهة ... قطعتَ بخرجـوج إذا الليل اظلما
بناجية كالفحلِ فيها تجاسر ... اذا الراكب الناجي استقى وتعمما
ترى عينها صفواء في جنب موقها ... تراقب كفي والقطيع المحرما
كأني ورحلي والعِنان ونمرقي ... على ظهر طاو اسفع الخد أخثما

هذا رحيل يمثل التحدي ، وهو رحيل لابد منه ، ولا بد إزاء ذلك أن يمضي في هذا التيه الذي يعرض نفسه فيه الى مخاطر ، والليل البهيم يحف بهذه الرحلة الخطيرة .

من خلال ذلك نحس أن هذا الرحيل كان من اجل غاية قد لايفصح الشاعر عن مدى خطورتها في حياته ، ولكن جو التحدي الماثل خلال الابيات هو الذي يشعرنا بخطورة مايقدم عليه ، ولكن امرأ القيس يسمعنا نبرة غير هذه النبرة التي عرفناها عند أعشى قيس حين يقول (٣٩) :

---

(٣٧) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ٢٠
(٣٨) شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ٣٧٩
(٣٩) ديوان امريء القيس ١٦٨

الا انعم صباحاً أيها الربع وانطق ... وحدث حديث الركب إن شئت واصدق
وحدث بأن زالت بليل حمولهم ... كنخل من الأعراض غير منبق

انه يهيم في ديار الراحلين ويرجو الربع ان يتحدث . فهو ليس قادراً على أن يفصح عن مشاعره لما اصابه من ذهول وما اعتراه من حزن .

اما عنترة فانه كذلك يقرب من حديث امرىء القيس في قوله (٤٠)

إن كنت أزمعت الفراق فانما ... زمت ركابكم بليل مظلم
ماراعني إلا حمولة أهلها ... وسط الديار تسف حب الخمخم

فهو يقف حزيناً إزاء رحلة الحبيبة ، والحزن من شأنه ان يلون الحياة بالقتامة والرهبة . اذن لابد ان يكون الليل مصوراً لهذا الاحساس المتلون بالقتامه والكآبة . وربما كان الرحيل في وضح النهار ، ولكن احساس الشاعر الحزين هو الذي يضفي عليه غلالة الليل القائمة الكئيبة .

ولعل الانسان في ساعة الرحيل يمر بحالة ذهول ووجوم ، لا قبل له بالافصاح عما يجيش في جوانحه ، فيلتزم الصمت الرهيب ، وما أن يفرغ الى نفسه بعد سويعات هدأة تتفجر المشاعر الحزينة ، وتتلاحق في خضمها الذكريات الحبيبة ... وترتفع هذه المشاعر ذروتها حين يجن الليل ويهدأ كل شيء من حوله ، فها هو ذا بشر بن ابي خازم يصور لنا هذه الخلجات التي انبجست من حنايا نفسه المكلومة الحزينة بعد ان أقبل عليه الليل .

يقول بشر (٤١) :

فبت مسهداً أرقاً كأني ... تمشت في مفاصلي العقار
أراقب في السماء بنات نعش ... وقد دارت كما دار الصوار
وعاندت الثريا بعد هدء ... معاندة لها العيوق جار

(٤٠) ديوان عنترة – تحقيق مولوي ١٨٨

(٤١) ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي – ص ٦٥ – ٦٦

فإن تكن العقيليات شطت | بهن وبالرهينات الديار
فقد كانت لنا ولهن حتى | زوتنا الحرب أيام قصار
ليالي لا اطاوع من نهاني | ويضفو تحت كعبي الازار

ان الشاعر حشد لنا من خلال هذه الصورة الليلية الموحية كل عناصر الاضطراب والألم بعد أن شطت العقيليات اللواتي كان له معهن أيام فهو مسهد مؤرق يراقب من شدة اضطرابه وحزنه بنات نعش: تلك النجوم المجتمعة في السماء حتى صورة نعش محمول على الاكتاف، يقرن بهذه الصورة الموحشة رحيل العقيليات، فالرحيل عنده هو الموت، وازاء الموت تضطرب الجوانح وتتحشد الآلام.

ورحيل المتلمس لايكون إلا ليلاً، ولذلك فإن الليل يأخذ بعداً عميق الغور في نفس المتلمس، ذلك أنه طريد منفي يعاني الغربة والحنين: لايقر له قرار ولايهنأ له المكوث في موضع. يقول (٤٢):

إن العراق وأهله كانوا الهوى | فاذا نأى بي ودهم فليبعد
فلتتركنهم بليل ناقتي | تذر السماك وتهتدي بالفرقد

٢. ليل الألفة:

مما أسلفنا ينتصب الليل امام الشاعر الجاهلي كئيباً موحشاً او رهيباً مخيفاً من خلال احساس الشاعر بمعاناة ثقيلة الوطأة يتكلف ازاءها طاقة وجهداً سواء كان شعورياً كالحزن او بدنياً كالاقدام والتحدي.

وماذا يكون الليل عند شاعر انتفت عنده هذه المعاناة الشديدة الأليمة؟ أيظل يرى في الليل عالمه المتوحش الكئيب؟ أم أن نظرته تتغير تبعاً لتغير مشاعره؟ ماذا يكون الليل حين يرتبط بسكن النفس وهدوئها او العيش الشعوري في ظلال الذكريات او غشيان عالم الحب او اللهو: او حين ينغمر في عالم الممارسات الكريمة التي يعتد بها ويفاخر؟

(٤٢) شعراء النصرانية قبل الاسلام جا ص ٣٤١

وهنا يكون لليل بعد آخر نريد أن نتلمس ملامحه فيما بين ايدينا من ميراث الشعر الجاهلي. فاذا ما ارتبط الليل بذكريات الانسان الحلوة فان اجواء ذلك الليل تنشر الدعة والسكينة، واذا مااستبدت به الأشواق طاف ببصره في الكون الذي يلفه هدوء الليل وسكينته . فاذا بالنجوم تؤنسه. والبدر يتمثل له رفيقاً حانياً او يتمثل له ذلك الوجه الذي يرتبط واياه بأجمل الذكريات .

إن الليل هو الفرصة السانحة لعمرو بن قميئة ليلتقي مع خيال أمامة . يقول عمرو (٤٣) .

نأتك أمامــة الا سؤالا والا خيالاً يوافي خيــالا
يوافي مــع الليل ميعــادهــا ويأبى مــع الصبح الا زيالا
فذاك تبدل من ودهـــا ولو شهدت لم تواتِ النوالا

انه يعيش مع الذكريات وان كان يائساً من نوالها والليل يفجر مكامن المشاعر عند سجوه وانسدال استاره .

ومغامرات امرىء القيس التي تتقيد بظرف زماني معين لم تحل بينه وبين أن يجعل الليل متميزاً بين ساعات يومه يبيح خلاله الهوى ويذكر ايام اللقاء

يقول امرؤ القيس (٤٤) .

لمن طلل أبصرتــه فشجاني كخط زبور في عسيب يمان
ديار لهند والرباب وفرتني لياليِنا بالنعف من بدلان
ليالي يدعونني الهوى فأجيبه وأعين من اهوى إلي روان

وقد يشعر الجو بشيء من الحزن والألم، ولكن الذكريات تنساب هادئة هدوء الليل . حانية حنو سكونه الشامل وكأنه وجد في الليل انيساً لوحدته يبثه مااعتراه : ويحدثه بذكريات امسه الدابر .

---

(٤٣) ديوان عمرو بن قميئة ٤ ٥٥
(٤٤) ديوان امريء القيس ٨٥

فاذا كانت الليالي الماضيات قد شهدت لقاءاته . فإنه هناك ايضا يستحضر في اطار الليل مشاهد من تلك الذكريات وكأنه اودع الليل اسراراً لايعرفها سواهما .

وترتبط ليالي المزرد بن ضرار بأجمل الذكريات في مثل قوله (٤٥).

وألهو بسلمى وهي لذ حديثها لطالبها مسؤول خير فباذل
وبيضاء فيها للمخالم صبوة وهو لمن يرنو إلى اللهو شاغل
ليالي اذ تصبي الحليم بدلها ومشي خزيل الرجع فيه تفاتل

ويتساءل المرء فيما اذا كان ربط الذكريات بالليل امراً تقليدياً، وبوقفة متأملة ندرك ان ذلك يضيف إلى الصورة بعداً جمالياً ومضموناً متلاحماً تلاحماً طبيعياً مع اجزاء الحدث الاخرى فالليل مسرح العشاق . وغلائله سجف توفر الأمان للمتوجسين خيفة من الرقباء ألا يمنح الليل هذا الحدث انسيابه المحببة ؟ وماذا يستطيع النهار ان يضيف من ملامحه إلى مثل هذا الجو ؟ أيضيف اليه من صخبه وضجيجه ام من النظرات التي تتفحص كل شيء وترى واضحاً امامها كل شيء .اذن يكون الليل الخاني الأليف جزء لايتجزأ من ضرورات الحدث والمرقش الاكبر حين يقول (٤٦)

سرى ليلاً خيال من سليمى فأرقني واصحابي هجود
فبت أدير أمري كل حال وأرقب أهلها وهم بعيد

فانه يجد الليل مثار الذكريات فيستعرض احداث امسه فيزداد حنيناً وشوقاً ولهفة ولم يكن ذكره لليل اضافة تقليدية وانما وجد نفسه مؤرقاً دون أصحابه الذين أخلدوا إلى الرقاد . والأرق في الليل مظهر من مظاهر الاندماج مع عالم ذكرياته . والأرق ليس حالة انفعالية يضيق بها المرء وانما هو معايشة وجدانية صادقة مع هذه الذكريات وقد يكون الأرق باعثاً على الاستمتاع

---

(٤٥) المفضليات ٩٤
(٤٦) المفضليات ٢٢٣

الكامل بذكرياته . ولئن رافق ذلك شيء من الألم فان الشاعر عندئذ يستعذب ذلك الالم ويجد فيه متعة كبيرة .والبيت الثاني يوضح ابعاد هذه المعايشة.فقد بات يدير امره على كل حال متأملاً مطيلاً للتأمل باحثاً عن الوسيلة التي بها يحقق امنياته ومع هذا فانه ظل مترقباً يوم اللقاء على بعد ديارها عنه .

ويهيم بشر بن ابي خازم في خضم ذكرياته فيستعرض الصور في هدوء وسجو . فيقول (٤٧)

جددت بحبها وهزلت حتى كبرت وقيل انك مستهام
وقد تغني بنا حيناً ونغنى بها والدهر ليس له دوام
ليالي تستبيك بذى غروب كأن رضا به وهنا مدام

وحين احس ان الاعوام تتخرم من عمره لاذ بالذكريات وتعلل بالاماني ولم يبال بما يقال عنه انه مستهام على تقدم العمر به . فالروح مازالت شابة مستطاعة

ولعل ذاكرته تحتفظ بصور مازالت تعجبه . كأسنان صاحبته اللامعة وارتشافه من رضابها .فلمعان الاسنان يبدو أجمل وأبهى وكأنه لمعان الصباح في مدلهم الظلمة. والليل هو الوقت الاكثر ملائمة لمجالس الشراب.

وكما أن ليل امرىء القيس فيما مضى من فصول البحث كان ليل هموم وأحزان .فان ليالي أخرى يحيا امرؤالقيس في ظلالها حياة انس ودعة وألفة.حين ينفض عن نفسه همومها ويدلف إلى مراتع اللهو والانس . فيحس بمتعة الليل وجماله لارتباطه بذلك الجو الذي ينطلق خلاله الشاعر انطلاقة يرمي ازاءها الهموم والاحزان جانباً .

يقول امرؤ القيس (٤٨) .

---

(٤٧) المفضليات ٣٣٤
(٤٨) ديوان امرىء القيس ١٣ – ١٤

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراساً اليها ومعشراً عليّ حراصاً لو يشرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل

انه لايصرح بالليل ولكن القارىء يحس مباشرة أن جو هذه المغامرة اللطيفة يحوطه ستار الليل الدامس .فهناك الاحراس الذين يرصدون في الليل كل حركة .والثريا في السماء وثياب النوم ولبسة المتفضل .

وها هو ذا لبيد بن ربيعة يصور انطلاقة الانس والمرح في صورة ليلية لذيذ لهوها وندامها . يقول (٤٩)

بل أنت لاتدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويتم تصور الليل على أنه مراح الانس وملعب الهوى حين يسكب الشاعر عليه من روحه الطلقة المرحة .وإلا فكيف يكون الليل — وهو ظرف زماني معين — تارة غولاً يفترس النفوس أو جبلاً يجثم على الصدور أو بحراً تتلاطم أمواجه وتارة أخرى سمراً وأنساً ولذة وانطلاقة .

وليل الذكريات عند أوس بن حجر ساج هادىء .وينساب خيال من تماضر بعد مضي شطر من الليل ليكون الجو أكثر هدوءاً وأوفر أنساً .
يقول أوس (٥٠) :

ألم خيال موهناً من تماضرا هدواً ولم يطرق من الليل باكرا
وكان إذا ما الم منها بحاجة يراجع هتراً من تماضر هاترا

ويكون مفاجأة مذهلة للشاعر حين يلم به خيال من تماضر .وكأنه في سنة من نوم . وكثيراً مايضم الليل ذكريات العشاق في اطاره مضيفاً عليها استار هدوئه وسكونه .والعاشق يلوذ بالليل يبثه لواعجه ويناجي نجومه .

---

(٤٩) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ١٧٥
(٥٠) ديوان اوس بن حجر ٣٣

والسهر عند عنترة أمل تنفتح منه الكوى والمنافذ، ليطل منها على عالم يحتضنه السكون ويؤطره الصفاء. يقول (٥١)

سأضمر وجدي في فؤادي وأكتم ... وأسهر ليلي والعواذل نـوم
وأطمح من دهري بما لاأناله ... وألزم منه ذل من ليس يرحم

انه غاضب ولكن في هدوء. والليل وهدوؤه مستراح لهذه النفثات التي طوى عليها أضلعه.

ومن ملامح ليل الألفة ما يضفيه الرجل الكريم على ضيفانه من فضل كرمه. وطيب أريحيته وسماحة نفسه. ويقرن ذلك بالليل ليكون لكرمه دلالة خاصة.

فالقيام باكرام طارق الليل هو أقوى دلالة وأشد وقعاً من اكرام ضيفان النهار. فطارق الليل محرج غاية الحراجة شديد الحاجة إلى من يأويه. ويهيئ له مايذهب عنه حيرة النفس ووعثاء الطريق. ولذلك كان دأبهم أن يوقدوا النيران على الأكمات العالية ورؤوس الجبال ليستدل بها طراق الليل ان هناك ديار قوم يلاذ باكنافهم ويستراح في رحابهم. يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي(٥٢)

وطارق ليل كنت حم مبيته ... إذا قل في الحي الجميع الروافد
وقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... واكرمته حتى غدا وهو حامد

ولقد أعطى لنفسه ميزة عن الآخرين حيث لايهمهم أمر الطارقين الحيارى في الليل حيث يعز الانيس ويفتقد الدليل.

ويرسم عبد قيس بن خفاف للناس ملامح الرجل الكريم الذي يكون على أهبة الاستعداد لتكريم ضيوفه دون أن يضيقوا بهم ولاسيما في الليل حين تكون الحاجة إلى الرعاية أشد.

يقول (٥٣):

والضيف أكرمه فإن مبيته ... حق ولا تك لعنة للنـــزل
واعلم بأن الضيف مخبر أهله ... بمبيت ليلته وان لم يسأل

---

(٥١) شعراء النصرانية ٨٦٥ ؛ ديوان عنترة – دار صادر ٢٠٨
(٥٢) المفضليات ٣٢٦
(٥٣) المفضليات ٣٨٤

ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي في قوله (٥٤)

ومولى على ضنك المقام نصرته   إذا النكس أكبى زنده فتذبذبا

وأضياف ليل في شمال عرية   قريت من الكوم السديف المرعبا

بأنه يكرم ضيفه على مايعاني في ضيق ذات اليد . فلا يدعه مخذولاً . ثم يعود مباشرة إلى تعميق صورة الكريم باشارته إلى أضياف الليل . واي ليل ؟ الليل الذي يشتد فيه البرد اشتداداً حيث تكون حيرة الطارقين أشد .ولهفتهم إلى السكن المريح أقوى .والمتلمس يرسم لنا صورة للكرم يوفر لتكاملها عناصر شتى ويجعل الليل جزء من هذه الصورة ولكنه جزء مهم لايستغنى عنه.يقول(٥٥)

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه   ليسقط عنه وهو بالثوب معصم

عوى في سواد الليل بعد اعتسافه   لينبح كلب أو ليفزع نوم

فجاوبه مستسمع الصوت للقرى   له عند اتيان المحبين مطعم

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً   يكلمه من حبه وهو أعجم

فالريح عاتية والظلمة تسد الآفاق .وهناك ضيف يريد لنفسه ملاذاً ومستراحاً . فاذا مااستنبح الكلاب عرف صاحب الدار أن قدم عليه ضيف ،فيخف إلى استعماله وإكرامه ويوفر له من الأجواء الحادئة ما يدفع عنه النصب الذي تجشمه .

فالليل عمق هذه الصورة وأعطى لها مدلولاً متميزاً. وبهذا يكون الليل في شعر الكرم مفعماً بالهدوء والسكينة النفسية مما يخلد الانسان عنده إلى الراحة قرير العين مطمئن البال

الليل الزمن :

أما الليل زمناً فهو أقل الوجوه قيمة سواءاً من الناحية المعنوية أم من الناحية الفنية ؛فهو مجرد ظرف زماني للحدث لايمنحه بعداً أساسياً أو بعداً ثانوياً .

---

(٥٤) المفضليات ٣٧٦

(٥٥) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٣٤٩

وامرؤ القيس حين يذكر سواد الليل في معرض حديثه عن النجوم في قوله (٥٦) :

تلك النجوم إذا حانت مطالعها شبهتها في سواد الليل أقباساً

فان ذلك قد يكون من الاطناب الذي الذي يقرب أن يكون حشواً - كما يقرر البلاغيون - فالنجوم لاتتراءى إلا في الليل . ولو رفع من القصيدة سوادالليل وسد الفراغ بأية عبارة مناسبة للسياق لم يتعرض الحدث لأي اهتزاز .

وكذلك الامر في قوله (٥٧) :

عجبت لبرق بليل أهل بضيء سناه بأعلى الجبل

فالبرق لايظهر بسناه المضيء إلا في الليلة الظلماء .

وحين يقول الحصين بن حمام المري(٥٨) :

نطاردهم نستنقذ الجرد كالقنا ويستنقذون السمهري المقوما

عشية لاتغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمما

لدن غدوة حتى أتى الليل ماترى من الخيل إلا خارجياً مسوما

فانه لايوظف الليل إلا اطاراً زمنياً بحتاً يحدد به مدى امتداد الحدث ، فالحدث يستغرق البعد الزمني من لدن الغدوة حتى مجيء الليل . فالليل بذلك لايشكل من لوحة الحدث جزءاً من أجزائها . ولاصورة تضيء جانباً من جوانبها ، أو صدى لخلجات نفسية للشاعر على النحو الذي وقفنا عليه من خلال لوحات الرهبة والالفة . . .

وحديث عبيد بن الأبرص عن البرق يكاد يكون تكراراً لحديث امرىءالقيس فهو مثله يرقب البرق في الليل . والليل لايمنح الحدث حركة ولافاعلية لأن

---

(٥٦) ديوان امريء القيس ٦١ ؛

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٦١

(٥٨) المفضليات ص ٦٥

وروده مقترناً بالبرق هو الذي يسلب منه كل دلالة معنوية أو فنية . وذلك في قوله (٥٩) :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه من عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

وواضح اننا لو طرحنا جانباً قوله (ابيت الليل) لظل الحدث قائماً بنفسه غير تارك ذلك ثغرة أو خللاً .

ومما يحسن الاشارة اليه في هذا الموضع أن نماذج الليل الزمن ضئيلة . ولذلك اكتفينا بهذا المقدار الذي يحدد لنا مدلول الليل الزمن عند الشعراء .

الدراسة الفنية :

١ ـ الألفاظ والتراكيب : تأتي لفظة الليل عند الشاعر الجاهلي ـ من خلال نصوص البحث ـ مقترنة بالالفاظ والتراكيب الجملية التي تتضافر مجتمعة لمنح الليل الزمني ملامحه النفسية المتسقة مع الرهبة تارة ومع الالفة تارة أخرى . فالليل يستمد مبررات وجوده عنصراً من عناصر اللوحة مما يحيط به أو يتلاءم معه .

ففي نص المرقش الاكبر (٦٠) :

ودوية غبراء قد طال عهدها تهالك فيها الورد والمرء ناعس

تحتشد الالفاظ الجزلة والتراكيب الموحية بالرهبة ، وجعل كل ذلك مرتبطاً بآصرة فنية ومعنوية وثيقة مع الليل الدامس ، فالدوية الغبراء ـ تهالك ـ منكراتها ـ عيهمة ـ دامس ـ ليلاً طويلاً ـ ترقاء ـ البوم ـ النواقس ـ الروامس . كل هذه الالفاظ تخلق الجو الرهيب . ويكون الليل بسواده أظهر عناصر هذه اللوحة ، لأن خوض العربي للصحراء أمر معتاد لاغرابة فيه . ولكن حين يقوم باجتيازها في ليل دامس فان ذلك يعطي لحركته هذه ملمح القوة والتحدي ، لأن الليل الدامس تكمن وراء استاره المدلهمة مخاطر شتى .

وكذلك الاعشى (٦١) قرن تحديه بالليل من خلال الفاظ وتراكيب تعمق

---

(٥٩) ديوان عبيد بن الابرص ص ٣٤
(٦٠) ينظر الهامش ٩ ـ
(٦١) ينظر الهامش ١٠

الاحساس بضخامة التحدي . ولكن التحدي كان من الممكن أن يفقد أشياء كبيرة من ملامحه لو لم يقترن ذلك بالليل .

فظهر الترس — موحشة — الجن — زجل — التميظ — طايح — فتل — البرق — الشمل — ، انما هي عناصر حركية فعالة تتلاحم مع الليل بصورة اتسقت مدلولاتها وتناغمت ايقاعاتها مع الجو النفسي الذي يستشعر الرهبة .

ويقرن الأسود الجعفي(٦٢)ليله بكل مايوحي بالرهبة من الالفاظ والتراكيب . فليلته مزؤودة : أي مفزوعة مرعبة تبعث في جنبات النفس مشاعر من الخوف شتى . ومن خلال هذا الجو النفسي الرهيب يقوم برحلته الصعبة التي تمثلت ملامحها من خلال : غبراء — تجشمها . كلفت — مراسها .

وعدي بن زيد العبادي (٦٣) يجسد من خلال طول الليل واعتكاره ،ومن خلال الهم الثاوي مدلول الرهبة والخوف .

وحين يصل بنا المطاف إلى نماذج من ليل الألفة نحس أن للألفاظ والتراكيب أصداء غير التي عهدناها في شعر الرهبة .

فعمرو بن قميئة (٦٤) يختار مع الليل مايوحي بالسجو والسكينة : خيال يوافي — ميعاد . وذلك تبدل من ودها — انها لنبرات توحي بانسيابية مشاعر عمرو مع الذكريات اللطاف التي يأنس بها في ظل ليلة هادئة ساجية .

وامرؤ القيس (٦٥) هو الآخر يستعيد ذكرياته في ترنيمة هادئة لطيفة يسري بها عن احزانه . حيث أن هذه الاحزان لاتحتدم احتدام امواج البحر . انها ساعة سلو وتلذذ بالذكريات ...إنه لايضيق ذرعاً بهذه الذكريات . ولذلك جاءت النبرات في غاية من الروعة والهدوء .

---

(٦٢) ينظر الهامش ١٧
(٦٣) ينظر الهامش ٣١
(٦٤) ينظر الهامش ٤٢
(٦٥) ينظر الهامش ٤٣

وليل المزود (٦٦) تكتنفه الألفاظ الموحية بالهدوء النفسي والسكون الشامل : وأنو – لذ حديثها – مسؤول خير – بيضاء – صبوة – يرنو – اللهو تصبي – دلها – خزيل – كل هذه الالفاظ مما تألفه النفس وتهواه . وترسم بها لوحة شفافة الرؤى حبيبة الملامح والخطوط . والليل من خلال هذه اللوحة يضفي على الجو وشاحاً من الالفة والدعة والسكينة.

وتتضح كذلك انسيابة الالفاظ والتراكيب الرقيقة العذبة من خلال حديث اوس بن حجر (٦٧) : ألم خيال – موهناً – هدوأ – ألم منها –

٢ – الموسيقى: لاتنحصر الموسيقى في العمل الشعري في هذا الوزن العروضي الذي تعارفنا على ضرورة توافره في كل قصيدة. وانما يتعدى مفهوم الموسيقى هذا الجانب الى جوانب اخرى تتمثل في الانسجام الكائن بين حروف الالفاظ عموماً وبين الالفاظ نفسها ثم بين التراكيب التي تؤلف البيت او المقطع. فهذا الايقاع الذي نتمثله من خلال قراءتنا لبيت او لمقطع انما هو «ذلك الخليط من التوقع والارضاء والدهشة وخيبة الامل الذي ينشأ عن تتابع المقاطع والحركات ولا يصل صوت الكلمات الى اقوى مفعول له إلا خلال الايقاع » (٦٨)

وحري بالإشارة ايضاً الى « ان التجربة الفنية المعقدة في العمل الادبي كثيراً ماتقرر الطريقة التي تتراءا بها الكلمات وتدفع الشاعر الى الضغط على موسيقى وايقاعات حروف معينة بالذات تتدافع في مخيلة الشاعر لتشكل المفردات المعبرة عن الواقع النفسي له من خلال معاناة التجربة » (٦٩)

ومن هنا نريد ان نقف على طبيعة الإيقاع الموسيقي التي وافت في ضوئها ألفاظ الرهبة والألفة وتراكيبها. ومدى اتساق هذا الايقاع مع عنصر الليل.

يحس القارىء لشعر الرهبة بضخامة الأداء تنبثق من خلال الالفاظ والتراكيب وأصداء ايقاعية تتناسب مع الجو النفسي الذي يرسم الشاعر خطوطه العريضة.

(٦٦) ينظر الهامش ٤٤

(٦٧) ينظر الهامش ٤٩

(٦٨) النقد النفسي عند إ. أ. ريتشاردز ص ١٣٣

(٦٩) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ٣٠؛

فتتداخل الحروف المجهورة تدخلاً حاسماً في احاطة الليل بتلك الاصداء الضخمة التي تتناهى الينا من خلال الليل. فيزداد الشعور بوحشة هذا الليل ورهبته من امثال: دوية — طال — تهالك — قطعت — عيهمة — نار — ترقاء . البوم — النواقس — دبت — ظلماته — حصينة اعاليها — تجاوزته — مدلهمة — أهم — نكس — عظيم — اجتاز — اعبس — تنائفهُ — هاجرة — هام الرجال الصمائح — يقبض الطرف — البيداء — اطوي — معتكر — مزؤودة — الهموم — مصامها — اقاسيه — تضاعف — تقاعس — قرّبا — واعتكر — جشر .

تمتلك هذه الألفاظ قدراً وافياً من قوة الأداء والموسيقية المتوائمة مع جو الرهبة التي يعمقها الليل فيتضاعف الشعور بأن الأمر على غاية من الأهمية.

ومما يحس به القارىء أن الأبيات غالباً ماتكون على صورة تراكيب مجزأة تحدث في اثناء القراءة ايقاعاً واضح الأصداء. وهذه التراكيب المجزأة تتفاوت طولا وقصراً، فأحياناً تجدها مبنية على لفظة واحدة . واخرى على اكثر من لفظة، واحياناً على شطر من بيت. وقلما يتجاوز ذلك الى الشطر الثاني . .

ودوية غبراء / قد طال عهدها / تهالك فيها الورد / والمرء ناعس /
قطعت الى معروفها / منكراتها / بعيهمة / تنسل / والليل دامس /
تركت بها / ليلاً طويلاً / ومنزلاً / وموقد نار / لم ترمه القوابس/(٧٠)

° °°

وبلدة / مثل ظهر الترس / موحشة/ للجن بالليل / في حافاتها زجل/
لا يتنمى لها / بالقيظ يركبها / الا الذين لهم فيما اتوا / مهل/

وصحابة / شم الانوف/ بعثتهم/ ليلاً /وقد طال الكرى / بطلاها /
وسريت في وعث الظلام/اقودهم/ حتى رأيت الشمس زال ضحاها /

°° °°

(٧٠) هذه الخطوط تشير إلى الايقاعات المختلفة في داخل البيت

اطوى فيافى الفلا / والليل معتكر / واقطع البيد / والرمضاء تستعر /
ولا أرى مؤنساً / غير الحسام / وان قل الاعادي/غداة الروع/أو كثروا/

ومما ينبغي التنويه به أن هذه التقسيمات الايقاعية تأتي لتخدم لوحة الليل وتضفي عليها جواً مشحوناً بالرهبة والتوجس والترقب ، وكأنها ضربات متوالية منغمة تتناهى الى الأسماع من خلال الليل الساجي الهادىء. فيبعث في النفوس رهبة تزيل الإحساس بسجوه وهدوئه ... هذه الايقاعات المتوالية تصور انفاساً لاهثة تقطعت من هول الموقف وشدة الحركة وعنف التصدي والاجتياز. وهذا ينسجم مع الليل اكثر من أي ظرف زماني آخر .

ترى ماذا سيمدنا به شعر الالفة من الألفاظ والتراكيب التي تعمق احساسنا بجمال الليل وهدوئه وسكونه لتزداد مع الشاعر متعة وألفة وبهجة .
إن الأصداء الضخمة العنيفة تكاد تختفي من خلال مابين ايدينا من نصوص. فالحروف الهامسة الرقيقة تشكل اجزاء اللوحة الليلية ، وترسم ابعاد الجو الذي ينشد الشاعر في ظلاله الالفة والسكينة :
نأتلك – خيالا – يوافي – ميعادها – الصبح – زيالا – ودها – لم تواتِ – نوالا – شجاني – ديار – يدعوني – الهوى – اهوى – روان .
الهو – لذ – خير – باذل – بيضاء – صبوة – يرنو – تصبي – الحليم – دنا – الرجع – تفاتل – سرى – هجور – حائل – ارقب – هزلت – مستهام – تغني – تستبيك – رضاب – مدام – موهناً – هدوأ – مبيت .
إن طبيعة هذه الالفاظ تأبى ان ترتفع بها نبرة الصوت عند الانشاد . فهي الى الهدوء والمناجاة أقرب . ومن خلال ذلك تتجلى ملامح الألفة تحت استار الليل الوادع السمح .

ويرى ريتشاردز ان الايقاع – والوزن نوع منه – ليست وظيفته الحقيقية في الشعر التلاعب اللفظي او التتابع الصوتي وانما وظيفته الحقيقية تنحصر في انه يعكس شخصية الشاعر ويصور انفعاله تصويراً صادقاً (٧١) .

والتركيب في شعر الليل هي الاخرى تأتي منسابة دون ان يقطع اوصالها لهاث المتعب الخائف . والأصداء متوزعة بشكل متناسب تنبىء بامتلاك الوعي . وهدوء النفس وانسيابها مع العالم الودود الرفيق ... وعودة الى قراءة نماذج الألفة تقفنا على هذه الظاهرة الفنية المتميزة ، التي تتوالى فيها التراكيب لتضفي على الأرحة الليلية قدراً وافراً من المدلول الرقيق والمسحة الأليفة .

الصورة :

لم يكـن الليل عنـد الشاعر الجاهـلي مجرد وعـاء زمني للاحـداث بل كان جزءاً فعالاً متسماً بالحيوية والحركة . ومن خلاله تتجسد ملامح الرهبة والالفة . بحيث لو انسحب الليل من حركة الاحداث لما كان الاحساس بهذه الملامح إلا واهناً غير ذي اثر في النفس . ولذلك كان الليل صورة نفسية تنبض بالحياة ،إن من مظاهر الصورة الليلية أنها تمثل الحركة والتدافع سواء على الصعيد الواقعي او الصعيد النفسي . وقد تبدو براعة الشاعر في إحداث الصلة الوثيقة بين عالم الواقع الخارجي وبين عالم النفس الداخلي ... ومن هنا نحس بالانسجام في صوره التي تعرض الرهبة تارة، والالفة تارة اخرى على نحو يميز جواً عن آخر مغاير .

ومن معالم الرهبة تلك الدوية الغبراء التي سالكها المرقش في الليل الدامس ، اية وحشة توحي بها . وأية اشارة حذر تقف على مفترق الطريق ..

وليل الاعشى يشبه بيوتاً حصينة ، وليل عنترة يقبض الطرف من شدة ظلامه ؛ وفي صورة اخرى لعنترة يبدو الليل معتكراً ؛ اي انه يمعن في تلوين

---

(٧١) مبادىء النقد الأدبي ص ١٩٤ – ١٩٥

ملامحه بسواد اشد عمقاً . وتأكيد عنترة على صور السواد انما ينبعث من شعور خاص بلونه الذي يعكر عليه حياته كالليل الذي يبدو له وهو في اشد حالات اعتكاره .

اما الأسود الجعفي فليلته مشحونة بالفزع والرعب . فهي ليلة مزؤودة مدلهمة ... وأجمل مايبدو لنا ان الليل هو الخائف المرتعد ... وهنا تصل براعة الشاعر ذروتها في إحداث نوع من التوحد بين الشاعر والليل . حين اضفى شيئاً من مشاعره المضطربة المفزوعة على صفحات الليل .

وامرؤ القيس من شدة ما ألمّ به من هواجس وهموم يستحيل الليل عنده موجاً متلاطماً . او حيواناً ضخماً قد يكون من حيوانات بيئته . أو حيواناً أسطورياً متخيلاً .

والليل عند امريء القيس تارة أخرى يتطاول . وكأنه كائن بوسعه أن يتطاول أو يتقاصر متى شاء وكيفما شاء.

وفي صورة أخرى يقرنه بليل شديد الوقع .وهو ليل المصاب في عينه . المتألم من وجع بها .

وليل النابغة بطيء الكواكب. وفي صورة أخرى هو الآخر كائن حي يتقاعس ويتكاسل فلا يريم عن موقعه .

وتتكرر صورة الكائن الحي في شخص الليل عند الحارث بن عباد . حين يقول :-

طال ليلي

من خلال احساس نفسي عام يعتري الشعراء فيوحي اليهم ان الليل هو الذي يتحكم ويتصرف : يطول تارة ويقصر أخرى .

وعدي بن زيد هو الآخر يعطي لليل هذا الملمح الحي من خلال قوله: طال ذا الليل علينا واعتكر.

أما في صورة الالفة فنحس بالانسجام الودود بين الليل وبقية عناصر

الصورة . فعمرو بن قميئة يرسم صورة الليل تتهادى فيها الهمسات الرقيقة . من خلال الموعد الموافي والخيال المقبل .

وعند امرىء القيس يقترن الليل بصورة حية من صور الهوى والشوق حين يتحاور صاحبه وإياه . محاورة رقيقة عذبة . حيث يناجيه فيستجيب والعيون تتألق باللهفة والتطلع .

والمزرد يقترن ليله بالدل والصبوات والمشي الهادىء الرقيق .

والليل يضفي على جو الذكريات مسحة من رقة وعذوبة تتألق خلالها مشاعر انسانية شتى .

وعند بشر بن ابي خازم يكون الليل مسرحاً لحركة عاطفية تتهادى فيها الذكريات العذبة .

ومن خلال ذلك كله نجد أن الليل يضفي على الصورة المتكاملة العناصر وشاحاً حبيباً إلى النفس . بتشابك الخيال وصدق المشاعر في خلق لحمته وسداه . حتى تنبثق من اجوائه الحياة الاليفة الناجية بكل أبعادها .

مصادر البحث ومراجعه

١ – الادب وقيم الحياة المعاصرة – د. محمد زكي العشماوي – الدار القومية للطباعة والنشر – الاسكندرية ١٩٦٦

٢ – الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي . د. عادل جاسم البياتي مقال في مجموعة من الابحاث بعنوان « الشعر والمجتمع » قدمت الى المهرجان الثالث للمربد ١٩٧٤ وزارة الاعلام – سلسلة كتاب الجماهير ٢١

٣ – الاصمعيات : ابو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبد الملك – تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون – القاهرة دار المعارف ١٩٥٥ .

٤ – اغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي – د. احمد محمد الحوفي مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨

٥ – امراء الشعر في العصر الجاهلي د. صلاح الدين الهادي ج١ . مكتبة الشباب بمصر ١٩٧٥

٦ – امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة . ايليا حاوي . ط١ دار الثقافة بيروت ١٩٧٠

٧ – تطور الشعر العربي الحديث في العراق – اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج – د. علي عباس علوان . وزارة الاعلام – سلسلة الكتب الحديثة رقم ١٩٧٥/٩١

٨ – الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. احمد محمد الحوفي ط٤ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٦٢

٩ – ديوان امرىء القيس – تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم – ذخائر العرب ٢٤ ط٣ . دار المعارف بمصر ١٩٦٩

١٠ – ديوان اوس بن حجر – تحقيق وشرح محمد يوسف نجم . دار صادر ط٢ / ١٩٦٠

١١ – ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي – تحقيق د. عزة حسن . وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية – احياء التراث القديم ١٩٧٢

١٢ – ديوان شعر المثقب العبدي – تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي – منشورات معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية. ط ١ / ١٩٧١.

١٣ – ديوان عبيد بن الابرص: تحقيق وشرح د. حسين نصار ط ١٩٥٧/١

١٤ – ديوان عدي بن زيد العبادي – تحقيق محمد جبار المعيبد نشرة وزارة الثقافة والارشاد العراقية – سلسلة كتب التراث ٢ مطبعة الجمهورية العراقية بغداد ١٩٦٥

١٥ – ديوان عمرو بن قميئة – تحقيق خليل ابراهيم العطية. وزارة الاعلام – سلسلة كتب التراث ٢٠ / ١٩٧٢

١٦ – ديوان عنترة – تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي – المكتب الاسلامي – دمشق ١٩٧٠

١٧ – ديوان عنترة – دار صادر ١٩٦٦

١٨ – ديوان لبيد بن ربيعة العامري – دار صادر ١٩٦٦

١٩ – ديوان النابغة الذبياني – صنعة ابن السكيت . تحقيق د. شكري فيصل – دار الفكر – دمشق ١٩٦٨

٢٠ – الرحلة في القصيدة الجاهلية – وهب رومية – اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ط ١ / ١٩٧٥

٢١ – شعر الطبيعة في الادب العربي د. سيد نوفل – مطبعة مصر – القاهرة ١٩٤٥ .

٢٢ – شعراء النصرانية قبل الاسلام – ط٢ جمع وتنسيق الاب لويس شيخو اليسوعي -- دار المشرق – بيروت .

٢٣ – الطبيعة في الشعر الجاهلي . د. نوری حمودی القیس . دار الارشاد بيروت ط١ / ١٩٧٠

٢٤ – مبادى النقد الادبي – إ . أ – ريتشاردز .

ترجمة وتقديم مصطفى بدوى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة – القاهرة .

٢٥ – مروج الذهب ومعادن الجوهر – المسعودى ج٢ – تحقيق شارل بلا – منشورات الجامعة اللبنانية . قسم الدراسات التاريخية بيروت ١٩٦٦ .

٢٦ – المفضليات – ابو العباس المفضل بن محمد الضبي – تحقيق احمد محمد شاكر – وعبد السلام هارون – دار المعارف بمصر ط ٢ / ١٩٤٣ .

٢٧ – مقدمة للشعر الجاهلي – يوسف اليوسف – مقالة في مجلة المعرفة السورية العدد ١٢١ ايلول ١٩٧٤

٢٨– النابغة – سياسته وفنه ونفسيته – دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ .